

إحياء علوم الدين

للإمام الغزالي

مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي
وفلسفته في الإحياء

بمعلم

الدكتور بدوي طيبانة

الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

فيها كتب قيمة

مكتبة محمد بن إسماعيل حمزني (المقدمي)

From the Library of
Muhammad T. Hosien

الجزء الرابع

مكتبة وطبعة "كرياطة فوترا" سماراغ

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ »

(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(كتاب التوبة)

(وهو الأول من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب . وبذكرة يصدر كل خطاب . وبعمده يتم أهل النعم في دار الثواب . وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب . وضرب بينهم وبين السمداء بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . وتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ومسبب الأسباب . وزجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب . ونزع الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب . إنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب . ونصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول اللطع يوم العرض والحساب . وتعمد لنا عند الله زلفى وحسن مأب .

أما بعد : فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال العائزين ، وأول إقدام الريدن ، ومفتاح استقامة السائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وما أجدر بالأولاد ، الانتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو إن أذنب آدمى واجترم ، ففى شفتنة يعرفها من أخزم ، ومن أشبه آباء لما ظلم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم ، فليكن التزوع إليه فى كلا طرفى النقي والاثبات والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم سنّ الندم ، وتقدم على ما سبق منه وتقدم . فمن أخذة قدوة فى الذنب دون التوبة قد زلت به القدم ، بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة القربين ، والتجرد للشر دون التلافى سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين . فالتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان . والتجرد للشر شيطان ، والتلاقى للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ، فقد ازدوج فى طينة الانسان شائبتان ، واصطحب فى سجتان ، وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان ، فالتائب قد أقام البرهان ، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الانسان ، والصر على الطيقان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ، فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الامكان ، فإن الشر معجون مع الخير فى طينة آدم محمنا محكما لا يخلصه إلا إحدى النارين

[الباب التاسع والأربعون فى استقبال التهار والأدب فيه والعمل]
قال الله تعالى - وأتم الصلاة طرفى التهار - أجمع المفسرون على أن أحد الطرفين أراد به الفجر وأمر بصلاة الفجر واختلفوا فى الطرف الآخر قال قوم أراد به المغرب وقال آخرون صلاة العشاء وقال قوم صلاة الفجر واظهر طرف وصلاة العصر والمغرب طرف وزلقا من الليل صلاة العشاء ثم إن الله تعالى أخبر عن عظيم بركة الصلاة وشرف فائدتها وثمرتها وقال - إن الحسنات يذهبن

(كتاب التوبة)

نار الندم أو نار جهنم ، فالاحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الانسان من خبائث الشيطان وإليكم الآن اختيار أهون النارين ، والبادرة إلى أخف الشرين ، قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار . إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإذا كانت التوبة موقفا من الدين هذا للوقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وأمراتها والآفات للنافة منها والأدوية اليسرة لها ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان : الركن الأول في نفس التوبة ويان حدها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال وأنها إذا صحت كانت مقبولة . الركن الثاني : فيما عنه التوبة وهو الذنوب ويان انقسامها إلى صفائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى ويان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات ويان الأسباب التي بها تعظم الصفائر . الركن الثالث : في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ماضي من المظالم وكيفية تكفير الذنوب ويان أقسام التائبين في دوام التوبة : الركن الرابع : في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الاصرار من المذنبين ويتم للقصد بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل . الركن الأول : في نفس التوبة .

(بيان حقيقة التوبة وحدها)

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينظم ويلتزم من ثلاثة أمور مرتبة : علم وحال وفعل ، فالعلم الأول والحال الثاني والفعل الثالث والأول موجب للثاني والثاني موجب للثالث إيجابا اقتضاء اطراد سنة الله في الملك والملكوت . أما العلم : فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب فاذا عرف ذلك معرفة عميقة يقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم فان كان فواته بفعله تأسف على الفعل الفوت فيسمى تألمه بسبب فعله الفوت لمحبوبه ندما فاذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعله تعلق بالحال وبالماضي والاستقبال أما تعلقه بالحال فبالتفكير للذنوب الذي كان ملابسا وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنوب الفوت للمحسوب إلى آخر العمر وأما بالماضي فبتلافي مافات بالجبر والقضاء إن كان قليلا للجبر فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الحيرت وأعنى بهذا العلم الايمان واليقين فان الايمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب محوم مهلكة واليقين عبارة عن تأكيد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيشمر نور هذا الايمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر بأشراق نور الايمان أنه صار محجوبا عن محبوبه كمن يشق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى سيرة وقد أشرف على المهلاك فتشتمل نيران الحب في قلبه وتنبث تلك النيران بارادته للانتهاض للتدارك فالعلم والندم والقصد التعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والقدمة والترك كالثمره والتابع المتأخر وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام « الندم توبة (١) » إذ لا يخلو الندم عن علم أو حبه وأمره وعن عزم يابجه ويتلوه فيكون الندم محفوفا بطرفه أعنى ثمرته ومثمره وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ فان هذا يعرض لمجرد الألم ولذلك قيل هو نار في القلب تلتهب وصدع

(١) حديث الندم توبة ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن مسعود ورواه

ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

السيئات أي الصلوات
الحسن يذهب
الخطيئات ، وروى
أن أبا اليسر كتب
ابن عمرو الأنصاري
كان يبيع التمرا فأتت
امرأة تتابع تمرا فقال
لها إن هذا التمرا ليس
بجيد وفي البيت أجود
منه فهل لك فيه رغبة
قالت نعم فذهب بها
إلى بيته فضمها إلى
نفسه وقبلها فقالت له
اتق الله فتركها وندم
ثم أتى النبي عليه
السلام وقال يا رسول
الله ما تقول في رجل
رود امرأة عن نفسها
ولم يبق شيء مما يفعل
الرجال بالنساء إلا
ركبه غير أنه لم يجامعها
قال عمر بن الخطاب

في السكبد لا ينشعب وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء وقال سهل بن عبد الله التستري التوبة تبديل الحركات للذمومة بالحركات الحمودة ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة والأقوال في حدود التوبة لا تنحصر وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قبل في حدودها قاصر عن الاحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بمخاتق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة .

(بيان وجوب التوبة وفضلها)

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار (١) والآيات وهو واضح بنور البصيرة عند من اقتنحت بصيرته وشرح الله بنور الايمان صدره حتى اقتدر على أن يسمى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنيا عن قائد يقوده في كل خطوة .. فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد في خطوه ، وإما بصير يهدي إلى أول الطريق ثم يتهدى بنفسه ، وكذلك الناس في طريق الدين يتقسمون هذا الانقسام .. فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله وربما عوزه ذلك فيتعبر . فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر وخطاه قاصرة ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى إشارة لسلك طريق معصية وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الايمان وهو لشدة نور باطنه يجترى بأدنى بيان فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسه نار فاذا مسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة . فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولا بنور البصيرة إلى التوبة ماهي ثم إلى الوجوب مامناه ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوتها وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ماهو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لو منه بكونه واجبا بمعنى . وقول القائل صار واجبا بالايجاب حديث محض فان مالا غرض لنا آجلا وعاجلا في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به أوجه علينا غيرنا أو لم يوجهه فاذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد وعلم أن لاسعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى وأن كل محبوب عنه يشقى لامحالة محول بينه وبين مايشتهى محترق بنار القراق ونار الجحيم وعلم أنه لا يبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني والا كياب على حب ما لا يد من فراقه قطعا وعلم أنه لا يقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والاقبال بالكلية على الله طلبا للأنس به بدوام ذكره وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم أن الذنوب التي هي إغراض عن الله واتباع لهاب الشياطين أعداء الله للبعدين عن حضرته سبب كونه محبوبا مبعدا عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب وإنما يتم الانصراف بالعلم والتدم والعزم فانه مالم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد وما لم يتوجع فلا يرجع ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب وهكذا يكون الايمان الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا القام للترفع ذروته عن حدود أكثر الخلق في التقليد والاتباع له

لقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك ولم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه شيئا وقال أنتظر أمر ربي وحضرت صلاة العصر وصلى النبي عليه الصلاة والسلام العصر . فلما فرغ أتاه جبريل بهذه الآية فقال النبي عليه الصلاة والسلام : أين أبو اليسر قال هاأنذا يارسول الله قال شهدت منا هذه الصلاة قال نعم قال اذهب فاتها كفارة لما عملت قال عمر يارسول الله هذا له خاصة أولنا عامة ، قال بل للناس عامة فيستمد البعد لصلاة الفجر باستكمال الطهارة قبل طلوع

(١) الأخبار الدالة على وجوب التوبة مسلم من حديث الأغر الزني يأبها الناس توبوا إلى الله الحديث ولا بن ماجه من حديث جابر يأبها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا الحديث وسنده ضعيف .

بحال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين
 فقد قال الله تعالى - وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون - وهذا أمر على العموم
 وقال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً - الآية ومعنى النصوح الخالص لله
 تعالى خالياً عن الشوائب مأخوذ من النصح ويدل على فضل التوبة قوله تعالى - إن الله يحب
 التوابين ويحب المتطهرين - وقال عليه السلام « التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن
 لا ذنب له (١) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل
 في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام فاستيقظ وقد ذهبت
 راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أوامشاه الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه
 فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده لم يموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فأله
 تعالى أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته (٢) » وفي بعض الألفاظ قال من شدة فرحه
 إذا أراد شكر الله : أنا ربك وأنت عبيد . وروى عن الحسن قال لما تاب الله عز وجل على آدم
 عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا يا آدم قررت عينك
 بتوبة الله عليك فقال آدم عليه السلام يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى فأوحى
 الله إليه يا آدم ورثت ذنوبك التعب والنصب وورثت التوبة فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك ومن
 سألني الغفرة لم أبخل عليه لأنى قريب مجيب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين
 ودعاؤهم مستجاب والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى والجماع متفق من الأمة على وجوبها إذ معناه
 العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل في وجوب الإيمان ولكن
 قد تدهش الغفلة عنه فعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها ومن معانيها ترك المعاصي
 في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال وذلك لا يشك
 في وجوبه وأما التندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب وهو روح التوبة وبه تمام التلاقي
 فكيف لا يكون واجبا بل هو نوع ألم يحصل لاجتماع عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع
 في سخط الله . فان قلت تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب .
 فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه وبمثل هذا المعنى دخل العلم
 تحت الوجوب لاجتماع أن العلم يخلق العبد ويحدثه في نفسه فان ذلك محال بل العلم والندم والفعل
 والارادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله - والله خالقكم وماتموا - وهذا هو الحق
 عند ذوى الأبصار وماسوى هذا ضلال . فان قلت أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك قلنا نعم
 وذلك لا يناقض قولنا إن الكل من خلق الله تعالى بل الاختيار أيضاً من خلق الله والعبد مضطر

(١) حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ابن ماجه من حديث ابن مسعود
 بالشرط الثاني دون الأول وأما الشرط الأول فروى ابن أبي الدنيا في التوبة وأبو الشيخ في كتاب
 التواب من حديث أنس بسند ضعيف إن الله يحب الشاب التائب ولعبد الله بن أحمد في زوائد
 المسند وأبي جلى بسند ضعيف من حديث على إن الله يحب العبد المؤمن المفتى التواب (٢) حديث
 الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فلاة دوية مهلكة الحديث متفق عليه من
 حديث ابن مسعود وأنس زاذ مسلم في حديث أنس ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبيد
 وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث
 أبي هريرة مختصراً .

الفجر ويستقبل الفجر
 بتجديد الشهادة كما
 ذكرنا في أول الليل ثم
 يؤذن إن لم يكن أجاب
 للؤذن ثم صلى ركعتي
 النجر يقرأ في الأولى
 بعد الفاتحة قل يا أيها
 الكافرون وفي الثانية
 قل هو الله أحد وإن
 أراد قرأ في الأولى
 - قلوا آمنا بالله
 وما أنزل - الآية في
 سورة البقرة وفي
 الأخرى - ربنا آمنا
 بما أنزلنا واتبعنا
 الرسول - ثم يستغفر
 الله ويسبح الله تعالى
 بما يتيسر له من العدد
 وإن اقتصر على كلمة
 أستغفر الله لذنبي
 سبحان الله بحمد ربى
 آتى بالمقصود من

في الاختيار الذي له فان الله إذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة وخلق الحواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الارادة الباعثة على التناول فأنجزم الارادة بعد تردد الحواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه فاذا حصل انجزم الارادة بخلق الله تعالى إياها تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة إذ بعد تمام الارادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا فتحصل الحركة فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزم الارادة وهما أيضا من خلق الله وانجزم الارادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع وهما أيضا من خلق الله تعالى ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى في خلقه - ولن تجدلنا الله تبديلا - فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة وما لم يخلق فيها حياة وما لم يخلق إرادة مجزومة ولا يخلق الارادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلا في النفس ولا ينبعث هذا الليل انبعثا تاما ما لم يخلق علما بأنه موافق للنفس إما في الحال أوفى المكالم ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم فالعلم والليل الطبيعي أبدا يستتبع الارادة الجازمة والقدرة والارادة أبدأ تستتبع الحركة وهكذا الترتيب في كل فعل والسكل من اختراع الله تعالى ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض فذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض كما لا يخلق الارادة إلا بعد العلم ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ولا يخلق الحياة إلا بعد الجسم فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لأن الحياة تتولده من الجسم ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم لأن العلم يتولد من الحياة ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الارادة لأن العلم يولد الارادة ولكن لا يقبل الارادة إلا جسم حيا عالم ولا يدخل في الوجود إلا يمكن وللإمكان ترتيب لا يقبل التغيير لأن تغييره محال فهما وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب والبدء مجرى هذه الحوادث للربية وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلح البصر ترتيبا كليا لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله تعالى - إنا كل شيء خلقناه بقدر - وعن القضاء الكلي الأزلي العبارة بقوله تعالى - وما أمرنا إلا واحدة كلح بالبصر - وأما المباد فانهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوى جازم في نفسه يسمى القصد وبعد علم بما إليه يميل يسمى الإدراك والمعرفة فاذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحبوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل قد تحركت ورميت وكتبت ونودى من وراء حجاب الغيب وسراقات الملكوت وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وما قتلت إذ قتلت ولكن قاتلهم بمنهم الله بأيديكم وعند هذا تحير عقول القاعدين في مجبوحه عالم الشهادة فمن قائل إنه جبر محض ومن قائل إنه اختراع صرف ومن متوسط مائل إلى أنه كسب ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد منهم من وجهه وأن القصور شامل لجميعهم فلم يدركوا واحد منهم كنه هذا الامر ولم يحط علمه بجوانبه وتمام علمه ينال باشراف النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب

التسبيح والاستغفار.
ثم يقول اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شمل وتلم بها شقي وترد بها الفتن عنى وتصلح بها ديني وتحفظ بها فاني وترفع بها شاهدي وتركي بها عملي وتبيض بها وجهي وتلقني بها رشدي وتصمني بها من كل سوء اللهم أعطني إيمانا صادقا وقيما ليس بسنة كفر ورحمة أنال بها شرف حكرامتك في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك القموز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء

وأنة تعالى - عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول - وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء ومن حرك سلسلة الأسباب والسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناسط سلسلتها بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقيناً لخالقها إلا الله ولا مبدع سواه . فان قلت قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن إصالح ذلك إلى الأفهام بمثال ، فاعلم أن جماعة من العميان قد صموا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى القيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا صموا اسمه فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ونعرفه بالمس الذي قدر عليه فطلبوه فلما وصلوا إليه لمسوه فوق يد بعض العميان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم فقال الذي لمس الرجل إن القيل ماهو إلا مثل اسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألبن منها وقال الذي لمس الشاب ليس كما يقول بل هو صلب لا لبين فيه وأمس لا خشونة فيه وليس في غلط الاسطوانة أصلا بل هو مثل عمود وقال الذي لمس الأذن لعمري هو لبين وفيه خشونة فصدق أحدهما فيه ولكن قالما هو مثل عمود ولا هو مثل اسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذا أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة القيل ولم يخرج واحد في خبره عن وصف القيل ولكنهم بجملتهم قصروا عن الاحاطة بكنه صورة القيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فانه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه وإن كان هذا كلاما يناطح علوم الكاشفة ويعرك أمواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع إلى ما كنا بصدده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة العلم والندم والترك وأن الندم داخل في الوجوب لكونه واقفا في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته للتخلية بينها وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمل .

(بيان أن وجوب التوبة على الفور)

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان وهو واجب على الفور والتفصي عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل السكره فان هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لاتعلق بصنبل بل هي من علوم العمالة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصي عن عهده ما لم يصير باعثا عليه فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان وهو للراد بقوله عليه السلام « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » (١) وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى علوم الكاشفة كالعلم بآفة ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للمقت كما إذا قال الطبيب هذا سم فلأتناوله فاذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن لأن معنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبا وغير مصدق به بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك فان العالم بالسم لا يتناوله أصلا فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ومثاله قول القائل ليس الانسان موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا أعلاها القلب والروح وأدناها إمطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصود الشارب معلوم الأظفار نقي البشرة عن الحبت حتى يتميز عن البهائم الرسالة للوثة بأرواتها المستكرهة الصور بطول محالها وأظلافها وهذا مثال مطابق فالإيمان كالانسان

(١) حديث لابن زني الزاني حين يزني وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبي هريرة .

والنصر على الأعداء
ومراقة الأنبياء اللهم
إني آزل بك حاجتي
وان قصر رأي وضح
عملي واقترت إلى
رحمتك وأسألك
يا قاضي الأمور يا شافي
الصدور كما تجير بين
البحور أن تجيرني من
عذاب السعير ومن
دعوة التبور ومن فتنة
القبور اللهم ما قصر
عنه رأي وضح فيه
عملي ولم تبلغه نيتي
وأمنيتي من خير
ورته أحدا من
عبادك أو خير أنت
معه أحد من خلقك
فأنا راغب إليك فيه
وأسألك إليه يا رب
العالمين . اللهم اجعلنا
هادين مهديين خير

وقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية كفقده الروح والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقود العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فزايده الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأجزاء التي أعدها وتفورها فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المهركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأحوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الحاتمة لآما يدعى بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت وقول العاصي للمطيع إنى مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر أنا شجرة وأنت شجرة وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف فخذ ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع النخلة عن أسباب ثبوت الأشجار : وسوف ترى إذا انجلى الغبار أقرس تحتك أم حمار . وهذا أمر يظهر عند الحاتمة وإنما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعي اللوث ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأفلون فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح التمسك في الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف اللوث بسبب معصيته وأن للوث فالبا لا يقع فجأة فيقال له الصحيح بخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت وكذلك العاصي يخاف سوء الحاتمة ثم إذا ختم له بالسوء واليأذ بالله وجب الخلود في النار فالعاصي للإيمان كالمأ كولات للضرة للأبدان فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد الزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك للعاصي فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا للنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور فالحائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بابطاله واخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافيا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية فتناول موموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر فان الخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم القيم والمملك العظيم وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تصرم أضعاف أعمار الدنيادون عشر عشر مدته إذ ليس لمدته آخر ألبتة فالبدار البدار إلى التوبة قيل أن تعمل موموم الذنوب بروح الإيمان عملا يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتناء فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى - إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أن نذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون - ولا يترك لفظ الإيمان فنقول المراد بالآية الكافر إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون بابا وأن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن فالهجوم عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيوجب في الحاتمة عن الإيمان الذي هو أصل كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيمساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل فلا بقاء للأصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الأصل ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد وهو أن وجود الفرع وبقائه جميعا يستدعي وجود الأصل وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل فكلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل فلا يستغنى أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة

ضالين ولا مضلين حربا
لأعدائك وسلا
لأوليائك نحب بحبك
الناس ونعادي
بسدوتك من خالفك
من خلقك اللهم هذا
الدعاء مني ومنك
الاجابة وهذا الجهد
وعليك التكلان إن الله
وإنما إليه راجعون ولا
حول ولا قوة إلا بالله
المسلى العظيم ذى
الحبل الشديد والأمر
الرشيد أسألك الأمن
يوم الوعيد والجنة
يوم الخلود مع القرين
الشهود والركع السجود
والموفين بالعهود إنك
رحيم ودود وأنت تعمل
ما تريد سبحانه من
تسطف بالعرز وقال به
سبحان من لبس المجد

التابع وعلوم الجامعة إذا لم تكن باعثة على العمل فقدمها خير من وجودها فان هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ولذلك يزداد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم .

(بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة)

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى - وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون - فعمم الخطاب . ونور البصيرة أيضا يرشد إليه إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق للبعد عن الله للتقرب إلى الشيطان ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والنصب وسائر الصفات للمذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين وأصله إنما يتم عند مراعاة البلوغ ومبادئه تظهر بعد سبع سنين والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان فالطارد بينهما كالطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ومهما غلب أحدهما أزهج الآخر بالضرورة. وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على السكان ووقع للقلب به أنس وإلف لاعمال مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويسر عليه الزرع عنه ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئا فشيئا على التدرج فان لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز العين وموعده حيث قال - لأحتسكن ذريته لإتليلا - وإن كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات والامتناع للتوبة إلا هذا وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيته الشيطان إلى طريق الله تعالى وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدوة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدوة الملائكة فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل إنسان نبيا كان أو غيبيا فلا تظن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام وقد قيل :

فلا تحسبن هندا لها القدر وحدها سجية نفس كل غائبة هند

بل هو حكم أزل مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه ما لم تبدل السنة الالهية التي لا مطلق في تبدلها فاذن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره فاذا بلغ مسلما تابا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفائه بتفهم معنى الإسلام فانه لا يفي عنه إسلام أبويه شيئا ما لم يسلم بنفسه فان فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في النع والاطلاق والانتكالك والاسترسال وهو من أشق أبواب التوبة وفيه هلك الأكترون إذ هزوا عنه وكل هذا رجوع وتوبة فدل على أن التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر كالم يستغنى آدم خلقه الولد لا يتسع لما يتسع له خلقه الوالد أصلا، وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكأهم على خطاياهم فان خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن المهم بالنوب بالقلب فان خلا في بعض الأحوال عن المهم فلا يخلو عن وسوس الشيطان بإيراد الحواطر المنفرقة المذهلة عن ذكر الله فان خلا عنه فلا يخلو عن عقله وتصوير العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نفس وله أسباب وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده وللراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو في حق آدمي عن هذا النفس وإنما يتفاوتون

وتكرم به سبحانه الذي لا ينفي التسييح لإله سبحانه ذي الفضل والنعم سبحانه ذي الجود والكرم سبحانه الذي أحصى كل شيء بعلمه اللهم اجعل لي نورا في قلبي ونورا في قبري ونورا في صمعي ونورا في بصري ونورا في شمعي ونورا في لحمي ونورا في دمي ونورا في عظامي ونورا من بين يدي ونورا من خافي ونورا عن يميني ونورا عن شمالي ونورا من فوقي ونورا من تحتي اللهم زدني نورا وأعطني نورا واجعل لي نورا. ولهذا الدعاء أثر كثير وما رأيت

في القادير فأما الأصل فلا بد منه ، ولهذا قال عليه السلام «إِنَّهُ لِيَنانَ عَلَيَّ قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي
اليوم واللييلة سبعين مرة» (١) الحديث ، ولذلك أكرمهُ اللهُ تعالى بأن قال - ليغفر لك اللهُ ما تقدم
من ذنبك وما تأخر - وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره . فان قلت لا يخفى أن ما يطرأ على القلب
من المهوم والحواطر تقص وأن الكمال في الخلو عنه وأن التصور عن معرفة كنه جلال الله تقص
وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب نقصان رجوع والرجوع
توبة ولكن هذه فضائل لا فرائض وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال والتوبة عن هذه
الأمر ليست بواجبة إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع فالمراد بقولك التوبة واجبة في كل حال .
فاعلم أنه قد سبق أن الانسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا وليس معنى التوبة تركها
فقط بل تمام التوبة بتدريك ماضى وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن
نفس الانسان ظلمة إلى وجه المرأة الصقيلة فان تراكت ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس
في وجه المرأة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى - كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون - فاذا تراكم
الرين صار طبعا فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد
وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ولا يمكن في تدارك اتباع الشهوات تركها
في المستقبل بل لا بد من نحو تلك الأريان التي انطبعت في القلب كما لا يمكن في ظهور الصور في المرأة
قطع الأنفاس والبخارات السوداء لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبعت فيها من الأريان وكما
يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتتمحى
ظلمة العصية بنور الطاعة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «أتبع السيئة الحسنة تمحها» (٢) فاذن
لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن نحو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار
تلك السيئات . هذا في قلب حصل أو لا صفاؤه وجلأؤه ثم أظلم بأسباب عارضة فأما التصقل الأول ففيه
يطول الصقل إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصدأ عن المرأة كشغله في عمل أصل المرأة فهذه أشغال
طويلة لا تنقطع أصلا وكل ذلك يرجع إلى التوبة ، فأما قولك إن هذا لا يسمى واجبا بل هو فضل وطلب
كمال . فاعلم أن الواجب له معنيان : أحدهما ما يدخل في قنوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو
القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حتى تقاته اتركوا
العائش ورفضوا الدنيا بالسكينة ثم يؤدي ذلك إلى بطلان التقوى بالسكينة فانه مما فسدت المعاش لم
يتفرغ أحد للتقوى بل شغل الحياة والحراثة والحرب يستغرق جميع العمر من كل واحدا فاحتاج
إليه لجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار والواجب الثاني هو الذي لا بد منه للوصول به
إلى القرب المطلوب من رب العالمين والقام المحمود بين الصديقين والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة
في الوصول إليه كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع أي لمن يريد بها فانه لا يتوصل إليها إلا بها
فأما من رضى بالنقصان والحمران عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها كما يقال
العين والأذن واليد والرجل شرط في جود الانسان يعني أنه شرط لمن يريد أن يكون إنسانا كاملا

أحدا حافظ عليه
إلا وعنده خير ظاهر
وبركه وهو من وصية
الصادقين بعضهم بعضا
محفظه والمحافظة عليه
منقول عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه
كان يقرؤه بين الفريضة
والسنة من صلاة
الفجر ثم يقصد المسجد
للصلاة في الجماعة
ويقول عند خروجه
من منزله : - وقل رب
أدخلني مدخل صدق
وأخرجني مخرج صدق
واجعل لي من لذك
سلطانا نصيرا - ويقول
في الطريق : اللهم إني
أسألك بحق السائلين
عليك وبحق عمشى
هذا إليك لم أخرج
أشرا ولا بطرا ولا رياء

(١) حديث إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم واللييلة سبعين مرة مسلم من حديث الأغر المزني
لأنه قال في اليوم مائة مرة وكذا عند أبي داود والبخاري من حديث أبي هريرة إني لأستغفر الله
في اليوم أكثر من سبعين مرة وفي رواية البيهقي في الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقدم في الأذكار
والدعوات (٢) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها الترمذي من حديث أبي ذر زيادة في أوله وآخره
وقال حسن صحيح وقد تقدم في رياضة النفس .

يبتغى بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا فأما من قنع بأصل الحياة ورضى أن يكون
كلحم طى وضم وتكررة مطروحة فليس يشترط لكل هذه الحياة عين ويد ورجل فأصل الواجبات
الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة وأصل النجاة كأصل الحياة وما وراء أصل النجاة
من السعادات التي بها تنتهى الحياة يجرى مجرى الأعضاء والآلات التي بها تهتم الحياة وفيه سعى الأنبياء
والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل وعليه كان حرصهم وحواليه كان تطوافهم ولأجله كان رفضهم لملاذ
الدنيا بالكلية حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرا في منامه فجاء إليه الشيطان وقال
أما كنت تركت الدنيا للآخرة فقال نعم وما الذى حدث فقال توسدك لهذا الحجر تنم في الدنيا فلم
لاتضع رأسك على الأرض فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض وكان رميه بالحجر
توبة عن ذلك التعم ، أقرى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى
واجبا في فتاوى العامة . أقرى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب القدي كان عليه علم
في صلاته حتى نزع (١) وشغله شرك نعله الذي جده حتى أعاد الشرك الخلق (٢) لم يعلم أن ذلك
ليس واجبا في شرعه الذى شرعه لكافة عباده فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لأنه
رآه مؤثرا في قلبه آرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذى قد وعد به ، أقرى أن الصديق رضى الله
عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه طى غير وجهه أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج مع روجه
ما علم من الفقه هذا القدر وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراج
فلم تاب عن شربه بالتدارك طى حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره
عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون فتأمل
أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله وإياك مرة
واحدة أن تترك الحياة الدنيا وإياك ثم إياك ألف مرة أن يترك بالله الغرور ، فهذه أسرار من
استشقى مبادئ روائعها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل
نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة ، ولقد صدق أبو سليمان
الدارانى حيث قال لو لم يك الماقل فيما بقي من عمره إلا طى فتويت ماضى منه في غير الطاعة لكان
خليقا أن يهزئه ذلك إلى المات ، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بثل ماضى من جهله وإنما
قال هذا لأن الماقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بقير فائدة بكى عليها لاجمالة وإن ضاعت
منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة
لاخلف لها ولا بدل منها فانها سالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد وأى جوهرة
أنتس من هذا فاذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا وإن صرفتها إلى مصيبة فقد هلك
هلاكا فاحشا ، فان كنت لا تبكى طى هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك أعظم من كل
مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف الصاب بها أنه صاحب مصيبة فان نوم الغفلة يحول بينه وبين
معرفة الناس نيام فاذا ماتوا اتبوا فسد ذلك ينكشف لكل مفلس إفلامه ولكل مصاب مصيبتة
وقد رفع الناس عن التدارك . قال بعض العارفين : إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه
أنه قد بقي من عمره ساعة وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الأسف والحسرة
مالو كانت له الدنيا بخذافيرها لخرج منها طى أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستتب فيها

(١) حديث نزع صلى الله عليه وسلم الثوب الذى كان عليه في الصلاة تقدم في الصلاة أيضا (٢) حديث نزع الشرك الجديد وإعادة الشرك الخلق تقدم في الصلاة أيضا .

ولا صمعة خرجت انقاء
سخطك وابتغاء
مرضاتك أسألك أن
تنقذنى من النار
وأن تغفر لى ذنوبى
إنه لا يضر الذنوب إلا
أنت . وروى أبو سعيد
الخدري أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال
« من قال ذلك إذا
خرج إلى الصلاة وكل
الله به سبعين ألف
ملك يستغفرون له
وأقبل الله تعالى عليه
بوجهه الكريم حتى
يقضى صلاته » وإذا
دخل المسجد أو دخل
مجاذته للصلاة يقول:
بسم الله والحمد لله
والصلاة والسلام على
رسول الله اللهم اغفر
لى ذنوبى واتق لى

ويتدارك تفریطه فلا يجد إليه سبيلا وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى - وحيل بينهم وبين ما يشتهون - وإليه الإشارة بقوله تعالى - من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها - فقيل الأجل القريب الذي يطلبه معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد يملك الموت أخرني يوما أعتذرفيه إلى ربي وأتوب وأزود صالحا لنفسي فيقول فنيب الأيام فلا يوم فيقول فأخرني ساعة فيقول فنيب الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيتفرغ بروحه وتردد أنفاسه في شر أسفه ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة، ولعل هذا يقال - وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني نبت الآن - وقوله - إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب - ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ولذلك قال لقمان لابنه يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة ، ومن ترك الباردة إلى التوبة بالتسوية كان بين خطريين عظيمين : أحدهما أن تراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعها فلا يقبل المحو . الثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ، ولذلك ورد في الخبر « إن أكثر صياح أهل النار من التسوية (١) » فما هلك من هلك إلا بالتسوية فيكون تسويده القلب قد أوجلاه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم ولا ينجو إلا من آتى الله بقلب سليم ، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة فمن خان في الأمانة ولم يتدارك حياته فأمره مخطر . قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرها إليه على سبيل الإلهام : أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له عبدي قد أخرجتكم إلى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك واتممتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلى كيف تلقاني . والثاني عند خروج روحه يقول عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب وإليه الإشارة بقوله تعالى - أو فواجبهدي أوف بهمكم - وقوله تعالى - والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون - .

(بيان أن التوبة إذا استجدمت شرائطها فهي مقبولة لا محالة)

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتمم في الآخرة في جوار الله تعالى ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعلوا أن القلب خلق سليما في الأصل وكل مولود يولد على الفطرة وإنما فطوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غيرة الذنوب وظلمتها ، وعلوا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة وأن نور الحسنه يحو عن وجه القلب ظلمة السيئة وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كالأطعمة للليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره ، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الحسنية بوسخ الثوب وغسله

(١) حديث إن أكثر صياح أهل النار من التسوية لم أجده أصلا .

أبواب رحمتك ويقدم
رجله الخبي في الدخول
واليسرى في الخروج
من المسجد أو السجادة
فسجادة الصوف بمنزلة
البيت والمسجد ثم يصل
صلاة الصبح في جماعة
فاذا سلم يقول : لا إله
إلا الله وحده لا شريك
له ، له الملك وله الحمد
يحيي ويميت وهو حي
لا يموت بيده الخير
وهو على كل شيء مقدير
لا إله إلا الله وحده
صدق وعده ونصر
عبده وأعز جنده
وهزم الأحزاب وحده
لا إله إلا الله أهل النعمة
والفضل والثناء الحسن
لا إله إلا الله ولا نعبد
إلا إياه مخلصين له الدين
ولو كره الكافرون
ويقراً هو الله الذي

بالصابون والصابون الحار ينظفه لاحتالة استعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الديموع وحرقة الندم ينظفه ويظهره ويذكره ، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فانما عليك التزكية والتطهير . وأما القبول فيذول قد سبق به القضاء الأزل الذي لا مرد له وهو للمسمى فلاحا في قوله - قد أفلح من زكاهها - ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من للشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثرا متضادا يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهد ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يتصور الجمع بينهما فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماءه وقلبه في غطاء كيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعنى بقلبه إذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه ، فمن يتوم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول والثوب ينسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يعرض الوسخ لطول تراكمه في تجاوبف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه فمثال ذلك أن تراكم الذنوب حتى تصير طبما وربنا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب ، ثم قد يقول باللسان ثبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلاما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاف الوصف التمكن به فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق القليلين على الدنيا المرغبين عن الله بالكيفية فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة ولكننا نمضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به وقد قال تعالى - وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويفوعن السيئات - وقال تعالى - غافر الذنب وقابل التوب - إلى غير ذلك من الآيات . وقال صلى الله عليه وسلم « لله أفرح بتوبة أحدكم » الحديث والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسئء الليل إلى النهار وإلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها (١) » . وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل وقال صلى الله عليه وسلم « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم (٢) » وقال أيضا « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة فقيل كيف ذلك يارسول الله قال يكون نصب عينه ثابتا منه فإرا حتى يدخل الجنة (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « كفارة الذنب الندامة (٤) » . وقال صلى الله عليه وسلم « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

(١) حديث إن الله يبسط يده بالتوبة لمسئء الليل إلى النهار الحديث مسلم من حديث أبي موسى بنظ يبسط يده بالليل ليتوب مسئء النهار الحديث ، وفي رواية للطبراني لمسئء الليل أن يتوب بالنهار الحديث (٢) حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم ابن ماجه من حديث أبي هريرة وإسناده حسن بلفظ لو أخطأتم وقال ثم تبتم (٣) حديث إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة الحديث ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسله وأبى نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له الحديث وفيه صالح المري ، وهو رجل صالح لكنه مضعف في الحديث ولابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عمر إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه والحديث غير محفوظ قاله العقيلي (٤) حديث كفارة الذنب الندامة أحمد والطبراني وهق في الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمرو بن مالك البشكري ضعيف .

لا إله إلا هو الرحمن
الرحيم التسعة
والتسعين اسما إلى
آخرها فإذا فرغ منها
يقول : اللهم صل
على محمد ورسولك النبي
الأمرى وعلى آل محمد
صلاة تكون لهم رضاء
ولحمه أداء وأعطه
الوسيلة والمقام المحمود
الذي وعدته وأجزه
عنا ما هو أهل وأجزه
عنا أفضل ما جازيت
نيا عن أمته وصل
على جميع إخوانه من
النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين .
اللهم صل على محمد
في الأولين وصل على
محمد في الآخرين وصل
على محمد إلى يوم الدين
اللهم صل على روح

ويروى « أن حبشيا قال يارسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال نعم فولى ثم رجع فقال يارسول الله أكان يراني وأنا أعملها قال نعم فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه^(١) » ويروى أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا حجت عنه التوبة مادام الروح فيه^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ^(٣) » والأخبار في هذا لأقصى . وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى - إنه كان للأوابين غفورا - في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل قال الله تعالى : بشر للذين بأنهم إن تابوا قبلت منهم وحذر الصديقين أي إن وضعت عليهم عدلي عذبهم وقال طلق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها المبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسا تائبين . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه بحيث عنه في أم الكتاب . ويروى أن نبيامن أنبياء بني إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه وعزتي لئن عدت لأعذبك فقال يارب أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تصحني لأعودن فصصه الله تعالى وقال بعضهم إن البصد ليذنب الذنب فلا يزال ناديا حتى يدخل الجنة فيقول إبليس ليتني لم أوقعه في الذنب وقال حبيب بن ثابت تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول أما إني قد كنت مشفقا منه قال فيغفر له . ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينه تدر فان فقال له إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فان عليه ملكا موكلا به لا يفلق فاعمل ولا تيأس . وقال عبد الرحمن بن أبي قاسم تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى - إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف - فقال إني لأرجو أن يكون السلم عند الله أحسن حالا ولقد بلغني أن توبة السلم كإسلام بعد إسلام . وقال عبد الله بن سلام لأحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل إن البصد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين . وقال عمر رضى الله عنه اجلسوا إلى التوابين فانهم أرق أفئدة وقال بعضهم أنا أعلم متى يخفر الله لي قيل ومتى قال إذا تاب على وقال آخر أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المنفرة أي المنفرة من لوازم التوبة وتوابها لا محالة ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عساه عشرين سنة ثم نظر في المرآة فرى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فان رجعت إليك أتقبلني فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا أحببتنا فأحببتنا وتركنا فتركناك وعصيتنا فأهملناك وإن رجعت إلينا قبلناك . وقال ذو النون للصري رحمه الله تعالى إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب رواق القلوب وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا فجنوا من غير

محمد في الأرواح وصل
على جسد محمد
في الأجساد واجمل
شرائط صلواتك
ونواي برحمتك
ورأفتك ورحمتك
وتحيتك ورضوانك
على محمد عبدك
ونبيك ورسولك اللهم
أنت السلام ومنك
السلام وإليك يعود
السلام فغنا ربنا
بالسلام وأدخلنا دار
السلام تباركت يا ذا
الجلال والاکرام
اللهم إني أصبحت
لأستطيع دفع ما أكره
ولا أملك قمع ما أرجو
وأصبح الأمر بيد
غيري وأصبحت حرتها
بمولى فلا قصر أقر
منى اللهم لا تشمت بي

(١) حديث أن حبشيا قال يارسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال نعم الحديث لم أجده أصلا (٢) حديث إن الله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح الحديث أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد أن الشيطان قال وعزتك يارب لا أزال أغوى عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم فقال وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني أوردته للصف بصيغة ويروى كذا ولم يزه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فدكرته احتياطا (٣) حديث إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو بمعنى أتبع السيئة الحسنة تمحها رواه الترمذي وتقدم قريبا .

جنون وتبلهوا من غير عى ولا بكم وإنما هم البلاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ثم توطئت قلوبهم في اللسكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقرءوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلوا خشونة للضجع حتى ظفروا بعجل النجاة وعروة السلامة وسرحت أرواحهم في الملا حتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة ورددوا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعادن العز والكرامة فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لامحالة . فان قلت أقول ما قالته العزلة من أن قبول التوبة واجب على الله . فأقول لا أعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريد القائل بقوله إن التوب إذا غسل بالعابون وجب زوال الوسخ وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش وإنه إذا منع الماء مدة وجب العطش وإنه إذا دام العطش وجب الموت وليس في شيء من ذلك ما يريد العزلة بالإيجاب على الله تعالى . بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكرمة للصحة والحسنة ماحية للسيئة كما خلق الماء مزيلاً للعطش والقدرة متممة بخلافه لوسبقت به للشيئة فلا واجب على الله تعالى ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لامحالة . فان قلت فما من تأمب إلا وهو شاك في قبول توبته والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه . فأقول شكك في القبول شكك في وجود شرائط الصحة فان للتوبة أركاناً وشروطاً دقيقة كما سيأتي وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للإسهال في أنه هل سهل وذلك لشكك في حصول شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لامحالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى .

(الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغارها وكبارها)

اعلم أن التوبة ترك الذنوب ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجبا فمعرفة الذنوب إذن واجبة والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من أولها إلى آخرها وليس ذلك من غرضنا ولكننا نشير إلى مجامعها وروابط أسماها والله الوفق للصواب برحمته

(بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد)

اعلم أن للإنسان أوصافاً وأخلاقاً كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب مجانب القلب وغوائله ولكن تنحصر مئارات الذنوب في أربع صفات صفات ربوية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية وذلك لأن طينة الإنسان مجتمت من أخلاط مختلفة فانتضى كل واحد من الأخلاط في المبعون منه أثاراً من الأثار كما ينتضى السكر والحل والزعفران في السكبيبين آثاراً مختلفة . فأما ما ينتضى الزرع إلى الصفات الربوية فنل السكر والحل والزعفران والجبرية وجب للذبح والثناء والمز والنبي وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى وهذا يقتضب منه جملة من كبار الذنوب غفل عنها الخلق ولم يسدّها ذنوباً وهي للهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر المعاصي كما استقصيناها في ربيع للهلكات . الثانية هي الصفة الشيطانية التي منها يقتضب الحسد والبغى والحيلة والخذاع والأمر بالفساد والنكر وفيه يدخل النش والنفاق والدعوة إلى

عدوى ولا تسمى بي صديق ولا تجعل مصيبي في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا تسلط على من لا يرعنى اللهم هذا خلق جديد فاتحه على بطاعتك واختمه لي بمغفرتك ورضوانك وارزقني فيه حسنة تغلبها مني وزككها وضعفها وما علمت فيه من سيئة فاغفر لي إنك غفور رحيم ودود رضيت بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً اللهم إني أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه وأعوذ بك من شر

البدع والضلال . الثالثة الصفة البيهية ومنها يتشعب الشره والسكب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات . الرابعة الصفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ويترفع عنها حمل من الذنوب وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة فالصفة البيهية هي التي تغلب أولاً ثم تلاوها الصفة السبعية ثانياً ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الحداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق فهذه أمهات الذنوب ومنها بهائم تنفجر الذنوب من هذه النابع على الجوارح فيضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإظهار السوء للناس وبعضها على العين والسمع وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فانه واضح . قسمة ثانية : اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين المبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بحقوق العباد فما يتعلق بالعباد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بحقوق العباد كترك الزكاة وقله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراس وكل تناول من حق الغير فاما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه وتناول الدين بالاغواء والبدعة والترغيب في المعاصي وتهيج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعل بعض الوعاظ يتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركا فالعفو فيه أرجى وأقرب وقد جاء في الخبر «الدواوين ثلاثة ديوان يغفر ديوان لا يغفر ديوان لا يترك فالديوان الذي يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى وأما الديوان الذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى وأما الديوان الذي لا يترك فالظالم العباد (١) » أي لا بد وأن يطالب بها حتى يعنى عنها : قسمة ثالثة : اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغار وكبار وقد كثر اختلاف الناس فيها فقال قائلون لاصغرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا ضعيف إذ قال تعالى - إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما - وقال تعالى - الذين يجتنبون كبار الإثم والفواحش إلا اللغو - وقال عليه السلام «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرون ما بينهن إن اجتنبت الكبائر (٢)» وفي لفظ آخر «كفارات ما بينهن إلا الكبائر» وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص «الكبائر الإثم بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين القموس (٣)» واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة لما فوق ذلك فقال ابن مسعود «أربع وقال ابن عمر «سبع وقال عبد الله بن عمرو «هن تسع وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول «هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع وقال مرة كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر وقال بعض السلف كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة وقيل إنها مبهمة لا يعرف عددها كلية القدر وساعة يوم الجمعة . وقال ابن مسعود لما سئل عنها أقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله - إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه - فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب للسكي

طوارق الليل والنهار
ومن بنتت الأمور
وجفاء الأقدار ومن
شرك كل طارق يطرق
إلا طارقا يطرق منك
بخير يارحم الدنيا
والآخرة ورحيمها
وأعوذ بك أن أزل
أوزاء أو أضل أو أضل
أو أضل أو أضل أو أضل
أو يجهل على عز جارك
وجل ثناؤك وتقدست
أسمائك وعظمت
نعاؤك أعوذ بك من
شرب ما يلبغ في الأرض
وما يخرج منها وما ينزل
من السماء وما يجرح فيها
أعوذ بك من حسنة
الحرص وشدة الطمع
وسورة الغضب وسنة
الظلمة وطماع الكلفة
اللهم إني أعوذ من

(١) حديث الدواوين ثلاثة ديوان يغفر الحديث أحمد والحاكم ومصححه من حديث عائشة وفيه صدقة بن موسى الدقيقي ضعفه ابن معين وغيره وله شاهد من حديث سلمان ورواه الطبراني (٢) حديث الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفرون ما بينهن إن اجتنبت الكبائر مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث عبد الله بن عمرو بن العاص «الكبائر الإثم بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين القموس رواه البخاري.

الكبائر سبع عشرة جمعها من جملة الأخبار (١) وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم أربعة في القلب وهى الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره

(١) الأخبار الواردة في الكبائر حكى المصنف عن أبي طالب المكي أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعها من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره وشهادة الزور وقذف المحصنات واليمين القموس والسحر وشرب الخمر والسكر وأكل مال اليتيم ظلماً وأكل الربا والزنا واللواط والقتل والسرقه والفرار من الزحف وعقوق الوالدين انتهى . وسأذكر ماورد منها مرفوعاً وقد تقدم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وماهى؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات ولهما من حديث أبي بكره ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قال قول الزور ولهما من حديث أنس سئل عن الكبائر قال الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال قول الزور أو قال شهادة الزور ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزاني حليلة جارك وللطبراني من حديث سلمة بن قيس إنما هى أربع لا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت يابونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر وفيه موقوفاً على عبد الله بن عمرو وأكبر الكبائر شرب الخمر وكلاهما ضعيف وللبراز من حديث ابن عباس باسناد حسن أن رجلاً قال يا رسول الله ما الكبائر؟ قال الشرك بالله والإيأس من روح الله والقنوط من رحمة الله وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين ومنع فضل المساء ومنع الفحل وفيه صالح بن حبان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما وله من حديث أبي هريرة الكبائر أو لهن الإشراك بالله وفيه والانتقال إلى الأعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف وللطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حنيفة في الكبائر والتعرب بعد الهجرة وفيه ابن لهيعة وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري الكبائر سبع وفيه الرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطني وللحاكم من حديث عبيد بن عمير عن أبيه الكبائر تسع فذكر منها واستحلال البيت الحرام وللطبراني من حديث وائلة إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على مالم أقل وله أيضاً من حديثه إن من أكبر الكبائر أن ينتفى الرجل من ولده ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والديه ولأبي داود من حديث سعيد بن زيد من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أنه قال عنه مرطى قبرين فقال إلهما ليمذبان وما يمذبان في كبير وإنه لكبير أما أحدهما فكان يمشى بالنخلة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله الحديث ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكره أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس الحديث ولأبي داود والترمذي من حديث أنس عرضت على ذنوب أمى فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أو تبها رجل ثم نسبها سكت عليه أبو داود واستنبره البخاري والترمذي وروى ابن أبي شيبة في التوبة من حديث ابن عباس لاصفيرة مع إصرار وفيه أبو شيبة الخمر اسانى

مباهاة الكسكثيرين
والإزراء على القليلين وأن
أنصر ظالمسا أو أخذل
مظلوما وأن أقول في
العلم بغير علم أو أعمل في
الدين بغير يقين أعوذ
بك أن أشرك بك وأنا
أعلم وأستغفرك لما
لا أعلم أعوذ بفضلك
من عقابك وأعوذ
برضاك من سخطك
وأعوذ بك منك
لا أحصى ثناء عليك
أنت كما أثبتت على
نفسك اللهم أنت ربى
لا إله إلا أنت خلقتنى
وأنا عبدك وابن
عبدك وعلى عهدك
ووعدهك ما استطعت
أعوذ بك من شر
ما صنعت أبوء بنعمتك
على وأبوء بذنبي فاغفر لى

وأربع في اللسان ، وهي شهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس ، وهي التي يحق بها بطلا أو يطل بها حقا ، وقيل هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم بطلا ولو سوا كامن أراك . وصحبت غموسا لأنها تغمس صاحبها في النار . والسحر وهو كل كلام يغير الانسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلق . وثلاث في البطن وهي شرب الخمر والمسكر من كل شراب وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا وهو يلم . واثنان في الفرج هما الزنا والواط . واثنان في اليدين هما القتل والسرقة . وواحدة في الرجلين وهو الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين وواحدة في جميع الجسد وهو عقوق الوالدين . قال وجملة عقوقهما أن يقسما عليه في حق فلا ير قسمهما وإن سألاه حاجة فلا يعطيها وإن يسأه فيضربها ويجوعان فلا يطعمها هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه فانه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر وهي جنابة على الأموال ، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل فأما فقه العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له وضرب اليتيم وتضديه وقطع أطرافه لاشك في أنه أكبر من أكل ماله ، كيف وفي الخبر من الكبائر « السبتان بالسبة ومن الكبائر استتالة الرجل في عرض أخيه المسلم ^(١) وهذا زائد على قذف المحصن . وقال أبو سعيد الخدرى وغيره من الصحابة : إنكم تملكون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا ندها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر ^(٢) . وقالت طائفة : كل عمد كبيرة وكل مانهى الله عنه فهو كبيرة وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أم كبيرة أم لا يصح ما لم يفهم معنى

إنه لا يضر الذنوب إلا أنت . اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وآخره نجاحا وأوسطه فلاحا . اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكريمة أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والكبرياء لله والجبروت والسلطان لله والليل والنهار وما سكن فيها لله الواحد القهار . أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة آيينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان

والحديث منكر يعرف به . وأما الموقوفات فروى الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الإشراف بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله . وروى البيهقي فيه عن ابن عباس قال الكبائر الإشراف بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التي حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل الربا والسحر والزنا واليمين الغموس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متمعدا وأشياء مما فرضها الله ونقض العهد وقطيعة الرحم . وروى ابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس كل ذنب أصر عليه العبد كبير وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس عن أنس قوله لاصغيرة مع الإصرار وإسناده جيد فقد اجتمع من الرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون إلا أن بعضها لا يصح إسناده كما تقدم وإنما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد في الرفوع وما ورد في الموقوفات والبيهقي في الشعب عن ابن عباس أنه قيل له الكبائر سبع فقال هي إلى السبعين أقرب وروى البيهقي أيضا فيه عن ابن عباس قال كل مانهى الله عنه كبيرة ، والله أعلم ^(١) حديث من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استتالة الرجل في عرض أخيه المسلم عزاه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس لأحمد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد والذي عندهما من حديثه من أربى الربا استتالة في عرض المسلم بغير حق كما تقدم ^(٢) حديث أبي سعيد الخدرى وغيره من الصحابة إنكم تملكون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا ندها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر أحمد والبخاري بسند صحيح وقال من اللوبات بدل الكبائر ورواه البخاري من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال صحيح الاسناد .

الكبيرة والمراد بها كقول القائل السرقة حرام أم لا ، لامطعم في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أو لآثم البحث عن وجوده في السرقة ، فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع وذلك لأن الكبير والصغير من الضافات وما من ذنب إلا وهو كبير بالاضافة إلى مادونه وصغير بالاضافة إلى ما فوقه فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالاضافة إلى النظرة صغيرة بالاضافة إلى الزنا وقطع يد المسلم كبيرة بالاضافة إلى ضربه صغيرة بالاضافة إلى قتله ، نعم للانسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ، ونفى بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة وله أن يطلق على ما أوجب الحدّ عليه مصيرا إلى أن ما جهل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب التهي عنه فيقول تخصيحه بالذكر في القرآن يدل على عظمته ثم يكون عظيما وكبيرة لا محالة بالاضافة ، إذ منصوبات القرآن أيضا تفاوتت درجاتها فهذه الاطلاقات لا حرج فيها وما نقل من ألقاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ولا يمد تزييلها على شيء من هذه الاحتمالات ، نعم من اللهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى - إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصلوات كفارات لما بينهنّ إلا الكبائر» فان هذا إثبات حكم الكبائر والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعظم استعظامه إياها وإلى ما يعظم أنها معدودة في الصغائر وإلى ما يشك فيه فلا يدري حكمه فالطعم في معرفة حدّ حاصرا وعددا جامع مانع طلب لما لا يمكن فان ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول إني أردت بالكبائر عشرا أو خمسا ويفصلها ، فان لم يرد هذا بل ورد في بعض الألقاظ « ثلاث من الكبائر (١) » وفي بعضها « سبع من الكبائر (٢) » . ثم ورد « أن السبّين بالسبّة الواحدة من الكبائر » وهو خارج عن السبع والثلاث علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر فكيف يطعم في عدد ما لم يمهده الشرع وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل كما أبهم ليلة القدر لعظم جدّ الناس في طلبها ، نعم لنا سبيل كلّي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فنعرفها بالظنّ والتقريب ونعرف أيضا أكبر الكبائر ، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته . ويانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقاءه وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله وإليه الإشارة بقوله تعالى - وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون - أي ليكونوا عبيدا لي ولا يكون العبد عبدا ما لم يعرف ربه بالرؤية ونفسه بالبودية ولا بد أن يعرف نفسه وربه فهذا هو المقصود الأقصى يعثه الأنبياء ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام « الدنيا مزرعة الآخرة (٣) » فصار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين لأنه وسيلة إليه

للنار بديع السموات والأرض ذو الجلال والاكرام أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد يا حي يا قيوم يا حي حين لا حي في ديمومة ملكه وجاته يا حي يحيى الموتى يا حي يميت الأحياء ووارث الأرض والسماء ، اللهم إني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الله لا إله إلا هو الحي القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم اللهم إني أسألك باسمك الأعظم الأجل الأعر الأكرم الذي إذا دعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت يا نور النور يا مدبر الأمور

(١) حديث ثلاث من الكبائر الشيخان من حديث أبي بكره الأأنبشكم بأ كبر الكبائر ثلاثا الحديث وقد تقدم (٢) حديث سبع من الكبائر طب في الأوسط من حديث أبي سعيد الكبائر سبع وقد تقدم وله في الكبير من حديث عبد الله بن عمر . من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر الحديث ثم عدهن سبعا وتقدم عن الصحيحين حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع الموبقات (٣) حديث الدنيا مزرعة الآخرة لم أجده بهذه اللفظ مرفوعا وروى العقيلي في الضعفاء وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته الحديث وإسناده ضيف .

واللعلق من الدنيا بالآخرة شيان النفوس والأموال فكل ما بسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر
 وبليه ما بسد باب حياة النفوس وبليه ما بسد باب للعائش التي بها حياة النفوس فهذه ثلاث مراتب ،
 حفظ المعرفة على القلوب والحياة على الأبدان والأموال على الأشخاص ضرورى فى مقصود الشرائع
 كلها وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن يختلف فيها الملل فلا يجوز أن الله تعالى يمت نيا يريد يمت
 إصلاح الخلق فى دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما عندهم عن معرفته ومعرفة رسوله أو يأمرهم بهلاك
 النفوس وإهلاك الأموال لحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب : الأولى ما يمنع من معرفة
 الله تعالى ومعرفة رسوله وهو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر ، ذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل
 والوسيلة للقربة له إليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته وبسده بقدر جهله ويتلو الجهل الذى
 يسمى كفرا الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله فان هذا أيضا عين الجهل لمن عرف الله لم يتصور
 أن يكون آمنا ولأن يكون آسا ويتلو هذه الرتبة البدع كلها التملقة بذات الله وصفاته وأضاله
 وبعضها أشد من بعض ونهايتها على حسب تفاوت الجهل ، وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأضاله
 وشرائعه وبأوامره ونواهيته ومراتب ذلك لا تنحصر وهى تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر
 الكبائر المذكورة فى القرآن وإلى ما يعلم أنه لا يدخل وإلى ما يشك فيه وطلب دفع الشك فى القسم
 للتوسط طمع فى غير مطمع . للرتبة الثانية : النفوس إذ يقاؤها وحفظها تدوم الحياة وتحصل للمعرفة
 بالله قتل النفس لامحالة من الكبائر وإن كان دون الكفر لأن ذلك يصد عن المقصود وهذا
 يصد وسيلة للمقصود إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى ويتلو هذه
 الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضى إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض ويقع فى
 هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالله كور فى قضاء الشهوات
 انقطع النسل ودفع الموجود قريب من قطع الوجود ، وأما الزنا فانه لا يفوت أصل الوجود ولكن
 يشوش الأنساب ويطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلا بها بل كيف
 يتم النظام مع إباحة الزنا ولا ينتظم أمور البهائم مالم يتميز الفحل منها بإنات يختص بها عن سائر
 الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا فى أصل شرع قصد به الإصلاح وينبى أن يكون الزنا
 فى الرتبة دون القتل لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولعكته يفوت تمييز الأنساب
 ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضى إلى القتال وينبى أن يكون أشد من اللواط لأن الشهوة
 داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته . للرتبة الثالثة : الأموال فانه ما عيش
 الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاء واحق بالاستيلاء والسرقة وغيرهما بل ينبى أن تحفظ
 لتبقى يقاها النفوس إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن تفرعها
 فليس يعظم الأمر فيها ، نعم إذا جرى تناولها بطريق بصير التدارك له فينبى أن يكون ذلك من
 الكبائر وذلك بأربع طرق : أحسنها الخفية ، وهى السرقة فانه إذا لم يطلع عليه غالبا كيف
 يتدارك . الثانى أكل مال اليتيم ، وهذا أيضا من الخفية وأغنى به فى حق الولي والقيم فانه مؤتمن
 فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب بخلاف النصب فانه ظاهر
 يعرف وبخلاف الحياة فى الوديعة فان للودع خصم فيه يتصنف لنفسه . الثالث : تفويتها بشهادة
 الزور . الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين القموس فان هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز
 أن تختلف الشرائع فى تحريمها أصلا وبعضها أشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية التملقة بالنفوس

إعالم ما فى الصدور
 يا صميح يا قريب يا مجيب
 الدعاء بالطينا لما يشاء
 يارءوف يارحم يا كبير
 يا عظيم يا الله يارحمن
 يا ذا الجلال والاكرام
 الم الله لا إله إلا هو الحى
 القيوم وعنت الوجوه
 لحي القيوم يا الهى
 وإله كل شىء إلهنا
 واحدا لا إله إلا أنت
 اللهم إني أسألك باسمك
 يا الله الله الله الذى
 لا إله إلا هو رب العرش
 العظيم فتعالى الله الملك
 الحق لا إله إلا هو رب
 العرش الكريم أنت
 الأول والآخر والظاهر
 والباطن وصمت كل
 شىء رحمة وعلما
 كهيهن حم عسق
 الرحمن يا واحد يا قهار

وهذه الأربعة جدية بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها . وأما كل الربا فليس فيه إلا كل مال الغير بالتراضى مع الاخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله وإذا لم يجعل النصب الذى هو أكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالنصب وغيره وعظم الحيانة والمصير إلى أن أكل دائق بالحيانة أو النصب من الكبائر فيه نظر وذلك واقع في مظنة الشك وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر بل ينبغى أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا في الدين فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا لأن العقل محظوظ كما أن النفس محظوظة بل لاخير في النفس دون العقل فإزالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجرى في قطرة من الخمر فلا شك في أنه لو شرب ماء قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة وإنما هو شرب ماء نجس والقطرة وحدها في محل الشك وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره فيمد ذلك من الكبائر بالشرع وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فان ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع وإلا فالتوقف فيه مجال . وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض والأعراض دون الأموال في الرية ولتناولها مراتب وأعظمها تناول القذف بالاضافة إلى فاحشة الزنا وقد عظم الشرع أمره وأظن ظنا غالبا أن الصحابة كانوا يمدون كل ما يجب به الحد كبيرة فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس وهو الذى زيده بالكبيرة الآن ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرد لا يدل على كبره وعظمته بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزنى فله أن يشهد ويحمله المشهود عليه بمجرد شهادته فان لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا في مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات فاذن هذا أيضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع فأما من ظن أنه يشهد وحده أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغى أن يجعل في حقه من الكبائر . وأما السحرفان كان فيه كفر فكبيرة وإلا فمظلمته بحسب الضرر الذى يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره . وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغى أن يكون من حيث القياس في محل التوقف وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا وضررهم والظلم لهم بنصب أموالهم وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلاتهم من أوطانهم ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليحقق بالكبائر . فاذا رجع حاصل الأمر إلى أننا نعى بالكبيرة مالا تكفره الصلوات بحكم الشرع وذلك مما اتسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعا وإلى ما ينبغى أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه والتوقف فيه بوضه مظنون للنفي والاثبات وبوضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة وإذن لا مطمع فيه فطلب رفع الشك فيه محال . فان قلت فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده . فاعلم أن كل مالا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإيهام لأن دار التكليف هى دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدين من حيث إنها كبيرة بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرها وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة والإيهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر

ياعزيز يا جبار يا أحد
يا صمد يا ودود يا غفور
وهو الله الذى لا إله إلا
هو عالم الغيب والشهادة
هو الرحمن الرحيم لا إله
إلا أنت سبحانك إني
كنت من الظالمين
اللهم إني أعوذ بحمك
الكنون الخزون
المنزل السلام الطهر
الطاهر القدوس القدس
يادهر يادهور ياديهار
ياأبد ياأزل يا من لم يزل
ولا يزال ولا يزل هو
يا هو لا إله إلا هو يا من
لا هو إلا هو يا من
لا يعلم ما هو إلا هو
يا كان يا كائن
يا روج يا كائن قبل
كل كون يا كائن بعد
كل كون يا كونا

فلا يتجرءون على الصغائر اعتقادا على الصلوات الحسن وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى - إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن موافقتها فكيف نفسه عن الوقوع فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقوع أشد تأثيرا في تنوير قلبه من إقامته على النظر في إظلامه فهذا معنى تكفيره فإن كان عيننا أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادرا ولكن امتنع لحوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلا وكل من يشتهي الحمر بطبعه ولو أيسح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع اللهاى والأوتار، ثم من يشتهي الحمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الحمر ويطلقها في السماع فجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع فكل هذه أحكام أخروية ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من التشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع بل ورد بألفاظ مختلفة: قد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفة (١) » قيل ماترك السنة قيل الخروج عن الجماعة ونكث الصفة أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقائله فهذا أو أمثاله من الألفاظ لا يحيط بالصدق كله ولا يدل على حد جامع فيبقى لأعماله مبهما . فإن قلت الشهادة لا تقبل إلا بمن يجنب الكبائر والورع عن الصغائر ليس شرطاً في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدنيا . فأعلم أنا لا نخص رد الشهادة بالكبائر فلا خلاف في أن من يسمع اللهاى ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في أوانى الذهب والفضة لا تقبل شهادته ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر وقال الشافعى رضى الله عنه إذا شرب الخنق النيذ حدته ولم أرد شهادته فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة فدل على أن الشهادة نفا وإثباتا لا تدور على الصغائر والكبائر بل كل الذنوب تقدر في المدالة إلا ما لا يخلو الانسان عنه غالبا بضرورة مجارى العادات كالغيبية والتجسس وسوء الظن والكذب في بعض الأقوال وسماع الغيبة وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأكل الشبهات وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائدا على الصلحة وإكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجار والتكامل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعزل الناس ويتجرد لأمر الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمعته مع المخالطة بعد ذلك ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات وليس لبس الحرير وسماع اللهاى واللعب بالترد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والحلوة بالأجنيبات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل فإلى مثل هذا النهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردها إلى الكبيرة والصغيرة ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها ولو اوظب عليها لأثر في رد الشهادة كمن أخذ الغيبة وثلب الناس عادة وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أن الباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج والترنم بالنساء على الدوام وغيره فهذه إيان حكم الصغائر والكبائر.

(بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا)

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم الغيب والملكوت وأغنى بالدنيا حالتك قبل

(١) حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك

السنة ونكث الصفة الحديث الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه وقال صحيح الاسناد .

لكل كون أهيا
شرا هيا أدوناي
أصبوت يا مجلى عظام
الأمور - فان تولوا
قلل حسبى الله لا إله
إلا هو عليه توكلت
وهو رب العرش
العظيم - ليس كمثل شئ
وهو السميع البصير -
اللهم صل على محمد وعلى
آل محمد كما صليت
على إبراهيم وآل
إبراهيم وبارك على
محمد وعلى آل محمد كما
باركت على إبراهيم
وآل إبراهيم إنك
حميد مجيد اللهم إني
أعوذ بك من علم
لا ينفع وقلب لا يخشع
ودعاء لا يسمع اللهم إني
أعوذ بك من فتنة
الدجال وعذاب القبر

الموت وبالآخرة حالتيك بعد الموت فذنيك وأخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الداني منها دنيا والتأخر آخرة ونعم الآن تتكلم من الدنيا في الآخرة فانا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال ولذلك قال تعالى - وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون - وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا» (١) وما سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم إلا بضرب الأمثال المحوجة إلى التعبير فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال وأغنى بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير ويكفيك منه إن كنت فطنا ثلاثة أمثلة فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال رأيت كأن في يدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر قال صدقت وجاء رجل آخر فقال رأيت كأنني أصبت الزيت في الزيتون فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإن أمك سييت في صفرك لأن الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل فنظر فإذا جاريته كانت أمه وقد سييت في صفره وقال له آخر رأيت كأنني أفلد الدر في أعناق الخنازير فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال وإنما نغنى بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجدته صادقا وإن نظر إلى صورته وجدته كاذبا فالمؤذن إن نظر إلى صورة الحاتم والحتم به على الفروج رآه كاذبا فإنه لم يغمم به قط وإن نظر إلى معناه وجدته صادقا إذ صدر منه روح الحتم ومعناه وهو النع الذي يراد الحتم له وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال لأنهم كلّفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم وقدر عقولهم أنهم في النوم والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل فاذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» (٢) وهو من المثل الذي لا يحمله إلا العالمون فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثل لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلا كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيرا فيثبت لله تعالى بدا وأصعبا، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا. وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق آدم على صورته» (٣) فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا. ومن ههنا زلّ من زلّ في صفات إلهية حتى في الكلام وجعلوه صوتا وحرفا إلى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بممود نظره على ظاهر المثل وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح فيثور الملحد الأحق ويكذب» (٤) ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول يا سبحان الله الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما وهل هذا إلا محال ولكن الله تعالى عزله هؤلاء الحق عن معرفة أسرارهم فقال - وما يعقلها إلا العالمون - ولا يدري المسكين أن من قال رأيت في منامي أنه جى بكبش وقيل هذا هو الوباء الذي في البلد وذبح فقال العبر صدقت والأمر كما رأيت وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط لأن

ومن فتنة الهياوليات اللهم إني أعوذ بك من شر ما علمت وشر ما لم أعلم وأعوذ بك من شر سمعي وبصري ولساني وقلي اللهم إني أعوذ بك من القسوة والغفلة والذل والسكنة وأعوذ بك من الفقر والكفر والنفاق وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص ومائر الأسماع، اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحوّل عافيتك ومن فجأة تهمتك ومن جميع سخطك، اللهم إني أسألك الصلاة على

(١) حديث الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا لم أجده مرفوعا وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب
(٢) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن تقدم (٣) حديث إن الله خلق آدم على صورته تقدم (٤) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح متفق عليه من حديث أبي سعيد .

المدبوح وقع اليأس منه فإن المبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لأن التألم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفا بعباده وتيسيرا لادراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل فقوله يؤتى بالموت في صورة كبش أملح مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت المعاني فيها بواسطة ذلك عبر القرآن بقوله كن فيكون عن نهاية القدرة وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» عن سرعة التقلب . وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد من ربيع الصادات فلترجع الآن إلى الغرض فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال فلتفهم من المثل الذي نضربه معناه لاصورته . فقول : الناس في الآخرة ينقسمون أصنافا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها ولاتفارق الآخرة في هذا المعنى أصلاً ألبته فإن مديراً للملك والملكوت واحداً لا شريك له وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبدل لها إلا أن إنساناً محزوناً عن إحصاء آحاد الدرجات فلا يجز عن إحصاء الأجناس . فنقول الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام هالكين وممذيين وناجين وقائمين . ومثاله في الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم المهالكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم الممذيون ويغلب بعضهم فهم الناجون ويخلع على بعضهم فهم الفائزون فإن كان للملك عادلاً لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك معانداً له في أصل الدولة ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ولا يغلب إلا معترفاً له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع إلا على من أبى عمره في الخدمة والنصرة ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة وإهلاك المهالكين إما تحقيقاً بحز الرقبة أو تسكيلاً بالمثل بحسب درجاتهم في العاندة وتذيب الممذيين في الخفة والشدة وطول الددة وقصرها وأنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم فتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون فمن هالك ومن ممذب مدة ومن ناج يحمل في دار السلامة ومن فائز والفائزون ينقسمون إلى من يحملون في جنات عدن وأوجنات الأوى وأوجنات الفردوس والممذيون ينقسمون إلى من يعذب قليلاً وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة وذلك آخر من يخرج من النار (١) كما ورد في الخبر وكذلك المهالكون الأيسون من رحمة الله تتفاوت درجاتهم وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفية توزعها عليها : الرتبة الأولى وهي رتبة المهالكين . نعى بالمهالكين الأيسين من رحمة الله تعالى إذ الذي قتله الملك في الثالثة الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تنفل عن معاني المثال وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمرضين المتجردين للدنيا المكذبين باقه ورسله وكتبه فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبر عنها

محمد وعلى آله وأسألك
من الخير كله عاجله
وأجله ما علمت منه
وما لم أعلم وأعوذ بك
من الشر كله عاجله
وأجله ما علمت منه
وما لم أعلم وأسألك الجنة
وما قرب إليها من قول
وعمل وأعوذ بك من
النار وما قرب إليها من
قول وعمل وأسألك
ماسألك عبدك ونييك
محمد صلى الله عليه
وسلم وأستعيذك مما
استعاذك منه عبدك
ونبيك محمد صلى الله
عليه وسلم وأسألك
ما قضيت لي من أمر أن
تجعل عاقبته رشداً
زرحتك يا أرحم
الراحمين يا حي يا قيوم
زرحتك أستغث

(١) حديث إن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه وأطولهم مكاناً فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة .

بالإيمان والتصديق والجاهدون هم المنكرون والمسكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبدأ الآباد وهم الذين يكذبون رب العالمين وبأنبيائه المرسلين إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب عن محبوبه لمحول بينه وبين ما يشتهي لا محالة فهو لا محالة يكون محترقا نار جهنم بنار الفراق ولذلك قال العارفون ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين وإنما مطالبنا للقاء ومهربنا من الحجاب فقط ، وقالوا من يعبد الله بعوض فهو لئيم كأن يعبده لطلب جنته أو لحوف ناره بل العارف يعبده لثباته فلا يطلب إلا ذاته فقط ، فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يتهيها إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام ، فان نار الفراق نار الله المؤقدة التي تطلع على الأفتدة ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام وألم الأجسام تستحرق مع ألم الفؤاد ولذلك قيل :

وفي فؤاد الحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا فقد رؤى من غلب عليه الوجد فندا على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به لقرط غلبة ما في قلبه وترى الغضبان يستولى عليه الغضب في القتال فتصفيه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأن الغضب نار في القلب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الغضب قطعة من النار ^(١) » واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما أراه فليس الهلاك من النار والسيوف إلا من حيث إنه يفرق بين جزئين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاما من تأليف الأجسام فهو أشد إيلا ما إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ويستحرقه بالإضافة إلى ألم الجسم فالصبي لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ولم يعد ذلك ألما وقال العدو في الميدان مع الصولجان أحب إلى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لأثر الهريسة والحلواء ، وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوبا ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذينا وذلك لمن استرقت صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يظنها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها إلا البمدوا والحجاب وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الأذان فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب ، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس كمن لا يسمع له ولا يصر ليس له لذة الألحان وحسن الصور والألوان وليس لكل إنسان قلب ولو كان لمصاح قوله تعالى - إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب - فجمل من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب ، واستأعنى بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر ، بل أعنى به السر الذي هو من عالم الأمر وهو اللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسية وسائر الأعضاء عاله ومملكته والله الخلق والأمر جميعا ، ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه - قل الروح من أمر ربي - هو الأمير والملك لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا وعالم الأمر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه وعند ذلك يشم العبد مبادئ روائح المعنى للطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » ونظر بعين

(١) حديث الغضب قطعة من النار الترمذى من حديث أبي سعيد نحوه وقد تقدم .

لا تكفى إلى قصى
 طرفة عين وأصلح لى
 شأنى حكه يا نور
 السموات والأرض
 يا جمال السموات
 والأرض يا عماد
 السموات والأرض
 يا بديع السموات
 والأرض يا ذا الجلال
 والاکرام يا صريح
 المستصرخين يا غوث
 المستغيثين يا منتهى
 رغبة الراغبين
 والفرج عن الكروبين
 والمروح عن الغمومين
 ومجيب دعوة
 المضطرين وكاشف
 السوء وأرحم الراحمين
 وإله العالمين منزل
 بك كل حاجة يا أرحم
 الراحمين اللهم استر
 عوراتى وآمن روعاتى

الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه وإلى التمسفين في طريق تأويله ، وإن كانت رحمته للعاملين على اللفظ أكثر من رحمته للتمسفين في التأويل لأن الرحمة على قدر الصية ومصيبة أولئك أكثر وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر فالحقيقة فضل الله يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهي حكته يختص بها من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، ولنعد إلى الغرض فقد أرخينا الطول وطولنا النفس في أمر هو أطل من علوم للعاملات التي تصدها في هذا الكتاب فقد ظهر أن رتبة المهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لاندخل تحت الحصر فذلك لم نوردها . الرتبة الثانية : رتبة للعذابين وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمتقضاته فان رأس الإيمان هو التوحيد وهو أن لا يعبد إلا الله ومن اتبع هواه فقد أخذ إلهه هواه فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة بل بمعنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى - قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون - وهو أن تذبذبا بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى - الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط للموصوف في الآخرة فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل وذلك قاذح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقتضى لامحالة نقصانا في درجات القرب ومع كل نقصان ناران نار الفراق لذلك الكمال الفاضل بالنقصان ونار جهنم كما وصفها القرآن فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة إنما يكون بسبب أمرين : أحدهما قوة الإيمان وضعفه ، والثاني كثرة اتباع الهوى وقتله وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا - ولذلك قال الخائفون من السلف : إنما خوفنا لأنا نيقنا أننا على النار واردون وشككتنا في النجاة ، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان^(١) قال الحسن ياليتني كنت ذلك الرجل . واعلم أن في الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر المدد وأن الاختلاف بالشدة لانه لاعتلاه وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب كما أن الملك قد يعذب بعض القصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو وقد يضرب بالسياط وقد يعذب بنوع آخر من العذاب ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة وهو اختلاف الأنواع إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحرم وتعذيب الأقارب والضرب وقطع اللسان واليد والأنف والأذن وغيره ، فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقتلها وكثرة السيئات وقتلها . أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها وأما كثرة فقبحتها وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعنى بموله تعالى - وما ربك بظلام للعبيد - وبقوله تعالى - اليوم تجزى كل نفس

وأفلى عتراتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك أن أغتال من تحتي ، اللهم - إنى ضعيف فقو في رضاك ضعفي وخذ إلى الخير بناصيتي واجعل الإسلام منتهى رضاي ، اللهم إنى ضعيف قدسوني اللهم إنى ذليل فأعزني ، اللهم إنى فقير فأغنني برحمتك يا أرحم الراحمين ، اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتي فاقبل معذرتي وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي ، اللهم إنى أسألك إيمانا يياشر قلبي وبقينا صادقا حتى أعلم

(١) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان أحمد وأبو يعلى من رواية أبي ظلال القسمل عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

بما كسبت - وبقوله تعالى - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - وبقوله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم « سبقت رحمتي غضبي » (١) وقال تعالى - وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما - فإذا هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة ، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظنا ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار . فتقول : كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض : أعنى الأركان الخمسة ولم يكن منه إلا صفائر متفرقة لم يصر عليها فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارات لسائينهن ، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصفائر وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب وكل من هذا حاله قد ثقلت موازينه ، فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية ، نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقرين ونزوله في جنات عدن أوفى الفردوس الأعلى فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان تقليدي كما يمان العوام يصدقون بما يستمعون ويستمرون عليه ، وإيمان كسفي يحصل بانسراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله ، فهذا الصنف هم القربون النازلون في الفردوس الأعلى وهم على غاية القرب من اللأ الأعلى وهم أيضا على أصناف فمنهم السابقون ومنهم من دونهم ، وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر إذ الإحاطة بكنهه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وإنما يفوس فيه الفواصون بقدر قواهم وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل ، فالطريق إلى الله تعالى لانهائية لمنزله فالسالكون سبيل الله لانهائية لدرجاتهم . وأما المؤمن إيمانا تقليديا فهو من أصحاب اليمين ودرجته دون درجة القربين وهم أيضا على درجات فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات القربين ، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها : أعنى الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلوة والزكاة والصوم والحج ، فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام فإن تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المقبول كالذي لم يتوسخ أصلا وإن مات قبل التوبة فهذا أمر محظر عند الموت إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لتزول إيمانه فيختم له بسوء الحاتمة لاصحيا إذا كان إيمانه تقليديا ، فإن التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الحاتمة ، وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان إلا أن يخفو الله عذابا يزيد على عذاب المناقشة في الحساب وتسكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الاصرار ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين والعارفون المستبصرون في أعلى عليين ،

(١) حديث سبقت رحمتي غضبي مسلم من حديث أبي هريرة .

أنه لن يصيني إلا ما كتب لي والرضا بما قسمت لي يا ذا الجلال والاكرام اللهم يهادي المضلين وياراحم المذنبين ومقيل عثرة العائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلمهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين اللهم عالم الخفيات رفيع الدرجات تلقى الروح بأمرك على من تشاء من عبادك غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذا الطول لا إله إلا هو أنت الوكيل

ففي الخبر « آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف (١) » فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال بل هذا كتول القائل أخذ منه جملا وأعطاه عشرة أمثاله وكان الجمل يساوي عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان والجمل في الكفة الأخرى عشر عشره بل هو موازنه معاني الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها فإن الجمل لا يقصد لتله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليتها وفروحه والمالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحية لا بالموازنة الجسدية وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقا ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون فإن روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر بل بظنة أخرى وراء البصر فذلك يكذب به الصبي بل القروي والبدوي ويقول ماهذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب في قوله إني أعطيته عشرة أمثاله والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال فنصد ذلك ينكشف له الصدق والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الموازنة إذ يقول صلى الله عليه وسلم « الجنة في السموات (٢) » كما ورد في الأخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة وكذلك تفهيم البدوي وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلى بالبدوي والقروي في تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم إذا بلى بالبلد الأبله في تفهيم هذه الموازنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ارحموا ثلاثة عالمين الجهال وغنى قوم افتقر وعزيز قوم ذل (٣) » والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل (٤) » فلا تظن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن فإن بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم إذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فرارا ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال « رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر (٥) » فاذن لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاهدين ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب

وإليك الصبر يا من لا يشغله شأن عن شأن ولا يشغله سمع عن سمع ولا تشبهه عليه الأصوات ويا من لا تفاظه المسائل ولا تختلف عليه اللغات ويا من لا يتبرم بالجاح الملحين أذقنى برد عفوك وحلاوة رحمتك اللهم إني أسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وعملا متقبلا أسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب . اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونعما لا ينفد وقررة عين الأبد ومرافقة نبيك محمد وأسألك حبك

(١) حديث إن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف متفق عليه من حديث ابن مسعود (٢) حديث كون الجنة في السموات خ من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه فإذا سألت الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن (٣) حديث ارحموا ثلاثة عالمين الجهال الحديث ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس وعيسى ضعيف ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال عالم تلاعب به الصبيان وفيه أبو البختري، واسمه وهب بن وهب أحد السكذابين (٤) حديث البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء فذكره دون ذكر الأولياء وللطبراني من حديث فاطمة أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون الحديث (٥) حديث رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر البخاري من حديث ابن مسعود .

من الايذاء وأنواع البلاء بالاخراج من البلاد والسماية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين كما يجب أن يكون للفاضل عن الجهل الكبير جوهره صغيرة عند الجاهلين من البنزين للضعيف. فإذ عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه الصلاة والسلام «إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات» وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حماراً برجلين لأن الحمار يشارك في الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسرّ إلهي عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملته وأشفقن منه فلا يدرك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم ذلك السرّ الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز الحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسبها بالإعراض عنها فلا تسكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله إذ ليس ذات الله مدركاً في هذا العالم بالحواس الخمس وكل من نسي الله أنساه الله لاهمالة نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك الترقى إلى الأفق الأعلى وخان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافراً لأنعمه ومتعرضاً لنقمة الله لأنه أسوأ حالاً من البهيمة فإن البهيمة تتخلص بالموت . وأما هذا فضده أمانة ترجع لاهمالة إلى مودعها فإليه مرجع الأمانة ومصيرها وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هبطت إلى هذا القالب الفاني وغربت فيه وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة. والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية والمظلمة أيضاً راجعة إلى الحضرة إذ المرجع والمصير لكل إليه إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين ولذلك قال تعالى - ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم - فيبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أفتيتهم واتكست رؤسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه ، فعوذ باق من الضلال والتزول إلى منازل الجهال فهذا حكم الله من يخرج من النار ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر ولا يخرج من النار إلا موحد . ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله فان اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينعى إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وأيدي الغائبين عن ماله ومدّة الرقبة والمال مدة الحياة حيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينعى القول باللسان وإنما ينعى الصدق في التوحيد وكال توحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله . وعلامته أن لا يضب على أحد من الخلق بما يجرى عليه إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل وهذا التوحيد متفاوت فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال . ومنهم من له مثقال ومنهم من له مقدار خردلة وذرة ، فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أول من يخرج من النار . وفي الخبر يقال «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان» (١) وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك فأما بقية السببات فيتسارع العفو والتكفير إليها في الأمر إن العبد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سبّ عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة ، فتقول

وحب من أحبك
وحب عمل يقرب إلى
حبك . اللهم بملك
الغيب وقدرتك على
خلقك أحيى ما كانت
الحياة خيراً لي وتوفى
ما كانت الوفاة خيراً لي
أسألك خشيتك في
الغيب والشهادة وكلمة
العدل في الرضا والغضب
والقصد في الغنى والفقر
ولذة النظر إلى
وجهك والشوق إلى
لقاءك وأعوذ بك من
ضراء مضرة وفتنة
مضلة . اللهم اقم لي
من خشيتك ما تحول
به بيني وبين مصيبتك
ومن طاعتك ما يدخلني
جنتك ومن اليقين
ماتهمون به علينا
مصائب الدنيا . اللهم
ارزقنا حزن خوف

(١) حديث أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان الحديث تقدم .

اللائكة ياربنا هذا قد فئت حسناته وبقى طالبون كبير فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا إلى النار وكما يهلكه وبسبب غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو للظالم بحسنة الظالم إذ ينقل إليه عوضا عما ظلم به وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال لأفضل ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أمحوها وقال هو وغيره مذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صحيفتي فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف الصناديق في اللعاب في درجات السعادة والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاها حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لاعماله ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين فان ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال ولكن قد تنوق إلى الشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم إذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها جبر عن ذلك السبب الخفي الملقى إلى النجاة بالعمو والرضا وعمافيضى إلى الهلاك بالغضب والانتقام ووراء ذلك سر الشيئة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها فذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغيب على الطيب وإن كثرت طاعاته الظاهرة فان الاعتدال على التقوى والتقوى في القلب وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضى العفو ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ولولم يكن جزاء لم يكن عدلا ولولم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى - وما ربك بظلال للعبيد - ولا قوله تعالى - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وكل ذلك صحيح فليس للإنسان إلا ما سعى وسعيه هو الذي يرى وكل نفس بما كسبت رهينة فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم تحقيقا لقوله تعالى - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن اللط في إذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا ومشاهدة القلب لا يمكن اللط فيها وإنما الشأن في افتتاح بصيرة القلب وإلا فمأرى بها بعد الافتتاح فلا يتصور فيه الكذب وإليه الإشارة بقوله تعالى - ما كذب الفؤاد ما رأى - . الرتبة الثالثة : رتبة الناجين وأغنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز وهم قوم لم يخذلوا فيخلق عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والعتوهين والذين لم تلبسهم الدعوة في أطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا مصيبة فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم فقام من أهل الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالأعراف وحلول طائفة من الخلق (١) فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار

الوعيد وسرور رجاء للعود حتى نجد لمة ما نطلب وخوف مامن نهرب اللهم ألبس وجوهنا منك الحياء واملأ قلوبنا بك فرحا وأسكن في قوسنا من عظمتك مهابة وذل جوارحنا لخدمتك واجعلك أحب إلينا مما سواك واجعلنا أخشى لك ممن سواك نسألك تمام النعمة بتمام التوبة ودوام العافية بدوام العصمة وأداء الشكر بحسن العبادة اللهم إني أسألك بركة الحياة وخير الحياة وأعوذ بك من شر الحياة وشر الوفاة وأسألك خير ما بينهما أحمي حياة

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف البرار من حديث أبي سعيد الخدري سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لأبائهم فمنتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم العصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار الحديث وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الطبراني من رواية أبي معشر عن يحيى بن شبيل عن عمر بن عبد الرحمن المدني عن أبيه مختصرا وأبو معشر نجح السندی ضعيف ويحيى ابن شبيل لا يعرف وللحاكم عن حذيفة قال أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار

ومن أنوار الاعتبار فأما الحكم على العين كالحكم مثلا بأن الصبيان منهم فهذا مظنون وليس بمسئوم والاطلاع عليه تحقيقا في عالم النبوة ويعد أن ترتقي إليه رتبة الأولياء والعلماء والأخبار في حق الصبيان أيضا متعارضة حتى قالت عائشة رضي الله عن الملمات بعض الصبيان عصفور من عصفاب الجنة فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال وما يدريك (١) فاذن الاشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام . الرتبة الرابعة : رتبة الفائزين وهم العارفون دون التقليدين وهم القربون السابقون فإن التمدد وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم القربون وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن فليس بعد بيان الله بيان والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين - وقوله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم . وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والحل والحلى والأساور فانهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجهه الله تعالى الكريم فهي غاية السعادة ونهاية اللذات

وقصرت سيئاتهم عن الجنة الحديث وقال صحيح على شرط الشيخين وروى الثعلبي عن ابن عباس قال الأعراف موضع عال في الصراط عليه العباس وهمزة وطى وجعفر الحديث هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين (١) حديث عائشة أنها قالت لملمات بعض الصبيان عصفور من عصفاب الجنة فأنكر ذلك وقال ما يدريك رواه مسلم قال المصنف والأخبار في حق الصبيان متعارضة . قلت روى البخارى من حديث حمزة بن جندب في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفيه وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فإبراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقيل يارسل الله وأولاد الشركين قال وأولاد الشركين وللطبراني من حديثه سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد الشركين فقال هم خدمة أهل الجنة وفيه عباد بن منصور الناجى قاضى البصرة وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب وقد ضعفه ابن حبان وللنسائي من حديث الأسود ابن سريع كنا فى غزاة لنا الحديث فى قتل الذرية ، وفيه إلا إن خياركم أبناء المشركين ثم قال لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة الحديث وإسناده صحيح ، وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة كل مولود يولد على الفطرة الحديث وفى رواية لأحمد ليس مولود يولد إلا على هذه الملة ولأبى داود فى آخر الحديث فقالوا يارسل الله أفرأيت من يموت وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وفى الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبراني من حديث ثابت بن الحرث الأنصارى كانت يهود إذا هلك لهم صبى صغير قالوا هو صديق فقال النبي صلى الله عليه وسلم كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله فى بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد الحديث وفيه عبد الله بن لهيعة ولأبى داود من حديث ابن مسعود الوائدة والموءودة فى النار وله من حديث عائشة قلت يارسل الله ذرارى المؤمنين فقال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فذرارى المشركين قال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبراني من حديث خديجة قلت يارسل الله أين أطفالى منك قال فى الجنة قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين وإسناده منقطع بين عبد الله بن الحرث وخديجة وفى الصحيحين من حديث الصب بن جثامة فى أولاد المشركين هم من آبائهم وفى رواية هم منهم .

السعداء حياة من تحب بقاءه وتوفى وفاة الشهداء وفاة من تحب لقاءه ياخير الرازيين وأحسن التوابين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ورب العالمين ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم ما خلقت واغفر ما قدرت وطيب ما رزقت وتمم ما أنعمت وتقبل ما استعملت واحفظ ما استحفظت ولا تهتك ما سترت فانه لا إله إلا أنت أستغفرك من كل لذة بغير ذكرك ومن كل راحة بغير سرور بغير قربك ومن كل فرح بغير مجالستك ومن كل

ولذلك قيل لرابطة العدوية رحمة الله عليها كيف رغبتك في الجنة قتالت الجار ثم الدار فهو لا يقوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزيتها بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم ومثلهم مثال العاشق للشيء بمشوقه المستوفى همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه فانه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ويعبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه ومعناه أنه صار مستغرقا بغيره وصارت همومه هما واحدا وهو محبوبه ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى بلغت إليه لائقه ولا غير نفسه وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكف إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعا أنه لم يتصور أن تخطر بباله ذلك صورته فالله سبحانه على التحقيق وبرضه ينكشف الغطاء فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة وان الدار الآخرة لمسي الحيوان لو كانوا يعلمون فهذا القدر كاف في بيان توزيع الدرجات على الحسنات والله الوفاق بلطفه.

(بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب)

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب . منها الاصرار والواظبة ولذلك قيل لا صغيرة مع اصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تتصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو عنها رجي من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله ﷺ « خير الأعمال أدومها وإن قل ^(١) » والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير للتصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بفتنة من غير سوابق ولو افاق من جملة الصغائر قلما يزنى الزانى بفتنة من غير مراودة ومقدمات وقلما يقتل بفتنة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولا حقة ولو تصورت كبيرة وحدها بفتنة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها رجي من صغيرة واطب الانسان عليها عمره . ومنها أن يستصغر الذنب فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به واستصغاره يصدر عن الالف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمهذور تسويده بالسيئات ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه في الغفلة فان القلب لا يتأثر بما يجرى في الغفلة وقد جاء في الخبر « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره ^(٢) » وقال بعضهم الذنب الذي لا يغفر قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لملته بحلال الله فاذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها وبهذا الاعتبار قال بعض المارفين لا صغيرة بل كل مخالفة فهي كبيرة وكذلك قال بعض الصحابة

شغل بغير معاملتك اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه اللهم إني أستغفرك من كل عقد عقدته ثم لم أوف به اللهم إني أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فقويت بها على معصيتك اللهم إني أستغفرك من كل عمل عملته لك غفلة ما ليس لك اللهم إني أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد وأسألك جوامع الخير وفوائده وخوائمه وأعوذ بك من جوامع الشر وفوائده وخوائمه اللهم احفظنا فيما أمرتنا واحفظنا عما نهيتنا واحفظ لنا ما أعطيتنا يا حافظ

(١) حديث خير الأعمال أدومها وإن قل متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحب وقد تقدم
(٢) حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه الحديث البخارى من رواية الحرث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه فقد ذكر هذا وحديث لله أفرح بتوبة العبد ولم يبين المرفوع من الموقوف وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه موقوفا ومرفوعا .

رضى الله عنهم للتابعين إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعتها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اللوبات إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أمم فكانت الصفات عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر وبهذا السبب يعظم من العالم ما يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العاصي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف . ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والنفلة عن كونه سبب الشقاوة فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بتعارفه إياه كما يقول أمارأيتني كيف مزقت عرضه ويقول الناظر في مناظرته أمارأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ويقول العامل في التجارة أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبته في ماله وكيف استحتمته فهذا وأمثاله تكبر به الصفات فإن الذنوب مهلكات وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحبل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى فالمرض الذي يفرح بأن ينسكر إناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه . ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإهماله إياه ولا يدري أنه إنما يعمل مقنا ليزداد بالامهال إنما فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكان السرور بالله كما قال تعالى - ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير - ومنها أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سده عليه وتعريك لرغبة الشرف من اسمه ذنبه أو أشهده فله فيها جنايتان انضمتا إلى جنايته فقلبت به فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهميته الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر وفي الخبر « كل الناس معافي إلا المجاهرين ببيت أحدم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه (١) » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك السر فالإظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم لا تذب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذب ذنبين ولذلك قال تعالى - الناقدون والناققات بعضهم من بعض يأمرون بالفسك والمنكر وينهون عن المعروف - وقال بعض السلف ما تهتك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على مصيبتهم يهونها عليه . ومنها أن يكون الذنب عالماً يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كبس العالم الأبريسم وركوبه مراكب الذهب وأخذته مال الشبهة من أموال السلاطين ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته أيام بترك الانكار عليهم وإطلاق اللسان في الأعراض وتعدته باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لا يقصده إلا الجاه كعلم الجدول والمناظرة فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيحوت العالم ويبقى شره مستطير في العالم آماداً متطاولة فطوبى لمن إذامات ماتت ذنوبه معه وفي الخبر « من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً (٢) » قال تعالى - ونكتب ما قدموا وآثارهم - والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق وقال بعضهم

الحافظين وياذا كر
الذاكرين وياشا كر
الشاكرين بذكرك
ذكروا وبفضلك
شكروا يا غياث ياغيث
يا مستغاث ياغيث
المستغيثين لا تنكني إلى
نفسى طرفة عسين
فأهلك ولا إلى أحد من
خلقك فأضيع الأكلاني
كلاءة الوليد ولا تغل
عنى وتولني بما تتولى به
عبادك الصالحين أنا
عبدك وابن عبدك
ناصر بيدك جار في
حكمتك عدل في
نصاؤك نافذ في مشيئتك
إن تعذب فأهل ذلك
أنا ، وإن رحم فأهل
ذلك أنت فاقبل اللهم
يا مولاي يا الله يارب
ما أنت له أهل ولا تفعل

(١) حديث كل الناس معافي إلا المجاهرين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة باللفظ كل أمي وقد تقدم (٢) حديث من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها الحديث مسلم من حديث جرير بن عبدالله وقد تقدم في آداب الكسب .

مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تفرق ويفرق أهلها . وفي الاسرائيليات : إن طالما كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فصل في الاصلاح دهرًا فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرت له ولكن كيف بمن أضلت من عبادي فأدخلتهم النار . فهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان : إحداهما ترك الذنوب والأخرى إخفاؤها كتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا فإذا ترك التجمل والليل إلى الدنيا وقع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويتقدي به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به ولا يقدررون على التجمل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك فخر كات العلماء في طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالبرج وإما بالحسران وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها .

(الركن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر)

فد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا وذلك الندم أوره العلم يكون المعاصي حائلا بينه وبين محبوه ولشكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ولتمامها علامة ولدوامها شرط فلا بد من بيانها . أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي . وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والنكر فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو يبعث أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه وأى عزيز أعز عليه من نفسه وأى عقوبة أشد من النار وأى شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي وأى عجز أصدق من الله ورسوله ولو حدثه إنسان واحد يسمى طيبا أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه لظال في الحال حزنه فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على اللوث من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض به للنار فأتم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى فلامحة صححة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفي الخبر « جالسوا التوابين فأنهم أرقق أفئدة (١) » ومن علامته أن تحسكن حرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالليل كراهية وبالرغبة نفرة . وفي الاسرائيليات : إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه وقد سأله يقول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم يقبول توبته فقال وعزنى وجلالى لو شفيع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه في قلبه . فان قلت فالذنوب هى أعمال مشتهة بالطبع فكيف يجد مرارتها ؟ فأقول من تناول عسلا كان فيه سم ولم يدركه بالدوق واستلته ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وقلبت أعضاؤه فاذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فان قلت لا فهو جحد للمشاهدة والضرورة بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم أيضا لشبهه به فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعله بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الايمان ولما عز مثل هذا الايمان عزت التوبة والتائبون فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها فهذا شرط تمام الندم وينبغى أن يدوم إلى اللوث

اللهم يارب يا الله
ما أنا له أهل إنك أهل
التقوى وأهل المغفرة
يا من لا تضمره الذنوب
ولا تنقصه المغفرة هب
لى ما لا يضرك وأعطينى
مالا ينقصك ياربنا
أفرغ علينا صبورا
وتوفنا مسلمين توفى
مسلمًا وألحقنى
بالصالحين أنت ولينا
فاغفر لنا وارحمنا وأنت
خير العاقرين ربنا
عليك توكلنا وإليك
أنبنا وإليك المصير
ربنا اغفر لنا ذنوبنا
وإسرافنا فى أمرنا
وثبت أقدامنا وانصرنا
على القوم الكافرين
ربنا آتنا من لدنك
رحمة وهى لنا من
أمرنا رشدا ربنا

(١) حديث جالسوا التوابين فأنهم أرقق أفئدة لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبي الدنيا فى التوبة قال جالسوا التوابين فان رحمة الله إلى النادم أقرب وقال أيضا فالوعظ إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب وقال أيضا التائب أسرع دمة وأرق قلبا .

وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجدمتناول السم في العسل النخرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم إذ لم يكن ضرره من العسل بل بمافيها ولم يكن ضرر التائب من سرقة وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب . وأما القصد الذي ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضي وهو تدارك ما فرط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك العصية إلى الموت . وشروط محبتها يتعلق بالماضي أن يرد فكره إلى أول يوم يبلغ فيه بالنسب أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة وسنة وشهر اشهرها ويوما يوما ونفسا نفسا وينظر إلى الطاعات ما لذي قصر فيه منها وإلى المعاصي ما لذي قارفه منها فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية فيقيضها عن آخرها فإن شك في عدد ما فاتته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضى الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد . وأما الصوم فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أنهطر عمدا أو نسي النية بالليل ولم يقض فيتصرف بمجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويستقل بقضائه ، وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة في مال الصبي فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه في ذمته فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى فيقضى جميع ذلك فإن ذلك لا يجزئه أصلا وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء . وأما الحج فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فضليه الخروج فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به فإنه إن مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا (١) » والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها . وأما المعاصي فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صفاتها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد كنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنابة ومس مسح غير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاء وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث اللذة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله ﷺ « اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها (٢) » بل من قوله تعالى - إن الحسنات يذهبن السيئات - فيكفر جماع الملاهي بسماع القرآن وبجالس الذكر ويكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ويكفر من الصحف عمدتبا كرام للصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقيله بأن يكتب مصحفا ويجعله وقفا ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه وعد جميع المعاصي غير ممكن وإنما المقصود سلوك

(١) حديث من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا الحديث تقدم في الحج (٢) حديث اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها الترمذي من حديث أبي ذر وصححه وتقدم أوله في آداب الكسب وبضه في أوائل التوبة وتقدم في رياضة النفس .

آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارزقنا العون على الطاعة والعصمة من العصية وإفراغ السبر في الخدمة وإيداع الشكر في النعمة وأسألك حسن الخاتمة وأسألك اليقين وحسن المعرفة بك وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك وأسألك الرضا وحسن الثقة بك وأسألك حسن النقلب إليك اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصلح أمة محمد اللهم ارحم أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد فرجا عاجلا ربنا اغفر

الطريق المضادة فإن المرض يالج بضده فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمصيبة فلا يحسها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها والتضادات هي التناسبات فلذلك ينبغي أن تحمي كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة وهذا التدرج والتحقيق من التلطيف في طريق الموهو فالجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضا مؤثرا في الموهو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . وبدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدينار رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والخنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينفو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له إذ القلب يتجاف بالمهموم والعموم عن دار المهموم قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا المهموم ^(١) » وفي لفظ آخر « إلا المهم بطلب العيشة » وفي حديث عائشة رضی الله عنها « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه المهموم فتكون كفارة لذنوبه ^(٢) » ويقال إن المهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلمة الذنوب والمهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع . فان قلت هم الإنسان غالبًا بما له وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة . فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لثمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له كيف تركت الشيخ الكئيب فقال قد حزن عليك حزن مائة شكلى قال فما له عند الله قال أجر مائة شهيد فاذن المهموم أيضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . وأما مظالم العباد فيها أيضا مصيبة وجناية على حق الله تعالى فان الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا لما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والالتيان بالحسنات التي هي أضعافها فيقابل إبداءه الناس بالاحسان إليهم ويكفر غضب أموالهم بالصدق بملكه الحلال ويكفر تناول أعراضهم بالعبية والتمسح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ويكفر قتل النفوس باعتناق الرقاب لأن ذلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيدة والاعتناق إيجاد لا يقدر الإنسان على الأكثر منه فيقابل الأعدام بالإيجاد وهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والموهو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل باعتناق رقبة ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما في النفوس والأموال والأعراض أو القلوب أعنى به الإبداء المحض . أما النفوس فان جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إيمانه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول وإن كان عمدا موجبا لاقصاص قبلتصاص فان لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم ويحكمه في روحه فان شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهده إلا بهذا ولا يجوز له الاخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فانه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالى استيفاء حق الله تعالى بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ويقم حد الله على نفسه بأزواج المجاهدة والتعذيب فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين فان رفع أمر هذه إلى الوالى حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روى « أن ما عزم بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم

لنا ولا خواتنا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم اللهم اغفر لي ولوالدي ولمن تولدنا وارحمهما كما ربياني صغيرا واغفر لأعمامنا وعماتنا وأخواننا وخالاتنا وأزواجنا وفدياتنا وجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات بأرحم الراحمين يا خير الغافرين ولما كان الدعاء مخ العبادة أحببنا أن نستوفي من ذلك نسما صالحا نرجو بركته وهذه الأدعية استخرجها الشيخ

(١) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا المهموم وفي لفظ آخر إلا المهم في طلب المعيشة طس وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف تقدم في النكاح (٢) حديث إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه العموم وتقدم أيضا في النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ ابتلاه الله بالحزن .

فقال يارسول الله إني ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني فرده فلما كان من الغد أتاه فقال يارسول الله إني قد زنيت فرده الثانية فلما كان في الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم فكان الناس فيه فريقين فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول مأتوبة أصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لو سمعتم (١) وجاءت الغامدية فقالت « يارسول الله إني قد زنيت فطهرني فردها فلما كان من الغد قالت يارسول الله لم تردني لعلك تريد أن تردني كما رددت ما عزا فوالله إني لحبلى فقال صلى الله عليه وسلم أما الآن فاذهي حتى تضعي فلما ولدت أنت بالصبي في خرقة فقالت هذا قد ولدته قال اذهبي فأرضعيه حتى تظطيه فلما فطمتها أنت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت يا بني الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتضح الدم على وجهه فسبها فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تاب توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (٢) .

وأما القصاص وحد القذف : فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه وإن كان تناول مالا تناوله بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبس كتروج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجره أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لامن حد بلوغه بل من أول مدة وجوده فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيه فإن لم يفعل كان ظالما مطالبا به إذ يستوى في الحقوق المالية الصبي والبالغ وليحاسب نفسه على الحيات والدوايق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه فإن حصل مجرم ماعليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد يمكن فليكتبه وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحدا واحدا وليظف في نواحي العالم وليطاهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم وهذه التوبة تشق على الظالمة وعلى التجار فاتهم لا يقدر على طلب العاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من السيئات أرباب المظالم فيهلك بسببها غيره فهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا واجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف وربما يكون الأجل قريبا فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته . أما أمواله الحاضرة فلا يرد إلى المالك ما يعرف له مال كما عينا وما لا يعرف له مال كما فعله أن يتصدق به فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك القدر كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام . وأما الجناية على القلوب بمشاهدة الناس بما يسوؤهم أو يهينهم في الغيبة فيطلب كل من تعرض له بلسانه أو أذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا في القيامة وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه أن يعرفه قدر جنايته

(١) حديث اعتراف معاوية بالزنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربعا وقوله لقد تاب توبة الحديث مسلم من حديث بريدة بن الحصيب (٢) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله صلى الله عليه وسلم : لقد تاب توبة الحديث مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله .

أبو طالب المكي رحمه الله في كتابه قوت القلوب وعلى تله كل الاعتقاد وفي البركة فليدع بهذه الدعوات منفردا أو في الجماعة إماما أو مأموما ويختصر منها ما يشاء [الباب المحسون في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الأوقات]

فمن ذلك أن يلازم موضعه الذي صلى هو فيه مستقبل القبلة إلا أن يرى انتقاله إلى زاويته أسلم لدينه لئلا يحتاج إلى حديث أو التفات إلى شيء فإن السكوت في هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بين يجمده أهل

وتعرضه له فالاستحلال المبهم لا يكتفى وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالاحلال
 وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته فان كان في جملة جنائته على
 الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بعمرته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبه باللسان إلى عيب من خفايا
 عيوبه يعظم أذاه مهما عوفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال فليس له إلا أن يستحل منها ثم
 تبقى له مظلة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلة الليل والغائب . وأما الذكر والتعريف فهو سيئة
 جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنائته وعرفه المجنى عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال
 بقيت المظلة عليه فان هذا حقه فليس له أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من
 حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه فان الانسان عبد الاحسان وكل من نقر ببينة مال بحسنة
 فاذا طاب قلبه بكثرته وتودده وتلطفه صمحت نفسه بالاحلال فان أبي إلا الاصرار فيكون تلطفه به
 واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنائته وليكن قدر سعيه في فرحه
 وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك
 منه عوضا في القيامة بحكم الله به عليه كمن أتلف في الدنيا مالا لجاء بمثله فامتنع من له المال من
 القبول وعن الإبراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبي فكذلك يحكم في صعيد القيامة
 أحكم الحاكمين وأعدل القسطين وفي التفتق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله
 صلى الله عليه وسلم قال « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم
 أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ قال لا
 فقتله فكل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة نفس
 فهل له من توبة ؟ قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فان بها
 أناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فانها أرض سوء فانطلق حتى إذا
 نصف الطريق أتاه الموت فاخضعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة
 جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط فأتاهم ملك في صورة آدمي
 فجعلوه حكماً بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاموا فوجدوه أدنى
 إلى الأرض التي أراد قبضته ملائكة الرحمة (١) « وفي رواية : فكان إلى القرية الصالحة أقرب
 منها بشبر فجعل من أهلها . وفي رواية : فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى
 وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فقفر له ، فهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان
 ميزان الحسنات ولو بمشقال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضي .
 وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقدا مؤكداً وبماهده . بهد وثيق أن لا يعود
 إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلاً فيعزم عزمًا جزماً
 أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه فان هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تغلبه
 الشهوة في ثانی الحال ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب
 في أول أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال فان كان له مال موروث
 حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فيقتصر عليه فان رأس للعاصي أكل الحرام
 فكيف يكون تائباً مع الاصرار عليه ولا يكتفى بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات

للعاملة وأرباب القلوب
 وقد ندب رسول الله
 صلى الله عليه وسلم إلى
 ذلك ثم يقرأ الفاتحة
 وأول سورة البقرة إلى
 للفلقون والآيتين
 وبالحكم إله واحد وآية
 الكرسي والآيتين
 بعدها وآمن الرسول
 والآية قبلها وشهد الله
 وقال اللهم مالك الملك
 وإن ريكم الله الذي
 خلق السموات
 والأرض إلى الحسين
 ولقد جاءكم رسول إلى
 الآخر وقل ادعوا الله
 الآيين وآخر الكهف
 من إن الذين آمنوا
 وذا النون إذ ذهب
 مغاضباً إلى خير الوارثين
 فسبحان الله حين
 تمسون وحين تصبحون

(١) حديث أبي سعيد الخدري التفتق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل
 عن أعلم أهل الأرض الحديث هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبي سعيد .

في المأكولات واللبوسات وقد قال بعضهم من صدق في ترك الشهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها . وقال آخر من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبدا . ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالما أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب كالذي يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لاتصح وقال قائلون تصح ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل بل نقول لمن قال لاتصح إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لايفيد أصلا بل وجوده كعدمه لما أعظم خطأك فانا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقتها سبب لقلته ونقول لمن قال تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضا خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلم في خفايا أسرار عفو الله فان قال من ذهب إلى أنها لاتصح إن أردت به أن التوبة عبارة عن الندم وإنما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لالكونها سرقة ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجهه لأجل المعصية فان العلة شاملة لها إذ من يتوجه على قتل ولده بالسيف يتوجه على قتله بالسكين لأن توجهه بغوات محبوبة سواء كان بالسيف أو بالسكين فكذلك توجه العبد بغوات محبوبة وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجه على البعض دون البعض فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفقوتة للمحبوب من حيث إنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون البعض ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدين دون الآخر فان استحال ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحد وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة فاذن معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لاتنال إلا بالندم ولا يتصور الندم على بعض التائبات فهو كالمالك المرتب على الإيجاب والقبول فانه إذا لم يتم الإيجاب والقبول قول إن العقد لا يصح أي لم ترتب عليه الثمرة وهو الملك وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمره الندم تكفير ماسبق فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يتم جميع المعاصي وهو كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء . فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه كالذي يخفى على أهل الملك وحرمه ويخفى على دابته فيكون خائفا من الجنابة على الأهل مستحقرا للجنابة على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثرت التائبون في الأعصار الحاليه ولم يكن أحد منهم معصوما فلا تستدعي التوبة العصمة والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديدا ويحذره السكر تحذيرا أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلا فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعا بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر . الثاني أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله كالذي يتوب عن القتل والتب والظلم ومظالم العباد لعله أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه فهذا أيضا ممكن كافي تفاوت

وسبحان ربك إلى آخر
السورة ولقد صدق الله
وأول سورة الحديد إلى
بذات الصدور وآخر
سورة الخثر من
لو أنزلنا تمسيح ثلاثا
وثلاثين وهكذا محمد
مثله ويكبر مثله ويتمها
مائة بلا إله إلا الله وحده
لا شريك له فاذا فرغ
من ذلك يشتغل بتلاوة
القرآن حفظا أو من
المصحف أو يشتغل
بأنواع الأذكار ولا
يزال كذلك من غير
قصور وقصور ونعاس
فان النوم في هذا الوقت
مكروه جدا فان غلبه
النوم فليقم في مصلاه
فأعما مستقبل القبلة
فان لم يذهب النوم
بالقيام يخطو خطوات

الكبائر والصغائر لأن الكبائر أيضا متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها ، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لاتتملق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا ، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فبحسب ترجع شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركا في المستقبل وندما على الماضي . الثالث أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة كالذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير الحرم أو ما يجرى مجراه وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضا ممكن ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه وندم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا ولكن تكون لفته نفسه في تلك العصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والافقة وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لا يكون مليا بتحريك العزم ولا قويا عليه ، فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك العصية وقد تشدد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه وتكون له ضراوة ما بالغيبية وثلب الناس والنظر إلى غير الحرم وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يقطع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك بل يقول هذا الفاسق في نفسه : إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذار وأرخصي العنان بالكلية بل أجاهده في بعض المعاصي فمما أغلبه فيكون قهرى له في البعض كفارة لبعض ذنوبى ، ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصلى وبصوم ولقيل له إن كانت صلاتك تغير الله فلا تصح وإن كانت لله فترك الفسق لله فإن أمر الله فيه واحد فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى ما لم تقرب بترك الفسق وهذا محال بأن يقول لله تعالى على أمران ولى على الخالفة فيهما عقوبتان وأنا ملى في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر فأنا أقهره فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عنى بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم . إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له إلا هذا وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها ، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « الندم توبة » ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ولم يقل التائب من الذنوب كلها وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متماثلة في حق الشهوة وفي حق التعرض إلى سخط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون التبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط ويتوب عن الكثير دون القليل لأن لكثرة الذنوب تأثيرا في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى كالمرضى الذى حذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلا ولكن لا يستكثر منها فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شئ ولا يتوب عن مثله بل لا بد وأن يكون ماتاب عنه مخالفا لما بقى عليه إما في شدة العصية وإما في غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله في الخوف والندم فيتصور اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذنب ووقاؤه بعزمه على الترك يلحقه عن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي . فإن قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة . فأقول لا ، لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فما يقدر على فعله ومالا يقدر على فعله فقد اندم بنفسه لا بتركه إياه ولكنى أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تخفق به ضرر الزنا الذى قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الواقع به باقية

نحو القبلة وتأخر بالخطوات كذلك ولا يستدبر القبلة في إقامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر في هذا الوقت أثر كبير وبركة غير قليلة . وجدنا ذلك بحمد الله ونوصى به الطالبين ، وأثر ذلك في حق من يجمع في الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر وهذا الوقت أول النهار والنهار مظنة الآفات فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد حكم ببقائه وتبتي أوقات النهار جميعا على هذا البناء فلذا قارب طلوع الشمس يتسدى بهراء المساعات العشر

لكانت حرقه الندم تتمتع تلك الشهوة وتغلبها فاني أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحبا عنه
 سيئه إذ لاخلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ
 عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه نائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغا
 أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده فاذن لا يستجبل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا يبلغ
 إلا أنه لا يعرفه من نفسه فان كل من لا يشتهي شيئا يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف والله
 تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فساء يقبله منه بل الظاهر أنه يقبله والحقيقة في هذا كله
 ترجع إلى أن ظلمة العصية تتمحى عن القلب بشيئين : أحدهما حرقه الندم ، والآخر شدة المجاهدة
 بالترك في المستقبل وقد امتعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى
 على محوها دون المجاهدة ولولا هذا لقلنا إن التوبة لا تقبل مالم يمض التائب بعد التوبة مدة يجاهد
 نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما لا يبدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا. فان قلت
 إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن الزروع إلى الذنب والآخر بقي في نفسه نزوع إليه وهو
 يجاهدها ويمنها فأيهما أفضل ؟ . فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه ، فقال أحمد بن أبي الخوارى
 وأصحاب أبي سليمان الداراني إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد. وقال علماء البصرة ذلك
 الآخر أفضل لأنه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرصة الفتور عن
 المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه أن
 الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان : إحداهما أن يكون انقطاع نزوعه إليها بمتور في نفس الشهوة
 فقط فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو
 دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين ، وأعلى بقوة الدين قوة الإرادة التي تنبث بإشارة اليقين
 وتقمع الشهوة النبعة بإشارة الشياطين فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعا وقول القائل إن هذا
 أسلم إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ وهو كتقول القائل
 العنين أفضل من الفحل لأنه في أمن من خطر الشهوة والصبي أفضل من البالغ لأنه أسلم والفلس أفضل
 من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن الفللس لأعدوه له والملك ربما يغلب مرة وإن غلب مرات وهذا
 كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز في الأخطار وأن العلو شرطه اقتحام
 الأعرار بل كقول القائل الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة
 من صاحب الكلب والفرس لأنه آمن من أن يجمح به فرسه فتتكسر أعضاؤه عند السقوط على
 الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويستدى عليه وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان
 قويا عالما بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد . الحالة الثانية : أن يكون بطلان
 النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب
 الشرع فلا تهيج إلا بالإشارة من الهين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها فهذا أعلى رتبة من
 المجاهد القاسى لهيجان الشهوة وقمعها ، وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الاحاطة
 بمقصود الجهاد فان الجهاد ليس مقصودا لهينه بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك إلى شهوراته
 وإن هجم عن استجراك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت وما دمت
 في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر ومثاله كمثل من قهر العدو واسترقه بالاضافة إلى من هو مشغول بالجهاد
 في صف القتال ولا يدري كيف يسلم ومثاله أيضا مثال من علم كلب الصيد يروض الفرس فهما نائمان عنده
 بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجراح بالاضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ولقد ذل

وهي من تطهير الخضر
 عليه السلام عليها
 ابراهيم التيمي وذكر
 أنه تعلمها من رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ،
 وينال بالمدامة عليها
 جميع التفريق في
 الأذكار والدعوات ،
 وهي عشرة أشياء
 سبعة سبعة الفأحة
 والعودتان وقل هو
 الله أحد وقل يا أيها
 الكافرون وآية
 الكرسي وسبحان الله
 والحمد لله ولا إله إلا الله
 والله أكبر والصلاة
 على النبي وآله ويستغفر
 لنفسه ولوالديه
 وللمؤمنين والمؤمنات
 ويقول سبحان الله أفضل
 في وهم عاجلا وآجلا
 في الدين والدنيا والآخرة

في هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ولم يطلوا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماتها بالكلمة مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فبجز عنه فقال هذا محال فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة واسترسل في اتباع الشهوات وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربيع للهلكات . فان قلبت لما أولئك في تائبين أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكير فيه والآخر جملة نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويمحرق ندماعليه فأيهما أفضل . فاعلم أن هذا أيضا قد اختلفوا فيه فقال بعضهم حقيقة التوبة أن تصب ذنبك بين عينيك . وقال آخر حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك وكل واحد من المذهبين عندنا حق ولكن بالإضافة إلى حالين وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصرا فان عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال وهذا نقصان بالإضافة إلى المهمة والارادة والجد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لايهمه أمر غيره إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازله أحواله وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم فالطريق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد والله أعلم بمن هو أهدى سبيلا مع الاشتراك في أصل الهداية . فأقول تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال في حق البتديء لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعثه لسلك الطريق ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله فهو بالإضافة إلى العاقل كمال ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فانه شغل مانع عن سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغي أن لا يبرح على غير السلك فان ظهر له مبادئ الوصول وانكشف له أنوار المعرفة ولو امعن النيب استقره ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ماسبق من أحواله وهو الكمال بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب المسافر في عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل فلو جلس على شاطئه التهر بعد عبوره يبكي متأسفا على تخريبه الجسر كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك للمانع ، نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلا فتعذر السلك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطلل بالليل بكأوه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله فان حصل له من التنبية ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلك الطريق أولى بمن الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والقصد والعاثق وطريق السلك وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربيع للهلكات بل تقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة لتزيد رغبته ولكن إن كان شابا فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالحور والقصور فان ذلك الفكر بما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة فالمبتدي أيضا قد يستضربه فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدق عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكي لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فان قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللاتقة بأهمهم فانهم ما بعثوا إلا لإرشادهم فطهيم التلبس بما تنتفع أهمهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويغوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهلا للأمر على المرید ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشترع ^(١) » وفي لفظ « إنما أسهو لأسن » .

مأنت له أهل ولا
تفعل ربنا يا مولانا
ما نحن له أهل إنك
غفور حلیم جواد كريم
رءوف رحيم . وروى
أن ابراهيم التيمي لما
قرأه بعد أن تلمها
من الحضرة رأى في المنام
أنه دخل الجنة ورأى
اللائكة والأنبياء
عليهم السلام وأكل
من طعام الجنة وقيل
إنه مكث أربعة أشهر
لم يطعم وقيل لعله كان
ذلك لكونه أكل من
طعام الجنة فاذا فرغ
من السموات أقبل
على التسييح
والاستغفار والتلاوة
الى أن تطلع
الشمس قدر رمح .

(١) حديث « أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشترع ذكره مالك بلاغا بغير إسناد وقال ابن عبد البر

ولا تعجب من هذا فان الأم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء وكالمواشى في كنف الرعاة أما ترى الأب إذا أراد أن يستطق ولده الصبي كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن « كخ كخ (١) » لما أخذ تمر من تمر الصدقة ووضعها في فيه وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول ارم هذه التمرة فانها حرام ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل إلى لسانه بل الذي يعلم شاة أو طأرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبيعة والطائر تلتطفا في تعليمه فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فانها مزلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

(بيان أقسام العباد في دوام التوبة)

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات . الطبقة الأولى : أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبها هو السابق بالخيرات للتبديل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة التوبة النصوح واسم هذه النفس السائكة النفس اللطيفة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا (٢) » فان فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة فمترزاعها ولم يشغله عن السلوك صرعها وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملئ بجاهدتها وردها ثم تفاوتت درجات النزاع أيضا بالكرة والقلة وباختلاف المدة وباختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن غنطت يموت قريبا من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ومن مجمل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته وحال هذا أعلا وأفضل إذ كل سيئة فأنما تجوحها حسنة حتى قال بعض العلماء إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتخضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانكشاف فانه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على العصية وينقض توبته بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فيه تسلم توبته في الابتداء . الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كباثر الفواحش كلها إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتره لاعتن عمد وتجريد قصد ولكن يبئلى بها في مجارح أحواله من غيره أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من

لا يوجد في اللوطا إلا مرسلًا لإسناد له وكذا قال حمزة الكناي إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنساطي وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه للأنمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسندا (١) حديث أنه قال للحسن كخ كخ لما أخذ تمر من الصدقة ووضعها في فيه البخاري من حديث أبي هريرة وتقدم في كتاب الحلال والحرام (٢) حديث سبق للمفردون المستهترون بذكر الله الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة وحسنه وقد تقدم .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لأن أقصد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة التداوة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » ثم صلى ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلي الركعتين وبهاتين الركعتين تبين فائدة رعاية هذا الوقت وإذا صلى الركعتين بجمع م وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ يجد في باطنه آرا ونورا وروحا وأنسا إذا كان صادقا والذي يجده

أسبابها التي تعرض لها وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لآعن تصميم عزم ونغمين رأى وقصد وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وهي أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه وإنما غاية سعيه أن يلبس خيره شره حتى يتقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى - الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع الغفرة - فكل للمم يقع بصغيرة لآعن توطئن نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه قال تعالى - والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنهم لم تندمهم ولو مهم أنفسهم عليه وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه على كرم الله وجهه « خياركم كل مفتن تواب (١) » وفي خبر آخر « المؤمن كالسنبلة تنفيء أحيانا ويميل أحيانا (٢) » وفي الخبر « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة (٣) » أي الحين بعد الحين فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقص التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة الصيرين ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار وكالضيق الذي يؤيس للفقير عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقير بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المحتطفات قال النبي ﷺ « كل بني آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون المستغفرون (٤) » وقال أيضا « المؤمن واه راقع غيرهم من مات على رقبته (٥) » أي واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة - فما وصفهم بعدم السيئة أصلا.

الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلب الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لمعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك لجملة من الذنوب مع القدرة والشهوة وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوات وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفها شرها هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم ويقول ليتني لم أقصه وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم فهذه النفس هي التي تسمى النفس اللسولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم - وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا - فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكرهاته لما تعاطاه مرجو

من البركة ثواب معجل له على عمله هذا وأحب أن يقرأ في هاتين الركعتين في الأولى آية الكرسي وفي الأخرى آمين الرسول والله نور السموات والأرض إلى آخر الآية وتكون نيته فيها الشكر لله على نعمه في يومه وليته ثم يصلي ركعتين آخرين يقرأ العوذتين فيهما في كل ركعة سورة وتكون صلواته هنه ليستزيد باقية تعالى من شر يومه وليته ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول أعوذ بأمك وكلتك التامة من شر السامة والهامة

فسمى الله أن يوب عليه وعاقبته عظيمة من حيث تسويفه وتأخير فرءسا يختطف قبل التوبة ويقع أمره في الشبهة فان تدارك الله فضله وجبر كرمه وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيجئ أن يحق عليه في الحاجة مسبق عليه من القول في الأزل لأنه مهما تمذر على التفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضف الرجاء في حقه وإذا يبرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودرجاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بشاؤل الأغذية والأدوية وارتباط حصوله النفس التي به تستحق الناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم إلا النفس صارت قهية بطول التفقيه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها وللقراب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب ولذلك قال تعالى - وقس وما سواها فألمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهوا وقد خاب من دساها - فهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب قدما والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان قال صلى الله عليه وسلم «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يلقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» (١) فاذن الخوف من الحاجة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة ما قبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلا به فليراقب الأنفاس وإلا وقع في المهذور ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر . الطبقة الرابعة : أن يتوب ويمجرى مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينمك اهتمامك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة الصرير وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على هذا سوء الحاجة وأمره في مشيئة الله فان ختم له بالسوء شق شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل أن يشملهم عموم العفو بسبب خفي لا نطلع عليه كالأستحيل أن يدخل الإنسان خرابا ليجد كثرًا فيفتق أن يجدد وأن يجلس في البيت ليحمله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكوز في المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة وليت من اجتهد تعلم وليت من أجز استغنى وليت من صام وصلى غفر له فالناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا زعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كثرًا يجده تحت الأرض في بيته الحرب بعد عند ذوى البصائر من الحق والمرورين وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير مالك سبيل المغفرة بعد عند أرباب القلوب من المتوهين والعجب من عقل هذا المتوه وترويعه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول إن الله كريم وجنته ليست

(١) حديث إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة الحديث متفق عليه من حديث سهل بن سعد قوله سبعين سنة ولمسلم من حديث أبي هريرة إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة الحديث ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة وشهر مختلف فيه

وأعوذ باسمك وكنك
التامة من شر عبادك
وشر عبادك وأعوذ
باسمك وكنك التامة
من شر ما يجري به الليل
والنهار إن ربنا الله لا إله
إلا هو عليه توكلت
وهو رب العرش العظيم
ويقول بعد الر كنتين
الأولين اللهم إني
أصبحت لأستطيع
دفع ما أكره ولا أملك
نفع ما أرجو وأصبحت
مرتها بصلى وأصبح
أمرى بيد غيري فلا
قبر أقرمى اللهم
لا تشمت بي عدوى
ولا تنسني بي صديقي
ولا تجعل مصيبي في
دينى ولا تجعل الدنيا
أكبر همى ولا مبلغ
علمى ولا تسلط على من

تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره ثم تراه يركب البحار ويقنح الأوعار في طلب الدينار وإذا قبله إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن قهرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحسب فيستحق قائل هذا الكلام ويستهيء به ويقول ما هذا المحوس السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب هكذا قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ولا يطم الغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل لها فيها جميعاً وأنه قد أخبر إذ قال - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا وكيف يقول ليس مقتضى الكرم القنوع عن كسب المال ومقتضاه القنوع عن العمل للملك للقيم والنعيم الدائم وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من جهد في الآخرة وهذا يمنه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا وينسى قوله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - فتعذباؤه من العمى والضلال فما هذا إلا انعكاس على أم الرأس وانعكاس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخل تحت قوله تعالى - ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا لعملنا صالِحاً - أي أبصرنا أنك صدقت إذ قلت - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - فارجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فتعذباؤه من دواعي الجهل والشك والارتباب السائق بالضرورة إلى سوء النقلب والمآب.

(بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما

عن قصد وشهوة غالبية أو عن إمام بحكم الاتفاق)

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لعلة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليحوها فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها فأما بالقلب فيكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعتو وتبذل كذلك العبد الأبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم فما للعبد الأبق اللذنب وجه للتكبر على سائر العباد وكذلك يضر بقلبه الخيرات للساكنين والعزم على الطاعات . وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار . وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بشمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا أربعة من أعمال القلوب وهي التوبة أو العزم على التوبة وحب الافلاح عن الذنب وتخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له وأربعة من أعمال الجوارح وهي أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبمحمد مائة مرة ثم تصدق بصدقة ثم تصوم يوماً وفي بعض الآثار تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصل ركعتين^(١) وفي بعض الأخبار تصلي أربع ركعات^(٢)

(١) أثر إن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصل ركعتين أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ثم يستغفر الله لا يغفر الله له لفظ أبي داود وهو في الكبرى للنسائي مرفوعاً وموقوفاً فعلم الصنف عبر بالأثر لارادة الوقوف فذكرته احتياطاً وإلا فالآثار ليست من شرط كتابي (٢) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل

لا يرحم الله إني أعوذ بك من الذنوب التي تزيل النعم وأعوذ بك من الذنوب التي توجب النعم ثم يصلي ركعتين أخريين بنية الاستخارة لكل عمل عمله في يومه وليلته وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الإطلاق وإلا فالاستخارة التي وردت بها الأخبار هي التي يصلها أمام كل أمر يريد ويقرأ في هاتين الركعتين - قل يا أيها الكافرون - وقل هو الله أحد - ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره في غير هذا الباب ويقول فيه كل قول وعمل أريده

وفي الخبر « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية (١) » ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار ، وفي الخبر الصحيح « أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنى عاجلت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا الليس فأقضى على بحمك الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم أو ما صليت معنا صلاة الغداة قال بلى فقال صلى الله عليه وسلم إن الحسنات يذهبن السيئات (٢) » وهذا يدل على أن ما دون الزنا من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر » ففى الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجهتد في دفعها بالحسنات. فان قلت فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الاصرار ، وفي الخبر « للستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستزىء بآيات الله (٣) » وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولى أستغفر الله ، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية : استغفارا يحتاج إلى استغفار كثير . فاعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن المصرد كرها في كتاب الأذكار والدعوات حتى قرن الله الاستغفار بقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى - وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون - فكان بعض الصحابة يقول كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فإن ذهب هاسكنا (٤) . فنقول : الاستغفار الذى هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحمك العادة وعن رأس النضلة أستغفر الله وكما يقول إذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه ، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاه في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها تصلح لأن تدفع بها السيئة ، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم « ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة (٥) » وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب وللتوبة

من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة الحديث وفيه فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فاذا هو مثل الهدية فقام نادما فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم صل أربع ركعات فأزل الله عز وجل - وأقم الصلاة طرفي النهار - الآية وإسناده جيد (١) حديث إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة السر بالسر الحديث (٢) حديث إن رجلا قال يارسول الله إنى عاجلت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا الليس الحديث في نزول - إن الحسنات يذهبن السيئات - متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ما صليت معنا صلاة الغداة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن حديث أبي أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم الحديث (٣) حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستزىء بآيات الله ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستزىء بره وسنده ضيف (٤) حديثا بعض الصحابة في قوله تعالى - وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم - الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورفضه الترمذى من حديثه أنزل الله على أمانين الحديث وضعفه وابن مردويه في تفسيره من قول ابن عباس (٥) حديث ما أصر من استغفر الحديث تخدم في الدعوات .

في هذا اليوم اجعل فيه
الحيرة . ثم يصلى
ركعتين أخريين يقرأ
في الأولى سورة الواقعة
وفي الأخرى سورة
الأعلى ويقول بعدها
اللهم صل على محمد
وعلى آل محمد واجعل
حبك أحب الأشياء
إلى وخشيتك أخوف
الأشياء عندي واقطع
عني حاجات الدنيا
بالشوق إلى لقاءك وإذا
أقررت أعدى أهل
الدنيا بدنياهم فأقرر
عيني بعبادتك واجعل
طاعتك في كل شيء
منى يا أرحم الراحمين
ثم يصلى بعد ذلك
ركعتين يقرأ فيهما
شيئا من حزبه من
القرآن ثم بعد ذلك

والاستغفار درجات وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها، ولذلك قال سهل لا بد للعبد في كل حال من مولاة فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء. فإن عصي قال يارب استر على فإذا فرغ من العصية قال يارب تب علي فإذا تاب قال يارب ارزقني العصمة وإذا عمل قال يارب تقبل مني وسئل أيضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ثم الأنا بة ثم التوبة فاستجابة أعمال الجوارح والأنا بة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاة بأن يترك الحلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل إلى الانفراد ثم النبات ثم البيان ثم الفسك ثم المعرفة ثم المنجاة ثم المصافة ثم الموالاة ثم محادثة السرو وهو الخلة ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش، وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم « التائب حبيب الله » فقال، إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى - التائبون العابدون - الآية. وقال الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه، والمقصود أن للتوبة ثمرتين إحداهما تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له. والثانية نيل الدرجات حتى يصير حبيبا وللتكفير أيضا درجات فبعضه محو لأصل الذنب بالكيفية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فلا تستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات فليس يخلو عن الفائدة أصلا فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - صدق وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر كالاتخو شعيرة تطرح في الليران عن أثر ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجع الليران بأعمال الذرات وذلك بالضرورة بحال بل ميزان الحسنات يرجع بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كمة السيئات فيألك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيا وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الحرقاء تكسل عن الغزل تعلا بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول أي غنى يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب ولا تدرى المتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة فاذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغية مسلم أو فضول كلام بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب. ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان الغربي: إن لسانى في بعض الأحوال يجرى بالذكر والقرآن وقلبي غافل. فقال اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعود الفضول وما ذكره حق فإن تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي فمن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه إلى ما تعود فقال أستغفر الله ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحقك وما أقبح كذبك ومن تعود الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان نعوذ بالله وإذا تعود الفضول قال لعنه الله فيمضى في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معانى قوله تعالى - إن الله لا يضيع أجر المحسنين - ومعانى قوله تعالى - وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما - فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع تلك العادة شر العصيان بالغبية واللعن والفضول هذا تضيق في الدنيا لأدنى الطاعات وتضيق الآخرة أكبر لو كانوا

إن كان متفرغا ليس له شغل في الدنيا يتنقل في أنواع العمل من الصلاة والتلاوة والذكر إلى وقت الضحى وإن كان ممن له في الدنيا شغل إما لنفسه أو لعيله فليحض لحاجته ومهامه بعد أن يصلى ركعتين لخروجه من المنزل وهكذا ينبغي أن يفعل أبدا لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصلى ركعتين ليقية الله سوء المخرج ولا يدخل البيت إلا ويصلى ركعتين ليقية الله سوء المدخل بعد أن يسلم على من في المنزل من الزوجة وغيرها وإن لم يكن في البيت

يعلمون - فإياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتت رغبته عن العبادات فإن هذه مكيدة وروجها الشيطان بلمسته على الغرورين وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التنظن للخفايا والسرائر فأى خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب فاقسم الخلق في هذه الكيدة إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات . أما السابق فقال صدقت ياملعون ولكن هي كلمة حق أردت بها اباطلة فلا جرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب فكان كالذى داوى جرح الشيطان بثر الملح عليه . وأما الظالم الغرور فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فأسعف الشيطان وتدل بجمل غروره فتمت بينهما المشاركة والواقعة كإبل : وافق شن طبقه . واقفه فاعتنقه . وأما المقتصد فلم يقدر على إرغامه باشتراك القلب في العمل وتفطن لتقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير فكان السابق كالحائك الذى ذمت حيا كنهه فتركها وأصبح كاتباً والظالم الخلف كالذى ترك الحياكة أصلاً وأصبح كناساً والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال لأنكر مقدمة الحياكة ولو لكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس فاذا عجزت عن الكتابة فلا ترك الحياكة ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارتنا يحتاج إلى استغفار كثير فلا تظن أنها تدم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله بل تدم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فان سكنت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد فكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يدم وحمد ما يحمى وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات القارين. فان هذه أمور ثبتت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة بل ينبغي أن لا تستغفر ذرات الطاعات والمعاصي ولذلك قال جعفر الصادق إن الله تعالى خبياً ثلاثاً في ثلاث رضاه في طاعته فلا تحقرها منها شيئاً ففعل رضاه فيه وغضبه في معاصيه فلا تحقرها منها شيئاً ففعل غضبه فيه وخبياً ولايته في عبادته فلا تحقرها منهم أحداً ففعله ولى الله تعالى وزاد وخبياً إجابته في دعائه فلا تركوا الدعاء فربما كانت الاجابة فيه .

(الركن الرابع في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار)

اعلم أن الناس قيمان : شاب لاصبوة له نشأ على الخير واجتنب الشر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعجب ربك من شاب ليست له صبوة (١) » وهذا عزير زنادر: والقسم الثانى هو الذى لا يخلو عن مقارفة الذنوب ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه . فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الدواء إذ لا معنى للدواء إلا مناضة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورضه وإبطاله ولا يطل الشيء إلا بضده ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاعف الغفلة إلا العلم ولا يضاعف الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال تعالى - وأولئك هم المفلون لاجرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون - فلادواء إذن للتوبة إلا المعجون بسجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر وكما يجمع السكنجيين بين حلاوة السكر وحموضة الحلل ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيجمع الأسباب المهيجة للصفراء فكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار فاذا ن هذا الدواء أصلاً : أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من بيانها .

(١) حديث يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة .

أحد يسلم أيضاً ويقول السلام على عباد الله الصالحين المؤمنين وإن كان متفرغاً فأحسن أشغاله في هذا الوقت إلى صلاة الضحى الصلاة فان كان عليه قضاء صلى صلاة يوم أو يومين أو أكثر وإلا فليصل ركعات بطولها ويقرأ فيها القرآن فقد كان من الصالحين من يحتم القرآن في الصلاة بين اليوم والليله وإلا فليصل أعداداً من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وبالآيات التى فى القرآن وفيها الدعاء مثل قوله تعالى - ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير -

فان قلت أينفع كل علم لحل الاصرار أم لا يد من علم مخصوص . فاعلم أن العلوم يحملتها أدوية لأعراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الاصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم ، فنقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأمر : الأول أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبته مسبب الأسباب وهذا هو الايمان بأصل الطب فان من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الملاك وهذا وزانه مما نحن فيه الايمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة في الآخرة سببا هو الطاعة وللشقاوة سببا هو المصيبة وهذا هو الايمان بأصل الشرائع وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الايمان . الثاني أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب فان إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرد دون هذا الايمان ، ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والايمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف . الثالث أنه لا بد أن يصغى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب للضرة على الجملة حتى يفلت عليه الخوف في ترك الاحتياء فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتياء ووزانه من الدين الاصفاء إلى الآيات والأخبار الشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف القوي على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج . الرابع أن يصغى إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتياء عنه ليعرفه أو لا يفصل ما يضره من أفعاله وأحواله وما كوله ومشروبه فليس على كل مريض الاحتياء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ثم إلى العلم بأفاتها وقدر ضررها ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وإن كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك ، وذلك بأن يتكفل كل عالم باقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ولا يبنسى أن يصبر إلى أن يسأل عنه بل يبنسى أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فاتهم ورثة الأنبياء والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم فان مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه مالم يعرفه غيره . وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة قتيها متدينا يعلم الناس دينهم فان الحلق لا يولدون إلا جهالا فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع والدنيا دار الرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمى أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقبده بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس وإنما صار مرضى القلوب أكثر من مرض الأبدان ثلاث علل : إحداهن أن المريض به لا يدري أنه مريض . والثانية أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن

وأمثال هذه الآية يقرأ في كل ركعة آية منها إما مرة أو يكررها مهما شاء ويقدر للطالب أن يصلي بين الصلاة التي ذكرناها بعد طلوع الشمس وصلاة الضحى مائة ركعة خفيفة وقد كان في الصالحين من ورده بين اليوم والليلة مائة ركعة إلى مائتين إلى خمسمائة إلى ألف ركعة ومن ليس له في الدنيا شغل وقد ترك الدنيا إلى أهلها فما باله يظن ولا يتعم بخدمة الله تعالى . قال سهل بن عبد الله التستري لا يكمل شغل قلب عبد بالله الكريم وله في الدنيا حاجة فإذا ارتفعت الشمس

فإن عاقبة موت مشاهد تنفر الطباع منه وما بعد اللوت غير مشاهد وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم قتلت النفرة عن الذنوب وإن عليها مرتكبها فذلك تراه يتكلم على فضل الله في مرض القلب ويجهد في علاج مرض البدن من غير انكال . والثالثة : وهو الداء الضال فقد الطيب فإن الأطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضا شديدا همزوا عن علاجه وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر قصانهم فاضطروا إلى إغواء الخلق والاشارة عليهم بما يزيد مرضا لأن الداء للهالك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافا من أن يقال لهم فإياكم تأمرون بالعلاج وتفسون أنفسكم فهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء واتطع الدواء وهلك الخلق لتقعد الأطباء بل اشتغل الأطباء بفتن الإغواء فليتبهم إذ لم ينصحوا الممشوا وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا ولينهم سكتوا وما نطقوا فاتهم إذا تكلموا لم يهجم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذلك لئلا يجرأ على ذلك أقد في الأصمخ وأخف على الطباع فتصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا من يد جراءة على العاصي ومزيد حمة بفضل الله ومهما كان الطبيب جاهلا وأخانا أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه فالرجاء والخوف دوا آن ولكن لشخصين متضادى العلة أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية فتكسر سورة إسراره في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال وكذلك الصر على الذنوب الشهي للتوبة للمتنع عنها بحكم القنوط والياس استعظاما لذنوبه التي سبقت يسالج أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب ، فأما معالجة للفرور المسترسل في العاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهى معالجة للفرور بالمثل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجبال والأغبياء فاذن فساد الأطباء هي المعضلة الزباء التي لا تقبل الدواء أصلا . فإن قلت : فأذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق . فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه ، نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع : الأول أن يذكر مافي القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ماورد من الأخبار والآثار مثل قوله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكنا يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يخلقوا لماذا خلقوا علموا بما علموا ^(١) » وفي بعض الروايات « ليتهم تجالسوا فتذكروا ما علموا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يعلموا بما علموا تابوا بما علموا » وقال بعض السلف إذا أذنب العبد أمر صاحب الجين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف ما من عبد يصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كفا ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفا عن عبدى وأمهلاء فإنكما لم تخلفاه ولو خلقناه لرحمناه ولله يتوب إلى فأغفر له ولله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات

(١) حديث ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكنا يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا الحديث غريب لم أجده هكذا . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف إن لله ملكا ينادى في كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاه الحديث وفيه ليت الخلائق لم يخلقوا ولتيم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا الحديث .

وتصف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما يتنصف العصر بين الظهر والقرب صلى الضحى فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة الضحى إذا رخصت الفصال وهو أن ينام الفصيل في ظل أمه عند حرّ الشمس . وقيل الضحى إذا ضحيت الأقدام بحر الشمس وأقل صلاة الضحى ركعتان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة ويجعل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ثم بعد ذلك إن كان هناك

فذلك معنى قوله تعالى - إن الله يمك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده - وفي حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه « الطابع معلق بقاعة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحلقت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها (١) » وفي حديث مجاهد « القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنبا انقبضت أصبع حتى تقبض الأصابع كلها فيسد على القلب فذلك هو الطابع (٢) » وقال الحسن : إن بين البعد وبين الله حدا من العاصي معلوما إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوقه بعدها لغير والأخبار والآثار في ذم العاصي ومدح التائبين لا تحصى فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه ما خلف ديناراً ولا درهماً وإنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه (٣) .

النوع الثاني : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من الصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة حتى روى أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلال عن جسده وبدت عورته فاستجيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتضعا عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحل الإكليل عن جبينه ونودي من فوق العرش : اهبط من جوارى فإنه لا يجاورني من عصائي قال فالتفت آدم إلى حواء باكياً وقال هذا أول شؤم العصية أخرجنا من جوار الحبيب. وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوماً وقيل لأن المرأة سأته أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه فسلم ملكه أربعين يوماً فهرب تأمها على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فإذا قال أطمعوني فاني سليمان بن داود شيخ وطرده وضرب . وحكى أنه استطمع من بيت لامرأته فطرده وصقت في وجهه . وفي رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبت على رأسه إلى أن أخرج الله الحاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين (أيام العقوبة) قال فبجاءت الطيور فمكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذرت إليه بعض من كان جنى عليه فقال لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ولا أحمدكم في عذرکم الآن إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه . وروى عن الاسرائيليات أن رجلاً تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبت بها فجاهدها واستصم قال فنبأه الله بركة تنواه فكان نبيا في بني إسرائيل وفي قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام بم أطلعك الله على علم الغيب قال بركي العاصي لأجل الله تعالى . وروى أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قيصة نظرة وكان جديداً فكانه أعجبه قال فوضعت الريح فقال لم فعلت هذا ولم آمرك ؟ قالت إنما نطعمك إذا أظمت الله .

حق يقضى مما ندب إليه من زيارة أو عيادة بمضى فيه وإلا فديم العمل لله تعالى من غير فتور ظاهراً وباطناً وقلبا وقالباً وإفباطنا وترتيب ذلك أنه يصلى مادام منسرحاً وقسمه عجية فان سُم ينزل من الصلاة إلى التلاوة فان مجرد التلاوة أخف على النفس من الصلاة فان سُم التلاوة أيضاً يذكر الله بالقاب واللسان فهو أخف من القراءة فان سُم الذكر يدع ذكر اللسان ويلزم بقلبه الرقابة والمراقبة على القلب بنظر الله تعالى إليه فما دام هذا العلم ملازماً لقلبه فهو مراقب والمراقبة عين

(١) حديث عمر الطابع معلق بقاعة العرش فإذا انتهكت الحرمات الحديث ابن عدى وابن حبان في الضمراء من حديث ابن عمر وهو منكر (٢) حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة . قلت هكذا قال الصنف وفي حديث مجاهد وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد روينا في شعب الإيمان للبيهقي من قول حذيفة (٣) حديث أنه صلى الله عليه وسلم ما خلف ديناراً ولا درهماً وإنما خلف العلم والحكمة البخاري من حديث عمرو بن الحرث قال مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولمسلم من حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولمسلم من ديناراً ولا درهماً وإنما رثوا العلم الحديث وقد تقدم في العلم .

وروى أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال لا . قال لقولك لإخوته - أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه فافلون - لم خفت عليه الذئب ولم ترجى ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وتدرى لم رددته عليك ؟ قال لا قال لأنك رجوتني وقلت - عسى الله أن يأتيني بهم جميعا - وبما قلت - اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا - وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك - اذكرني عند ربك - قال الله تعالى - فأناصه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين - وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسرار بل الفرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب السكار، نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثما ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنبه على أسماع المصيرين فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة . النوع الثالث : أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جنائياته فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله فينبغي أن يخوف به فان الذنوب كلها تتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر كما حكى في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه قال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ^(١) » وقال ابن مسعود إنى لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام « من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا ^(٢) » وقال بعض السلف ليست اللعنة سوادا في الوجه وقصا في المال إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه وهو كما قال لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفق للخير ويسرله الشر فقد أبعد والحرم من رزق التوفيق أعظم حرمان وكل ذنب فانه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المسكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يعقته الله تعالى لحقته الصالحون . وحكى عن بعض العارفين أنه كان يمشى في الوحل جامعا ثيابه عتزا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط ققام وهو يمشى في وسط الوحل ويكسى ويقول هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجهنبا حتى يقع في ذنب وذنوب فتندها يحوض في الذنوب خوفا وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالأبجرار إلى ذنب آخر ولذلك قال الفضيل ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك ورتبك ذلك وقال بعضهم إنى لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حمارى وقال آخر أعرف العقوبة حتى في فأر بيتى وقال بعض صوفية الشام نظرت إلى غلام نصرانى حسن الوجه فوقفت أنظر إليه ثم ربي ابن الجلاء الدمشقى فأخذ يدي فاستحييت منه فقلت يا أبا عبد الله سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار فعمز يدي وقال لتجدن عقوبتها بعد حين قال فعوقت بها بعد ثلاثين سنة . وقال أبو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة وقال لا يفوت أحد أصلا جماعة إلا بذنب يذنبه وفي الخبر « ما أنكرتم من زمانكم فبا غيرتم من أعمالكم ^(٣) » وفي الخبر « يقول الله تعالى إن أدنى ما أصنع

الذكر وأفضله فان عجز عن ذلك أيضا وتمسكته الوسواس وتراحم في باطنه حديث النفس فليتم في النوم السلامة وإلا فكثر حديث النفس تقسى القلب ككثر الكلام لأنه كلام من غير لسان فيحترز عن ذلك قال سهل بن عبد الله أسوأ المعاصى حديث النفس والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره فانه بحديث النفس وما يتخايل له من ذكر ماضى ورأى وسمع كشخص آخر في باطنه فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر ويمكن للطالب المجد

(١) حديث إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده واللفظه إلا أنه قال الرجل بدل العبد من حديث ثوبان (٢) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا تقدم (٣) حديث ما أنكرتم من زمانكم فبا غيرتم من أعمالكم البيهقى في الزهد من حديث أبي الدرداء

بالعبء إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لتديذ مناجاتي (١) . وحكى عن أبي عمرو بن علوان في قصة يطول ذكرها قال فيها كنت قائماً ذات يوم أصلى غماماً قلابي هوى طاولته بفكرتي حتى تولد منه شهوة الرجال فوقعت إلى الأرض واسود جسدي كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام وكنت أعالج غصاه في الحمام بالصابون فلا يزداد إلا سواداً حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيذ وكان قد وجه إلى فأشخصني من الرقة فلما أتيت قال لي أما استحييت من الله تعالى كنت قائماً بين يديه فسارت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى فلولا أنني دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون قال فصجبت كيف علم بذلك وهو ينفذ وأنا بالرقة . واعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره ليزجر وإن كان شقيماً أخفى عنه حتى ينهك ويستوجب النار والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره بل من شؤم الذنوب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه وأما للطبع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته .

النوع الرابع : ذكر ماورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالتحر والزنا والسرقه والقتل والفيسة والكبر والحسد وكل ذلك مما لا يمكن حصره وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولاً بالنقص والسحنة ووجود الحركات على العطل الباطنة ويشتمل بعلاجها فليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات ولتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له واحد « أوصني يا رسول الله ولا تنكث على قال لا تنضب (٢) » وقال له آخر « أوصني يا رسول الله فقال عليه السلام عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الغنى وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر وصل صلاة مودع وإياك وما يتذر منه (٣) » وقال رجل ل محمد بن واسع أوصني فقال أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة قال وكيف لي بذلك قال الزم الزهد في الدنيا فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول محاييل الغضب قتهاء عنه وفي السائل الآخر محاييل الطمع في الناس وطول الأمل وتخيل محمد بن واسع في السائل محاييل الحرص على الدنيا وقال رجل لمعاذ أوصني فقال كن رحيماً كن لك بالجنزة عما فكأنه تفرس فيه آثار القظاظه والفاظه . وقال رجل ل إبراهيم بن آدم أوصني فقال: إياك والناس وعليك بالناس ولا بد من الناس فإن الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقى الناس وما أراهم بالناس بل غمسوا في ماء اليأس فكأنه تفرس فيه آفة الخاطلة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته وكان الغالب أذاه بالناس والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه ولا تنكثي فكتبت إليه من عائشة إلى معاوية سلام عليك أما بعد فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

وقال غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبيد الله بن هاني . قلت : هو منهم بالكذب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل (١) حديث يقول الله إن أدنى ما صنع بالعبء إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذمة مناجاتي غريب لم أجده (٢) حديث قال رجل أوصني ولا تنكث على قال لا تنضب تقدم (٣) حديث قال له آخر أوصني قال عليك باليأس الحديث ابن ماجه والحاكم وقد تقدم .

أن يصلى من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى وأقل من ذلك عشرون ركعة . يصلها خفيفة أو يقرأ في كل ركعتين جزءاً من القرآن أو أقل أو أكثر والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد آخر من الركعات حسن . قال سفيان كان يصحبه إذا فرغوا أن يناموا طلباً للسلامة وهذا النوم فيه فوائد منها أنه يبين على قيام الليل ومنها أن النفس تستريح ويصفو القاب لبقية النهار والعمل فيه والنفس إذا استراحت عادت جديدة فبعد الإنتباه

«من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس سخط الله برضا الناس وكرهه الله إلى الناس» (١) والسلام عليك فانظر إلى قهها كيف تعرضت للآفة التي تكون الولاية بصدها وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم وكتبت إليه مرة أخرى : أما بعد ؛ فاتق الله فانك إذا اتقيت الله كفاه الله الناس وإذا اتقيت الناس لم يغفروا عنك من الله شيئا والسلام . فاذن على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال الالتمة ليكون اشتغاله بالمهم فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان . فان قلت : فان كان الواعظ يتكلم في جمع أو سأله من لا يدري باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل . فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر فان في علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلال . ومثاله ما روى أن رجلا قال لأبي سعيد الخدري أوصني قال عليك بتقوى الله عزوجل فانها رأس كل خير وعلبك بالجهاد فانه رهبانية الاسلام وعلبك بالقرآن فانه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء وعلبك بالصمت لإلأمن خير فانك بذلك تغلب الشيطان . وقال رجل للحسن أوصني فقال أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقمان لابنه يا بني زاحم العلماء بركتيك ولا تجادلهم فيمقتوك وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك لآخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال كلا وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فان الصلاة أفضل من الصوم ولا تجالس السفه ولا تتخالط ذا الوجهين . وقال أيضا لابنه يا بني لاتضحك من غير عجب ولا تمس في غير أرب ولا تسأل عمالايينك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت يا بني إن من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغم ومن يقل الشر يأتهم ومن لا يملك لسانه يندم وقال رجل لأبي حازم أوصني يقال كل ما لوجاءك الموت عليه فرائته غنيمة فالزمه وكل ما لوجاءك الموت عليه فرائته مصيبة فاجتنبه . وقال موسى لالخضر عليهما السلام أوصني فقال كن بسابما ولا تسكن غضابا وكن نقاعا ولا تسكن ضارارا واتزع عن اللجاجة ولا تمس في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تدير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران . وقال رجل لمحمد بن كرام أوصني فقال اجتهد في رضا خالك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك وقال رجل لحامد اللقاف أوصني فقال اجعل لديك غلانا كغلاف الصحف أن تدنسه الآفات قال وما غلاف الدين قال ترك طلب الدنيا إلا ما لا بد منه وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بد منه وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بد منه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز رحمهم الله تعالى : أما بعد ، غف بما خوتك الله واحذر مما حذر الله وخذ بما في يديك لما بين يديك فخذ الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام ، وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه فكتب إليه : أما بعد ، فان الهول الأعظم والأمور المقطعات أمامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالمطب ، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر في العواقب نجح ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غم ومن خاف أمن ومن أمن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم فاذا زلت فارجع وإذا ندمت فأقلع وإذا جهلت فاسأل وإذا غضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبدالله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد ، فان الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له وبها يفتن من لا علم عنده فكُن فيها يأمر المؤمنين كاللداوى جرحه يصبر

(١) حديث عائشة من التمس رضا الناس بسخط الله وكرهه الله إلى الناس الحديث الترمذي والحاكم وفي مسند الترمذي من لم يسلم .

من نوم النهار تجدد
في الباطن نشاطا آخر
وشفا آخر كما كان
في أول النهار فيكون
للصادق في النهار نهاران
يغتنمهما بخدمة الله
تعالى والدؤوب في العمل
وينبغى أن يكون
انتباهه من نوم النهار
قبل الزوال بساعة
حتى يتمكن من
الوضوء والطهارة قبل
الاستواء بحيث يكون
وقت الاستواء
مستقبل القبلة ذا كرام
أومسبحا أو تاليا قال الله
تعالى - وأقم الصلاة طرفي
النهار - وقال - فسبح
بحمد ربك قبل طلوع
الشمس وقبل غروبها -
قبل طلوع
الشمس صلاة الصبح

على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الهاء . وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدى بن أرتاة أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأما أولياؤه فمقتهم وأما أعداؤه فمقتهم . وكتب أيضا إلى بعض عماله : أما بعد ، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم باقيا عليك ، واعلم أن الله عز وجل أخذ للظالمين من الظالمين والسلام . فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقته فهذه المواعظ مثل الأغذية التي يشترك السكافة في الانتفاع بها ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انهم باب الاتعاط وغلبت العاصي واستشرى الفساد وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعا وينشدون آياتا ويتكلمون ذكر ماليس في سمة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القلب بل القائل متكلف والسمتع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف ، فاذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى وطلب العلماء أول علاج العاصين فهذا أحد أركان العلاج وأصوله . الأصل الثاني الصبر ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره . وإنما تناول ذلك إما بفتنة عن مضرتة وإما بشدة غلبة شهوته فله سببان فإذ ذكرناه هو علاج الفتنة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس . وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضرارته لما كوله مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يفيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصير بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه فلا يبدئ على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يالج الشهوة في العاصي كالشاب مثلا إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرى الخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب للهبطة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو حضور للشهوى والنظر إليه وعلاجه الهرب والعزلة ومن داخل تناول لذيذ الأطعمة وعلاجه الجوع والصوم الدائم وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة وانتكار أو عن صماع وتقليد فأول الأمر حضور مجالس الله كرم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكير فيه لتعمام الفهم وينبت من تمامه لاحالة خوفه وإذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر وابتعثت الدواعي لطاب العلاج وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك فمن أعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسن فييسره الله تعالى ليسرى ، وأما من يغفل واستغنى وكذب بالحسن فييسره الله للعسرى فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وإتمامه الآخرة والأولى . فإن قلت فقد رجح الأمر كله إلى الإيمان لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف والخوف لا يكون إلا بالعلم والعالم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان فكأن من أصر على الذنب لم يصر عليه إلا لأنه غير مؤمن . فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان إذ كل مؤمن مصدق بأن العصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور : أجهها أن العقاب الموعود غيب ليس محاضر والنفس جبلت متأثرة بالحاضر فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر . الثاني : أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالخلق وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتقاد والإلف والمادة طبيعة خامسة والنزوع عن

وقبل غروبها صلاة
الصر - ومن آناه
الليل فسبح - أراد
العشاء الأخيرة
- وأطراف النهار - أزداد
الظهر والغرب لأن
الظهر صلاة في آخر
الطرف الأول من
النهار وآخر الطرف
الآخر غروب الشمس
وفيها صلاة المغرب
فصار الظهر آخر
الطرف الأول والمغرب
آخر الطرف الآخر
فيستقبل الطرف الآخر
بالقطة والتذكر كما
استقبل الطرف الأول
وقد عاد بنوم النهار
جديدا كما كان بنوم
الليل ويصلى في أول
الفرص قبل السنة
والفرص أربع ركعات

العاجل لحوف الأجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى - كلاب تجنون العاجلة وتندرون الآخرة - وقال عز وجل - بل تؤثرون الحياة الدنيا - وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات (١) » وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها خلفها بالشهوات ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يلقى أحد إلا دخلها، وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها خلفها بالمكاره ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر إليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد (٢) » فإذا كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخرا إلى المال سيبان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبا بأصل الطب ولا مكذبا بأن ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة قلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهن عليه الألم ينتظر. الثالث أنه مامن مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير فمن حيث رجاؤه التوفيق لتوبة ربما يقدم عليه مع الإيمان. الرابع أنه مامن مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجابا لا يمكن العفو عنها فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان ، نعم قد يقدم للذنب بسبب خامس يقدح في أصل إيمانه وهو كونه شاكا في صدق الرسل وهذا هو الكفر كالذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضره في المرض فان كان المهذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يزال به فهذا هو الكفر . فان قلت فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب أن كل ما هو آت آت وأن غدا للناظرين قريب وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شركائه فلما يدريه لكل الساعة قريب والتأخر إذا وقع صار ناجزا ويذكر نفسه أنه أبدا في دنياه يتعب في الحال لحوف أمر في الاستقبال إذ يركب البحار ويقاسي الأسفار لأجل الرج الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألد الأشياء عنده تركه مع أن الموت ألمه لحظة إذ لم يخف ما جده ومفارقة الدنيا لا بد منها فنكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه أزلا وأبدا فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذنه بقول ذي لم تتم معجزة على طبه فيقول كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له إلا عوام الخلق وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا وهذا التفكير يهينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبدا وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدورتها وتنقصها وامتناع صفوها بكدورها فكيف أصبر عن نعم الآخرة وأما تسويق التوبة فيما لجه بالفكر في أن أكثر صباح أهل النار من التسويق لأن السوف يبنى الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلعله لا يلقى وإن بقي

(١) حديث حفت الجنة بالمكاره الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر إليها الحديث أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة .

بتسليمه واحدة كان يصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه صلاة الزوال قبل الظهر في أول أوقاتها ويحتاج أن يراعى لهذه الصلاة أول الوقت بحيث يظن للوقت قبل للؤذين حين يذهب وقت الصكرهية بالاستواء فيشرع في صلاة الزوال ويسمع الأذان وقد توسط هذه الصلاة ثم يستعد لصلاة الظهر فان وجد في باطنه كدرا من عقالطة أو مجالسة انفتحت يستغفر الله تعالى ويتضرع إليه ولا يشرع في صلاة الظهر إلا بعد أن يجد الباطن عائدا إلى حاله

فلا يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم فليت شعري هل عجز في الخيال إلا الغلبة الشهوة والشهوة ليست تهازله غدا بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتیاد فليست الشهوة التي أكدتها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدتها وعن هذا هلك السوفون لأنهم يظنون الفرق بين الثمانيين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق ومما مثال للسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فراه أقوى لا تتفعل إلى بمشقة شديدة فقال أواخرها سنة ثم أعود إليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقة إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الطلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف . وأما المعنى الرابع وهو انتظار عفو الله تعالى فملاجه ما سبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله قراء منتظرا من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كثر في أرض خربة فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الامكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده وترك ذخائر أمواله في صحن داره وقدر على دفعها وإخفائها فلم يفعل وقال أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلم غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري أو إذا اتهمى إلى داري مات على باب الدار فإن الموت ممكن والغفلة ممكنة . وقد حكى في الأمصار أن مثل ذلك وقع فأننا أنتظر من فضل الله مثله فنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة والجهل إذ قد لا يمكن ولا يكون . وأما الخامس وهو شك فهذا كفر وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك بطول ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحمد عقله فيقال له ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقهم يمكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة فإن قال أعلم استحالاته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء وإن قال أنا شاك فيه فيقال لو أخبرك شخص واحد مجهول عند ترك طعامك في البيت لحظة أنه ولدت فيه حياة وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان ألد الأطمعة فيقول أتركه لاحالة لأنني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب وإن صدق فتفوتني الحياة والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد فيقال له يا سيحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء ولست أعنى بهم جهال العوام بل ذوى الألباب عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضا فيما يقول فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا وإن اختلفوا في كيفية فان صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدره فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لانسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد بل لو قدرنا الدنيا بمملوءة بالذرة وقدرنا طائر ايلتقط في كل ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص أبد الآباد شيئا فكيف يفتر رأى العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ولذلك قال أبو العلاء أحمد ابن سليمان التوحى المعري :

قال النجم والطبيب كلاهما لا تبعت الأموات قلت إليك
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولى فالحسار عليك

ولذلك قال على رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكا إن صح ما قلت فقد تلخصنا جميعا وإلا فقد تلخصت وهلكت أى العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال . فان قلت هذه الأمور جلية ولكنها ليست تنال إلا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستقلته وما علاج القلوب لردها إلى الفكر لاسيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله . فاعلم أن المانع من الفكر

من الصفاء والداققون
حلاوة الناجاة لا بدأن
يجدوا صفو الأنس في
العساة ويتكدرون
ببسير من الاسترسال
في اللباج ويصير على
بواطنهم من ذلك عقد
وكدرو قد يكون ذلك
بمجرد الخاطلة والمجاسة
مع الأهل والولد مع
كون ذلك عبادة
ولكن حسنات الأبرار
سيات القربين فلا
يدخل الصلاة إلا
بمسد حل العقد
وإذهاب الكدرو حل
العقد بصدق الأمانة
والاستغفار والتضرع
إلى الله تعالى ودواء
ما يحدث من الكدر
بمجالسة الأهل والولدان
أن يكون في مجاسته

أمران : أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم القيم وهذا فكر لداع مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة . والثاني أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقتة فصار عقله مسخرا لشهوته فهو مشغول بتدبير حياته وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر ينمعه من ذلك ، وأما علاج هذين للناعين فهو أن يقول لقلبه ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما جده تألما بذكره مع استحقار أم مواقفه فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به وأما الثاني وهو كون الفكر مفعولاً للذات الدنيا فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فأنها لا آخر لها ولا كدورة فيها ولذات الدنيا سريرة الدور وهي مشوبة بالمكدرات لما فيها لذة صافية عن كدر وكيف وفي التوبة عن العاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الأُنس به ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأُنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافياً فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ، نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا فالنفس قابلة ما عودتها تعود والخير عادة والشر لجة ، فاذن هذه الأفكار هي المهجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر فيصير الفكر مواقفا للطبع فيميل القلب إليه ويهرب عن السبب الذي أوقع المواقفة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة وقدروى في حديث طويل أنه قام عمار بن ياسر فقال لملي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ما ذابني ، فقال على رضى الله عنه بنى على أربع دعائم : على الجفاء والعنى والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت الملبأ ومن عمى نسى الذكر ومن غفل حاد عن الرشود ومن شك غرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة وبدأ له من الله ما لم يكن يحتسب ، فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكير وهذا القدر في التوبة كاف وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة فلا بد من بيان الصبر فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى .

﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

(وهو الكتاب الثاني من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، المنفرد بردهاء الكبرياء ، التوحيد بصنات المجد والملاء ، الويد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء . والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محرومة بالدوام عن الفناء ، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانتضاء [أما بعد] فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر (١) كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى وإسمان من أسمائه الحسنى إذ سمى نفسه صبورا وشكورا فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكل شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن

﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

(١) حديث الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من

غير راكن إليهم كل
الركون بل يسترى
القلب في ذلك نظرات
إلى الله تعالى فتكون
تلك النظرات كفارة
لتلك المجالسة إلا أن
يكون قوى الحال
لا يحجبه الخلق عن
الحق فلا يعتقد على
باطنه عقدة فهو كما
يدخل في الصلاة
لا يجدها ويجد باطنه
وقلبه لأنه حيث
استرحت نفس هذا
إلى المجالسة كان
استروح نفسه منغمرا
روح قلبه لأنه يجالس
ويخالط وعين ظاهره
ناظرة إلى الخلق وعين
قلبه مطالعة للخصرة
الإلهية فلا يعتقد على
باطنه عقدة وصلوة

ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة مابه الإيمان ومن به الإيمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك مابه الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى . الشطر الأول في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر وبيان حده وحقيقته وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف وبيان مظان الحاجة إلى الصبر وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى .

(بيان فضيلة الصبر)

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل - وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا - وقال تعالى - وتمت كلمة ربك الحسنى على نبي إسرائيل بما صبروا - وقال تعالى - ولنجزي من الذين صبروا أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون - وقال تعالى - وأولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا - وقال تعالى - إنما يوفى الصابرون وأجرهم خير حساب - فإمن قرابة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى « الصوم لي وأنا أجزى به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى - واصبروا إن الله مع الصابرين - وعلق النصره على الصبر فقال تعالى - بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين - وجمع للصابرين بين أمور لم يجمها لغيرهم فقال تعالى - وأولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المنتهدون - فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول . وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان ^(١) » على ما سياتى وجه كونه نصفاً وقال صلى الله عليه وسلم « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ولأن تصبروا على ما أتم عليه أحب إلى من أن يوافقني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا جدى فينكر بضعكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكال نوابه ثم قرأ قوله تعالى - ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم - ^(٢) » الآية وروى جابر أنه سئل عنه عن الإيمان فقال « الصبر والسماحة ^(٣) » وقال أيضا « الصبر كثر من كنوز الجنة ^(٤) » وسئل مرة « ما الإيمان فقال الصبر ^(٥) » وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة ^(٦) » معناه معظم الحج عرفة

رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف (١) حديث الصبر نصف الإيمان أبو نعيم والحطيب من حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم (٢) حديث من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث بطوله تقدم في العلم مختصرا ولم أجده هكذا بطوله (٣) حديث جابر سئل عن الإيمان فقال الصبر والسماحة الطبراني في مكارم الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن النكدر ضعيف ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده (٤) حديث الصبر كثر من كنوز الجنة غريب لم أجده (٥) حديث سئل مرة عن الإيمان فقال الصبر أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعا الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ويزيد ضعيف (٦) حديث الحج عرفة تقدم في الحج .

روايات التي ذكرناها
تحل الصدق وتهيب
الباطن لصلاة الظهر
فيقرأ في صلاة الزوال
بعقدار سورة البقرة
في النهار الطويل وفي
القصير ما يتيسر من
ذلك قال الله تعالى :
وعشا وحين تظهرون -
وهذا هو الإظهار فان
انتظر بعد السنة
حضور الجماعة للفرص
وقرأ الدعاء الذي بين
الفريضة والسنة من
صلاة العجر فحسن
وكذلك ماورد أن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم دعا به إلى
صلاة العجر ثم إذا
فرغ من صلاة الظهر
يقرأ الفاعمة وآية
الكرسى ويسبح

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس»^(١) وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام تخلق بأخلاق وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال «أؤمنون أنتم؟ فسكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله قال وما علامة إيمانكم قالوا انشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة»^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم «في الصبر على ما تكره خير كثير»^(٣) وقال المسيح عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين»^(٤) والأخبار في هذا لا تحصى. وأما الآثار: فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبي موسى الأشعري عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر: الصبر في المصائب حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى. واعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال صلى الله عليه وسلم «وجهه: بنى الإيمان على أربع دعائم: اليقين والصبر والجهاد والعدل. وقال أيضا الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له وكان عمر رضى الله عنه يقول: نعم العدلان وأتمت الملاوة للصابرين يعني بالعدلين الصلاة والرحمة وبالملاوة الهدى والملاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى - أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون - وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية - إننا وجدناه صابرا نعم الصديقين أو أب - بكى وقال وأعجاباه أعطى وأثنى أى هو العطي للصبر وهو المثنى. وقال أبو الدرداء ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر هذا بيان فضيلة الصبر من حيث الثقل وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق.

(بيان حقيقة الصبر ومعناه)

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين وجميع مقامات الدين إيمان تنظم من ثلاثة أمور: معارف وأحوال وأعمال فالمعارف هي الأصول وهي توزن الأحوال والأحوال تشر الأعمال فالمعارف كالأشجار والأحوال كالأغصان والأعمال كالثمار وهذا مظهر في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الشكل كإذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والاسلام في كتاب قواعد العقائد وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبمالة قائمة فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمره يصدر عنها ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين اللائكة والإنس والبهائم فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك في البهائم ولللائكة أما في البهائم فلتنصاتها. وأما في اللائكة فللكمالها ويانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى نبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبورا. وأما اللائكة

(١) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس لأصل له مرفوعا وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس (٢) حديث عطاء عن ابن عباس دخل على الأنصار فقال مؤمنون أنتم فسكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله الحديث الطبراني في الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء (٣) حديث في الصبر على ما تكره خير كثير الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم (٤) حديث لو كان الصبر رجلا لكان كريما الطبراني من حديث عائشة وفيه صحيح بن دينار ضعفه العقبلي.

ويحمد ويكبر ثلاثا
وثلاثين كما وصفنا ولو
قدر على الآيات كلها
التي ذكرناها بعد
صلاة الصبح وعلى
الأدعية أيضا كان ذلك
خييرا كثيرا وفضلا
عظيما ومن له همه
ناهضة وعزيمة صادقة
لا يستكثر شيئا لله
تعالى ثم يحى بين
الظهر والعصر كما يحى
بين المشايخ على
الترتيب الذي ذكرناه
من الصلاة والتلاوة
والذكر والراقبة
ومن دام سهره ينام
نومة خفيفة في النهار
الطويل بين الظهر
والعصر ولو أحيى بين
الظهر والعصر ركعتين
يقرا فيهما ربع القرآن

عليهم السلام فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجد آخر يطلب الصوارف . وأما الانسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا الشهوة الفناء الذي هو محتاج إليه ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ثم شهوة النكاح على الترتيب وليس له قوة الصبر البتة ، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم ولكن الله تعالى بفضل وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجاتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين : أحدهما يهديه . والآخر يقويه تمييز بمعونة الملكين عن البهائم ، واختص بصفيتين : إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة الصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف ، فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط فذلك لا يتطلب إلا الأذنيذ . وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال فلا يتطلبه ولا تعرفه فصار الانسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له منبآت مكروهة في العاقبة ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر فكم من مضر يعرفه الانسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لا قدرة له على دفعه فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد كأن نور الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الانسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعنا دينيا ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين و باعث الهوى والحرب بينهما سجل ومعرفة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة ، فان ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين ، فإذا ترك الأفعال المشتهة عمل يشمره حال يسمى الصبر وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة وثبات باعث الدين حال ثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة فإذا قوى يقينه أعنى العرفة التي تسمى إيمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوى ثبات باعث الدين وإذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تنقضاء الشهوة فلا يتم ترك الشهوة الأبقوة باعث الدين المضاد ل باعث الشهوة وقوة العرفة والأيمان تفتح منبآت الشهوات وسوء عاقبتها وهذان للسكان هما التكفلان بهذين الجندين بأذن الله تعالى وتسخيرهما إياهما ، وهما من الكرام السكاتبين وهما للملكان الموكلان بكل شخص من آدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك القوي لم يخف عليك أن جانب اليمين هو الذي أشرف الجانبين من جنبى الدست ، ينبغي أن يكون ملما له فهو اذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال . ولتعبد طوران في الغفلة والفسك وفي الاسترسال والمجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومضى* إليه فيكتب أعراضه سيئة وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب اقباله له حسنة وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسى* إليه فيثبت عليه سيئة وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة وانما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بانباتهما فذلك مما كراما

أوتقرا ذلك في أربع ركعات فهو خير كثير وان أراد أن يجي هذا الوقت بمائة ركعة في النهار الطويل أمكن ذلك أو بشرين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة في كل ركعة خمسين ويستاك قبل الزوال اذا كان صائما وان لم يكن صائما فأى وقت تخير فيه الفم . وفي الحديث « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » وعند القيام من الفرائض يستحب قيل إن الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضفا ، وقيل هو خير وإن أراد أن يقرأين

كاتبين أما الكرام فلا تتفاح العبد بكرهما ولأن الملائكة كلهم كرام بررة وأما الكاتبون فلا يتأهبا الحسنة والسيئات وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم فانهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لامن عالم الشهادة وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هذا العالم ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى وأغنى بالقيامة الصغرى حالة الموت إذ قال صلى الله عليه وسلم « من مات فقد قامت قيامته ^(١) » وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال - ولقد جثمتونا فرادى كما خلقناكم أول مرة - وفيها يقال - كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا - أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملائمة الخلق وفيها يساق التتون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا والمهول الأول هو هول القيامة الصغرى وجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلا فان أرضك الخاصة بك تتزلزل في الموت فانك تعلم أن الزلزلة إذا زلزلت يلبثه صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تتزلزل البلاد المحيطة بها بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه لأنه إنما ينضمر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فخصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان . واعلم أنك أرضي مخلوق من التراب وحطك الخاص من التراب بذلك فقط فأما بدن غيرك فليس بحطك والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنما تخاف من زلزله أن يتزلزل بدنك بسببه وإلا فالهواء أبدا متزلزل وأنت لا تخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك فحطك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط فهي أرضك وترابك الخاص بك وعظامك جبال أرضك ورأسك سماء أرضك وقلبك شمس أرضك وسمك وبصرك وسائر خواصك نجوم جهنم ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك وشعورك نبات أرضك وأطرافك أشجار أرضك وهكذا إلى جميع أجزائك فاذا اتهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها فاذا انفصلت العظام من اللحم فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فاذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا فاذا أظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا فاذا بطل سمك وبصرك وسائر خواصك فقد انكسرت النجوم انكسارا فاذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقا فاذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيرا فاذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتك فقد عطلت العشار تعطيل فاذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض ثمدت حتى ألتقت ما فيها وتخلت ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكني أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ولا يغوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخشك بل ما يخص غيرك فان بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انشردت حواسك التي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب والأعمى يستوى عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلائها لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة وهو حسته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه إذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس فمن لا رأس له لا سماؤه فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره فهذه هي القيامة الصغرى والحروف بعد أسفل والهول بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الحصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبال ونمت الأهوال . واعلم أن هذه الصغرى وإن طوتنا في وصفها فانا لم نذكر عشر عشر أو صافها وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى فان للإنسان ولادتين: إحداهما الخروج من الصاب والترائب إلى مستودع الأرحام

(١) حديث من مات فقد قامت قيامته ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف.

الصلابين في صلاته في
عشرين ركعة في كل
ركعة آية أو بعض آية
تقرأ في الركعة الأولى
- ربنا آتنا في الدنيا
حسنة وفي الآخرة
حسنة وقنا عذاب
النار - ثم في الثانية
- ربنا أفرغ علينا صبرا
وثبت أقدامنا وانصرنا
على القوم الكافرين -
ثم - ربنا لا تؤاخذنا
بإخراة السورة ثم - ربنا
لا تزغ قلوبنا - الآية ثم
- ربنا إنا نؤمن بما
ينادي للإيمان - الآية
ثم - ربنا آمنا بما
أنزلت - ثم - أنت
ولينا فاغفر لنا - ثم
- فاطر السموات
والأرض أنت وليي -
ثم - ربنا إنك تعلم

فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم فنية عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه الصبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم بل أوسع وأعظم فقس الآخرة بالأولى فما خلقكم ولا بشئكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين وإليه الإشارة بقوله تعالى - وننشئكم فيما لا تعلمون - فالمر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت والمر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين الموراء إلى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والافتداء بالأعور إلى دجال ، فما أعظم غفلتك يا مسكين وكفنا ذلك المسكين وبين يديك هذه الأهوال فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى أو ما سمعت قول سيد الأنبياء « كفى بالموت واعظا (١) » أو ما سمعت بكبريه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم « اللهم هون على محمد سكرات الموت (٢) » أو ما استحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاغ العافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا يزجرون ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون أفيتنون أنهم في الدنيا خالدون أو لم يروا كم آهنا كنا قباهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون أم يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا إن كل لما جتمع لدينا محضرون ولكن ماتنا بينهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين وذلك لأننا جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ولترجع إلى المرض فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم العاملة . فقول قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين إذ قد ذكرنا أن الحسنه في الإقبال على الاستفادة منها والسيئة في الاعراض عنهما وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصور منهما إقبال وإعراض وهما لا يكتبان إلا الإقبال والاعراض من القادرين على الإقبال والإعراض ولعمري إنه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدرج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصباح إلى أن يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب على تركها في الآخرة ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة بل على القيم العدل والولي البر الشفيق إن كان من الأبرار وكان على سمعت الكرام الكاتبين البررة الأخبار أن يكتب على الصبي سيئته وحسنه على صحيفة قلبه فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب فكل ولي هذا صمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما ناله الملائكة فيكون مع النبيين والمرتبين والصديقين وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث كفى بالموت واعظا البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الريح بن بدر ضعيف ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٢) حديث اللهم هون على محمد سكرات الموت الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بلفظ اللهم أعنى على سكرات الموت .

ما تخفى وما نعان -
الآية ثم - وقال رب
زدني علما - ثم - لا إله
إلا أنت سبحانك - ثم
- رب لا تذرني فردا -
ثم - وقال رب اغفر
وارحم وأنت خير
الراحمين - ثم - ربنا
هب لنا من أزواجنا -
ثم - رب أوزعني أن
أشكر نعمتك التي
أنعمت على وعلى
والذي وأن أعمل صالحا
ترضاه وأدخلي برحمتك
في عبادك الصالحين -
ثم - يعلم خائنة الأعين
وما تخفى الصدور - ثم
- رب أوزعني أن
أشكر نعمتك التي
أنعمت على - الآية
من سورة الأحقاف ثم
- ربنا اغفر لنا

«أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة (١)» وأشار إلى أصعبه الكريمين صلى الله عليه وسلم .

(بيان كون الصبر نصف الإيمان)

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نفا وسبعين بابا واختلاف هذه الاطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربيع العبادات ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين : أحدهما أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا فيكون للإيمان ركنان : أحدهما اليقين والآخر الصبر والمراد باليقين للمعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يرفه أن العصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن تزك العصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكمال فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال «من أقل ما أوثيم اليقين وعزيمة الصبر» الحديث إلى آخره . الاعتبار الثاني أن يطلق على الأحوال الثمرة للأعمال لاهل العارف وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيها وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كأن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى تسمين . باعث من جهة الشهوة ، و باعث من جهة الغضب فالشهوة لطلب اللذيق والتضيق للهرب من الألم وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار «الصوم نصف الصبر» لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بمحود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فان اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة .

(بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ماعنه الصبر)

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدني كتحمل الشاق بالبدن والثبات عليها وهو إما بالعمل كتماطي الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها وإما بالاحتمال كالصبر عن الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات المهائلة وذلك قد يكون محمدا إذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسى عن مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمى عفة وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر فان كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والملمع وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الحدود وشق الجيوب وغيرها وإن كان فى احتمال النفسى سمى ضبط النفس وتضاده حالة تسمى البطر وإن كان فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة ويضاده الجبن وإن كان فى كظم النيط والغضب سمى حلا ويضاده التذمر وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما وإن كان عن فضول القيش سمى زهدا ويضاده

(١) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين البخارى من حديث سهل بن سعد وتقدم .

ولاخواننا الذين -
الآية ثم - ربنا عليك
توكلنا - ثم درب اغفر
لى ولوالدى ولمن دخل
بيتي مؤمنا وللؤمنين
والمؤمنات ولا تزد
الظالمين إلا تبارا -
مهما يصل فليقرأ بهذه
الآيات وبالمحافظة على
هذه الآيات فى الصلاة
مواظبا للقلب واللسان
يوشك أن يرقى إلى
مقام الاحسان ولوردد
فرد آية من هذه فى
ركعتين من الظهر أو
الصبر كان فى جميع
الوقت مناجيا لمولاه
وداعيا وتاليا ومصليا
والدؤوب فى العمل
واستيعاب أجزاء النهار
بلذادة وحلاوة من
غير سامة لا يصح

الحرص وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره فأكثر أخلاق
الايان داخل في الصبر ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الايمان قال «هو الصبر» لأنه أكثر
أعماله وأعزها كما قال «الحج عرفه» (١) وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى
- والصابرين في البأساء - أي الضيعة - والضراء - أي الفقر - وحين البأس - أي المحاربة - وأولئك
الذين صدقوا وأولئك هم المتقون - فاذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ اللعان من
الأسامي يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامي مختلفوا الذي
يسلك الطريق للستقيم وينظر بنور الله يلحظ اللعان أو لا يطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامي
فإنها وضعت دالة على اللعان فاللعان هي الأصول والألفاظ هي التوابع ومن يطلب الأصول من التوابع
لابد وأن يزل وإلى التوابع الإشارة بقوله تعالى - آمنن بشئ مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي
سويا على صراط مستقيم - فإن الكفار لم يسلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانكسارات ، نسأل
الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه .

(بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف)

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال : أحدها أن يقهر داعي الهوى فلا يتبع
له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون إلى هذه الرتبة
هم الأقلون فلا جرم هم الصديقون المقربون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فهو لآلام الطريق
للمستقيم واستنوا على الصراط القويم واطمأنن تقوسهم على مقتضى باعث الدين وإياهم ينادى النادى
- يا أيها النفس النطمثة ارجعي إلى ربك راضية مرضية - . الحالة الثانية أن تغلب دواعي الهوى
وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ولا يجاهد لياسه من المهادنة
وهؤلاء هم العافلون وهم الأكثرون وهم الذين استترقهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فكروا
أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله وإليه الإشارة بقوله تعالى
- ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين -
وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فحسرت صفقتهم وقيل لمن قصد إرشادهم - فأعرض عمن
تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط
والفرور بالأمانى وهو غاية الحق كما قال صلى الله عليه وسلم «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد
الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» (٢) وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال أنا مشتاق
إلى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلست أطمع فيها أولم يكن مشتاقا إلى التوبة ولكن قال إن
الله غفور رحيم فإلحاحه به إلى توبتي وهذا السكين قد صار عقله رقيقا لشهوته فلا يستعمل
عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته قد صار عقله في يد شهواته كسلم
أسير في أيدي الكفار فهم يستخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الحنجر وحملها وعمله عند الله تعالى
محل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيرا عندهم لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر
ما كان حقه أن لا يستسخر وسلط ماحقه أن لا يتسلط عليه وإنما استحق السلم أن يكون متسلطا
لما فيه من معرفة الله وبعث الدين وإنما استحق الكفار أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل
بالدين وبعث الشياطين وحق السلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه فهما سخر المعنى الشريف

إلا بعد تزكت نفسه
بكمال التقوى
والاستقصاء في الزهد
في الدنيا وانزع منه
متابعة الهوى ومقرب
على الشخص من
التقوى والزهد والهوى
بقية لا يدوم روحه في
العمل بل ينشط وقتا
ويسأم وقتا ويتناوب
النشاط والكسل فيه
لبقاء متابعة شئ من
الهوى بنقصان تقوى
أوعجة دنيا وإذا صح
في الزهد والتقوى فإن
ترك العمل بالجوارح
لا يفر عن العمل بالقلب
فمن رام دوام الروح
واستحلاء الذؤوب في
العمل فليبه بحسب مادة
الهوى والهوى روح
النفس لا يزول ولكن

(١) حديث الحج عرفه أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن عمر وتقدم في الحج

(٢) حديث الكيس من دان نفسه الحديث تقدم في ذم الفرور .

الذي هو من حزب الله وجند الملائكة للمضي الحسيس الذي هو من حزب الشياطين البعدين عن الله تعالى كان كمن أرق مسلما لكافر بل هو كمن قصد الملك النعم عليه فأخذ أعز أولاده وسله إلى أبض أعدائه فانظر كيف يكون كفرانه لتعمته واستيجابه لنعمته لأن الهوى أبض إله عبد في الأرض عند الله تعالى والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض . الحالة الثالثة أن يكون الحرب سجلا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين يد مثله لامن الظافرين وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم هذا باعتبار القوة والضعف ويتطرق إليه أيضا ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه : فانه إما أن يظلب جميع الشهوات أو لا يظلب شيئا منها أو يظلب بعضها دون بعض وتنزيل قوله تعالى - خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا - على من هجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلا إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق ذلك له وعظله فهو الناقص حقا المذنب بقينا ولذلك قيل :

فلم أر في عيوب الناس عيبا كنعص القادريين على التمام

وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بمجد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرا وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحمل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر وإذا دامت القوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى - فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسر - ومثال هذه التيسرة قدرة الصارع على غيره فان الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعة إعياء ولا لعوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينهر ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين و باعث الهوى فانه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين ومهما أذعنت الشهوات وانعمت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول اللواظبة أورث ذلك مقام الرضا كما سيأتي في كتاب الرضا فالرضاء أعلى من الصبر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير (١) » وقال بعض العارفين أهل الصبر على ثلاثة مقامات : أولها ترك الشهوة وهذه درجة التائبين . وثانيها الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين وسنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر وكان هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا . واعلم أن الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض وقيل ومكروه ومحرم . فالصبر عن المحظورات فرض وعلى المكروه نقل والصبر على الأذى المحظور كمن تقطع يده أو يده ولده وهو صبر عليه ما كتناوكن يقصد حرمة بشهوة محظورة قبيح غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرم والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع يحكم الصبر فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

(بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه في حال من الأحوال)

اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين : أحدهما هو الذي يوافق هواه .

(١) حديث عبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم .

نزول متابته والنبي
عليه السلام ما استعاذ
من وجود الهوى
ولكن استعاذ من
متابته فقال « أعوذ
بك من هوى متبع »
ولم يستعذ من وجود
الشح فانه طبيعة
النفس ولكن استعاذ
من طاعته فقال « وشح
مطاع » ودقائق متابعة
الهوى تثيب على قدر
صفاء القلب وعلو الحال
فقد يكون متبع للهوى
باستحلاء مجالسة الخلق
ومكالمهم أو النظر
إليهم وقد يتبع الهوى
بتجاوز الاعتدال في
النوم والأكل وغير
ذلك من أقسام الهوى
المتبع وهذا شغل من
ليس له شغل إلا في الدنيا

والآخر هو الذي لا يوافق بل يكرهه وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما فهو إذن لا يستغنى قط عن الصبر . النوع الأول : ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها للباحة منها أخرجته ذلك إلى البطر والظفان فإن الانسان ليظنى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن والموافى لا يصبر عليها إلا صديق . وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضی الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء ضربنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله - وقال عز وجل - إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم - وقال صلى الله عليه وسلم « الولد مبخلة مجبنة محزنة (١) » . ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضی الله عنه يتعرق في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله - إنما أموالكم وأولادكم فتنة - إنى لما رأيت ابني يتعرق لم أملك نفسي أن أخذته (٢) » في ذلك عبرة لأولى الأبصار فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التعم واللذة والهوى واللعب وأن يرعى حقوق الله في ماله بالاتفاق وفي بدنه يبذل للمونة للخلق وفي لسانه يبذل للصدق وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر كما سيأتي وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر والصبر على الحجة والفصد إذا تولا غيوك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها فهذا عظمت فتنة السراء . النوع الثاني ما لا يوافق الهوى والطبع وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي أو لا يرتبط باختياره كالصائب والنوائب أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتسبيح من المؤذي بالاتقام منه فهذه ثلاثة أقسام : القسم الأول ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان . الضرب الأول : الطاعة والعبد محتاج إلى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية ولذلك قال بعض العارفين ما من نفس إلا وهي مضرة ما أظهره فرعون من قوله - أنا ربكم الأعلى - ولكن فرعون وجدله مجالاً وقبولا فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده وخدمته وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وإن كان ممتنماً من إظهاره فإن استشاطته وغبطه عند تقصيرهم في خدمته واستباده ذلك ليس صدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء؛ فأذن العبودية شاقة على النفس مطلقاً ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ومحتاج للطبع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال: الأولى قبل الطاعة وذلك في تصحيح النية والاحلاص والصبر عن شوائب الرياء

ثم يصل العبد قبل العصر أربع ركعات فإن أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكمل وأتم ولو اغتسل كان أفضل فكل ذلك له أثر ظاهر في تنوير الباطن وتكميل الصلاة وبقراء في الأربع قبل العصر إذا زلزلت والمعاديات والقارعة والمهاكم وصلّى العصر ويحجل من قراءته في بعض الأيام والساء ذات البروج وصحمت أن قراءة سورة البروج في صلاة العصر أمان من الدماميل ويقرأ بعد العصر ما ذكرنا من الآيات والدعوات ما يتيسر له من ذلك فإذا صلى

(١) حديث الولد مجبنة مبخلة محزنة أبو يعلى اللؤلؤي من حديث أبي سعيد وتقدم (٢) حديث لما نظر إلى ابنه الحسن يتعرق في قميصه نزل عن المنبر الحديث أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذي حسن غريب .

ودواعي الآفات وعقد العزم على الاخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والاخلاص وآفات الرياء ومكاييد النفس ، وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذ قال « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ^(١) » وقال تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل ، فقال تعالى - إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات - الحالة الثانية : حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلزم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى - نعم أجر العاملين الذين صبروا - أي صبروا إلى تمام العمل . الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمة والرياء والصبر عن النظر إليه بين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى - ولا تبطلوا أعمالكم - وكما قال تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بالبنّ والأذى - فمن لم يصبر بعد الصدقة عن البنّ والأذى فقد أبطل عمله . والطاعات تنقسم إلى فرض ونقل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى في قوله - إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى - فالعدل هو الفرض ، والاحسان هو النقل ، وإيتاء ذى القربى هو الروءة وصلة الرحم وكل ذلك محتاج إلى صبر . الضرب الثاني للمعاصي لما أحوج العبد إلى الصبر عنها ، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى - وينهى عن الفحشاء والنكر والبغى - وقال صلى الله عليه وسلم « المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه ^(٢) » والمعاصي مقتضى باعث الهوى . وأشد أنواع الصبر عن المعاصي الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفاً بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة ذات انصاف العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها ، ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا . وأنواع للزح المؤذى للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الأضرار والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وصيرهم ومناصبهم فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان : إحداها نفى الغير والأخرى إثبات نفسه وبها تتم له الربوية التي هي في طبعه ، وهي ضد ما أمر به من العبودية ولا اجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معنادا في المحاورات يمسر الصبر عنها ، وهي أكبر الوبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأتس بها فترى الانسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ماورد في الخبر « من أن الغيبة أشد من الزنا ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد ^(٣) » فلا ينجيه غيره فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخاطلة وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها وأيسر من حركة اللسان حركة الحواطر باختلاج الوسواس فلا جرم يبق

الصبر ذهب وقت التنفل بالصلاة وبق وقت الأذكار والتلاوة وأفضل من ذلك مجالسة من يزهد في الدنيا ويسدّد كلامه عرا التقوى من الطاعة الزاهدين للتكلمين بما يقوى عزائم المؤمنين فإذا صحت نية القائل والمستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد وللداومة على الأذكار وإن عدت هذه المجالسة وتصدرت فليترجح بالتنقل في أنواع الأذكار وإن كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه في هذا الوقت يكون أفضل وأولى من خروجه

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه ابن ماجه بالشرط الأول والنسائي في الكبرى بالشرط الثاني كلاهما من حديث فضالة بن عبيد باسنادين جيدين وقد تقدم (٣) حديث إن الغيبة أشد من الزنا تقدم في آفات اللسان .

حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلاً إلا بأن يطلب على القلب ثم آخر في الدين يستغرقه كمن أصبح وهوومه ثم واحد وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فنور الوسواس عنه . القسم الثاني ملايرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه كالكوا أذى بفعل أو قول وحي عليه في نفسه أو ماله ، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعدّ إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى ، وقال تعالى - ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل التوكانون - « وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحمرّت وجهه ثم قال يرحم الله أخى موسى لقد أذى بأكثر من هذا فصر (١) » وقال تعالى - ودع أذام وتوكل على الله - وقال تعالى - واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا - وقال تعالى - ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك - الآية وقال تعالى - ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور - أى تصبروا عن المكافأة ولذلك مدح الله تعالى العاقبين عن حقوقهم في القصص وغيره فقال تعالى - وإن عاقبتهم فاقبوا بمنزل ما عاقبتهم به ولئن صبرتم لهو خبير للصابرين - وقال صلى الله عليه وسلم « صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك (٢) » ورأيت في الإنجيل قال عيسى ابن مريم عليه السلام لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر ومن أخذ رداك فأعطه إزارك ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى ، فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه باعث الدين و باعث الشهوة والغضب جميعا . القسم الثالث : ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره كالمصائب مثل موت الأعتة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء وبالجملة سائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهى من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم . فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فإن ذلك شديد على النفس ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أسألكم من اليقين ما تهون على به مصائب الدنيا (٣) » فهذا صبر مستنده حسن اليقين . وقال أبو سليمان والله ما نصبر على ما يحب فكيف نصبر على ما نكره وقال النبي صلى الله عليه وسلم « قل الله عز وجل إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب ميزانا أو أنشر له ديوانا (٤) »

في أول النهار ولا يخرج من المنزل إلا وهو على الوضوء . وكره جمع من الطماء تحية الطهارة بعد صلاة العصر وأجازه المشايخ والصالحون ويقول كما خرج من منزله بسم الله ماشاء الله حسبى الله لا قوة إلا بالله ، اللهم إليك خرجت وأنت أخرجتنى ؛ وليقرأ الفاتحة وللمؤمنين ولا يدع أن يتصدق كل يوم بما يتيسر له ولو تمر أو لقمة فإن القليل بحسن النية كثير . وروى أن عائشة رضى الله عنها أعطت السائل

(١) حديث قسمة مرة مالا وقول بعض الأعراب هذه قسمة ما أريد بها وجه الله الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم (٢) حديث صل من قطعك الحديث تقدم (٣) حديث أسألكم من اليقين ما تهون به على مصائب الدنيا الترمذى والنسائى والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذى وقد تقدم في الدعوات (٤) حديث قال الله إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ولده أو ماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل الحديث ابن عدى من حديث أنس بسند ضعيف .

وقال صلى الله عليه وسلم « انتظار الفرج بالصبر عبادة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى - إنا لله وإنا إليه راجعون - اللهم اؤجرني في مصيبتى وأعقبني خيراً منها إلا فعل الله به ذلك (٢) » وقال أنس حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قال يا جبريل ماجزاه من سلبت كرميته قال سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا قال تعالى جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبدي بيلاء فصر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه فإذا برأته برأته ولا ذنب له وإن توفيته فإلى رحمتي (٤) » وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاه الحزين الذي صبر على المصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا آزره عنه أبداً. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته ما أنتم الله على عبد نعمة فأنزعها منه وعوضه منها الصبر إلا كان ما عوضه منها أفضل مما أنزع منه وقرأ - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - وسئل فضيل عن الصبر قال هو الرضا بقضاء الله ، قيل وكيف ذلك ؟ قال الراضى لا يتعنى فوق منزلته ، وقيل حبس الشئلى رحمه الله في السارستان فدخل عليه جماعة فقال من أتم قالوا أحباؤك جاءوك زائرين فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائى ، وكان بعض العارفين في جيهة رقة يخرجها كل ساعة ويطلعها وكان فيها - وأصبر لحكم ربك فانك آمنينا - ويقال إن امرأة فتحت الموصلى عثرت فاقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أما تجدين الوجع فقالت إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجهه ، وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك (٥) » وروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوماً وفي كفة صرة فاقتدها فإذا هى قد أخذت من كفه فقال بارك الله له فيها لعله أحوج إليها منى وروى عن بعضهم أنه قال مررت على سالم مولى أبى حذيفة فى حذيفة فى القتلى وبه رمق فقلت له أسقك ماء فقال جرنى قليلاً إلى العدو واجمل الماء فى الترس فإنى صائم فان عشت إلى الليل شربته فهكذا كان صبر السالكى طريق

(١) حديث انتظار الفرج بالصبر عبادة القضاعى فى مسند الشهاب من حديث ابن عمرو بن عباس وابن أبى الدنيا فى الفرج بعد الشدة من حديث على دون قوله بالصبر وكذلك رواه أبو سعيد المالبلى فى مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللترمذى من حديث ابن مسعود أفضل العبادة انتظار الفرج وتقدم فى الدعوات (٢) حديث مامن عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله - إنا لله وإنا إليه راجعون - الحديث مسلم من حديث أم سلمة (٣) حديث أنس إن الله قال يا جبريل ماجزاه من سلبت كرميته الحديث الطبرانى فى الأوسط من رواية أبى ظلال القسطل واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخارى بلفظ إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبدي بحبيتيه فصر عوضته منهما الجنة رواه ابن عبيد وأبو يعلى بلفظ إذا أخذت كرميتى عبدي لم أرض له ثواباً دون الجنة قلت يارسول الله وإن كانت واحدة قال وإن كانت واحدة وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدى ضيف (٤) حديث يقول الله إذا ابتليت عبدي بيلاء فصر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لحماً خيراً من لحمه الحديث مالك فى الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد انس وعبد بن كثير ضعيف ورواه البيهقى موقوفا على أبى هريرة (٥) حديث من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك لم أجده مرفوعاً وإنما رواه ابن أبى الدنيا فى الرض والكفارات من رواية سفیان عن بعض الفقهاء قال من الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكى نفسك .

عنة واحدة وقالت إن فيها لتأقيل ذر كثير . وجاء فى الخبر « كل امرئ يوم القيامة تحت ظل صدقته » ويكون من ذكره من العصر إلى المغرب مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحبت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به

الآخرة على بلاء الله تعالى . فان قلت فبماذا تنال درجة الصبر في الصائب وليس الأمر إلى اختياره فهو مضطراً شاء أم أبى فان كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية الصيبة فذلك غير داخل في الاختيار . فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الحدود والبالغة في الشكوى وإظهار السكابة وتغيير العادة في اللبس والمفرش والطعم وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغي أن يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرا على عادته ويستعد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روى عن الربيعة أم سليم رحمها الله أنها قالت توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقممت فسجيت في ناحية البيت فقدم أبو طلحة فقممت فهاأت له إبطاره فجعل يأكل فقال كيف الصبي قلت بأحسن حال بحمد الله ومنه فانه لم يكن منذ اشتكى بأمكن منه الليلة ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته ثم قلت ألا تصعب من جيرانا قال ما لهم قلت أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا فقال بمنى ما صنعوا فقلت هذا ابنك كان عارية من اقه تعالى وإن الله قد قبضه إليه فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال اللهم بارك لهما في ليلتهما (١) قال الراوى فلقد رأيت لهم بعد ذلك في السجدة سبعة كلهم قد فروا والقرآن ، وروى جابر أنه عليه السلام قال رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالربيعة امرأة أبي طلحة ، وقد قيل الصبر الجليل هو أن لا يعرف صاحب الصيبة من غيره ولا يخرج به عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل اللوت سواء ولأن البكاء توجع القلب على الميت فان ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الانسان إلى الموت ولذلك لمسامات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له « أما نهيتنا عن هذا فقال إن هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا فالقدم على الحجامة والنصدراض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى ، وكتب ابن أبي نجيب يعزى بعض الخلفاء إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبواه له . واعلم أن الساضي قبلك هو الباقي لك والباقي بعدك هو للأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه فاذن مهمادفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين ، نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب ، وقد قيل من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة فقد ظهر لك بهذه التسميات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأعمال فان الذي كفى الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا فان اختلاج الحواطر لا يمكن وأكثر جولان الحواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر فهو كيفما كان تضيق زمان وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فاذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة بحبة الله تعالى فهو مغبون هذا إن كان فكره ووساوسه في المباحات مقصورا عليه ولا يكون ذلك غالبا بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات إذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أمارة له منه بل يقدر المتألمة من أخلص الناس في جنبه حتى في أهله وولده ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتاملون به

(١) حديث الربيعة أم سليم توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقممت فسجيت في ناحية البيت الحديث طب ومن طريقه أبو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف .

إلا أحد عمل أكثر من ذلك ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين فقد ورد أن من قال في يومه مائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين لم يعمل أحد في يومه أفضل من عمله ويقول مائة مرة سبحان الله والحمد لله والكلمات ومائة مرة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبعمده أستغفر الله ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين ومائة مرة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ومائة مرة أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة ومائة

في مخالفته ولا يزال في شغل دائم فللشيطان جندان جندي يطير و جندي سير والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار والشهوة عبارة عن حر كجذبه السيار وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الانسان من صلصال كالفخار والقخار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبعها وقد كلف للمؤمن المحلوق من النار أن يطمئن عن حر كته ساجدا لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستصصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال - خلقتني من نار وخلقته من طين - فاذن حيث لم يسجد للمؤمن لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغي أن يطمع في سجوده لأولاده ومهما كلف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه قد أظهر اتقياده وإذعانه بالاذعان سجود منه فهو روح السجود وإنما وضع الجبهة على الأرض قلبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح ولوجعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك كما أن الانبطاح بين يدي العظم المحترم يرى استخفافا بالمادة فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب فتكون من قيده عالم الشهادة بالكيفية عن عالم القيب وتحقق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبغ وهو منك هم واحد فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد للمؤمن مجالاً فيك فند ذلك تكون من عباد الله الخالصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا الامين ولا تظن أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم وسيلانه مثل الهواء في القدرح فانك إن أردت أن يخلو القدرح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو غيره فقد طمعت في غير مطعم بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة فكذلك القلب المشغول بغيرهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان والإلمن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قريب إلا الشيطان ولذلك قال تعالى - ومن يش عن ذكر الرحمن تفيض له شيطاناً فهو له قرين - وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله يغضب الشاب الفارغ» (١) وهذا لأن الشاب إذا تطل عن عمل يشغل باطنه يباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغاً ولم يبق قلبه فارغاً بل يعيش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ثم تزوج أفرأخه أيضاً وتبيض مرة أخرى وتفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع البتة بل تسمى شيئاً فشيئاً على الاتصال فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار وكما لا يبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة فاذا ن تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك وهي صفة تمسك ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ما هو فقال هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك فاذا حقيقة الصبر وكاله الصبر عن كل حر كة مذمومة وحر كة باطن أولى بالصبر عن ذلك وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت نسأل الله حسن التوفيق عنه وكرهه .

(بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه)

اعلم أن الذي أزل الداء أزل الدواء ووعده الشفاء فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن بمجون العلم والعمل فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منهارت كالأدوية للأمراض القلوب كلها ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها واستيفاء ذلك فما يطول

(١) حديث إن الله يغضب الشاب الفارغ لم أجده .

مرة ماشاء الله لا قوة إلا بالله ورأيت بعض الفقراء من المغرب بمكة وله سبعة فيها ألف حبة في كيس له ذكر أن ورده أن يديرها كل يوم اثنتي عشرة مرة بأنواع الذكر . ونقل عن بعض الصحابة أن ذلك كان ورده بين اليوم والليلة ونقل عن بعض التابعين كان ورده من التسبيح ثلاثين ألفاً بين اليوم والليلة وليقل مائة مرة بين اليوم والليلة هذا التسبيح سبحان الله العلي الديان سبحان الله شديد الأركان سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالنهار

ولكننا نعرف الطريق في بعض الأمثلة . فنقول إذا افتقر الى الصبر عن شهوة الواقع مثلا وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لا تزال تحدته بمتعضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن الواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة . فنقول قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة فأما باعث الشهوة فبببيل تضعينه ثلاثة أمور : أحدها أن تنظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الافطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللحم والأطعمة اللذيذة للشهوة . الثاني قطع أسبابه اللذيذة في الحال فانه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور الشهوة والفرار منها بالكلية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظره سهم مسموم من سهام إبليس ^(١) » وهو سهم يسده الملعون ولا ترس يمنع منه إلا تمضيض الأجفان أو المهرب من صوب رمية فانه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور فاذا انقلبت عن صوب الصور لم يصيبك سهمه . الثالث تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشبهه وذلك بالنكاح فان كل ما يشبهه الطبع في اللباحت من جنسه ما يفتنى عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر فان قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ثم قد لا يقع الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء ^(٢) » فهذه ثلاثة أسباب فالعلاج الأول وهو قطع الطعام يضاهاى قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضارى ليضعف فتنقطع قوته . الثاني يضاهاى تعيب اللحم عن النكاب وتغيب الشعر عن البهيمة حتى لا يتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث يضاهاى تسليتها بشئ قليل مما يجلب إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب . وأما تقوية باعث الدين فانما تكون بطريقتين أحدهما إطعامه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة وفي الأثر : إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة إذ فاته ما لا يبقى معه لإمددة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر ومن أسلم خيسا في نقيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الحسيس في الحال وهذا من باب العارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى فان قوى قوى باعث الدين وهيجه تهيجا شديدا وإن ضعف ضعفه وإنما قوة الإيمان يجر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر وأقل ما أوتى الناس اليقين وعزيمة الصبر والثاني أن יהود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجري عليها وتقوى منته في مصارعتها فان الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال ولذلك تزيد قوة الجمالين والفلاحين والعتاتلين وبالجملة تقوية الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والطارئين والفقهاء والصالحين وذلك لأن قوامهم لمتأكدا بالممارسة فالعلاج الأول يضاهاى أطماع الصارع بالحامة عند الغلبة ووعده بأنواع الصكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه بإمام موسى حيث قال - وإنكم إذا لمن القربين - والثاني يضاهاى تعويد الصبي

صبجان من لا يشغله شأن عن شأن سبحان الله الختان للثان سبحان الله السبيع في كل مكان . روى أن بعض الأبدال بات على شاطئ البحر فسمع في هذه الليل هذا التسبيح فقال من الذي أصمع صوته ولا أرى شخصه فقال أنا ملك من اللاتسكة موكل بهذا البحر أصبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت قلت ما سمك فقال مهلبيا نل قلت ما ثواب هذا التسبيح قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أويرى له . وروى أن عثمان رضى

(١) حديث النظره سهم مسموم من سهام إبليس تقدم غير مرة (٢) حديث عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم الحديث تقدم في النكاح .

الذي يراد منه المصارعة والقتالة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجري عليه وتقوى فيه منته فن ترك بالكيفية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا تقوى على الشهوة وإن ضعف ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه وإنما أشدها كنف الباطن عن حديث النفس وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له بأن تقع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والله كروا الفكر فان الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب وهذا لا علاج له البتة إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة بهم كل ذلك لا يكفي ما لم تنصر المسموم بها واحدا وهو الله تعالى ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير الباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة الترتبية في كل لحظة من القراءة والأذكار والصلوات ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فان الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد والظاهرة ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها إذ لا يخلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط إذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب العيشة فهذا أحد الأنواع المشاغلة . وأما النوع الثاني فهو ضروري أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب العاش فان تهيتها ذلك أيضا تخرج إلى شغل إن تولاه بنفسه وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب ممن يتولاه ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به مدة أو واقعة وفي تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السموات والأرض ما لا يقدر على عشر عشره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق والانهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد فأما مقادير ما ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق فقديرا للجهد ويحبل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ والمولود راء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فانها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد ، ثم اختيار العبد في أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا فان المهدوب إلى أسفل سافلين لا يجذب إلى أعلى عليين وكل مهوم بالدنيا فهو منجذب إليها فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « إن لربكم أيام دهركم نفحات ألا تفرضوا لها » وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية إذ قال الله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وهذا من أعلى أنواع الرزق والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندري متى يبسر الله تعالى أسباب الرزق فما علينا إلا تفرغ المحل والانتظار لتزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبت البذر فيها وكل ذلك لا ينفعه إلا بغير ولا يدري متى يقد الله أسباب المطر إلا أنه يتق بفضل الله تعالى ورحمته أنه يخلى سنة عن مطر فكذلك فلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذريه بذر الإرادة والاخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة كما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان فان الهمم والأنفاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدبار رحمته حتى

الله عنه سأل رسول
الله صلى الله عليه وسلم
عن تفسير قوله تعالى
- له مقاليد السموات
والأرض - فقال سألتني
عن شيء عظيم ما سألتني
غيرك هو لا إله إلا الله
والله أكبر وسبحان الله
والحمد لله ولا حول
ولا قوة إلا بالله عز وجل
وأستغفر الله الأول
الآخر الظاهر الباطن
له الملك وله الحمد لله
الحير وهو على كل شيء
قدير من قالها عشرا
حين يصبح وحين
يمسي أعطى ست خصال
فأول خصلة أن يحرس
من إبليس وجنوده
الثانية أن يعطي قنطارا
من الأجر الثالثة يرفع
له درجة في الجنة

تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء وهي لاستدرار أمطار الكاشفات ولطائف المعارف من خزائن
 اللسكوت أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار بل
 الأحوال والكاشفات حاضرة معك في قلبك وإنما أنت مشغول عنها بسلامتك وشهواتك فصار ذلك
 حجاباً بينك وبينها فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من
 باطن القلب واطهار ماء الأرض بحجر القى أسهل وأقرب من استرسال إليها من مكان بعيد منخض عنها
 ولكونه حاضراً في القلب ومنسيا بالشيغل عنه سمى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكراً فقال تعالى
 - إنا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون - وقال تعالى - ولتذكر أولوا الألباب - وقال تعالى - ولقد
 يسرنا القرآن للذکر فهل من مدکر - فهذا هو علاج الصبر عن الوسواس والشواغل وهو آخر درجات
 الصبر وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر . قال الجنيد رحمه الله السير من الدنيا
 إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في حب الحق شديد والسير من النفس إلى الله تعالى صعب
 شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق وأشد العلائق
 على النفس علاقة الخلق وحب الجاه فان لذة الرياضة والغلبة والاستسلام والاستتباع أغلب اللذات في
 الدنيا على نفوس العقلاء وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية
 والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأموال الربوبية وعنه العبارة بقوله تعالى
 - قل الروح من أمر ربي - وليس القلب مذموماً على حبه ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقوعه بسبب
 تمرير الشيطان العين للبعد عن عالم الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر فأضله وأغواه وكيف يكون
 مذموماً عليه وهو يطلب سعادة الآخرة فليس بطلب لإبقاء لافناء فيه وعزا لادله فيه وأماناً لا خوف فيه
 وغنى لا فقر فيه وكالالاتقان فيه وهذه كلها من أوصاف الربوبية وليس مذموماً على طلب ذلك بل
 حق كل عبد أن يطالب ملكاً عظيماً لا آخره وطالب الملك طالب للعالمين والكمال لا محالة ونسكن الملك
 ملكان ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك عجل
 دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل وقد خلق الإنسان مجبولاً رغباً في العاجلة فجاء
 الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة التي في طبعه فاستغوا بالعاجلة وزين له الحاضرة وتوسل إليه بواسطة
 الخلق فوعده بالغرور في الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كقول الله ﷻ « والأحقق من أتبع نفسه
 هواها وتمنى على الله الأمانى » فأنخدع المخدول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملسها على قدر إمكانه ولم
 يتدل الموفق بحبل غروره إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة فصبر عن المخدولين بقوله تعالى - كلا
 بل تحبون العاجلة وتدنون الآخرة - وقال تعالى - إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً
 ثقيلاً - وقال تعالى - فأعرض عنهم تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم -
 ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرسل وأوحوا إليهم ماتم على الخلق
 من إهلاك العدو وإغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا أصل
 له إن سلم ولا دوام له أصلاً فنادوا قيتهم - يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم اتقوا في سبيل
 الله اثنا قلمتم إلى الأرض أرضنتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل -
 فالتوراة والإنجيل والزيور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما نزل إلا لدعوة
 الخلق إلى الملك الدائم الخلد والبراد منهم أن يكونوا ملوكاً في الدنيا ملوكاً في الآخرة أما ملك الدنيا
 فالزهد فيها والقناعة باليسير منها وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لافناء فيه وعزا
 لذلك فيه وقرة عين أخفيت في هذا العالم لاتعلمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم إلى ملك
 الدنيا لعله بأن ملك الآخرة يموت به إذ الدنيا والآخرة ضربتان ولعله بأن الدنيا لا تسلم له أيضاً

الرابعة يزوجه الله من
 الحور العين الخامسة
 اثنا عشر ملكاً
 يستغفرون له السادسة
 يكون له من الأجر كمن
 حج واعتمر ويقول
 أيضاً في هذا الوقت وفي
 أول النهار اللهم أنت
 خلقتني وأنت هديتني
 وأنت تطمئني وأنت
 تسميني وأنت تميئني
 وأنت تحييي أنت ربي
 لا رب لي سواك ولا
 إله إلا أنت وجدك
 لا شريك لك ويقول
 ماشاء الله لا قوة إلا بالله
 ماشاء الله كل نعمة
 من الله ماشاء الله الحير
 كله بيد الله ماشاء الله
 لا يصرف السوء إلا الله
 ويقول حسبي الله لا إله
 إلا هو عليه توكلت

ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول المحوم في التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه ثم مهما تسلم وتم الأسباب ينقض العمر - حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ووطن أهلها أنهم قادرون عليها أمتاها أمرنا ليلا أو نهارا لجهنناها حصيدا كأن لم تكن بالأمس - فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى - واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح - والزهد في الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا حسده الشيطان عليه فصد عنه ومعنى الزهد أن تملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرا وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه فيكون مسخرا مثل البهيمة يملوكها يستجره زمام الشهوة آخذاً بحنقته إلى حيث يريد ويهوى فما أعظم افتتار الانسان إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير يملوكا وينال الربوبية بأن يصير عبدا ومثل هذا هل يكون إلا معكوسا في الدنيا منكوسا في الآخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض الوهاد هل من حاجة؟ قال كيف أطلب منك حاجة وملكى أعظم من ملكك فقال كيف قال من أنت عبده فهو عبدلى فقال كيف ذلك قال أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيدى فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذى يسوق إلى الملك في الآخرة فالخمدوعون بفرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا والذين وقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا فاذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط في ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتليسه يسهل عليك الزرع عن الملك والجاه والاعراض عنه والصبر عند فواته إذ تصير بتركه ملكا في الحال وترجوه بملكك في الآخرة ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف بل لابد وأن يضيف إليه العمل وعمله في ثلاثة أمور: أحدها أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض إذ قال تعالى - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - الثاني أن يكلف نفسه في أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده فيبدل التكلف بالتبذل وزى الحشمة بزى التواضع وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن ومابس ومطعم وقيام وقعود كان يتاده وفاء بمقتضى جاهه فينبغى أن يبدلها بتواضعها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياده فلهذا معنى للمعالجة بالالمضادة - الثالث أن يراعى في ذلك التلطف والتدرج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل فإن الطبع تقور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدرج فيترك البعض ويسلى نفسه ببعض ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض إلى أن يقنع بالبقية وهكذا يفعل شيئا فشيئا إلى أن يجمع تلك الصفات التي رسخت فيه وإلى هذا التدرج الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت لأرضاً تقطع ولا تظهر أبقى (١)» وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «لا تشادوا هذا الدين فإن من يشاده يلقبه (٢)» فاذن ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربيع المهلكات فأغفده دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل فان تفصيل الأحاد يطول ومن راعى التدرج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر

وهو رب العرش العظام
ثم يستعد لاستقبال
الليل بالوضوء والطهارة
ويقرا المسببات قبل
الغروب ويديم
التسبيح والاستغفار
بحيث تغيب الشمس
وهو في التسبيح
والاستغفار ويقرا عند
الغروب أيضا والشمس
والليل والعودتين
ويستقبل الليل كما
استقبل النهار قال الله
تعالى - وهو الذى
جعل الليل والنهار خلفه
لمن أراد أن يذكر أو
أراد شكورا - فكما
أن الليل يعقب النهار
والنهار يعقب الليل
ينبغى أن يكون العبد
بين الذكر والشكر
يعقب أحدهما الآخر

(١) حديث إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق الحديث أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر وتقدم في الأوراد (٢) حديث لا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده يلقبه تقدم فيه .

دونه كما كان يشق عليه الصبر معه فتعكس أمره فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والتدقيق وله نظير في العادات فإن الصبر يعمل على التعلم في الابتداء قهراً فيشقى عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم حتى إذا اشتتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشقى عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب وإلى هذا يشير ما حكى عن بعض العارفين أنه سأل الشبل عن الصبر أيه أشد؟ قال الصبر في الله تعالى قال لا قتال الصبر لله قال لا قال الصبر مع الله قال لا قتال لا قش؟ قال الصبر عن الله فصرخ الشبل صرخة كادت روحه تتلف. وقد قيل في معنى قوله تعالى - اصبروا وصابروا ورابطوا - اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وقد قيل في معناه: والصبر عنك لهدموم عواقبه والصبر في ما ر الأسياء محمود وقيل أيضاً: الصبر يجعل في للواطن كلها لإعليك فانه لا يجعل هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره.

الشرط الثاني من الكتاب في الشكر، وله ثلاثة أركان

الأول: في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه. الثاني: في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعمامة. الثالث: في بيان الأفضل من الشكر والصبر.

الركن الأول في نفس الشكر

(بيان فضيلة الشكر)

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالله كرفي كتابه مع أنه قال - ولله أكبر - فقال تعالى - فاذا كروا أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون - وقال الله تعالى - ما يفعل الله بعبادكم إن شكرتم وآمنتم - وقال تعالى - وسنجزي الشاكرين - وقال عز وجل إخباراً عن إبليس اللعين - لأقصدن لهم صراطك المستقيم - قيل هو طريق الشكر ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق قال: ولا نجد أكثرهم شاكرين وقال تعالى - وقليل عن عبادي الشكور - وقد قطع الله تعالى بالزبد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى - لئن شكرتم لأزيدنكم - واستثنى في خمسة أشياء في الأغناء والاحباب والرزق وللغفرة والتوبة فقال تعالى - فسوف ينصركم الله من فضله إن شاء - وقال فيكشف ما تدعون إليه إن شاء - وقال: يرزق من يشاء بغير حساب وقال: ويخفر مادون ذلك لمن يشاء وقال: ويتوب الله على من يشاء وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى - والله شكور حلیم - وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى - وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده - وقال - وآخز دعوائهم أن الحمد لله رب العالمين - وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»^(١) وروى عن عطاء أنه قال «دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت أخبريني بأحب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيك وقالت وأي شأنه لم يكن محبباً ثانياً ليلة فدخل معي في فراشي أو قالت في الحافى حتى مس جلدي جلده ثم قال يا ابنه أبي بكر ذريني أعبد لربي قالت قلت إني أحب قربك لكني أوترهوا فكأذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلي فيكبي حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فيكبي ثم سجد فيكبي ثم رفع رأسه فيكبي فلم يزل كذلك يسكن حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلاً كون عبداً شكوراً ولم لأفضل ذلك

(١) حديث الطعام الشاكر بمنزلة الصائم الصابر علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنة وفي إسناده اختلاف.

ولا يتخلها شيء كما لا يتخل بين الليل والتهار شيء والدكر جميعه أعمال القلب والشكر أعمال الجوارح قال الله تعالى - اعملوا آل داود شكراً - والله الوفي للعين.

[الباب الحادي والخمسون في آداب المريذ مع الشيخ] أدب المريدين مع الشيوخ عند الصوفية من مهام الآداب وللقوم في ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن

وقد أنزل الله تعالى على - إن في خلق السموات والأرض - (١) الآية وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبداً وإلى هذا السر يشير ما روى أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغير فخرج منه ماء كثير فتعجب منه فألقه الله تعالى فقال منذ سمعت قوله تعالى - وقودها الناس والحجارة - فأنا أبكي من خوفه فسأله أن يجبره من النار فأجابه ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال لم تبكي الآن فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعاً. وروى عنه عليه السلام أنه قال « ينادى يوم القيامة ليقم الحمدون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن الحمدون قال الذين يشكرون الله تعالى على كل حال (٢) » وفي لفظ آخر « الذين يشكرون الله على السراء والضراء » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمد رداء الرحمن (٣) » وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام إنى رضيت بالشكر مكافأتمن أوليائي في كلام طويل وأوحى الله تعالى إليه أيضاً في صفة الصابرين أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر أستزيدهم وبالتنظر إلى أزيدهم ولما نزل في الكدور ما نزل. قال عمر رضي الله عنه « أي المال يتخذ فقال عليه السلام ليتخذ أحدكم لساناً إذا كرا قلباً شاكر (٤) » فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلاً عن اللسان. وقال ابن مسعود الشكر نصف الإيمان.

(بيان حد الشكر وحقيقته)

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين وهو أيضاً ينظم من علم وحال وعمل فالعلم هو الأصل في ورث الحال والحال يورث العمل ، فأما العلم فهو معرفة النعمة من النعم والحال هو الفرح الحاصل بانعامه والعمل هو القيام بما هو مقصود النعم ومحجوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بجموعه الاحاطة بحقيقة الشكر فان كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الاحاطة بكامل معانيه . فالأصل الأول : العلم وهو علم بثلاثة أمور بين النعمة ووجه كونها نعمة في حقها وبذات النعم ووجود صفاته التي بها يتم الانعام ويصدر الانعام منه عليه فانه لا بد من نعمة ومنم ومنم عليه تصل إليه النعمة من النعم بقصد وإرادة فهذه الأمور لا بد من معرفتها في حق غير الله تعالى فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو النعم والوسائط ثم يخشون من جهته وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان التقديس ثم إذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس وهو التوحيد ثم يعلم أن كل مافي العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والافتراد بالفعل وعن هذا عبر

(١) حديث عطاء دخلت على عائشة فقلت لها أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت وأي أمره لم يكن عجيباً الحديث في بكائه في صلاة الليل أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله عليه السلام ومن طريقه ابن الجوزي في الوفاء وفيه أبو جناب واصمه يحيى بن أبي حبة ضمنه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها وأي أمره لم يكن عجيباً وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصر على آخر الحديث (٢) حديث ينادى يوم القيامة ليقم الحمدون الحديث الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ أول من يدعى إلى الجنة الحمدون الحديث وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور (٣) حديث الحمد رداء الرحمن لم أجده أصلاً في الصحيح من حديث أبي هريرة الكبير رداؤه الحديث وتقدم في العلم (٤) حديث عمر ليتخذ أحدكم لساناً إذا كرا قلباً شاكر الحديث تقدم في النكاح .

الله صبيح عليم -
 روى عن عبد الله بن الزبير قال قدم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني تميم فقال أبو بكر أمر القمقاع بن معبد وقال عمر بل أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر ما أردت إلا خلافي وقال عمر ما أردت خلافاً قبائراً حتى لم ترضت أصواتها فأزل الله تعالى بآياتها الذين آمنوا - الآية قال ابن عباس رضي الله عنهما لا تقدموا لا تكلموا بين يدي كلامه وقال جابر كان ناس يضحون قبل رسول الله فنبهوا عن تقديم الأضحية على

رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله (٢) » وقال « ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله (٣) » ولا تظن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب فسبحان الله كلمة تدل على التقديس ولا إله إلا الله كلمة تدل على التوحيد والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين. واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال ، فمن أتم عليه ملك من الملوك شيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به في النعمة فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه بل منه بوجه ومن غيره بوجه فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا في حق الملك ، نعم لا ينقص من توحيد في حق الملك وكما شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيفه الذي كتبه بقلمه وبالكاغد الذي كتبه عليه فانه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك وقد يعلم أن الوكيل الموصل والحازن أيضا مضطربان من جهة الملك في الإيصال وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاب وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئا فاذا عرف ذلك كان نظره إلى الحازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغد فلا يورث ذلك شركا في توحيد من إضافة النعمة إلى الملك وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالقلم مثلا في يد الكاتب وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها فان الله تعالى هو السلط للدواعي عليها لتفعل شئت أم أبت كالحازن المضطرب الذي لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطرب إذ سلط الله عليه الإزادة وهيج عليه الدواعي وألقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة أن عطيك ما أعطاك وأن غرضه القصد عنده في الخلق والمآل لا يحصل إلا به وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا إلى تركه فهو إذن إنما يعطيك لمرض نفسه لا لمرضك ولو لم يكن غرضه في العطاء ما أعطاك ولو لم يعلم أن نفعه في منفعتك لما نفعك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعا عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها وإنما الذي أتم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطربا إلى الإيصال إليك فان عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله وكنت موحدا وقدرت على شكره بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرًا ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته: إلهي خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرتك فقال الله عز وجل اعلم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكرا فاذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه فان خالجت ريب في هذا لم تكن عارفا بالنعمة ولا بالنعمة فلا تفرح بالنعمة وحده بل وبغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح وبنقصان فرك ينقص عملك فهذا بيان هذا الأصل. الأصل الثاني: الحال المستمدة من أصل للمعرفة وهو الفرح بالنعمة مع هيئة الخضوع والتواضع وهو أيضا في نفسه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل كان قوم يقولون لو أنزل في كذا وكذا فكره الله ذلك وقالت عائشة رضي الله عنها أي لاتصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وقال الكبي لا تسبقوا رسول الله بقول ولا فصل حتى يكون هو الذي يأمركم به وهكذا أدب المرید مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره وقد استوفينا هذا المعنى في باب المشيخة وقيل لا تقدموا لاتمشوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى

(١) حديث من قال سبحان الله فله عشر حسنات الحديث تقدم في الدعوات (٢) حديث أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر (٣) حديث ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله لم أجدهم مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن إبراهيم النخعي يقال إن الحمد أكثر الكلام تضييفا .

شكر على تجرّده كما أن المعرفة لشكر ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطه، وشرطه أن يكون فرحك بالنعم لا بالنعمة ولا بالإتمام، ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فاضرب لك مثلا فقول: الملك الذي يريد الخروج إلى سفر فأتم بفرس على إنسان يتصور أن يفرح النعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه: أحدها أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس وإنه مال ينتفع به ومر كوب يوافق غرضه وإنه جواد نفيس وهذا فرح من لاحظ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجد في سمراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح. الوجه الثاني أن يفرح به لامن حيث إنه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس في سمراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلا لاستغنائاه عن الفرس أصلا أو استحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل الحل في قلب الملك. الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بمخدمته رتبة القرب منه وربما يرتقى إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون عمله في قلب الملك أن يعطيه فرسا ويعتق به هذا القدر من العناية بل هو طالب لأن ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضا بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن نظرها صاحبها تصور على الفرس فقرحه بالفرس لا بالمعطي، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها للذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر، والثانية داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالنعم ولكن لامن حيث ذاته بل من حيث معرفة عنيته التي تستحقه على الانعام في المستقبل، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه وإنما الشكر التام في الفرح الثالث، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدرها على التوصل إلى القرب منه تعالى والقرول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام فهذا هو الرتبة العليا. وأمارة أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعنيه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله لأنه ليس يريد النعمة لأنها للذيذة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد وممحلج بل من حيث إنه يحمله في حجة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه، ولذلك قال الشبلي رحمه الله: الشكر رؤية النعم لا رؤية النعمة. وقال الحواص رحمه الله: شكر العامة على الطعام والملبس والشرب، وشكر الخاصة على واردات القلوب وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب فان القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفة ولاقائه وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلى الأشياء المرة كما قيل:

ومن يك ذا فم صرّ مريض يحد مرّا به الماء الزلالا

فأذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى، فان لم تكن إبل فتمزي، فان لم يكن هذا فالدرجة الثانية. أما الأولى فخارجة عن كل حساب فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه. الأصل الثالث: العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة النعم وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح. أما بالقلب فقصد الخير وإضاره لكافة الخلق. وأما باللسان فأظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه. وأما بالجوارح: فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقى من

أبو الدرداء قال كنت
أمشى أمام أبي بكر
فقال لي رسول الله
صلى الله عليه وسلم
تمشى أمام من هو خير
منك في الدنيا والآخرة
وقيل نزلت في أقوام
كانوا يحضرون
مجلس رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فاذا سئل الرسول
عليه السلام
عن شيء خاضوا فيه
وتقدموا بالقول
والفتوى فهو عن
ذلك وهكذا أدب
للريد في مجلس الشيخ
ينبغي أن يلزم السكوت
ولا يقول شيئا يحضرته
من كلام حسن إلا
إذا استأمر الشيخ
ووجد من الشيخ
فسحة له في ذلك وشأن

الاستعانة بها على مصيته حتى إن شكر العيين أن تستر كل عيب تراه لمسلم وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان لاظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل «كيف أصبحت قال بخير فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال صلى الله عليه وسلم هذا الذي أردت منك (١)» وكان السلف يتساءلون ونيهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا وما كان تصدق الرياء باظهار الشوق وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين وكيف لا تصبح الشكوى من ملك للوك ويده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والتضاض وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو البلي والقادر على إزالة البلاء وذلك الصبر لمولاه عز والشكوى إلى غيره ذلك وإظهار القلّة للعبد مع كونه عبدا مثله ذلك قبيح قال الله تعالى - إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له - وقال تعالى - إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روي أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم فقال عمر الكبر الكبر فقال يأمر المؤمنين لو كان الأمر بالسنة لكان في المسلمين من هو أسنّ منك فقال تكلم فقال لنا وقد الرغبة ولا وقد الرغبة أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك وأما الرغبة فقد آمنتنا منها عدلك وإيماننا وفدا لشكر جثناك نشكرك باللسان ونصرف . فهذه هي أصول معاني الشكر الهيطة بمجموع حقيقته . فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة للنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرد عمل اللسان وقول القائل إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة جامع لأكثر معاني الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان وقول حمدون القصار شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طفيلا إشارة إلى أن معنى للمعرفة من معاني الشكر فقط وقول الجيد الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما همهم عمالهمهم أو يتكلمون بما يرونه لا تقا بحال السائل اقتصارا على ذكر القدر الذي يحتاج إليه وإعراضا عما لا يحتاج إليه فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها بل لا يظن ذلك بعاقل أصلا إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني أم يتناول بعضها مقصودا وبقيّة المعاني تكون من توابعه ولو أزمه ولنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء والله الموفق برحمته .

للريد في حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق إليه فتطلبه إلى الاستماع وما يبرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله وتطلبه إلى القول يردّه عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إثبات شيء لنفسه وذلك جنابة للريد . وينبغي أن يكون تطلبه إلى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان في حضرة الشيخ بل يادته بما يريد لأن الشيخ يكون مستنطقا نطقه بالحق

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت قال بخير فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال هذا الذي أردت منك الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه قال في الثالثة أحمد الله وهذا معضل ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال أحمد الله إليك وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ورواه مالك في الموطأ موقوفا على عمر بإسناد صحيح .

(بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى)

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يعقل في حق منم هو صاحب حظ في الشكر فإنا نشكر للوكة إما بالثناء ليزيد مجملهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم أو بالخدمة التي هي إغاثة لهم على بعض أغراضهم أو بالثول بين أيديهم في صورة الخدم وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم فلا يكونون شاكرين لهم إلا بسوء من ذلك وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين: أحدهما أن الله تعالى منزّه عن الحظوظ والأغراض مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإغاثة وعن نشر الجاه والخشمة بالثناء والإطراء وعن تكثير سواد الخدم بالثول بين يديه ركما سجدا فشكرنا إياه بما لاحظ له فيه بضاهاى شكرنا الملك اللهم علينا بأن نام في بيوتنا أو نسجد أو نركع إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لاعلم له ولا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها. الوجه الثاني أن كل ما تعطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة نعمة ولو أعطانا الملك مركوبا فأخذنا مركوبا آخر له وركبناه أو أعطانا الملك مركوبا آخر لم يكن الثاني شكر الأول منا بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدى إلى أن يكون الشكر محالا في حق الله تعالى من هذين الوجهين ولنا نشك في الأمرين جميعا والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع . فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر له أود عليه السلام وكذلك لموسى عليه السلام فقال يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك وفي لفظ آخر وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتني وفي خبر آخر إذا عرفت أن النعمة منى رضىت منك بذلك شكرا . فان قلت فقد فهمت السؤال وفهمى قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم فإني أعلم استحالة الشكر لله تعالى فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه فان هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا وكان الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر وأن قبول الخلة الثانية من الملك شكر للخلة الأولى والفهم قاصر عن درك السر فيه فان أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه . فاعلم أن هذا قرع باب من المعارف وهي أعلى من علوم الماملة ولكننا نشير منها إلى ملامح وشوق ههنا نظران نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعاً أنه الشاكر وأنه للشكور وأنه المحب وأنه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن كل شىء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أزلا وأبداً لأن الغير هو الذى يتصور أن يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير لا وجوده بل هو محال أن يوجد إذ الوجود المحقق هو القائم بنفسه وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره فان اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتة وإنما للوجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذى لو قدر عدم غيره بقى موجودا فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم إلا واحد ولا يتصور أن يكون غير ذلك فاذن ليس في الوجود غير الحى القيوم وهو الواحد الصمد فاذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب ومن ههنا نظر حبيب بن أبى حبيب حيث قرأ - إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب - فقال وأعجباه أعطى وأثنى إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى فهو المثنى وهو المثنى عليه ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهنى حيث قرئ بين يديه - يحبهم ويحبونه - فقال لعمرى يحبهم ودعه يحبهم

وهو عند حضور
الصادقين يرفع قلبه
إلى الله ويستنظر
ويستقى لهم فيكون
لسانه وقلبه في القول
والنطق مأخوذين إلى
مهم الوقت من أحوال
الطالبين المحتاجين إلى
ما يفتح به عليه لأن
الشيخ يعلم تطلع
الطالب إلى قوله
واعتماده بقوله
والقول كالبذر يقع في
الأرض فاذا كان
البذر فاسدا لا ينبت
وفساد الكلمة بدخول
الهوى فيها فالشيخ
ينقى بذر الكلام عن
شوب الهوى ويسلمه
إلى الله ويسأل الله
المعونة والسداد ثم يقول
فيكون كلامه بالحق

فبحق محبهم لأنه إنما يحب نفسه أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حد عقلك فلا يخفى عليك أن الصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه والصانع إذا أحب صنعه فقد أحب نفسه والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه وكل مافي الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنعه فان أحبه لما أحب إلا نفسه وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب وهذا كله نظر بين التوحيد وتعبير الصوفية عن هذه الحالة بغناء النفس أي فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول كيف فنى وطول ظله أريية أذرع ولله يأكل في كل يوم أرطالا من الحنظل فيضحك عليهم الجبال لجهاهم بمعنى كلامهم وضرورة قول المارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين وإليه الإشارة بقوله تعالى - إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا اتقلبوا إلى أهلهم اتقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين - ثم بين أن ضحك المارفين عليهم غدا أعظم إذ قال تعالى - فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون - وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال - إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون - فهذا أحد النظريين . النظر الثاني نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسما قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكر وأن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعمام في كلتا العينين لأنهم نقوا ماهو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقامم به ولم يقتصر واطى هذا حتى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا وفرق بين الوجود وبين الوجود وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجد فالموجود حق والوجود باطل من حيث هو هو الوجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان وإذا كان كل من عليها فان فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام . الفريق الثاني ليس بهم عمى ولكن بهم عور لأنهم يصرون بأحدى العينين وجود للوجود الحق فلا ينكرونه واليمين الأخرى إن تم عمها لم يصير بها فناء غير الوجود الحق فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقا كما أن الذي قبله جاحد تحقيقا فان جاوز حد العمى إلى العمى أدرك تفاوتات بين الوجودين فأثبت عبدا وربا فهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الوجود الآخر دخل في حد التوحيد ثم إن كل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه بقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبتته سوى الله تعالى فان بقى في سلوكه كذلك فلا يزال يفضى به النقصان إلى المحو فينمحي عن رؤية ماسوى الله فلا يرى إلا الله فيكون قد بلغ كمال التوحيد وحيث أدرك نقصا في وجود ماسوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد وبينهما درجات لا تحصى فهذا تفاوت درجات الموحدين وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هي السكل الذي به يحصل أنوار الأبصار والأنبياء هم الكعالمون وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض وترجمته قول لا إله إلا الله ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأفلون والجاحدون والمشركون أيضا قليلون وهم على الطرف الأخرى المقابل اطرف التوحيد إذ عبدة الأوثان قالوا - ما نجدم إلا ليقربونا إلى الله زلفى - فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولا ضيقا والتوسطون هم الأكثرون وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لا يدوم والسموم فيه عزيز :

من الحق للحق فالشيخ
للمريدين أمين الإلهام
كما أن جبريل أمين
الوحي فكما لا يخون
جبريل في الوحي
لا يخون الشيخ في
الإلهام وكان رسول
الله صلى الله عليه وسلم
لا ينطق عن الهوى
فالشيخ مقتد رسول
الله صلى الله عليه وسلم
ظاهرا وباطنا لا يتكلم
بهوى النفس . وهوى
النفس في التسول
بشيئين : أحدهما طلب
استجلاب القلوب
وصرف الوجوه إليه
وما هذا من شأن
الشيوخ . والثاني ظهور
النفس باستحلاء
الكلام والمعجب وذلك
خيانة عند المحققين

لكلّ إلى شأو الملا حر كات ولكن عزيز في الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب قيل له «واسجد واقرب - قال في سجوده «أعوذ بمفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» (١) قوله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بمفوك من عقابك» كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكأنه لم ير إلا الله وأنفاله فاستعاذ بفعله من فعله ثم اقرب ففى عن مشاهدة الأفعال وترقى إلى مصادر الأفعال وهى الصفات فقال «أعوذ برضاك من سخطك» وهما صفتان ثم رأى ذلك تصاناً في التوحيد فاقرب ورتقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال «وأعوذ بك منك» وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ولكنه رأى نفسه فاراً منه إليه ومستفيداً ومثنيا ففى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك تصاناً واقرب فقال «لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» قوله صلى الله عليه وسلم «لأحصى» خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها وقوله «أنت كما أثنيت على نفسك» بيان أنه للثنى والثنى عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود وأن - كل شئ هالك إلا وجهه - فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأصفاله فيستفيد بفعل من فعله فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرتقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعداً بالاضافة إلى الثانية فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك تصافى ساوكة وتقصيرا في مقامه وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» (٢) فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما بعضها فوق البعض أو لها وإن كان مجاوزا أقصى غايات الخلق ولكن كان تصاناً بالاضافة إلى آخرها فكان استغفاره لذلك، ولما قالت عائشة رضى الله عنها «أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فها هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد قال أفلا أكون عبدا شكورا» (٣) «مضاه أفلا أكون طالبا للزيد في القامات فان الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى - لئن شكرتم لأزيدنكم - وإذا تطلعتنا في محار للكاشفة فلنقبض العنان ، ولنرجع إلى ما يليق بعلوم العاملة ، فنقول : الأنبياء عليهم السلام بعثوا للدعوة للخلق إلى كمال التوحيد الذى وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك التمام بالاضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر وللشكور ولا يعرف ذلك إلا بمثال ، فأقول : يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك أرسل إلى عبد قد بهد منه مركوبا وملبوسا وهذا لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان : إحداها أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية في خدمته ، والثانية أن لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به إليه بل حضوره لا يزيد في ملكه

والشيخ فيها يجرى على لسانه راقد النفس تشفه مطالمة نعم الحق في ذلك فاقد الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستحلاء والعجب فيكون الشيخ لما يجرىه الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعا كأحد المستمعين وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله يتكلم مع الأصحاب بما يلقى إليه وكان يقول أنا في هذا الكلام مستمع كأحدكم فأشكل ذلك على بعض الحاضرين وقال إذا كان القائل هو يعلم ما يقول كيف يكون كستمع لا يعلم حتى يسمع منه فرجع إلى منزله فرأى ليلته

(١) حديث قال في سجوده أعوذ بمفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك الحديث مسلم من حديث عائشة أعوذ برضاك من سخطك وبمعاذتك من عقوبتك الحديث (٢) حديث إنه ليغان على قلبى الحديث تقدم في التوبة وقوله في الدعوات (٣) حديث عائشة لما قالت له غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فها هذا البكاء الحديث رواه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بقسعة أحاديث وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصرا وكذلك هو في الصحيحين مختصرا من حديث الفيرة بن شعبة .

لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تعنى فيه غناء وغيبته لانتقص من ملكه فيكون قصد من الإنعام عليه بالمركوب والزراد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا ينتفع الملك به وابتغاه فتنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لافي المنزلة الأولى فان الأولى محال على الله تعالى والثانية غير محال . ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكرا في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته مالم يتم بخدمته التي أرادها الملك منه . وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلا ومع ذلك يتصور أن يكون شاكرا وكافرا ويكون شكره بأن يستعمل ما أنعم الله عليه مولاة فيها أحبه لأجله لأجل نفسه وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطيه أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه فهم بالس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد إلا في الطريق فقد شكره مولاة إذا استعمل نعمته في محبته : أى استعملها فيما أحبه لعبدته لأنفسه وان ركب واستدبر حضرته وأخذ يمد منه فقد كفر نعمته : أى استعملها فيما كرهه مولاة لعبدته لأنفسه وان جلس ولم يركب لافي طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضا نعمته إذ أهملها وعطلها وان كان هذا دون ما لو بعد منه فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتكامل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته وإنما سعادتهم في القرب منه فأعد لهم من النعم ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال - لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا - الآية فاذن نعم الله تعالى آيات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب والله تعالى غنى عنه قرب أم بعد والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لمواقفة محبة مولاة وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لانتقامه ما يكرهه مولاة ولا يرضاه له فان الله لا يرضى لعباده الكفر والعصية وإن عطلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضا كفران للنعمة بالتضييع وكل ما خلق في الدنيا إما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله تعالى فالمعصية والطاعة تشملهما للشبهة ولكن لا تشملهما المحبة والكرهية بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه . ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذي يمنع من إفشائه وقد انحل بهذا الاشكال الأول وهو أنه إذا لم يكن للشكور حظ فكيف يكون الشكر ، وبهذا أيضا ينحل الثاني فانالم نن بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد وفعلك عطاء من الله تعالى ومن حيث أنت محله فقد أثنى عليك وثناؤه نعمة أخرى منه إليك فهو الذي أعطى وهو الذي أثنى وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبته فله الشكر على كل حال وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعالم وموجد له ولكن بمعنى أنك محل له وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك فوصفك بأنك شاكر إثبات شبيهة لك وأنت شئ إذ جعلك خالق الأشياء شيئا وإنما أنت لاشئ إذا كنت أنت ظانا لنفسك شيئا من ذاتك فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء شيئا فأنت شئ إذ جعلك شيئا فان قطع النظر عن جملة كنت لاشئ تحقيقا وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» (١) لما قيل له يا رسول الله فقيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل فتبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى ومحل أفعاله وإن كانوا هم أيضا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل لبعض وقوله اعملوا وإن كان جاريا على

في الثمام كأن قائلا يقول له أليس الغواص يحرص في البحر لطلب الدر ويجمع الصدف في محلاته والدر قد حصل معه ولكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر ويشاركه في رؤية الدر من هو على الساحل ففهم بالتمام إشارة الشيخ في ذلك فأحسن أدب للمريد مع الشيخ السكوت والجمود حتى يبادئه الشيخ بما له فيه من الصلاح قولاً وفعلًا وقيل أيضا في قوله تعالى - لا تقدموا بين يدي الله ورسوله - لا تطلبوا منزلة وراء منزلته ، وهذا من

(١) حديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له متفق عليه من حديث علي وعمران بن حصين .

لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فهو فعل من أفعاله وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة وإنبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعالى وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضا من أفعال الله تعالى ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أى الأول شرط للثانى كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض إذ لا يخلق العرض قبله وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض : أى هو شرط ومعنى كونه شرطا أنه لا يستعمل لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستعمل لقبول العلم إلا ذو حياة ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أن بعض أفعاله موجد لغيره بل م مهد شرط للحصول لغيره وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذى ذكرناه . فان قلت فلم قال الله تعالى أعملوا وإلا فأتهم معاقبون مذمومون على الصياني وما للإنشائي فكيف ندم وإنما الكل إلى الله تعالى . فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقادنا والاعتقاد سبب لهيجان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار الغرور ، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها فمن سبق له فى الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء فاذا لم يسمع لم يعلم وإذا لم يعلم لم يخف وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقى فى حزب الشيطان وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، فاذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب وهو تسليط العلم والخوف عليه وما من مخدول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه فالمتقون يساقون إلى الجنة قهرا والمجرمون يقادون إلى النار قهرا ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ولا قادر إلا الملك الجبار وإذا انكشف الغطاء عن أعين العاقلين فشهدوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء النادى - لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لذلك اليوم على الخصوص ولكن العاقلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم ، فهو نبأ عما يتجدد للعاقلين من كشف الأحوال حيث لا ينفهم الكشف ، فنعود بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أسباب الهلاك .

(بيان تميز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه)

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى فى محابه ومعنى الكفر تقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها فى مكارهه وتميز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدر كان : أحدهما السمع ومستنده الآيات والأخبار . والثانى بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار وهذا الأخير عسير وهو لأجل ذلك عزيز ، فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ومعرفة ذلك تنبى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد فمن لا يطاع على أحكام الشرع فى جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا . وأما الثانى وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه إذ ما خلق شيئا فى العالم إلا وفيه حكمة وتمت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية . أما الجلية فكالمعلم بأن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون النهار معاشا والليل لباسا فتيسر الحركة عند الإبصار والسكون عند الاستتار فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها

محاسن الآداب
وأعزها وينبغى للمريد
أن لا يحدث نفسه
بطلب منزلة فوق
منزلة الشيخ بل يجب
للشيخ كل منزلة عالية
ويتمنى للشيخ عز
النسج وغرائب المواهب
وبهذا يظهر جوهر
المريد فى حسن الإرادة
وهذا يعزى للمريد
فإرادته للشيخ تعطيه
فوق ما يتمنى لنفسه
ويكون قائما بلعب
الإرادة . قال السرى
رحم الله حسن الأدب
ترجمان العقل . وقال
أبو عبد الله بن حنيف
قال لى رويم يابى
اجمل عملك ملحا
وأدبك دقيقا ، وقيل
التصوف كله أدب

بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعما للخلق ومرعى للأنعام وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجليلة التي عملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى - أنا صبينا الماء صبائهم شققنا الأرض شقا فأنتنا فيها حيا وعنا - الآية. وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت خفية لا يطلع عليها كافة الخلق والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها وأشار إليه قوله تعالى - إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب - فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لإتخاذه ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمها كالعلم بأن العين للإبصار واللبطش لليد واللبطش للمشى والرجل للمشى فالأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما فيها من التجاوب والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والفظوسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدرا يسيرا بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى وما أوتيتهم من العلم الإقليد فلاذن كل من استعمل شيئا في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه بنعمة الله تعالى فمن ضرب غيره يده فقد كفر بنعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا يهلك بها غيره ومن نظر إلى وجه غير المهرم فقد كفر بنعمة العين ونعمة الشمس إذا الإبصار يتم بهما وإنما خلقتا ليصير بهما ما ينفعه في دينه وديناه ويتقى بهما ما يضره فيهما فقد استعملهما في غير ما أريدتا به وهذا لأن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى ولا وصول إليه إلا بعجته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا ولا أنس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهرا وباطنا فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية النفس والراجع إلى الله تعالى هي النفس للطمشة بطول العبادة والعرفة فلذلك قال تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق - الآية فكل من استعمل شيئا في غير طاعة الله فقد كفر بنعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه على تلك العصية . ولنذكر مثلا واحدا للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدرهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لامنفعة في أعيانها ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته وقد يجز عمامة محتاج إليه ويملك ما يستغنى عنه كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج إلى جمل يركبه ومن يملك الجمل ربما يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد في مقدار العوض من تقدير إذ لا يذلل صاحب الجمل جملة بكل مقدار من الزعفران ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة وكذا من يشتري دارا بقباب أو عبدا بخف أو دقيقا بحمار فهذه الأشياء لا تناسب فيها فلا يدرى أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتعذر للعاملات جدا فانقرت هذه الأعيان المتنافرة للتباعدة إلى متوسط بينها يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته وميزته حتى إذا تقررت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي فخلق الله تعالى الدنانير والدرهم حاكيتين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما فيقال هذا الجمل يسوى

لكل وقت وأدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن يلزم الأدب يبلغ مبلغ الرجال ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - لا ترضوا أصواتكم فوق صوت النبي - كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه وقر وكان جمهوري الصوت فكان إذا كلم إنسانا جهر بصوته وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته فأزل الله تعالى الآية تأديبا له ولنبيه .

مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان وإنما أمكن التمديل بالتمدين إذ لا غرض في أعيانها ولو كان في أعيانها غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الأمر فاذن خلقهما الله تعالى لتداولهما الأبدى ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل والحكمة أخرى وهى التوسل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانها ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوبا فإنه لم يملك إلا الثوب فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلا فاحتيج إلى شيء هو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء والشئ إنما تستوى نسبته إلى المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها كالمرآة لالون لها وتحكى كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض وكالحرف لا معنى له في نفسه وأظهر به المعانى في غيره فهذه هى الحكمة الثانية وفيهما أيضا حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما فاذن من كثرهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يتمتع عليه الحكيم بسببه لأنه إذا كثر فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة إذ لا غرض للأحد في أعيانها فأنهما حجران وإنما خلقا لتداولهما الأبدى فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتونة على صفحات الوجودات بخط إلهى لا حرف فيه ولا صوت الذى لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجزوا عن إدراكه فقال تعالى - والذين يكفرون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم - وكل من أخذ من الدراهم والدنانير آتية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالا ممن كثر لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد فى الحياكة والسكس والأعمال التى يقوم بها أخصاء الناس والحبس أهون منه وذلك أن الحزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة فى حفظ المائعات عن أن تتبدد وإنما الأوانى لحفظ المائعات ولا يكفى الحزف والحديد فى المقصود الذى أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له من شرب فى آتية من ذهب أو فضة فكأنما يجر جر فى بطنه نار جهنم^(١) وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لالفسهما إذ لا غرض فى عينهما فإذا أجر فى عينهما فقد أخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاما ودابة إذ ربما لا يبيع الطعام والدابة بالثوب فهو معذور فى بيده بقدر آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده فأنهما وسيلتان إلى الغير لا غرض فى أعيانها وموقعهما فى الأموال كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويون إن الحرف هو الذى جاء لمعنى فى غيره وموقع المرآة من الألوان فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيدا عنده وينزل منزلة السكروز وتقييد الحاكم والبريد الموصول إلى الغير ظلم

(١) حديث من شرب فى آتية من ذهب أو فضة فكأنما يجر جر فى بطنه نار جهنم متفق عليه من حديث أم سلمة ولم يصرح المصنف بكونه حديثا .

أخبرنا ضياء الدين
عبد الوهاب بن طى
قال أنا أبو الفتح
المروى قال أنا أبو نصر
الترياقي قال أنا أبو محمد
الجراسى قال أنا
أبو العباس الجبوري
قال أنا أبو عيسى
الترمذى قال ثنا محمد
ابن الشئبى قال ثنا مؤمل
ابن إسماعيل قال ثنا نافع
ابن عمر بن جميل الجهمى
قال حدثني حابس بن
أبي مليكة قال حدثني
عبد الله بن الزبير أن
الأقرع بن حابس قدم
على النبي صلى الله عليه
وسلم فقال أبو بكر
استعمله على قومه فقال
عمر لا تستعمله يا رسول
الله فسكنا عند النبي
صلى الله عليه وسلم

كما أن حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للادخار وهو ظلم . فان قلت : فلم جاز يبيع أحد التقدين بالآخر ولم جاز يبيع الدرهم بمثله . فاعلم أن أحد التقدين يخالف الآخر في مقصود التوصل ، إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدرهم تنفرق في الحاجات قليلا قليلا في النع منه ما يشوش المقصود الخاص به ، وهو تيسر التوصل به إلى غيره . وأما يبيع الدرهم بدرم بمائته فجائز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فانه عبث يجرى يجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ونحن لانحاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه فلا تمنع مما لا تشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر وذلك أيضا لا يتصور جريانه ، إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء فلا ينتظم العقد وإن طلب زيادة في الرديء ، فذلك مما قد يقصده فلا جرم تمنعه منه ونحكم بأن جيدها ورديتها سواء لأن الجودة والرداءة ينبئ أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه ، وما لا غرض في عينه فلا ينبئ أن ينظر إلى مضافات دقيقة في صفاته وإنما الذي ظلم هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة في أعيانها وحقها أن لا تقصد . وأما إذا باع درهما بدرم مثله نسيته فاعلم إن مجرد ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد الإحسان في القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقي صورة للسامحة فيكون له حمد وأجر . والعارض لا حمد فيها ولا أجر فهو أيضا ظلم لأنه إضاعة خصوص السامحة وإخراجها في معرض المعاوضة وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبئ أن تصرف على جهتها فان فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها في الأيدي ويؤخر عنها الأكل الذي أريدت له لما خلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبئ أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغنى عنها . إذ من معه طعام فلم يلبأ كله إن كان محتاجا ولم يحمله بضاعة تجارة وإن جعله بضاعة تجارة فليسه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا إليه . فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغنى عنه ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب ، نعم بائع البر بالتمر معذور إذ أحدهما لا يسد مسد الآخر في القرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عابث فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لا تسمح به إلا عند التفاوت في الجودة ومقابلة الجيد بمثله من الرديء لا يرضى بها صاحب الجيد . وأما جيد برديتين فقد يقصد ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوي الرديء في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه التمتع أسقط الشرع غرض التمتع فيما هو القوام فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا وقد انكشف لنا هذا بعد الاعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيات فانه أقوى من جميع ما أوردناه في الخلافات وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصيص بالأطعمة دون السكيات إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصه بالأوقات ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد أن يضبط بحد وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعم أخرى لكل ما هو ضرورة البقاء وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يهد لتحرير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص فمعنى المعنى يكال قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحد ضروريا فلذلك قال الله تعالى - ومن تعد حدود الله فقد ظلم نفسه -

حتى علت أصواتها
فقال أبو بكر لعمر
ما أردت إلا خلافي وقال
عمر ما أردت خلافاك
فأنزل الله تعالى الآية
فكان عمر بعد ذلك
إذا تكلم عند النبي
صلى الله عليه وسلم
لا يسمع كلامه حتى
يستفهم . وقيل لما نزلت
الآية آلى أبو بكر أن
لا يتكلم عند النبي
صلى الله عليه وسلم إلا
كأن السرار فهذا
ينبغي أن يكون المريد
مع الشيخ لا ينسبط
رفع الصوت وكثرة
الضحك وهكثرة
الكلام إلا إذا بسطه
الشيخ فرفع الصوت
تحية جلاب الوقار
والوقار إذا سكن

ولأن أصول هذه العاني لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف في وجوه التحديد كما عهد شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر وقد حده شرعنا بكونه من جنس السكر لأن قليله يدعو إلى كثيره والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم التقدين فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فينبغي أن يصرف عنها ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة سو من يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا - ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملعب الشياطين بل لا يتذكر إلا أولو الألباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء» (١) وإذا عرفت هذا المثال قس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكونك وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصور أن ينفك عنها وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالحظر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر . فأقول مثلا لو استنجيت باليمنى قد كفرت نعمة اليدين إذ خلق الله لك اليدين وجعل إحداها أقوى من الأخرى فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل وتفضيل الناقص عدول عن العدل والله لا يأمر إلا بالعدل ثم أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال بعضها شريف كأخذ للمصحف وبعضها خسيس كإزالة النجاسة فإذا أخذت للمصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمن قد خصصت الشريف بما هو خسيس فضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل وكذلك إذا بصقت مثلا في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة قد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنه خلق الجهات لتكون متمسكة في حركتك وقسم الجهات إلى مالم يصرفها وإلى ما صرفها بأن وضع فيها بيتا أضافه إلى نفسه استمالة لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عادت ربك وكذلك اتسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات وإلى ما هي خسيصة كقضاء الحاجة ورمى البصاق فإذا رميت بصاقتك إلى جهة القبلة قد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كحل عبادتك وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى قد ظلمت لأن الخف وقاية للرجل فالرجل فيه حظ والبداءة في الحظوظ فينبغي أن تكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة وتقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل وهذا عند العارفين كبيرة وإن ساء الفقيه مكروها حتى إن بعضهم كان قد جمع أكرارا من الخنطة وكان يتصدق بها فستل عن سببه فقال لبست اللداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجاتهم من درجة الأنعام وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها فقييح أن يقال الذي شرب الخمر وأخذ القدح ييساره قد تعدى من وجهين : أحدهما الشرب والآخر الأخذ باليسار ومن باع خمرًا في وقت النداء يوم الجمعة فقييح أن يقال خان من وجهين : أحدهما بيع الخمر والآخر البيع في وقت النداء ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدير القبلة فقييح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجعل القبلة بمن يمينه فالعاصي كلها ظلمات بعضها فوق بعض فينمحق بعضها في جنب البعض فالسيد قد يصاب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه ولكن لو قتل بتلك السكين أعزأ ولاده لم يبق

(١) حديث لولا أن الشياطين يحومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء تقدم في الصوم .

القلب عقل اللسان ما يقول وقد ينازل باطن بعض الريدين من الحرمة والوقار من الشيخ ما لا يستطيع للريد أن يشبع النظر إلى الشيخ وقد كنت أحم فيدخل على عمي وشيخي أبو النجيب السهروردي رحمه الله فيترشح جسدي عرقا وكنت أتمنى العرق لتخف الحمى فكنت أجد ذلك عند دخول الشيخ على ويكون في قدمه بركة وشفاء وكنت ذات يوم في البيت خاليا وهناك مندبل وهبه لي الشيخ وكان يتعمم به فوق قدمي على الندبل اتفاقا تألم

لاستعمال السكين بغير إذن حكم ونكابة في نفسه فكل ماراعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة وإلا فكل هذه السكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة وتقصان عن الدرجة البلغة للعبد إلى درجات القرب ، نعم بعضها يؤثر في العبد بتقصان القرب وأعطاط التزلة وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهيمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد . أما اليد فأنما الخلق للعبث بل للطاعة والأعمال العينة على الطاعة . وأما الشجر فأنما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاعتناء والثناء ليبلغ منتهى نشوه فيتضع به عباده فكسره قبل منتهى نشوه لاطى وجهه ينتفع به عباده مخالفة لقصود الحكمة وعدول عن العدل فإن كان له غرض صحيح فله ذلك إذا الشجر والحيوان جلا فداء لأغراض الانسان فانها جميعا فانين هالكان فافناء الأخص في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تخصيصها جميعا وإليه الإشارة بقوله تعالى - وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعا منه - نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا لأن كل شجرة بينها لاتفى بمحاجات عباد الله كلهم بل تفي بمحاجة واحدة ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما فصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضع في الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجح جانبه بذلك ، فان ثبت ذلك في موات الأرض لابسى آدمى اختص بغيره أو بغيره فلا بد من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه فللسابق خاصة السبق . فالعدل هو أن يكون أولى به ، وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض ، إذ لا ملك إلا الملك للملوك الذي له مافي السموات والأرض ، وكيف يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم كالملك ينصب مائدة لعيده ، فمن أخذ لقمة يمينه واحتوت عليها راحه فجاء عبد آخر وأراد ارتزاعها من يده لم يمكن منه لأن اللقمة صارت ملكا له بالأخذ باليد فان اليد وصاحب اليد أيضا مملوك ولكن إذا كانت كل لقمة بينها لاتفى بمحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاص ينفرده العبد فنع من لا يدلى بذلك الاختصاص عن مزاحمته ، فهكذا ينبغي أن تفهم أمر الله في عباده ولقائل يقول من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكثره وأسكته وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم وهو من الذين يكترزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم ، نعم لا يدخل هذا في حدتنا وفي الفقه لأن مقادير الحاجات خفية والنفس في استعمار الفقر في الاستقبال محتافة وأواخر الأعمار غير معلومة فكيف العوام ذلك يجرى مجرى تكليف الصبيان الوقار والنؤدة والسكوت عن كل كلام غير مهم ، وهو بحكم تقصاتهم لا يطبقونه فتركتنا الاعتراض عليهم في الحب واللهو وإباحتنا ذلك أيام لا يدل على أن اللهو والعبث حق فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصار في الاتفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جلبوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق . وقد أشار القرآن إليه إذ قال تعالى - إن يسألكموها فيحفضكم تبخلوا - بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراب فكمل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان . فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ماسوى زاد الراب وبال عليه

باطن من ذلك وهاتى الوطء بالتقدم على مندبل الشيخ وانبت من باطن من الاحترام ما أرجو بركته . قال ابن عطاء في قوله تعالى - لارفضوا أصواتكم - زجر عن الأذى لثلا يتخطى أحد إلى ما فوقه من ترك الحرمة وقال سهل في ذلك لا تخاطبوه إلا المستفهمين . وقال أبو بكر بن طاهر لا تبدهوه بالحطاب ولا نجسوه إلا على حدود الحرمة ولا تجهروا له بالقول كجهر بضعكم لبعض أى لا تخطبوا له في الحطاب ولا تنادوه باسمه يا محمد يا أحمد كما ينادى بضعكم بضا ولكن غصوه

في الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك بمحتاج إلى مجلدات ثم لانفي إلا بالقليل وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى - وقليل من عبادي الشكور - وفرح إبليس لعنه الله بقوله - ولا تجدوا كثيرهم شاكرين - فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأمورا أخرى وذلك تنقضى الأعمار دون استقصاء مبادئها ، فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير . فان قلت فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن الله تعالى حكمة في كل شيء وأنه جعل بعض أفعال العباد سببا لتقام تلك الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعا من تمام الحكمة فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساق الحكمة إلى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران وهذا كله مفهوم ولكن الأشكال باقية وهو أن فعل العبد النقص إلى ما يتم الحكمة وإلى ما يرضها هو أيضا من فعل الله تعالى فأين العبد في البين حتى يكون شاكرًا مرة وكافرًا أخرى . فاعلم أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمبادئها ونحن الآن نعبّر بجيزة عن آخرها وغازياتها فهمها من عرف منطق الطير ويحدها من عجز عن الإيضاح في السير فضلا عن أن يجول في جوال المسكوت جولان الطير فنقول : إن لله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الحلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضع اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادئ إشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الحفافيث عن نور الشمس لانهوض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الحفافيث فاضطر الذين فتحت أبصارهم للملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم للتناطيق باللغات عبارة تفهم من مبادئ حقائقها شيئا ضعيفا جدا فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق قفلنا لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الحلق والاختراع ثم الحلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات ومصدر اتقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها يمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة فهي توم منها أمرا جملا عند التناطيق باللغات التي هي حروف وأصوات التظاهرين بها وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكمتها وإلى ما يقف دون الغاية وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلافات فاستعير لنسبة البالغ غايتها عبارة المحبة واستعير لنسبة الواقف دون غايتها عبارة الكراهة وقيل إنها جميعا داخلان في وصف المشيئة ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة يوم لفظ المحبة والكراهة منهما أمرا جملا عند طالي الفهم من الألفاظ واللغات ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمتها دون غايتها ويكون ذلك قهرا في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمتها إلى غايتها في بعض الأمور فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال وظهر على من ارضاه في الأزل فعل انساق بسببه الحكمة إلى غايتها فاستعير له عبارة الشكر وأردف

واحترمواه وقولوا له :
يا نبي الله يا رسول الله
ومن هذا القبيل
يكون خطاب المريد
مع الشيخ وإذا سكن
الوقار القاب علم اللسان
كيفية الخطاب . ولما
كلفت النفوس بحجة
الأولاد والأزواج
وتمكنت أهوية
النفوس والطباع
استخرجت من اللسان
عبارات غريبة وهي
تحت وقتها صاغها
كلف النفس وهواها
فاذا امتلأ القلب حرمة
وقارا تعلم اللسان
العبارة . وروى لما
نزلت هذه الآية فقد
ثابت بن قيس في
الطريق يبكي فمر به
عاصم بن عدى فقال

بخلعة الشاء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى وأعطى النكال ثم قبح وأردى وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه فإذا تم زينته قال يا جميل ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك فيكون بالحقيقة هو الجميل وهو الثنى على الجمال فهو للثنى عليه بكل حال وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه وإنما العبد هدف الشاء من حيث الظاهر والصورة فهكذا كانت الأمور في الأزل وهكذا تتسلسل الأسباب واللسيات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب ولم يكن ذلك على اتفاق وبمحث بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء وقيل إنه كلعج بالبر أو هو أقرب ففاضت بحار التقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلي ولفظ القدر بإزاء التفصيل للتأدي إلى غير نهاية وقيل إن شيئا من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل وكان بعضهم لتصوره لا يطبق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه فألجوا عما لم يطبقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم لا يسئل عما يفعل وهم يسألون وامتلأت مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله تعالى في السموات والأرض وكان زيتهم أولا صافيا يكاد يضيء ولو لم تفسد نار فستل نورا على نور فأشرفت أقطار للكسوت بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه فقيل لهم تأدبوا بأداب الله تعالى واسكتوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا (١) فإن للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء الأبرار فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وأنزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأمنس بكم الضعفاء ويقسبوا من بقايا أنواركم للشرقة من وراء حجابكم كما يقبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل فيجابه حياة عتمتها شخصه وحاله وإن كان لا يحيا به حياة التردد في كمال نور الشمس وكونوا كمن قيل فيهم :

شربنا شرابا طيبا عند طيب هكذا شراب الطيبين يطيب
شربنا وأهرقنا على الأرض فضلة وللأرض من كأس الكرام نصيب

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره ولا يفهمه إلا إذا كنت أهلا له وإذا كنت أهلا له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حد ما فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى وإذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلا ولم يكن العبور إلا بالسباحة فقد يقدر الساهر بصنعة السباحة أن يجبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجر وراءه آخر فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ما هو مجال جواهر الخلق كنسبة المشى على الماء إلى المشى على الأرض والسباحة يمكن أن تتعلم فأما المشى على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين ، ولذلك قيل للثنى صلى الله عليه وسلم « إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على الماء فقال صلى الله عليه وسلم لو ازداد يقينا للثنى على الهواء (٢) » فهذه

ما يبكيك يا ثابت قال
هذه الآية أخوف أن
تكون نزلت في - أن
تجبط أعمالكم وأنتم
لا تشعرون - وأنا
رفيع الصوت على النبي
صلى الله عليه وسلم
أخاف أن يجبط عملي
وأكون من أهل النار
فضى عاصم إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم
وغلب ثابتا البكاء
فأتى امرأته جميلة بنت
عبد الله بن أبي بن سؤل
فقال لها إذا دخلت
بيت فرسى فسد على
الضبة بمسار فضربته
بمسار حتى إذا خرجت
عطفته وقال لا أخرج
حتى يتوفاني الله أو
يرضى عني رسول الله
صلى الله عليه وسلم فلما

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا الطبراني من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم ولم يصرح بالصنف بكونه حديثا (٢) حديث قيل له يقال إن عيسى مشى على الماء قال لو ازداد يقينا للثنى على الهواء وهذا حديث منكر لا يعرف هكذا والمعروف ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال قد الحواريون نبيهم فقيل له توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه . فلما اتهموا إلى البحر

رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والفضب والشكر والكفران لا يلقى بعلم العاملة أكثر منها وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى أفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والانس إلا ليعبده فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم ثم أخبر أن له عبيدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين وينقض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين للنظر إلى يوم الدين ، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى - قبل نزله روح القدس من ربك بالحق - وقال تعالى - يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده - وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى - ليضل عن سبيله - والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة فانظر كيف نسبة إلى العبد الذي غضب عليه والارشاد سباقه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبة إلى العبد الذي أحبه وعندك في العادة له مثال فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحججه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبادان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أبقحهما وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب الطيب إلا إلى أحسنهما وأكفهما وأحبهما إليه ولا ينفى أن تقول هذا فعلى ولم يكن فعله دون فعلى؟ فانك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك بل هو الذى صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتاما للعدل فان عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها وتارة يتم فيك فانك أيضا من أفعاله فداعيتك وقدرتك وعملك وعملك وسائر أسباب حرركاتك في التعبير هو فعله الذى رتبته بالعدل ترتيبا تصدر منه الأفعال للعدالة إلا أنك لا ترى إلا نفسك فنظن أن ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فلكذلك تضيفه إلى نفسك وإنما أنت مثل الصبي الذى ينظر ليلا إلى لعب المشعبذ الذى يخرج صورا من وراء حجاب ترقص وترعق وتقوم وتقعدهوى مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ورءوسها في يد المشعبذ وهو محتجب عن أبصار الصبيان فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الحرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعده ، وأما العقلاء فانهم يطمون أن ذلك تحريك وليس بتحريك ولكنهم ربما لا يسلون كيف تفصيله والذى يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبذ الذى الأمر إليه والجادبة بيده فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها تتحرك فيجولون عليها ، والعلماء يعلمون أنهم محركون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون إلا الأعارفون والعلماء الراسخون فانهم أدر كوا بمحنة أبحارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبهة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤوس تلك الخيوط في مناطات لهاهى معلقة بها وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هى فى أيدي الملائكة المحركين للسماوات وشاهدوا أيضا ملائكة السماوات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كى لا يصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وعبر عن هذه المشاهدات فى القرآن وقيل - وفى السماء رزقكم وما توعدون - وعبر عن انتظار ملائكة السماوات لما ينزل إليهم من القدر والأمر قليل - خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما - وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون فى العلم وعبر ابن عباس رضى الله عنهما عن اختصاص

إذا هو قد أقبل يمشى على الماء فدكر حديثا فيه أن عيسى قال : لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعاتكم الجبال

آنى عاصم النبى وأخبره
بخبيره قال اذهب
فادعه فقاء عاصم إلى
اللكان الذى فيه رآه
فلم يجده فقاء إلى أهله
فوجدته فى بيت الفرس
فقال له إن رسول الله
يدعوك فقال اكر
الضبة فأتيا رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم : ما ميكيك
يا ثابت فقال أنا صيت
وأخاف أن تكون هذه
الآية نزلت فى فقال له
رسول الله صلى الله عليه
وسلم أما ترضى أن
تعيش سعيدا وتقتل
شهيدا وتدخل الجنة
فقال قد رضيت بشرى
الله تعالى ورسوله ولا
أرفع صوتى أبدا على

الراسخين في العلم بعلوم لا تختمها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى - ينزل الأمرينهن - فقال لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجتموني وفي لفظ آخر قلتم إنه كافر. ولتقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم العاملة ما ليس منه فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول: إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستمعاً في إتمام حكمة الله تعالى فأشكر المباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم إلى الله اللائكة ولهم أيضاً ترتيب بومانهم إلوله مقام معلوم وأعلام في رتبة القرب ملك اسمه إسرافيل عليه السلام وإنما علو درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام برة وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض ويلى درجتهم درجة الأنبياء فانهم في أنفسهم أختيار وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتمم بهم حكته وأعلام رتبة نبينا ﷺ وعليهم إذ أكل الله به الدين وختم به النبيين ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فانهم في أنفسهم صالحون وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الأنبياء فانه أكل الله به صلاح دينهم ودينام ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصاحوا دينهم ونفوسهم فقط فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم ومن عدا هؤلاء فهمج رعا . واعلم أن السلطان به قوام الدين فلا ينبغي أن يستحق وإن كان ظالماً فاسقاً . قال عمرو بن العاص رحمه الله : إمام غشوم خير من فتنه تدموم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا يكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتسكرون ويفسدون وما يصلح الله بهم أكثر فان أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر وإن أساءوا فطهروهم الزور وعليكم الصبر (١) . وقال سهل من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق ومن دعاه السلطان فلم يجبه فهو مبتدع ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل . وسئل أى الناس خير فقال السلطان قيل كنا نرى أن شر الناس السلطان فقال مهلا إن لله تعالى كل يوم نظرتين نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ونظرة إلى سلامة أبدانهم فيقطع في صحيفته فيغفر له جميع ذنبه وكان يقول الخشب السود اللطيفة على أبوابهم خير من سبعين قاصية تصون .

(الركن الثانى من أركان الشكر ماعليه الشكر)

وهو النعمة فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها وجمامها فيما يخص وبم فان إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - فتقدم أموراً كلية تجرى مجرى القوانين في معرفة النعم ثم نشغل بذكر الأحاد والله الموفق للصواب .

(بيان حقيقة النعمة وأقسامها)

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فانه يسمى نعمة ولكن النعمة الحقيقية هي

(١) حديث سيكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله بهم أكثر الحديث مسلم من حديث أم سلمة يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتسكرون ورواه الترمذى بلفظ سيكون عليكم أئمة وقال حسن صحيح وللبزار بسند ضيف من حديث ابن عمر السلطان ظل الله في الأرض بأوى إليه كل مظلوم من عباده فان عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر وإن جار أو خاف أو ظم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر وأما قوله وما يصلح الله بهم أكثر فلم أجده بهذا اللفظ إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فرغ إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبس الله اصبروا فان جور إمامكم خمسين سنة خير من هرج شهر فأتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فذكر حديثاً والإمارة الفاجرة خير من الهرج رواه الطبرانى في الكبير بإسناد لا بأس به .

رسول الله فأنزل الله تعالى - إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله - قال أنس كنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة عشى بين أيدينا فلما كان يوم الجمعة في حرب مسلم تراى ثابت من السلمين بعض الانكسار واتهمت طائفة منهم فقال أفت لهؤلاء وما يصنعون ثم قال ثابت لسالم بن حذيفة ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ثم ثبتا ولم يزالا يقاتلان حتى قتل واستشهد ثابت كما وعده رسول الله

السعادة الأخروية وتسمية ماسواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة فإن ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقا ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بواسطة واحدة أو بواسطة فان تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضى إلى النعمة الحقيقية والأسباب المينة واللذات المسماة نعمة نثرها بتقسيمات [القسم الأولى] أن الأمور كلها بالإضافة إليها تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق وإلى ما هو ضار فيها جميعا كالجهل وسوء الخلق وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المال كاللذات بتابع الشهوات وإلى ما يضر في الحال ويؤثم ولكن ينفع في المال كقمع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع في الحال والمال هو النعمة تحقيا كالعلم وحسن الخلق والضرر فيها هو البلاء تحقيا وهو ضدهما والنافع في الحال للضرر في المال بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلا فيه سم فانه يئده نعمة إن كان جاهلا وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه والضرر في الحال النافع في المال نعمة عند ذوى الأبصار بلاء عند الجهال ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يئده نعمة ويتفقد المنة بمن يهديه إليه ويقربه منه ويهيء له أسبابه فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامه والأب يدعو إليها فان الأب لكامل عقله يلمح العاقبة والأم لفرط حبا وقصورها تلاحظ الحال والصبي لجهله يتفقد منة من أمه دون أيه ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدّر الأب عدوا له ولو عقل لعلم أن الأم عدو باطن في صورة صديق لأن منعها إياه من الحجامه يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجامه ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل وكل إنسان فانه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل فلذلك تعمل به ما لا يعمل به العدو [قسم ثانيا] اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرا بخرها قتلما يصفو خيرا كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب ولكن تنقسم إلى مانعة أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب وإلى ماضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع وإلى ما يكفي ضرره نفعه وهذه أمور تختلف بالأشخاص فرب إنسان صالح يتنفع بالمال الصالح وإن أكثر فينفعه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات فهو مع هذا التوفيق نعمة في حق موروب إنسان يستضر بالقليل أيضا إذ لا يزال مستضرا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حق [قسم ثالثة] اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره وإلى مؤثر لغيره وإلى مؤثر لذاته ولغيره . فالأول ما يؤثر لذاته لا لغيره كذمة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه ، وبالجملة سعادة الأخرى التي لا تفضاء لها فانها لا تطلب لتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها بل تطلب لذاتها . الثاني ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا في ذاته كالأدراهم والدنانير فان الحاجة لو كانت لا تنقضى بها لكانت هي والحسب بمثابة واحدة ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبه في نفسها حتى يجمعوها ويكثرونها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة ومثال هؤلاء مثال من يجب شخصا فيجب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ثم ينسى في محبة الرسول محبة الأصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتمهد الرسول ومراعاته وتفقدته وهو غاية الجهل والضللال . الثالث ما يقصد لذاته ولغيره كالصحة والسلامة فانها تقصد ليقدربسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى أو لتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا وتقصدها أيضا لذاتها فان الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي أراد سلامة الرجل لأجله فيريد أيضا سلامة الرجل

صلى الله عليه وسلم
وعليه درع فرآه
رجل من الصحابة بعد
موته في المنام فقال له
اعلم أن فلانا رجلا من
المسلمين نزع درعي
فذهب بها وهو في
ناحية من السكر
وعنده فرس يستن
في طيله وقد وضع على
درعي برمة فانت خالده
ابن الوليد فأخبره
حق استرد درعي واثت
أبا بكر خليفة رسول
الله عليه السلام فقل
له إن على ديننا حق
يقضى على وفلان من
عبيدي عتيق فأخبر
الرجل خالدًا فوجد
الدرع والفرس على
ما وصفه فاسترد الدرع
وأخبر خالدًا أبا بكر

من حيث إنها سلامة فإذا نزلت لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقاً وما يؤثر لذاته وتغيراً يضافوه
 نعمة ولكن دون الأول فأما مالا يؤثر إلا لغيره كالنقدين فلا يوصفان في أنفسهما من حيث إنهما
 جوهران بأنهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمراً ليس يمكنه
 أن يتوصل إليه إلا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته استوى عنده
 الذهب والدر فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة بل ربما شغله وجودهما عن الفكر
 والعبادة فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة [قصة رابعة] اعلم أن الحيرات باعتبار آخر تنقسم
 إلى نافع ولذيذ وجميل فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال والنافع هو الذي يفيد في المال والجليل
 هو الذي يستحسن في سائر الأحوال . والشروع أيضاً تنقسم إلى ضار وقيح ومؤلم وكل واحد من
 القسمين ضربان مطلق ومقيد . فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما في الخير فكالعلم
 والحكمة فانها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة وأما في الشر فكالجهل فانه ضار وقيح
 ومؤلم وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل وذلك بأن يرى غيره عالماً ويرى نفسه
 جاهلاً فيدرك ألم النقص فتنبت منه شهوة العلم اللذيذة ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات
 البدنية عن التعلم فيتجاوزه متضادان فيعظم ألمه فانه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرى نقصان
 وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال في
 عذاب دائم لا عمالة . والضرب الثاني للقيح وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض فرب
 نافع مؤلم كقطع الأصبع للتأكل والسلمة الخارجة من البدن ورب نافع قبيح كالحق فانه بالإضافة
 إلى بعض الأحوال نافع فقد قيل استراح من لا عقل له فانه لا يهتم بالعاقبة فيسترخ في الحال إلى أن
 يحين وقت هلاكه ورب نافع من وجه ضار من وجه كإلقاء المال في البحر عند خوف الفرق
 فانه ضار للمال نافع للنفس في نجاتها والنافع قهراً ضروري للإيمان وحسن الخلق في الإيصال
 إلى سعادة الآخرة وأعنى بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرها وإلى مالا يكون ضرورياً
 كالسكنجبين مثلاً في تسكين الصفره فانه قد يمكن تسكينها أيضاً بما يقوم مقامه [قصة خامسة]
 اعلم أن النعمة يعبر بها عن كمال لذية واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها
 أو مشاركتها لغيره ثلاثة أنواع عقلية وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات وبدنية مشتركة مع جميع
 الحيوانات أما العقلية فكلذية العلم والحكمة إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن
 ولا الفرج وإنما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل وهذه أقل اللذات وجوداً وهي
 أشرفها أما قلتها فلأن العلم لا يستلذ إلا غالم والحكمة لا يستلذها إلا حكيم وما أقل أهل العلم والحكمة
 وما أكثر التسمين باسمهم والترصين برسومهم وأما شرفها فلأنها لازمة لا تزول أبداً لا في الدنيا ولا
 في الآخرة ودائمة لا تمحل فالتطام يشبع منه فيمل وشهوة الواقع يفرغ منها فتستقل والعلم والحكمة
 قط لا يتصور أن تمحل وتستقل ومن قدر على الشريف الباقي أبداً إذا رضي بالحسيس الفاني
 في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه أن العلم والعقل لا يحتاج
 إلى أعوان وحفظه بخلاف المال إذ العلم يهرسك وأنت تهرس المال والعلم يزيد بالإفراق والمال
 ينقص بالاتفاق والمال يسرق والولاية يمزج عنها والعلم لا تمتد إليه أيدي السراق بالأخذ ولا أيدي
 السلاطين بالزول فيكون صاحبه في روح الأمن أبداً وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبداً
 ثم العلم نافع ولذيذ وجميل في كل حال أبداً والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة
 ولذلك فم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وإن سباه خيراً في مواضع وأما تصوراً أكثر الخلق

بتلك الرؤيا فأجاز
 أبو بكر وصيته قال
 مالك بن أنس رضى
 الله عنهما لا أعلم وصية
 أجيزت بعد موت
 صاحبها إلا هذه فهذه
 كرامة ظهرت لثابت
 بحسن تقواه وأدبهم
 رسول الله صلى الله
 عليه وسلم فليعتبر
 المرید الصادق ويعلم
 أن الشيخ عنده
 تذكرة من الله ورسوله
 وأن الذي يتممه مع
 الشيخ عوض ما لو كان
 في زمن رسول الله صلى
 الله عليه وسلم واعتمده
 مع رسول الله صلى الله
 عليه وسلم فسا قام القوم
 بواجب الأدب أخبر
 الحق عن حالهم وأثنى
 عليهم فقال - أولئك

عن إدراك لذة العلم فإما لعدم الذوق فمن لم يذوق لم يعرف ولم يشفق إذ الشوق تبع الذوق وإما الفساد
 أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرآ
 وإما لتصور فظنتهم إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة
 العسل والطيور السمان ولا يستلذ إلا اللبن وذلك لا يدل على أنها ليست لذيفة ولا استطابته اللبن يدل
 على أنه ألد الأشياء فالقاصرون عن ذوق لذة العلم والحكمة ثلاثة إما من لم يحى باطنه كالطفل وإما
 من مات بعد الحياة باتباع الشهوات وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات وقوله تعالى - في قلوبهم
 مرض - إشارة إلى مرض العقول وقوله عز وجل - لينذر من كان حيا - إشارة إلى من لم يحى
 حياة باطنه وكل حى بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء
 ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان . الثانية لذة
 يشارك الانسان فيها بعض الحيوانات كلكلة الرياضة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود في الأسود والنمر
 وبعض الحيوانات . الثالثة ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلكلة البطن والفرج وهذه أكثرها وجودا
 وهي أخسها ولذلك اشترك فيها كل مادي ودرج حتى الأبدان والحشرات ومن جاوز هذه الرتبة
 تشبث به لذة الغلبة وهو أشدها التصاقا بالمغافلين فان جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب
 اللذات عليه لذة العلم والحكمة لاسيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله وهذه رتبة الصديقين
 ولا يزال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياضة من القلب وأخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب
 الرياضة وأما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياضة لا يقوى على
 كسرها إلا الصديقون فأما قمعها بالسلبية حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال
 فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر ، نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى في الأحوال لا يقع معها الإحساس
 بلذة الرياضة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إليه الصفات البشرية
 فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل وعند هذا
 تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام قلب لا يحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر
 فيه وقل لا يدري مالذة المعرفة وما معنى الأنس بالله وإنما لذته بالجماء والرياضة والمال وسائر الشهوات
 البدنية وقل أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه في
 بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية وقل أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه
 في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة أما الأول فان كان ممكنا في الوجود فهو في غاية العبد وأما الثاني
 فالدنيا طائفة به وأما الثالث والرابع فموجدان ولكن على غاية الدور ولا يتصور أن يكون ذلك
 إلا نادرا شاذا وهو مع الدور يتفاوت في القلة والكثرة وإنما تكون كثرته في الأعصار القريبة
 من أعصار الأنبياء عليهم السلام فلا يزال يزداد المهدي طولا وتزداد مثل هذه القلوب قلة إلى أن تقرب
 الساعة ويقضى الله أمرا كان مفعولا وإنما يجب أن يكون هذا نادرا لأنه مبادئ ملك الآخرة
 والملك عزيز والملوك لا يكثرون فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادرا وأكثر الناس من
 دونهم فكذا في ملك الآخرة فان الدنيا مرآة الآخرة فانها عبارة عن عالم الشهادة والآخر عبارة
 عن عالم الغيب وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة
 والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فانها أولى في حق رؤيتك فانك لا ترى
 نفسك وترى صورتك في المرآة أو لا فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة
 فالقلب التابع في الوجود متبوعا في حق المعرفة والقلب التأخر متقدما وهذا نوع من الانعكاس

الذين امتحن الله قلوبهم
 للتقوى - أى اختبر
 قلوبهم وأخلصها كما
 يمتحن الذهب بالنار
 فيخرج خالصه وكان
 اللسان ترجمان القلب
 وتهذب اللفظ لتأدب
 القلب فهذا ينبغي أن
 يكون المراد مع
 الشيخ . قال أبو عثمان
 الأدب عند الأكابر
 وفي مجازة السادات من
 الأولياء يباع بصاحبه
 إلى الدرجات العلا
 والخير في الأولى والعقبى
 ألا ترى إلى قول الله
 تعالى - ولو أنهم صبروا
 حتى تخرج إليهم لكان
 خيرا لهم - ومع علمهم
 الله تعالى قوله سبحانه
 - إن الذين ينادونك
 من وراء الحجرات

ولكن الانكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم التيب
والملكوت فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويصير به إلى
عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة وقد أمر الحق به فقال - فاعتبروا بأولى الأبصار - ومنهم من
عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستفتح إلى حيمه أبواب جهنم وهذا
الحبس مملوء نارا من عأتما أن تطلع على الأئمة إلا أن بينه وبين إدراك ألبها حجابا فاذا رفع
ذلك الحجاب بالموت أدرك وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا
الجنة والنار مخلوقتان ولكن الجحيم تدرك مرة بادراك يسمى علم اليقين ومرة بادراك آخر
يسمى عين اليقين وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن
للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين فذلك قال الله تعالى - كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم -
أى في الدنيا - ثم ترونها عين اليقين - أى في الآخرة فاذا قد ظهر أن القلب الصالح ملك الآخرة
لا يكون إلا عزيزا كالشخص الصالح ملك الدنيا .

(قصة سادسة حاوية لمجامع النعم)

اعلم أن النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية أما الثانية فاتها
سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لافناء له وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغنى
لا فقر بعده وهي النعمة الحقيقية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا عيش إلا عيش الآخرة »^(١)
وقال ذلك مرة في الشدة تسلية للنفس وذلك في وقت حفر الخندق في عدة الضر وقال ذلك مرة
في السرور منعا للنفس من الركون إلى سرور الدنيا وذلك عند إحداق الناس به في حجة الوداع^(٢)
وقال رجل « اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال النبي صلى الله عليه وسلم وهل تعلم ما تمام النعمة؟ قال لا
قال تمام النعمة دخول الجنة^(٣) » وأما الوسائل فتتنقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس وإلى
ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني وإلى ما يليه في القرب ويمجاوز إلى غير البدن كالأسباب
اللطيفة بالبدن من اللال والأهل والعشيرة وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس
وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والمهذبة فهي إذن أربعة أنواع : النوع الأول وهو الأخص
الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق وينقسم الإيمان
إلى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله وإلى علوم للعامة ، وحسن الخلق
ينقسم إلى قسمين ترك مقتضى الشهوات والغضب واصمه العفة ومراعاة العدل في الكف عن
مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يمتنع أصلا ولا يقدم كيف شاء بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان
العدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم إذ قال تعالى - أن لا تطغوا في البران
وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا البران - فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح أو ترك النكاح
مع القدرة والأمن من الآفات أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبارة والذكر والفكر فقد أخسر
البران ومن انهماك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في البران وإعما العدل أن يخلو وزنه وتقديره
عن الطغيان والخسران فتعدل به كفتا البران فاذا في الفضائل الخاصة بالنفس للقرية إلى الله تعالى أربعة
علم مكاشفة وعلم معاملة وعفة وعدالة ولا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالنوع الثاني وهو الفضائل البدنية

أكثرهم لا يتقون -
وكان هذا الحال من
وقد بنى تميم جاء وإلى
رسول الله صلى الله
عليه وسلم فنادوا يا محمد
اخرج إلينا فان مدحنا
زين وذمنا شين قال
فسمع رسول الله صلى
الله عليه وسلم فخرج
إليهم وهو يقول « إنما
ذلكم الله الذي ذمه
شين ومدحه زين » في
قصة طويلة وكانوا أتوا
بشاعرهم وخطيبهم
فطلبهم حسان بن ثابت
وشيبان المهاجرين
والأصهار بالخطبة وفي
هذا تأدب للبريد في
الدخول على الشيخ
والإقدام عليه وتركه
الاستعجال وصره إلى
أن يخرج الشيخ من

(١) حديث قوله عند حفر الخندق لا عيش إلا عيش الآخرة متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث
قوله في حجة الوداع لا عيش إلا عيش الآخرة الشافعي مرسلًا والحاكم متصلًا وصححه وتقدم في الحج
(٣) حديث قال رجل اللهم إني أسألك تمام النعمة الحديث الترمذي من حديث معاذ بسند حسن

وهي أربعة الصحة والقوة والجمال وطول العمر ولا تنياً هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث وهي النعم الخارجة الطيبة بالبدن وهي أربعة المال والأهل والجاه وكرم العشرة ولا يتنفع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهي أربعة : هداية الله ورشده وتسيده وتأييده ، فمجموع هذه النعم ستة عشر إذا قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافلة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة البتة إلا بهما فليس للانسان إلا ما سعى وليس لأحد في الآخرة إلا ما تزود من الدنيا فكذلك حاجة الفضائل النفسية التي تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضرورية . وأما الحاجة النافلة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل فان ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة . فان قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال والأهل والجاه والعشرة . فاعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود . أما المال فالفقير في طلب العلم والكمال وليس له كفاية : كساع إلى الهيجا بغير سلاح ، وكبازي بروم الصيد بلا جناح ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « نم للمال الصالح للرجل الصالح ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « نم العون على تقوى الله المال ^(٢) » وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب الأوقات وفي تهية اللباس والسكن وضرورات المعيشة ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع إلا بسلاح المال ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات . وقال بعض الحكماء وقد قيل له ما النعم فقال : اللهم فاني رأيت الفقير لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال الأمن فاني رأيت الخائف لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال العافية فاني رأيت المريض لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال الشباب فاني رأيت الهرم لا يعيش له ، وكان ما ذكره إشارة إلى نعم الدنيا ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من أصبح معافي في بدنه آمناني سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ^(٣) » وأما الأهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما إذ قال صلى الله عليه وسلم « نم العون على الدين المرأة الصالحة ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم في الولد « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ولد صالح يدعو له ^(٥) » الحديث وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح . وأما الأقارب فهما أكثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين والأيدي فينتسب له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه ما لو اتفرد به لطل شمله وكل ما يفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين فهو إذن نعمة . وأما العز

موضع خلوته . صحته
أن الشيخ عبدالقادر
رحمه الله كان إذا جاء
إليه فقير زائر يخرج
بالفقير فيخرج ويضع
جانب الباب ويصافح
الفقير ويسلم عليه ولا
يجلس معه ويرجع
إلى خلوته وإذا جاء
أحد ممن ليس من
زمره الفقراء يخرج
ويجلس معه فخطب
لبعض الفقراء نوع
إنكار لتركه الخروج
إلى الفقير وخروجه
لتسبب الفقير فأنهى
ما خطر للفقير إلى
الشيخ فقال الفقير
رابطتنا معه رابطة
قلبية وهو أهل وليس
عنده أجنبية فكنتفي
معه بمواقفة القلوب

(١) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث عمرو بن العاص بسند جيد (٢) حديث نعم العون على تقوى الله للمال أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر ورواه أبو القاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلًا من طريقه رواه القضاة في مسند الشهاب هكذا مرسلًا (٣) حديث من أصبح معافي في بدنه آمناني سربه الحديث الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري وقد تقدم (٤) حديث نعم العون على الدين المرأة الصالحة لم أجده إلا من إسناده ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو الدنيا متاع وخير صاع الدنيا المرأة الصالحة (٥) حديث إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح .

والجاء فيه يدفع الانسان عن نفسه الذل والضم ولا يستغنى عنه مسلم فانه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه عمله وفراغه ويشغل قلبه وقلبه رأس ماله وإعنا تدفع هذه الشواغل بالزجر والجاه ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان . قال تعالى - ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض - ولا معنى للجاه إلى ملك القلوب كالأ معنى للنبي الاملك الدرامم ومن ملك الدرامم تسخرت له أبواب القلوب لدفع الأذى عنه فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر وجية تدفع عنه البرد وكلب يدفع الذئب عن ماشيته فيحتاج أيضا إلى من يدفع الشر به عن نفسه ، وطى هذا القصد كان الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يرعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه وكذلك علماء الدين لا طى قصد التناول من خزائهم والاستئثار والاستكثار في الدنيا بتابعهم ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن في القلوب جبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى اقتقر إلى الحرب والهجرة (١) ، فان قلت كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا؟ فأقول نعم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش » (٢) ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم الأكرام » (٤) وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن ، قتل وما خضراء الدمن ؟ قال المرأة الحسنة في اللبث السوء » (٥) فهذا أيضا من النعم ولست أعنى به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الديابل للانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار التوسمين بالعلم والعمل . فان قلت فما معنى الفضائل البدنية . فأقول لا يخفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى

وقنع بها عن ملاقة الظاهرة بهذا القدر وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر فمضى لم يوف حقه من الظاهر استوحش خلق الريد عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ ، قبسل لأبي منصور للضربى كم صحبت أبا عثمان قال خدمته لاصحبه فالصحة مع الإخوان والأقران ومع الشايع الخدمة وينبغي للعريذ أنه كلما أشكل عليه شيء من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الحضرة عليهما السلام كيف كان الحضرة يفعل أشياء

(١) حديث ما ناله صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى اقتقر إلى الحرب والهجرة البخارى ومسلم من حديث عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد قال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبدالمطلب والحديث وللمتذى وصححه وابن ماجه من حديث أنس لقد أخفت فى الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شئ يواريه بإبط بلال قال الترمذى معنى هذا حين خرج النبي ﷺ هاربا من مكة ومعه بلال وللبخارى عن عروة قال سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع الشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت عقبة بن أبى معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فوضع رداءه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر فدفعه عنه الحديث وللبراز وأبى يعلى من حديث أنس قال لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشى عليه فقام أبو بكر فجعل ينادى ويلكم أقتلون رجلا أن يقول ربى الله وإسناده صحيح على شرط مسلم (٢) حديث الأئمة من قريش النسائى والحاكم من حديث أنس باسناد صحيح (٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم من أكرم أرومة فى نسب آدم . الأرومة الأصل هذا معلوم فروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع مرفوطا إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واسطفى قريشا من كنانة واسطفى من قريش بنى هاشم واسطفانى من بنى هاشم وفى رواية الترمذى إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والطلب بن ربيعة وصححه والطلب بن أبى وداعة وحسنه إن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم وفى حديث ابن عباس ما بال أقوام يتنزلون أصلى فوا لله لأننا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعا (٤) حديث تخيروا لنطفكم ابن ماجه من حديث عائشة وتقدم فى النكاح (٥) حديث إياكم وخضراء الدمن تقدم فيه أيضا .

طول العمر إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى ^(١) » وإنما يستحق من جلته أمر الجمال فيقال يكفي أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحرى الخيرات ، ولعمري الجمال قليل النماء ولكن من الخيرات أيضا أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها وأما في الآخرة فمن وجهين : أحدهما أن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع فكأنه من هذا الوجه جناح يبلغ كالمال والجاه إذ هو نوع قدرة إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فعين على الآخرة بواسطتها . والثاني أن الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس لأن نور النفس إذ يتم إشراقه تأدى إلى البدن فالنظر والمهبر كثيرا ما يتلازمان ولذلك عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيات البدن فقالوا الوجه والعين مرآة الباطن ، ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والنم ، ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان مافي النفس ، وقيل مافي الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن مافيه ، واستعرض للأموث جيشا فرض عليه رجل قبيح فاستنطقه فاذا هو ألكن فاستقط اسمه من الديوان وقال الروح إذا أشرفت على الظاهر فصباحة أو على الباطن فصباحة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا الخير عند صباح الوجوه ^(٢) » وقال عمر رضى الله تعالى عنه : إذا بستم رسولا فاطلبوه حسن الوجه حسن الاسم . وقال الفقهاء : إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجهها وأولام بالامامة ، وقال تعالى « مماثل ذلك - وسنا نفي بالجمال ما يحرك الشهوة فان ذلك أنوثة وإعما نفي به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتناسف خلقه الوجه بحيث لا تنبوا الطباع عن النظر إليه . فان قلت قد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد في حيز النعم ، وقد ذم الله تعالى المال والجاه وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) وكذا العلماء قال تعالى - إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم - وقال عز وجل - إنما أموالكم وأولادكم فتنة وقال على كرم الله وجهه في ذم النسب : الناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل امرئ ما يحسنه ، وقيل المرء بنفسه لا بأبيه فإمعنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا . فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك المعلوم على ما هي عليه ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لا سبيل إلى جدها إلا أن فيها فتنا ومحافوف ، فثال للمال مثال الحية التي فيها تزيق نافع وسم نافع فان أصابها العزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن مهابط وطريق استخراج تزيقها النافع كانت نعمة وإن أصابها السوادى القرفهى عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر القدى تحته أصناف الجواهر والآلى فمن ظفر بالبحر فان كان عالما بالسباحة وطريق الفوص وطريق الاحتراز عن

(١) حديث أفضل السعادة طول العمر في عبادة الله غريب بهذا اللفظ وللترمذى من حديث أبي بكر أن رجلا قال يا رسول الله أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح
(٢) حديث اطلبوا الخير عند حسان الوجوه أبو يعلى من رواية إسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن سباع عن أمها عائشة وخيرة وأمها لا أعرف حالهما ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء والبيهقى في الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيفة (٣) حديث ذم المال والجاه الترمذى من حديث كعب بن مالك ما ذهبان جاثمان أرسلنا في غم بأفقد لها من حب المال والشرف لدينه وقد تقدم في ذم المال والبخل .

يشكرها موسى واذا أخبره الخضر بسرها يرجع موسى عن إنكاره لما يعكزه المرید لقلعة علمه بحقيقة ما يوجد من الشيخ فقل الشيخ في كل شئ عذر بلسان العلم والحكمة . سأل بعض أصحاب الجنيد مسألة من الجنيد فأجابه الجنيد فحارصه في ذلك فقال الجنيد فان لم تؤمنوا الى فاعتزلون وقال بعض المشايخ من لم يعظم حرمة من تأدب به حرم بركة ذلك الأدب ، وقيل من قال لأستاذه لا ، لا يفلح أبدا . أخبرنا شيخنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على

مهلكات البحر قد ظفر بنعمه ، وإن خاضه جاهلا بذلك قد هلك فذلك مدح الله تعالى اللال وسماه خيرا ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نم العون على تقوى الله تعالى اللال » وكذلك مدح الجاه والعز إذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله وحيه في قلوب الخلق وهو اللحن بالجاه ولكن للقول في مدحها قليل وللقول في ذم اللال والجاه كثير ، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه ، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب . ومعنى الجاه ملك القلوب وإنما كثر هذا وقل ذلك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية اللال وطريق العوص في بحر الجاه فوجب تحذيرهم فانهم يهلكون بسم اللال قبل الوصول إلى ترياقه ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ولو كانا في أعيانها مذمومين بالاضافة إلى كل أحد لما تصور أن ينضاف إلى النبوة للملك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ولأن ينضاف إليها النبي كما كان لسليمان عليه السلام فالناس كلهم صبيان والأموال حيات والأنبياء والعارفون معزومون فقد يضر الصبي ما لا يضر للعزم ، نعم للعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حيتو علم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لا تقدي به ولده وأخذ الحية إذا رآها يلعب بها فبذلك فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد ، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضررا كثيرا ، ولو أخذها لأخذها الصبي ويعظم ضرره يهلكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبي بالهرب ويقبح صورتها في عينه ويمرغه أن فيها سماً قاتلا لا ينجو منه أحد ولا يبعثه أصلا بما فيها من تقع الترياق فان ذلك ربما يضره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة وكذلك العواص إذا علم أنه لو غاص في البحر يرمى من ولده لا تبعه وهلك فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر ، فان كان لا ينجو الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان والأغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنالكم مثل الوالد لولده ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم تنهاتون على النار تنهات الفرائس وأنا تأخذ بحجزكم ^(٢) » وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن الهالك فانهم لم يبعثوا إلا لذلك وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يمكوه بل أشقوه فان الاتفاق في الترياق وفي الامساك السم ولو فتح للناس باب كسب المال ورضوا فيه لما لوا إلى سم الامساك ورضوا عن ترياق الاتفاق فلذلك قبحت الأموال والنبي به تبيح إمساكها والحرس عليها الاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولقد أنها فاما أخذها جدر الكفاية وصرفه الفاضل إلى الخيرات فليس بمذموم وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده في السفر إذا صمم العزم على أن يخلص بما يحمله . فاما إذا صمته نفسه باطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرقاء فلا بأس بالاستكثار وقوله عليه الصلاة والسلام « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب ^(٣) » معناه لأفكم خاصة

قال أنا أبو الفتح المهروري قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المجهوني قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا هناد عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتركونى ماتر كنتم وإذا حدثكم غفدوا عنى فإتما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » قال الجنيد رحمه الله رأيت مع أبي حفص النيسابورى إنسانا كثير الصمت لا يتكلم فقلت لأصحابه من هذا

- (١) حديث إنما أنالكم مثل الوالد لولده مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله لولده وقد تقدم
- (٢) حديث إنكم تنهاتون على النار تنهات الفرائس وأنا تأخذ بحجزكم متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ مثلى ومثل الناس . وقال مسلم ومثل أمى كمثل رجل استوقد نارا فجلعت الدواب والفرائس يقعن فيه فأتا أخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه ولمسلم من حديث جابر وأنا تأخذ بحجزكم عن النار وأنتم تهلتون من يدي (٣) حديث ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب ابن ماجه

ولا قد كان فيمن يروي هذا الحديث ويعمل به من بأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويغرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة * ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه فأذن له فنزل جبريل عليه السلام ، وقال : مره بأن يطعم للسكين ويكسو العارى ويقرى الضيف (١) الحديث . فأذن النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها وتعمها بضرها فمن وثق يصيرته ، وكال معرفته ، فله أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواءها ، ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الأخطار فلا تصدق بالسلامة شيئا في حق هؤلاء . وم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهدهد لطريقه . فان قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد . فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة المبد وبين قضاء الله وقدره وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره كما أن الإلحاد عبارة عن الليل لخصص بمن ماله إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق وذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يحنى عليه اجتهاده

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها لأن داعية الانسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فن أبن ينفعه مجرد الإرادة فلا فائدة في الإرادة والقدره والأسباب إلا بعد الهداية ولذلك قال تعالى ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى - وقال تعالى - ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء - وقال صلى الله عليه وسلم * ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى أى بهديته قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا (٢) * . وللهداية ثلاث منازل : الأولى معرفة طريق الخير والشر للشار إليه بقوله تعالى - وهديناه للجدين - وقد أتم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالفضل وبعضه على لسان الرسل ولذلك قال تعالى - وأما عود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى - فأسباب الهدى هى الكتب والرسل وبصائر العقول وهى مبذولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا والأسباب التى تسمى القلوب وإن كانت لا تسمى الأبصار قال تعالى - فانها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التى فى الصدور - ومن جملة العميات الإلثف والمادة وحب استصحابهما وعنه العبارة بقوله تعالى

والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال بلفظ وقال مثل زاد الراكب وقال صحيح الاسناد . قلت هو من رواية أبى سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه عهد إلى أن يكفى أحدكم مثل زاد الراكب (١) حديث استئذان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال مره أن يطعم للسكين الحديث الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الاسناد . قلت : كلا فيه خالد بن أبى مالك ضعيف جدا (٢) حديث ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله متفق عليه من حديث أبى هريرة لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل منه ورحمة وفى رواية لمسلم ما من أحد يدخله عمله الجنة الحديث واتفقا عليه من حديث عائشة وانخرده بمسلم من حديث جابر وقد تقدم .

قيل لى هذا إنسان يصحب أبى حفص ويغمدنا وقد أتفق عليه مائة ألف درهم كانت له واستدان مائة ألف أخرى أنفقها عليه ما يسوغ له أبو حفص أن يتكلم بكلمة واحدة وقال أبو يزيد البسطامى صحبت أبى على السندى فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه وكان يلحنى التوحيد والحقائق صرفا . وقال أبو عثمان صحبت أبى حفص وأنا غلام حدث فطردنى وقال لا تجلس عندى فلم اجعل مكافأتى له على كلامه أن أولى ظهري إليه فالصرفت أمشى إلى خلف ووجهى مقابل له حتى غبت

- إنا وجدنا آباءنا على أمة - الآية وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى - وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - وقوله تعالى - أشرنا منا واحدا نتبعه - فهذه المعينات هي التي منحت الاهتداء والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهي التي يمد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال وهي ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - وهو المراد بقوله تعالى: - والذين اهتدوا زادهم هدى - والهداية الثالثة وراء الثانية وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة فينتدى بها إلى ما لا يهتدى إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم وهو الهوى للطلق وما عداه حجاب له ومقدمات وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الاضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى فقال تعالى - قل إن هدى الله فبغير هدى لا ينصره - وهو للسمى حياة في قوله تعالى - أو من كان ميتا فأحييناه وجلنا له نورا يمشى به في الناس - والعنى بقوله تعالى - أفمن نرحم الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وأما الرشد فعنى به العناية الإلهية التي تصين الانسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتقه عما فيه فساده ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى - ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكناهه عابدين - فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها فالصبي إذا بلغ خيرا يحفظ المال وطرق التجارة والاستثناء ولكنه مع ذلك يندرو لا يريد الاستثناء لا يسمى رشيدا لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكيف من شخص يقدم على ما يمل أنه يضره فقد أعطى الهداية وميزها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد فالرشد بهذا الاعتبار أكل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة . وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد في صوب الصواب في أسرع وقت فان الهداية بمجرد ما لا تكفي بل لا بد من هداية محركة للداعية وهي الرشد والرشد لا يكفي بل لا بد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبثت الداعية إليه فالهداية محض التعريف والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتحرك والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد وأما التأيد فكأنه جامع للكل وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج وهو المراد بقوله عز وجل - إذا يدتك روح القدس - وتقرب منه الصمة وهي عبارة عن وجود الهى يسبح في الباطن يقوى به الانسان على تحملي الحير وتجنب الشر حتى يصير كإنسان من باطنه غير محسوس وإياه عني بقوله تعالى - ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه - فهذه هي مجامع النعم ولن تثبت إلا بما يحول به الله من الفهم الصافي والثاقب والسمع الواعي والقلب البصير المتواضع المراعى والمعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذي يصونه عن سفه السفاه وظلم الأعداء ويستدهى كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا وتستدعى تلك الأسباب أسبابا إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل التحيرين وملجأ للضطرين وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاها فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - وبالله التوفيق .

عنه واعتقدت أن أحسفر لنفسي ببرا على بابه وأزل وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا بأذنه فلما رأى ذلك منى قريبي وقبلنى وصيرنى من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله ومن آدابهم الظاهرة أن للرشد لا يبسط سجادته مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة فان للرشد من شأنه التبتل للخدمة في السجادة إجماع إلى الاستراحة والتمزز ولا يتحرك في السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حد التميز وهيبة الشيخ تملك المسريد عن الاسترسال في السماع وتحميده واستخراجه في

(بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء)

اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضربا وجلنا حمة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة للتأخرة فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم تقدر عليها ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل فلا يخفى أن الأكل فعل وكل فعل من هذا النوع فهو حركة وكل حركة لا بد لها من جسم متحرك هو آلتها ولا بد لها من قدرة على

الحركة ولا بد من إرادة للحركة ولا بد من علم بالمراد وإدراك له ولا بد للأكل من مأكول ولا بد
للمأكول من أصل منه يحصل ولا بد له من صانع يصلحه فلنذكر أسباب الإدراك ثم أسباب الارادات
ثم أسباب القدرة ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لاعلى سبيل الاستقصاء .
(الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك)

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودا من الحجر والدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي
لا تنمى ولا تندى فإن النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في
الأرض وهي له آلات فيها يجتذب الغذاء وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ثم تغلظ أصولها ثم
تنشعب ولا تزال تستدق وتنشعب إلى عروق شعيرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تصيب عن البصر إلا
أن النبات مع هذا الكمال ناقص فانه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ويمس أصله جف وييس ولم يمكنه
طلب الغذاء من موضع آخر فإن الطلب إنما يكون بمعرفة اللطوب وبالانتقال إلى النباتات عاجز عن
ذلك فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الاحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء فانظر إلى
ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك فأولها حاسة اللمس وإنما خافت
لك حتى إذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به قهرب منه وهذا أول حس يخلق للحيوان ولا
يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس لأنه لم يحس أصلا فليس بحيوان وأنقص درجات الحس أن
يحس بما لا يلاصقه ويماسه فإن الاحساس مما يبعد منه إحساس أتم لا محالة وهذا الحس موجود لكل
حيوان حتى الدودة التي في الطين فانها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب لا كالنبات فان النبات يقطع
فلا ينقبض إذ لا يحس بالقطع إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصا كالدودة لا تقدر على
طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما لمس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط فافتقرت إلى
حس تدرك به ما بعد عنك فخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أي ناحية
فتحتاج إلى أن تطوف كثيرا من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذي شممت ريحه وربما تعثر فتسكون
في غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتصدق تلك
الجهة بينها إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصا إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب فتبصر
غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوا لا حجاب بينك وبينه وأمام عينك وبينه حجاب فلا تبصره
وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من
وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئا حاضر أو أما الغائب فلا يمكنك
معرفة إلا بكلام ينظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع فاشتدت إليه حاجتك فخلق لك ذلك
وميزت بهم الكلام عن سائر الحيوانات وكل ذلك ما كان يفنيك لو لم يكن لك حسي الذوق إذ يصل الغذاء
إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله قهلك كالشجرة تصب في أصلها كل مانع ولا ذوق لها
فتجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق في مقدمة دماغك إدراك آخر
يسمى حسا مشتركا تأدى إليه هذه الحسوسات الخمس وتجتمع فيه ولولا لطلال الأمر عليك فانك إذا
أكلت شيئا أصفر مثلا فوجدته مرًا مخالفا لك فتركته فاذا رأته مرة أخرى فلا تعرف أنه مضر مالم تذقه
ثانيا لولا الحس المشترك إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك الرائحة فكيف تتمتع عنه والذوق يدرك المرارة
ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم يجمع عنده الصفرة والمرارة جميعا حتى إذا أردت الصفرة حكم بأنه
مر فيمتنع عن تناوله ثانيا وهذا كله تشارك فيه الحيوانات إذ لا شاة هذه الحواس كلها فلو لم يكن لك
إلهذا لكنت ناقصا فإن الهيمة يحتمل عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف

الشيخ بالنظر إليه
ومطالعة موارد فضل
الحق عليه أنجع له من
الإصغاء إلى السماع ومن
الأدب أن لا يكتم على
الشيخ شيئا من حاله
ومواهب الحق عنده
وما يظهر له من كرامة
وإجابة ويكشف
للشيخ من حاله ما يعلم
الله تعالى منه وما
يستحي من كشفه
يذكره إيماء وتعميرضا
فان المريد متى انطوى
ضميره على شيء
لا يكشفه للشيخ
تصريحاً أو تعريضاً
يصير على باطنه منه
عقدة في الطريق
وبالقول مع الشيخ
تحل العقدة وتزول
ومن الأدب أن

تتخلص إذا قيدت وقد تلتقي نفسها في بر ولا تدرى أن ذلك يهلكها ولذلك قد تأكل البيعة ما تستلذه في الحال ويضرها في ثانی الحال فمرض وتموت إذ ليس لها إلا الاحساس بالحاضر فأما إدراك العواقب فلا، فبورك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هي أشرف من الكل وهو العقل فيه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها في الحال والمآل وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب صحتك وهو أحسن فوائد العقل وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة في عائله وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس في ححك فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الوكيلين بنواحي المملكة وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به فواحدة منها بأخبار الألوان والأخرى بأخبار الأصوات والأخرى بأخبار الروائح والأخرى بأخبار الطعوم والأخرى بأخبار الحر والبرد والحسونة واللينة والصلابة وغيرها وهذه البرد والجواسيس يقتضون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك والحس المشترك قاعد في مقدمة الدماغ مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي محتومة ويسلمها إذ ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها فأما معرفة حقائق ما فيها فلا ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلم إليها آت إليه محتومة فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام والصلاح يحرك الجنود وهي الأعضاء مرة في الطلب ومرة في الحرب ومرة في إتمام التدبيرات التي تمن له فهذه سياقة نعمة الله عليك في الإدراكات ولا تظن أننا استوفيناها فان الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات والبصر واحد من جملة الحواس والعين آلة واحدة له وقد ركب العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالشيمة وبعض تلك الرطوبات كأنه يياض البيض وبعضها كأنه الجمد ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب لو اختلفت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم فهذا في حس واحد فحس به حاسة السمع وسائر الحواس بل لا يمكن أن تستوفي حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة مع أن جملة لا تزيد على جوزة صغيرة فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات.

(الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الارادات)

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إلي المشهورة لتستحك على الحركة لكان البصر معطلا فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه فاضطرت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة ونقرة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكلمها بك كالتقاضى الذي يضطرك إلى تناول حتى تتناول وتغذى تبقى بالغذاء وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكت نفسك فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها لا كالزرع فإنه لا يزال يجذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق الرحم وخلق

لا يدخل في صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم تأديبه وتهذيبه وأنه أقوم بالتأديب من غيره ومتى كان عند الريد تطلع إلى شيخ آخر لاتصفو صحبته ولا ينفذ القول فيه ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ إليه فان الريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته والمهبة والتألف هو الوساطة بين للريد والشيخ وعلى قدر قوة المهبة تكون سراية الحال لأن المهبة علامة التعارف والتعارف علامة الجندية والجندية جالبة للريد حال الشيخ أو بعض حاله

دم الحيض وتأليف الجنين من النى ودم الحيض وكيفية خاق الأثيين والعروق السالكة إليها من القفار الذى هو مستقر النظفة وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النظفة في بعضها تنتشك بشكل الله كور وتقع في بعضها فتشك بشكل الإناث وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظما ولحما ودما وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الأعضاء لتضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب فضلا عما تراه الآن ولكننا لسنا نريد أن تعرض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام . فاذن شهوة الطعام أحد ضروب الارادات وذلك لا يكفيك فانه تأتيك الهللكات من الجوانب فلو لم يخلق فيك الغضب الذى به تدفع كل ما يصادك ولا يوافقك لبقيت عرضة للآفات ولأخدمتك كل ما حصلت من الغذاء فان كل واحد يشتهى ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته وهى داعية الغضب الذى به تدفع كل ما يصادك ولا يوافقك ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا إلى ما يضر وينفع في الحال وأما في المآل فلا تكفى فيه هذه الارادة فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعروف للعواقب كما خلق الشهوات والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة قم بها اتفاعك بالعقل إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلا تضرك لا يفنيك في الاحتراز عنها مالم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة وهذه الارادة أفردت بها عن البهائم كما ما لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب وقد صمينا هذه الارادة باعثة دينيا وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلا أوفى من هذا .

(الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة)

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الادراك والارادة لا معنى لها إلا الليل إلى الطلب والمهرب وهذا لا كفاية فيه مالم تكن فيك آلة الطلب والمهرب فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشى إليه لفقده رجله أولا يمكنه أن يتناوله لفقده يده أو لقلج وخدر فيهما فلا بد من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بقتضى الشهوة طلبا وبقتضى الكراهية هربا فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التى تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها فمنها ما هو للطلب والمهرب كالرجل للانسان والجناح للطير والقوائم للدواب ومنها ما هو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها ما يكثر أعداؤه ويعد غذاءه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة ومنها ما خلق له أربع قوائم ومنها ماله رجلان ومنها ما يذب وذكر ذلك يطول فلنذكر الأعضاء التى بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غيرها فنقول : رؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تكفى مالم تتمكن من أن تأخذه فافتقرت إلى آلة باطشة فأتم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدتان إلى الأشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتحرك في الجهات فتمتد وتنتهى إليك فلا تكون تكشبة منصوبة ثم جعل رأس اليد عريضا بخلق الكف ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هى الأصابع وجطلها في صفيين بحيث يكون الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعا وضائان بسطها كانت لك مجرفة وإن صممتها كانت لك مغرفة وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض ثم خلق لها أظفارا وأسند إليها رءوس الأصابع حتى لا تنفتحت حتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تحويها الأصابع فتأخذها برءوس أظفارك ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا مالم يصل إلى المدة وهى فى الباطن فلا بد وأن يكون من الظاهر

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان قال أنا أبو الفضل حميد قال أنا الحافظ أبو نعيم قال ثنا سليمان ابن أحمد قال ثنا أنس ابن أسلم قال ثنا عتبة ابن رزين عن أبي أمامة الباهلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من علم عبدا آية من كتاب الله فهو مولاه ينبغي له أن لا يخذله ولا يستأثر عليه فمن فعل ذلك فقد فطم عروة من عرا الاسلام » ومن الأدب أن براعى خطرات الشيخ في جزئيات الأمور وكيانها ولا يستحقر كراهة الشيخ ليصير

دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه فجعل القم منفذا إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكبيرة سوى كونه منفذا للطعام إلى المعدة ثم إن وضعت الطعام في القم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام فخلق لك اللحين من عظمين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنا ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك قسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس وإلى جادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب ثم جعل مفصل اللحين متخلخلا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى ولولا ذلك لما تيسر لأضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا وبذلك لا يتم الطحن فجعل العلى الأسفل متحركا حركة دورية والعلى ثابتا لا يتحرك فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى فإن كل رحى صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحى الذي صنعه الله تعالى إذ يدور منه الأسفل على الأعلى فسبحانه ما أعظم شأنه وأعرسلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ، ثم هب أنك وضعت الطعام في فضاء القم فكيف يتحرك الطعام إلى ما تحت الأسنان أو كيف تستجره الأسنان إلى نفسها أو كيف يتصرف باليد في داخل القم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فإنه يطوف في جوانب القم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالخزفة التي ترد الطعام إلى الرحى هذا مع ما فيه من فائدة الذوق ومحاسن قوة النطق والحكم التي لسانا نظيب بذكرها ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنه وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن يترقق إلى الحلق بنوع رطوبة فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى يمنع من به الطعام فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فانك ترى الطعام من بعد فيثور الخنكان للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك ثم هذا الطعام الطحون للتمجن من يوصله إلى المعدة وهو في القم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يدق للمعدة حتى تمتد فتجذب الطعام فانظر كيف هيأ الله تعالى للرءى والخزفة وجعل على رأسها طبقات تتفتح لأخذ الطعام ثم تطبق وتنضف حتى يتقلب الطعام بضغطة فيهبوى إلى المعدة فيدهليز الرءى فاذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر يقع فيها الطعام فتحتوى عليه وتغلق عليه الأبواب فلا يزال لا يثا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال ومن قدام التراب ومن خلف لحم الصلب فتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعا متشابها يصلح للنفوذ في تجاويف العروق وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقته وهو بعد لا يصلح للتغذية فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجارى من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهى إلى الكبد والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولى عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم فيستقر فيها ريشما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلان كما يتولد في جميع ما ينطبخ إحداهما شبيهة بالردى والعكر وهو الحاطط السوداء والأخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء ولو لم تفصل عنها الفضلان فسد مزاج الأعضاء فخلق الله تعالى الحرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقا محدودا إلى الكبد داخل في تجويفه

حركاته معتمدا على حسن خلق الشيخ وكامل حله ومداراته. قال إبراهيم بن شيان كنا نصحب أبا عبد الله للغربي ونحن شبان ويسافر بنا في البرارى والفلوات وكان معه شيخ اسمه حسن وقد صحبه سبعين سنة فكان إذا جرى من أحدنا خطأ وتسير عليه حال الشيخ تشفع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان . ومن أدب للريد مع الشيخ أن لا يستقل بوقائه وكشفه دون مراجعة الشيخ فان الشيخ علمه أوسع وبابه المفتوح إلى الله أكبر

فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداوى فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لمافية من المائية ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية وأخرج منها متصاعدا إلى الأعضاء خلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا إلى الكبد ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلا في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد إذ لو اجتذب قبل ذلك لفظ ولم يخرج من العروق فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث نجا من كل ما يفسد الغذاء ، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ثم قسمها بعد الطلوع أقساما وشعب كل قسم بشعب وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا فيجري الدم الصافي فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شمعية كعروق الأوراق والأشجار بحيث لا تندرک بالأبصار فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء ولوحلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحجرة وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الحائط السوداوى حدثت الأمراض السوداوية كالهبق والجدام والماليخوليا وغيرها وإن لم تندفع المائية نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره ، ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب النافع على هذه الفضلات الثلاث الحسيسة أما المرارة فانها تجذب بأحد عنقها وتقذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في ثقل الطعام رطوبة مزقة ويحدث في الأمعاء لدغ يحركها للدفع فتضغط حتى يندفع الثقل وينزلق وتكون صفرته لذلك وأما الطحال فانه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثم يرسل منها كل يوم شيئا إلى فم المعدة فيحرك الشهوة بجموضته وينبها ويشيرها ويخرج الباقي مع الفضل وأما الكلى فانها تمتدئ بما في تلك المائية من دم وترسل الباقي إلى المثانة ولتقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضواريب من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ثم كيفية تركيب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها لطلال الكلام وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأمور أخر سواها بل في آدمى آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ولاشئ منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن هلكت يامسكين فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولالتقوى بعدها على الشكر فانك لاتعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أحسها ثم لاتعرف منها إلا أنك نجوع فتأكل والحمار أيضا يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجامع ويستنهض فينهض ويرمخ فاذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط قمس على الاجمال مأهلهاء من جملة ما عرفناه حذرا من التطويل وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى عالم يعرفون من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر الأن من علم شيئا من هذا أدرك فحة من معاني قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وادراكها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الأخلاط الأربعة ومستقره القلب ويسرى في جميع البدن بواسطة العروق الضواريب فلا ينهى إلى جزء من أجزاء البدن

فان كان واقعة للريد من الله تعالى بواقعه الشيخ وبعضها له وما كان من عند الله لا يختلف وإن كان فيه شبهة نزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ ويكتب للريد علما بصحة الوقائع والكشوف فالريد لعله في واقعه بخامره كمن إرادة في النفس فيشتبك كمن الإرادة بالواقعة مناما كان ذلك أويقظة ولهذا سر عجيب ولا يقوم للريد باستئصال شأفة الكامن في النفس وإذا ذكره للشيخ فما في الريد من كمن إرادة النفس مفقود في حق الشيخ فان

إلا ومحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركة وغيرها كالسراج الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه ولكنه جعل السراج ميبيا له بحكته وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الأطباء الروح وعمله القلب ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمرجة والسم الأسود الذي في باطن القلب له كالفيتية والغذاء له كالزيت والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في حمة البيت وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ فسراج الروح أيضا ينطفئ* مهما انقطع غذاؤه وكما أن الفيتية قد تحترق فتصير رمادا بحيث لا تقبل الزيت فينطفئ* السراج مع كثرة الزيت فكذلك السم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفئ* ومع وجود الغذاء فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولاً فتشبت النار به وكما أن السراج تارة ينطفئ* بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفئ* بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل وكما أن انطفاء السراج بغياء الزيت أو فساد الفيتية أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا بأسباب مقدرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر فكذلك انطفاء الروح وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب فكذلك انطفاء الروح وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله وفارقت أنواره التي كان يستفيد منها من الروح هي أنوار الاحساس والقدر والارادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة فهذا أبيضار مزوجير إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى ومحجائب صنعته وحكته ليعلم أنه لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي - عز وجل نقصا لمن كفر بالله نسا وسحقا لمن كفر نعمته سحقا. فان قلت فقد وصفت الروح ودخلته ورسول الله ﷺ «مثل عن الروح فلم يزد عن أن قال - قل الروح من أمر ربي» (١) فلم يصفه لهم على هذا الوجه . فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح فان الروح يطلق لعنان كثيرة لان طول بذكرها ونحن إنما وصفنا من جعلها جماً لطيفاً تسميه الأطباء بروحاً وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الاحساس والقوى في الأعضاء به حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة في مجرى هذا الروح فلا يزالون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ويحاولونها بما يفتح السدة فان هذا الجسم بلطفه ينفذ في شبك العصب وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء وما يرتقى إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل . وأما الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت فسدت سائر البدن فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال هو أمر رباني كما قال تعالى - قل الروح من أمر ربي - والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها بل تحجر فيها عقول أكثر الخلق وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات وتنازل في ذكر مبادئ وصفها ما قد العقول القديمة بالجواهر والعرض المحبوسة في مضيقها فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية نسبة إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال وقد خالق الله تعالى الخلق أطواراً فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك العقول لأن ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ العقول ولا يدرك ما وراءها لأن ذلك طور لم يبلغه بعد

كان من الحق يتبرهن
بطريق الشيخ وإن
كان ينزع واقته إلى
كمون هوى النفس
نزول وتبراً ساحة
للريد ويحمل الشيخ
تقل ذلك لقوة حاله
وصحة إيوانه إلى جناب
الحق وكال معرفته
ومن الأدب مع الشيخ
أن المرید إذا كان له
كلام مع الشيخ في شيء
من أمر دينه أو أمر
دنياه لا يستعجل
بالإقدام على مكالمته
الشيخ والمهجوم عليه
حتى يتبين له من حال
الشيخ أنه مستعد له
ولساع كلامه وقوله
متفرغ فكما أن للدعاء
أوقاتها وأداباً وشروطاً
لأنه مخاطبة الله تعالى

(١) حديث أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال الروح من أمر ربي متفق عليه من حديث

ابن مسعود وقد تقدم في شرح محجائب القلب .

وإنه لتمام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين وذلك للشرب أعز من أن يكون شريعة لسلك وارد بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد ولبناب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب وطى أول الليدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني فمن لم يكن له على هذه التبة جواز ولا لحافظ التبة مشاهدة استحال أن يصل الليدان فكيف بالاتباء إلى ماوراءه من للشاهدات العالية ولذلك قيل من لم يعرف نفسه لم يعرف ربها وأتى صادق هذا في خزنة الأطباء ومن أين للطبيب أن يلاحظه بل للنبي للسمى روحا عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان لللك بالإضافة إلى الللك فمن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحركها صولجان لللك فظن أنه رأى لللك ولا يشك في أن خطأه فاحش وهذا الخطأ أخشى منه جدا ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ولكن ذكر نسبتته وفضله ولم يذكر ذاته أما نسبتته ففي قوله تعالى - من أمر ربى - وأما فضله فقد ذكر في قوله تعالى - يأتينا النفس للطمئنة ارجى إلى ربك راضية مرضية فادخلني في عبادى وادخلني جنى - ولترجع الآن إلى الترض فان للقصود ذكر نعم الله تعالى في الأكل فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل .

(الطرف الرابع : في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأظعمة)

وتصير صالحة لأن يصلحها الأذى بعد ذلك جنته)

اعلم أن الأظعمة كثيرة والله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لأخصى وأسباب مواءمة لانتهاهى وذكر ذلك في كل طعام مما يطول فان الأظعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية فلنأخذ الأغذية فانها الأصل ولنأخذ من جعلتها حبة من البر ولنضع سائر الأغذية فتقول : إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها ففيت وبيت جائما فما أحوجك إلى أن تتمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تنقى بتمام حاجتك خلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما يتنقى به كما خلق فيك فان النبات إنما يشارك في الحس والحركة ولا يخالفك في الاعتناء لأنه يتنقى بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تتنقى أنت وتجتذب ولنا نطلب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه ولكن نشير إلى غذائه . فتقول : كما أن الحطب والتراب لا يذيقك بل تحتاج إلى طعام مخصوص فكذلك الحبة لا تتنقى بكل شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها ولو تركتها في الماء لم تزد ولو تركتها في أرض لأماء فيها لم تزد بل لابد من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طينا وإليه الإشارة بقوله تعالى - فلينظر الانسان إلى طعامه أنا صبينا للماء صائمه شققنا الأرض شققا فأنتبتا فيها حبا وعنبا وفضا وزيونا ونخللا - ثم لا يكفى للماء والتراب إذ لو تركت في أرض ندية صلبة مترا كسمة لم تثبت لقد الهواء فيحتاج إلى تركها في أرض رخوة متخلخلة يتخلل الهواء إليها ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بهجره وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها وإليه الإشارة بقوله تعالى - وأرسلنا الرياح لواقح - وإنما إلقاها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض ثم كل ذلك لا يفيك لو كان في برد مفرط وشتاء شات فتحتاج إلى حرارة الريح والصفى قد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد إذ يحتاج للماء لينسق

فقول مع الشيخ أيضا
آداب وشروط لأنهم
معامة الله تعالى ويسأل
الله تعالى قبل الكلام
مع الشيخ التوفيق
لما يجب من الأدب
وقد نبه الحق سبحانه
وتعالى على ذلك فبأمر
به أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم في
مخاطبته قال - يا أيها
الذين آمنوا إذا ناجيت
الرسول قدموا بين
يدي نجوا كم صدق -
يعنى أمام مناجاتكم
قال عبد الله بن عباس
سأل الناس رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فأكثروا حتى شقوا
عليه وأحفوه بالمسئلة
فأدبهم الله تعالى
وظلمهم عن ذلك

إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي فانظر كيف خلق الله البحار والجبال والعيون وأجرى منها الأنهار ثم الأرض ربما تكون مرتفعة والياه لا ترضع إليها فانظر كيف خلق الله تعالى العيون وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها باذنه إلى أقطار الأرض وهي سحب تعال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرصه مدارا على الأراضي في وقت الربيع والحريف على حسب الحاجة وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجا فلو خرجت دفعة لفرقت البلاد وهلك الزرع وللواشي ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن إحساؤها أو أمان الحرارة فاتها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان فانظر كيف سخى الشمس وكيف خلقها مع جدها عن الأرض مسخنة للأرض في وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد والحر عند الحاجة إلى الحر فهذه إحدى حكم الشمس والحكم فيها أكثر من أن تحصى ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في الفواكه انقصاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترتيب كما جعل من خاصة الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه ويصغها بتقدير الفاطر الحكيم ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة حتى إن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة وتعرف ترتيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتظلم على رأسك الرطوبة التي يصر عنها بالزكام فكما يربط رأسك يربط القاكه أيضا ولا تطول فيها لا مطمع في استقصائه بل تقول كل كوكب في السماء قد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترتيب فلا يخلو واحد منهما عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر باحساسها ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا - وقوله عز وجل - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عيين - وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضوا إلا لفائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة والعالم كله كشخص واحد وآحاد أجسامه كالأعضاء له وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك وشرح ذلك يطول ولا ينبغي أن تظن أن الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة مخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق النجميين وعن علم النجوم (١) بل المنهى عنه في النجوم أمران: أحدهما أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها وهذا كفر. والثاني تصديق النجميين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها لأنهم يقولون ذلك عن جهل فان علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحا في الدين بل هو حق والسكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدين ولذلك إذا كان ملك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فان الشمس قد طلعت وحمى النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوائته حمى

وأمرهم أن لا يناجوه حتى يقدموا صدقة وقيل كان الأغنياء يأتون النبي عليه السلام ويطلبون الفقراء على المجلس حتى كره النبي عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم فأمر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة فلما رأوا ذلك اتهموا عن مناجاته فأما أهل العسرة فلا هم لم يجدوا شيئا وأسأهل اليسرة فبخلوا ومنعوا فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الرخصة وقال تعالى - أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات - وقيل لما أمر الله تعالى بالصدقة

(١) حديث النهي عن تصديق النجميين وعن علم النجوم أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد ولا يطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان إذا ذكر النجوم فأمكنوا وإسنادها ضعيف وقد تقدم في العلم وللمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال قلت يا رسول الله أمورا كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتى الكهان قال فلا تأتوا الكهان الحديث .

الهواء على طلوع الشمس وإذا سألت عن تغيير وجه الانسان قال قرعتي الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك وقس بهذا سائر الآثار إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول فالجهول لا يجوز دعوى العلم فيه والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بسروق القمر فاذن الكواكب ما خلقت عبثا بل فيها حكم كثيرة لا نحصى ولهذا «نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء وقرأ قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقتنا عذاب النار - ثم قال صلى الله عليه وسلم : ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبته (١)» ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا فمن تقع منه بمرقة ذلك فهو الذي مسح بها سبته فله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأوتس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فإن من أحب عالما فلا يزال مشغولا يطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه جباله فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى فإن العالم كله من تصنيفه وتصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده فإن تصبغت من تصنيفه فلا تصعب من اللصنف بل من الذي سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسيده وتعريفه كما إذا رأيت لب للشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تصعب من اللب فاتها خرق بحركة لا متحركة ولكن تصعب من حذق الشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار فاذن للقصد أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها ولا يتم الأفلاك إلا بحركاتها ولا يتم حركاتها إلا بعلائقها ساهوية يجر كونها وكذلك يتأدى ذلك إلى أسباب بييدة تركنا ذكرها تبيها بما ذكرناه على ما هملناه ولتقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .

(الطرف الخامس : في نعم الله تعالى في الأسباب للوصول للأطعمة إليك)

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد في كل مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض الناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعد عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبراري فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب الدال وشهوة الربح مع أنهم لا يفهمون في غالب الأمر شيء بل يجمعون فيما أن تحرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يعمتوا في بعض البلاد فيأخذها السلاطين وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورتهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا ، فانظر كيف سلط الله الجهل والنفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح ويركبوا الأخطار ويغرروا بالأرواح في ركوب البحر فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل في البراري وانظر إلى الأبل كيف خلقت وإلى القرس كيف أمدت بسرعة الحركة وإلى الحمار كيف جعل صبورا على التعب وإلى الجمال كيف تقطع البراري وتطوى للراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج وتأمل ما يحتاج

(١) حديث قرأ قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقتنا عذاب النار - ثم قال ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبته أي ترك تأملها التلبي من حديث ابن عباس بلفظ ولم يتفكر فيها وفيه أبو جناب يحيى بن أبي حبة ضعيف .

لم ينجح رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على ابن أبي طالب قدم دينار اتصدق به وقال على في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبل ولا يعمل بها أحد بعدى وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية دعا عليا وقال ماترى في الصدقة كم تكون ديناراً قال على لا يطبقونه قال كم قال على تكون حبة أو شعيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك لتهيد ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية ومانبه الحق عليه بالأمر بالصدق وموافقه من حسن الأدب وتقييد اللفظ والاحترام

إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما يحتاج إليه السفن قد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر ترى تركها طلبا للإيجاز .

(الطرف السادس : في إصلاح الأطعمة)

اعلم أن الذي ينبت في الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يضم ويؤكل وهو كذلك بل لا بد في كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمور آخر لا يحصى واستقصاء ذلك في كل طعام يطول فلتعين رغيفا واحدا ولتنظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بد إلقاء البذر في الأرض فأول ما يحتاج إليه الحراث ليزرع ويصلح الأرض ثم الثور الذي يثير الأرض والقدان وجميع أسبابه ثم بعد ذلك التمهد بسق الماء مدة ثم تنقية الأرض من الحشيش ثم الحصاد ثم القرك والتنقية ثم الطحن ثم العجن ثم الخبز فتأمل عدد هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره وعدد الأشخاص القائمين بها وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر إلى أعمال الصناع في إصلاح آلات الحراث والطحن والخبز من نجار وحداد وغيرهما وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد والرصاص والنحاس وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والأحجار واللعادن وكيف جعل الأرض قطعة متجاورات مختلفة ، فان فقتت علمت أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يمسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع فابتدى من الملك الذي يزجي السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة لللائكة حتى تنتهي التوبة إلى عمل الانسان ، فاذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق ، ثم تأمل كثرة أعمال الانسان في تلك الآلات حتى إن الآلة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي ينع البرد عنك لا تسكل صورتها من حديد تصلى الآلة لا يبد أن يمر على يد الأبرى خمس وعشرين مرة ويتماطى في كل مرة منها عملا ، فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد واقتضت إلى عمل للنجل الذي تصعد به البر مثلا بعد نبائه لفقد عمرك وهجزت عنه . أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قنرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة فانظر إلى القراض مثلا وما جلمان متطابقان ينطق أحدهما على الآخر فيتناولان الشيء معا ويقطعانه بسرعة ولولم يكشف الله تعالى طريق اتخاذ فضله وكرمه لمن قبلنا واقتصرنا إلى استنباط الطريق فيه فكفرتنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل للقراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوئي أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلا عن غيرها ، فسبحان من ألحق ذوى الأبصار بالعميان وسبحان من منع التبيين مع هذا البيان . فانظر الآن لو خلا بلك عن الطحان مثلا أو عن الحداد أو عن الحجام الذي هو أحسن العمال أو عن الخائف أو عن واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها ، فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى تهذب به مشيئة وتمت به حكته . ولنو جز القول في هذه الطبقة أيضا فان القرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء .

(الطرف السابع : في إصلاح للصالحين)

اعلم أن هؤلاء الصناع الصالحين للأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتاخرت طباعهم تافرت طباع الوحش لتبددوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يجوبهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد ، فانظر كيف ألقت الله تعالى بين قلوبهم وسلط الأوس والحبة عليهم لو أهدت ما في الأرض جميعا

مانسوخ ، والقائدة باقية . أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد ابن سلمان قال أنا أبو الفضل أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم قال حدثنا سليمان ابن أحمد قال حدثنا مطب بن شعيب قال حدثنا عبد الله بن صالح قال ثنا ابن لهيعة عن أبي قبيل عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وليس منا من لم يعمل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه فاحترام العلماء توفيق وهداية وإمهال ذلك خذلان وعقوق .

مألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - فلاجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا واتلفوا وبنوا المدن والبلاد وربوا الساكن والدور متفاربة متجاورة وربوا الأوق والحانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه ثم هذه الهبة نزول بأغراض يتراحون عليها ويتنافسون فيها في جيلة الإنسان النيط والحسد وللنافسة وذلك مما يؤدي إلى القتال والتنافر فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدم بالقوة والعدة والأسباب وألحق رعبهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى ربوا أجزاء البلاد كأنها أجزاء شخص واحد تعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها البعض فربوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق واضطروا الخلق إلى قانون العدل وألزموا التساعد والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالقتاب والحجاز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفع بالحداد وصار الحجام ينتفع بالحراث والحراث بالحجام وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحو السلاطين الصالحين للرعايا وعرفهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه ما اهتموا به إلى إصلاح الدنيا فضلا عما أوردوه من إصلاح الدين وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء باللائكة وكيف أصلح اللائكة بعضهم بعض إلى أن ينتهي إلى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالحجاز يجزب الصجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلح بالحصاد والحداد يصلح آلات الحراثة والتجار يصلح آلات الحداد وكذا جميع أرباب الصناعات الصالحين لآلات الأطمعة والسلطان يصلح الصناع والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم والعلماء يصلحون السلاطين واللائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف وكل ذلك نم من رب الأرباب ومسبب الأسباب ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - لما اهدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ولولا عزله إيانا عن أن نطمع بعين الطمع إلى الاحاطة بكنهه نعمه لتشوقنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء ولكنه تعالى عز لنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى - وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها - فان تكلمنا فإذنه انبسطنا وان سكتنا فقهره اتقضا ، إذ لا معطى لما منع ولا مانع لما أعطى لأننا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بنغم القلوب نداء الملك الجبار - لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار وأمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار .

(الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق اللائكة عليهم السلام)

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق اللائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهذا يتم وتبليغ الوحي إليهم ولا تظن أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات اللائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات: اللائكة الأرضية والسماوية وحملة المرش. فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والنفاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والارشاد وغيرهما. واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يفتدى إلا بأن يوكل بمسئلة من اللائكة هو أقره إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك ويأمنه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف ذلك الغذاء بصير دما في آخر الأمر ثم بصير لحمًا وعظما وإذا صار لحمًا وعظما ثم اغتداؤك بالدم والحجم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار فهي لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها ومجرد الطبع لا يكفي في تردها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحينًا ثم عجينًا ثم خبزًا مستديرا عجوزا الإصناع فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحمًا

[الباب الثاني والخمسون
في آداب الشيخ وما
يستمده مع الأصحاب
والتلامذة]

أم الآداب : أن
لا يتعرض الصادق
للتقدم على قوم ولا
يتعرض لاستجلاب
بواطنهم بلطف الرفق
وحسن الكلام حجة
للاستتباع فإذا رأى
أن الله تعالى يبعث
إليه المرشدين
والمرشدين بحسن
الظن وصدق الإرادة
يحذر أن يكون ذلك
ابتلاء وامتحانا من
الله تعالى والنفوس
عجولة على حجة إقبال
الخلق والشهرة وفي
الحجون السلامة، فإذا بلغ
الكتاب أجله وتمكن

وعظما وعروقا وعصبا إلا بصناع والصناع في الباطن هم الملائكة كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تنفل عن نعمه الباطنة . فأقول لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلا ولا بد من سابع يعنى التقادير في الإلصاق فيلحق بالمستدير مالا يبطل استدارته وبالعريض مالا يزيل عرضه وبالجوف مالا يبطل تجويفه ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فانه لو جمع مثلا من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على غده لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقتة بل ينبغي أن يسوق إلى الأجزاء مع رقتها وإلى الحدقة مع صفائها وإلى الأنف مع غلظها وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا بطلت الصورة وربما بعض المواضع وضعف بعض المواضع بل لو لم يرع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيم فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا إحدى الرجاين مثلا بقيت تلك الرجل كما كانت في حد الصغر وكبر جميع البدن فكنت ترى شخصا في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه البتة فمراعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوضة إلى ملك من الملائكة ولا تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فان محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول فهذه هي الملائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خير لك منهم وذلك في كل جزء من أجزائك الذي لا يتجزأ حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك تركنا تفضيل ذلك للإيجاز والملائكة الأرضية مددوم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيمن القدوس المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت جبار السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام، والأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحب ينجز من جانب إلى جانب (١) أكثر من أن تحصى فذلك تركنا الاستشهاد به . فان قلت فهلا فوضت هذه

(١) حديث الأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحب ينجز من جانب إلى جانب انتهى . ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الإسراء قال جبريل لحازن السماء الدنيا اتضح وفيه حتى آتى السماء الثانية فقال لحازنها اتضح الحديث ولهما من حديث أبي هريرة إن لله ملائكة سياحين يبلغونني عن أمتي السلام وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه على عبد ياليل فنادى ملك الجبال إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين الحديث ولهما من حديث أنس إن الله وكل بالرحم ملكا الحديث وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمي ما من نبت ينبت إلا وتحتته ملك موكل حتى يحصد الحديث وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو بحر البكر أوى وأمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاهما ضعيف ولطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف إن لله ملائكة ينزلون في كل ليلة يحسون الكلال عن دواب الغزاة إلا دابة في عنقها جرس والترمذي وحسنه من حديث ابن عباس قالت اليهوديا بالقاسم أخبرنا عن الرعد قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب ولمس من حديث أبي هريرة بينا رجل فلاة من الأرض سمع صوتا من سحابة اسق حديقة فلان فتحنى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة الحديث.

العبد من حاله وعلم بتعريف الله إياه أنه مراد بالارشاد والتعليم للمريد في فكهم حينئذ كلام الناصح المشفق الوالد الولد بما ينفعه في دينه ودنياه وكل مرید ومسترشد ساقه الله تعالى إليه يراجع الله تعالى في معناه ويكثر اللجأ إليه أن يتولاه فيه وفي القول معه ولا يتكلم مع المرید بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله مستعين به في الهداية للصواب من القول سمعت شيخنا بالنجيب السهروردي رحمه الله يوصي بعض أصحابه ويقول لا تكلم أحدا من الفقراء إلا في أصنى

الأفضل إلى ملك واحد ولم أفقر إلى سبعة أملاك والحظوة أيضا تحتاج إلى من يطحن أولانهم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيا ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثا ، ثم إلى من يعجن رابعا ، ثم إلى من يقطع كرات مدورة خامسا ، ثم إلى من يرقها رغفا ناعريضة سادسا ، ثم إلى من يصبها بالنور سابعا ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الانس ظاهرا ؟ . فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الانس وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة فلا يكون لكل واحد منهم إلا فضل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى - وما لنا إلاه مقام معلوم - فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثلهم في تعين مرتبة كل واحد منهم وفضله مثال الحواس الخمس فان البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ولا الشم يزاحمها ولا اللمس يزاحمها ولا اللمس يركبها وليس كاليد والرجل فانك قد تبطن بأصابع الرجل بطشا ضعيفا قزاحم به اليد وقد تضرب غيرك برأسك قزاحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالانسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والحبز فان هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الانسان واختلاف دواعيه فانه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل ولذلك نرى الانسان يطبع الله مرة ويصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته وذلك غير ممكن في طباع الملائكة بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية في حقهم فلا جرم لا يوصون الله مأمروهم ويفعلون ما يؤمرون ويسبحون الليل والنهار لا يفترون والراكع منهم رাকع أبدا والساجد منهم ساجد أبدا والقائم قائم أبدا لاختلاف في أفعالهم ولا فتور ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك ، فانك مهما جازمت الارادة بفتح الألف لم يكن للجنح الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك أخرى بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلا بإشارتك فهذا يشبهه من وجه ولكن يخالفه من وجه إذا الجنح لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتعا وإطاباقا والملائكة أحياء عالمون بما يعملون فاذن هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسموية وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها فانا لم نطول بذكرها ، فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها فكيف أحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات ، فاذن قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ثم قال - وذروا ظاهر الإثم وباطنه - فترك باطن الإثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدة وإضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعم الظاهرة ، بل أقول كل من عصى الله تعالى ولو في تطريفة واحدة بأن تفتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه في السموات والأرض وما بينهما فان كل ما خلقه الله تعالى حق للملائكة والسموات والأرض والحيوانات والنبات بعلمته نعمة على كل واحد من العباد قدتم به انتفاعه وإن انتفع غيره أيضا به فان لله تعالى في كل تطريفة بالجنح نعمتين في نفس الجنح إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعور سود ونعمة الله تعالى في سوادها أنها تجمع ضوء العين إذا لبياض يفرق الضوء والسواد يجمعه ونعمة الله تعالى في ترتيبها صفا واحدا أن يكون ما نال الهواء من الريح إلى باطن العين ومتشبها للأغذاء التي تتناثر في الهواء وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام ضهاوله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يصر فيجمع الأجناف مقدار ما تتشابك الأهداب فينظر من وراء شبك الشعر فيكون شبك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ثم إن أصاب الحدقة غبار فقد خلق

أوقانك ، وهذه وصية نافعة لأن الكحة تقع في سمع الريد الصادق كالجبة تقع في الأرض وقد ذكرنا أن الجبة الفاسدة تهلك وتضيع وفساد حبة الكلام بالهوى وقطرة من الهوى تكدر بحرا من العلم فسد الكلام مع أهل الصدق والارادة ينبغي أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان وكما أن اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحق عند البصير فيكون ناظرا إلى الله مصفيا إليه متلقيا ما يرد عليه مؤديا للأمانة فيه ثم ينبغي

أطراف الأجنان خادمة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للرآة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من التبار وخرجت الأقداء إلى زوايا العين والأجنان والقباب لما لم يكن لحدقة جن خلق له يد ينقراه على الدوام يسح بهما حدقيه ليصقلهما من التبار وإذا تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لا نقفاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نستأنفله كتابامة صودا فيه إن أمهل الزمان ومساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى ، فلنرجع إلى غرضنا فنقول : من نظر إلى غير محرم صد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الأجنان ولا تقوم الأجنان إلا بالعين والبرأس ولا الرأس إلا بجميع البدن ولا البدن إلا بالغذاء ولا الغذاء إلا بالسواء والأرض والهواء وللطرو والنيم والشمس والقمر ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسماوات ولا السماوات إلا باللائكة فان الكل كائى الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض فان كل نعمة في الوجود من منتهى الثريا إلى منتهى الترى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جاد إلا ولعنه وذلك ورد في الأخبار أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلغهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم^(١) وكذلك ورد أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر^(٢) وأن اللائكة يلغون العصاة^(٣) في أفعال كثيرة لا يمكن إحصاؤها وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة جن على جميع مافي الملك واللكوت وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها فيتبدل اللعن بالاستغفار فصى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : يا أيوب مامن عبد لى من الأدميين إلا ومعه ملكان فإذا شكرنى على نعمائى قال للكان اللهم زده نعماً على نعم فانك أهل الحمد والشكر فكن من الشاكرين قريباً فكفى بالشاكرين علو رتبة وعندى آى أشكر شكرهم وملائكتى يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكى عليهم ، وكما عرفت أن فى كل طرفة عين نعماً كثيرة فاعلم أن فى كل نفس ينسط وينقبض نعمتين إذا بنبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولولم يخرج لهلك وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سدت متفمه لاحترق قلبه باقطع روح الهواء وبرودته عنه وهلك بل اليوم واليلة أربع وعشرون ساعة وفى كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات فليلك فى كل لحظة آلاف آلاف نعمة فى كل جزء من أجزاء بدنك بل فى كل جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا ، ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - قال إلهى كيف أشكرك ولك فى كل شعرة من جسدى نعمتان أن لىف أصلها وأن طمست رأسها وكذا ورد فى الأثر أن من لم يعرف نعم الله إلا فى مطعمه وشربه قد قل علمه وحضر عذابه وجميع ما ذكرناه يرجع إلى اللطم والشرب فاعتبر ماسواه من النعم به فان البصير لا تقع عينه فى العالم على شيء ولا يلم خاطره بوجوده إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليك فلنترك الاستقصاء والتفصيل فانه طمع فى غير مطعم .

(بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر)

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغلظة فانهم منعو بالجهل والغلظة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إنهم ان عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التي أريدت بها وهى طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين العرفتين إلا غلبة الشهوة

(١) حديث إن البقعة التي اجتمع فيها الناس تلغهم أو تستغفر لهم لم أجده أصل (٢) حديث إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت فى البحر تقدم فى العلم (٣) حديث إن اللائكة يلغون العصاة مسلم من حديث أبى هريرة اللائكة تلغن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة وان كان أخاه لأيه وأمه.

للشيخ أن يعتبر حال الريدن ويتفرس فيه بنور الإيمان وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه ومن صلاحته واستمداده فمن الريدن من يصلح لتجدد المحض وأعمال القوالب وطريق الأبرار ومن الريدن من يكون مستعداً صالحاً للقرب وسلك طريق القربين المرادين بحمالة القلوب والعاملات السنية ولكل من الأبرار والقربين مباد ونهايات فيكون الشيخ صاحب الاشراف على البواطن يعرف كل شخص وما يصلح له والعجب أن الصحراوى

واستلاء الشيطان . أما النعمة عن النعم فلها أسباب وأحد أسبابها أن الناس يجملهم لا يدون مايم
الخلق وسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة فذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة
للخلق بمنزلة لهم في جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به فلا ينده نعمة ولا
ترام يشكرون الله على روح الهواء ولو أخذ بمختفهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حسبوا في
بيت حمام فيه هواء حار أو في بئر فيه هواء قتل برطوبة اللاء ماتوا غمافان ابلى واحدمهم شيء من
ذلك ثم نجار بما قدر ذلك نعمة وشكرا لله عليها وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقفا على أن تسلب
عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها فلا ترى
البصير يشكر صحة بصره إلا أن تسمى عينه فند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعده نعمة
ولما كانت رحمة الله واسعة وعمم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم ينده الجاهل نعمة وهذا الجاهل
مثل البصير السوء حقه أن يضرب دائما حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منه فان ترك ضربه على الدوام
غلبه البطر وترك الشكر فصار الناس لا يشكرون إلا اللال الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث
الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم كما شكوا بعضهم قمره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر
شدة اغتمامه به قال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم قال لا قال أيسرك أنك أعمى
ولك عشرة آلاف درهم فقال لا قال أيسرك أنك أقطع الدين والرجلين ولك عشرة آلاف درهم قال لا
قال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم فقال لا قال أما تستحي أن تشكو مولاك وله
عندك عروض بمخمسين ألفا . وحكى أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى في المنام
كأن قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار قال لا قال فسورة
هود قال لا قال فسورة يوسف قال لا فصد عليه سورا ثم قال فمك قيمته مائة ألف دينار وأنت تشكو
فأصبح وقد سرى عنه . ودخل ابن السكك على بعض الخلفاء ويده كوز ماء يشربه فقال له عطفى فقال
لو لم تعط هذه الثرية إلا ينل جميع أموالك وإلا بيت عطشان فهل كنت تعطيه قال نعم فقال لو لم
تعط إلا بملكك كله فهل كنت تتركه قال نعم قال فلا تفرح بملك لا يساوى شربة ماء فهذا تبين أن
نعمه الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها وإذا كانت الطباع مائلة
إلى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة ، وقد ذكرنا النعم العامة فلندكر إشارة وجيزة إلى النعم
الخاصة فتقول ما من عبد إلا ولو آمن النظر في أحوال الرأى من الله نعمة أو نعمنا كثيرة تخصه لا يشاركه
فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد وذلك يعترف به كل عبد
في ثلاثة أمور : في العقل والخلق والطم أما العقل فما من عبد لله تعالى إلا هو راض عن الله في عقله يعتقد
أنه أعقل الناس وقل من يسأل الله العقل وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به
للتصف به فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره لأنه إن كان كذلك فالشكر
واجب عليه وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه فمن وضع كثر أمت الأرض فهو
يفرح به ويشكر عليه فان أخذ الكثر من حيث لا يدري فينتج فرحه بحسب اعتقاده ويقتي شكره لأنه
في حقه كالباقي وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبها ويكرهها وأخلاقها يندمها وإنما يندمها من
حيث يرى قسه بريئا عنها فإذا لم يشتغل بدم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه
وابتلى غيره بالخلق السيء ، وأما العلم فما من أحد إلا وحرف من بواطن أمورهم وخبايا أفكاره
ما هو منعد به ولو كشف النطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لا تضح فكيف لو اطلع الناس كافة
فانذ لكل عبد غلم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله فلم لا يشكر من الله الجليل الذي
أرسله على وجه مساويه فأظهر الجليل ومتر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به

علم الأراضى والنروس
ويسلم كل غرس وأرضه
وكل صاحب صنعة يلم
منافع صنعه ومضارها
حتى للراءة تعلم قطنها
وما يتأتى منه من الفزل
ودقته وغلظه ولا يعلم
الشيخ حال للريد
وما يصلح له . وكان
رسول الله صلى الله
عليه وسلم يكلم الناس
على قدر عقولهم
ويأمر كل شخص بما
يصلح له فمنهم من كان
يأمره بالانفاق ومنهم من
أمره بالإسك ومنهم
من أمره بالكسب
ومنهم من قرره على
ترك الكسب كأصحاب
الصفة فكان رسول
الله صلى الله عليه وسلم

حتى لا يطلع عليه أحد فهذه ثلاثة من النعم خاصة يتعرف بها كل عبد إماما مطلقا وإماما في بعض الأمور فلتنزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلا فنقول : مامن عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقربه أو عزه أو وجهه أو في سائر محابه أمور لو سلب ذلك منه وأعطى ما خصص به غيره لكان لا يرضى به وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا وحيا لا مجادا وإنسانا لا بهيمة وذكرنا لأشئ وصحيفا لا مريضا وسليما لا معيبا فان كل هذه خصائص وإن كان فيها عموم أيضا فان هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميين أيضا وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به الأكر فأذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فإذا حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه إماما على الجملة وإماما في أمر خاص فاذن الله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواء وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد القبولين عنده فانه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لا يسوى ديناه بدينه أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارنها يعتذر إليها بأن في النفاق كثرة فينظر أبدا في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك فإذا كان حال أكثر الخلق في الدين خيرا منه وحاله في الدنيا خيرا من حال أكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكر، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا ومن نظر في الدنيا إلى من هو فوقه وفي الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا (١) » فاذن كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد الله تعالى على نفسه نعمًا كثيرة لا يساها من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك ولذلك قيل :

من شاء عيشا رحيبا يسطيل به في دينه ثم في دنياه إقبالا

فلينظرن إلى من فوقه ورعا ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله (٢) » وهذا إشارة إلى نعمة العلم وقال عليه السلام « إن القرآن هو الغنى الذي لا غنى بعده ولا فقر معه (٣) » وقال عليه السلام « من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله (٤) » وقال عليه السلام « ليس من آمن لم يتغن بالقرآن (٥) » وقال عليه السلام « كفى باليقين غنى (٦) » وقال بعض السلف يقول الله تعالى في بعض الكتب المنزلة

(١) حديث من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب وفيه التثنية بن الصباح ضعيف (٢) حديث من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله لم أجده بهذا اللفظ (٣) حديث إن القرآن هو الغناء الذي لا غناء بعده ولا فقر معه أبو يعلى والطبراني من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه قال الدارقطني رواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن مرسل وهو أشبه بالصواب (٤) حديث من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله البخاري في التاريخ من حديث رجاء القنوي بلفظ من آتاه الله حفظ كتابه ووطن أن أحدا أو تى أفضل مما أو تى قد صغر أعظم النعم وقد تقدم في فضل القرآن ورجاء مختلف في صحته وورد من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة (٥) حديث ليس من آمن لم يتغن بالقرآن تقدم في آداب التلاوة (٦) حديث كفى باليقين غنى الطبراني من حديث عقبة بن عامر ورواه ابن أبي الدنيا في الصنعة موقوفا عليه وقد تقدم.

يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد فأما في رتبة الدعوة فقد كان يعمم الدعوة لأنه مبعوث لإثبات الحججة وإيضاح الحججة يدعو على الإطلاق ولا يخصص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره . ومن أدب الشيخ أن يكون له خلوة خاصة ووقت خاص لا يسعه فيه معاناة الخلق حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ولا تدعى نفسه قوة ظنا منها أن استدامة المخالطة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه وأنه غير محتاج إلى الخلوة فان رسول الله

إن عبدا أغنيته عن ثلاثة لقد أعمت عليه نعمتي عن سلطان يأتيه وطيب يداويه وعمى في يد أخيه وعبر الشاعر عن هذا فقال :

إذا ما القوت يأتيك كذا الصحة والأمن

وأصبحت أخاصزن فلا فارقك الحزن

بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالصاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال « من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (١) » ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث مع أنها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به وصلوهم إلى النعيم القيم والملك العظيم بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من الشرق إلى المغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له خذها عوضا عن علك بل عن عشر علك لم يأخذها وذلك لرجائه أن نعمة العلم تنفض به إلى قرب الله تعالى في الآخرة بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بكأله فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلا عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذها لعله بأن لذة العلم دأمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تنصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لا كدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفي مرجوها بخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بنمها هكذا كانت إلى الآن وهكذا تكون ما بقي الزمان إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلبب بها العقول الناقصة وتخدع حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستصعبت كالمرأة الجميل ظاهرها تزين للشاب الشبق الفنى حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستصعبت عنه فلا يزال معها في تحب قائم وعناء دائم وكل ذلك باعتراره بللثة النظر إليها في لحظة ولو عقل وعض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره فهكذا وقت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها ولا ينبغي أن يقول إن العرض عن الدنيا متألم بالبصر عنها فإن القبل عليها أياضاً متألم بالبصر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها وتألم العرض يفضى إلى لذة في الآخرة وتألم القبل يفضى إلى الألم في الآخرة فليقرأ للعرض عن الدنيا طى نفسه قوله تعالى - ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون - فإذا نسيك طريق الشكر على الخلق لجهاهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامية . فان قلت فما علاج هذه القلوب العاقلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فساها تشكر . فأقول أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة وأما القلوب البليدة التي لاتمد النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها فسيبيله أن ينظر أبدا إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره بيلاء الأمراض ويشكر الله تعالى ويشاهد الجنة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب يشكر الله تعالى على عصمته من الجنائيات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا أما من عصى الله فليستدرك وأما من أطاع فلينزد في طاعته فان يوم القيامة يوم التضامن فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فلما أعظم غنبي إذ ضيقت بعض الأوقات في الباحات، وأما العاصي فبغته ظاهر فإذا شاهد المقابر

(١) حديث من أصبح آمنا في سربه الحديث تقدم غير مرة .

صلى الله عليه وسلم مع كمال حاله كان له قيام الليل وصلوات يصلها ويدوم عليها وأوقات يغلو فيها فطبع البشر لا يستغنى عن السياسة قل ذلك أو أكثر لطف ذلك أو كنف وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب اتخذ ذلك رأس ماله واغتر بطيبة قلبه واسترمل في المازجة والمخالطة وجعل نفسه مناخ للباطلين بلقمة تؤكل عنده ويرفق بوجود منه فيقصده من ليس قصده الدين ولا يقينه سلوك طريق للتقنين فافتن وأفتن وبقي في خطة القصور ووقع في

وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرف بقية العمر إلى ما ينبتسى أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر بل في الامهال في كل نفس من الأتقاس وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرّف العمر إلى ما خلق العمر لأجله وهو التزوّد من الدنيا والآخرة فهذا علاج هذه القلوب العاقلة لتشعر بنعم الله تعالى فصاها تشكروا وقد كان الربيع بن خيثم مع تمام استبصاره يستمين بهذه الطريق تأكيذا للمعرفة فكان قد حفر في داره قبرا فكان يضع غلّا في عنقه ويثام في لحده ثم يقول رب ارجعوني لعلّي أعمل صالحا ثم يقوم ويقول يارب يع قد أعطيت ما سألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد . ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بملزمة الشكر على النعم قلّ نعمة زالت عن قوم فعدت إليهم . وقال بعض السلف النعم وحشية قبيدها بالشكر وفي الخبر وما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه (١) فمن تهان بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه وتعالى - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - فهذا تمام هذا الركن .

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر (بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد)

لعلك تقول ماذا كرته في النعم إشارة إلى أن الله تعالى في كل موجود نعمة وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلا فإمعنى الصبر إذن وإن كان البلاء موجودا فإمعنى الشكر على البلاء وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء فضلا عن الشكر على النعمة فكيف يتصور الشكر على البلاء وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعي ألما والشكر يستدعي فرحا وهما يتضادان وما معنى ماذا كرتوه من أن الله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة والقول باثبات النعمة يوجب القول باثبات البلاء لأنهما متضادان ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه أما في الآخرة فكسعادة العبد بالتزول في جوار الله تعالى وأما في الدنيا فكالايمان وحسن الخلق وما يصيب عليهما وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويغسده من وجه فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى وإمامة وإمامة وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تفضي إلى البلاء المطلق وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه والعاصي يعرف أنه عاص فله ترك المعصية بل كل بلاء بقدر الانسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه فلو ترك الانسان الساء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته فاذن يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس بلاء مطلق بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر فان العنى مثلا يجوز أن يكون سببا لهلاك الانسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده

(١) ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه الحديث ابن عدى وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ إلا عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة الحديث ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال إنه موضوع على حجج الأعور .

دائرة الفتور لما يستغنى الشيخ عن الاستمداد من الله تعالى والتضرع بين يدي الله بقلبه إن لم يكن بقالبه وقلبه فيكون له في كل كلمة إلى الله رجوع وفي كل حركة بين يدي الله خضوع وإعجاب دخلت الفتنة على الغرورين المدعين للقوة والاسترسال في الكلام والمخالطة لقلة معرفتهم بصفات النفس واغترارهم بيسير من اللوثة وقلة تأديبهم بالشيوخ . كان الجنيد رحمه الله يقول لأصحابه لو علمت أن صلاة ركعتين لي أفضل من جلوسي معكم ما جلست عندكم فاذا رأي الفضل في الخلوة بخلو

والصحة أيضا كذلك لما من نعمة من هذه النعم الدينية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حاله فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبني قال الله تعالى - ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض - وقال تعالى - كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى - وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليحصى عبده للؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحصى أحدكم مريضه (١) » وكذلك الزوجة والولد والقريب وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق فانها يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضرارها إذن نعا في حقهم إذ قد سبق أن المعرفة كال نعمة فانها صفة من صفات الله تعالى ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ويكون قدما نعمة مثاله جهل الإنسان بأجله فانه نعمة عليه إذ لو عرفه ربما تنصص عليه العيش وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه إذ لو عرف الست واطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام وكذلك جهله بالصفات الذمومة من غيره نعمة عليه إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه في الدنيا والآخرة بل جهله بالخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فانه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهاتته ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لامحالة أعظم فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف. ومنها إيهام الله تعالى أمر القيامة وإيهامه ليلة القدر وساعة يوم الجمعة وإيهامه بعض الكبائر فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم وحيث قلنا إن لله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد في حق كل أحد ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس وهي أيضا قد تكون نعمة في حق للتألم بها فان لم تكن نعمة في حقه كالألم الحاصل من العصية كقطعه يد نفسه ووفعه بشرته فانه يتألم به وهو عاص به وألم الكفار في النار فهو أيضا نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لاني حقهم لأن مصائب قوم عند قوم فوائد ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتممون قدر نعمه ولا أكثر فرحهم بها ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تمسكروا في آلام أهل النار أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها من حيث إنها عامة مبدولة ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته ولكن زينة السماء لما سمت لم يعصروا بها ولم يفرحوا بسببها فاذن قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم فاذن في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على البتلى أو على غير البتلى فاذن كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعا . فان قات فهما متضادان فكيف يجتمعان إذ لا صبر إلا على غم ولا شكر إلا على فرح . فاعلم أن الشيء الواحد قد ينعم به من وجه ويفرح به من وجه آخر فيكون الصبر من حيث الاعتناء والشكر من حيث الفرح وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها . أحدها أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها إذ مقدرات الله تعالى لا تتناهى فلو ضحها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويججزها فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا. الثاني أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه . قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه دخل الصلص يتق

(١) حديث إن الله ليحصى عبده الدنيا الحديث الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .

وإذا رأى الفضل في
الجلوة يجلس مع
الأصحاب فتكون جلوته
في حماية خلوته وجلوته
مزيدا لخلوته وفي هذا
سر وذلك أن الأذى
ذو تركيب مختلف فيه
تضاد وتغابر على
ما أسلفنا من كونه
مترددا بين السفلى
والعلوى ولما فيه من
التغابر له حظ من
الفتور عن الصبر
على صرف الحق ولهذا
كان لكل عامل
فترة والفترة قد تكون
تارة في صورة العمل
وتارة في عدم الروح في
العمل وإن لم تكن في
صورة العمل ففي وقت
الفترة للمريد
والسالكين تضييع

وأخذ متاعى فقال اشكر الله تعالى لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال : اللهم لا تجعل مصيبتى في ديني، وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم إذ لم يكن في ديني وإذ لم يكن أعظم منه وإذ لم أحرم الرضا به وإذ أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحسبه السلطان فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه فقال له اشكر الله فضر به فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه فقال اشكر الله فجيء بمجوسى فحسب عنده وكان مبطونا قعيد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في رجل المجوسى فأرسل إليه فقال اشكر الله فكان المجوسى يحتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته فكتب إليه بذلك فقال اشكر الله فقال إلى متى هذا وأى بلاء أعظم من هذا فقال لو جعل الزنار الذى في وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع فاذن مامن إنسان قد أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل في سوء أدبه ظاهره أو باطنا في حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقصر على عشرة فهو مستحق للشكر ومن استحق عليك أن يقطع يدك فترك إحداها فهو مستحق للشكر ولذلك مر بعض الشيوخ في شارع فصب على رأسه طشت من رماد فسجد لله تعالى سجدة الشكر قليل له ماهذه السجدة فقال كنت أنتظر أن تصب على النار فلاقتصر على الرماد نعمة . وقيل لبعضهم ألا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتسبت الأمطار فقال أنتم تستبطون المطر وأنا أستبطىء الحجر . فان قلت كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار . فاعلم أن الكافر قد خفيء له ما هو أكثر وإنما أهمل حتى يستكبر عن الاثم ويطول عليه العقاب كما قال تعالى - إنما نعلمهم ليزدادوا إثما - وأما العاصى فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصى بالجوارح ولذلك قال تعالى في مثله - وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم - فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ثم اعلم قد أخرجت عقوبته إلى الآخرة وعجبت عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك وهذا هو الوجه الثالث في الشكر وهو أنه مامن عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون الصيبة فيخفف وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلى إذ أسباب التسلى مقطوعة بالسكينة في الآخرة عن المعذنين ومن عجبت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانيا إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابته شدة أو بلاء في الدنيا فإله أكرم من أن يعذبه ثانيا (١) » الرابع أن هذه الصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لا بد من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها فهذه نعمة . الخامس أن ثوابها أكثر منها فان مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين : أحدهما الوجه الذى يكون به الدواء الكرى نعمة في حق المريض ويكون النعم من أسباب اللب نعمة في حق الصبي فانه لو خلى واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب فكان يحسر جميع عمره فكذلك المال والأهل والأقارب

(١) حديث إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابه شدة وبلاء في الدنيا فإله أكرم من أن يعذبه ثانيا الترمذى وابن ماجه من حديث على من أصاب في الدنيا ذنبا عوقب به فإله أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده الحديث لفظ ابن ماجه وقال الترمذى من أصاب حدا فعجل عقوبته في الدنيا وقال حسن وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له الحديث.

واسترواح للنفس
وركون إلى البطالة فمن
بلغ رتبة الشيخية
انصرف قسم قترته إلى
الحلق فأفلق الحلق
بشم قترته وما ضاع
قسم قترته كضياعه في
حق الريدن فالمريد
يعود من الفترة بقوة
الشدّة ووحدة الطلب إلى
الإقبال على الله والشيخ
يكتسب الفضيلة من تقع
الحلق بقسم قترته
ويعود إلى أوطان
خلوته وخاص حاله
بنفس مشرّبة أكثر
من عود الفقير بسجدة
إرادته من قترته فيعود
من الحلق إلى الخلوة
منتزع القنور بقلب
متعشش وافر النور
وروح متخلصة عن

والأعضاء حتى العين التي هي أعر الأشياء قد تكون سببا لهلاك الانسان في بعض الأحوال بل العقل الذي هو أعر الأمور قد يكون سببا لهلاكه فالملحمة غدا يتمنون لو كانوا مجانين أو صبيانا ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى فإمن شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد وغدا يشكره العباد على البلايا إذا رآوا ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد فقد روى «أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني قال لا تتمم الله في شيء قضاء عليك (١)» «ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك فسل فقال عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن إن قضى له بالسراء رضى وكان خيرا له وإن قضى له بالضرراء رضى وكان خيرا له (٢)» «الوجه الثاني أن رأس الخطايا للهلكة حب الدنيا ورأس أسباب النجاة التجاني بالقلب عن دار المرور ومواناة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنه بها حتى تصير كالجنة في حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقه وإذا كثرت عليه المصائب اتزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سببا عليه وكانت نجاة منها غاية اللذة كإخلاص من السجن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٣)» والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأن إليها والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحزين إلى الخروج منها والكافر بعضه ظاهر وبعضه خفي ويقدر حب الدنيا في القلب يسرى فيه الشرك الخفي بل الموحد المطلق هو الذي لا يحب إلا الواحد الحق فاذن في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به وأما التألم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجانا أو يسقيك دواء نافعا بشما مجانا فانك تألم وتفرح فصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم أنه يخرج منها لا محالة فرأى وجهها حسنا لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالا وبلاء عليه لأنه يورثه الأناج بمنزل لا يمكنه التمام فيه ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نوره عن المقام كان ذلك نعمة عليه والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يؤمن بأن ثواب الصيبة أكبر من الصيبة لم يتصور منه الشكر على الصيبة. وحكي أن أعرابيا عزي ابن عباس على أبيه فقال :

(١) حديث قال له رجل أوصني قال لا تتمم الله في شيء قضاء عليك أحمد والطبراني من حديث عبادة بن يزيد في أوله وفي إسناده ابن لهيعة (٢) حديث نظر إلى السماء فضحك فسل فقال عجبت لقضاء الله للمؤمن الحديث مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء وضحك عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سرء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضرء صبر فكان خيرا له ولقناني في اليوم والليلة من حديث سعد بن أبي وقاص عجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابه خير حمد به وشكر الحديث (٣) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

مضيق مطالعة الأغيار
قائمة بحمد شفها الى
دار القرار . ومن
وظيفة الشيخ حسن
خلقه مع أهل الارادة
والطلب والنزول من
حقه فيما يجب من
التبجيل والتعظيم
للشايخ واستعماله
التواضع . حكي الرقي
قال كنت بصروكنا
في المسجد جماعة من
الفقراء جلوسا فدخل
الزقاق فقام عند
أسطوانة يركع فقلنا
بفرغ الشيخ من
صلاته وتقوم نسلم عليه
فلما فرغ جاء إلينا وسلم
علينا فقلنا نحن كنا
أولى بهذا من الشيخ
فقال ما عذب الله

اصبر نكن بك صابرين فاما صبر الرعية بعد صبر الراس
خير من الصباس أجرك بعدد والله خير منك للعباس

قال ابن عباس ما عزاني أحد أحسن من تزييته. والأخبار الواردة في الصبر على الصائب كثيرة قال الرسول
الله صلى الله عليه وسلم «من يرد الله به خيرا يصيبه»^(١) وقال عليه السلام «إذا وجهت إلى عبد
من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن
أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا. وقال عليه السلام «ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى
- إن الله وإنا إليه راجعون - اللهم أجرني في مصيبي وأغني خيرا منها إلا فضل الله ذلك به وقال صلى الله
عليه وسلم قال الله تعالى «من سلبت كرمته فجزاؤه الخلود في نارى والنظر إلى وجهى» وروى أن
رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي قال عليه السلام «لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه
إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره»^(٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل لتكون
له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى ينتلى يلاه في جسمه فيبلغها بذلك»^(٣) وعن جابر بن
الأرت قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه
قلنا يا رسول الله ألا تدعو الله تستنصره لنا فجلس عمرا لونه ثم قال «إن من كان قبلكم ليؤتى بالرجل
فيحفر له في الأرض حفيرة ويحما بالنشار فيوضع على رأسه فيجمل فرقتين ما يصره ذلك عن دينه»^(٤)
وعن علي كرم الله وجهه قال: أبعما رجل حبسه السلطان ظلما فمات فهو شهيد وإن ضربه فمات
فهو شهيد. وقال عليه السلام «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجحك ولا تذكر مصيبتك»
وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه: تولدون للووت وتعمرون للخراب وتعمرون للخراب وتعمرون للخراب
ما سبق الأحبنا للكروهات الثلاث الفقر والمرض واللوت. وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم «إذا أراد الله بعبده خيرا وأراد أن يصابه صب عليه البلاء صبا ونجحه عليه نجا فإذا دعاه قالت
الملائكة صوت معروف وإن دعاه ثانيا فقال يارب قال الله تعالى ليلىك عبيدى ومعديك لا تسألنى
شيئا إلا أعطيتك أودفت عنك ما هو خير وادخرت لك عندي ما هو أفضل منه فإذا كان يوم القيامة
جىء بأهل الأعمال فوقوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ثم يؤتى بأهل البلاء
فلا يصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا

(١) حديث من يرد الله به خيرا يصيب منه البخارى من حديث أبى هريرة (٢) حديث أن
رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه
إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره ابن أبى الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث
أبى سعيد الخدرى بإسناد فيه لين (٣) حديث أن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل
حتى ينتلى يلاه في جسمه فيبلغها بذلك أبو داود في رواية ابن داسه وابن العبد من حديث محمد بن
خالد السلمى عن أبيه عن جده وليس في رواية الثؤلوى ورواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى من هذا
الوجه ومحمد بن خالد لم يرو عنه إلا أبو الليث الحسن بن عمر الرقى وكذلك لم يرو عنه خالد إلا ابنه محمد
وذكر أبو نعيم أن ابن منده سمى جده اللجلاج بن سليم فأنه أعلم وطى هذا فأنه خالد بن اللجلاج
العامرى ذلك مشهور روى عنه جماعة ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر فى الصحابة من
رواية عبد الله بن أبى ياس بن أبى فاطمة عن أبيه عن جده ورواه البيهقى من رواية إبراهيم
السلمى عن أبيه عن جده فأنه أعلم (٤) حديث جابر بن الأرت أتينا رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكونا إليه الحديث تقدم.

قلبي بهذا قطبى
ما تقيدت بأن أحترم
وأقصد. ومن آداب
الشيخ النزول إلى
حال المريدين من
الرفق بهم وبسطهم.
قال بعضهم: إذا رأيت
الفقير الله بالرفق ولا
تلقه بالعلم فإن الرفق
يؤنسك والعلم يوحشه
فاذا فصل الشيخ
هذا المعنى من الرفق
يتدرج للريد بركة
ذلك إلى الانتفاع
بالعلم فيعامل حينئذ
بصرح العلم. ومن
آداب الشيخ
التعطف على الأصحاب
وقضاء حقوقهم فى
الصحة والمرض ولا
يترك حقوقهم اعتادا
على إرادتهم وصدقهم

فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تعرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب « فذلك قوله تعالى - إنعابوا في الصابرون أجرهم بغير حساب (١) - وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال شكاني من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال يارب العبد المؤمن يطيعك ويحسب معاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويحترى عليك وظى معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا فأوحى الله تعالى إليه إن العباد لي والبلاء لي وكل يسبح بحمدي فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني فأجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته . وروى أنه لما نزل قوله تعالى - من يعمل سوءا يجز به - قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ألسنت تعرض ألسنت يصيبك الأذى ألسنت تحزن فهذه مما تجزون به (٢) » يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك . وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا رأيت الرجل يحطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ثم قرأ قوله تعالى - فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء - (٣) » يعني لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير حتى إذا فرحوا بما أوتوا مما عطاوا من الخير أخذناهم بغتة . وعن الحسن البصري رحمه الله أن رجلا من الصحابة عرض الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية فكلمها ثم ركها فجعل رجل يلتفت إليها وهو يمشى فصدمه حائط فأثر في وجهه فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعبد خيرا محمل له عقوبة ذنبه في الدنيا (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما أكرمكم بأرجى آية في القرآن قالوا بلى فقرأ عليهم - وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير - فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار فإذا عاقبه الله في الدنيا فآفه أكرم من أن يعذبه ثانيا وإن عفا عنه في الدنيا فآفه أكرم من أن يعذبه يوم القيامة وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة بصبر الرجل لها ولا قطرت قطرة

(١) حديث أنس إذا أراد الله بعبد خيرا وأراد أن يصابه صب عليه البلاء صبا الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن أنس أخصر منه دون قوله فإذا كان يوم القيامة إلى آخره وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرارين عمرو وهو أيضا ضعيف (٢) حديث لما نزل قوله تعالى - من يعمل سوءا يجز به - قال أبو بكر الصديق كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ألسنت تعرض » الحديث من رواية من لم يسم عن أبي بكر ورواه الترمذي من وجه آخر بلفظ آخر وضعفه قال وليس له إسناده صحيح وقال الدارقطني وروى أيضا من حديث عمرو ومن حديث الزبير قال وليس فيها شيء ثبت (٣) حديث عقبة بن عامر إذا رأيت الرجل يحطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج الحديث أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن (٤) حديث الحسن البصري في الرجل الذي رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشى فصدمه حائط الحديث وفيه إذا أراد الله بعبد خيرا محمل له عقوبة ذنبه في الدنيا أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعا ومتصلا ووصله الطبراني أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ورواه أيضا من حديث ابن عباس وقد روى الترمذي وابن ماجه الرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذي .

قال بعضهم لا تضع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة . وحكى عن الجريري قال وافيت من الحج فابتدأت بالجيد وصلت عليه وقلت حتى لا يتنى ثم أتيت منزلي فلما صليت الغداة التفت وإذا بالجيد خلني فقلت يا سيدي إنما ابتدأت بالسلام عليك لكيلا تتعنى إلى ههنا فقال لي يا أبا محمد هذا ححك وذاك فضلك . ومن آداب الشيوخ أنهم إذا عدوا من بعض المترشدين ضعفا في مراعاة النفس وقهرها واعتاد صدق العزيمة أن يرققوا

أحب إلى الله من قطرة دم أهرقت في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله ، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة وخطوة إلى صلة الرحم (١) . وعن أبي الدرداء قال : توفي ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأناه ملكان فجثيا بين يديه في زى الحصى ، فقال أحدهما : بذرت بذرا فلما استحصد مر به هذا فأفده ، فقال للآخر ما تقول ، فقال أخذت الجادة فأنتيت على زرع فنظرت يمينا وشيلا فاذا الطريق عليه ، فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق أماعلت أن لا بد للناس من الطريق . قال فلم تحزن على ولدك أماعلت أن اللوت سبيل الآخرة فتاب سليمان إلى ربه ولم يجزع على ولد بعد ذلك . ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال يابى : لأن تسكون في ميزاني أحب إلى من أن أكون في ميزانك ، فقال يابى : لأن يكون ما أحب من أن يكون ما أحب . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه نعى إليه ابنة له فاسترجع وقال عورة سترها الله تعالى ومؤنة كفاها الله وأجر قد ساقه الله ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال قد صنعنا ما أمر الله تعالى . قال تعالى - واستعينوا بالصبر والصلاة - . وعن ابن المبارك أنه مات له ابن فزراه مجوسى يعرفه ، فقال له يبنى للعاقل أن يفعل اليوم ما يفضله الجاهل بعد خمسة أيام ، فقال ابن المبارك كتبوا عنه هذه . وقال بعض العلماء إن الله ليتلى العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمضى على الأرض وماله ذنب . وقال الفضيل : إن الله عز وجل ليعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يعاهد الرجل أهله بالخير . وقال حاتم الأصم إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان وعلى الفقراء بالمسيح وعلى العبيد يوسف وعلى المرضى بأبواب صلوات الله عليهم . وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل واحتفى في الشجرة ضر فوذلك فجسى بالمفشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المفشار إلى رأس زكريا فأن منه أنه فأوحى الله تعالى إليه يا زكريا لأن صدقت منك أنه ثانية لأحونك من ديوان النبوة فضض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين . وقال أبو السعود البلخي : من أصيب بعصية فزرق ثوبا أو ضرب صدره فكأنما أخذ رجحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل . وقال لقمان رحمه الله لابنه : يا بني إن الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء فاذا أحب الله قوما ابتلام ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط . وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوما أشتكى ضرسى ، فقلت لعنى ماتمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثا ، فقال : لقد أكثرت من ضرسك في ليلة واحدة وقد ذهبت عينى هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد : وأوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام إذا نزلت بك بلية فلا تشكى إلى خلقى واشك إلى كالأشكوك إلى ملائكتى إذا صدعت مساوبك وفضاحك نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل في الدنيا والآخرة .

به ويوقوه على حد الرخصة ففي ذلك خير كثير وما دام العبد لا يتخطى حريم الرخصة فهو حرم إذائت وخالط الفقراء وتدرج بالرفق إلى أوطان العزعة . قال أبو سعيد بن الأعرابي كان شاب يعرف إبراهيم الصانع وكان لأبيه نعمة فاقطع إلى الصوفية ومحب أبا أحمد القلاشى فربما كان يقع يد أبي أحمد شيء من الدرهم فكان يشتري له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول هذا خرج من الدنيا وقد تعود

(١) حديث أنس ما تجرع عبد قط جرتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث على بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي منكر الحديث وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر باسناد جيد ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظلمها عبدا بتفاء وجه الله وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل الحديث وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفدكي منكر الحديث .

(بيان فضل النعمة على البلاء)

لكل تقول هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم فهل لنا أن نسأل الله البلاء .
فأقول لا وجه لذلك لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان يستعبد في دعائه من
بلاء الدنيا وبلاء الآخرة (١) » وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام « ربنا آتنا في الدنيا حسنة
وفي الآخرة حسنة (٢) » وكانوا يستعبدون من شجاعة الأعداء وغيرها (٣) . وقال على كرم الله وجهه
اللهم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله البلاء فأسأله العافية (٤) » وروى
الصديق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سلوا الله العافية فما
أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين (٥) » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك
فحافية القلب أهل من عافية البدن . وقال الحسن رحمه الله الحير الذي لا شرف فيه العافية مع الشكر
فكم من منعم عليه غير شاكر . وقال مطرف بن عبد الله لأن أعاقي فأشكر أحب إلي من أن أتبني فأصبر
وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « وعافيتك أحب إلي (٦) » وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل
واستشهاد وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين : أحدهما بالاضافة إلى ما هو أكثر منه إمامي الدنيا أوفى
الدين ، والآخر بالاضافة إلى ما يرجى من الثواب فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من
البلاء ويسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته فإنه قادر على أن يعطي على الشكر ما لا يعطيه
على الصبر . فان قلت : فقد قال بعضهم أود أن أكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم
فينجون وأنا في النار وقال ممنون رحمه الله تعالى :

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاخترني

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء فاعلم أنه حكى عن ممنون المحب رحمه الله أنه بلى بدم هذا البيت بجملة الحصر
فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان : ادعوا العمم الكذاب ، وأماحجة الانسان
ليكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ولكن قد تنلب المحبة على القلب حتى يظن المحب بنفسه
حبا لمثل ذلك فمن شرب كأس المحبة سكر ومن سكر توسع في الكلام ولوزايله سكره علم أن ما غلب
عليه كان حالة لا حقيقة لها فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط بهم وكلام العشاق

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعبد في دعائه من بلاء الدنيا والآخرة أحمد من حديث
بشربن أبي أرطاة بلفظ أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة وإسناده جيد ولأبي داود من حديث
عائشة اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة وفيه بقية وهو مدلس ورواه بالنعنة
(٢) حديث كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا
عذاب النار البخاري ومسلم من حديث أنس كان أكثر دعوة يدعوها النبي صلى الله عليه وسلم يقول
اللهم آتنا في الدنيا الحديث ولأبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن السائب قال سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركنين ربنا آتنا الحديث (٣) حديث كان يستعبد من شجاعة
الأعداء تقدم في الدعوات (٤) حديث قال صلى الله عليه وسلم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم
لقد سألت الله البلاء فله العافية الترمذي من حديث معاذ في أثناء حديث وحسنه ولم يسم عليا وإنما
قال سمع رجلا وله وللنسائي في اليوم والليلة من حديث على كنت ما كنا نرى في رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأنا أقول الحديث وفيه فان كان بلاء فصرني فضربه برجله وقال اللهم عافه واشفه وقال حسن
صحيح (٥) حديث أبي بكر الصديق سلوا الله العافية الحديث ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة بإسناد
جيد وقد تقدم (٦) حديث وعافيتك أحب إلي ذكره ابن اسحق في السيرة في دعائه يوم خرج إلى
الطائف بلفظ وعافيتك أوسع لي وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسل

النعمة فيجب أن تفرق
به وتؤثره على غيره .
ومن آداب الشيوخ
التزهد عن مال المرید
وخدمته والارتفاق
من جانبه بوجه من
الوجوه لأنه جاء الله
تعالى فيجعل نفسه
وإرشاده خالصا لوجه
الله تعالى فما يسدى
الشيخ للمريد من
أفضل الصدقات .
وقد ورد « ماتصدق
متصدق بصدقة أفضل
من علم بيته في الناس »
وقد قال الله تعالى
تنزيها على خلوص
الله وحراسته من
الشوائب - إنا نطمعكم
لوجه الله لا يريد منكم
جزاء ولا شكورا - فلا
ينبغي للشيخ أن يطلب

يستلذ سماعه ولا يجول عليه كما حكى أن فاختة كان يراودها زوجها فتعنه فقال ما الذي يمنعك عنى ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لعلمته لأجلك فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال يابني الله كلام العشاق لا يعنكى وهو كما قال ، وقال الشاعر :

أريد وصاله ويريد هجرى فأتى ما أريد لما يريد

وهو أيضا محال وممنه أنى أريد ما لا يريد لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر فكيف أراد الهجر الذى لم يرد به بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين : أحدهما أن يكون ذلك فى بعض الأحوال حتى يكتب به مرضاه الذى يتوصل به إلى مراد الوصال فى الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب والوسيلة إلى المحبوب محبوبة فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهما فى درهمين فهو يحب الدرهمين يترك الدرهم فى الحال . الثانى أن يصبر مرضاه عنده مطلوب ما من حيث إنه مرضاه فقط ويكون له لذة فى استشماره مرضاه محبوه منه تزيد تلك اللذة على لذته فى مشاهدته مع كراهته فند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا فلا ذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم فى البلاء مع استشمارهم مرضاه الله عنهم أكثر من لذتهم فى العافية من غير شعور الرضا فهو لاء إذا قدر وارضاه فى البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية وهذه حالة لا يعدو وقوعها فى غلبات الحب ولكنها لا تثبت وإن ثبتت مثلا فهل هى حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فالت به عن الاعتدال هذا فيه نظر وذكر تحقيقه لا يلىق بما نحن فيه وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى الثناء بفضلته على جميع خلقه العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين .

(بيان الأفضل من الصبر والشكر)

اعلم أن الناس اختلفوا فى ذلك فقالوا الصبر أفضل من الشكر وقال آخرون الشكر أفضل وقال آخرون هما سيات وقال آخرون مختلف ذلك باختلاف الأحوال واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل فلامنى للتطويل بالنقل بل البادرة إلى إظهار الحق أولى فتقول فى بيان ذلك تمامان : المقام الأول البيان على سبيل التساهل وهو أن ينظر الى ظاهر الأمر ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته وهو البيان الذى ينبغى أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة وهذا الفن من الكلام هو الذى ينبغى أن يعتمد الوعاظ إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم والنظر المشفقة لا ينبغى أن تصلح الصبي الطفل بالطيور السان وضروب الحلاوات بل باللبن اللطيف وعليها أن تؤخر عنه أطيب الأطعمة إلى أن يصير ممكنا لها بوقته ويفارق الضعف الذى هو عليه فى بنيتها فتقول : هذا المقام فى البيان بأى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضى تفضيل الصبر فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة فى فضله فاذا أضيف إليه ما ورد فى فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر بل فيه ألفاظ صريحة فى التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ^(١) » وفى الخبر « يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له : أما ترضى أن يجزيك كما جزينا هذا الشاكر ، فيقول نعم يارب فيقول الله تعالى : كلا أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لأضعف لك الأجر عليه فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين ^(٢) » وقد قال الله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - وأما قوله « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر ^(٣) »

ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسندا وفيه من يجهل (١) حديث من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر تقدم (٢) حديث يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض الحديث لم أجده أصلا (٣) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن هريرة وقد تقدم .

على صدقته جزاء إلا أن يظهر له فى شيء من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى فى قبول الرفق منه أو صلاح يراه للشيخ فى حق المرید بذلك فىكون التلبس بالله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على المرید مأمونة الفائسة من جانب الشيخ قال الله تعالى - يؤتىكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فيضحكم تبخلوا ويخرج أضغانكم - معنى يحضكم أى يجهدكم وبلح عليكم . قال قتادة : علم الله تعالى أن فى خروج المال إخراج الأضغان وهذا

فهو دليل على أن الفضيلة في الصبر إذ ذكر ذلك في معرض البالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر وهو كقوله صلى الله عليه وسلم «الجمعة حجج السالكين وجهاد للرأفة حسن التبعيل (١)» وكقوله صلى الله عليه وسلم «شارب الخمر كما يبد الوثن (٢)» وأبدا الشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم «الصبر نصف الإيمان» لا يدل على أن الشكر مثله ، وهو كقوله عليه السلام «الصوم نصف الصبر» فإن كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفاً وإن كان بينهما تفاوت كما يقال الإيمان هو العلم والعمل فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أن العمل يساوي العلم ، وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه (٣)» وفي خبر آخر «يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً (٤)» وفي الخبر «أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام (٥)» وكل ما ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر لأن الصبر حال الفقير والشكر حال الغني، فهذا هو المقام الذي يتبع العوام ويكفيهم في الوعظ اللائق والتعريف لمآقيه صلاح دينهم . المقام الثاني : هو البيان الذي قصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بمقائق الأمور بطريق الكشف والايضاح فنقول فيه : كل أمرين مبهمين لا يمكن للموازنة بينهما مع الإبهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا يمكن للموازنة بين الجملة والجملة بل يجب أن تفرد الأحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان

(١) حديث الجمعة حجج السالكين وجهاد للرأفة حسن التبعيل المحرث بن أبي أسامة في مسنده بالشرط الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف أو الطبراني بالشرط الثاني من حديثه بسند ضعيف أيضاً أن امرأة قالت كتب الله الجهاد على الرجال فابعد ذلك من أعمالهم من الطاعة قال طاعة أزواجهن وفي رواية ماجزء غزوة المرأة قال طاعة الزوج الحديث وفيه القاسم بن فياض وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقي رجاله ثقات (٢) حديث شارب الخمر كما يبد الوثن ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ مدمن الخمر ورواه بلفظ شارب الخمر بن أبي أسامة من حديث عبدالله بن عمر وكلاهما ضعيف وقال ابن عدى إن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصهباني (٣) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه الطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل يدخل الأنبياء كلمه قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاماً وقال لم يروه إلا شعيب بن خاله وهو كوفي ثقة ، وروى البزار من حديث أنس أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي عبدالرحمن بن عوف وفيه أغلب بن نجيم ضعيف (٤) حديث يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً تقدم حديث معاذ قبله ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ودينار الحبشي أحد الكذابين على أنس والحديث منكر (٥) حديث أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه باب واحد الحديث لم أجده أصلاً ولا في الأحاديث الواردة في مصاريع أبواب الجنة تفرقة ، فروى مسلم من حديث أنس في الشفاعة والذي نس محمد يده إن ما بين للمصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كابين مكة وبصرى ولي الصحيحين في خطبة عتبة بن غزوان ولقد ذكر لنا أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيم من الزحام .

تأديب من الله الكريم
والأدب أدب الله .
قال جعفر الخلدی جاء
رجل إلى الجنيد وأراد
أن يخرج عن ماله
كله ويجلس معهم
على الفقر فقال له الجنيد
لا تخرج من مالك
كله احبس منه مقدار
ما يكفيك وأخرج
الفضل وتوت بما
حبست واجتهد في
طلب الحلال لا تخرج
كل ما عندك فاست
آمن عليك أن
تطالبك تصك وكان
النبي عليه السلام إذا
أراد أن يعمل عملاً
ثبت وقد يكون
الشيخ يعلم من حاله
للريد أنه إذا خرج
من الشيء يكسبه من

والنقصان مع الاجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه اللقائات تنتظم من أمور ثلاثة : علوم وأحوال وأعمال والشكر والصبر وسائر اللقائات هي كذلك وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها البعض للاح للناظرين في الظواهر أن العلوم تراد للأحوال والأحوال تراد للأعمال والأعمال هي الأفضل. وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك فإن الأعمال تراد للأحوال والأحوال تراد للعلوم فالأفضل للعلوم ثم الأحوال ثم الأعمال لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه . وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد المعارف وأفضل المعارف علوم الكاشفة وهي أرفع من علوم للعامة بل علوم للعامة دون العامة لأنها تراد للعامة ففائدتها إصلاح العمل وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمه بما يمّمّ نفسه ، فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل وإلا فالعالم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر فنقول : فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفضاله فأرفع علوم للكاشفة معرفة الله سبحانه وهي الغاية التي تطلب لذاتها فإن السعادة تتال بها بل هي عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها في الآخرة فهي للحرّة التي لا قيد عليها فلا تتقيد بغيرها وكل ما عداها من المعارف عبيد وخم بالإضافة إليها فإنها إما تراد لأجلها ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نوعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى فإن بعض المعارف يفضى إلى بعض إما بواسطة أو بوسائط كثيرة فكما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقلّ فهي أفضل . وأما الأحوال فعنى بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق حتى إذا طهر وصفا تضح له حقيقة الحق فاذن فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره وإعداده لأن تحصله علوم للكاشفة ، وكما أن تصفية المرآة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال المرآة بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض فكذلك أحوال القلب فالحالة القريبة أو القريبة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لأحالة بسبب القرب من المقصود وهكذا ترتيب الأعمال فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه وكلّ عمل إيمان يجلب إليه حالة مانعة من للكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا وإما أن يجلب إليه حالة مهينة للكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه واسم الأول العصية واسم الثاني الطاعة والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال ، وذلك أنا بالقول للطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة وأن الحج أفضل من الصدقة وأن قيام الليل أفضل من غيره ولكن التحقيق فيه أن النقي القدي معه مال وقد غلبه البخل وحبّ المال على إمساكه فأخرج الدرهم له أفضل من قيام ليل وصيام أيام لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها أو منعه الشبع عن صفاء القسرك من علوم للكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع فأما هذا للدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضرّ شهوة بطنه ولا هو مشغول بنوع فكر يمنعه الشبع منه فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره وهو كالمرضى الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به بل حقه أن ينظر في الهلك الذي استولى عليه والشح الطامع من جملة الهلكات ولا يزال صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرّة بل لا يزاله إلا إخراج المال فعليه أن يتصدّق بما معه ، وتفصيل هذا مما ذكرناه في ربيع للهلكات فارجع إليه فاذن باعتبار هذه الأحوال يختلف وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب للطلق فيه خطأ

الحال ما لا يتطلع به إلى اللال فينتد بجوز له أن يفسح للريد في الخروج من اللال كما فسح رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وقبل منه جميع ماله ، ومن آداب الشيخ إذا رأى من بعض الريدين مكروها أو علم من حاله اعوجاجا أو أحس منه بدعوى أو رأى أنه داخله عجب أن لا يصرح له بالمكروه بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذي يعلم ويكشف عن وجه الذممة مجلا فحصل بذلك الفائدة لكل فهذا أقرب إلى الداراة وأكثر أثرا لتألف

إذ لو قال لنا قائل الخير أفضل أم الماء لم يكن فيه جواب حق إلا أن الخير للجائع أفضل والماء للعطشان أفضل فإن اجتماعا فلينظر إلى الأغلب فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل وإن كان الجوع أغلب فالخير أفضل فإن تساويا فهما متساويان وكذا إذا قيل السكجيين أفضل أم شراب الينوفرم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا ، نعم لو قيل لنا السكجيين أفضل أم عدم الصفراء . فنقول : عدم الصفراء لأن السكجيين مراد له وما يراد لغيره فلذلك الغير أفضل منه لاهالة فاذن في بذل المال عمل وهو الإنفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب وتيسر القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وجهه فالأفضل للمعرفة ودونها الحال ودونها العمل . فإن قلت قد حث الشارع على الأعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات جهوه - من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا - وقال تعالى - ويأخذ الصدقات - فكيف لا يكون الفعل والاتفاق هو الأفضل . فاعلم أن الطبيب إذا أتى على الدواء لم يبدل على أن الدواء مراد لغيره أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلوب مما لا يشعر به ظاهرا فهو كبرص على وجه من لمرأة معه فإنه لا يشعر به ولو ذكر له لا يصدق به وبالسييل معه للبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا إن كان ماء الورد يزيل البرص حتى يستحبه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه فإنه لو ذكر له أن القصد زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا يعب فيه ولتضرب مثلا أقرب من هذا فنقول : من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليقب له محفوظا لقال إنه محفوظ ولا حاجة إلى تكرار ودراسة لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبدا وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجليل لتوفر دواعيته على كثرة التكرار بالتعليم فربما يظن الصبي السكين أن القصد تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم فيشكل عليه الأمر فيقول ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقد علمه دون تكلمي به وأعلم أنه لا نقصان لأبي بقصد هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن فربما يتكاسل هذا للسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على استثناء أبيه وعلى كرمه في الضو عنه فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبرا محروما من حيث لا يدري وقد انخس بمنزل هذا الخيال طائفة وسلوكوا طريق الإباحة وقالوا إن الله تعالى غنى عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا فأى معنى لقوله - من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا - ولو شاء الله إتمام السكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم كما قال تعالى حكاية عن الكفار - وإذ قيل لهم اتقوا ما رزقكم الله قالوا الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمهم وقالوا أيضا - لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا - فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل يصل به كثير أو يهدى به كثيرا فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل السكين والفقراء أو لأجل الله تعالى ثم قالوا لاحظنا في السكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أقتنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتوكله في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا وإنما كان ذلك من الوالد تلطفا به في استجراره إلى ما فيه سعادته ، فهذا المثاليين لك ضلال من ضل من هذا الطريق فاذن للسكين الأخذ لما يستوفى بواسطة المال حيث البخل وحب الدنيا من باطنك فإنه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بمخرج الدم العلة الهلكة من باطنك فالجوامع خادم لك لا أنت خادم للجوامع ولا يخرج الجوامع عن كونه خادما بأن يكون له

القلوب وإذا رأى من
للريد تقصيرا في خدمة
نديه إليها يحمل تقصيره
ويغفو عنه ويعرضه
على الخدمة بالرفق
واللين وإلى ذلك نذب
رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيما أخبرنا
ضياء الدين عبد الوهاب
ابن علي قال أنا أبو الفتح
الكروخي قراءة عليه
قال أنا أبو نصر الترياق
قال أنا أبو محمد الجراحي
قال أنا أبو العباس
المجوبى قال أنا أبو عيسى
الترمذى قال ثنا حنيفة
قال ثنا رشدين بن
سعد عن أبي هلال
الحولاني عن ابن
عباس بن جليد
الحجري عن عبد الله بن

غرض في أن يصنع شيئا بالدم ولما كانت الصدقات مطهرة للواطن ومزكية لها عن خبايا الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها واتهمى عنها (١) كما نهى عن كسب الحجام وصماها أو ساع أموال الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها (٢) والتصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربيع الهلكات والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة فهذا هو القول الكلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف ولنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فتقول في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في الآخر بل يقابل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب وبه التناسب يظهر التفضل ومهما قولت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة المينين مثلا من الله تعالى ومعرفة الصابر أن يرى العمى من الله وهما معرفتان متلازمتان متساويتان هذا إن اعتبرتا في البلاء والصاب وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن اللصية وفيها يتعد الصبر والشكر لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو التصود منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى فالصبر والشكر فيه إيمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة وهو أن يصرع به باعث الشهوة وقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه فاذن مجازي الصبر ثلاثة : الطاعة والصلية والبلاء وقد ظهر حكمها في الطاعة والصلية وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلا وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال أما العينان فصر الأعمى عنهما بأن لا يظهر تشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى في غض الماصي وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين : أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية ، والآخر أن يستعملهما في الطاعة وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر فإن الأعمى كفى الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها والبصير إذا وقع بصره على جبل فصر كان شاكرا لنعمة المينين وإن أتبع النظر كفر نعمة المينين فقد دخل الصبر في شكره وكذا إذا امتعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضا فيه من صبر على الطاعة ثم قد يشكرها بالنظر إلى هجاب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويتركه على وضوء ذلك محال جدا لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين وشكرها باستعمالها فيها هي آلة فيه من الدين وذلك لا يكون إلا بصبر وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد القبر ووجود الزيادة نعمة وشكرها أن تصرف إلى الخيرات أو أن لا تستعمل في المعصية فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل لأنه تضمن الصبر أيضا وفيه فرح بنعمة الله

(١) حديث التهمي عن كسب الحجام تقدم (٢) حديث امتنع من الصدقة وصماها أو ساع الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها مسلم من حديث عبد اللطيف بن ربيعة إن هذه الصدقة لا تحل لنا إنما هي أوساخ القوم وإنما لا تحل لمحمد ولا لآل محمد وفي رواية له أوساخ الناس .

عمر قال جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال يا رسول الله كم أعفو عن الخادم قال «كل يوم سبعين مرة» وأخلاق للشايع مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أحق الناس باحياء سنته في كل ما أمر وتندب وأنكروا وأوجب ومن جملة مهام الآداب حفظ أسرار للرديين فيها يكاشفون به ويمتنعون من أنواع للنسح فسر الرديد لا يتعدى ربه وشيخه ثم يحقر الشيخ في نفس للرديد ما يجده في خلوته من كشف أو سماع خطاب أو شيء من خوارق العادات يعرفه

تعالى وفيه احتمال أهم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التمتع المباح وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد وأن الجملة أسمى رتبة من البعض وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أعضائها وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على مصيبة بل يصرفه إلى التمتع المباح فالصبر هنا أفضل من الشكر والفقير الصابر أفضل من الغني للمسك ماله الصارف إياه إلى المباحات لا من الغني الصارف ماله إلى الخيرات لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسرتهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى وهذه الحالة تستدعي لامحالة قوة والغنى أتبع نعمته وأطاع شهوته ولكنه انصرف على المباح والمباح فيه مندوحة عن الحرام ولكن لا بد من قوة في الصبر عن الحرام أيضا إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أسمى وأتم من هذه القوة التي يصدر عنها الاقتصاد في التمتع على المباح والشرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها فإن الأعمال لا تتراد إلا الأحوال القلوب وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان فمادله على زيادة قوة في الإيمان فهو أفضل لامحالة وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار إنما أريد به هذه الرتبة على المحصر لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال والغنى بها والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المصيبة لأن بصرفها إلى الطاعة ، فاذن الصبر أفضل من الشكر أي الصبر الذي فهمه العامة أفضل من الشكر الذي فهمه العامة وإلى هذا الغنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث مثل عن الصبر والشكر أيهما أفضل فقال ليس مدح الغنى بالوجود ولا مدح الفقير بالعدم وإنما المدح في الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما فشرط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلامم صفته وتمتعها وتلذذها والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلامم صفته وتقبضها وتزججها فاذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذي آلم صفته وأزججها أتم حالا ممن منع صفته ونعمها والأمر على ما قاله وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم الأخير الذي ذكرناه وهو لم يرد سواء ويقال كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة فكان يقول دعوة الجنيد أصابني ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت أن لكل واحد من القولين وجهها في بعض الأحوال فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر وذلك هو الغنى الذي يرى نفسه مثل الفقير إذ لا يمكن لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين وللساكنين وإنما ينتظر حاجه تسنح حتى يصرف اليه ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاء وصيت ولا تقليد منه بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عباده فهذا أفضل من الفقير الصابر . فان قلت فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذلك يستشعر ألم الصبر فان كان متألما بفراق المال فينجبر ذلك ببلائه في القدرة على الانفاق . فاعلم أن الذي نراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكل حالا ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقتطعه عن نفسه قهرا وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة في أيام النفس ليس مطلوب العين بل لتأديتها وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب التآدب أكل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابرا على الضرب ولذلك يحتاج إلى الإيلاء والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليها في النهاية بل النهاية أن يصير ما كان مؤلما في حقه للذينة عنده كما يصير التلم عند الصبي العاقل للذينا وقد كان مؤلما له أولا ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين في البداية بل قيل البداية بكثير كالصبيان أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته أفضل وهو كما قال صحيح فيما أراه من عموم الحلق ، فاذا إذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر

أن الوقوف مع شيء
من هذا يشغل عن
الله ويسد باب المزيد
بل يعرفه أن هذه نعمة
تشكر ومن ورائها نعم
لا تحصى ويعرفه أن
شأن المزيد طلب التمتع
لأن النعمة حتى يبقى سره
محفوظا عند نفسه
وعند شيخه ولا يذيع
سره فاذا دعا الأسرار
من ضيق الصدر
وضيق الصدر
الوجب لإذاعة السر
يوصف به النسوان
وضغفاء العقول من
الرجال وسبب إذاعة
السر أن للإنسان قوتين
أخذة ومعطية وكلتاها
تتشوف إلى الفصل
المختص بها ولولا أن
الله تعالى وكل للمعطية
بإظهار ما عندها

فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فانه صحيح فالعنى السابق إلى الأفهام فإذا أردت التحقيق فصل فان للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا إذ الصبر مع التأمل والرضا يمكن بمال الألم فيه ولا فرح والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ويدخل في جملتها أمور دونها فان حياة العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ومعرفة بتقصيره عن الشكر شكر والاعتذار من قلة الشكر شكر والمعرفة بعظيم حلم الله وكف ستره شكر والاعتراض بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والألم بأن الشكر أيضا نعمة من نعم الله وهو هبة منه شكر وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسائط شكر إذ قال عليه السلام من لم يشكر الناس لم يشكر الله (١) وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة وقلة الاعتراف وحسن الأدب بين يدي النعم شكر وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها وهي درجات مختلفة فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار وقد روى عن بعضهم أنه قال رأيت في بعض الأسفار شيخا كبيرا قد طعن في السن فسألته عن حاله فقال إنى كنت في ابتداء عمرى أهوى ابنة عم لى وهى كذلك كانت تهوانى فانفق أنهما زوجت منى فليتقز فافها قلت تعالى حتى نحبي هذه الليلة شكرا لله تعالى على ما جمنا فضليننا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك فصلينا طول الليل فنذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة ليس كذلك يا فلانة قالت العجوز هو كما يقول الشيخ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة أن لو لم يجمع الله بينهما وأنسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل فاذا ن لاوقوف على حقائق الفضلات لا بتفضيل كما سبق والله أعلم .

﴿ كتاب الخوف والرجاء ﴾

(وهو الكتاب الثالث من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه الخوف مكره وعقابه الذى عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائنه والعدول عن دار بلائه التى هى مستقر أعدائه وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المرصين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته وصددهم عن التعرض لأثمه والتهدف لسخطه ونقمته قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق والالطف إلى جنته ، والصلاة على محمد سيد أنبيائه وخير خلقته وعلى آله وأصحابه وعترته .

[أما بعد] فان الرجاء والخوف جناحان بهما يطير القربون إلى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كشود فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوقا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الألم مع كونه محفوقا بلطائف السموات وعجائب اللذات إلا بسياط التخويف وسطوات التعنيف فلا بد إذن من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادها وتمازجها ونحن

(١) حديث من لم يشكر الناس لم يشكر الله تقدم في الزكاة .

﴿ كتاب الرجاء والخوف ﴾

ما ظهرت الأسرار
فكامل العقل كلما
طلبت القوة الفعل
قيدها ووزنها بالعقل
حتى يضمها في مواضعها
فيجل حال الشيوخ
عن إذاعة الأسرار
لرزانة عقولهم وينبئ
للريد أن يحفظ سره
من به في ذلك صحته
وسلامته وتأيد الله
سبحانه وتعالى له
بتدارك الزيدتين
الصادقين في مورد
ومصدرهم .

[الباب الثالث]
والحمس في حقيقة
الصحة وما فيها من
الحير والشر []
للتقى للصحة وجود
الجنسية وقد يدعو
إليها أعم الأوصاف

نجمع ذكرها في كتاب واحد يشتمل على شطرين الشطر الأول في الرجاء والشطر الثاني في الخوف أما الشطر الأول فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء والطريق الذي يجتلب به الرجاء .

(بيان حقيقة الرجاء)

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين وإنما يسمى الوصف مقاما إذا ثبت وأقام وإنما يسمى حالا إذا كان عارضا سريع الزوال وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجع وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام فالذي هو غير ثابت يسمى حالا لأنه يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب وغرضنا الآن حقيقة الرجاء فالرجاء أيضا يتم من حال وعلم وعمل فالعلم سبب يثمر الحال والحال يقتضي العمل وكان الرجاء اسما من جملة الثلاثة وبيانه أن كل ما يلائقك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظر في الاستقبال فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكرا وتذكرا وإن كان ما خطر بقلبك موجودا في الحال سمي وجدا وذوقا وإدراكا وإنما سمي وجدا لأنها حالة تجدها من نفسك وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمي انتظارا وتوقعا فإن كان ينتظر مكروها حصل منه ألم في القلب سمي خوفا وإشفاقا وإن كان محبوبا حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وإرتياح سمي ذلك الارتياح رجاء فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه قاسم الرجاء عليه صادق وإن كان ذلك انتظارا مع انحرام أسبابه واضطرابها قاسم التروير والحرق عليه أصدق من اسم الرجاء وإن لم تسكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء قاسم التني أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه أما ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب لأن ذلك مقطوع به ، نعم يقال أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه وقد علم أن باب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض والإيمان كالبذر فيه والطاعات جازية تجرى تلقيا الأرض وتطهيرها وتجري حفر الأنهار وسياقة الماء إليها والقلب يستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه كما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد للغيره برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ثم نقي الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات للفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمي انتظاره رجاء وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ثم انتظر الحصاد منه سمي انتظاره حقا وغرورا لارجاء وإن بث البذر في أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تلب الأمطار ولا يتمتع أيضا سمي انتظاره تمنا لارجاء ، فإذا نسي اسم الرجاء وإنما صدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والفسدات فالعبد إذا بث بذر الإيمان وسقاء بماء الطاعات

وقد يدعو إليها أخص الأوصاف فالدعاء بأعم الأوصاف كليل جنس البشر بعضهم إلى بعض والدعاء بأخص الأوصاف كليل أهل كل ملة بعضهم إلى بعض ثم أخص من ذلك كليل أهل الطاعة بعضهم إلى بعض وكليل أهل العصية بعضهم إلى بعض فإذا علم هذا الأصل وأن الجاذب إلى الصعبة وجود الجنسية بالأعم تارة وبالأخص أخرى فليفتقد الإنسان نفسه عند الليل إلى صعبة شخص وينظر ما الذي يميل به إلى صعبته وزن أحوال من يميل إليه بيزان الشرع فإن

وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى تثبيتته على ذلك إلى اللوت وحسن الخاتمة للفضية إلى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى اللوت وإن قطع عن بند الإيمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق واتهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر للمغفرة فانتظاره حق وغرور قال صلى الله عليه وسلم « الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة (١) » وقال تعالى - خلف من بدم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا - وقال تعالى - خلف من بدم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا - ودم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال - ما أظن أن تبده هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا - فاذن العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة وأما المعاصي فاذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير حقيق بأن يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة إذا كان كارها للمعصية تسوء السيئة وتسره الحسنه وهو يذم نفسه ويلومها ويشهى التوبة ويشتاق إليها حقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى مجرى السبب الذي قد يفضي إلى التوبة وإنما الرجاء بدتأكد الأسباب ولذلك قال تعالى - إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله - معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يحزم على التوبة والرجوع فرجاءه المغفرة حق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهد بسقى ولا تقيح. قال يحيى ابن معاذ من أعظم الاعتزاز عندى التماسي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة وانتظار زرع الجنة يندر النار وطلب دار الطيعين بالمعاصي وانتظار الجزاء بغير عمل والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط :

رجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليابس

فاذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب وهذه الحالة تتميز بالجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان فان من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاءه فلا يزال عمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدا وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتقر عن تعهدا أصلا إلى وقت الحصاد وهذا لأن الرجاء يضاهي اليأس واليأس يمنع من التعهد فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت فيترك لهالة تفقد الأرض والتعب في تعهدا والرجاء محمود لأنه باعث واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل والخوف ليس بضده للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة فاذن حال الرجال يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كما فتقلت الأحوال ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف في التعلق له فان هذه الأحوال لا بد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الأشخاص فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى فان كان لا يظهر فليستدبل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمنى فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل

(١) حديث الأحمق من أتبع نفسه هواها الحديث تقدم غير مرة .

رأى أحواله مسددة
فليشر نفسه بحسن
الحال فقد جعل الله
تعالى مرآته مجلوة
يلوح له في مرآة أخيه
جمال حسن الحال وإن
رأى أفضاله غير مسددة
فليرجع إلى نفسه بالآئمة
والإهام فقد لاح له في
مرآة أخيه سوء حاله
قبالجدير أن خر منه
كفراره من الأسد
قائما إذا اصطحبا
ازدادا ظلمة واعوجاجا
ثم إذا علم من صاحبه
الذي مال إليه حسن
الحال وحكم لنفسه
بحسن الحال طالع ذلك
في مرآة أخيه فليعلم أن
الميل بالوصف الأعم
مركوز في جبلته والميل
بطرفه واقع وله

ويدل على إيماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم «جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال كيف أصبحت قال أصبحت أحب الخير وأهله وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحننت إليه فقال هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هيأك لها ثم لا يبالي في أي أوديتها هلكت فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير فمن ارتجى أن يكون مراد بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور (١)».

(بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه)

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له والحب يوجب الرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لثوابه ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغبان لاسياً في وقت الموت قال تعالى - لا تقنطوا من رحمة الله - فحرم أصل اليأس وفي أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه أنتدري لم فرقت بينك وبين يوسف لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجى ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى (٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء (٣)» ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في النزع فقال كيف تجدك فقال أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتماع في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله مارجاً وأمنه مما يخاف (٤)» وقال صلى الله عليه وسلم ما أخرج الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه يا هذا بأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وقال سفيان : من أذنب ذنباً فعمل أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله له ذنبه قال لأن الله عز وجل عير قوماً فقال - وذلكم ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم - وقال تعالى - وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً - وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره فإن لعنة الله حجته قال يارب رجوتك وخفت الناس قال فيقول الله تعالى قد غفرت لك (٥)» وفي الخبر الصحيح «أن رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المسر فلقي الله ولم يعمل خيراً قط فقال الله عز وجل من أحق بذلك منا (٦)» فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات وقال تعالى - إن الذين يتلون كتاب الله

(١) حديث قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد الحديث الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وفيه أنه قال أنت زيد الخير وكذا قال ابن أبي حاتم سباه النبي ﷺ الخير ليس يروى عنه حديث وذكره في حديث يروى قيام زيد الخير فقال بالرسول الله الحديث سمعت أبي يقول ذلك (٢) حديث لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله مسلم من حديث جابر (٣) حديث أنا عند ظن عبدي بي ما شاء ابن حبان من حديث وائل بن الأسقع وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله فليظن بي ما شاء (٤) حديث دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في النزع فقال كيف تجدك الحديث الترمذي وقال غريب والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي إسناده جيد (٥) حديث إن الله يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره الحديث ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد وقد تقدم في الأمر بالمعروف (٦) حديث أن رجلاً كان يداين الناس فيسامح ويتجاوز عن المسر الحديث مسلم من حديث أبي مسعود حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المسر قال الله عز وجل من أحق بذلك يتجاوزوا عنه وانفق عليه من حديث حذيفة

بحسبه أحكام والنفس بسببه سكن وركون فيسلب الميل بالوصف الأعم جدوى الميل بالوصف الأخص ويصير بين للتصاحبين استرواحات طبيعية وتلذذات جبلية لا يفرق بينها وبين خلوص الصحبة لله إلا العلماء الزاهدون وقد يفسد الريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما يفسد بأهل الفساد ووجه ذلك أن أهل الفساد علم فساد طريقتهم فأخذ حذره وأهل الصلاح غره صلاحهم فقال إليهم بحسبة الصلاحية ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية حالت بينهم وبين

وأقاموا الصلاة وأتقوا بما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور - ولما قال صلى الله عليه وسلم
 ولو تعلمون ما أعلم لضحككم قليلا ولبكيكم كثيرا ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون إلى
 ربكم فهبط جبريل عليه السلام قال إن ربك يقول لك لم تقنط عبادي غفرج عليهم ورجام
 وشوقهم (١) « وفي الخبر «إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أحب من محبي وخيبي إلى
 خلقي فقال يارب كيف أحبيك إلى خلقك قال اذكرني بالحسن الجميل واذكر الآثي وإحساني وذكركم
 ذلك فانهم لا يعرفون مني إلا الجميل (٢) « ورؤي أبان بن أبي عياش في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء
 فقال أوقفني الله تعالى بين يديه فقال ما الذي حملك على ذلك قلت أردت أن أحبيك إلى خلقك فقال
 قد غفرت لك ورؤي يحيى بن أكرم بعد موته في النوم قيل له ما فعل الله بك فقال أوقفني الله بين
 يديه وقال يا شيخ السوء فطمت وطلت قال فأخذني من الرعب ما يعلم الله ثم قلت يارب ما هكذا
 حدثت عنك فقال وما حدثت عنى قلت حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن
 نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام أنك قلت أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء
 وكنت أظن بك أن لاتخذني فقال الله عز وجل صدق جبريل وصدق نبي وصدق أنس وصدق
 الزهري وصدق معمر وصدق عبد الرزاق وصدقت قال فألبست ومشى بين يدي الولدان إلى الجنة
 قلت يا لها من فرحة . وفي الخبر «أن رجلا من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم قال
 فيقول له الله تعالى يوم القيامة اليوم أويستك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها (٣) « وقال صلى الله
 عليه وسلم «إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان فيقول الله تعالى
 لجبريل اذهب فائتني بعبدى قال فيجىء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى كيف وجدت مكانك
 فيقول شرمكان قال فيقول ردوه إلى مكانه قال فيمشى ويلتفت إلى ورائه فيقول الله عز وجل إلى
 أى شىء تلتفت فيقول لقد رجوت أن لاتعبدنى إليها بعد إذ أخرجتني منها فيقول الله تعالى اذهبوا
 به إلى الجنة (٤) « فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

(بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب)

اعلم أن هذا الدواء محتاج إليه أحد رجلين إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة وإما رجل غلب
 عليه الخوف فأسرف في اللواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله وهذان رجلان مائلان عن
 الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال فأما المعاصي للترور
 التمنى على الله مع الاعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب مموما مهلكة في حقه
 وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة بل
 الترور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق
 متلطفا ناظرا إلى مواقع العلل معالجا لكل علة بما يضاعها لا بما يزيد فيها فان المطلوب هو العدل

وأبي هريرة بنحوه (١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحككم قليلا ولبكيكم كثيرا الحديث وفيه فهبط جبريل
 الحديث ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة فأوله متفق عليه من حديث أنس ورواه زيادة ولخرجتم
 إلى الصعدات أحمد والحاكم وقد تقدم (٢) حديث إن الله تعالى أوحى إلى عبده داود عليه السلام
 أحب من محبي الحديث لم أجده أصلا وكان من الاسرائيليات كالذي قبله (٣) حديث أن رجلا
 من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم الحديث زواه البيهقي في الشعب عن زيد بن أسلم
 فذكره مقطوعا (٤) حديث إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة يتأذى يا حنان يا منان
 الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله واليهيقي في الشعب وضعفه من حديث أنس .

حقيقة الصبغة
 فاكسب من طريقهم
 الفسور في الطلب
 والتخلف عن بلوغ
 الأرب فليتبه الصادق
 لهذه الهدفة وتأخذ
 من الصبغة أصنى
 الأقسام وينذر منها
 مايسد في وجهه للرام
 قال بعضهم هل رأيت
 شراقت إلا ممن تعرف
 ولهذا النعى أنكر
 طائفة من السلف
 الصبغة ورأوا الفضيلة
 في العزة والوحدة
 كإبراهيم بن آدم
 وداود الطائي وفضيل
 ابن عياض وسليمان
 الخواص وحكى عنه
 أنه قيل له جاء إبراهيم
 ابن آدم أمانتاه قال
 لأن ألقى سبعا ضاريا

والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوسطها فإذا حاز الوسط إلى أحد الطرفين عوج لما رده إلى الوسط لاجبا يزيد في ميده عن الوسط وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء بل للبالغة في التخوف أيضا تكاد أن لاتردم إلى جادة الحق وسنن الصواب فأما ذكر أسباب الرجاء فيلهم ويرد بهم بالسكية ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ولم يكن غرض الوعاط إلا استئالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فسادا وازداد التهمكون في طغيانهم تماديا قال على كرم الله وجهه إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله . ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فانهما مشتعلان على الخوف والرجاء جميعا لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لاستعمال الأخرق الذي يظن أن كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان . وحال الرجاء يطلب بشيئين أحدهما الاعتبار والأخر استقراء الآيات والأخبار والآثار . أما الاعتبار فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا ومحاسن حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعد له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كآلات الغذاء وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحرمة الشفتين وغير ذلك مما كان لا يتأمل بفقده غرض مقصود وإنما كان يفوت به مزية جمال فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عبادة في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم الزايد والزايا في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياتهم إلى الهلاك المؤبد بل إذا نظر الانسان نظرا شافيا علم أن أكثر الخلق قد همى له أسباب السعادة في الدنيا حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت وإن أخبر بأنه لا يمتد بعد للموت أبدا مثلا أو لا يمتد أصلا فليست كراحتهم لعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لا محالة وإنما الذي يتخفى للموت نادر ثم لا يتمناه إلا في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا القالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا يجعلها تبديلا فالغالب أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدير الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم فهذا إذا توأمل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء ومن الاعتبار أيضا النظر في حكمة الشريعة وستنها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء قليل له وما فيها من الرجاء فقال الدنيا كلها قليل ورزق الانسان منها قليل والدين قليل عن رزقه فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه .

الفن الثاني استقراء الآيات والأخبار : لما ورد في الرجاء خارج عن الحصر أما الآيات فقد قال تعالى - قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم - وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يزال إنه هو الغفور الرحيم (١) وقال تعالى - والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض - وأخبر تعالى أن النار أعداها لأعدائه وإنما خوف بها أوليائه فقال - لهم من فوقهم ظلمل من النار ومن تحتهم ظلمل ذلك يخوف الله به عباده - وقال تعالى - واتقوا النار التي أعدت للكافرين - وقال تعالى - فأنذرتكم نارا تنظلي لأصلاها

(١) حديث قرأ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يزال الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب .

أحب لي من أن ألقى إبراهيم بن آدم قال لأنى إذا رأته أحسنه كلامى وأظهر قسى باظهار أحسن أحوالها وفى ذلك القنة وهذا كلام عالم بنفسه وأخلاقها وهذا واقع بين المصاحبين إلا من عصمه الله تعالى . أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي إجازة قال أنا الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد قال أنا أبو القاسم اسمعيل بن مسعدة قال أنا أبو عمرو محمد بن عبد الله بن أحمد قال أنا أبو سليمان أحمد بن محمد الحظان قال أنا محمد بن بكر بن عبد الرزاق قال حدثنا

إلا الأشتى الذي كذب وتولى - وقال عز وجل - وإن ربك لئذو مغفرة للناس على ظلمهم - ويقال « إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية - وإن ربك لئذو مغفرة للناس على ظلمهم - (١) » وفي تفسير قوله تعالى - ولسوف يعطيك ربك قرضى - قال لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله - قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله - الآية ونحن أهل البيت تقول أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى - ولسوف يعطيك ربك قرضى - وأما الأخبار فقد روى أبو موسى عنه عليه السلام أنه قال « أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمي رجل من أهل الكتاب قليل هذا فداؤك من النار (٢) » وفي لفظ آخر « يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودي أو نصراني إلى جهنم فيقول هذا فدائي من النار فيلقى فيها (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمى من فينج جهنم وهي حظ المؤمن من النار (٤) » وروى في تفسير قوله تعالى - يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه « أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام أني أجعل حساب أمتك إليك قال لا يارب أنت أرحم بهم مني فقال إذن لا تخزيك فيهم (٥) » وروى عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلى ثلاث يطلع على مساوئهم غيري فأوحى الله تعالى إليهم هم أمتك وهم عبادي وأنا أرحم بهم منك لا أجعل حسابهم إلى غيري لثلاث تنظر إلى مساوئهم أنت ولا غيرك (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « حياتي خير لكم وموتي خير لكم أما حياتي فأسن لكم السنن وأشجع لكم الشرائع ، وأما موتي فإن أعمالكم تعرض على فما رأيت منها حسنا حمدت الله عليه وما رأيت منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم (٧) »

(١) حديث إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزل عليك وإن ربك لئذو مغفرة للناس على ظلمهم لم أجده بهذا اللفظ وروى ابن أبي حاتم والثعلبي في تفسيرهما من رواية علي بن زيد بن جدعان عن سميد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله وتجاوزة ما هنا أحد العيش الحديث (٢) حديث أبي موسى أمة مرحومة لا عذاب عليها عجل عقابها في الدنيا الزلازل والفتن الحديث أبو داود دون قوله فإذا كان يوم القيامة الخ فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث الذي يليه (٣) حديث يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودي أو نصراني إلى جهنم الحديث مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار وفي رواية له لا يعوت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا (٤) حدث الحمى من فينج جهنم وهي حظ المؤمن من النار أحمد من رواية أبي صالح الأشعري عن أبي أمامة وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه (٥) حديث إن الله أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أني أجعل حساب أمتك إليك فقال لا يارب أنت خير لهم مني الحديث في تفسير قوله تعالى - يوم لا يخزي الله النبي - ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله (٦) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلى الحديث لم أقفله على أصل (٧) حديث حياتي خير لكم وموتي خير لكم الحديث البزار من حديث عبد الله بن مسعود وورجاله رجال الصحيح إلا أن عبد الحميد بن عبد العزيز بن أبي داود وإن أخرجه له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي قد ضعفه كثيرون ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بنحوه باسناد ضعيف.

سليمان بن الأشعث قال ثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الرحمن بن أبي صهيم عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن » قال الله تعالى إخبارا عن خليله إبراهيم - واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي - استظهر بالقرآن على قومه . قيل : العزلة نوعان فريضة وفضيلة فالفريضة العزلة عن الشر وأهله

وقال صلى الله عليه وسلم يوما «يا كريم الغفور قال جبريل عليه السلام أتدرى ما تفسير يا كريم الغفور هو إن عفا عن السيئات برحمة بدلها حسنات بكرمه (١)» وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول «اللهم إني أسألك تمام النعمة قال هل تدري ما علم النعمة؟ قال لا، قال دخول الجنة (٢)» قال العلماء قد آمَنَ الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا إذ قال تعالى - وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً وفي الخبر «إذا أذنب العبد ذنباً فاستغفر الله يقول الله عز وجل ملائكته انظروا إلى عبدى أذنب ذنباً فلم أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم أنى قد غفرت له (٣)» وفي الخبر «لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له ما استغفرتنى ورجاني (٤)» وفي الخبر «لوقيتنى عبدى بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقراب الأرض مغفرة (٥)» وفي الحديث إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه وإلا كتبها سيئة (٦)» وفي قسط آخر «فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات تلقى عنه السيئة» وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال «إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه قال أعرابي وإن تاب عنه قال عى عنه قال فان عاد قال النبي صلى الله عليه وسلم يكتب عليه قال الأعرابي فان تاب قال عى من صميمته قال إلى متى؟ قال إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل إن الله لا يعل من الغفرة حتى يعل العبد من الاستغفار فإذا آمَنَ العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها فان عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى إلى سبعمائة ضعف وإذا آمَنَ بخطيئة لم تكتب عليه فاذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل (٧)» وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوماً يا كريم الغفور قال جبريل تدرى ما تفسير يا كريم الغفور الحديث لم أجده عن النبي صلى الله عليه وسلم وللوجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل هكذا رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد ورواه البيهقي في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال حدثني بعض الزهاد فذكره (٢) حديث سمع رجلاً يقول اللهم إني أسألك تمام النعمة الحديث تقدم (٣) حديث إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى ملائكته انظروا إلى عبدى أذنب ذنباً فلم أن له ربا يغفر الذنب الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ إن عبداً أصاب ذنباً فقال أى رب أذنبت ذنباً فاغفرلى الحديث وفي رواية أذنب عبد ذنباً فقال الحديث (٤) حديث لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء الحديث الترمذى من حديث أنس يابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك وقال حسن (٥) حديث لوقيتنى عبدى بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقرابها مغفرة مسلم من حديث أبي ذر ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشركنى شيئا لقيته بمثلها مغفرة وللترمذى من حديث أنس الذى قبله يابن آدم لوقيتنى الحديث (٦) حديث إن للملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبه عليه الحديث قال وفي لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشر الحديث البيهقي في الشعب من حديث ابن أمية بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضاً أطول منه وفيه إن صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال وليس فيه أنه يأمر صاحب الشمال بإلقاء السيئة حتى يلقي من حسناته واحدة ولم أجده لذلك أصلاً (٧) حديث أنس إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه قال أعرابي فان تاب عنه قال عى عنه قال فان عاد الحديث وفيه إن الله لا يعل من التوبة حتى يعل العبد من الاستغفار

والفضيلة عزلة الغفول وأهله ويجوز أن يقال فالحلوة غير العزلة فالحلوة من الأغيار والعزلة من النفس وما تنعو إليه وما يشغل عن الله فالحلوة كثيرة الوجود والعزلة قليلة الوجود. قال أبو بكر الوراق ما ظهرت الفتنة إلا بالخطيئة من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا وما سلم إلا من جانب الخلطة وقيل السلامة عشرة أجزاء تسعة في الصحة وواحد في العزلة وقيل الحلوة أصل والخلطة عارض فليزِم الأصل ولا يخالط إلا بقدر الحاجة وإذا خالط لا يخالط إلا بحجة وإذا خالط يلازم

«يارسول الله إني لأصوم إلا الشهر لأزيد عليه ولا أصلي إلا الخمس لأزيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع : أين أنا إذ امت قتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : نعم معي ، إذا حفظت قلبك من اثنتين : الغل والحسد ، ولسانك من اثنتين : الغيبة والكذب ، وعينك من اثنتين : النظر إلى ما حرم الله ، وأن تزدري بهما مسلما دخلت معي الجنة على راحتي هاتين (١) » وفي الحديث الطويل لأنس « أن الأعرابي قال يارسول الله من يلي حساب الخلق ؟ قال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه ؟ قال نعم فتبسم الأعرابي فقال صلى الله عليه وسلم ضحكك يا أعرابي فقال إن الكريم إذا قدر عفا وإذا حاسب سامح ، قال النبي صلى الله عليه وسلم صدق الأعرابي ألا لا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الأكرمين ثم قال لله الأعرابي (٢) » وفيه أيضا « إن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبدا هدمها حجرا حجرا ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولي من أولياء الله تعالى . قال الأعرابي ومن أولياء الله تعالى قال المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى أما صمت قول الله عز وجل - الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور - » وفي بعض الأخبار « المؤمن أفضل من الكعبة (٣) » « وللمؤمن طيب طاهر (٤) » « وللمؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة (٥) » وفي الخبر « خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده إلى الجنة (٦) » . وفي خبر آخر « يقول الله عز وجل

الصمت فإنه أصل
والكلام عارض ولا
يتكلم إلا بحجة فخطر
الصحة كثير يحتاج
العبد فيه إلى مزيد
علم والأخبار والآثار
في التحذير عن
الخلطة والصحة

الحديث البيهقي في الشعب بلفظ جاء رجل ، فقال يارسول الله : إني أذنبت ذنبا . قال استغفر ربك قال فاستغفر ثم أعود . قال فإذا عدت فاستغفر ربك ثلاث مرات أو أربع . قال فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو للسجور المحسور وفيه أبو بدر يسار بن الحكم اللصري منكر الحديث وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر أحدنا يذنب . قال يكتب عليه قال ثم يستغفر ويتوب قال يغفر له ويتاب عليه قال فيعود الحديث وفيه لا يعمل الله حتى تملوا وليس في الحديثين قوله في آخره فإذا هم العبد بحسنة الخ وهو في الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يرويه عن ربه فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فإن هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة زاد مسلم في رواية أو عمها الله ولا يهلك على الله إلا هالك ولهما نحوه من حديث أبي هريرة (١) حديث جاء رجل ، فقال يارسول الله إني لأصوم إلا الشهر لأزيد عليه ولا أصلي إلا الخمس لأزيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع الحديث تقدم (٢) حديث أنس الطويل قال أعرابي يارسول الله من يلي حساب الخلق قال الله تبارك وتعالى فقال هو بنفسه قال نعم فتبسم الأعرابي الحديث لم أجده أصلا (٣) حديث المؤمن أفضل من الكعبة ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفسى بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا ، وشيخه نصر ابن محمد بن سليمان الحمصي ضمه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وقد تقدم (٤) حديث المؤمن طيب طاهر لم أجده بهذا اللفظ . وفي الصحيحين من حديث حذيفة المؤمن لا ينجس (٥) حديث المؤمن أكرم على الله من الملائكة ابن ماجه من رواية أبي الهيثم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة بلفظ المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة وأبو الهيثم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف (٦) حديث خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده

كثيرة والكتب بها
مشحونة . وأجمع
الأخبار في ذلك ما أخبرنا
الشيخ الثقة أبو الفتح
باسناده السابق إلى
أبي سليمان قال حدثنا
أحمد بن سليمان
النجاد قال ثنا محمد
ابن يونس الكريمي
قال ثنا محمد
ابن منصور الجشمي
قال ثنا مسلم بن سالم
قال ثنا السري
ابن يحيى عن الحسن

إنما خلقت الخلق ليرجوا على ولم أخلقهم لأرعب عليهم (١) « وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله تعالى شيئا إلا جعل له ما يظلمه وجعل رحمته تطيب غضبه (٢) « وفي الخبر المشهور « إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق إن رحمته تطيب غضبي (٣) « وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة (٤) . « ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار (٥) . « ومن لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار (٦) . « ولا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان (٧) « وفي خبر آخر « لو علم الكافر نعمة رحمة الله ما أيس من جنته أحد (٨) « ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى « - إن زلزلة الساعة شيء عظيم - قال أتدرون أي يوم هذا هذا يوم يقال لأدم عليه الصلاة والسلام قم فابث بئث النار من ذريتك فيقول كم فيقال من كل ألف تسعمائة وتسمة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة قال فأبلس القوم وجعلوا يبكون وتمطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مالككم لاتعملون فقالوا ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا فقال كم أنتم في الأمم أين تاويل وثاريت ومنسك وبأجوج وما جوج أم لا يحصيا إلا الله تعالى إنما أنتم في سائر الأمم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود والرقعة في ذراع

إلى الجنة لم أجده هكذا ويخى عنه ما رواه البخارى من حديث أبي هريرة عجب ربنا من قوم يجاء بهم إلى الجنة في السلاسل (١) حديث قال الله إنما خلقت الخلق ليرجوا على ولم أخلقهم لأرعب عليهم لم أقف له على أصل (٢) حديث أبي سعيد ما خلق الله شيئا إلا جعل له ما يظلمه وجعل رحمته تطيب غضبه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم وقال صاحب الليزان ليس بواه ولا بمجهول (٣) حديث إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق : إن رحمته تطيب غضبي متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث معاذ وأنس من قال لا إله إلا الله دخل الجنة الطبراني في الدعاء بلفظ من مات يشهد وتقدم من حديث معاذ وهو في اليوم واليلة للنسائي بلفظ من مات يشهد وقد تقدم من حديث معاذ من حديث أنس أيضا وتقدم في الأذكار (٥) حديث من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار أبو داود والحاكم ومصحح من حديث معاذ بلفظ دخل الجنة (٦) حديث من لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لماذا من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار وزاد البخارى صادقا من قلبه وفي رواية له من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ورأه أمحمد من حديث معاذ بلفظ جهه الله في الجنة وللنسائي من حديث أبي عمرة الأنصاري في أثناء حديث فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنى رسول الله لا يلقى الله عبديؤ من بهما إلا حجب عن النار يوم القيامة (٧) حديث لا يدخلها من في قلبه وزن ذرة من إيمان أحمد من حديث سهل بن يضاء من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار وفيه انقطاع وله من حديث عثمان بن عفان أنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقا من قلبه إلا حرم على النار قال عمر بن الخطاب هي كلمة الإخلاص واسناده صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من اللوحيين النار وإخراجهم بالشفاعاة ، نعم لا يبقى في النار من في قلبه ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبي سعيد وفيه فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه . وقال مسلم من خير بدل من إيمان (٨) حديث لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد متفق عليه من حديث أبي هريرة .

عن أبي الأحوص
عن عبد الله بن مسعود
قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
ليأتين على الناس زمان
لا يسلم لدى دين دينه
إلا من فر بدينه من
قرية إلى قرية ومن
شاهق إلى شاهق ومن
جحر إلى جحر كالتطلب
الذي يروغ قالوا ومتى
ذلك يا رسول الله قال
إذا لم تنل العيشة إلا
بمعاصي الله فإذا كان
ذلك الزمان حلت
العزوبة قالوا وكيف
ذلك يا رسول الله وقد
أمرتنا بالتزوج قال إنه
إذا كان ذلك الزمان
كان هلاك الرجل على
يد أبويه فان لم يكن له
أبوان فعلى يذروجه

الدابة (١) فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى إذ ساقهم بسياط الخوف أولا فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس داوأم بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال والقصد والآخر لم يكن مناقضا للأول ولكن ذكر في الأول مارا بسيب الشفاء واتصر عليه فلما احتاجوا إلى للعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر . فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ فيتلطف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة الطل الباطنة وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه ، وفي الخبر « لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم (٢) » وفي لفظ آخر « لذهب بكم وجاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم إنه هو النور الرحيم » وفي الخبر « لو لم تذنبوا لحشيت عليكم ما هو شر من الذنوب . قيل وما هو قال الصب (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « والذي نفسى بيده له أرحم بعبده للؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها (٤) » وفي الخبر « ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد حتى إن إبليس ليتناول لها رجاء أن تصيبه (٥) » وفي الخبر « إن لله تعالى مائة رحمة ادخر منها عبده تسع وتسعين رحمة وأظهر منها في الدنيا رحمة واحدة فيها يترحم الخلق فتحن الوالدة على ولدها وتعتطف البيهمة على ولدها فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والأرض قال فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك (٦) » وفي الخبر « ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتخمدني الله برحمته (٧) » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجيه عمله (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنى اختبأت شفاعتى لأهل الكبائر من أمى آرونها للمطيعين المتقين بل هى للمتوكلين المخلصين (٩) »

وولده فإن لم يكن له زوجة ولا ولد يرضى بقرابته قالوا وكيف ذلك يا رسول الله قال يعبرونه بضيق العيشة فيتكلف مالا يطيق حتى يوردوه موارد الملكة . وقد رغب جمع من السلف في الصفة والأخوة في الله ورأوا أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوانا قال سبحانه وتعالى - واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخوانا - وقال تعالى - هو الذى أبداك بنصره وبالؤمنين وألف

(١) حديث لما تلا - إن زلزلة الساعة شيء عظيم - قال أتدرون أى يوم هذا الحديث الترمذى من حديث عمران بن حصين ، وقال حسن صحيح . قلت هو من رواية الحسن البصرى عن عمران ولم يسمع منه ، وفي الصحيحين نحوه من حديث أبى سعيد (٢) حديث لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون ليغفر لهم ، وفي لفظ لذهب بكم الحديث مسلم من حديث أبى أيوب واللفظ الثانى من حديث أبى هريرة قريبا منه (٣) حديث لو لم تذنبوا لحشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل ما هو قال العجب الزار وابن جبان فى الضعفاء واليهقى فى الشعب من حديث أنس وتقدم فى ذم الكبر والعجب (٤) حديث والذى نفسى بيده له أرحم بعبده للؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها متفق عليه من حديث عمر بنحوه (٥) حديث ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد الحديث ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بأئمة من حديث ابن مسعود بأسناد ضعيف (٦) حديث إن لله تعالى مائة رحمة الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٧) حديث ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٨) حديث اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجيه عمله تقدم أيضا (٩) حديث إنى اختبأت شفاعتى لأهل الكبائر من أمى الحديث الشيخان من حديث أبى هريرة لكل نبى دعوة وإنى خبأت دعوتى شفاعتى لأمتى ، ورواه مسلم من حديث أنس ، وللترمذى من حديثه وصححه وابن ماجه من حديث جابر شفاعتى لأهل الكبائر من أمى ، ولابن ماجه من حديث أبى موسى ، ولأحمد من حديث ابن عمر خبرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمى الجنة فأخبرت الشفاعة لأنها أعم وأكفى آرونها للمتقين الحديث وفيه من لم يسم .

وقال عليه الصلاة والسلام «بشت بالحنيفة السمحة السهلة»^(١) وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفي «أحب أن يعلم أهل الكتابين أن في ديننا ساحة»^(٢) ويدل على مناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم - ولا تحمّل علينا إصرا - وقال تعالى - ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم - وروى محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال «لما نزل قوله تعالى - فاصفح الصفح الجميل - قال يا جبريل وما الصفح الجميل قال عليه السلام إذا عفوت عمن ظلمك فلاتتابه فقال يا جبريل فافقه تعالى أكرم من أن ياتب من عفا عنه فبكي جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال إن ربكما يقرنكما السلام ويقول كيف أعاتب من عفوت عنه هذا ملايشبه كرمي»^(٣) . والأخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار : فقد قال علي كرم الله وجهه : من أذنب ذنبا فستره الله عليه في الدنيا فافقه أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه في الدنيا فافقه تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة . وقال الثوري ما أحب أن يجعل حساني إلى أبوي لأنني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما . وقال بعض السلف : المؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أضرار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه . وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه إن الصبد إذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول : يارب حجبت الملائكة صوته وكذا الثانية والثالثة حتى إذا قال الرابعة ياربي قال الله تعالى حتى متى تعجبون عني صوت عبدي قد علم عبدي أنه ليس له رب يخفر الذنوب غيري أشهدكم أني قد عفرت له . وقال إبراهيم بن آدم رحمة الله عليه خلا لي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت في الملزم عند الباب فقلت : ياربي اعصمني حتى لا أعصيك أبدا ففتفت بي هاتف من البيت يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي للمؤمنين يطلبون مني ذلك فاذا عصمتهم ضلوا من أفضل ولمن أغفر ، وكان الحسن يقول : لو لم يذنب للمؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ولكن الله تعالى قمع بالذنوب . وقال الجليل رحمه الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت للسيئين بالחסنين . ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له إلى كم تحدث الناس بالرخص قال يا أبا يحيى إنني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تحرق له كساءك هذا من الفرح . وفي حديث ربي بن حراش عن أخيه ، وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بمد اللوت . قال لما مات أخي سجي بثوبه ألقيناه على نمشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا ، وقال : إنى لقيت ربي عز وجل حياي بروح وريحان وربى غير غضبان وإنى رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلاتفتروا وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرنى وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال ثم طرح نفسه فكانها كانت حصاة وقصتا في طشت فحملناه ودقناه . وفي الحديث

(١) حديث بشت بالحنيفة السمحة السهلة أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله السهلة وله وللطبراني من حديث ابن عباس أحب الدين إلى الله الحنيفة السمحة وفيه محمد بن إسحاق رواه بالضعفة (٢) حديث أحب أن يعلم أهل الكتاب أن في ديننا ساحة أبو عبيد في غريب الحديث وأحمد (٣) حديث محمد بن الحنفية عن علي لما نزل قوله تعالى - فاصفح الصفح الجميل - قال يا جبريل وما الصفح الجميل قال إذا عفوت عمن ظلمك فلاتتابه الحديث ابن مردويه في تفسيره موقوفا على علي مختصرا قال الرضا بغير عتاب ولم يذكر بقية الحديث وفي إسناده نظر .

بين قلوبهم لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - وقد اختار الصعبة والأخوة في الله تعالى سعيد ابن للسبب وعبد الله ابن المبارك وغيرها . وفائدة الصعبة أنها تفتح مسام الباطن ويكتسب الانسان بها علم الحوادث والعوارض . قيل : أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات ويتصلب الباطن برزين العلم ويتمكن الصدق بطروق هبوب الآفات ثم التخلص منها بالإيمان ويقع بطريق

« أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله تعالى فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويزجره فكان يقول دعني وربّي أبثت على رقيبا حتى رآه ذات يوم على كبيرة فضرب فقال لا يضر الله لك قال فيقول الله تعالى يوم القيامة : أيسطيع أخذان يحظر رحمتي على عبادي اذهب أنت فقد غفرت لك ثم يقول للمابد وأنت فقد أوجبت لك النار قال فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته ^(١) » وروى أيضاً أن لصاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة فر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الحواريين فقال اللص في نفسه هذا نبي الله يمر وإلى جنبه حواريه لوزلت فكنت معهما ثالثاً قال فزل جعل يريد أن يدنو من الحوارى ويزدرى نفسه تعظيماً للحوارى ويقول في نفسه مثل لا يمشى إلى جنب هذا العابد قال وأحسن الحوارى به فقال في نفسه هذا يمشى إلى جانبي فضم نفسه وشمى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام فشمى بجنبه فبقي اللص خلفه فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام قل لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما أما الحوارى فقد أحبطت حسناته لجنبه بنفسه وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدرى على نفسه فأخبرهما بذلك وضم اللص إليه في سياحته وجمله من حواريه . وروى عن مسروق أن نبيا من الأنبياء كان ساجدا فوطئ عنقه بعض العصاة حتى ألقى الحصى بجنبته قال فرغ النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا فقال اذهب قلن يضر الله لك فأوحى الله تعالى إليه تتألى على في عبادى إني قد غفرت له . ويقرب من هذا ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته فزل عليه قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - الآية فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام ^(٢) » وروى في الأثران رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة قال فإذا أدخلنا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه فيقول يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر منى عبادة فرفته على في عليين فيقول الله سبحانه إنه كان يسأنى في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألنى النجاة من النار فأعطيت كل عبدسؤله وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل لأن المحبة أغلب على الراجى منها على الخائف فكم من فرق في اللوكة بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجاء لانعامه وكرامه ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن ولذلك قال ﷺ « سلوا الله الدرجات العلى فإمنا تسألون كريماً ^(٣) » وقال « إذا سألت الله فأعظموا الرغبة وأسألوا الفردوس الأظلى فإن الله تعالى لا يتعاطمه شيء ^(٤) » وقال بكر بن سليم الصواف دخلنا على

الصحة والأخوة
التعاقد والتعاون
وتتقوى جنود القلب
وتستروح الأرواح
بالشام وتنق في
التوجه إلى الرفيق
الأعلى ويصير مثالها
في الشاهد كالأسوات
إذا اجتمعت خرقت
الأجرام وإذا تفردت
قصرت عن بلوغ
اللام . ورد في الخبر
عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم « المؤمن
كثير بأخيه » وقال
الله تعالى محباً عن
لاصديق له - فقال نامن
شافعين ولاصديق
حميم والحميم في الأصل
الهميم إلا أنه أبدلت
الهاء بالحاء تقرب
مخرجهما إذ هما من

(١) حديث أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً الحديث أبو داود من حديث أبي هريرة باسناد جيد (٢) حديث ابن عباس يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته فزل عليه قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - فترك الدعاء عليهم الحديث البخارى من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول اللهم المن فلانا وفلانا وفلانا بعد ما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد فأنزل الله عز وجل - ليس لك من الأمر شيء - إلى قوله : فانهم ظالمون - ورواه الترمذى وصحاحه أبو إسحاق والحريث بن هشام وصوفان بن أمية وزاد فتاب عليهم فأسلوا الحسن إسلامهم وقال حسن غريب وفي رواية له أربعة نفر ولم يسمهم وقال فهداهم الله للإسلام وقال حسن غريب صحيح (٣) حديث سلوا الله الدرجات العلى فإمنا تسألون كريماً لم أجده بهذا اللفظ وللترمذى من حديث ابن مسعود سلوا الله من فضله فان الله يحب أن يسأل وقال هكذا روى حماد بن واقد وليس بالحافظ (٤) حديث إذا سألت الله فأعظموا الرغبة وأسألوا الفردوس الأظلى فإن الله لا يتعاطمه شيء مسلم من حديث أبي هريرة إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم

مالك بن أنس في العشي التي قبض فيها قتلنا يا أبا عبد الله كيف تجدك قال لا أدري ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب ثم ما برحنا حتى أغمضناه. وقال يحيى بن معاذ في مناجاته يكاد رجائي لك مع الذنوب يطلب رجائي إليك مع الأعمال لأنني أعتد في الأعمال على الاخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف وأجدني في الذنوب أعتد على عفوك وكيف لا تغفروا أنت بالجوهر موصوف. وقيل إن مجوسيا استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال إن أسلمت أضفك لله المجرى فأوحى الله تعالى إليه يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتبشير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره فلو أضفته ليله ماذا كان عليك لله إبراهيم يسمى خلف الجوسي فرده وأضافه فقال له الجوسي ما السبب فيما بدالك فذكر له فقال له الجوسي أهكذا يعاملني ثم قال اعرض على الإسلام فأسلم. ورأى الأستاذ أبو سهل الصملي في أبي سهل الزجاجي في المنام وكان يقول بوعيد الأبد فقال له كيف حالك فقال وجدنا الأمر أهون مما توهمنا. ورأى بعضهم أبا سهل الصملي في المنام على هيئة حنة لا توصف فقال له يا أستاذهم نلت هذا فقال بحسن ظني بربي. وحكى أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى في مرض موته في منامه أن القيامة قد قامت وإذا الجبار سبحانه يقول أين العلماء قال جاءوا ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم ذلك قلنا يارب قصرنا وأسأنا قال فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره فقلت أما أنا فليس في صحيفتي الشرك وقد وعدت أن تغفر مادونه فقال اذهبوا به فقد غفرت لكم ومات بعد ذلك بثلاث ليال. وقيل كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشتري شيئا من القواكه للمجلس ثم التلام ياب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل فقير شيئا ويقول من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات قال فدفع التلام إليه الدراهم فقال منصور ما الذي تريد أن ادعوك فقال لي سيد أريد أن أتخلص منه فدعا منصور وقال الأخرى قال أن يغفر الله لي وسيدى فدعا ثم قال الأخرى قال أن يتوب الله على سيدي فدعا ثم قال الأخرى فقال أن يغفر الله لي وسيدى ولك وللقوم فدعا منصور فرجع التلام فقال له سيده لم أبطأت قمص عليه القصة قال وبم دعا فقال سألت نفسي التقي فقال له اذهب فأنت حر قال وأيش الثاني قال أن يغفر الله على الدراهم قال لك أربعة آلاف درهم وأيش الثالث قال أن يتوب الله عليك قال ثبت إلى الله تعالى قال وأيش الرابع قال أن يغفر الله لي ولك وللقوم قال هذا الواحد ليس إلى فلما بات تلك الليلة رأى في المنام كأن قائلا يقول له أنت فعلت ما كان إليك أقرى أتى لأفضل ما إلى قد غفرت لك وللقوم ولبنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين. وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفي قال رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة قال فأخذت مكان المرأة وذهبت إلى القبرة وصلينا عليها ودفنا لبيت فقلت للمرأة من كان هذا البيت منك قالت ابني قلت ولم يكن لكم جيران قالت بلى ولكن صفروا أمره قلت وأيش كان هذا قالت عمتنا قال فرحمها وذهبت بها إلى منزلي وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتاني آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرني فقلت من أنت فقال الخنث الذي دفتتموني اليوم رحمى ربي باحتقار الناس إياي. وقال إبراهيم الأطروش كنا قعودا فينداد مع معروف الكرخي على دجلة إذ مر أحدنا في زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقالوا لمعروف أماراهم يصون الله مجاهرين ادع الله عليهم فرفع يديه وقال إلهي كما فرحتهم في الدنيا فرحهم في الآخرة فقال اغفر لي إن شئت ولكن ليعزم وليعظم الرغبة فإن الله عز وجل لا يتعاطفه شيء أعطاه البخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فاذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ورواه الترمذي من حديث معاذ وعبد بن الصامت

حروف الحلق والمهم
 مأخوذ من الاهتمام
 أي يهتم بأمر أخيه
 فالاهتمام بهم الصديق
 حقيقة الصداقة. وقال
 عمر إذا رأى أحدكم
 ودا من أخيه
 فليتمسك به قلما
 يصيب ذلك وقد قال
 القائل :

وإذا صفا لك من زمانك
 واحد

فهو للراد وأين ذاك
 الواحد

وأوحى الله تعالى إلى
 داود عليه السلام

قال يا داود مالي أراك
 منتبذا وحدك قال

إلهي قليت الحلق من
 أجلك فأوحى الله إليه

يا داود كن يقظانا
 مرتادا لنفسك اخوانا

للقوم إنما سألتك أن تدعو عليهم فقال إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم ، وكان بعض السلف يقول في دعائه ياربّ وأى أهل دهر لم يصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابقة ورزقك عليهم دارا سبحانه ما أحلك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبخ النعمة وتدر الرزق حتى كأنك ياربنا لاتنضب فهذه هي الأسباب التي بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين ، فأما الحقى المغرورون فلا ينبغي أن يسموا شيئا من ذلك بل يسمعون ماسنورده في أسباب الخوف فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف كالعبد السوء والصبي العرم لا يستقيم إلا بالوسط والعصا وإظهار الخشونة في الكلام . وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا .

(الشطر الثاني من الكتاب في الخوف)

وفيه بيان حقيقة الخوف وبيان درجاته وبيان أقسام المخاوف وبيان فضيلة الخوف وبيان الأفضل من الخوف والرجاء وبيان دواء الخوف وبيان معنى سوء الخاتمة وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق .

(بيان حقيقة الخوف)

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحترائه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنهما زمامان يمنان النفس عن الخروج إلى رعوناتهما ، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال : الخوف حجاب بين الله وبين العبد . وقال أيضا إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف وبالجملة فالهيب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا في الشهود وإنما دوام الشهود غاية القامات ، ولسنا الآن إنما نتكلم في أوائل القامات فتقول : حال الخوف ينتظم بضامن علم وحال وعمل . أما العلم فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والإفلات ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوقا بمن يحته على الانتقام خاليا عمن يتشفع إليه في حقه وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك فالعلم بظواهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لاعتن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة الخوف كالذي وقع في محال سبب فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الاقتراس غالبا وإن كان اقتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة جبلية للخوف منه تكوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإن الماء يخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق وكذا النار على الإحراق فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث للثير لإحراق القلب وتألمه وذلك الإحراق هو الخوف فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنزلوا هلك العالمين لميال ولمنعهم مانع وتارة يكون ليكثره الجناية من العبد بمقارفة المعاصي وتارة يكون بهما جميعا وبحسب معرفته بهيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغاثته وأنه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون تكون قوة خوفه فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وربه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أنا أخوفكم لله (١) » وكذلك قال الله تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - ثم إذا كلمت للمعرفة

وكل خدن لا يوافق على مسرتي . فلا تصحبه فانه عدوي قسى قلبك وياعدك مني . وقد ورد في الخبر « إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون فالؤمن ألف مألوف » وفي هذا دقمة وهي أنه ليس من اختار العزلة والوحدة لله يذهب عنه هذا الوصف فلا يكون ألفا مألوفاً فإن هذه الإشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق الجليل ، وهذا الخلق يكمل في كل من كان أتم معرفة وقينا وأوزن عقلا وأتم أهلية واستعدادا وكان أوفر الناس خطا

(١) حديث أنا أخوفكم البخارى من حديث أنس والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولاشيخين

أورثت جلال الخوف واحترق القلب ثم يفيض أثر الحرقه من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات . أما في البدن فبالحول والصفار والبغية والزعقة والبكاء وقد تنشق به الحرارة فيفضى إلى الموت أو يبعد إلى الدماغ فيفسد العقل أو يقوى فيورث القنوط واليأس . وأما في الجوارح فيكفها عن المعاصي وتقيدها بالطاعات تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل ، ولذلك قيل ليس الخائف من يكي ويمسح عينه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال أبو القاسم الحكيم من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف الله هرب إليه ، وقيل لدى التون متى يكون العبد خائفاً قال إذا نزل نفسه منزلة القيم الذي يحتسى عذابة طول السقام . وأما في الصفات فبأن يجمع الشهوات ويكدر اللذات فيصير للعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سمّاً فاحترق الشهوات بالخوف وتآذبت الجوارح ويحصل في القلب الدبول والحشوع والدلة والاستكانة ويفارقه الكبر والحمد والحد بل يصير مستوعب المهمل بخوفه والنظر في خطرايته فلا يترفع لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومواخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ويكون حاله من وقع في محال سبغ ضار لا يدري أنه يفعل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيملك فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لا تمتنع فيه لغيره ، هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحترافه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفضاله وبعبوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال وأقل درجات الخوف بما يظهر أثره في الأعمال أن يمنع عن المحظورات، ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعاً فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيكف أيضاً عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى إذ التقوى أن يترك ما يريه وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبتغي ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفساً من أنفاسه فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقاً ويدخل في الصدق التقوى ويدخل في التقوى الورع ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ، فاذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محظور ، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعاً ووراءه اسم الصديق والقرب وتجرى الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم فإذا ذكرت الأخص قد ذكرت الكل كما أنك تقول الإنسان إما عربي وإما عجمي والعربي إما قرشي أو غيره والقرشي إما هاشمي أو غيره وإما علوي والعلوي إما حنفي أو حنفي فإذا ذكرت أنه حنفي مثلاً قد وصفته بالجميع وإن وصفته بأنه علوي وصفته بما هو فوقه مما هو أعم منه فكذلك إذا قلت صديق قد قلت إنه تقى وورع وعفيف فلا ينبغي أن تظن أن كثرة هذه الأسماء تدل على معان كثيرة متباينة فيختلط عليك كما اختلط على من طلب للعاني من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ للعاني فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة للوجبة له ومن جانب السفلى كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداماً .

من حديث عائشة والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية .

من هذا الوصف الأنبياء ثم الأولياء وأتم الجميع في هذا نبينا صلوات الله عليه وكل من كان من الأنبياء أتم ألفة كان أكثر تبعاً ونبينا صلى الله عليه وسلم كان أكثرهم ألفة وأكثرهم تبعاً وقال «تناكوا نكثوا فاني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» وقد نبه الله تعالى على هذا الوصف من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال - ولو كنت فظاً غليظ القلب لا تقضوا من حولك - وإنما طلب العزلة مع وجود هذا الوصف ومن كان هذا الوصف فيه

(بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف)

اعلم أن الخوف محمود وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود فكل ما كان أقوى وأكثراً كان أحمد وهو غلط بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى اللواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى والأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط وكذا الصبي ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة في الضرب محمودة وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال والمحمود هو الاعتدال والوسط فأما القاصر منه فهو الذي يجرى مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الفعلة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالضرب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها أما برحاً فلا يسوقها إلى القصد ولا يصلح رياضتها وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ولست أعني بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والتسمين بأسمائهم فأنهم أبعد الناس عن الخوف بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله وذلك مما قد عزّ وجوده الآن ، ولذلك قال الفضيل بن عياض إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فانك إن قلت لا كذبت وإن قلت نعم كذبت وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن الماصى ويقيدها بالطاعات وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً . وأما المفرط فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل ، فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كلاً لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأ الجهل والعجز . أما الجهل فإنه ليس يدرى عاقبة أمره ولوعرف لم يكن خائفاً لأن الخوف هو الذي يتردد فيه . وأما العجز فهو أنه متعرض لمخذور لا يقدر على دفعه فاذن هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدمي وإنما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس بكال في ذاته وإنما يصير محموداً بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه كما يكون احتمال ألم الدواء محموداً لأنه أهون من ألم المرض والموت فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل وقد يخرج إلى الموت وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يعرضها أو يكرس عضواً من أعضائها وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها يعالج به صدمة الخوف المفرط المفضى إلى القنوط أو أحد هذه الأمور فكل ما يراد لأمر فالحمد ومنه ما يفضى إلى المراد للقصور منه وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل فكل ما يهدم في هذه الأسباب فهو مذموم . فان قلت من خاف فمات من خوفه فهو شهيد فكيف يكون حاله مذموماً . فاعلم أن معنى كونه شهيداً أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالإضافة إليه فضيلة فأما بالإضافة إلى تقدير بقاءه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبيله فليس بفضيلة بل للسالك إلى الله تعالى بطريق الفكر والمجاهدة والترقى في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يفتسه سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه وهو محال فلا ينبغي أن يظن هذا بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى فكل ما يبطل العمر أو العقل أو الصحة التي يتعطل العمر بتعطيلها فهو حسران ونقصان بالإضافة إلى أمور وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة

أقوى وأتم كان طلب العزلة فيه أكثر في الابتداء ولهذا المعنى حجب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلو في أول أمره وكان يخلو في غار حراء ويتحنن الليالي ذوات العدد وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه آتفاً مألوفاً وقد غلط في هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف فتركوا العزلة طلباً لهذه الفضيلة وهذا خطأ وسر طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أتم من الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ما أسلفنا في أول الباب إن في الإنسان ميلاً إلى الجنس بالوصف

إلى أمور أخر كما كانت الشهادة فضيلة بالاضافة إلى مادونها لا بالاضافة إلى درجة التيقن والصديقين فاذن الخوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابوق إن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره فان لم يحمل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة فاذا أتم الورع فهو أعلى وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع فهذا أقصى ما محمد منه وذلك مع بقاء الصحة والعقل فان جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين للملازمين للجوع أيما كثيرة احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل .

(بيان أقسام الخوف بالاضافة إلى ما يخاف منه)

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه والسكره إمان أن يكون مكروها في ذاته كالنار وإمان أن يكون مكروها لأنه يفضى إلى المكروه كما تكرر المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة كما يكره المريض الفواكه الضرة لأدائها إلى الموت فلا بد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروها من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك للسكره ومقام الخائفين يختلف فيما يخلب على قلوبهم من السكرهات المهدورة فالدين يخلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره كالدين يخلب عليهم خوف الموت قبل التوبة أو خوف نقض التوبة ونكث العهد أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة أو خوف الليل عن الاستقامة أو خوف اسديلا المادة في اتباع الشهوات المألوفة أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسنة التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النوم أو خوف انكشاف غوائل طاعته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحسب أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والحيانة والغش وإضمار سوء أو خوف ما لا يدري أنه يحدث في بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت أو خوف الاعتزاز بزخارف الدنيا أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلته عنه أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة سوء أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل ، فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى إلى الخوف فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة ، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوسواس وهكذا إلى بقية الأقسام وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة فان الأمر فيه محط وأعلى الأقسام وأدناها على كمال المعرفة خوف السابقة لأن الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تحلل أسباب كثيرة فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب والخائف من الخاتمة بالاضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقهما بتوقيع محتمل أن يكون فيه حز الرقة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيع إليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه عما إذا يظهر ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وأنه ما الذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب وهذا النفاذ إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلى الذي جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر قبض كفه اليمى ثم قال : « هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأصنامهم وأسماء آبائهم لا يزدادونهم ولا ينقص ثم قبض كفه اليسرى

الأعم فلما علم الخدائق ذلك المهمم الله تعالى بحجة الخلوّة والعزلة لتصفية النفس عن الليل بالوصف الأعم لترتقى المهمم العالية عن ميل الطباع إلى تألف الأرواح فاذا وفوا التصفية حقها اشترأت الأرواح إلى جنسها بالتألف الأصلي الأولى وأعادها الله تعالى إلى الخلق ومخالطتهم مصفاة واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الأرواح وظهرت صفة الجيلة من الألفة للكلمة آلفة مألوفة فصارت العزلة من أهم الأمور عند من

وقال هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزداد فيهم ولا ينقص ويعلمن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم ثم يستقدم الله قبل الموت ولو بهواق باقة ويعلمن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بهواق ناقة السعيد من سعد بقضاء الله والشقى من شقى بقضاء الله والأعمال بالخواتيم (١) وهذا كاتسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنابته وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التي تقتضى الهيبة لاجتماعها لهذا أعلى رتبة ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصديقين وأما الآخر فهو في عرصة الفرور والأمن إن واطب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين وهو عمرة المعرفة بالله تعالى وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جنابة بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها فان تيسير أسباب المعصية إبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجري عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توصل بها من سرت له الطاعات ومهد له سبيل القربات فالعاصي قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى وكذا الطيب فالذي يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل في أسفل سافلين من غير جنابة سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلالة فان من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا والذي عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضروريا فليت شعري ما الذي أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه وما الذي أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه وكيف يحال ذلك على العبد وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جنابة ولا وسيلة فالخوف بمن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل ووراء هذا المعنى سر القدر الذي لا يجوز إفشاؤه ولا يمكن تفهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بثال لولا إذن التسرع لم يستجرى على ذكره ذو بصيرة فقد جاء في الخبر « إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يادود خفي كما تخاف السبع الضاري (٢) » فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقف بك على سببه فان الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ولا يكشف ذلك إلا لأهله . والحاصل أن السبع يخاف لا لجنابة سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي فان قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك عملة عنده على وتيرة واحدة إذ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته وثالث الأمل ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله « هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي هؤلاء إلى النار ولا أبالي » وبكفة يك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستثناء وعدم المبالاة.

(١) حديث هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال حسن صحيح غريب (٢) حديث إن الله تعالى أوحى إلى داود يادود خفي كما يخاف السبع الضاري لم أجده أصلا ولعل للمصنف قصد بإبراده أنه من الاسرائيليات فانه عبر عنه بقوله جاء في الخبر وكثيرا ما يعبر بذلك عن الاسرائيليات التي هي غير مرفوعة .

يألف فيؤلف ومن أدل الدليل على أن الذي اعتزل آلف مألوف حتى يذهب اللط عن الذي غلط في ذلك وذم العزلة على الاطلاق من غير علم بحقيقة الصعبة وحقيقة العزلة فصارت العزلة مرغوبا فيها في وقتها والصعبة مرغوبا فيها في وقتها قال محمد بن الحنفية رحمه الله ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا . وكان بشر بن الحرث يقول إذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه فالأنيس يهيشه الله

الطبقة الثانية من الخائفين : أن يتمثل في أنفسهم ماهو المكروه وذلك مثل سكرات الموت وشدته أو سؤال منكر ونكير أو عذاب القبر أو هول المطلع أو هيبه الوقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف السر والسؤال عن النقيز والقطمير أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعم والملك القيم وعن نقصان الدرجات أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها فهي لا محالة محوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها وأغلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وما قبل ذلك خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكرا وتجب منه في نفسه وربما أنكر لذة النظر إلى وجهه الكريم لولا منع الشرع إياه من إنكاره فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد والإفراط لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم فأمالدة العارفين فلا يدركها غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلا له ومن كان أهلا استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره فإلى هذه الأنعام يرجع خوف الخائفين نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه .

(بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه)

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والأخبار. أما الاعتبار فسيهله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه في الأضواء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة إذ لا مقصود سوى السعادة ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه فكل ما أعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر غايته وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر ولا تيسر للواظبة على الذكر والفكر إلا باقطاع حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك للشهوات إلا بجمع الشهوات ولا تتمتع الشهوة بشيء كما تتمتع بنار الخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فان فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن العاصي ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى . وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فشاورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى - وهدي ورحمة للذين هم لربهم يرهبون - وقال تعالى - وإنما يخشى الله من عباده العلماء - وصفهم بالعلم خشيتهم وقال عز وجل - رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه - وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام وأما الخائفون فان لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه فانظر كيف أفردهم بمراقبة الرفيق الأعلى وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مراقبة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومراقبة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله

للصادقين رقما من الله تعالى وثوابا للعبد معجلا والأنيس قد يكون مفيدا كالمشاخ وقد يكون مستفيدا كالمرئيين فصحيح الخلوة والعزلة لا يترك من غير أنيس فان كان قاصرا يؤنس الله بمن يتم حاله به وإن كان غير قاصر يقبض الله تعالى له من يؤنس من الريدين وهذا الأنس ليس فيه ميل بالوصف الأعم بل هو بالله ومن الله وفي الله. وروى عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «التحابون في الله على عمود من ياقوته حمراء في رأس العمود سبعون

تعالى كان يقول أسألك الرفيق الأعلى (١) فاذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ولا يخفى ماورد في فضائلهما حتى إن العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما سار الحمد مخصوصا بالله تعالى. والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين وقد خصص الله تعالى التقوى بالاضافة إلى نفسه فقال تعالى - لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم - وإنما التقوى عبارة عن كسب بمقتضى الخوف كما سبق ولذلك قال تعالى - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى - ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله - وقال عز وجل - وخافون إن كنتم مؤمنين - فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الايمان فذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة التقوى « إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم فاذا هم بصوت يسمع أقصام كما يسمع أدانهم فيقول - يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم إنما هي أعمالكم ترد عليكم - أيها الناس إني قد جعلت نسيابا وجمعت نسيابا فوضعتم نسيابا ورفعت نسيابكم - قلت - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان فاليوم أضع نسيابكم وأرفع نسياب أولئك الذين يرفع القوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب (٢) » وقال عليه الصلاة والسلام « رأس الحكمة مخافة الله (٣) » وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود « إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي (٤) » وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير - وقال يحيى بن معاذ : ما من مؤمن يعمل سيئة إلا ويبلغها أحسن من بابا من الحكمة والعبرة مارأيت قط . وقال يحيى بن معاذ : ما من مؤمن يعمل سيئة إلا ويبلغها أحسن من خوف العقاب ورجاء العفو كغلب بين أسدين . وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب وقتشت عما في يديه إلا الورعين فإني أستحي منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فإن قلت عن الخوف لم تسم به هذه الأسماء وكذلك ماورد في فضائل الذكر لا يخفى وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخاصة فقال - سيذكر من يخشى - وقال تعالى - ولئن خاف مقام ربه جنتان - وقال صلى الله عليه وسلم « قال عز وجل وعزتي

ألف غرفة مشرفون على أهل الجنة يضيء حنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا ننظر إلى التحابين في الله عز وجل فاذا أشرقوا عليهم أضياء حنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم هؤلاء التحابون في الله عز وجل » وقال أبو إدريس الخولاني لما ذابني أحبك في الله فقال له أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسي حول

(١) حديث لماخبر في مرض موته كان يقول أسألك الرفيق الأعلى متفق عليه من حديث عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم غير فلما نزل به ورأسه في حجرى غشي عليه ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال اللهم الرفيق الأعلى فعلت أنه لا يختارنا وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح الحديث (٢) حديث إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه أقصام كما يسمعه أدانهم فيقول يا أيها الناس إني قد أنصت إليكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم إنما هي أعمالكم ترد عليكم أيها الناس إني جعلت نسيابا الحديث الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرک بسند ضعيف والثعلبي في التفسير مقتصر على آخره إني جعلت نسيابا الحديث من حديث أبي هريرة (٣) حديث رأس الحكمة مخافة الله أبو بكر بن لال الفقيه في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث ابن مسعود ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصلح أيضا (٤) حديث إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي قاله لابن مسعود لم أقف له على أصل.

لأجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمينان فان أمتي في الدنيا أخفته يوم القيامة وإن خافني في الدنيا أمتي يوم القيامة (١) « وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف الله تعالى خافه كل شيء ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء (٢) » وقال عليه السلام « أتعلم عقلا أشدكم خوفاً لله تعالى وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظراً (٣) » وقال يحيى بن معاذ رحمه الله عليه مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف القمر دخل الجنة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد الله حبه وصح له به . وقال ذو النون أيضاً ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فاذا غلب الرجاء تشوش القلب . وكان أبو الحسين الضرير يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده فاذا انقطع زمامه هلك مع المالكين . وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غداً فقال أشدكم خوفاً اليوم . وقال سهل رحمه الله لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال . وقيل للحسن بأبائه كيف نصنع نجالس أقواماً يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير فقال والله إنك إن تغالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمن خير لك من أن تصعب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما فارق الخوف قلباً إلا خرب وقالت عائشة رضيت الله عنها « قلت يا رسول الله - الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة - هو الرجل يسرق ويرزني قال لا ، بل الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه (٤) » والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه وضد الخوف الأمن كما أن ضد الرجاء اليأس وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له بل تقول كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنها متلازمان فان كل من رجا محبوباً فلا بد وأن يخاف فوته فان كان لا يخاف فوته فهو إذا لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجياً فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لفصلته عنه وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه إذ للعلوم لا يرجى ولا يخاف فاذا نال المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكاً فيه نعم أحد طرفي الشك محمدي يرجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظناً فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفي الخوف بالإضافة إليه وكذا بالعكس وعلى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال تعالى - ويدعوننا رغبا ورهبا - وقال عز وجل - يدعون ربهم خوفاً وطعماً - ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء فقال تعالى - مالكم لا ترجون لله وقارا - أي لا تخافون وكثيراً ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى

(١) حديث لأجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمينان ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلًا (٢) حديث من خاف الله خافه كل شيء الحديث أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين باسناد ضعيف معضل وقد تقدم (٣) حديث أتعلم عقلا أشدكم لله خوفاً الحديث لم أنف له على أصل ولم يصح في فضل العقل شيء (٤) حديث عائشة قلت يا رسول الله - الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة - هو الرجل يسرق ويرزني قال لا ، الحديث الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد . قلت بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذي وروى عن عبد الرحمن بن سعد عن أبي جازم عن أبي هريرة .

العرش يوم القيامة
وجوههم كالممر ليلة
البدن يفرغ الناس
ولا يفرعون ويخاف
الناس ولا يخافون وهم
أولياء الله الذين لا خوف
عليهم ولا هم يحزنون
قيل من هؤلاء
يا رسول الله ؟ قال
التحابون في الله عز
وجل . وروى عبادة
ابن الصامت عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
قال « يقول الله عز وجل
حقت محبتي للمتحابين
في اللزاورين في
والتبازلين في
والتصادقين في »
أخبرنا الشيخ
أبو الفتح محمد بن
عبد الباقي إجازة قال
أنا أحمد بن الحسين

الخوف وذلك لتلازمهما إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه بل أقول كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية فإن البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى - فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا - وقال تعالى - يبكون وينزيمهم خشوعا - وقال عز وجل - أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون - وقال عليه السلام « ما من عبد مؤمن يخرج من عينه دمة وإن كانت مثل رأس الدباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئا من حروجه إلا حرمه الله على النار ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا اقتشر قلب المؤمن من خشية الله نخاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجرة ورقها ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يلبج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع ^(٣) » وقال عقبه بن عامر « ما النجاة يارسول الله قال أمسك عليك لسانك وليسمعك بيتك وابك على خطيئتك ^(٤) » وقالت عائشة رضيت الله عنها « قلت يارسول الله أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكي ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهرقت في سبيل الله سبحانه وتعالى ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم ارزقني عينين هطاليتين تشفيان ^[١] » بذروف الدمع قبل أن تصير الدموع دما والأضراس جمر ^(٧) » وقال عليه السلام « سبعة يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله وذكر منهم رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ^(٨) » وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتبك . وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول : بلغني أن النار لا تأكل موضماسته الدموع . وقال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ابكوا فإن لم تبكوا فتبكوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما ترغرت عين بعائها إلا مبرهق وجه صاحبها فقر ولاذلة

(١) حديث ما من مؤمن يخرج من عينه دمة وإن كانت مثل رأس الدباب الحديث الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث إذا اقتشر جلد المؤمن من خشية الله نخاتت عنه ذنوبه الحديث الطبراني والبيهقي فيه من حديث العباس بسند ضعيف (٣) حديث لا يلبج النار عبد بكى من خشية الله الحديث الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة (٤) حديث قال عقبه بن عامر ما النجاة يارسول الله قال أمسك عليك لسانك الحديث تقدم (٥) حديث عائشة قلت يدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكي لم أقف له على أصل (٦) حديث ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمة من خشية الله الحديث الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن غريب وقد تقدم (٧) حديث اللهم ارزقني عينين هطاليتين تشفيان بذروف الدمع الحديث الطبراني في الكبير وفي الدعاء وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن ورواه الحسين الروزي في زيادته على الزهد والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبدالله مرسلادون ذكر الله وذكر الدار قطن في العلل أن من قال فيه عن أبيه وهم إنما هو عن سالم بن عبدالله مرسلادون وسالم هذا يشبه أن يكون سالم بن عبد الله الحارثي وليس بابن عمر انتهى وما ذكره من أنه سالم الحارثي هو الذي يدل عليه كلام البخاري في التاريخ ومسلم في الكنى وابن أبي حاتم عن أبيه وأبي أحمد الحاكم فان الراوى له عن سالم عبد الله أبو سلمة وإنما ذكروا له رواية عن سالم الحارثي والله أعلم، ثم حكى ابن عساکر في تاريخه الخلاف في أن الذي يروي عن سالم الحارثي أو سالم بن عبد الله بن عمر (٨) حديث سبعة يظلمهم الله في ظله الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

ابن خيرون قال أنا أبو عبد الله أحمد بن عبدالله الهاملي قال أنا أبو القاسم عمر بن جعفر ابن محمد بن سلام قال أنا أبو اسحق إبراهيم بن اسحق الحربى قال حدثنا حماد عن يحيى ابن سعيد عن سعيد ابن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة قالوا وما هو قال إصلاح ذات البين وإياكم والبغضة فانها هى الحالقة » وبإسناد إبراهيم الحربى عن عبيد الله بن عمر عن أبي أسامة عن عبدالله بن الوليد عن عمران ابن رباح قال سمعت

[١] قوله تشفيان بذروف الدمع الذى فى الجامع الصغير تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيتك .هـ .

يوم القيامة فان سالت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها محاربا من النيران ولو أن رجلا بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة . وقال أبو سليمان البكاء من الخوف والرجاء والطرب من الشوق . وقال كعب الأحبار رضى الله عنه والذي نفسى بيده لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى أحب إلى من أن أنصدق بجمل من ذهب . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لأن أدمع دموعه من خشية الله أحب إلى من أن أنصدق بألف دينار . وروى عن حنظلة قال « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلى فذنت منى للرأه وجرى بيننا من حديث الدنيا فوسيت ما كسا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا فى الدنيا ثم تذكرت ما كنا فىه فقلت فى نفسى قد ناققت حيث تحول عنى ما كنت فىه من الخوف والرقة فخرجت وجعلت أنادى نافع حنظلة فاستقبلنى أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال كلام نافع حنظلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول نافع حنظلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلام نافع حنظلة فقلت يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجاءت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلى فأخذنا فى حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه فقال صلى الله عليه وسلم يا حنظلة لو أنكم كنتم أبدا على تلك الحالة لصاحنكم الملائكة فى الطرق وعلى فراشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة (١) » فاذن كل ما ورد فى فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومدمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف لأن جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق السبب .

(بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما)

اعلم أن الأخبار فى فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليها فيمتريه شك فى أن الأفضل أيهما وقول القائل الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد يضاهاى قول القائل الخبز أفضل أم الماء وجوابه أن يقال الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان فان اجتماعا نظر إلى الأغلب فان كان الجوع أغلب فالخبز أفضل وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل وإن استويا فهما متساويان وهذا لأن كل ما يراد لمقصود فضله يظهر بالاضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه والخوف والرجاء دوا آن يداوى بهما القلوب فضلهما بحسب الباء الوجود فان كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاعتذار به فالخوف أفضل وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل وكذلك إن كان الغالب على العبد العصية فالخوف أفضل ويجوز أن يقال مطلقا الخوف أفضل على التأويل الذى يقال فيه الخبز أفضل من السكينيين إذ يعالج بالخبز مرض الجوع وبالسكينيين مرض الصفراء ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل فهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لأن المعاصى والاعتذار على الخلق أغلب وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة ومستقى الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فستنده الالتفات إلى الصفات التى تقتضى العنف فلتمازجه المحبة بمازجتها للرجاء . وعلى الجملة فما يرا دغيره ينبغى أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لالفظ الأفضل فنقول : أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء وذلك لأجل غلبة المعاصى . فأما التقى الذى ترك ظاهر الأثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ولذلك

(١) حديث حنظلة كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا الحديث وفيه نافع حنظلة الحديث وفيه ولكن يا حنظلة ساعة وساعة مسلم مختصرا .

أبا مسلم يقول صممت
أبا هريرة يقول الخبر
وفى الخبر تحذير عن
البغضة وهو أن يحفو
الحنظلى الناس مقتالهم
وسوء ظن بهم وهذا
خطأ وإنما يريد أن
يغلو مقتنا لنفسه
وعلمنا بما فى نفسه من
الآفات وحذرا على
نفسه من نفسه وعلى
الخلق أن يعود عليهم
من شره فمن كانت
خلوته بهذا الوصف
لا يدخل تحت هذا
الوعيد والاشارة
بالحاقة يعنى أن البغضة
حالقة للدين لأنه نظر
إلى المؤمنين والسلمين
يعين القم . وأخبرنا
الشيخ أبو الفتح
بإسناده إلى إبراهيم

قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا وروى أن علياً كرم الله وجهه قال لبعض ولده يابن خف الله خوفاً ترى أنك لو أتيت به مسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيت به سيئات أهل الأرض غفرها لك ولذلك قال عمر رضي الله عنه لو نودي لي أدخل النار كل الناس لإرجلا واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ولو نودي لي أدخل الجنة كل الناس لإرجلا واحداً لحشيت أن أكون أنا ذلك الرجل وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدلهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوى خوفه ورجاؤه فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثنى من الذين أمروا بدخول النار كان ذلك دليل على اغتراره . فان قلت مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه بل ينبغي أن يغلب رجاءه كما سبق في أول كتاب الرجاء وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوتها أسبابه كما مثل بالزرع والبذر ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض تقيّة وواظب على تهدها وجاء بشرط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساوياً لرجائه فهكذا ينبغي أن تكون أحوال التقيين . فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله وذلك وإن أوردناه مثلاً فلا يفسد يضاها ما نحن فيه من كل وجه لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة إذ علم بالتجربة صحة الأرض وتقاؤها وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق للهلكة في تلك البقاع وغيرها وانما مثل مسألنا بذر لم يجرب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يحدها الزارع ولم يخبرها وهي في بلاد ليس يدري أكثر الصواعق فيها أم لا فمثل هذا الزارع وإن أدى كنهه مجوده وجاء بكل مقدورة فلا يغلب رجاءه على خوفه والبذر في مسألته هو الإيمان وشروط صحته دقيقة والأرض القلب وخفايا خبئه وصفاته من الشرك الحفي والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة إذ قد يمرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله والصواعق هي أهوال السكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده وذلك مما لم يجرب مثله ثم الحصاد والإدراك عند التصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يجرب فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجائه لا عمالة كما سيحكي في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين وإن كان قوى القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه فأما أن يغلب رجاءه فلا وقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تخشيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئاً إذ كان قد خصه رسول الله ﷺ بعلم الناقلين (١) فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الحفي وإن اعتقد تهاه قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه وإخفاء عيه عنه وإن وثق به فمن أين يثق بيقائه على ذلك إلى تمام حسن الحاتمة وقد قال صلى الله عليه وسلم «إن الرجل يعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر» (٢) ، وفي رواية «إلا قدر فواق

الحرفي قال حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان قال إن لله تعالى ملكاً نصفه من نار ونصفه من ثلج وإن من دعا الله فلكما ألفت بين هذا الثلج وهذه النار فلا الثلج يطفى النار ولا النار تذيب الثلج ألفت بين قلوب عبادك الصالحين وصعيف لا تتألف قلوب الصالحين وقد وجدتم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقته العزيز بقاب قوسين في وقت لا يسهه فيه شيء لطف حال الصالحين وجدتم في ذلك المقام العزيز

- (١) حديث إن حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم الناقلين مسلم من حديث حذيفة في أصحابي اثنا عشر مناقباً تماماً لا يدخلون الجنة حتى يبلغ الجمل في سم الحياض الحديث (٢) حديث إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر وفي رواية إلا قدر فواق ناقة الحديث مسلم من حديث أبي هريرة إن الرجل يعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار وللبزاز والطبراني في الأوسط سبعين سنة وإسناده حسن وللشيخين في أثناء حديث لابن مسعود إن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع الحديث

ناقة فيسبق عليه الكتاب فيحتم له بعمل أهل النار وقد فواق الناقة لا يحتمل عملاً بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يخلج في القلب عند الموت فيقتضى خاتمة السوء فكيف يؤمن ذلك فاذا نأصى غايات للمؤمن ان يتدل خوفه ورجاؤه وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مسندة للاعترار وقلة العار فقولنا ذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى - يدعون ربهم خوفاً وطمعا - وقال عز وجل - ويدعوننا رغباً ورهباً - وأين مثل عمر رضي الله عنه فالخلق الموجودون في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من الغفرة فيكون ذلك سبباً لتكاسل عن العمل وداعياً إلى الانهماك في المعاصي فان ذلك قنوط وليس بخوف إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعو إلى التجافي عن دار القرور فهو الخوف الم محمود دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس اللوجب للقنوط وقد قال يحيى بن معاذ من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاعترار ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادكار . وقال مكحول الدمشقي من عبد الله بالخوف فهو حروري ومن عبده بالرجاء فهو مرجي . ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد فاذا ن لا بد من الجمع بين هذه الأمور وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الاشراف على الموت أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل فالشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطبق أسباب الخوف فان ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تسجيل موته وأما روح الرجاء فانه يتوى قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا بحياؤه تعالى ليكون محالاً لقاء الله تعالى فان من أحب لقاء الله تعالى أحب لقاءه والرجاء تقارنه المحبة فن ارتجى كرمه فهو محبوب والتصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة المحبة فان الصير إليه والقدوم بالموت عليه ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ومن فارق محبوبه اشتدت محبته وعذابه فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب فهذا رجل محابه كلها في الدنيا فالدنيا جنته إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب ثموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهي ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهي فاذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلاقتها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه ثموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلقى بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر وفضلاً عما أعده الله تعالى للذين استجبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من الأنكال والسلاسل والأغلال وضروب الخزي والنكال فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى ولا سبيل إليه إلا باخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من جاه ومال ووطن فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال « اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد ^(١) » والغرض

وقال السلام علينا
وطى عباد الله الصالحين
فهم مجتمعون وإن
كانوا متفرقين
وصحبهم لازمة
وعزيمتهم في التواصل
في الدنيا والآخرة
جازمة . وعن عمر بن
الخطاب رضي الله عنه
لو أن رجلا صام النهار
وقام الليل وتصدق
وجاهد ولم يحب في
الله ولم يفض فيه
ما نفعه ذلك . أخبرنا
رضي الدين أحمد بن
إسماعيل بن يوسف
إجازة إن لم يكن معاً
قال أنا أبو المظفر عن
والده أبي القاسم
القشيري قال سمعت
أبا عبد الرحمن السلمي
يقول سمعت عبد الله

ليس فيه تهدير زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر شبر ولا فواق ناقة (١) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك الحديث الترمذي من حديث معاذ وتقدم في الأذكار والدعوات .

أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقع لمحبة الدنيا عن القلب ولذلك قال عليه السلام « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه (١) » وقال تعالى « أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء » ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابنه يابن حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله برجونه وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه لابنه عند الموت اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن والمقصود من ذلك كله أن يجب الله تعالى إلى نفسه ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام أن جئني إلى عبادي فقال بماذا قال بأن تذكر لهم الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن النافع من المحبوب ولذلك رأى بعض الصالحين بأسيان الداران في المنام وهو يطير فسأله فقال الآن أفلت فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له إنه مات البارحة.

(بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف)

اعلم أن ما ذكرناه في دواء الصبر وشرحناه في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الترض لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء لأن أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الايمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر فان الجنة قد حفت بالمسكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على تمسكها إلا بقوة الخوف ولذلك قال على كرم الله وجهه من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المهرمات ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ويؤدي دوام الذكر إلى الأُنس ودوام الفكر إلى كمال المعرفة ويؤدي كمال المعرفة والأُنس إلى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ولا بعدها مقام سوى الصبر وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهر أو باطن ولا مقام بعد المجاهدة لمن تسح له الطريق إلا الهداية والمعرفة ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأُنس ومن ضرورة المحبة الرضا بغمل المحبوب والثقة بنياته وهو التوكل فأذن فياذكرناه في علاج الصبر كناية ولكننا نرد الخوف بكلام جملي فنقول : الخوف يحصل بطريقتين مختلفتين أحدهما أعلى من الآخر، ومثاله أن الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف وربما مد اليد إلى الحية ليأخذها ويلبب بها ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها فاذا نظر الصبي إلى أبيه وهو يرتعد فرأى أنه ومخالف في الحرب منها قام معه وغلب عليه الخوف وواقفه في الحرب يخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية ومعها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته . وأما خوف الابن فأيمانه بمجرد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف في نفسه فيعلم أن السبع مخوف ولا يعرف وجهه وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين أحدهما الخوف من عذابه والثاني الخوف منه فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى - ويحذركم الله نفسه - وقوله عز وجل - اتقوا الله حق تقاته - وأما الأول فهو خوف عموم الخلق وهو حاصل بأصل الايمان بالجنة والنار وكونها جزاء من على الطاعة والمحبة وضعفه بسبب النطفة وسبب ضعف الايمان وإنما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال

ابن المسلم يقول سمعت أبا بصير التلمساني يقول سمعوا مع الله فان لم تطيقوا فاصبروا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركة صحبتهم إلى صحبة الله. وأخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أنا عمر ابن أحمد الصفار النيسابوري إجازة قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا نصر الأصفهاني يقول سمعت أبا جعفر الحداد يقول سمعت على بن سهل يقول : الأُنس بالله تعالى أن تستوحش من الخلق إلا من أهل

(١) حديث لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه مسلم من حديث جابر وقد تقدم .

يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة وتزول أيضا بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم فان فانت المشاهدة فالسباع لا يخلو عن تأثير وأما الثاني وهو الأهل فان يكون الله هو الخوف أعني أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لحي وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ولكن هو بمجرد التقليد أي ضاهى خوف الصبي من الحية تقليدا لأبيه وذلك لا يستند إلى بصيرة فلاجرم يصف وزول على قرب حتى إن الصبي ربما يرى المزمع يدم على أخذ الحية فينظر إليه ويفتربه فيتجرأ على أخذها تقليدا له كما احترز من أخذها تقليدا لأبيه والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها للؤكد لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب العاصي مدة طويلة على الاستمرار فاذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقفا في محالته لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام خفي كما تخاف السبع الضاري ولا حيلة لجلب في الخوف من السبع الضاري إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع في محالته فلا يحتاج إلى حيلة سواء فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي ويحكم ما يريد ولا يخاف قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة وأبعد إبليس من غير جريمة سألقة بل صفته ما ترجمه قوله تعالى هؤلاء في الجنح ولا يبالي وهو هؤلاء في النار ولا يبالي وإن خطر بيالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يعد الطبع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يعد العاصي بدواعي المعصية حتى يعصى شاء أم أبى فانه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بالضرورة فان كان أبعده لأنه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لاحتمال على أول لاعلة له من جهة العبد بل قضى عليه في الأزل وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال «احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما فحج آدم موسى عليه السلام قال موسى أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجدك ملائكته وأسكنك جنته ثم أهبطت الناس بمخيطتك إلى الأرض فقال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسائله وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا فبكم وحدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أقتلوني على أن عملت عملا كتبه الله على قلب أن عمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة قال صلى الله عليه وسلم حج آدم موسى (١) فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر ومن مع هذا فقامن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف فان كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في محالب السبع والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه وقد يهجم عليه فيفتسه وذلك بحسب ما يتفق ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سمى اتفاقا وإن أضيف إلى علم الله لم يحز أن يسمى اتفاقا والواقع في محالب السبع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع لأن السبع مسخر إن سلط عليه الجوع اقتصر وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك فانما يخاف خالق السبع وخالق صفاته فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع

(١) حديث احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بالفاظ أخر .

ولايه الله فان الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله . وقد به القائل نظما على حقيقة جامعة لمعان الصحة والحلوة وفائدتهما وما يحذر فهما بقوله : وحدة الانسان خير من جليس السوء عنده

وجليس الخير خير من قعود المرء وحده [الباب الرابع] والحمسون في أداء حقوق الصحبة والأخوة في الله تعالى قال الله تعالى - وتعاونوا على البر والتقوى - وقال تعالى - وتواصوا بالحق - وتواصوا بالمرحمة - وقال في وصف أصحاب

بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى لأن للمهلك بواسطة السبع هو الله . فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلا يسوقه القدر للتفرع عن القضاء الجزم الأزل إلى ما خلق له خلق الجنة وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة ، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر فمن تعديه القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسيب له أن يعالج نفسه بمعالج الأخيار والآثار فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين للفرورين فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والطاء. وأما الآمنون فهم المراعنة والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأولين والآخرين (١) وكان أشد الناس خوفا (٢) حتى روى أنه كان يصلى على طفل ، قضى رواية أنه سمع في دعائه يقول « اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار (٣) » وفي رواية ثانية « أنه سمع قائلا يقول هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال ما يدريك أنه كذلك والله إنى رسول الله وما أدري ما يصنع بي إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم (٤) » وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأولين لما قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لأزكى أحدا بعد عثمان (٥) وقال محمد بن خولة الحنفية والله لأزكى أحدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبى الذي ولدنى قال فثارت الشيعة عليه فأخذ يذكر من فضائل على ومناقبه ، وروى في حديث آخر « عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره (٦) » وفي حديث آخر « أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا

ر-ول الله صلى الله عليه وسلم - أشداه على الكفار رحما بينهم - وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصحبة فمن اختار صحبة أو أخوة فأدبه في أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسئلة والدعاء والتضرع ويسأل البركة في الصحبة فانه يفتح على نفسه بذلك إما بابا من أبواب الجنة وإما بابا من أبواب النار فان كان الله تعالى يفتح بينهما خيرا فهو باب من أبواب الجنة قال الله تعالى - الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين - وقيل

(١) حديث كان سيد الأولين والآخرين مسلم من حديث أبي هريرة أناسيد ولد آدم ولا تخف الحديث (٢) حديث كان أشد الناس خوفا تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثا قوله والله إنى لأخشاكم لله وقوله والله إنى لأعلمهم بالله وأشد هم له خشية (٣) حديث إنه كان يصلى على طفل فسمع في دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي أوصية وقال لو كان أحد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي واختلف فى إسناده فرواه فى الكبير من حديث أبى أيوب أن صبيا دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أقلت أحد من ضمة القبر لأقلت هذا الصبي (٤) حديث إنه سمع قائلا يقول لطفل مات هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال ما يدريك الحديث مسلم من حديث عائشة قالت توفى صبي فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة الحديث وليس فيه فغضب وقد تقدم (٥) حديث لما توفى عثمان بن مظعون قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة الحديث البخارى من حديث أم العلاء الأنصارية وهى القائلة رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتى عليك لقد أكرمك الله قال وما يدريك الحديث ، وورد أن التى قالت ذلك أم خارجة بن زيد ولم أجد فيه ذكر أم سلمة (٦) حديث إن رجلا من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا له عصفور من عصافير الجنة الحديث أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن أمه قالت هنيئا لك يا بنى الجنة ورواه البيهقى فى الشعب إلا أنه قال فقالت أمه هنيئا لك الشهادة وهو عند الترمذى إلا أنه قال إن رجلا قال له أجزر بالجنة وقد تقدم فى ذم المال والبخل مع اختلاف.

لك الجنة فقال صلى الله عليه وسلم من هذه التآلية على الله تعالى فقال المريض هي أمي يا رسول الله فقال وما يدرك لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويخجل بما لا يعنيه (١) « وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول « شيتني هود وأخواتها (٢) » سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال الغملاء لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى - ألبعدا لعاد قوم هود - ألا بعدا لنهود - ألا بعدا لمدين كما بعدت نمود - مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها ، وفي سورة الواقعة - ليس لو قتها كاذبة ، خافضة رافضة - أي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة إما خافضة قوما كانوا مرفوعين في الدنيا وإما رافضة قوما كانوا مخفوضين في الدنيا ، وفي سورة التكاوير أحوال يوم القيامة وانكشاف الحائمة وهو قوله تعالى - وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلقت علمت نفس ما أحضرت - وفي عم يتساءلون - يوم ينظر المرء ما قدمت يداه - الآية ، وقوله تعالى - لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا - والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى - وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى - لكان كافيا إذ علق النفرة على أربعة شروط يعجز الصبد عن أحادها ، وأشد منه قوله تعالى - فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فمسي أن يكون من الفلحين - وقوله تعالى - ليسأل الصادقين عن صدقهم - وقوله تعالى - سنفرغ لكم آية الثقلان - وقوله عز وجل - أفأمنوا مكر الله - الآية وقوله - وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذته أليم شديد - وقوله تعالى - يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا - الآيتين وقوله تعالى - وإن منكم إلا واردها - الآية وقوله - اعملوا ما شئتم - الآية وقوله - من كان يريد حرث الآخرة زدله في حرثه - الآية وقوله - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - الآيتين وقوله تعالى - وقد مننا إلى ما عملوا من عمل - الآية وكذلك قوله تعالى - والعصر إن الإنسان لفي خسر - إلى آخر السورة فهمه أربعة شروط للخلاص من الحشران وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى - ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون - حتى روى أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى فأوحى الله إليهما لم تبكيا وقد امتسكا ققلا ومن يأمن مكر الله (٣) وكأنهما إذ علمتا أن الله هو علام الغيوب وأنه لا يقوف لهما على غاية الأمور لم يأمن أن يكون قوله قد امتسكا ابتلاء وامتحانا لهما ومكرا بهما حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أنما من المكرو ما وفاقا قولهما كأن إبراهيم عليه السلام لما وضع في المنجنيق قال حسبي الله وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل في الهواء حتى قال ألك حاجة فقال أما إليك فلا فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله فأخبر الله تعالى عنه فقال - وإبراهيم الذي وفى - أي بموجب قوله حسبي الله وبمثل هذا أخبر عن موسى عليه السلام حيث قال - إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أجمع وأرى - ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل له - لا تخف إنك أنت الأملئ - ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم

إن أحد الأخوين في الله تعالى يقال له ادخل الجنة فيسأل عن منزل أخيه فان كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزله . فان قيل له لم يكن يعمل مثل عملك فيقول إنى كنت أعمل لى وله فيعطى جميع ما يسأل لأخيه ويرفع ويرفع أخوه إلى درجته وإن فتح الله تعالى عليهما بالصحة شرا فهو باب من أبواب النار . قال الله تعالى - ويوم يضى الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا يا ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا - وإن مكات الآية

(١) حديث دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا له الجنة الحديث تقدم أيضا (٢) حديث شيتني هود وأخواتها الحديث الترمذى وحسنه والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وهو في النجاشى من حديث أنى جعيفة وقد تقدم في كتاب السماع (٣) حديث أنه وجبريل صلى الله عليه وسلم عليهما بكيا خوفا من الله عز وجل فأوحى الله إليهما لم تبكيا الحديث ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر وروياه في مجلس من أمالى أبى سعيد النقاش بسند ضعيف .

« اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك (١) » قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه دع عنك مناشدتك ربك فإنه واف لك بما وعدك فكان مقام الصديق رضى الله عنه مقام الثقة بوعد الله ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التى يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ، ومن عرف حقيقة المعرفة وقصور معرفته عن الاحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لامحالة ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له - أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك - وقال - إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تفرغ لهم - الآية . فوض الأمر إلى الشيئة وأخرج نفسه بالكلية من البين لعلمه بأنه ليس له من الأمر شيء وأن الأمور مرتبطة بالشيئة ارتباطا يخرج عن حد العقول والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حساب فضلا عن التحقيق والاستيقان وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين ، إذ الطامة الكبرى هى ارتباط أمرك بشيئة من لا يبالى بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض ويعرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآبائهم يخبر عنه ويقول - ولو شئنا لآتيناك كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين - وقال تعالى - وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم - الآية فكيف لا يخاف ماحق من القول فى الأزلى ولا يطمع فى تداركه ولو كان الأمر أنما كانت الأطماع تمتد إلى حيلة فيه ولكن ليس إلا التسليم فيه واستغراء خفي السابقة من جلى الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح فمن يستر له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التى سبقت له بالشقاوة ، إذ كل ميسر لما خلق له وإن كانت الحيرات كلها يسيرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله مقبلا كان هذا يقتضى تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ولكن خطر الحفاعة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالا ولا يمكنها من الانطفاء ، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وإن القلب أشد تقريبا من القدر فى غلبتها وقد قال مقلب القلوب عز وجل - إن عذاب ربهم غير مأمون - فأجهل الناس من أمنه وهو ينادى بالتحذير من الأمن ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لا حترقت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء رحمة لحواس الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه ، إذ لو انكشف الفطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب . قال بعض العارفين : لو حالت بينى وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد لأنى لأدرى ما ظهر له من القلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الاسلام عند باب الحجر لاخترت الموت على الإسلام لأنى لا أدرى ما يعرض لقلبي بين باب الحجر وباب الدار . وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الحفاعة عند كل خطرة وعند كل

وردت فى قصة مشهورة ولكن الله تعالى نيه بذلك عباده على الخذر من كل خذل يقطع عن الله واختيار الصعبة والأخوة اتفاقا من غير نية فى ذلك وتحت فى أول الأمر شأن أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار . وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى كلام له وهل يفسد الناس إلا الناس ، فالفساد بالصعبة متوقع والصالح متوقع وما هذا سيده كيف لا يعذر فى أوله ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجأ إلى الله تعالى وصدق الاختيار

(١) حديث قال يوم بدر : اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك البخارى من حديث ابن عباس بالفظ : اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم الحديث .

حركة وهم الدين وصفهم الله تعالى إذ قال - وقلوبهم وجلة - . ولما احتضر سفيان جعل يركي ويجزع قبيل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فان عفوا الله أعظم من ذنوبك ، فقال أو طي ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا . وحكى عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه ، فقال إذا حضرتني الوفاة فاقعد عند رأسي ، فان رأيتني متاً على التوحيد فخذ جميع ما أمسكه فاشتره لوزاوسكرا واشتره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس للنفات ، وإن متّ على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يفتروا بشهود جنازتي ليحضر جنازتي من أحبّ على بصيرة لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة . قال : وبم أعلم ذلك فذكر له علامة فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر والاوز وفرقه . وكان سهل يقول : للريد يخاف أن يتلى بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يتلى بالكفر . وكان أبو يزيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد فكأن في وسطى زناراً أخاف أن يذهب بي إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عني الزنار فهذا لي في كل يوم خمس مرات . وروى عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يامعشر الحواريين أنتم تخافون للمعاصي ، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر . وروى في أخبار الأنبياء أن نبيا شكاً إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف ، فأوحى الله تعالى إليه : عبيد أمارضيت أن عصمت قلبك أن تكفربي حتى تسألني الدنيا فأخذ التراب فوضه على رأسه ، وقال بلى قد رضيت ياربّ فأعصمني من الكفر ، فإذا كان خوف المارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء ، ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتدّ خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن : لو أعلم أني بريء من النفاق كان أحبّ إلي مما طلعت عليه الشمس وما عنوا به النفاق القبي هو ضد أصل الإيمان بل للراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلماً مناققا ، وله علامات كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم وإن كانت فيه خصلة منهن فيه شعبة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإذا خاصم فجر (١) » وفي لفظ آخر « وإذا هاهد فخر » وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفسير لا يخلو عن شيء منه إلا صدق إذ قال الحسن : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف للدخل والمخرج ، ومن الذي يخلو عن هذه المعاني بل صارت هذه الأمور مأثوفة بين الناس متباددة ونسي كونها منكراً بالكيفية بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة ، فكيف الظن بزماننا حتى قال حذيفة رضي الله تعالى عنه : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها مناققا إن لأحدهما من أحدكم في اليوم عشر مرات (٢) وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم

(١) حديث أربع من كن فيه فهو منافق الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو وقد تقدم في قواعد العقائد (٢) حديث حذيفة إن الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها مناققا الحديث أحمد من حديث حذيفة وقد تقدم في قواعد العقائد .

وسؤال البركة والخيرة
في ذلك وتقديم صلاة
الاستخارة . ثم إن
اختيار الصعبة
والأخوة عمل وكل
عمل يحتاج إلى النية
وإلى حسن الخاتمة
وقد قال عليه الصلاة
والسلام في الخبر
الطويل « سبعة
يظلمهم الله تعالى فمنهم
اثنان تهاجا في الله
فضاها على ذلك وما نا
عليه » إشارة إلى
أن الأخوة والصعبة
من شرطهما حسن
الخاتمة حتى يكتب
لهما ثواب للواخاة
ومتى أقصد للواخاة
بتضييع الحقوق فيها
فقد العمل من
الأول . قيل ما حد

من الشرر كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبار (١). وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكره من الناس مأتى مثله ، وأن تعبّ على شيء من الجور ، وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل من النفاق : أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك . وقال رجل لابن عمر رحمه الله إننا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون ، فإذا خرجنا تكلمنا فيهم ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) . وروى أنه سمع رجلا يذمّ الحجاج ويقع فيه ، فقال : رأيت لو كان الحجاج حاضرا أكتف تكلم بما تكلمت به قال لا قال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) . وأشد من ذلك ما روى أن نقرأ قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه ، فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه ، فقال تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) . وهذا حذيفة كان قد خص بعلم النفاقين وأسباب النفاق ، وكان يقول : إنه يأتي على القلب ساعة يتلىء بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مفرز إبرة ويأتي عليه ساعة يتلىء بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مفرز إبرة . فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الحاتمة ، وأن سببه أمور تتقدمه : منها البدع . ومنها المعاصي . ومنها النفاق ، ومتى تخلو العبد عن شيء من جملة ذلك وإن ظن أنه قد خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل من أمن النفاق فهو منافق . وقال بعضهم لبعض العارفين : إني أخاف على نفسي النفاق ، فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والحاتمة خائفا منهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قديقي لا يدري ما الله قاض فيه فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعجب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار (٥) » ، والله المستعان .

(بيان معنى سوء الحاتمة)

فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الحاتمة فما معنى سوء الحاتمة . فاعلم أن سوء الحاتمة على رتبتين : إحداهما أعظم من الأخرى . فأما الرتبة العظيمة المسائلة : فإن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك : وإما الجحود فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجبا

(١) حديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر الحديث البخاري من حديث أنس وأحمد والبراز من حديث أبي سعيد وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وصحح إسناده وتقدم في التوبة (٢) حديث قال رجل لابن عمر إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون الحديث رواه أحمد والطبراني وقد تقدم في قواعد العقائد (٣) حديث سمع ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال رأيت لو كان الحجاج حاضرا الحديث تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج (٤) حديث إن نقرأ قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه فلما خرج سكتوا الحديث لم أجد له أصلا (٥) حديث العبد المؤمن بين مخافتين من أجل قد مضى الحديث البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم في ذم الدنيا ذكره ابن المبارك في كتاب التزهيد بلاغا وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجوه ولعله في مسند الفردوس .

الشیطان متعاونین
على بر حسده
متأخین فی الله
متحاین فیہ فانه
یحسد نفسه وبعث
قیسه على إفساد
ما بینهما . وكان
الفضیل يقول : إذا
وقمت الغیة ارتفعت
الأخوة ، والأخوة فی الله
تعالی مواجهة قال
الله تعالی - إخوانا
على سرر متقابلین -
ومتی أضمر أحدهما
للآخر سوءا أو كره
منه شیئا ولم ینبهه
علیه حتى یزله أو
یتسبب إلى إزالته منه
فما واجبه بل استدره
قال الجنید رحمه الله
ما تواخى اثنان فی
الله واستوحش

بينه وبين الله تعالى أبداً وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد . والثانية وهى دونها أن يطلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها فيمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى فى تلك الحالة متمتع لغيره فيتفق قبض روحه فى تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسراً رأسه إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ومهما حصل الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه فأما المؤمن السليم قلبه عن حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار جز يا مؤمن فان نورك قد أطفأ لهما فهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر مخطر لأن المرء يموت على ما عاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه إذ لا تصرف فى القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال فلا مطمع فى عمل ولا مطمع فى رجوع إلى الدنيا ليتدارك وعند ذلك تعظم الحسرة إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة وتأكّد ذلك بالأعمال الصالحة فانه يمحو عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت فان كان إيمانه فى القوة إلى حد متعال أخرجته من النار فى زمان أقرب وإن كان أقل من ذلك طال مكثه فى النار ولو لم يكن إلا متقال حبة فلا بد وأن يخرج من النار ولو بعد آلاف سنين . فان قلت فما ذكرته يقتضى أن تسرع النار إليه عقيب موته فما باله يؤخر إلى يوم القيامة وبمهل طول هذه اللمدة . فاعلم أن كل من أسكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان بل الصحيح عند ذوى الأبصار ما سمعت به الأخبار وهو «أن القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (١)» . «وأنه قد يفتح إلى قبر المعبود سبعون باباً من الجحيم (٢)» كما وردت به الأخبار فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شق بسوء الخاتمة وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر (٣) والتعذيب بعده (٤) ثم المناقشة فى الحساب (٥) والافتضاح على ملاء من الأشهاد فى القيامة (٦) ثم بعد ذلك خطر الصراط (٧) وهول الزبانية (٨) إلى آخر ما وردت به الأخبار فلا يزال الشقى متردداً فى جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو فى جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته ولا تظن أن محل الإيمان يأكله التراب بل التراب يأكل جميع الجوارح ويدها إلى أن يبلغ الكتاب أجله

(١) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب وتقدم فى الأذكار (٢) حديث إنه يفتح إلى قبر المعبود سبعون باباً من الجحيم لم أجده أصلاً (٣) حديث سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر تقدم فى قواعد العقائد (٤) حديث عذاب القبر تقدم فيه (٥) حديث المناقشة فى الحساب تقدم فيه (٦) حديث الافتضاح على ملاء الأشهاد فى القيامة أحمد والطبرانى من حديث ابن عمر باسناد جيد من اتقى من ولده ليفضحه فى الدنيا فضحه الله على رموس الأشهاد وفى الصحيحين من حديث ابن عمر وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رموس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم والطبرانى والعقيلي فى الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة وهو حديث طويل منكر (٧) حديث خطر الصراط تقدم فى قواعد العقائد (٨) حديث هول الزبانية الطبرانى من حديث أنس الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران . قال صاحب الميزان حديث منكر وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم معضلاً فى خزنة جهنم ما بين منكبى أحدهم كما بين الشرق والغرب .

أحدهما من صاحبه إلا لعله فى أحدهما فالموأخاة فى الله أصنى من الماء الزلال وما كان لله فانه مطالب بالصفا فيه وكل ما صفا دام والأصل فى دوام صفائه عدم المخالفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمار أخاك ولا تماره ولا تعده موعدا فتخلفه» . قال أبو سعيد الحزاز : سمعت الصوفية خمسين سنة ما وقع بينى وبينهم خلاف قليل له وكيف ذلك ؟ قال لأنى كنت مهم على نفسى .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى إجازة قال أنا عمر بن أحمد الصغار قال أنا

فنجتمع الأجزاء للفرقة وتماد إليها الروح التي هي محل الإيمان وقد كانت من وقت الموت إلى الاعادة إما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعباد بالله شقية . فان قلت لما السبب الذي يفضي إلى سوء الحائمة . فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها أما الختم على الشك والوجود فينحصر سببه في شيئين : أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال كالبتدع الزاهد فان عاقبته مخطرة جدا وإن كانت أعماله سالحة ولست أعنى مذهبا . فأقول إنه بدعة فان يان ذلك يطول القول فيه بل أعنى بالبدعة أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقد على خلاف ما هو عليه إما برأيه ومعقوله ونظيره الذي به يجادل الخصم وعليه يعول وبه يترجم وإما أخذا بالتقليد ممن هذا حاله فاذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادئ سكراته منه فقد ينكشف به بعض الأمور فهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها فان اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعباد بالله منه فهو لاء هم المرادون بقوله تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - وبقوله عز وجل - قل هل تثشكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنما - وكما أنه قد ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي الغائمة للقلب من أن ينظر إلى اللسكوت فيطالع مافي اللوح المحفوظ لتكشف له الأمور على ما هي عليه فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ما هو به إما تقليدا وإما نظرا بالرأى والمعقول فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكتفي لدفع هذا الخطر بل لا ينحى منه إلا الاعتقاد الحق والبله بعزل عن هذا الخطر أعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا جملا راسخا كالأعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالاً ولأصغوا إلى أصناف التكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله (١) » ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعا وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاده نفي التشبيه ومنعهم عن الخوض في التأويل لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كثورة ومسالكه وعرة والمعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة وما ذكره الباحثون بيضاغة عقولهم مضطرب ومتمارض والقلوب لما ألقى إليها في مبتدأ النشأة آلفة وبه متعلقة والتصببات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للمقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من الطلحين في أول الأمر ثم الطباع

أبو بكر أحمد بن خلف
قال أنا أبو عبد الرحمن
السلي قال سمعت
عبد الله الداراني قال
سمعت أبا عمرو والدمشقي
الرازي يقول سمعت أبا
عبد الله بن الجلاء يقول
وقد سأله رجل على أي
شرط أصبح الخلق
قال إن لم تبرم فلا
تؤذم . وإن لم تسرم
فلا تسؤم . وبهذا
الاستناد قال أبو عبد الله
لاضيع حق أخيك
بما بينك وبينه من
الوادة والصدقة فان الله
تعالى فرض لكل
مؤمن حقوقا لم يضعها
إلا من لم يراع حقوق الله
عليه ومن حقوق
الصحة أنه إذا وقع
فرقة ومباينة لا يذكر

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله البرار من حديث أنس وقد تقدم .

يحب الدنيا مشغوفة وعلينا مقبلية وشهوات الدنيا بخلقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة فإذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأى والاعتقود مع تفاوت الناس في قرأهم واختلافهم في طبائهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعى الكمال أو الاحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب الصغين إليهم وتأكد ذلك بطول الإلف فيهم فانسدت بالكلية طريق الخلاص عليهم فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعرضوا للمأه وخارج عن حد طاقتهم ولكن الآن قد استرخى العنان ونشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الايمان ويظن أنه ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين - ولتعلن بناء بعد حين - ويبنى أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء:

أحسنك ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسامتك الليالي فاعترت بها وعند صفو الليالي يحدث السكر

أخاه الإخبر . قيل
كان لبعضهم زوجة
وكان يعلم منها ما يكره
فكان يقال له استخبارا
عن حالها فيقول لا ينبغي
للرجل أن يقول في أهله
الإخبر أفتأرقها وطلقها
فاستخبر عن ذلك فقال
امرأة بعدت عنى
وليست منى في شئ
كيف أذكرها وهذا
من التخلق بأخلاق الله
تعالى أنه سبحانه يظهر
الجميل ويستر القبيح
وإذا وجد من أحدهما
ما يوجب التقاطع فهل
ينفضه أولا يختلف
القول في ذلك . كان
أبو ذر يقول إذا انقلب
عما كان عليه أنفضه
من حيث أحببته وقال
غيره لا يفض الأخ

واعلم يقينا أن كل من فارق الايمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج فربما يتفق أن يلقى إلى الساحل وذلك بعيد والهلاك عليه أغلب . وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين يضاعف عقولهم إمامع الأدلة التي حرروها في تصباتهم أودون الأدلة فان كان شاكا فيه فهو فاسد الدين وإن كان واتقاه فهو آمن من مكر الله مغتر بقله الناقص وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين إلا إذا جاوز حدود العقول إلى نور المكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الأحمر وأنى يتيسر وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام والذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الحاتمة . وأما السبب الثاني فهو ضعف الايمان في الأصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله تعالى وقوى حب الدنيا فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى بالإمان حيث حديث النفس ولا يظهر له أثر في محاربة النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتراكم ظلمة النفوس على القلب فلا يزال يطنى ما فيه من نور الايمان على ضعفه حتى يصير طبعنا ورينا فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعنى حب الله ضعفا لما يبدو من استئثار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب فيتألم القلب باستئثار فراق الدنيا ويرى ذلك من الله فيخالج ضميره بانكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث إنه من الله فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب كما أن الذى يحب ولده حبا ضعيفا إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بضنا فان اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا والسبب الذي يفضى إلى مثل هذه الحاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله تعالى فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر وحب الدنيا رأس كل خطيئة وهو الداء المضال وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى إذ لا يحبه إلا من عرفه ولهذا قال تعالى - قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترعتموها وتجارة تخشون كسادها ومسكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترى بصواحتي يأتي الله بأمره - فاذن كل من فارقه روحه في حالة خطرة الانكار على الله تعالى بباله وظهور بغض قلب الله بقلبه في تفرقه بينه وبين أهله وماله

وسائر محابه فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد البغض الأبق إذا قدم به على مولاه قهرا فلا يخفى ما يستحقه من الحزى والنكال وأما الذي يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذي تحمل مشاق الأعمال ووعشاء الأسفار طمعا في لقاءه فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الأكرام وبدائع الانعام . وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار فلها أيضا سببان : أحدهما كثرة المعاصي وإن قوى الإيمان والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلف والمادة وجميع ما ألغى الانسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى فالذي لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر والذي لم يقارف ذنبا أصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر والذي غلبت عليه المعاصي وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم في حقه جدا ونعرف هذا بثال وهو أنه لا يخفى عليك أن الانسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره حتى إنه لا يرى إلا ما ياتل مشاهداته في اليقظة وحتى إن المراهق الذي يحتمل لا يرى صورة الوقوع إذا لم يكن قد وقع في اليقظة ولو بقي كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقوع ثم لا يخفى أن الذي قضى عمره في الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقير لأنه إنما يظهر في حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب والموت شبيه النوم ولكنه فوقه ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم فيقتضى ذلك تذكر المألوف وعوده إلى القلب وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره في القلب طول الإلف فطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضا مرجح وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق فتكون غلبة الإلف سببا لأن تمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث يرجح له الخلاص منها وكما أن ما يحظر في اليقظة إنما يحظر بسبب خاص يعلمه الله تعالى فكذلك أحوال المنامات لها أسباب عند الله تعالى تعرف بعضها ولا تعرف بعضها كما أننا نعلم أن الحاطر ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه . أما بالمشابهة فبأن ينظر إلى جميل فينذكر جميلا آخر وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جميل فينذكر قبيحا ويتأمل في شدة التفاوت بينهما وأما بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قدرآه من قبل مع إنسان فينذكر ذلك الانسان وقد ينتقل الحاطر من شيء إلى شيء ولا يدري وجه مناسبتة له وإنما يكون ذلك بواسطة واسطتين مثل أن ينتقل من شيء إلى شيء ثان ومنه إلى شيء ثالث ثم ينسى الثاني ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والأول مناسبة فكذلك لا تنتقل الحواطر في المنامات أسباب من هذا الجنس وكذلك عند سكرات الموت فعلى هذا واعلم عندنا أنه من كانت الخياطة أكثر أشغاله فانك تراه يومئذ إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها ويبل أصبعه التي لها عادة بالكسبان ويأخذ الأزار من فوقه ويقدره ويشبهه كأنه يتعاطى تفصيله ثم يمد يده إلى القراض ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طرقت له إلا المجاهدة طول العمر في فطامه

بعد الصجبة ولكن
يفض عمله قال الله
تعالى لبيبه صلى الله
عليه وسلم - فان
عصوك فقل إني بريء
مما تعملون - ولم يقل
إني بريء منكم .
وقيل . كان شاب يلازم
مجالس أبي الدرداء
وكان أبو الدرداء يحبه
على غيره فابتلى الشاب
بكبيرة من الكبائر
وانتمى إلى أبي الدرداء
ما كان منه قبيلا له
لو أبعدته وهجرته
فقال سبحان الله لا يترك
الصاحب بشيء كان
منه . قيل : الصداقة
لحمة كلحمة النسب .
وقيل لحكيم مرة
أيما أحب إليك أخوك
أوصديقك فقال إنما

نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخمية الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة السكرات الموت فانه يموت الرء على ما عاش عليه وعشر على ما مات عليه ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقي عند الموت كلتي الشهادة فيقول خمسة ستة أربعة فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت. وقال بعض العارفين من السلف العرش جوهره تتلا نورا فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش فرما يرى نفسه على صورة معصية وكذلك يكشف له يوم القيامة قبرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف ما يجمل عن الوصف وما ذكره صحيح وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك فان النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوة فاذا رجع سوء الحاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الحواطر ومقلب القلوب هو الله والاتفاقات اللقضية لسوء الحواطر غير داخلية تحت الاختيار دخولا كلياً وإن كان لطول الإلف فيه تأثير فهذا عظم خوف العارفين من سوء الحاتمة لأنه لو أراد الانسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذى رحمة الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المرید لشيخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال حكيت لشيخى أبى القاسم الكرماني مناماً لي وقلت رأيتك قلت لي كذا فقلت لم ذاك قال في هجرتي شهر اولم يكلمني وقال لولا أنه كان في باطنك تجوز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال إذ قلما يرى الانسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه فهذا هو القدر الذي نسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الحاتمة وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الحاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وترجى جميع العمر في طاعة الله من غير معصية فان كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلا بد وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكائك وبناحتك وبدوم به حزنك وقلقك كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لثار الخوف من قلبك وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح وأن سلامته مع اضطراب أمواج الحواطر مشكلة جداً ولذلك كان مطرف بن عبدالله يقول إني لأعجب ممن هلك كيف هلك ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا ولذلك قال حامد اللقاف إذا صدمت الملائكة بروح العبد المؤمن وقدمات على الخير والاسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فسدت فيها خيارنا وكان الثوري يوماً يبكي فقيل له علام تبكي فقال بكينا على الذنوب زماناً فالآن نبكي على الاسلام. وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبعدمن الملاك وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة وأمواج الحواطر أعظم النظام من أمواج البحر وإنما الخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الذي قال في رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب (١)» ولا يتسع فواق الناقة لأعمال توجب الشقاوة بل هي الحواطر التي تضرب وتخطر خطور البرق الخاطف وقال سهل رأيت كأنى أدخلت الجنة فرأيت ثلاثمائة نبي فسألهم ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا قالوا سوء

(١) حديث إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة الحديث تقدم .

أحب أخى إذا كان
صديقى وهذا الخلاف
في المفارقة ظاهراً وباطناً
وأما الملازمة باطنياً
وقعت المبينة ظاهراً
فتختلف باختلاف
الأشخاص ولا يطلق
القول فيه إطلاقاً من
غير تفصيل فمن الناس
من كان تغيره رجوعاً
عن الله وظهور حكم
سوء السابقة فيجب
بفضه وموافقة الحق
فيه ومن الناس من
كان تغيره عنرة
حدثت وفترة وقعت
يرجى عوده فلا ينبغي
أن يبغض ولكن
يبغض عمله في الحالة
الحاضرة ويلاحظ بعين
الود منتظراً له المرح
والعود إلى أوطان

الحاتمة ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مضبوطة عليها وكان موت الفجأة مكروها ، أما اللوت فجأة فلائنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب والقلب لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة ، وأما الشهادة فلائنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب إذ لا يهجم على صف القتال موطننا نفسه على اللوت لإحباطه وطلباً لمرضاته وبإعادته بأخرته وراضياً بالبيع الذي باهه الله به إذ قال تعالى - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة والبايع راضع عن البيع لا محالة ومخرج حبه عن القلب بمجرد حب العوض المطلوب في قلبه ومثل هذه الحالة قد يظن على القلب في بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها فصف القتال سبب زهوق الروح على مثل هذه الحالة هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والنعمة وحسن الصيت بالشجاعة فإن من هذا حاله وإن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار^(١) وإذ بان لك معنى سوء الحاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا واحرس عن فعل الماصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك واحترز عن مشاهدة الماصي ومشاهدة أهلها جهدك فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك وإياك أن تسوف وتقول سأستعد لها إذا جاءت الحاتمة فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيمروحك فراقب قلبك في كل تطريفة وإياك أن تحمل لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيماروحك هذا مادمت في يقظتك وأما إذا تمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن يظنك النوم لا يبد غلبة ذكر الله على قلبك لست أقول على لسانك فإن حركة اللسان بمجرد ما ضعيفة الأثر . واعلم قطعا أنه لا يصاب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالباً عليه وأنه لا يظن في النوم إلا ما كان غالباً قبل النوم ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك واللوت والبث شبه النوم واليقظة فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت للمرء إلا على ما عاش عليه ولا يبعث إلا على ما مات عليه وتحقق قطعا ويقينا أن اللوت والبث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب إن لم تكن أهلا لمشاهدة ذلك بين اليقين ونور البصيرة وراقب أنفاسك ولحظاتك وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين فانك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف إذا لم تفعل والناس كلهم هلكت إلا العالمون والعالمون كلهم هلكت إلا العالمون والعالمون كلهم هلكت إلا المخلصون والمخلصون كلهم هلكت إلا عظيم . واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك وضرورتك ، مطعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول والضرورة من الطعام ما يقيم صلبك ويسد رمقك فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه فهما ضرورتان في الجبلة وكلاهما لا يكون قضاء الحاجتين همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك قيمتك ما يخرج من بطنك وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى كتقصدك من قضاء

الصلح فقد ورد «أن النبي عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجل الذي آتى بأحشة قال له وزجرهم بقوله ولا تتكفونوا عونا للشيطان على أخيكم» وقال إبراهيم النخعي لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه فانه يركبه اليوم ويتركه غدا وفي الخبر «اتقوا زلة العالم ولا تقطموه واتظروا فيئسه» وروى أن عمر رضى الله عنه سأل عن أخ له كان آخاه فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال ما فعل أخى فقال له ذلك أخو الشيطان قال له ما قال له إنه قارف

(١) حديث المقتول في الحرب إذا كان قصده الغلبة والنعمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة مثق عليه من حديث أبي موسى الأشعري إن رجلا قال يا رسول الله الرجل يقاتل للغنم والرجل يقاتل للذئب والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله قتال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وفي رواية الرجل يقاتل شجاعة ويقاثل حمية ويقاثل رياء وفي رواية يقاتل غضبا .

حاجتك فعلامه ذلك تظهر في ثلاثة أمور: من مأكولك في وقته وقدره وجنسه أما الوقت فأقله أن يكفى في اليوم واليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقع بما يتفق فان قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مشوئة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشهوات وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله فان الحلال يميز ولا يضي بجميع الشهوات وأمام بسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدائق فطلبك غيره فضول منك بضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب حرمة والطمع أخرى من الحرام والشبهة وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تتكفف به في حساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت بمن لا يعلأ بطنه إلا التراب وكذلك السكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفا والأرض مستقرا فان غلبك حر أو برد فمليك بالمساجد فان طلبت مسكنا خاصا طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك وعمرك هو بضاعتك ثم إن تيسر لك قصصت من الخائض سوى كونه حائلا بينك وبين الأبصار ومن السقف سوى كونه دافعا للأقطار فأخذت ترفع الحيطان وترزين السقوف فقد تورطت في مهواة يبعد رقيق منها وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرت عليها تفرغت لله وقدرت على التزوّد لأخرك والاعتداد لحاتمك وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأمانى تشعبت همومك ولم يبال الله في أى واد أهلكك فأقبل هذه النصيحة بمن هو أحوج إلى النصيحة منك . واعلم أن متسع التدبير والتزوّد والاحتياط هذا العمر القصير فإذا دفعته يوما بيوم في تسويفك أو غفلتك اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك فان كنت لاتقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذ لم يكن فيما وصفناه من أمرا الحائجة كفاية في تخويفك فانا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيد بعض القساوة عن قلبك فانك تتحقق أن عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم يغمغم يغمم ميتا إلى الأرض ولا يغرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك فان قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشدة أو قوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما ينهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون -

(بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف)

روت عائشة رضى الله عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله^(١)» وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصعق^(٢)» وقال تعالى سوخر موسى صعقا - ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصعق^(٣)» وروى أنه عليه السلام كان إذا دخل

(١) حديث عائشة كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه الحديث متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث قرأ في سورة الواقعة فصعق المعروف بما يروى من هذه القصة أنه قرئ عنده - لدينا أنكلا وجحيا وطعما إذا غصة وعذابا ألجما - فصعق كما رواه ابن عدى والبيهقي في الشعب مرسلوا وهكذا ذكره المصنف على الصواب في كتاب السماع كما تقدم (٣) حديث إنه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق البرار من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته فقال ادع ربك فدعاه به فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع ويسير فلما رآه صعق ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلوا

الكبار حتى وقع في الحجر فقال إذا أردت الخروج فأذنى قال فكتب إليه - حم - تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - ثم عاتبه تحت ذلك وعذله فلما قرأ الكتاب بكى فقال صدق الله تعالى ونصح عمر قتاد ورجع . وروى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ابن عمر يلتفت بعينا وشمالا فسأله فقال يا رسول الله آخيت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه فقال يا عبد الله إذا آخيت أحدا فاسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فان

في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل (١) وقال صلى الله عليه وسلم «ما جاءني جبريل قط إلا هو يرعد فرقا من الجبار (٢)» وقيل لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يكيان فأوحى الله إليهما مالكتان يكيان كل هذا البكاء فقالا يارب مانا من مكرك فقال الله تعالى هكذا كونا لا تأمنا مكرى . وعن محمد بن النكدر قال لما خلقت النار طارت أئدة الملائكة من أماكنها فلما خلق بنو آدم طادت وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل «مالي لأرى ميكائيل يضحك فقال جبريل ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار (٣)» ويقال إن لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يضب الله عليهم فيعذبهم بها وقال ابن عمر رضي الله عنهما «خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر وبأكل فقال يا ابن عمر مالك لا تأكل قلت يا رسول الله لأشتهيته فقال لكني أشتهيته وهذا صبح رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو سألت ربي لأعطاني ملك قيسر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر اذا بقيت في قوم ينجشون رزق سنتهم ويضعف اليقين في قلوبهم قال فواقه ما برحنا ولا لنا حتى نزلت - وكان من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم - قال فقال رسول الله ﷺ إن الله ليأمركم بكنز المال ولا يتابع الشهوات من كنز دنائير يريد بها حياة فانية فان الحياة بيد الله الأواني لا كنز دنائير اولادها ولا أخبار رزق الله (٤)» وقال أبو الدرداء كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفا من ربه . وقال مجاهد بكى داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه فودى يداود أجماع أنت فتطمع أم ظلمت أن فسق أم عارتكسى فتحب نعمة هاج العود فاحترق من حر خوفه ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال يارب اجعل خطيئتي في كفى فصارت خطيئته في كفه مكتوبة فكان لا ييسط كفه لطعام ولا شراب ولا تبره إلا رآها فأبكته قال وكان يؤتى بالقدح ثائبا فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه . ويروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياة من الله عز وجل وكان يقول في مناجاته : إلهي إذا ذكرت خطيئتي صاقت على الأرض رحبها وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلى روعي سبحانك إلهي أيتها أطباء عبادك ليدأوا وخطيئتي فكلمهم عليك بدلتى فبؤس الأفاظين من رحمتك . وقال الفضيل بلغني أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخا واضع يده على

بلفظ فسقى عليه وفي الصحيحين عن عائشة رأى جبريل في صورته مرتين ولهما عن ابن مسعود رأى جبريل لهستائة جناح (١) حديث كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي من حديث عبد الله بن الشيخير وتقدم في كتاب السماع (٢) حديث ماجاءني جبريل قط إلا هو ترعد فرائضه من الجبار لم أجد هذا اللفظ وروى أبو الشيخير في كتاب العظيمة عن ابن عباس قال إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائضه فرقا من عذاب الله الحديث وفيه زميل بن سمالك الحنفى يحتاج إلى معرفته (٣) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالي لأرى ميكائيل يضحك فقال ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الحائضين من رواية ثابت عن أنس باسناد جيد ورواه ابن شاهين في السنة من حديث ثابت مرسل وورد ذلك أيضا في حق إسرافيل رواه البيهقي في الشعب وفي حق جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الحائضين (٤) حديث ابن عمر خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر وبأكل الحديث ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر قال البيهقي هذا إسناد مجهول والجراح بن مهنا ضعيف.

كان مريضا عدته وإن كان مشغولا أعتته « وكان يقول ابن عباس رضي الله عنهما ما اختلف رجل إلى مجلس ثلاثا من غير حاجة تكون له فعلت ما مكافأته في الدنيا وكان يقول سعيد بن العاص جليسي على ثلاث إذا دنا رحمته وإذا حدث أقبلت عليه وإذا جلس أوسعت له وعلامة خلوص المحبة لله تعالى أن لا يكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق أو إحسان فان ما كان معلولا يزول بزوال علته ومن لا يستند في خلقه إلى علة يهكم بدوام خلقه ومن شرط الحب في الله

رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال ارجعوا لأرأيكم إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني إلا بالبكاء ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداد الخطاء وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تحريق العظام واشتعال الحشا وقبل أن يؤمر بملائكة غلاظ شداد لا يصون الله ما أمرهم ويملون ما يؤمرون . وقال عبد العزيز بن عمر لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال إلهي مع صوتي في صفاء أصوات الصديقين ، وروى أنه عليه السلام لما طال بكاءه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه فقال يارب أمارح بكائي فأوحى الله تعالى إليه يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك فقال إلهي وسيدى كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأظنني الطير على رأسي وأنست بالوحوش إلى عمراني إلهي وسيدى فما هذه الوحشة التي بيني وبينك فأوحى الله تعالى إليه يا داود ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة للعصية يا داود آدم خلق من خلقى خلقته يدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقارى وشكالى الوحدة فزوجته حواء أمي وأسكنته جنى عصاني فطردته عن جوارى عريانا ذليلا يا داود اسمع مني والحق أقول أطمئنا فأطعمناك وسألنا فأعطيناك وعصيتنا فأمهلتناك وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلنا . وقال يحيى بن أبي كثير بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء فإذا كان قبل ذلك يوم أخرج له اللبؤ إلى البرية فأمر سليمان أن ينادى فيها ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت فتأتى الوحوش من البراري والصوامع والبيع فينادى فيها ألا من أراد أن يسمع نوح داود الجبال وتأتى الطير من الأوكار وتأتى العذارى من خدورهن وتجتمع الناس لذلك اليوم ويأتى داود حتى يرفى للنبؤ ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته يحيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت المومنان وطائفة من الوحوش والسباع والناس ثم يأخذ في أهوال القيامة وفي النباحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال يا أبناء قدمزقت السمعين كل ممزق وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والمومنان في الدناء فيبناهو كذلك إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك قال فيخر داود مغشيا عليه فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه آتى بسرير فحمله عليه ثم أمر مناديا ينادى ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول يا من قتلته ذكر النار يا من قتلته خوف الله ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأخلق بابه ويقول يا إله داود أغضبان أنت على داود ولا يزال يناجى ربه فيأتى سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعر فيقول يا أبناء تقو بهذا على ما تريد فأكل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم . وقال يزيد الرقاشي خرج داود ذات يوم بالناس يمشون ويخوفهم فخرج في أربعين ألفا فمات منهم ثلاثون ألفا ومارجع إلا في عشرة آلاف قال وكان له جارتان أخذهما حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب فعدتا على صدره وعلى رجله مخافة أن تفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت . وقال ابن عمر رضى الله عنهما دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت القدس وهو ابن ثمان حجج فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصفوف ونظر إلى مجتهدتهم قد خرقتوا التراقي وسلسكوا فيها السلاسل وشدوا أنفسهم إلى أطراف بيت القدس فهاله ذلك

إيثار الأخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا قال الله تعالى - يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - فقوله تعالى - لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا - أى لا يحسدون إخوانهم على ما لهم وهذا الوصفان بهما يكمل صفو المحبة أحدهما انزعاج الحسد على شيء من أمر الدين والدنيا . والثاني الإيثار بالمقدور . وفي الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام «المرء على دين خليله والاخير

فرجع إلى أبيه فر بصبيان يلعبون فقالوا له يا يحيى هلم بنا لنلعب فقال إني لم أخلق للعب قال فأتى أبيه فسألها أن يدركه الشعر فعملا فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهارا ويصبح فيه ليلا حتى أتت عليه خمسة عشرة سنة فخرج ولزم أطواد الأرض وغيران الشعاب فخرج أبواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن وقد أتقن رجليه في الماء حتى كاد العطش يذمجه وهو يقول وعزتك وجلالك لأذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك فسأله أبواه أن يظفر على قرص كان متهما من شعير ويشرب من ذلك الماء فضل وكفر عن يمينه فمدح بالبرفردة أبواه إلى بيت المقدس فكان إذا قام يصلى بكى حتى يسكى معه الشجر والدر ويسكى زكريا عليه السلام ليكائه حتى يغمى عليه فلم يزل يسكى حتى خرقت دموعه لحم خديه وبدت أضراسه للناظرين فقالت له أمه يا بني لو أذنت لي أن أخذلك شيئا تواري به أضراسك عن الناظرين فأذن لها فعمدت إلى قطمق لبود فألصقتهما على خديه فكان إذا قام يصلى بكى فإذا استنقعت دموعه في القطمتين أتت إليه أمه فمصرتهما فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمه قال اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين فقال له زكريا يوما يا بني إنما سألت ربي أن يهبك لي لتقر عيناي بك فقال يحيى يا أبت إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكاء فقال زكريا عليه السلام يا بني فابك . وقال المسيح عليه السلام : معاشر الخواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا يحيى أقول لكم إن أكل الشعير والنوم على الزايل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل . وقيل كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغمى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا في ميل فيأتيه جبريل فيقول له ربك يقرئك السلام ويقول هل رأيت خيلا يخاف خليله فيقول يا جبريل إني إذا ذكرت خطيئتي نسيت فهدى أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فانهم أعرف خلق الله بالله وصفاته صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله للقرين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف)

روى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر ليتني مثلك يا طائر ولم أخلق بشرا . وقال أبوذر رضي الله عنه وددت لو أتى شجرة تعضد وكذلك قال طلحة . وقال عثمان رضي الله عنه وددت أني إذا مت لم أبعث وقالت عائشة رضي الله عنها وددت أني كنت نسيا منسيا وروى أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغمشيا عليه فكان يباد أيا ما وأخذ يوما تبنة من الأرض فقال يا ليتني كنت هذه التبنة يا ليتني لم أك شيئا مذكورا يا ليتني كنت نسيا منسيا يا ليتني لم تلدني أمي وكان في وجه عمر رضي الله عنه خيطان أسودان من السموع . وقال رضي الله عنه من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولو لا يوم القيامة لكان غير ماترون ولما قرأ عمر رضي الله عنه - إذا الشمس كورت - وانتهى إلى قوله تعالى - وإذا الصحف نشرت - خر مغمشيا عليه وصرى يوما بدار إنسان وهو يصلى ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى - إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع - نزل عن حمارة واستند إلى حائط ومكث زمانا ورجع إلى منزله فمرض شهر ايعوده الناس ولا يدرون ممرضه وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فلم أر اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون شماصرا غبرا بين أعينهم أمثال الركب للمزى قد باتوا لله سجدا وقياميتلون كتاب الله يراو حون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا ذكروا الله فنادوا كل عبيد الشجر في يوم الريح ومهلت أعينهم بالسموع حتى تبل ثيابهم والله فسكأن بالقوم باتوا غافلين

ك في صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه وكان يقول أبو معاوية الأسود إخواني كلمم خير مني قيل وكيف ذلك قال كلمم يرى لي الفضل عليه ومن فضلتني على نفسه فهو خير مني وبعضهم نظما : تذلل لمن إن تذلت له يرى ذلك للفضل لا لله

وجانب صداقة من من لم يزل على الأصدقاء يرى الفضل له .

[الباب الخامس والخمسون في آداب الصحبة والأخوة]
سئل أبو حفص عن أدب الفقراء في الصحبة

ثم قام فما رؤى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم ، وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رمادا تنسفي الرياح في يوم عاصف ، وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : وددت أني كبش فيذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحسون مرقى ، وكان طي بن الحسين رضي الله عنه إذا توشأ اصفر لونه فيقول له أهله ما هذا الذي يتأكد عند الوضوء فيقول أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم . وقال موسى بن مسمود كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا المأري من خوفه وجزعه وقرأ مضر القاري يوما - هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق - الآية فبكي عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه فلما أفاق قال وعزتك لاعتصبتك جهدي أبدا فأعنى بتوفيقك طي طاعتك ، وكان للسور ابن مخزومة لا يقوى أن يسمع شيئا من القرآن لشدة خوفه ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة لما يعقل أياها حتى أتى عليه رجل من ختم ققرأ عليه - يوم نحشر التقيين إلى الرحمن وفدا ونسوق الجرمين إلى جهنم وردا - فقال أنا من الجرمين ولست من التقيين أعد على القول أيها القاري فأعادها عليه فشبه شهقة فلحق بالآخرة ، وقرىء عند يحيى البكاء - ولو ترى إذ وقفوا على ربهم - فصاح صيحة مكث منها مريضا أربعة أشهر يناد من أطراف البصرة ، وقال مالك بن دينار بينا أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجورية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول يارب كم شهوة ذهبت لذلها وبقيت تبعاتها يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار وبئس ما كان ذلك مقامها حتى طلع العجر ، قال مالك فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخا أقول نكلت مالكا أمه ، وروى أن الفضيل رؤى يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الشكلى المحترقة حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال واسوأناه منك وإن غفرت ثم انقلب مع الناس ، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف فرحة وأعينهم باكية يقولون كيف نخرج والموت من ورائنا والقبر أمامنا والقيامة موعدا وطى جهنم طريقنا وبين يدي الله ربنا موقنا . ومر الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحكته وهو جالس مع قوم في مجلس فقال له الحسن باق هل مررت بالصراط قال لا قال فهل تدرى إلى الجنة تصير أم إلى النار قال لا قال فما هذا الضحك قال فمارؤى ذلك الفقى بعدها ضاحكا . وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس مجلس مستوفزا على قدميه فيقال له لو اطمأنتت فيقول تلك جلسة الأمن وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى ، وقال عمر بن عبد العزيز : إنما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله تعالى ، وقال مالك بن دينار لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدوني ويغلوني ثم ينطلقوا بي إلى ربى كما ينطلق بالعبد الأبق إلى سيده ، وقال حاتم الأصم لا تغتر بموضع صالح فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقي آدم عليه السلام فيها ملقى ولا تغتر بكثرة العبادة فان إبليس بعد طول تعبه لقي ملقى ولا تغتر بكثرة العلم فان بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بقلائه أقاربه وأعداؤه . وقال السرى : إنى لأنظر إلى أنفى كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسود وجهى ، وقال أبو حفص منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسى أن الله ينظر إلى نظر السخط وأعمالى تدل على ذلك ، وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال إنى اجترأت البارحة على الله سأله الجنة ، وقالت أم محمد بن كعب القرظى لابنها يابى إنى أعرفك صغيرا طيبا وكبيرا طيبا وكأنك أحدثت حدثا موبقا لما أراك تصنع في ليلتك ونهارك فقال يا أمه ما يؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع على وأنا على بعض ذنوبى فمقتنى وقال وعزنى وجلالى لا غفرت لك ، وقال الفضيل إنى لا أغبط نبيامرسلا ولا ملكا مقربا ولا عبدا صالحا أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة إنما أغبط من لم يخلق . وروى « أن فق من الأنصار

فقال حفظ حرمت
الشايخ وحسن
العشرة مع الاخوان
والنصيحة للأصغر
وترك صحبة من ليس
في طبقتهم وملازمة
الايثار ومجانبة الادخار
والمعاونة في أمر الدين
والدنيا فمن أدهم
التغافل عن زلل
الاخوان والصحف فبا
يجب فيه النصيحة
وكنتم عيب صاحبه
واطلاعه على عيب
يعلم منه . قال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه
رحم الله امرأ أهدي
إلى عيوبى وهذا فيه
مصلحة كلية تكون
للشخص ممن ينهيه
على عيوبه قال جعفر
ابن برقان قال لى

دخلته خشية النار فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه واعتنقه فخر ميتا فقال ﷺ جهزوا صاحبكم فان الفرق من النار فتت كبده (١) «وروى عن ابن أبي مسيرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول يا ليت أمتي لم تلدني فقالت له أمه يا مسيرة إن الله تعالى قد أحسن إليك هداك إلى الإسلام قال أجل ولكن الله قديين لنا وأنا ولدو النار ولم يبين لنا أنا صادرون عنها وقيل لفرقد السبغي أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني إسرائيل فقال بلغني أنه دخل بيت المقدس خمسمائة غدراء لباسهن الصوف والسوح فتذا كرن ثواب الله وعباقه فتن جميعا في يوم واحد وكان عطاء السلي من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا إنما كان يسأل الله العفو وقيل له في مرضه ألا تشتهي شيئا فقال إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة ويقال إنه ما رفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة وأنه رفع رأسه يوما فزع فسقط فأنفتق في بطنه فتق وكان يمس جسده في بعض الليلة عفاة أن يكون قد مسخ وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء طهام قال هذا من أجل يصيبهم لومات عطاء لاستراح الناس ، وقال عطاء خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء قد تورمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم في رؤسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الأوتار يصبحون كأن جلودهم تشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله الطيعة وكيف أهان العاصين فينبأهم بمشون إذ مر أحدهم بمكان غفر مغشيا عليه فجلس أصحابه حوله يكون في يوم شديد البرد وجبينه برشح عرقا فجاءوا بعماء فمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن أمره فقال إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان. وقال صالح المري قرأت على رجل من التبعدين - يوم تقلب وجوههم في النار يقولون باليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول - فصعق ثم أفاق فقال زدني يا صالح فاني أجد غما قرأت - كما أراؤا أن يخرجوا منها أعيدها فبقها - فخر ميتا ، وروى أن زرارة بن أبي أوفى صلى بالناس النداء فلما قرأ - فاذا نقر في الناقر - خر مغشيا عليه فحمل ميتا. ودخل زيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال عظمي يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين اعلم أنك لست أول خليفة يموت فبكي ثم قال زدني قال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت فبكي ثم قال زدني يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل غفر مغشيا عليه . وقال ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية - وإن جهنم لم تعدم أجمعين - صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدررون عليه (٢) ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول يا ابنه ليت شمري أي خديك بدأ به الدود أولا فصعق داود وسقط مكانه وقيل مرض سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذمى فقال هذا رجل قطع الخوف كبده ثم جاء وجس عروقه ثم قال ما علمت أن في اللثة الحنيفة مثله وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه سألت الله عز وجل أن يفتح علي بابا من الخوف ففتح ففتحت علي عيني فقلت يارب طي قدر ما أطيق فسكن قلبي وقال عبد الله بن عمرو بن العاص أبكوا فان لم تبكوا فنيا كوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (٣) » وقال العنبري اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ولحيته

ميمون بن مهران قل لي في وجهي ما أكره فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكرهه فان الصادق يجب من صدقه والكاذب لا يجب الناصح قال الله تعالى ولكن لا تحبون الناصحين - والنصيحة ما كانت في السر. ومن آداب الصوفية القيام بخدمة الإخوان واحتمال الأذى منهم فبذلك يظهر جوهر الفقير روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بقلع ميزاب كان في دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفا والمروة فقال له العباس قلمت ما كان

(١) حديث إن فتي من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه في البيت الحديث ابن أبي الدنيا في الخائفين من حديث حذيفة والبيهقي في الشعب من حديث سهل بن سعد باسنادين فيهما نظر .
(٢) حديث ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وإن جهنم لم تعدم أجمعين صاح سلمان الفارسي لم أقف له على أصل (٣) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا في قواعد العقائد

ترجف فقال عليكم بالقرآن عليكم بالصلاة ويحكم ليس هذا زمان حديث إنما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الفريق إنما هذا زمان احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وروى الفضيل يوما وهو يمشي قليل له إلى ابن؟ قال لأدري وكان يمشي والمها من الخوف . وقال ذر بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال التكلمين يتكلمون فلا يسيء أحد فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب فقال يا بني ليست النائمة الشكلى كالنائمة للتأجرة وحكي أن قوما وقفوا بعباد وهو يسيء فقالوا ما الذي يبكيك يرحمك الله ؟ قال فرحة يجدها الخائفون في فلوبهم قالوا وما هي ؟ قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل . وكان الخواص يسيء ويقول في مناجاته قد كبرت وضفت جسمي عن خدمتك فأعتقني . وقال صالح المري : قدم علينا ابن السكاة مرة فقال أرني شيئا من بعض عجائب عبادكم فنحبت به إلى رجل في بعض الأحياء في خص له فاستأذنا عليه فإذا رجل يعمل خوصا فقرأت عليه - إذا الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون - فسحق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا إلى آخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فسحق شهقة وخر مغشيا عليه فذهبنا واستأذنا على ثالث فقال ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا فقرأت - ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد - فسحق شهقة فبدأ اللهم من منجربه وجعل يتشطح في دمه حتى يبس فتركناه على حاله وخرجنا فأدبرته على ستة أنفاس كل نخرج من عنده وتركه مغشيا عليه ثم أتيت به إلى السابع فاستأذنا فإنا امرأة من داخل الحصن تقول ادخلوا فدخلنا فإذا شيخ فان جالس في مصلاه فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا فقلت بصوت عال إلا إن للمخلوق غدا مقاما فقال الشيخ بين يدي من ويحك ثم بقى مبهوتا فأخافاه شاخصا بصره يصيح بصوته له ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت فقالت امرأته اخرجوا فانكم لا تنتفمون به الساعة فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم فإذا ثلاثة قد أفاقوا وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حاله مبهوتا متحيرا لا يؤدى فرضا فلما كان بعد ثلاث عطل وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال وكان قد حلف أنه لا يضحك أبدا ولا ينام مضطجعا ولا يأكل ممنا أبدا لمارؤى ضاحكا ولا مضطجعا ولا يأكل ممنا حتى مات رحمه الله . وقال الحجاج لسعيد بن جبير بلغنى أنك لم تضحك قط فقال كيف أضحك وجههم قد سمعت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدت وقال رجل للحسن يا أبا سعيد كيف أصبحت قال بهير قال كيف حالك فتبسم الحسن وقال تسألنى عن حالى ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة على أى حال يكون قال الرجل على حال شديدة قال الحسن حالى أشد من حالهم . ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عينها فرقدت فاستبكت في منامها ثم انتبهت فقالت يا أمير المؤمنين إني والله رأيت عجبا قال وما ذلك ؟ قالت رأيت النار وهى تزفر على أهلها ثم جىء بالصراط فوضع على منها فقال هيه قالت جئى بعبء لللك بن مروان فحمل عليه فامضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جىء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فامضى إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جىء بسليمان بن عبد الملك فامضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك فقال عمر هيه قالت ثم جىء بك والله يا أمير المؤمنين فصاح عمر رحمه الله عليه صيحة خرا مغشيا عليه فقامت إليه فجعلت تنادى في أذنه يا أمير المؤمنين إني رأيتك والله قد نجوت إني رأيتك والله قد نجوت قال وهى تنادى وهو يصيح ويفحص برجليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه يده فقال إذن لا يردى إلى مكانه غير يدك ولا يكون لك سلم غير عاتق عمر فأقامه على عاتقه وورده إلى موضعه ومن أدبهم أن لا يرون أنفسهم ملكا يختصون به قال ابراهيم بن شيان كنا لانسحب من يقول نعلى . أخبرنا بذلك رضى الدين عن أبي اللفظ عن والده أبو القاسم القشيري قال سمعت أبا حاتم الصوفى قال سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك وقال أحمد بن القلانى دخلت على قوم من الفقهاء يوما بالبصرة فأكرموني

ويحكى أن أويسا القرني رحمه الله كان يحضر عند القاص فيسكي من كلامه فإذا ذكر النار صرخ أويسا ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسدهم وراءه وكان طاوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتقل كما تتقل الحبة في القلي ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول طبر ذكر جهنم نوم الخائفين . وقال الحسن البصري رحمه الله : يخرج من النار رجل بعد ألف عام بالتي كنت ذلك الرجل وإنما قال ذلك خوفا من الخلود وسوء الخاتمة . وروى أنه ماضحك أربعين سنة قال وكنت إذا رأيت قاعدا كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه وإذا تكلم كأنه يماين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها فإذا سكنت كأن النار تسر بين عينيه وعوتب في شدة حزنه وخوفه فقال ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع في طي بعض مايكبره ففتنى فقال اذهب فلاغفرت لك فأنا أعمل في غير معتمل . وعن ابن السكيت : قال وعظت يوما في مجلس قمام شاب من القوم فقال يا أبا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن لانسمع غيرها قلت وماهي رحمك الله قال قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أوفى النار ثم غاب عنى فقعدته في المجلس الآخر فلم أره فسألت عنه فأخبرت أنه مريض يماد فأنتبه أعوده فقلت يا أخى ما الذى أرى بك فقال يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو النار قال ثم مات رحمه الله فرأيت في المنام فقلت يا أخى ما فعل الله بك ؟ قال غفرتى ورحمتى وأدخلنى الجنة قلت بماذا ؟ قال بالكلمة فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين ونحن أجدر بالحوف منهم لكن ليس الحوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكال المعرفة وإفليس أمننا لقلعة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا فلاقرب الرحيل ينهبنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ولا خطر الخاتمة يزهبنا فسأل الله تعالى أن يتدارك بفضل وجوده أحوالنا فيصلحنا إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد يفننا . ومن العجائب أنا إذا أردنا المال في الدنيا زرنا وغرنا وأجرنا وركبنا البحار والبرارى وخاطرنا وإن أردنا طلب رتبة العلم تفقها وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا ونجهدنا في طلب أرزاقنا ولاشئ بضمان الله لنا ولاجلس في بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بألسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا والذى إلهمرجاؤنا وبه اعترأنا ينادينا ويقول - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . ولا يفرنكم بالله الفرور . يا أيها الانسان ما تحرك بربك الكريم - ثم كل ذلك لا ينهبنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا فهذه إلا محنة هائلة إن لم يفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويجبرنا فسأل الله تعالى أن يتوب علينا بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سراير قلوبنا وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يعمل ولا يسمع ولا يقبل إذا سمعنا الوعظ بكينا وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلاعلامه للخذلان أعظم من هذا فسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشدينه وفضله ولتقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه فان القليل من هذا يصادف القلب القابل فيسكى والكثير منه وإن أفيض على القلب العاقل فلايشئ . ولقد صدق الراهب الذى حكى عنه عيسى بن مالك الحولاني وكان من خيار العباد أنه رآه على باب بيت القدس واقفا كهيشة المحزون من شدة الوله ما يكاديرقأدمعه من كثرة البكاء فقال عيسى لما رأته هالتي منظره قلت أيها الراهب أوصنى بوصية أحفظها عنك فقال يا أخى بماذا أوصيك إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والموام فهو خائف حذر

وبجلوني قلت يوما
لعضهم أين إزارى
فقطت من أعينهم .
وكان ابراهيم بن آدم
إذا صحبه إنسان شارطه
على ثلاثة أشياء أن
تكون الخدمة
والأذان له وأن تكون
يده في جميع مايفتح
الله عليهم من الدنيا
كيد فقال رجل من
أصحابه أنا لأقدر على
هذا فقال أعجبني
صدقك . وكان ابراهيم
ابن آدم ينظر البساتين
ويعمل في الحصاد
وينفق على أصحابه .
وكان من أخلاق
السلف أن كل من
احتاج إلى شئ من
مال أخيه استعمله من
غير مؤامرة قال الله

يخاف أن يفشل ففترسه السباع أو يسهو فتهشه الهوام فهو مذكور القلب وجل فهو في الحفاقة ليله وإن أمن القفرون وفي الحزن نهاره وإن فرح البطالون ثم ولي وتركني ققلت لو زدتي شيئا عسى ينفضي فقال الظمآن يجزيه من الماء أيسره وقد صدق فإن القلب الصافي يحرکه أدنى حفاقة والقلب الجلمد تنبو عنه كل المواعظ وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق فانك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيت مشحونا بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الفضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها فإذا انكشف الغطاء، ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها المواقفة لما نياها ترى عينك العقارب والحيات وقد أهدت بك في قبرك وإنما هي صفاتك الخاضرة الآن قد انكشفت لك صورها فإن أردت أن تغلبها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلا عن ظاهر بشرتك والسلام.

كتاب الفقر والزهد

(وهو الكتاب الرابع من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي تسبح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتتكدك من هيبته الجبال ، خلق الانسان من الطين اللابز والاصلال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له في قرع باب الخدمة بالقُدو والآصال ، ثم كحل بصيرة الخالص في خدمته بنور المبرة حتى لاحظ بضائه حضرة الجلال ، فلاح له من الهبة والبهاء والكمال ، ما استتبع دون مبادئ إشراقه كل حسن وجمال ، واستتقل كل ماصرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستئقال ، وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تيس وتختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الحزى وضربت في قالب النكال ، وهي متلفعة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت جبالها في مدارج الرجال ، فهي تقتنصهم بضروب السكر والاختيال ، ثم لا تجزى منهم بالخلف في مواعيد الوصال ، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال ، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال ، زهدوا فيها زهد البعض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكأر بالأموال ، وأقبلوا بكنههم على حضرة الجلال ، واتقن منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يعترها فناء ولا زوال ، والصلاة على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل .

[أما بعد] فان الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها ضل من ضل وبمكرها زل من زل فإرأس الخطايا والسيئات ، وبفضها أم الطاعات وأس القربات ، وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها في كتاب فم الدنيا من ربيع المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البعض لها والزهد فيها فانه رأس النجيات ، فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزواتها عن العبد ويسمى ذلك فقرا وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات وحظ في الاطاعة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودور جاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه ونبدأ بذكر الفقر فنقول : [الشطر الأول من الكتاب في الفقر] وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقا وبيان

(كتاب الفقر والزهد)

تعالى - وأمرهم شورى بينهم - أى مشاعهم فيه سواء ومن أدبهم أنهم إذا استئقوا صاحباً يتهمون أنفسهم ويتسبون في إزالة ذلك من بواطنهم لأن انطواء الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليجة في الصعبة. قال أبو بكر الصكتاني صحبني رجل وكان على قلبي ثقيلاً فوهبت له شيئاً بنية أن يزول ثقله من قلبي فلم يزل فخلوت به يوماً وقلت له ضع رجلك على خدي فأبى فقلت له لا بد من ذلك ففعل ذلك فزال ما كنت أجده في باطني قال الرقي قصدت من الشام إلى الحجاز

خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة الفقير على الغنى وبيان أدب الفقير في فقره وبيان أدبه في قبوله العطاء وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة وبيان مقدار النفي المحرم للسؤال وبيان أحوال السائلين والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه .

(بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه)

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقرا وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا وإذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثانی الحال ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد منه من غير الله تعالى ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحدا فليس في الوجود إلا غنى واحد وكل من عداه فانهم محتاجون إليه ليجدوا وجودهم بالدوام وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى - والله الغنى وأتم الفقراء - هذا معنى الفقر مطلقا وكل الساقط من بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص والإفقر العبد بالاضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر لأن حاجاته لا حصر لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال وهو الذي يريد الآن بيانه فقط فقول: كل فاقده للمال فانا نسميه فقيرا بالاضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك الفقد محتاجا إليه في حقه ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ونحن نميزها ونخص كل حال باسم لتتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها : الحالة الأولى وهي العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهو رب من أخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو الزهد واسم صاحبه الزاهد . الثانية أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهده فيه لو أتاه وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا . الثالثة أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه بل إن أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به وصاحب هذه الحالة نسميه قائما إذ تنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيها من الرغبة الضعيفة . الرابعة أن يكون تركه الطلب لهجزه وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه وهو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص . الخامسة أن يكون ما فقده من المال مضطرا إليه كالجائع القاعد للخبز والعماري القاعد للثوب ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية وقدا تفك هذه الحالة عن الرغبة ، فهذه خمسة أحوال أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوى عنده وجود المال وبقده فان وجدته لم يفرح به ولم يتأذى وإن فقده فكذلك بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله عنها إذ أتاهامائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادماتها ما استطعت فبها فرقت اليوم أن تشتري لنا بدمر لحما تنظر عليه فقالت لو ذكرتيني لعلت فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بخذا في يده وخزائمه لم تضره إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لافي يده نفسه فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة للستغنى لأنه غنى عن فقد المال ووجوده جيماليا فيهم من هذا الاسم معنى يشارك اسم النفي المطبق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد فان من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده وإتمامه غنى عن دخول المال في يده لاعتقائه فهو إذن فقير من وجه وأما هذا الشخص فهو غنى عن دخول المال في يده وعن بقاءه في يده وعن خروجه من يده أيضا فإنه ليس يتأذى به ليجتاج إلى إخراجه وليس يفرح به ليجتاج إلى بقاءه وليس فاقدا له

حتى سألت الكنانى عن هذه الحكاية . ومن أدهم تقديم من يعرفون فضله والتوسعة له في المجلس والايثار بالوضع . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا في صفة ضيقة فجاءه قوم من البدرين فلم يجدوا موضعا يجلسون فيه فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يكن من أهل بدر فجلسوا فكانهم فاشتر ذلك عليهم فأنزله الله تعالى - وإذا قيل انشروا فانشروا - الآية وحكى أن علي بن بدار الصوفي ورد على أبي عبد الله بن خفيف زائرا فباشيا فقال له

ليحتاج إلى الدخول في يده فنناه إلى العموم أميل فهو إلى الفنى الذى هو وصف الله تعالى أقرب وإنما قرب البعد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكننا لانسمى صاحب هذه الحالة غيايبل مستغنيا ليقى الفنى اصلا من له الفنى المطلق عن كل شئ، وأما هذا البعد فان استغنى عن المال وجودا أوعدما فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليقى استغناؤه الذى زين الله به قلبه فان القلب للقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر والله تعالى هو الذى أعنته من هذا الرقى فهو محتاج إلى دوام هذا العتق والقلوب متقلبة بين الرقى والحرية في أوقات متقاربة لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن فلذلك لم يكن اسم الفنى مطلقا عليه مع هذا الكمال إلا مجازا. واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من الفقيرين فلا جرم صار الزهد في حقه تصانفا إذ حسات الأبرار سيئات الفقيرين وهذا لأن الكارهة للدنيا مشغول بالدنيا كما أن الراغب فيها مشغول بها والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى إذ لا بعديتك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا فإنه أقرب إليك من جبل الوريد وليس هو في مكان حتى تكون السموات والأرض حجابا بينك وبينه فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره وأنت لا تزال مشغولا بنفسك وبشهووات نفسك فكذلك لا تزال محجوبا عنه فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى والمشغول بغيره مشغول عنه أيضا مشغول عن الله تعالى بكل ماسوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمشوق فان التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستغفاله وكرهه حضوره فهو في حال اشتغال قلبه بغيره مشغول عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ولو استغفقه المشق لفعل عن غير المشوق ولم يلتفت إليه فكما أن النظر إلى غير المشوق لحبه عند حضور المشوق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ولكن أحدهما أخف من الآخر بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضا وحبا فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا يجتمع أيضا بغض وحب في حالة واحدة فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها إلا أن المشغول بحبها غافل وهو في غفلة سالك في طريق البعد والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلة سالك في طريق القرب إذ يرجى له أن ينتهى حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتبدل بالشهود الكمال له مرتبة لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالهيب والبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها ونسييرها ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبرها فهما سيان بالاضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ولكن حال المستقبل محمود بالاضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها وليس محمودا بالاضافة إلى العتكف في الكعبة اللازم لها الذى لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها فلا ينبغي أن تظن أن بغض الدنيا مقصود في عينه بل الدنيا طائق عن الله تعالى ولا وصول إليه إلا بدفع العائق ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استجبل الراحة بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة فيبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع العرق العائق عن الحج، فاذن قد ظهر أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال وإن أريد به الرغبة في علمها فهو كمال بالاضافة إلى درجة الراضى والقانع والحريص وتقصان بالاضافة إلى درجة المستغنى بل الكمال في حق المال أن يستوى عندك المال والماء وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطئ البحر ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يبغض الماء الكثير بل تقول أشرب

أبو عبد الله تقدم فقال بأى عذر فقال بأنك لقيت الجنيد ومالقيته ومن أديهم ترك محبة من همه شئ من فضول الدنيا قال الله تعالى - فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا - ومن أديهم بذل الانصاف للاخوان وترك مطالب الانصاف قال أبو عثمان الجيرى حق الصعبة أن توسع على أخيك من مالك ولا تطمع في ماله وتصفه من نفسك ولا تطلب منه الانصاف وتكون تبعاله ولا تطمع أن يكون تبعالك وتستكثر ما يصل إليك منه وتستقل ما يصل إليك

منه بقدر الحاجة وأسقى منه عباد الله بقدر الحاجة ولا يجعل به على أحد فهو كذا ينبغي أن يكون المال لأن الخبز والماء واحد في الحاجة وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبره العالم علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لعمالة ما مدت حيا كأيأتيك قدر حاجتك من الماء على ماسيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى، قال أحمد بن أبي الحواري قلت لأبي سليمان الداراني قال مالك بن دينار للغيرة اذهب إلى البيت فخذ الركوة التي أهديتها لي فإن العدو يوسوس لي أن اللص قد أخذها قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية قدزاده في الدنيا ما غلبه من أخذها فبين أن كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان . فان قلت فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفاق . فأقول: كما هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم ففروا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايات يدرونهم مع أنفسهم بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري للمحتاجين إليه لأنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حدثت خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهم فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها (١) إذ كان يستوى عندهم المال والماء والذهب والحجر وما نقل عنهم من امتناع فلما أن يتقل عمن خاف أن لو أخذها أن يخذله المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات وهذا حال الضعفاء فلا جرم البغض للمال والمهرب منه في حقهم كمال وهذا حكم جميع الخلق لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء وإما أن يتقل عن قوى بلغ الكمال ولكن أظهر الفاروق والنارزول إلى درجة الضعفاء ليقصدوا به في الترك إذ لو اتدوا به في الأخذ لم يتركوا كما يفرض للرجل المعزوم بين بدى أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعله أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رآها فليس يكون والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء فقد عرفت إذن أن الراتب ست وأعلاها رتبة المستغنى ثم الزاهد ثم الراضى ثم القانع ثم الحريص ، وأما الضطر فتصور في حقه أيضا الزهد والرضا والقناعة ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال واسم الضعير يطلق على هذه الخمسة أما تسمية المستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى بل إن سمى فقيرا في معنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغناؤه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقربها فإنه أحق باسم العبد من العاقلين وإن كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين هذين للعنيين وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بك من الفقر» (٢)

(١) حديث إن خزائن الأرض حمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها هذا معروف وقد تقدم في آداب المعيشة من عند البخاري تليقا مجزوما به من حديث أنس أتى النبي صلى الله عليه وسلم بحمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فلما كان يرى أحدا إلا أعطاه ووصله عمر بن محمد البحيري في صحيحه من هذا الوجه وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف قدم أبو عبيدة بن مال من البحرين فسمعت الأنصار بقدمه الحديث ولهما من حديث جابر لوجاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا فلم يقدم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أبو بكر متاديا فنادى من كان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أودين فليأتنا فقلت إن النبي صلى الله عليه وسلم وعدني ثلاثا (٣) حديث أعوذ بك من الفقر تقدم في الأذكار والدعوات .

منك . ومن أديهم في الصحبة لين الجانب وترك ظهور النفس بالصولة . قال أبو علي الروذباري الصولة على من فوقك قحة وعلى من مثلك سوء أدب وعلى من دونك عجز ومن أديهم أن لا يجرى في كلامهم لو كان كذا لم يكن كذا وأدب كان كذا وعسى أن يكون كذا فاتهم يرون هذه التدبيرات عليه اعتراضا . ومن أديهم في الصحبة حذر الفارقة والحرص على الملازمة . قيل صحب رجل رجلا ثم أراد الفارقة فاستأذن صاحبه فقال بشرط أن لا تصحب أحدا إلا إذا كان فونقا وان كان

وقوله عليه السلام « كاد الفقر أن يكون كفرا ^(١) » لا يناقض قوله « أحيى مسكينا وأميتى مسكينا ^(٢) » إذ فقر المضطر هو الذى استعاذ منه والفقر الذى هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذى سأله في دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء .
(بيان فضيلة الفقر مطلقا)

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى - للفقر المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم - الآية وقال تعالى - للفقر الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيون ضربا في الأرض - ساق السلام في معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والاحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر .
وأما الأخبار : في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أى الناس خير فقالوا مؤسرين المال يعطى حق الله في نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس يارسل الله قال فقير يعطى جهده ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم لبلال « الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا ^(٤) » وقال ^(٥) « إن الله يحب الفقير التمتف أبوالعيال ^(٥) » وفي الخبر المشهور « يدخل فقراء أمى الجنة قبل أغنيائها بخمسةائة عام ^(٦) » وفي حديث آخر « بأربعين خريفا ^(٧) » أى أربعين سنة فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحرص على الفنى الحرص والتقدير بخمسةائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على الفنى الراغب وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتنا بين الفقراء في درجاتهم وكان الفقير الحرص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسةائة ولا تظن أن تقدير رسول الله ^(٨) بحرى على لسانه جزافا وبالاتفاق بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فانه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ^(٨) » فانه تقدير تحقيق لاهمالة ولكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين فأما بالتحقيق فلا إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره وهو يختص بأنواع من الخواص أحدها أنه يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته واللائكة والبار الآخرة لا كما يلمه غيره

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا تقدم في ذم الحسد (٢) حديث اللهم أحيى مسكينا وأميتى مسكينا الترمذى من حديث أنس وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد وقد تقدم (٣) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أى الناس خير فقالوا مؤسرين المال يعطى حق الله من نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس قال فقير يعطى جهده أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصر على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له (٤) حديث قال لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا الحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال ورواه الطبرانى من حديث أبى سعيد بلفظ مت فقيرا ولا تمت غنيا وكلامها ضعيف (٥) حديث إن الله يحب الفقير التمتف أبوالعيال ابن ماجه من حديث عمران ابن حصين وقد تقدم (٦) حديث يدخل فقراء أمى الجنة قبل أغنيائهم بخمسةائة عام الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح وقد تقدم (٧) حديث دخولهم قبلهم بأربعين خريفا مسلم من حديث عبد الله بن عمرو إلا أنه قال فقراء المهاجرين والترمذى من حديث جابر وأنس (٨) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة البخارى من حديث أبى سعيد ورواه هو ومسلم من حديث أبى هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ رؤيا المؤمن جزء الحديث وقد تقدم .

فوقنا أيضا فلا تصعبه لأنك صحبنا أولا فقال الرجل زال عن قلبي نية المفارقة . ومن أدهم التمتف على الأصغر . قيل : كان إبراهيم بن أدهم يعمل في الحصاد ويطعم الأصحاب وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام وربما كان يتأخر في بعض الأيام في العمل فقالوا ليله تعالوانا كل فطورنا دونه حتى يعود بعد هذا يسرع فأفطروا وناموا فراجع إبراهيم فوجدهم نياما فقال مساكين لعلمهم لم يكن لهم طعام فعمد إلى شيء من الدقيق فعمجه فانتبهوا وهو ينفخ في النار واضعا

بل مخالفا له بكثره المعلومات وزيادة اليقين والتحقيق والكشف والثاني أن له في نفسه صفة بها تم له الأفعال الحارقة للمعادن كما أن لنا صفة بهاتم الحركات القرونة بارادتنا وباختيارنا وهي القدرة وإن كانت القدرة وللقدر جميعا من فضل الله تعالى. والثالث أن له صفة بهايصر لللائكة ويشاهد كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها البصيرات. والرابع أن له صفة بهايذكر ما سيكون في الغيب إما في اليقظة أو في المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب فهذه كالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى خمسين وإلى ستين وبمكنا أيضا أن تكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءا واحدا من جهلتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين فلا ندرى تحقيقا أنه الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا وإنما المعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها وذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسة مائة عام فليس في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به والترض التنبه على منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور فإن الضعيف الايمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق وحاشا من نصب النبوة عن ذلك . ولترجع إلى نقل الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضا « خير هذه الأمة قراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضغفاؤها (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن لي حرتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبني ومن أبضهما فقد أبضني الفقر والجهاد (٢) » وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال يا محمد إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول أحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا (٣) « وتكون معك أينما كنت فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال يا جبريل إن الدنيا دار من لادار له وما من لاملاله ولها يجمع من لا عدل له فقال له جبريل يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت . وروى أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة فأيقظه وقال يا نائم قم فاذا كره الله تعالى فقال ما تريد مني ؟ إنى قد تركت الدنيا لأهلها فقال له قم إذن يا حبيبي ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب وتحت رأسه لينة ووجهه ولحيته في التراب وهو منزرب عباءة فقال يارب عبدك هذا في الدنيا ضائع فأوحى الله تعالى إليه يا موسى أما علمت آتى إذا نظرت إلى عبد بوجهى كله زويت عنه الدنيا كلها وعن أبي رافع أنه قال ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلني إلى رجل من يهودي خبير وقال قل له يقول لك محمد أسلفني أو بني دقيقا إلى هلال رجب قال فأتيته فقال لا والله إلا برهن فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال أما والله إنى لأمين في أهل السماء أمين في أهل الأرض ولو باعني أو أسلفني لأدبت إليه اذهب بدرعي

عاشته على التراب فقالوا له في ذلك قال قلت لعليكم لم تجدون أطورا فنتم فقالوا انظروا بأى شيء عاملناه وبأى شيء ياملنا . ومن أدبهم أن لا يقولوا عند الدعاء إلى أين ولم وبأى سبب قال بعض العلماء إذا قال الرجل لصاحب قم بنا فقال لي أين فلا تصعبه . وقال آخر من قال لأخيه أعطني من مالك فقال كم تريد ما قام بحق الإخاء وقد قال الشاعر :

لا يسألون أخام حين
يتدبهم
للتأنيبات على ما قال برهانا
ومن أدبهم أن
لا يتكلفوا للاخوان

(١) حديث خير الأمة قراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضغفاؤها لم أجده له أصلا (٢) حديث إن لي حرتين اثنتين الحديث وفيه الفقر والجهاد لم أجده له أصلا (٣) حديث أن جبريل نزل فقال إن الله يقرأ عليك السلام ويقول أحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا الحديث وفيه إن الدنيا دار من لادار له الحديث هذا مرفوع من حديثين فروى الترمذي من حديث أبي أمامة عرض على ربي ليحصل لي بطحاء مكة ذهبا قلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما الحديث وقال حسن ولأحمد من حديث عائشة الدنيا دار من لادار له الحديث وقد تقدم في ذم الدنيا .

هذا إليه فارهنه فلما خرجت نزلت هذه الآية - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجنا منهم وزهرة الحياة الدنيا (١) - الآية وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم «القمر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس (٢)» وقال عليه السلام «من أصبح منكم معافى في جسمه آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (٣)» وقال كتب الأحبار «قال الله تعالى لموسى عليه السلام يا موسى إذا رأيت القمر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين». وقال عطاء الخراساني مرثي من الأنبياء بساحل فاذا هو برجل يصطاد حيتانا فقال بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء ثم مر بأخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاسم من كثيرها فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يارب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك فقال الله تعالى للدلائكة اكشفوا العبدى عن منزلتيهما فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولدان من الهوان قال رضيت يارب وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «اطلمت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلمت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء» وفي لفظ آخر «قللت أبن الأغنياء قليل حسبهم الجدة» وفي حديث آخر «فرأيت أكثر أهل النار النساء قللت ما شأنهن قليل شغلن الأحرمان الذهب والزعفران (٤)» وقال صلى الله عليه وسلم «تحفة المؤمن في الدنيا القمر (٥)» وفي الخبر «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه (٦)» وفي حديث آخر «رأيت دخل الجنة زحفا (٧)» وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل القنى الجنة وفي خبر آخر عن أهل البيت رضى الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإذا أحببه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له أهلا ولا مالا (٨)» وفي الخبر «إذا رأيت القمر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت القنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته (٩)» وقال موسى عليه السلام يارب من أجاؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك فقال: كل قعير قعير فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد ويمكن أن يراد به الشديد الضر وقال المسيح صلوات الله

(١) حديث أبي رافع ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر الحديث في نزول قوله تعالى - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجنا منهم - الطبراني بسند ضعيف (٢) حديث القمر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس الطبراني من حديث عداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رواه ابن عدى في الكامل هكذا (٣) حديث من أصبح منكم معافى في جسمه الحديث الترمذى وقد تقدم (٤) حديث اطلمت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء الحديث تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره (٥) حديث تحفة المؤمن في الدنيا القمر رواه محمد بن خفيف الشيرازى في شرف القمر وأبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به ورواه أبو منصور أيضا فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا (٦) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان الحديث تقدم وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد وفيه نكارة (٧) حديث رأيت يبنى عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا تقدم وهو ضعيف (٨) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه الحديث الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني (٩) حديث إذا رأيت القمر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت القنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي برداء ولم يسمع منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام يا موسى فذكره بزيادة في أوله ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كتب

قبل لما ورد أبو حفص العسراق تكلف له الجيبد أنواعا من الأظلمة فأنكر ذلك أبو حفص وقال صير أصحابي مثل الخائث يقدم لهم الألوان والفتوة عندنا ترك التكلف وإحضار ما حضر فإن بالتكلف ربما يؤثر مفارقة الضيف وبترك التكلف يستوى مقامه وذهابه ومن أدهم في الصحبة المداراة وترك الداهنة وتشبه المداراة بالدهنة والفرق بينهما أن المداراة ما أردت به صلاح أخيك فداريته لرجاء صلاحه واحتملت منه ما تكره

عليه وسلامه إني لأحب السكنة وأبغض النعماء وكان أحب الأسماء إليه صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون إليك ولا يجيئون إليك ولا يجيئون يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصيب وأبي ذر وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وذلك لأنهم شكوا إليه التأذي برأحتهم وكان لباس القوم الصوف في شدة الحر فاذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم فاشتد ذلك على الأغنياء منهم الأقرع بن حابس التيمي وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد فترل عليه قوله تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم - يعني الفقراء - تريد زينة الحياة الدنيا - يعني الأغنياء - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا - يعني الأغنياء - وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (١) - الآية . واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعند رجل من أشرف قريش فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل الله تعالى - عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر تنفعه الذكرى - يعني ابن أم مكتوم - أما من استغنى فانت له تصدى (٢) - يعني هذا الشريف . وعن النبي ﷺ أنه قال « يؤتى بالبعد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل في الدنيا فيقول : وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك على ولكن لما أعددت لك من السكرامة والفضيلة أخرج يا عبدي إلى هذه الصوف فمن أطعمك في أو كساك في يريد بذلك وجهي فخذ بيده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة (٣) » وقال عليه السلام « أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فان لهم دولة قالوا يارسول الله وما دولتهم قال إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة (٤) »

الأخبار غير مرفوع باسناد ضعيف (١) حديث قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما الحديث في نزول قوله تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم - الآية تقدم من حديث خباب وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم إذا عرقوا وهذه الزيادة من حديث سلمان (٢) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعند رجل من أشرف قريش ونزول - قوله تعالى - عبس وتولى - الترمذي من حديث عائشة وقال غريب قلت ورجاله رجال الصحيح (٣) حديث يؤتى بالبعد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا فيقول وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك على الحديث أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس باسناد ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنوا مني أحبائي فتقول الملائكة ومن أحبواك فيقول فقراء المسلمين فيدنون منه فيقول أما إني لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم على ولكن أردت بذلك أن أضغف لكم كرامتي اليوم فتمنوا على ما شتمت اليوم الحديث دون آخر الحديث وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في الحلية وسيأتي في الحديث الذي بعده (٤) حديث أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فان لهم دولة الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف اتخذوا عند الفقراء أيادي فان لهم دولة يوم القيامة فاذا كان يوم القيامة نادى مناد عيروا إلى الفقراء فيعتلر إليهم كما يعتلر أحدكم إلى

والدهانة ما قصدت به شيئا من الهوى من طلب حظ أو إقامة جاه . ومن أدبهم في الصحبة رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط ، نقل عن الشافعي رحمه الله أنه قال : الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكان بين المنقبض والنبسط . ومن أدبهم ستر عورات الاخوان قال عيسى عليه السلام لأصحابه : كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم ناعما فكشف الريح عنه ثوبه قالوا نستره وننظفه فقال بل تكشفون عورته

وقال صلى الله عليه وسلم «دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فاذا بلال ونظرت في أعلاها فاذا فقراء أمي وأولادهم ونظرت في أسفلها فاذا فيه من الأغنياء والنساء قليل قلت يارب ما شأنهم قال أما النساء فأضرت بهن الأحران الذهب والحريير وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب وتفقدت أصحابي فلم أر عبد الرحمن بن عوف ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكي قلت ما خلفك عنى قال يا رسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت للشيبات وظننت أني لأأراك ، قلت ولم ؟ قال كنت أحاسب بمالي (١) » فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابغة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المحبوبين بأنهم من أهل الجنة (٢) وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « إيمان قال بالمال هكذا وهكذا (٣) » ومع هذا فقد استضمر بالنعى إلى هذا الحد « ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم ير له شيئا فقال : لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسمهم (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بملوك أهل الجنة قالوا بلى يا رسول الله قال كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمرين لا يؤبه له لو أنتم على الله لأبره (٥) » وقال عمران ابن حصين « كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ قلت نعم بأى أنت وأمى يا رسول الله فقام وقتت معه حتى وقف يباب فاطمة فقرع الباب وقال السلام عليكم أدخل فقلت ادخل يا رسول الله قال أنا ومن معى قالت ومن معك يا رسول الله قال عمران فقالت فاطمة والذى بشك بالحق نبيا ما طى إلا عبادة قال اصنعى بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا جسدى قد وارىته فكيف برأسى فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدى بها طى رأسك ثم أذنت له فدخل فقال السلام عليكم يا ابتناء كيف أصبحت قالت أصبحت والله وجمة وزادنى وجما طى ماى أنى لست أقدر طى طعام آكله فقد أضربى الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تجزعى يا ابتناء فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث وإنى لأكرم على الله منك ولوسأت ربى لأطعمنى ولكنى آثرت الآخرة طى الدنيا ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة قالت فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران قال آسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك إنسكن فى بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب ثم قال لها ائتمى بآبن عمك

قالوا سبحان الله من يفعل هذا قال أحكم يسمع فى أخيه بالسكامة فيزيد عليها ويشيها بأعظم منها ومن أدبهم الاستغفار للاخوان بظهر النيب والاهتمام لهم مع الله تعالى فى دفع الكاره عنهم . حكى أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه فقال إنى ابتليت بهوى فان شئت أن لاتتقد طى محقق لله فافعل فقال ما كنت لأحل عقد إختائك لأجل خطيئتك

إلى أخيه فى الدنيا [١] (١) حديث دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى فنظرت فاذا بلال ونظرت إلى أعلاها فاذا فقراء أمى وأولادهم الحديث الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف نحوه وقصة بلال فى الصحيح من طريق آخر (٢) حديث إن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المحبوبين بأنهم من أهل الجنة أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال الترمذى حسن صحيح (٣) حديث إيمان قال بالمال هكذا وهكذا متفق عليه من حديث أبى ذر فى أثناء حديث تقدم . (٤) حديث دخل على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسمهم لم أجده (٥) حديث ألا أخبركم عن ملوك الجنة الحديث متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقولوا ملوك وقد تقدم ولا بن ماجه بسند جيد من حديث معاذ ألا أخبركم عن ملوك الجنة الحديث دون قوله أغبر أشعث .

[١] قال البرهان الحلبي رأيت عن ابن تيمية أبى العباس بخط بعض الفضلاء حديث أنخذوا مع الفقراء أبادى وكذا حديث الفقر فخرى قال كلاهما كذب انتهى وكذا رأيت فى كلام له آخر .

فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة (١)» وروى عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا أبيض الناس فقراءهم وأظهمهم وأظهموا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله بأربع خصال بالتحط من الزمان والجور من السلطان والخيانة من ولاية الأحكام والشوكة من الأعداء (٢)». وأما الآثار فقد قال أبو الفرداء رضى الله عنه: ذوالدرهمين أشد حسبا أو قال أشد حسبا من ذى الدرهم، وأرسل عمر رضى الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار فجاء حزينا كشيا فقالت امرأته أحدث أمر قال أشد من ذلك ثم قال أربى درعك الحلق فشقه وجهه صررا وفرقه ثم قام يصلى ويسكى إلى الصلاة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يدخل فقراء أمي الجنة قبل الأغنياء بمضائة عام حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيخرج (٣)» وقال أبوهريرة: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل يريد أن يفسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ورجل دعا بشرا به فلا يقال له أيها تريد وقيل جاء فقير إلى مجلس الثورى رحمه الله فقال له نخط لو كنت غنيا لما قربتك، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تفريره للفقراء وإعراضه عن الأغنياء. وقال اللؤلؤ ما رأيت الغنى أذل منه في مجلس الثورى ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثورى رحمه الله. وقال بعض الحكماء مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجنا منها جميعا ولورغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعا ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعدى الدارين جميعا وقال ابن عباس: ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر. وقال لقمان عليه السلام لابنه: لا تحقرن أحدا خلقان ثيابه فان ربك وربى واحد وقال يحيى بن معاذ: حبك الفقراء من أخلاق المرسلين وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين، وفي الاخبار عن الكتب السالفة أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام: احذر أن أمتكت فتسقط من عينى فأصب الدنيا عليك صبا، ولقد كانت عائشة رضى الله عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما وإن درعها لمرقوع وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحما تظفرن عليه وكانت صائفة فقالت لو ذكرتني لعملت، وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال «إن أردت للحقوق بنى فطيك بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى درعك حتى ترقيه (٤)» وجاء رجل إلى إبراهيم بن آدم بمشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبها فألح عليه الرجل فقال له إبراهيم أتريد أن أمحو اسمى من ديوان الفقراء بمشرة آلاف درهم لأفضل ذلك أبدا رضى الله عنه.

عن هواه يقول ما زال فبعد الأربعين أخبره أن الهوى قد زال فأكل وشرب. ومن أدبهم أن لا يحوجوا صاحبهم إلى المدارة ولا يلجئوه إلى الاعتذار ولا يتكلموا للصاحب ما يشق عليه بل يكونوا للصاحب من حيث هو مؤثرين مراد صاحب على مراد أنفسهم قال علي بن أبى طالب كرم الله وجهه شر الأصدقاء من حوجك إلى مدارة أو الجأك إلى اعتذار وتكلفت له. وقال جعفر الصادق أفضل إخوانى على من يتكلف لى وأحفظ منه وأخفهم على قلبى

(١) حديث عمران بن حصين كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة الحديث تقدم (٢) حديث إذا أبيض الناس فقراءهم وأظهمهم وأظهموا عمارة الدنيا الحديث أبو منصور الديلى باسناد فيه جملة وهو منكر (٣) حديث سعيد بن عامر يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمضائة عام الحديث وفى أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء حزينا وفرقا، وقد روى أحمد فى الزهد القصة إلا أنه قال تسعين عاما وفى إسناده يزيد بن أبى زياد تكلم فيه وفى رواية له بأربعين سنة وأما دخولهم قبلهم بمضائة عام فهو عند الترمذى من حديث أبى هريرة وصححه وقد تقدم قبل هذا بورقين . (٤) حديث قال لعائشة إن أردت للحقوق بنى فطيك بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء الحديث الترمذى وقال غريب والحاكم وصححه نحوه من حديثها وقد تقدم .

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به (١) »
وقال صلى الله عليه وسلم « يامشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تنظفروا بنواب فقركم وإلا فلا (٢) »
فالأول القانع وهذا الراضى ويكاد يشعر هذا بمفهومة أن الحريص لأثواب له على فقره ولكن العمومات
الورادة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتى تحقيقه فلعل للراد بدم الرضا والكرهه لتعمل
الله في حبس الدنيا عنه ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله
تلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال « إن لكل شئ مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم جلساء
الله تعالى يوم القيامة (٣) » وروى عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه قال « أحب العباد إلى الله تعالى
الفقير القانع برزقه الراضى عن الله تعالى (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد
كفافا (٥) » وقال « مامن أحد غنى ولا فقير إلا ودّ يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا في الدنيا (٦) » وأوحى الله
تعالى إلى إسماعيل عليه السلام اطلبني عند المنكسرة قلوبهم قال ومن هم قال الفقراء الصادقون وقال
صلى الله عليه وسلم « لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا (٧) » وقال ﷺ « يقول الله تعالى يوم القيامة
أين صفوتى من خلقى فتقول الملائكة ومن هم ياربنا فيقول فقراء المسلمين القانعون بعطائى الراضون
بقدرى أدخلوهم الجنة فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون (٨) » فهذا في
القانع والراضى . وأما الزاهد فنذكر فضله في الشطر الثانى من الكتاب إن شاء الله تعالى . وأما الآثار
في الرضا والقناعة فكثيرة ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع ، وقد قال عمر رضى الله عنه إن
الطمع قهر والياس غنى وإنه من يئس عمافى أيدي الناس وقنع استغنى عنهم . وقال أبو مسعود رضى الله
تعالى عنه مامن يوم لاؤملك ينادى من تحت العرش يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك وقال
أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه مامن أحد إلا وفي عقله نقص وذلك أنه إذا أته الدنيا بالزيادة ظل فرحا
مسرورا والليل والتهدا ثبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك ويع ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص وقيل
لبعض الحكماء ما المعنى قال قلة تمنحك ورضاك بما يكفيك وقيل كان إبراهيم بن آدم من أهل النعم بخراسان
فبينما هو يشرف من قصره ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله فلما أكل
نام فقال لبعض غلمانه إذا قام فاجنى به فلما قام جاء به إليه فقال إبراهيم أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع

(١) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به رواه مسلم وقد تقدم (٢) حديث
يامشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم الحديث أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث
أبي هريرة وهو ضعيف جدا فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصرى متهم بالكذب ووضع الحديث
(٣) حديث إن لكل شئ مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين الحديث الدارقطنى في غرائب مالك
وأبو بكر بن لال في مكالم الأخلاق وابن عدى في الكامل وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر .
(٤) حديث أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضى من الله لم أجده بهذا اللفظ وتقدم عند
ابن ماجه حديث إن الله يحب الفقير التمتع (٥) حديث اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا مسلم من
حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بلفظ قوتا وقد تقدم (٦) حديث مامن أحد غنى ولا فقير إلا ود
يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا في الدنيا ابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم (٧) حديث لا أحد أفضل
من الفقير إذا كان راضيا لم أجده بهذا اللفظ (٨) حديث يقول الله يوم القيامة أين صفوتى من خلقى ؟
فتقول الملائكة ومن هم ياربنا فيقول فقراء المسلمين الحديث أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس .

من أكون معه كما
أكون وحدى فأداب
الصحة وحقوق
الأخوة كثيرة
والحكايات في ذلك
يطول قلها وقد رأيت
في كتاب الشيخ أبي
طالب المكي رحمه الله
من الحكايات في هذا
المعنى شيئا كثيرا قد
أودع كتابه كل شئ
حسن من ذلك وحاصل
الجميع أن العبد ينبغي له
أن يكون لمولاه ويريد
كل ما يريد لمولاه
لأنفسه وإذا صاحب
شخصا تكون محبته
إياه لله تعالى وإذا صحبه
الله تعالى يجتهد له في كل
شئ يزيد عند الله
زلفى وكل من قام
بحقوق الله تعالى برزقه

قال نعم قال فثبت قال نعم قال ثم ثبت طيبا قال نعم فقال إبراهيم في نفسه فما أصنع أنا بالدين والنفس تمنع بهذا القدر ومروا رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحاً وبقلا فقال له يا عبد الله أَرْضَيْتَ مِنَ الدُّنْيَا هَذَا قَالَ أَلَا أَدْرَكَ طَى مِنْ رَضَى بَشَرًا مِنْ هَذَا قَالَ بلى قال من رضى بالدين عوضاً عن الآخرة وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزاً يابساً فيبله بالماء ويأكله بالملح ويحول من رضى من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد . وقال الحسن رحمه الله لمن الله أقواماً أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقهم ثم قرأ - وفي السماء رزقكم وما توعدون فو رب السماء والأرض إنه لخلق - الآية . وكان أبو ذر رضى الله عنه يوماً جالساً في الناس فأثته امرأته فقالت له اجلس بين هؤلاء والله ما في البيت همة ولا سمة فقال ياهنه إن بين أيدينا عتبة كشودا لا ينجون منها إلا كل عصف فرجعت وهي راضية وقال ذو النون رحمه الله أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له وقيل لبعض الحكماء ما مالك فقال التجميل في الظاهر والتصديق بالباطن والياس مما في أيدي الناس وروى أن الله عز وجل قال في بعض الكتب السالفة النزلة يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت فاذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا نحن اليك وقد قيل في القناعة:

أضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس واقنع بياس فان العز في الياس
واستن عن كل ذي قرين وذى رحم إن النقى من استغنى عن الناس

وقد قيل في هذا المعنى أيضا :

يا جامعا مانعا والدهر يرمقه بقدر أئى باب منه يفلقه
مفكرا كيف تأتيه منيته أغاديا أم بها يسرى فتطرقة
جمعت ما لا تقل لى هل جمعت له يا جامع المال أيا ما تفرقه
للال عندك محزون لو ارثه ما للال مالك إلا يوم تنفقه
أرفه ييال فقى يذو طى ثقة أن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنس والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يهلل بساحتها لم يبق فى ظلها هم يؤرقه

بيان فضيلة الفقر على الغنى

اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا فذهب الجنيـد والحواص والأكثر إلى تفضيل الفقر . وقال ابن عطاء النقى الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر ويقال إن الجنيـد دعا طى ابن عطاء لخفاخته إياه في هذا فأصابته عنة وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وبيننا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل ، فأما الفقر والغنى إذا أخذنا مطلقا لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر ولا بد فيه من تفصيل فنقول : أما يتصور الشك في مقامين : أحدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب بل هو قانع أراض بالاضافة إلى غنى منفق ماله في الحيرات ليس حريصا على إمساك المال والثانى فقير حريص مع غنى حريص إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من النقى الحريص المسك وأن النقى المنفق ماله في الحيرات أفضل من الفقير الحريص أما الأول فربما يظن أن النقى أفضل من الفقير لأنهما تساويا في ضيف الحرص على المال والنقى متقرب بالصدقات والحيرات والفقير عاجز عنه وهذا هو الذى ظنه ابن عطاء فبا نحبه ، فأما النقى المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع وقد يشهد له ما روى في الخبر « أن الفقراء شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالحيرات والصدقات والحج والجهاد فسلمهم كلمات في التسبيح وذكر لهم أنهم يبالغون بها فوق ما ناله الأغنياء فسلم الأغنياء ذلك

الله تعالى علما بمعرفة النفس وعيوبها ويصرفه محاسن الأخلاق ومحاسن الآداب ويوقفه من أداء الحقوق على بصيرة وينفقه في ذلك كله ولا يفوته شيء مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق وفيما يرجع إلى حقوق الخلق فكل تقصير يوجد من خبت النفس وعدم تزكيتها وبقاء صفاتها عليه فإن صحبت ظلمت بالانفراط تارة وبالتفريط أخرى وتمعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق والحكايات والمواظ والآداب وصماعها لا يعمل في النفس

فكانوا يقولونه فساد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال عليه السلام ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ^(١) وقد استشهد ابن عطاء أيضا لماسئل عن ذلك فقال الغنى أفضل لأنه وصف الحق أمادليه الأول فنيه نظر لأن الخبر قدورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو أن ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغنى وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال «بثت الفقراء رسولا إلى رسول الله ﷺ فقال إن رسول الفقراء إليك فقال مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم قال قالوا يا رسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالخير يحبون ولا تقدر عليه ويعتمرون ولا تقدر عليه وإذا مرضوا بشوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء أما خصلة واحدة فإن فى الجنة غرضا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء لا يدخلها إلا النبى فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير ، والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، والثالثة إذا قال الغنى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم وكذلك أعمال البر كلها فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا رضينا رضينا ^(٢) فهذا يدل على أن قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء أى مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم وأما قوله إن الغنى وصف الحق فقد أجابه بعض الشيوخ فقال أترى أن الله تعالى غنى بالأسباب والأعراض فائق ولم ينطق وأجاب آخرون فقالوا إن التكبر من صفات الحق فينبغى أن يكون أفضل من التواضع ثم قالوا بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات العبودية أفضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات الربوبية لا ينبغى أن ينازع فيها ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما قصمته ^(٣)» وقال سهل حب العز والبقاء شرك فى الربوبية ومنازعة فيها لأهمان صفات الرب تعالى فمن هذا الجنس تكلموا فى تفضيل الغنى والفقر وحاصل ذلك تعلق بمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها إذا كما يناقض قول من فضل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر كذلك يناقض قول من ذم الغنى لأنه وصف للعبد بالعلم والعلم والعرفه فانه وصف الرب تعالى والجهل والنفقة وصف العبد وليس لأحد أن يفضل النفقة على العلم فكشف النطاء عن هذا هو ما ذكرناه فى كتاب الصبر وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغى أن يضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضله والله تعالى يستحذورة لعينها ولكن لكونها عاقبة عن الوصول إلى الله تعالى ولا الفقر مطلوب لعينه لكن لأن فيه قد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه وكمن غنى لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما وكمن فقير شغله الفقر وصرفه عن التقصد وغاية التقصد فى الدنيا

(١) حديث شكا الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات الحديث وفى آخره فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء متفق عليه من حديث أبى هريرة نحوه
(٢) حديث زيد بن أسلم عن أنس بثت الفقراء إلى رسول الله ﷺ رسولا إن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحبون ولا تقدر عليه الحديث وفيه بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء الحديث لم أجده هكذا بهذا السياق والمعروف فى هذا المعنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل الله به عليهم أغنياءهم فقال يا بعض الفقراء ألا بشركم أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام وإسناده ضعيف (٣) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة إزارى تقدم فى العلم وغيره.

زيادة تأثير ويكون كبر قلبه فيه للنساء من فوقه فلا يمكث فيه ولا ينتفع به وإذا أخذت بالتقوى والزهد فى الدنيا نبع منها ماء الحياة وتفقهت وعلمت وأدت الحقوق وقامت بواجب الآداب بتوفيق الله سبحانه وتعالى .

[الباب السادس والحسنون فى معرفة الانسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك]

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى قال أنا الشريف نور الهدى أبو طالب الزينى قال أنا كريمة للروزية قالت أخبرنا أبو الهيثم

هو حب الله تعالى والأنس به ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما أن الغنى قد يكون من الشواغل وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا إذ لا يجتمع معه حب الله في القلب والحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في رساله وربما يكون شغله في الفراق أكثر وربما يكون شغله في الوصال أكثر والدنيا معشوقة العاقلين المحروم منها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها فاذا إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقيهما كالماء استوى الفاقد والواجد إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة ووجود قدر الحاجة أفضل من قلده إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل للعرفة وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ومن الصمة أن لا يقدر ولذلك قال الصحابة رضي الله عنهم بلينا بفتنة الضراء فبصرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادرا ولما كان خطاب الشرع مع الكل لامع ذلك النادر والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر زجر الشرع عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه حتى قال المسيح عليه السلام : لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم ينهب بنور إيمانكم . وقال بعض العلماء : تغليب الأموال يمسّ حلاوة الإيمان وفي الخبر « إن لكل أمة عجلا وعجلا هذه الأمة الدينار والدرهم ^(١) » وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا واستواء المال والماء والذهب والحجر إنما يتصور للأبناء عليهم السلام والأولياء ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للدنيا « إليك غنى ^(٢) » إذ كانت تمثل له بزيتها وكان على كرم الله وجهه يقول : يا صفراء غري غري ويا بيضاء غري غري وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادئ الاغترابها لولا أن رأى برهان ربه وذلك هو الغنى المطلق إذ قال عليه الصلاة والسلام « ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس ^(٣) » وإذا كان ذلك بعيدا فاذا الأصل لكافة الخلق فقد للمال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات لأنهم لا ينفسكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم ويقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة ويقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله من جهة ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنا بالله انصرف لا محالة إلى الله إذ لا يتصور قلب فارغ وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره فمن أقبل على غيره قد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ومثلهما مثل الشرق والغرب فانهما جهتان فالتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر فبين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوه عن الدنيا وأنسه بها فاذا فضل الفقير والغنى بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط فإن تساويا فيه تساوت درجتهم إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور فإن الغنى ربما يظن أنه منقطع القلب

الكشميهي قال أخبرنا أبو عبد الله القريري قال أنا أبو عبد الله البخاري قال ثنا عمر ابن حفص قال ثنا أبي قال ثنا الأعمش قال ثنا زيد بن وهب قال ثنا عبد الله قال ثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق للصدوق قال « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضخة مثل ذلك ثم يبعث الله تعالى إليه ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشق أم سعيدته ينفخ فيه الروح وإن الرجل يعمل بعمل

(١) حديث لكل أمة عجل وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم أبو منصور الديلمي من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة (٢) حديث كان يقول للدنيا إليك غنى الحديث الحاكم مع اختلاف وقد تقدم (٣) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

عن المال ويكون حبه دينا في باطنه وهو لا يشعر به وإنما يشعر به إذا فقد فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه فإن وجد لقلبه إليه الثغابا فليعلم أنه كان مغرورا فكف من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه فتحقق إذن أنه كان مغرورا وأن العشق كان مستكنا في الفؤاد استكنا النار تحت الرماد وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء وإذا كان ذلك محالا أو بعيدا فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل لأن علاقة الفقير وأنسه بالدينا أضف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسيحاته وعبادته فان حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالذكور ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول ولذلك قال بعض السلف مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يظني النار بالحلفاء ومثل من يضل يده من الغمر بالسلك . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غنى ألف عام . وعن الضحاك قال من دخل السوق فرأى شيئا يشبهه فصر واحتسب كان خيرا له من ألف دينار يفقهها كلها في سبيل الله تعالى . وقال رجل لبشر بن الحرث رحمه الله : ادع الله لي قد أضرت بي العيال فقال إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت فإن دعائك أفضل من دعائي وكان يقول مثل الغنى المتجدد مثل روضة على منزلة ومثل الفقير المتجدد مثل عقد الجواهر في جيد الحسنة وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء ، وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : اللهم إني أسألك الذل عند النصف من نفسى والزهد فيما جاوز الكفاف وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه في كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أن قد المال أصلح من وجوده هذا مع أن أحسن أحوال الغنى أن يأخذ حلالا وينفق طيبا ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره ومن نوقش الحساب فقد عذب ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه ما أحب أن لي حانونا على باب المسجد ولا تخطئني فيه صلاة وذكر وأربع كل يوم خمسين دينارا وأصدق بها في سبيل الله تعالى قيل وما تكبره قال سوء الحساب ولذلك قال سفيان رحمه الله اختار الفقراء ثلاثة أشياء واختار الأغنياء ثلاثة أشياء اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدّة الحساب وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ولكن إذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا بأن يستوى عنده كلاهما فأما إذا كان غنيا بوجوده ومفتقرا إلى بقاءه فلا يضاهاه غناه غنى الله تعالى لأن الله تعالى غنى بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور زواله بأن يسرق وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيا بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غنى يريد بقاء المال وما ذكر من أن صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى وقد سمعت بعض المشايخ يقول إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافا له أى يكون له من كل واحد نصيب وأما التكبر فلا يليق بالعبد فان التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فليق به ، نعم تقديره بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك والعبد مأمور

أهل النار حتى ما يكون
بينه وبينها إلا ذراع
فيسبق عليه الكتاب
فيعمل بعمل أهل الجنة
فيدخل الجنة وإن
الرجل يعمل بعمل
أهل الجنة حتى
ما يكون بينه وبينها
إلا ذراع فيسبق عليه
الكتاب فيعمل بعمل
أهل النار فيدخل النار
وقال تعالى - ولقد
خلقنا الإنسان من
سلالة من طين ثم جعلناه
نطفة في قرار مكين -
أى حريز لاستقرارها
فيه إلى بلوغ أمدها ثم
قال بعد ذلك قلبناهم
أنشأناه خلقا آخر - قيل
هذا الإنشاء نفع الروح
فيه . واعلم أن الكلام
في الروح صعب اللام

به بأنه يطلب أعلى للراتب إن قدر عليه ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس فلي
 العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر والطبع أكبر من العاصي والعالم أكبر من الجاهل والانسان
 أكبر من البهيمة والجماد والنبات وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة
 لاشك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولا تفتق به وفضيلة في حقه إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فان ذلك
 موقوف على الحاتمة وليس يدري الحاتمة كيف تكون وكيف تنفق فلجعله بذلك وجب أن لا يستفد
 لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر إذ ربما يختم للكافر بالإيمان وقد يختم له بالكفر فلم يكن ذلك لاتبابه
 لتصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصور أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كالا في حقه لأنه من
 صفات الله تعالى ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصانا في حقه إذ ليس
 من أوصاف الله تعالى علم يضره فمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تصور في العبد من صفات
 الله تعالى فلاجرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء فاذن لو استوى عنده وجود
 المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه فهو
 فضيلة أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغنى الشاكر .
 [المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغنى الحريص] ولنفرض هذا في شخص واحد
 هو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده فله حالة الفقد وحالة الوجود فأى حالته أفضل فنقول:
 ننظر فان كان مطلوبه ما لا بد منه في المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه
 فحال الوجود أفضل لأن الفقر يشغله بالطلب وطالب القوت لا يقدر على الفكر والتذكر إلا بقدر مدخوله
 بشغل والسكنى هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد كقفا » وقال « كاد
 الفقر أن يكون كفرا » أى الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه وإن كان المطلوب فوق الحاجة وكان
 المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن التصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين فحالة الفقر أفضل وأصلح
 لأنها استوائية في الحرص وحب المال واستوابة في أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق
 الدين واستوابة في أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمصيبة بسبب الفقر والغنى ولكن افرقا في أن الواجد
 يأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا والقائد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون
 الدنيا عنده كالسجن الذي ينسى الخلاص منه ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما
 أشد ركونا إلى الدنيا فحاله أشد لا محالة إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد
 أنسه بالدنيا وقد قال عليه السلام « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة (١) »
 وهذا نبيه على أن فراق المحبوب شديد فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ولا تحب ما يفارقك وهو
 الدنيا فانك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما
 تحبه وكل من فارق محبو ما يكون أذما في فراقه بقدر حبه وقد رآه به وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر
 من أنس الفاقدها وإن كان حرصا عليها فاذن قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل
 والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضي الله عنها يستوى عنده الوجود
 والعدم فيكون الوجود مزيدا له إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع مهمم والثاني الفقر عن
 مقدار الضرورة فان ذلك يكاد أن يكون كفرا ولا خيره بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبق حياته
 ثم يستعين بقتلته وحياته على الكفر والعاصي ولو مات جونا لكانت معاصيه أقل فالأصلح له أن يموت
 جونا ولا يمدا يضطر إليه أيضا فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر ويبقى النظر في قبر حريص متكالب على

والامساك عن ذلك
 سبيل ذوى الأحلام وقد
 عظم الله تعالى شأن
 الروح وأسجل على
 الخلق بقلة العلم حيث
 قال - وما أوتيتم من
 العلم إلا قليلا - وقد
 أخبرنا الله تعالى في كلامه
 عن إكرامه بنى آدم
 قالوا لقد كرمنا بنى
 آدم وروى « أنه لما
 خلق الله تعالى آدم
 وذريته قالت الملائكة
 يارب خلقتهم بأكلون
 وهم يربون وينكحون
 فاجعل لهم الدنيا ولنا
 الآخرة فقال وعزى
 وجلالى لأجل ذرية
 من خلقت يدي كمن
 قلت له كن فكان « لمع
 هذه الكرامة واختياره
 سبحانه وتعالى بإيام على

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة تقدم .

طلب المال ليس له ثم سواه وفي غنى دونه في الحرص على حفظ المال ولم يكن تفجعه بفقد المال لوقته كنتفجع الفقير بفقره فهذا في محل النظر والأظهر أن بعدها عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لتقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقدته والمعلم عند الله تعالى فيه .

(بيان آداب الفقير في فقره)

اعلم أن للفقير آداباً في باطنه وظاهره ومخاطبه وأفعاله ينبغي أن يراعيها فأما أدب باطنه فإن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر أعني أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى من حيث إنه فعله وإن كان كارهاً للفقر كالمحبوم يكون كارهاً للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارهاً فعل الحجامة ولا كارهاً للحجامة بل ربما يتقلد منه منه فهذا أقل درجاته وهو واجب وتقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر وهو معنى قوله عليه السلام «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تنظروا بثواب فقركم وإلا فلا» وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقر بل يكون راضياً به وأرفع منه أن يكون طالباً له وفرحاً به لملئه بموائم الغنى ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى وإتقاه به في قدر ضرورته أنه يأتيه لا عمالة ويكون كارهاً للزيادة على الكفاف وقد قال على كرم الله وجهه : إن لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به به ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علاماته إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ويصمى به بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر ويرضى لملئه بشمرته إذ قيل ما أعطى عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له خذ على ثلاثة أثلاث : شغل وهم وطول حساب . وأما أدب ظاهره فإن يظهر التعمف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ويستتر أنه يستره في الحديث «إن الله تعالى يحب الفقير التعمف بأبا الميال» وقال تعالى - يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف - وقال سفيان أفضل الأعمال التجمل عند الهنة وقال بعضهم ستر الفقر من كذو البر . وأما في أعماله فأدبه أن لا يتواضع لغنى لأجل غناه بل يتكبر عليه قال على كرم الله وجهه ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبة في ثواب الله تعالى وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل فهذه رتبة وأقل منها أن لا يجالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثوري رحمه الله إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مرءاء وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته فإذا طمع فيهم انطمعت عصمته فإذا سكن إليهم ضل وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مدهانة للأغنياء وطعماً في العطاء وأما أدبه في أفعاله فإن لا يفتربسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذلك قليل ما يفضل عنه فإن ذلك جهد اللقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى . روى زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم قيل وكيف ذلك يا رسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها وأخرج رجل درهماً من درهين لا يملك غيرها طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف»^(١) وينبغي أن لا يدخر ما لا يبل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الادخار ثلاث درجات إحداها أن لا يدخر إلا ليومه وليتته وهي درجة الصديقين والثانية أن يدخر لأربعين يوماً فإن ما زاد عليه داخل في طول الأمل وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة

(١) حديث زيد بن أسلم درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف قيل وكيف يا رسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف الحديث النسائي من حديث أبي هريرة متصلاً وقد تقدم في الزكاة ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مراسلاً .

اللائكة لما أخبر عن الروح أخبر عنهم بقلة العلم وقال - ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمرى - الآية قال ابن عباس قالت اليهود للنبي عليه السلام أخبرنا ما الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد وإنما الروح من أمر الله ولم يكن نزل إليه فيه شيء فلم يجهم فأتاه جبرائيل بهذه الآية وحيث أمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخبار عن الروح وماهيته بأذن الله تعالى ووجهه وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة فكيف يسوغ لغيره

في أمل الحياة أربعين يوماً وهذه درجة التقيين والثالثة أن يدخر لسته وهي أقصى للراتب وهي رتبة الصالحين ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته وغنى الخصوص في أربعين يوماً وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الأقسام فبعضهم كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل وببعضهم قوت أربعين يوماً وببعضهم يوماً وليلة وهو قسم عائشة وحفصة .

(بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال)

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس اللئال وغرض المعطي وغرضه في الأخذ أما نفس اللئال فينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشبهات كلها فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذها وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب وأما غرض المعطي فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطيب قلبه وطلب محبته وهو الهدية أو الثواب وهو الصدقة والزكاة أو الذكر والرياء والسمعة إما على التجرد وإما بمزوجة يبقية الأغراض أما الأول وهو الهدية فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ (١) ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة فالأولى تركها فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض فقد أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن وأقط وكبش قبل السمن والأقط ورد الكبش (٢) وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض (٣) وقال «لقد هممت أن لأتهدب إلا من قرشي أو ثقفى أو أنصاري أو دوسي» (٤) وفعل هذا جماعة من التابعين وجاءت إلى فتح اللوصلى صرة فيها خمسون درهماً فقال حدثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أتاه رزق من غير مسألة فرده قائماً يرد على الله» (٥) ثم فتح الصرة فأخذ منها درهماً ورد سائرهما وكان الحسن يروي هذا الحديث أيضاً ولكن حمل إليه رجل كيساً ورزماً من رقيق ثياب خراسان فرد ذلك وقال من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء

(١) حديث إن قبول الهدية سنة تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية (٢) حديث أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ممن وأقط وكبش قبل السمن والأقط ورد الكبش أحمد في أثناء حديث ليعلى بن مرة وأهدت إليه كبشين وشيئا من ممن وأقط فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر وإسناده جيد وقال وكيع مرة عن يعلى بن مرة عن أبيه (٣) حديث كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وإيم الله لأقبل بعد يومى هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجراً الحديث فيه محمد بن اسحق ورواه بالنعنة (٤) حديث لقد هممت أن لأتهدب إلا من قرشي أو ثقفى أو أنصاري أو دوسي الترمذي من حديث أبي هريرة وقال روى من غير وجه عن أبي هريرة قلت ورجاله ثقات (٥) حديث عطاء مرسل من أتاه رزق من غير وسيلة فرده قائماً يرد على الله عز وجل لم أجده مرسل هكذا ولأحمد وأبي يعلى والطبراني بإسناد جيد من حديث خالد بن عدي الجهني من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يردده قائماً هو رزق ساقه الله عز وجل وإليه ولأحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة من أتاه الله من هذا اللئال شيئاً من غير أن يسأله فليقبله وفي الصحيحين من حديث عمر ما أتاك من هذا اللئال وأنت غير مشرف ولا سائل فغنه الحديث .

الحوض فيه والاشارة إليه لاجرم لما تقاضت الأنفس الانسانية للتطلعة إلى الفضول المشوقة إلى العقول المتحركة بوضعها إلى كل ما أمره بالسكون فيه والتسوية بحرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه وأطلقت عنان النظر في مسارح التفكير وخاضت غمرات معرفة ماهية الروح تاهت في التيه وتوعدت آراؤها فيه ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل في شيء كالاختلاف في ماهية الروح ولو لم تزلت النفوس حدها مترفة بسجوها كان ذلك أجدر بها

وقد كان الحسن يقبل من أصحابه ، وكان إبراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم اللين فلا يأخذها ، وكان بعضهم إذا أعطاه صدقه شيئا يقول أركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل ، فيقبل القبول فأخبرني حتى آخذه والإفلا ، وأما هذا أن يشق عليه الرد لورده ويفرح بالقبول ويرى النية على نفسه في قبول صدقه هديته ، فإن علم أنه يمازجه منة فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقهاء الصادقين . وقال بشر : ما سألت أحدا قط شيئا إلا سريا السقطي لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عوناً له على ما يحب ، وجاء خراساني إلى الجنيدي رحمه الله بسأل أن يأكله فقال أفرقه على الفقراء ، فقال ما أريد هذا . قال ومضى أعيش حتى آكل هذا قال ما أريد أن تنفقه في الحل والبقول في الحلوات والطيبات قبل ذلك منه ، فقال الخراساني ما أجد في بغداد أمن على منك ، فقال الجنيدي ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك . الثاني أن يكون للثواب المجرى وذلك صدقة وزكاة فعلية أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فينظر إلى باطنه ، فإن كان مقارفا لمصلحة في السر يعلم أن المعطى لو علم ذلك لفرط طبعه ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوي ولم يكن فإن أخذه حرام محض لاشبهة فيه . الثالث أن يكون غرضه السعة والرياء والشهرة فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله ، إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ، ويقول : لو علمت أنهم لا يبدون ذلك افتخارا به لأخذت ، وعتوب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة ، فقال إنما أريد صلتهم إشفاقا عليهم ونصحا لهم لأنهم يذكرون ذلك ويحجون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم . وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لا بد منه أو هو مستغن عنه فإن كان محتاجا إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطى فالأفضل له الأخذ . قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما للمعطي من سعة بأعظم أجرا من الأخذ إذا كان محتاجا (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فاعما هو رزق ساقه الله إليه (٢) » وفي لفظ آخر « فلا يرد » . وقال بعض العلماء : من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يسقط وقد كان سري السقطي يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمه الله عليهما شيئا فرده مرة ، فقال له السري : يا أحمد احذر آفة الرد فإنها أشد من آفة الأخذ ، فقال له أحمد أعد على ما قلت فأعاده ، فقال أحمد ما رددت عليك إلا لأن عندي قوت شهر فأحبسه لي عندك فإذا كان بعد شهر فأفذه إلى ، وقد قال بعض العلماء يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره . فأما إذا كان ما أتاه زائدا على حاجته فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه والتكفل بأمور الفقراء والاتفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء ، فإن كان مشغولا بنفسه فلا وجه لأخذه وإسماكه إن كان طالبا لطريق الآخرة فإن ذلك محض اتباع الهوى وكل عمل ليس لله فهو في سبيل الشيطان أودع إليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ثم له مقامان : أحدهما أن يأخذ في الملاينة

(١) حديث ما للمعطي من سعة بأعظم أجرا من الأخذ إذا كان محتاجا الطبراني من حديث ابن عمر وقد تقدم في الزكاة (٢) حديث من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فاعما هو رزق ساقه الله إليه ، وفي لفظ آخر فلا يرد تقدم قبل هذا بحديث .

وأولى فأما أقوال
من ليس متمسكا
بالشرائع فنزله
الكتاب عن ذكرها
لأنها أقوال أبرزتها
العقول التي ضلت
عن الرشاد وطبعت
على الفساد ولم يصبها
نور الاهتداء ببركة
متابعة الأنبياء فهم كما
قال الله تعالى - كانت
أعينهم في غطاء عن
ذكرى وكانوا
لا يستطيعون سمعا - .
وقالوا قلوبنا في
أكنة مما تدعونا
إليه وفي آذاننا وقر
ومن بيننا وبينك
حجاب - فلما حجوا
عن الأنبياء لم يسمعوا
وحيث لم يسمعوا لم
يهتدوا فأصروا على

ويرد في السرّ أو يأخذ في العلانية ويفرق في السرّ ، وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمانت نفسه بالرياضة . والثاني أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه ففعل كليهما في السرّ أو كليهما في العلانية ، وقد ذكرنا أهل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه . وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سرى السقطي رحمهما الله فأما كان لاستغناؤه عنه إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يعتغل بأخذه وصرفه إلى غيره فإن في ذلك آفات وأخطارا والورع يكون حذرا من مظان الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه . وقال بعض المجاورين بمكة كانت عندي دراهم أعدتها للإعاق في سبيل الله فسمعت قبرا قد فرغ من طوافه وهو يقول صوت خفي أنا جائع كما ترى عريان كما ترى فما ترى فيما ترى يا من يرى ولا يرى فنظرت فإذا عليه خفقان لا تسكاد نواريه فقلت في نفسي لا أجد لدراهمي موصفا أحسن من هذا فحملتها إليه فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال : أربعة ثمن مزرين ودرهم أضعه ثلاثا فلا حاجة في إلى الباقي فزده . قال فرأيت الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان فهجس في نفسي منه شيء فالتفت إلى فأخذ بيدي فأطافني معه أسبوعا كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخسحش تحت أقدامنا إلى الكعبين : منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر ذلك للناس ، فقال هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدي الخلق لأن هذه أتعامل وقتة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة ، وللقصود من هذا أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وقتة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه وقدرة الحاجة يأتيك رقابك ، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء . قال الله تعالى - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا - وقد قال صلى الله عليه وسلم « لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكنه ، فما زاد فهو حساب ^(١) » فاذن أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرض للحساب ، وإن عصيت الله فأنت متعرض للعقاب ، ومن الاختبار أيضا أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقربا إلى الله تعالى وكسرا لصفة النفس فتأتيك عفوا صفوا لتتحن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألقت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها فرد ذلك مهم وهو الزهد ، فإن أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد ، ولا يقدر عليه إلا الصديقون . وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بمحقوق الفقراء وتمهد جماعة من الصالحاء فخذ ما زاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدخره فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار فربما يحلو في قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك . وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتنعم في الطعام والشرب وذلك هو الهلاك . ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لاعتماد السلاطين الظلمة فإن رزقه الله من حلال قضاءه وإن مات قبل القضاء قضاء الله تعالى عنه وأرضى غرماءه وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يضر للقرض ولا ينجده بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقرضه على بصيرة ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة وقد قال تعالى

الجهالات وحبوا بالمعقول عن المأمول والعقل حجة الله تعالى يهدي به قوما ويضل به قوما آخرين فلم تنقل أفوالهم في الروح واختلافهم فيه . وأما المستمكن بالشرائع الذين تكلموا في الروح فقوم منهم بطريق الاستبدلال والنظر وقوم منهم بلسان القوق والوجد لا باستعمال الفكر حتى تكلم في ذلك مشايخ الصوفية أيضا وكان الأولى الامسك عن ذلك والتأدب بأدب النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد قال الجنيد : الروح شيء استأثر الله بعلمه ولا

(١) حديث لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكنه فما زاد فهو حساب الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال وجلف الحبز والماء بدل قوله طعام يقيم صلبه وقال صحيح .

- ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله - قبل معناه ليبع أحد ثوبيه وقيل معناه فليسترض بجاهه فذلك مما آتاه الله . وقال بعضهم إن لله تعالى عبادا ينفقون على قدر بضائهم والله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى . ومات بعضهم فأوصى بماله ثلاث طوائف الأقوياء والأسخياء والأغنياء قليل من هؤلاء ؟ فقال أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى فاذن مهما وجدت هذه الشروط فهو في المال وفي المعطى فليأخذ ويبنى أن يرى ما يأخذ من الله لامن للمعطى لأن للمعطى واسطة قد سخر للعطاء وهو مضطر إليه بما سلب عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات . وقد حكى أن بعض الناس دماشقيقا في خمسين من أصحابه فوضع الرجل مائة حسنة فلما تصدق لأصحابه إن هذا الرجل يقول من لم يرنى صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامي عليه حرام قاموا كلهم وخرجوا لإشبابهم كان دونهم في الدرجة فقال صاحب التزل لشقيق ما قصدت بهذا قال أردت أن أختبر توحيد أصحابي كلهم . وقال موسى عليه السلام : يارب جلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل يذيقني هذا يوما ويشيني هذا ليلة فأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائي أجرى أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم فلا يبنى أن يرى للمعطى إلامن حيث إنه مسخر ما جاور من الله تعالى نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه .

(بيان تحریم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير للضطر فيه)

اعلم أنه قد وردت منه كثيرة في السؤال وتشديدات وورد فيه أيضا ما يدل على الرخصة إذ قال صلى الله عليه وسلم « للسائل حق ولو جاء على فرس ^(١) » وفي الحديث « ردوا السائل ولو بظلف محرق ^(٢) » ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز إعانة للتمدى على عدوانه والاعطاء إعانة فالكاشف للعطاء فيه أن السؤال حرام في الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة فان كان غنابته فهو حرام وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة : الأول إظهار الشكوى من الله تعالى إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنده وهو عين الشكوى كما أن العبد للملوك لو سأل لكان سؤاله تشنعا على سيده فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا للضرورة كما محل لليتة . الثاني أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فان فيه عزة فأما سائر الخلق فانهم عباد أمثاله فلا يبنى أن يذل لهم إلا للضرورة وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسئول . الثالث أنه لا ينفك عن إيذاء المسئول غالبا لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبدل عن طيب قلب منه فان يذل حياء من السائل أورياه فهو حرام على الآخذ وإن منع ربما استجبا وتأذى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البخله في البذل نقصان ماله وفي اللع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلا للضرورة ومهما فهمت هذه المخذورات الثلاث قد فهمت قوله

(١) حديث للسائل حق وإن جاء على فرس أبو داود من حديث الحسين بن علي ومن حديث علي وفي الأول يعل بن أبي يحيى جهه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وفي الثاني شيخ لم يسم وسكت عليهما أبو داود وما ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه بلغه عن أحمد بن حنبل قال أربعة أحاديث تدور في الأسواق ليس لها أصل منها للسائل حق الحديث فانه لا يصح عن أحمد قد أخرج حديث الحسين بن علي في مسنده (٢) حديث ردوا السائل ولو بظلف محرق أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح والنسائي واللفظ له من حديث أم مجيد . وقال ابن عبد البر حديث مضطرب .

تهوز العبارة عنه بأكثر من موجود ولكن نجعل للمصدقين محملا لأقوالهم وأفعالهم ويجوز أن يكون كلامهم في ذلك بمثابة التأويل لكلام الله تعالى والآيات للترلة حيث حرم تفسيره وجوز تأويله إذ لا يوسع القول في التفسير إلا لقل وأما التأويل فتتمد العقول إليه بالباع الطويل وهو ذكر ما تمحل الآية من المعنى من غير القطع بذلك وإذا كان الأمر كذلك فللقول فيه وجهه وعمل . قال أبو عبد الله النجاشي الروح جسم يلفظ

صلى الله عليه وسلم «مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها» (١) فانظر كيف سماها فاحشة ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح للضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره. وقال صلى الله عليه وسلم «من سأل عن غنى فأتى ما يستكثر من جمر جهنم» (٢) «ومن سأل وله ما يفييه آجاء يوم القيامة ووجهه عظم يتققع وليس عليه لحم» وفي لفظ آخر «كانت مسألته خدوشا وكدوحا في وجهه» (٣) وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد «وبايح رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم ما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة: ولاتسألوا الناس شيئا» (٤) وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا بالتعفف عن السؤال ويقول «من سألنا أعطينا ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا» (٥) وقال ﷺ «استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير قالوا ومنك يا رسول الله قال ومنى» (٦) ومع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد الغرب فقال لو واحد من قومه عش الرجل فمشاه ثم صمعه ثانيا يسأل فقال ألم أقل لك عش الرجل قال قد عشيتة فنظر عمر فإذا تحت يده عملة مملوءة خبز ا فقال لست سائلا ولكك تاجر ثم أخذ الخلالة وثرها بين يديه إبل الصدقة وضربه بالدارة وقال لا تعد ولو لأن سؤاله كان حراما لماضربه ولاأخذ عملاته ولعل الفقيه الضعيف اللئيم الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول أماضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتحزر وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازوه وهو استبعاد مصدره التصور في الفقه فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حصوله عمر بن الخطاب رضى الله عنه واطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده أقرى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضبا في معصية الله وحاشاه أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبى الله وهيهات أن ذلك أيضا معصية بل الفقه الذى لاح له فيه أنه رأى مستغنيا عن السؤال وعلم أن من أعطاه شيئا فأتى ما أعطاه على اعتقاده أنه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم فبقى مالا للمالك له فوجب صرفه إلى الصالح وإبل الصدقة وعلفها من الصالح وينزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبا كأخذ المولى بقوله إني علوى وهو كاذب فإنه لا يملك ما يأخذه وكأخذ الصوفى الصالح الذى يعطى لصالحه وهو فى الباطن مقارفا لمعصية لو عرفها لعلطى لما أعطاه وقد

(١) حديث مسألة الناس من الفواحش وما أحل الله من الفواحش غيرها لم أجده أصل (٢) حديث من سأل عن غنى فأتى ما يستكثر من جمر جهنم الحديث أبو داود وابن حبان من حديث سهل بن الحنظلية مقتصر على ما ذكرته وتقدم فى الزكاة ولمسلم من حديث أبي هريرة من يسأل الناس أموالهم تكثرا فأتى ما يسأل جمر الحديث والبراز والطبرانى من حديث مسعود بن عمر ولا يزال العبد يسأل وهو غنى حتى يخلق وجهه وفى إسناده لين ولشيوخين من حديث ابن عمر ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة وليس على وجهه مرعة لحم وإسناده جيد (٣) حديث من سأل وله ما يفييه كانت مسألته خدوشا وكدوحا فى وجهه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود وتقدم فى الزكاة (٤) حديث بايع قوم ما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفيفة ولاتسألوا الناس شيئا مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي (٥) حديث من سألنا أعطينا ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا ابن أبي الدنيا فى القناعة والحارث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أبى سعيد الخدرى وفيه حسن بن هلال لم أر من تكلم فيه وباقيم ثقات (٦) حديث استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير الحديث البراز والطبرانى من حديث ابن عباس استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك وإسناده صحيح وله فى حديث تعففوا ولو بعزم الخطب وفيه من لم يسم فيه وما قل من السؤال الخ .

عن الحسن ويكبر عن اللبس ولا يجبر عنه بأكثر من موجود وهو وإن منع عن العبارة فقد حكم بأنه جسم فكأنه عبر عنه . وقال ابن عطاء خلق الله الأرواح قبل الأجساد لقوله تعالى -ولقد خلقناكم -يعنى الأرواح- ثم صورناكم- يعنى الأجساد . وقال بعضهم الروح لطيف قائم فى كسيف كالصبر جوهر لطيف قائم فى كسيف وفى هذا القول نظر وقال بعضهم الروح عبارة والقائم بالأشياء هو الحق وهذا فيه نظر أيضا إلا أن يعمل على معنى الإحياء فقد قال

ذكرنا في مواضع أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء وقد قررناه في مواضع ولا تستدل بفعلناك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر فاذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة فاعلم أن الشيء إما أن يكون مضطرا إليه أو محتاجا إليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة أو مستغنى عنه ، فهذه أربعة أحوال . أما الضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المشول بكونه مباحا والمشول منه بكونه راضيا في الباطن وفي السائل بكونه عاجزا عن الكسب فإن القادر على الكسب وهو بطلال ليس له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة . وأما المستغنى فهو الذي يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعا وهذا طرفان واضحا وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف وكن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهي إلى حد الضرورة وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على الشيء بمشقة ، فهذا أيضا ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضا حاجة محقة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق في السؤال وقال ليس تحت جيبتي قميص والبرد يؤذيني أذى أطيعه ولكن يشق على فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى . وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الحروق من ثيابه عن أعين الناس وكن يسأل لأجل الأدم وهو واحد للخبز وكن يسأل الكراء لقرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار أو يسأل كراء الحمل وهو قادر على الرحلة فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال باظهار حاجة غير هذه فهو حرام وإن لم يكن وكان فيه شيء من المهدورات الثلاثة من الشكوى والتل وإيذاء المشول فهو حرام لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المهدورات وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة . فإن قلت فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المهدورات . فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج ولكن يقول أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس فيخرج به عن حد الشكوى . وأما التل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي يعلم أنه لا يتقصه ذلك في عينه ولا يزدر به بسبب سؤاله والرجل السخي الذي قد أعدت ماله مثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عند التل بذلك فإن التل لازم للنة لا محالة . وأما الإيذاء فسييل الخلاص عنه أن لا يمين شخصا بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة وإن كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام فهذا إيذاء فانه ربما يبذل كرها خوفا من اللامة ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير اللامة . وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغي أن لا يصرح بل يعرض تمرضا يبق له سبيلا إلى التعافل إن أراد فاذا لم يتعافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنه غير متأذبه وينبغي أن يسأل من لا يستجيب منه لورده أو تعافل عنه فان الحياء من السائل يؤدي كأن الرياء مع غير السائل يؤدي . فان قلت فاذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولا لما ابتداء به فهل هو حلال أو شبهة . فأقول ذلك حرام محض لاختلاف فيه بين الأمة وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والصادرة إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهرا جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف اللام وضرب الباطن أشد نكابة في قلوب العقلاء

بعضهم الإحياء صفة
المهي كالخلق صفة
الخالق وقال - قل الروح
من أمر ربى - وأمره
كلامه وكلامه ليس
بمخلوق أى صار إلى
حيا بقوله كن حيا
وعلى هذا لا يكون
الروح معنى في الجسد
فمن الأقوال ما يدل
على أن قائله يعتقد قدم
الروح ومن الأقوال
ما يدل على أنه يعتقد
حدوته ثم إن الناس
مختلفون في الروح الذي
سئل رسول الله صلى
الله عليه وسلم عنه
فقال قوم هو جبرائيل
وتقل عن أمير المؤمنين
على بن أبى طالب رضى
الله عنه أنه قال هو
ملك من الملائكة له

ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قدرضى به وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر »^(١) فإن هذه ضرورة القضاة في فصل الخصومات إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجمان كثير الكذب ولكن الضرورة دعت إليه وهذا سؤال عما بين الصمد وبين الله تعالى والحاكم فيه أحكم الحاكمين والقلوب عنده كاللجنة عند سائر الحكام فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أتوك وأتوك فإن الملقى معتمداً للسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ومفتى القلوب هم علماء الآخرة وبتوأم النجاة من سطوة سلطان الآخرة كما أن بنتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا فإذا ما أخذ مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده إلى صاحبه فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده فله أن يشبه على ذلك بما يساوى قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتقضى عن مهادته فإن لم يقبل هديته فله أن يرد ذلك إلى ورثته فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذي حصل به الأذى . فإن قلت فهذا أمر باطن يسر الاطلاع عليه فكيف السبيل إلى الخلاص منها فربما يظن السائل أنه مرض ولا يكون هو في الباطن راضياً . فأقول لهذا ترك التقون السؤال رأساً لما كانوا يأخذون من أحد شيئاً أصلاً فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلاً إلا من السرى رحمة الله عليهما وقال لأنى علمت أنه يفرح بخروج السال من يده فأنا أعينه على ما يحب وإنما عظم التكبر في السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا لأن الأذى إنما يحل بضرورة وهو أن يكون السائل مشرفاً على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم البنية فكان الامتناع طريق الورعين ومن أرباب القلوب من كان وثاقاً يصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضاً ويرد بعضاً كما فعل رسول الله ﷺ في الكبش والسمن والأخط وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة ولكن قد تكون رغبته طمعا في جاه أو طلباً للرياء والسمة فكانوا يحترزون من ذلك فأما السؤال فقد امتنعوا عن رأساً إلا في موضعين أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة سليمان وموسى والخضر عليهم السلام ولا شك في أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم . والثاني السؤال من الأصدقاء والاخوان فقد كانوا يأخذون ما لهم بغير سؤال واستئذان لأن أرباب القلوب علموا أن اللطوب رضا القلب لا نطق اللسان وكانوا قد وثقوا باخوانهم أنهم كانوا يفرحون بما سألهم فإذا كانوا يسألون الاخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فسألوا يستغنون عن السؤال ، وحد إباحة السؤال أن تعلم أن السئول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لا تبدأك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تأثير إلا في تعريف حاجتك فأما في تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا يتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن وحالة لا يشك في الكراهة ويعلم ذلك بقرينة الأحوال فالأخذ في الحالة الأولى حلال مطلق وفي الثانية حرام سحت وتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الآثم وليدع ما يريه إلى ما لا يريه وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضمف حرصه وشهوته فإن قوى الحرص وضعفت الفطنة رآه له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقرائن إلا على الكراهة وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله صلى الله عليه وسلم « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه »^(٢)

سبعون ألف وجهه
ولكل وجه منه
سبعون ألف لسان
ولكل لسان منه
سبعون ألف لغة يسبح
الله تعالى بتلك اللغات
كلها ويخلق من كل
تسيحة ملكا يطير مع
اللائكة إلى يوم
القيامة . وروى عن
عبد الله بن عباس
رضي الله عنهما أن
الروح خلق من خالق
الله صورهم على صورة
بنى آدم وما نزل من
السماء ملك إلا ومعه
واحد من الروح وقال
أبو صالح الروح كهية
الانسان وليسوا بناس
وقال مجاهد الروح على
صورة بنى آدم لهم أيد
وأرجل . وروى

(١) حديث إنما يحكم بالظاهر والله يتولى السرائر لم أجده أصلاً وكذا قال المزى لما سئل عنه .

(٢) حديث إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه تقدم .

وقد أوتى جوامع الكلم لأن من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أيه أو أحد قرابته فيأكل من أيدي الناس وإن أعطى بغير سؤال فأنما يعطى بدينه ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل وأين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة ، فإذا فقتت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذي اكتسبته بحلال أنت أو مورثك فإذا بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس ، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره وأن يحنينا بحلاله عن حرامه وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده فإنه على ما يشاء قدير .

(بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال)

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم « من سأل عن ظهر غنى فأنما يسأل جمرًا فليستقل منه أو ليستكثر » صريح في التحريم ، ولكن حد الغنى مشكل وتقديره عسيره وليس إلينا وضع القادير بل يستدرك ذلك بالتوقيف ، وقد ورد في الحديث « استنوا بنى الله تعالى عن غيره قالوا وما هو قال غداه يوم وعشاء ليلة ^(١) » وفي حديث آخر « من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل الخاف ^(٢) » وورد في لفظ آخر « أربعون درهما » وبهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبى أن يقطع بوزودها على أحوال مختلفة فإن الحق في نفسه لا يكون إلا واحدا والتقدير مجتمع وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك إلا بتقسيم عيظ بأحوال المحتاجين ، فنقول . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاحق لابن آدم إلا في ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يوارى به عورته وبيت يكفيه فما زاد فهو حساب » فلنجد هذه الثلاث أصلا في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والقادير والأوقات ، فأما الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها مافي معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على الشيء وكذلك ما يجرى مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفاله كالأبنة أيضا . وأما القادير فالثوب يراعى فيه ما يلبق بذوى الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومبداس وأما الثاني من كل جنس فهو مستثن عنه وليتس على هذا أثاث البيت جميعا ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والفضة فيما يكفي فيه الخرف فإن ذلك مستثنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أحسن أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقدرة في اليوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير والأدم على الدوام فضلة وقطعه بالكيفية إضرار ففي طلبه في بعض الأحوال رخصة . وأما السكن فأقله ما يجزى من حيث للقدار وذلك من غير زينة فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى وأما بالاضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه وماوى يمكنه فلا شك فيه فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات : إحداهما ما يحتاج إليه في غد . والثانية ما يحتاج إليه في أربعين يوما أو خمسين يوما . والثالثة ما يحتاج إليه في السنة ، ولتقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله إن كان له عيال لسنة فسؤاله حرام فإن ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما في الحديث فإن خمسة دنانير تكفى المنفرد

(١) حديث استنوا بنى الله قالوا وما هو قال غداه يوم وعشاء ليلة تقدم في الزكاة من حديث سهل ابن الحنظلية قالوا ما ينيه قال ما يضيه وأبعشه ولأحمد من حديث على باسناد حسن قالوا وما ظهر غنى؟ قال عشاء ليلته وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة .
(٢) حديث من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل الخاف وفي لفظ آخر أربعون درهما تقدم في الزكاة .

يا كلون الطعام وليسوا
بملائكة وقال سعيد
ابن جبير لم يخلق الله
خلقا أعظم من الروح
غير العرش ولوشاء
أن يبلغ السموات
والأرضين السبع في
لقمة لصل صورة
خلقه على صورة
الملائكة وصورة
وجهه على صورة
الآدميين يقوم يوم
القيامة عن عرش العرش
والملائكة معه في صف
واحد وهو بمن يشفع
لأهل التوحيد ولولا أن
بينه وبين الملائكة
سترا من نور لحرق
أهل السموات من
نوره فهذه الأقاويل
لا تكون إلا تقلا وصحاحا
بلفهم عن رسول الله

في السنة إذا اقتصد أما الليل فربما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة فإن كان قادرا على السؤال ولا نفوته فرصته فلا يحل له السؤال لأنه مستثنى في الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج فيكفيه هدماء يوم وعشاء ليلة وعليه ينزل الخبر القدي ورد في التقدير بهذا القدر وإن كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يسطيه لو أخر فيباح له السؤال لأن أمل البقاء سنة غير بيدفوه بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرا عاجزا عما يهينه فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفا وكان مالأجله السؤال خارجا عن محل الضرورة لم يحل سؤاله عن كراهية وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطراب وخوف القوت وتراخي اللذة التي فيها يحتاج إلى السؤال وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد المبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستغنى فيه قلبه ويسئل به إن كان سالكا طريق الآخرة وكل من كان يقينه أقوى وثقته بجي^ه الرزق في المستقبل ثم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلا من ضعف اليقين والاصفاء إلى تخويف الشيطان وقد قال تعالى - فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين - وقال عز وجل - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفتنة والله يعدكم مغفرة منه وفضلا - والسؤال من الفتنة التي أبيضت بالضرورة وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة أشد من حال من ملك مالا موروثا وادّخره لحاجة وراء السنة وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله وهذه الحصلة من أمهات المهلكات ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

(بيان أحوال السائلين)

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ فهذا مع الروحانيين في عليين و فقير لا يسأل وإن أعطى أخذ فهذا مع القريين في جنات الفردوس و فقير يسأل عند الحاجة فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين فاذن قد اتفق كلهم على ضم السؤال وعلى أنه مع الفاقة محط المرتبة والدرجة . قال شقيق البلخي لأبراهيم بن آدم حين قدم عليه من خراسان كيف تركت الفقراء من أصحابك قال تركتهم إن أعطوا شكروا وإن منعوا صبروا و ظن أنهم لما وصفهم بترك السؤال قد أنشئ عليهم غاية التثناء فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا فقال له إبراهيم فكيف الفقراء عندك يا أبا اسحق فقال الفقراء عندنا إن منعوا شكروا وإن أعطوا آثروا وقبل رأسه وقال صدقت يا أستاذ فاذن درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفتها انقسامها واختلاف درجاتها فانه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين وقد خلق الانسان في أحسن تقويم ثم رده إلى أسفل سافلين ثم أمر أن يرتقى إلى أعلى عليين ومن لا يعزبين السفلى والعلو لا يقدر على الرقي قطعا وانما الشك فيمن عرف ذلك فانه ربما لا يقدر عليه وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيدا لهم في درجاتهم ولكن بالإضافة إلى حالهم فان مثل هذه الأعمال بالنيات وذلك كما روي أن بعضهم رأى أبا اسحق النوري رحمه الله يمد يده ويسأل الناس في بعض المواضع قال فاستعظمت ذلك واستجبته له فأثبت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال لا يعظم هذا عليك فان النوري لم يسأل الناس إلا لمعطهم وانما سألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم « يد المظى هي العليا ^(١) » فقال بعضهم يد المظى هي يد الآخذ للسأل لأنه يظلى الثواب والقدره

صلى الله عليه وسلم ذلك وإذا كان الروح للشئول عنه شيئا من هذا المنقول فهو غير الروح القدي في الجسد صلى هذا يسوغ القول في هذا الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعا وقال بعضهم الروح لطيفة تسرى من الله إلى أما كن معروفة لا يبر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره وقال بعضهم الروح لم يخرج من كني لأنه لو خرج من كني كان عليه القدر قيل فمن أي شيء خرج قال من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الإشارة خصها بسلامه وحيائها بكلامه

(١) حديث يد المظى هي العليا - سلم من حديث أبي هريرة .

لما يأخذهم قال الجنيد هات اليزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائنة ثم قال احملها إليه فقلت في نفسي إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره فكيف خطبه مجهولاً وهو رجل حكيم واستحييت أن أسأله فذهبت بالصرّة إلى النوري فقال هات اليزان فوزن مائة درهم وقال ردّها عليه وقل له أنا لا أقبل منك أنت شيئا وأخذ مازاد على المائنة قال فزاد تصبى فسأله فقال الجنيد رجل حكيم يريد أن يأخذ الحبل بطرفه وزن المائنة لنفسه طلبا لثواب الآخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن فهُ عز وجل فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه قال فرددتها إلى الجنيد فبكي وقال أخذ ماله ورد مالنا الله السحان، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير منطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الأسرار وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والاقبال على الله تعالى بكنه الهمة فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل كمن ينكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب للسُّهل فلم يؤثر في حقه خاصة لملّة في باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلا وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ولكنه ليس خاليا عن حظ واف من الجهل بل البصير أحد رجلين إما رجل سلك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والعرفة وقد وصل إلى عين اليقين وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلا إلى عين اليقين ولعلم اليقين أيضا رتبة وإن كان دون عين اليقين ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين وبمشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتل القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراشخين في العلم القائلين آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب .

[الشرط الثاني من الكتاب في الزهد] وفيه بيان حقيقة الزهد وبيان فضيلة الزهد وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد في المطعم والملبس والسكن والأثاث وضروب العيشة وبيان علامة الزهد .

(بيان حقيقة الزهد)

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات لأن أبواب الايمان كلها كإقبال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل وكان القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن وإلا فليس القول مرادا لعينه وإن لم يكن صادرا عن حال سمى إسلاما ولم يسم إيمانا والعلم هو السبب في حال يجرى مجرى الثمر والعمل يجرى من الحال مجرى الثمرة فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل . أما الحال فتعني بها ما يسمى زهدا وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه فكل من عدل عن شيء إلى غيره بماوضة ويسع وغيره فأنما عدل عنه لرغبته عنه وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره فخاله بالاضافة إلى العدول عنه يسمى زهدا وبالاضافة إلى العدول إليه يسمى رغبة وحيا فاذن يستدعى حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زهدا إذا تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زهدا وإنما يسمى زهدا من ترك الدرهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة فالبايع لا يقدم على البيع إلا والمشتري عنده خير من البيع فيكون حاله بالاضافة إلى البيع زهدا فيه وبالاضافة إلى الموضع عنه رغبة فيه وحاول لذلك قال الله تعالى - وشروه بضمن نحس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين - معناه باعوه فقد يطلق الشراء بمعنى البيع

فهي معتقمن ذلك كن
وسئل أبو سعيد الخراز
عن الروح مخلوقة هي
قال نعم ولولا ذلك
ما أقرت بالربوبية
حيث قالت بلى والروح
هي التي قام بها البدن
واستحق بها اسم الحياة
وبالروح ثبت العقل
وبالروح قامت الحجة
ولو لم يكن الروح
كان العقل معطلا
لا حجة عليه ولا له
وقيل إنها جوهر مخلوق
واصكها الطف
المخلوقات وأصفي
الجواهر وأنورها وبها
تراءى المعاني وبها
يكون الكشف لأهل
الحقائق وإذا حجب
الروح عن مراعاة
السير أساءت الجوارح

ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طعموا أن يخلو لهم وجه أبيهم ، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعا في العوض فاذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن في الآخرة ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة وإن كان هو للسبيل في وضع اللسان ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور إلا بالدول إلى شيء هو أحب منه وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال والذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى حتى الفرائس ولا يجب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق ، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك المحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والأنهار والنواكح فهو أيضا زاهد ولكنه دون الأول والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجميل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين وهو زهد صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصي صحيحة فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات . والزهد عبارة عن ترك الباطل التي هي حظ النفس ، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض الباطل دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات ، وللتخصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك الباطل فاذن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا وكما يشترط في اللزوم فيه أن يكون خيرا عنده فيشترط في اللزوم عنه أن يكون مقدورا عليه فإن ترك ما لا يقدر عليه محال وبالترك يتبين زوال الرغبة ، ولذلك قيل لابن المبارك يا زاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا فضاذا زهدت ؟ . وأما العلم الذي هو منبر لهذه الحال فهو العلم بكون التروك حقيقا بالإضافة إلى للأخذ كعلم التاجر بأن العوض خير من البيع فيرغب فيه ومالم يتحقق هذا للعلم لم يتصور أن يزول الرغبة عن البيع فكذلك من عرف أن ما عند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى لذاتها خير في أنفسها وأبقى كما تكون الجواهر خيرا وأبقى من الثلج مثلا . ولا يصير على مالك الثلج يبعه بالجواهر والآلئ . فهكذا مثال الدنيا والآخرة فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الدوبان إلى الاقراض والآخرة كالجواهر التي لا تنفد له فيقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والعاملة حتى إن من قوى يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى - فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به - فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا : إما لضغف علمه ويقينه . وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهورا في يد الشيطان . وإما لاغتراره بعوايد الشيطان في التصوف يوما بعد يوم إلى أن يحتطفه للوت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت وإلى تعريف خسارة الدنيا بالإشارة بقوله تعالى - قل متاع الدنيا قليل - وإلى تعريف تقاسة الآخرة بالإشارة بقوله عز وجل - وقال الدين أوتوا العلم وبلغكم ثواب الله خير - فبه على أن العلم بتقاسة الجواهر هو الرغب عن عوضه ولما لم يتصور الزهد إلا بماؤنة ورغبة عن المحبوب في أحب منه . قال الرجل في دعائه اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تنقل هكذا ولكن قل أرني

الأدب ولذلك صارت الروح بين نجل واستار وقابض ونازع وقيل الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء وقيل الأرواح أقسام أرواح تجول في البرزخ وتبصر أحوال الدنيا والملائكة وتسمع ما تحدث به في السماء عن أحوال الآدميين وأرواح تحت العرش وأرواح طيارة إلى الجنان وإلى حيث شاءت على أقدارها من السعي إلى الله أيام الحياة . وروى سعيد بن المسيب عن سلمان قال أرواح المؤمنين تذهب في برزخ من الأرض حيث شاءت بين السماء والأرض حتى يردّها

الدنيا كأريتها الصالحين من عبادك (١) وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي وكل مخلوق فهو بالاضافة إلى جلاله حقير والمبد يراها حقيرة في حق نفسه بالاضافة إلى ما هو خير له ولا يتصور أن يرى بائع القرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلا لأنه مستغن عن الحشرات أصلا وليس مستغنيا عن القرس والله تعالى غنى بذاته عن كل ما سواه فيرى السكك في درجة واحدة بالاضافة إلى جلاله وراه متفاوتا بالاضافة إلى غيره والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالاضافة إلى نفسه لا إلى غيره . وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه يبيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك البيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض فكذلك الزهد يوجب ترك اللزود فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها فيخرج من القلب حبا ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات وإلا كان كمن سلم للبيع ولم يأخذ الثمن فإذا وفي بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليست بشر بيمينه الذي يبيع به فان الذي يابسه بهذا البيع وفي بالعهد فمن سلم حاضرا في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إلى الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد وما دام ممسكا للدنيا لا يصح زهده أصلا ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا - ليوسف وأخوه أحب إلى أئنا منا - وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فتركه ولا وصفهم أيضا بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه بل عند التسليم والبيع ضلامة الرغبة الأمساك وعلامة الزهد الإخراج فان أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيها أخرجت فقط ولست زاهدا مطلقا وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد لأن ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه وربما يستهويك الشيطان بغروره ويغيب إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها فلا ينبغي أن تتدلى بعجل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموتق غليظ من الله فانك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تتق بالقدرة على الترك عندها فكمن ظان بنفسه كراهة للماص عند تمسرها فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها وإذا كان هذا غرور النفس في المخطورات فإياك أن تتق برعدها في المباحات وللوثق الغليظ الذي تأخذه عليها أن تجربها مرة بعد مرة في حال القدرة فإذا وصفت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعدار ظاهرا وباطنا فلا بأس أن تتق بها وثوقا ما ولكن تكون من تغيرها أيضا على حذر فانها سرية النقص للعهد قرية الرجوع إلى مقتضى الطبع . وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالاضافة إلى ما تركه قط وذلك عند القدرة . قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا تتق في مسألة إلا رد علينا يعني أبا حنيفة فقال ابن شبرمة لا أدري أهو ابن الحائك أم ما هو لكن أعلم أن الدنيا فدت إليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لقلناه حتى نزل قوله تعالى - ولو أننا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم - (٢) .

(١) حديث قال رجل اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له لا تتقل هكذا ولكن قل أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك ذكره صاحب الفردوس مختصرا اللهم أرني الدنيا كما تريها صالح عبادك من حديث أبي بصير ولم يخرج له (٢) حديث قال السلون إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لقلناه حتى نزل قوله تعالى - ولو أننا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم - الآية لم أفه له على أصل .

إلى جسدها . وقيل إذا ورد على الأرواح ميت من الأحياء التقوا وتحدثوا وتساءلوا وركل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الأحياء حتى إذا عرض على الأموات ما يعاقب به الأحياء في الدنيا من أجل الذنوب قالوا نعمتد إلى الله ظاهرا عنه فانه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى وقد ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة فيفرحون بحسناتهم

قال ابن مسعود رحمه الله : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت منهم يعني من القليل قال وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى - منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة - (١) . واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل إسالة القلوب وعلى سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات وإنما الزهد أن تترك الدنيا لملك محفاتها بالاضافة إلى نفاسة الآخرة فأما كل نوع من الترك فإنه يتصور بمن لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق ولكن لا يكون زهدا إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي الدواهي من اللال وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعا في العوض ليس من الزهد فكذلك تركه طمعا في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستقلاله لما في حفظ المال من الشقة والعناء والحاجة إلى التذلل للسلطين والأغنياء ليس من الزهد أصلا بل هو استبحال حظ آخر للنفس بل الزاهد من أته الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو قادر على التمتع بها من غير نقصان جاءه وتبجح اسم ولا فوات حظ للنفس فتركها خوفا من أن يأنس بها فيكون آتسا بغير الله ومجالسا سوى الله ويكون مشركا في حب الله تعالى غيره أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا في أشربة الجنة وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعا في الحور العين وترك التفرج في البساتين طمعا في بساتين الجنة وأشجارها وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في زينة الجنة وترك اللطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة وخوفا من أن يقال له - أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا - فأثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تبسر له في الدنيا عفوا صفوا لعله بأن مافي الآخرة خير وأبقى وأن ماسوى هذا فعمالات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلا .

(بيان فضيلة الزهد)

قال الله تعالى - نخرج على قومه في زينته - إلى قوله تعالى : وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن - فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا - وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال عز وجل - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا - قيل معناه أيهم أزهد فيها فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال وقال تعالى - من كان يريد حرث الآخرة زد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا توتته منها وماله في الآخرة من نصيب - وقال تعالى - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى - وقال تعالى - الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة - فوصف الكفار بذلك ففهومه أن المؤمن هو الذي يتصف بتقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا . وأما الأخبار : فما ورد منها في ذم الدنيا كثير وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربح المهلكات إذ ذم الدنيا من المهلكات ونحن الآن نقتصر على فضيلة بعض الدنيا فإنه من النجيات وهو المعنى بالزهد وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أصبح وهمه الدنيا شقت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل قمره بين عينيه ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم العبد وقد أعطى صنعا وزهدا في الدنيا فاقربوا منه

وتزداد وجوههم يابسا وإشراقا » فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم وفي خبر آخر « إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من اللوق فان كان حسنا استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لاتنهم حتى تهديهم كما هديتنا » وهذه الأخبار والأقوال تدل على أنها أعيان في الجسد وليست بمعان وأعراض ، مثل الواسطي لأبي علة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلم الخلق ؟ قال لأنه خلق روحه أولا فوقع له صحبة الحكمين والاستقرار الآراء يقول « كنت

(١) حديث ابن مسعود ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى - منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة - الآية البيهقي في دلائل النبوة باسناد حسن (٢) حديث من أصبح وهمه الدنيا شقت الله عليه أمره الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه

فانه يلقي الحكمة^(١) وقال تعالى - ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ولذلك قيل: من زهد في الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق به لسانه. وعن بعض الصحابة أنه قال « قلنا يارسول الله أي الناس خير؟ قال كل مؤمن مخموم القلب صدوق اللسان قلنا يارسول الله وما مخموم القلب؟ قال التقى التقى القدي لاغل فيه ولاغش ولابني ولاحسد قلنا يارسول الله فمن طى أثره؟ قال الذي يشأ الدنيا ويحب الآخرة^(٢) » ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم « إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا^(٣) » فجعل الزهد سببا للحبة فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل اللقائات ومفهومه أيضا أن حب الدنيا تعرض لبعض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت « الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادقا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا^(٤) » ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا مؤمن حقا قال وما حقيقة إيمانك؟ قال عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكأني بالجنة والنار وكأني برش ربي بارزا فقال صلى الله عليه وسلم لعرفت فإثم، عبد نور الله قلبه بالايمان^(٥) » فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الايمان بمزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال عبد نور الله قلبه بالايمان « ولما سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرح في قوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - وقيل له ما هذا الشرح؟ قال إن النور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل يارسول الله وهل ذلك من علامة؟ قال نعم التجافي عن دار العرور والإناية إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل زوئه^(٦) » فانظر كيف جعل الزهد شرط للإسلام وهو التجافي عن دار العرور وقال صلى الله عليه وسلم « استحيوا من الله حق الحياء قالوا إننا لنستحي منه تعالى فقال ليس كذلك تبون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون^(٧) » فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى « ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وما علامة إيمانكم؟ فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الثمالة بالمصيبة إذا زلت بالأعداء فقال عليه الصلاة والسلام إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبينوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون^(٨) » فجعل الزهد تكملة لإيمانهم وقال جابر رضى الله عنه « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث إذا رأيتم العبد قد أوتي صنما وزهدا في الدنيا فاقربوا منه فانه يلقي الحكمة ابن ماجه من حديث أبي خلد بسند فيه ضعف (٢) حديث قلنا يارسول الله وما مخموم القلب؟ قال التقى التقى الحديث ابن ماجه باسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله يارسول الله فمن طى أثره وقد تقدم ورواه بهذه الزيادة بالاسناد للذکور الحرائطى في مكارم الأخلاق (٣) حديث إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه وقد تقدم (٤) حديث الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادقا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا لم أجده أصلا (٥) حديث لما قال له حارثة أنا مؤمن حقا فقال وما حقيقة إيمانك الحديث البزار من حديث أنس والطبرانى من حديث الحارث بن مالك وكلا الحديثين ضعيف (٦) حديث سئل عن قوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه - الحديث الحاكم وقد تقدم (٧) حديث استحيوا من الله حق الحياء الحديث الطبرانى من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب باسناد ضعيف (٨) حديث لما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وما علامة إيمانكم الحديث الخطيب وابن عساكر في تاريخهما باسناد ضعيف من حديث جابر .

نبياء وآدم بين الروح والجسد « أى لم يكن روحا ولا جسدا وقال بعضهم الروح خلق من نور العزة وإبليس من نار العزة ولهذا قال - خلقتنى من نار وخلقته من طين - ولم يدر أن النور خير من النار فقال بعضهم قرن الله تعالى العلم بالروح فهى للطاقتا سمو بالعلم كما ينمو البدن بالتذاء وهذا فى علم الله لأن علم الخلق قليل لا يبلغ ذلك والختار عند أكثر متكلمي الاسلام أن الانسانية والحيوانية عرضان خلقا فى الانسان واللسوت يدمهما وأن الروح هى الحياة بينهما صار

قال : من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط بها غيرها وجبت له الجنة قدام إله على كرم الله وجهه ، قال
بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما لا يخلط بها غيرها ؟ صفه لنا فسرره لنا ، قال : حب الدنيا طلبا لها
وإتباعا لها ، وقوم يقولون قول الأنبياء يعملون عمل الجبابرة ، فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها
شيء من هذا وجبت له الجنة (١) . وفي الخبر «السخا والسخا من اليقين ولا يدخل النار موقن والبخل من
الشك ولا يدخل الجنة من شك (٢) » . وقال أيضا «السخي قريب من الله قريب من الناس
قريب من الجنة ، والبخل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار (٣) » والبخل ثمرة
الرغبة في الدنيا والسخا ثمرة الزهد والتناء على الثمرة تماء على الثمر لاجالة . وروى عن ابن السيب
عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه
فأنطق بها لسانه وعرفه داه الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما إلى دار السلام (٤) » وروى أنه
صلى الله عليه وسلم «مر في أصحابه بشار من التوق حفل وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم
إليهم وأتسها عندهم لأنها تجمع الظهر والاحم واللبن والوبر ، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى
- وإذا العشار عطلت - قال فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل له
يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر إليها فقال قد نهاني الله عن ذلك ثم تلا قوله تعالى - ولا
تمدن عينيك إلى ما متعنا به - (٥) » الآية وروى مسروق عن عائشة رضی الله عنها قالت «قلت
يا رسول الله ألا تستظم الله فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع ، قال يا عائشة والذي
نفسى يده لو سألت ربي أن يجرى معي جبال الدنيا ذهباً لأجرها حيث شئت من الأرض ولكنى
اخترت جوع الدنيا على شبعها وقهر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ، يا عائشة إن الدنيا
لا تنفى لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه
الدنيا والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض لى إلا أن يكلفني ما كلفهم ، فقال - فاصبر كما صبر أولوا
العزم من الرسل - والله مالى بد من طاعته وإنى والله لأصبرن كما صبروا بجهدى ولا قوة إلا بالله (٦) »

البدن بوجودها حيا
وبالإعادة إليه في القيامة
يصير حيا وذهب بعض
متكلمي الإسلام إلى أنه
جسم لطيف مشبك
بالأجسام الصكيفة
اشتباك الماء بالسود
الأخضر وهو اختيار
أبي العالى الجويني
وكثير منهم مال إلى
أنه عرض إلا أنه ردم
عن ذلك الأخبار
الدالة على أنه جسم
لما ورد فيمن الروح
والهبوط والتردد في
البرزخ حيث وصف
بأوصاف دل على أنه
جسم لأن العرض لا
يوصف بأوصاف إذ
الوصف معنى والمعنى
لا يقوم بالمعنى واختار
بعضهم أنه عرض .

(١) حديث جابر من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط معها شيئا وجبت له الجنة لم أره من حديث جابر وقد
رواه الترمذى الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم باسناد ضعيف نحوه (٢) حديث السخا
من اليقين ولا يدخل النار موقن الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرج
ولده في مسنده (٣) حديث السخي قريب من الله الحديث الترمذى من حديث أبي هريرة وقد تقدم
(٤) حديث أبي ذر من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه الحديث لم أره من حديث أبي ذر
ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب فم الدينامن حديث صفوان بن سليم مرسل ولا بن عدى في الكامل
من حديث أبي موسى الأشعري من زهد في الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها العبادة أجرى الله ينابيع
الحكمة من قلبه على لسانه وقال حديث منكر وقال الذهبي باطل ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب
وأبو نعيم في الحلية مختصرا من حديث أبي أيوب من أخلص لله وكلها ضيفة (٥) حديث مرفي
أصحابه بشار من التوق حفل الحديث وفيه ثم تلا قوله تعالى - ولا تمدن عينيك - الآية لم أجده أصلا
(٦) حديث مسروق عن عائشة قلت يا رسول الله ألا تستظم ربك فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت
به من الجوع الحديث . وفيه يا عائشة إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر الحديث
أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمى من رواية عباد
ابن عباد عن مجاهد عن الشعبي عن مسروق مختصرا : يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم

وروى عن عمر رضى الله عنه « أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضى الله عنها البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومر بصنمة طعام تطعمه وتطعم من حضر ، فقال عمر يا حفصة ألسنت تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته فقالت بلى قال ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة . وناشدتك الله هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خير ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قرَّبتم إليه يوماً طعاماً على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية فثبتت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال منعموني قيام الليلة بهذه العباءة اثنوها بائنتين كما كنتم تثنونها ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوباً يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بنى ظفر كساء من إزاراً ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر فخرج إلى الصلاة وهو مشتعل به ليس عليه غيره قد عقد طرفه إلى عنقه صلى كذلك فما زال يقول حتى أبكاه وبكى عمر رضى الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج (١) » وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال كان لى

سئل ابن عباس رضى الله عنهما قيل أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان فقال أين يذهب ضوء الصباح عند فناء الأدهان قيل له فأين تذهب الجسوم إذا بليت قال فأين يذهب لجها إذا مرضت .

وقال بعض من يتهم بالعلوم الردودة المذمومة وينسب إلى الاسلام: الروح تنفصل من البدن في جسم لطيف . وقال بعضهم إنها إذا فارقت البدن تحمل معها القوة الوهمية بتوسط النطقية فتكون حيشة مطالسة للمعاني والمخسومات لأن

من الرسل إلا الصبر على مكروهاها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم فقال تعالى - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - ومجاله مختلف في الاحتجاج به (١) حديث إن عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة البس ألين الثياب إذا قدمت عليك الوفود الحديث بطوله وفيه ناشدتك الله هل تعلمين كذا يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبكاه وبكى الخ لم أجده هكذا مجموعاً في حديث وهو مفرق في عدة أحاديث فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقي ربه وفيه عمرو ابن عبد الله القدرى متروك الحديث وللترمذى من حديث عائشة قالت ما شبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت قلت لم قالت أذكر الحال التي فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم قال حديث حسن وللشيخين من حديثها ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباع حتى قبض وللبخارى من حديث أنس كان لا يأكل على خوان الحديث وتقدم في آداب الأكل وللترمذى في الثمائل من حديث حفصة أنها لما سئلت ما كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم؟ مسح ثنيه ثنتين فنام عليه الحديث ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة بائنتين الحديث وتقدم في آداب العيشة وللبزار من حديث أبي الدرداء قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يشغل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد وقال لا نعلم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الاسناد قال يونس بن بكير قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكرى بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على ما فيها قلت فيه سعيد ابن ميسرة قد كذبه يحيى القطان وصفه البخارى وابن حبان وابن عدى وغيرهم ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى في شملة قد عقد عليها زاد العطر يني في جزئه الشهور فقدها في عنقه ما عليه غيرها وإسناده ضعيف وتقدم في آداب العيشة .

صاحبان سلكا طريقا فان سلكت غير طريقهما سلك في طريق غير طريقهما وإنى والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلى أدرك معهما عيشهما الرغيد . وعن أبي سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لقد كان الأنبياء قبلى بيتلى أحدم بالقرم فلا يلبس إلا العباة وإن كان أحدم لبيتلى بالقمع حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم ^(١) » وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من الهزال فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة وفي حديث عمر رضى الله عنه أنه قال « لما نزل قوله تعالى - والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله - قال صلى الله عليه وسلم تبأ لدينا تبأ لدينار والدرهم قلنا يا رسول الله نهانا الله عن كثر الذهب والفضة فأى شئ نأخذ فقال ^(٢) : ليتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا وزوجة سالحة تمينه على أمر آخرته ^(٣) » وفي حديث حذيفة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله ثلاثها لا يفارق قلبه أبدا وقرأ لا يستغنى أبدا وحرصا لا يشبع أبدا ^(٤) » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى يكون قلة الشئ أحب إليه من كثرته ^(٥) » وقال المسيح ^(٦) الدنيا قنطرة فأعبروها ولا تمروها وقيل له يا بنى الله لو أمرت أن بنى بيتا نعبد الله فيه قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء فقالوا كيف يستقيم بيان على الماء قال وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « إن ربى عز وجل عرض على أن يخلنى بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يارب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما فأما اليوم الذى أجوع فيه فأترضع إليك وأدعوك وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمضى وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبي ^(٧) يا جبريل والذى بشك بالحق ما أمسى لآل محمد كسف سويق ولا سفة دقيق فلم يكن كلامه بأسرع من أن مع هدة من السماء أفضتته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمر الله

تجردها من هيات
البدن عند المفارقة
غير يمكن وهى عند
الموت شاعرة بالموت
وبعد الموت متخيلة
بنفسها مقبورة
وتصور جميع
ما كانت تعتقه حال
الحياة وتحس بالثواب
والعقاب فى القبر قال
بعضهم أسلم القالات
أن يقال الروح شئ
مخلوق أجرى الله تعالى
العادة أن يحى البدن
مادام متصلا به وأنه
أشرف من الجسد
يدوق الموت بفارقة
الجسد كما أن الجسد
بفارقته يدوق الموت
فان الكيفية والماهية
يتعاشى العقل فيهما
كما يتعاشى البصر فى

(١) حديث أبي سعيد الخدرى كان الأنبياء بيتلى أحدم بالقرم فلا يجد إلا انعباء الحديث باسناد صحيح فى أثناء حديث أوله دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله وإن كان أحدم لبيتلى بالقمع (٢) حديث عمر لما نزل قوله تعالى - والذين يكنزون الذهب والفضة - الآية قال تبأ لدينار والدرهم الحديث وفيه فأى شئ نأخذ فقال الترمذى وابن ماجه وتقدم فى النكاح دون قوله تبأ لدينار والدرهم والزيادة رواها الطبرانى فى الأوسط وهو من حديث ثوبان وإنما قال للصف إنه حديث عمر لأن عمر هو الذى سأل النبي صلى الله عليه وسلم أى المال يتخذ كما فى رواية ابن ماجه وكما رواه البزار من حديث ابن عباس (٣) حديث حذيفة من آثار الدنيا على الآخرة ابتلاه الله ثلاث الحديث لم أجده من حديث حذيفة والطبرانى من حديث ابن مسعود بسند حسن من أشرق قلبه حب الدنيا التاط منها ثلاث شقاء لا ينفد عنه وحرص لا يبلغ غناه وأمل لا يبلغ منتهاه وفى آخره زيادة (٤) حديث لا يستكمل عبد الايمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى يكون أقله أحب إليه من كثرته لم أجده استادا وذكره صاحب الفردوس من رواية على بن طلحة مرسل لا يستكمل عبد الايمان حتى يكون قلة الشئ أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن يعرف فى ذات الله أحب إليه من أن يعرف فى غير ذات الله ولم يخرج له فى مسند الفردوس وعلى بن أبي طلحة أخرجه له مسلم وروى عن ابن عباس لكن روايته عنه مرسله فالحديث إذن معضل .

القيامة أن تقوم قال لا ولكن هذا إسرائيلي عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك فأنا إسرائيلي
 فقال إن الله عز وجل سمع ما ذكرت فبغضت الأرض وأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن
 أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فضلت وإن شئت نينا ملكا وإن شئت نينا عبدا
 فأوماً إليه جبريل أن تواضع لله فقال نينا عبدا ثلاثاً (١) وقال صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبد
 خيراً زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره ببصيرته نفسه (٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «ازهد في الدنيا
 يحبك الله وازهد فيها في أيدي الناس يحبك الناس (٣)» وقال صلوات الله عليه «من أراد أن يؤتبه
 الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا (٤)» وقال صلى الله عليه وسلم «من اشتاق إلى الجنة
 سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لها عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا
 هانت عليه الصييات (٥)» ويروى عن نبينا وعن النسيح عليهما السلام «أربع لا يدركن إلا بتعب
 الصمت وهو أول العبادة والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشيء (٦)» وإبراد جميع الأخبار الواردة في مدح
 بخص الدنيا وطمحها لا يمكن فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لأصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع
 أكثر كلامهم مع الخلق وفيها أووردناه كفاية والله المستعان. وأما الآثار: فقد جاء في الآثار: لا تزال لآله
 إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا ما نقص من دنياهم وفي لفظ آخر: ما لم يؤثروا صفة
 دنياهم على دينهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى: كذبتم لستم بها صادقين. وعن بعض
 الصحابة رضى الله عنهم أنه قال تابنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا وقال
 بعض الصحابة لصدر من التابعين أتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا خيرا
 منكم قيل ولم ذلك؟ قال كانوا أزهد في الدنيا منكم. وقال عمر رضى الله عنه الزهادة في الدنيا راحة
 القلب والجسد وقال بلال بن سعد كفى به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها وقال
 زجل لسفيان أشتى أن أرى عالما زاهدا فقال ويحك تلك ضالة لا توجد وقال وهب بن منبه إن
 للجنة ثمانية أبواب فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون وعزة ربنا لا يدخلها أحد
 قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة. وقال يوسف بن أسباط رحمه الله إنى لأشتى من الله ثلاث خصال
 أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم ولا يكون على دين ولا على عظمي لحم فأعطى ذلك كله. وروى
 أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز قبلوها وأرسل إلى الفضيل بشرية آلاف فلم يقبلها فقال
 له بنوه قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فيكفى الفضيل وقال أتدرون ما مثل ومثلكم
 كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرمون عليها فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها وكذلك

(١) حديث ابن عباس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا
 الحديث في نزول إسرائيل وقوله إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة
 الحديث تقدم مختصرا (٢) حديث إذا أراد الله بعبد خيراً زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة
 وبصره ببصيرته نفسه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله ورغبه في الآخرة وزاد
 قهه في الدين وإسناده ضعيف (٣) حديث ازهد في الدنيا يحبك الله الحديث تقدم (٤) حديث
 من أراد أن يؤتبه الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا لم أجده أصلاً (٥) حديث
 من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات الحديث ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بن أبي طالب
 (٦) حديث أربع لا يدركن إلا بتعب الصمت هو أول العبادة الحديث الطبراني والحاكم من حديث
 أنس وقد تقدم .

شعاع الشمس ولما
 رأى المتكلمون أنه
 يقال لهم الموجودات
 محصورة قديم وجسم
 وجوهر وعرض
 فالروح من أي هؤلاء
 فاختار قوم منهم أنه
 عرض وقوم منهم أنه
 جسم لطيف كما ذكرنا
 واختار قوم أنه قديم
 لأنه أمر والأمر كلام
 والكلام قديم فأحسن
 الامسك عن القول
 فيها هذا سبيله وكلام
 الشيخ أبي طالب الكي
 في كتابه يدل على أنه
 يعيل إلى أن الأرواح
 أعيان في الجسد وهكذا
 النفوس لأنه يذكر
 أن الروح تتحرك
 للخير ومن حركتها
 يظهر نور في القلب

أنتم أردتم ذمعي على كبرسي موتوا يا أهلي جوعا خير لكم من أن تدبجوا فضيلا . وقال عبيد بن عمير كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشجر ويأكل الشجر وليس له ولد يموت ولا يبت مغرب ولا يدخر لقد أينما أدركه النساء نام . وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والتياب والخطب فقال لها أبو حازم من هذا كله بدد ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار . وقيل للحسن لم لا تفضل ثيابك قال الأمر أهمل من ذلك . وقال إبراهيم بن آدم قد حبيت قلوبنا بثلاثة أغطية فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب الفرح بالوجود والحزن على اللفقود والسرور بالممدح فإذا فرحت بالوجود فأنت حرص وإذا حزنت على اللفقود فأنت سخط والسخط معذب وإذا سررت بالممدح فأنت معجب والمعجب يحبط العمل . وقال ابن مسعود رضي الله عنه ركعتان من زاهد قبله خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدنا . وقال بعض السلف نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله يعمي عبده المؤمن الدنيا وهو وجهه كما يعمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه ^(١) » فإذا فهم هذا علم أن النعمة في اللع المؤدى إلى الصحة أكبر منها في الاعطاء المؤدى إلى السقم . وكان الثوري يقول : الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترح لا دار فرح من عرفها لم يفرح برحاه ولم يحزن على شقاءه . وقال سهل لا يخاف من العمل المتعب حتى لا يفرغ من أربعة أشياء الجوع والعري والفقر والذل . وقال الحسن البصري أدركت أقواما وصحت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا بأسفون على شيء منها أدبر وهي كانت في أعينهم أهون من التراب كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب ولم ينصب له قدر ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط فإذا كان الليل قيام على أقدامهم يفتشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها وإذا عملوا السيئة أحزنهم وسألوا الله أن يفرجها لهم فلم يزالوا على ذلك وواثق ماسلوا من الذنوب ولا نجوا إلا بالشفقة رحمة الله عليهم ورضوانه .

(بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه وإلى الرغبة عنه وإلى الرغبة فيه)

اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث : الدرجة الأولى وهي السفلى منها أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتة وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ولكنه يجاهد بها ويكفها وهذا يسمى التزهد وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد والتزهد يذيب أولا نفسه ثم كيسه والزاهد أو لا يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لافي الصبر على ما فارقه والتزهد على خطر فانه ربما تلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير . الدرجة الثانية : التي يترك الدنيا طوعا لاستحقاقه إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهما لأجل درهمين فانه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى لاحالة زهده ويلتفت إليه كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وزهده ويطن في نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه وهذا أيضا نقصان . الدرجة الثالثة : وهي العليا أن يزهد طوعا ويزهد في زهده فلا يرى زهده إذ لا يرى أنه ترك شيئا إذ عرف أن الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيئا والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعيم الآخرة أحسن من خزفة بالإضافة إلى جوهرة فهذا هو الكمال في الزهد وسببه كمال المعرفة

(١) حديث إن الله يعمي عبده المؤمن من الدنيا الحديث تقدم .

رواه اللالك فإلهم الخير عند ذلك وتحرك للشر ومن حركتها تظهر ظلمة في القلب فيرى الشيطان الظلمة فيقبل بالاغواء ويوحى وجدت أقوال الشايع تشير إلى الروح أقول : ما عندي في ذلك على معنى ما ذكرت من التأويل دون أن أقطع به إذ ميل في ذلك إلى السكوت والامساك فأقول والله أعلم : الروح الانساني العلوي النابوي من عالم الأمر والروح الحيواني البشري من عالم الخلق والروح الحيواني البشري هل الروح العلوي ومسوره والروح

ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا كما أن تارك الحزفة بالجوهرة آمن من طلب الاقالة في البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبد الرحيم في أي شيء تسكلم ؟ قال في الزهد قال في أي شيء ؟ قال في الدنيا فنفذ يده وقال ظننت أنه يتكلم في شيء ، والدنيا لا شيء . إيش زهد فيها ومثل من ترك الدنيا للأخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب العمورة بالمجاهدات والكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغفه بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى أفنذ أمره في جميع مملكته أقرى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ماقد ناله فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها في حال الضغ وتفضى على القرب بالابتلاع ثم يبقى ثقلها في المعدة ثم تنتهي إلى النتن والقدر ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثقل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعنى ما يسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة بالاضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالاضافة إلى ملك الدنيا إذ لا نسبة للمتأهي إلى مالا نهاية له والدنيا متناهية على القرب ولو كانت تتماهى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لانسبة لها إلى نعيم الأبد فكيف ومدة العمر قصيرة ولدات الدنيا مكدره غير صافية فأى نسبة لها إلى نعيم الأبد فاذن لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلا لأنه يراه شيئا معتدا به ولا يراه شيئا معتدا به إلا لتصور معرفته فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة فهذا تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه أيضا لها درجات إذ تصير للزهد مختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر الشقة في الصبر وكذلك درجة للعجب بزهد بقدر التفاتة إلى زهده . وأما اتقسام الزهد بالاضافة إلى الرغوب فيه فهو أيضا على ثلاث درجات: الدرجة السفلى أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام ككذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار إذ فيها « إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء (١) » فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالدم لو أعدموا فإن الخلاص من الألم يحصل بمجرد العدم. الدرجة الثانية أن زهد رغبة في ثواب الله ونعيمه والذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيرها وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له . الدرجة الثالثة وهي العليا أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى الذات ليقصد نيلها والظفر بها بل هو مستغرق الهم بالله تعالى وهو الذي أصبح وهو مومه ثم واحد وهو للوحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى لأن من طلب غير الله قد عبده وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالاضافة إلى مطلبه وطلب غير الله من الشرك الخفي وهذا زهد المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه وكما أن من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التمتع بالحور العين

(١) حديث إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء أحمد من حديث ابن عباس التقي مؤمنان على باب الجنة مؤمن غني ومؤمن فقير الحديث وفيه إني حبست بسبك محبسا فظيما كرهها ما وصلت إليك حتى سال مني العرق ما لوورده ألف بعير أكلة حمض لصدرت عنه رواء وفيه دريد غير مذنوب محتاج إلى معرفته قال أحمد حديثه مثله .

الحيواني جنباني لطيف
حامل لقوة الحس
والحركة ينبعث من
القلب أعنى بالقلب
ههنا الضفة للحمية
العروفة الشكل المودعة
في الجانب الأيسر
من الجسد وينتشر
في تجاويف العروق
الضوارب وههنا
الروح لسائر الحيوانات
ومنه تفيض قوى
الحواس وهو الذي
قوامه باجراء سنة الله
بالغذاء غالبا ويتصرف
بعلم الطب فيه
باعتماد مزاج الأخطاط
ولورود الروح الانساني
العلوى على هذا
الروح تجنس الروح
الحيواني وبيان
أرواح الحيوانات

والنظر إلى تضيء القصور وخضرة الأشجار غير ممكن فلا يجب إلالة النظر ولا يؤثر غيره ولا تظن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لأن اللعب بالعصفور في نفسه أطل وألد من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق . وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه قد كثرت فيه الأقاويل ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نستغل بنقل الأقاويل ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الاحاطة بالكل . فنقول: للمرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل وتفصيله مراتب بعضها أشرح لاحاد الأقسام وبعضها أجمال للجمل . أما الاجمال في الدرجة الأولى فهو كل ماسوى الله فينبى أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضا ، والاجمال في الدرجة الثانية أن يزهد في كل صفة للنفس فيامتعة وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها ، وفي الدرجة الثالثة أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس ، وفي الدرجة الرابعة أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه ، إذا الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم ، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأغنى به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها قال - زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والحيل المسومة والأنعام والحراث ذلك متاع الحياة الدنيا - ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل - اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد - ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى - إنما الحياة الدنيا لعب ولهو - ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال - ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى - فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا فينبى أن يكون الزهد فيه وإذاهمت طريق الاجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه في الشرح مرة والاجمال أخرى . فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمله لامحالة لأنه إنما يريد البقاء ليمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء فان من أراد شيئا أزد دوامه ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو يمكن في هذه الحياة فاذا رغب عنها لم يردّها ولذلك لما كتب عليهم القتال - قالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب - فقال تعالى - قل متاع الدنيا قليل - أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين . أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوصوا وانتظروا إحدى الحسينين وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويأدرون إليه مبادرة الظمان إلى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة حتى إن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول كم غررت بروحى وهجمت على الصفوف طمعا في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز فلما مات عد على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضى الله تعالى عنهم أجمعين

واكتسب صفة أخرى
ضار قساعلا للناطق
والإلهام قال الله تعالى
- وتقس وما سواها
فألمها فجورها
وتقواها - فتسويتها
بورود الروح الإنساني
عليها وانقطاعها عن
جنس أرواح الحيوانات
فكوت النفس
بكون الله تعالى من
الروح العلوى وصار
تكون النفس التي
هي الروح الحيوانى من
الآدى من الروح
العلوى في عالم الأمر
كنكون حواء من
آدم في عالم الخلق وصار
بينهما من التألف
والتماشق كما بين آدم
وحواء وصار كل واحد
منهما يفوق للوت

وأما الناقون ضرروا من الزحف خوفا من اللوث قليل لهم - إن اللوث الذي تفرون منه فانه ملائكم - فاشارم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فارجحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . وأما المخلصون فان الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ظاروا أو أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد اشتروا ببيعهم الذي يبصوابه فهذا بيان الزهود فيه ، وإذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره للتكلمون في حدّ زهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالبا على نفسه أو على من كان يخاطبه فقال بشر رحمه الله تعالى الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة . وقال قاسم الجوعى الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف بقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد ، وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة ، ولعمري هي أغلب الشهوات على الأكثر وهي اللهيجة لأكثر الشهوات . وقال الفضيل الزهد في الدنيا هو التنازع وهذا إشارة إلى المال خاصة . وقال الثوري الزهد هو قصر الأمل وهو جامع لجميع الشهوات فان من يميل إلى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها . وقال أويس إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه وما قصد بهذا حدّ الزهد ولكن جعل التوكل شرطاً في الزهد . وقال أويس أيضا الزهد هو ترك الطلب للضمون وهو إشارة إلى الرزق . وقال أهل الحديث الدنيا هو العمل بالرأى والمقول والزهد إتباع العلم ولزوم السنة وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض ما هو من فضول الشهوات فان من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة وقد طوّ لوها حتى ينقضى عمر الانسان في الاشتغال بواحد منها فشرط الزاهد أن يكون الفضول أوّل مرغوب عنه عنده ، وقال الحسن الزاهد الذي إذا رأى أحدًا قال هذا أفضل مني فذهب إلى أن الزهد هو التواضع وهذا إشارة إلى نفي الجاه والمعجب وهو بعض أقسام الزهد وقال بعضهم الزهد هو طلب الحلال ، وأين هذا ممن يقول الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال وقد كان يوسف بن أسباط يقول من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد ، وفي الزهد أقاويل ورايات قلنا فلم نرى نقلها فائدة فان من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا يتلطف من صمته قد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لتصور بصيرته وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لتصور في البصيرة لكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف وقد يكون سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الرهنة التي هي مقام العبد في نفسه والأحوال تختلف فلا جرم الأقوال المتغيرة عنها تختلف ، وأما الحق في نفسه فلا يكون إلا واحدا ولا يتصور أن يختلف وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل ما قاله أبو سليمان الداراني إذ قال سمعنا في الزهد كلاما كثيرا والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل وقد فصل مرة وقال من تزوج أو سافر في طلب العيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدّا للزهد ، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى - إلا من أتى الله بقلب سليم - فقال هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال إنما زهدوا في الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة ، فهذا بيان أقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف الزهود فيه ، فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض وهل وسلامة كما قاله إبراهيم بن آدم فالفرض هو الزهد في الحرام والنفل هو الزهد في الحلال والسلامة هو الزهد في الشبهات . وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال

بغارقة صاحبه قال الله تعالى وجعل منها زوجيا ليسكن إليها - فسكن آدم إلى حواء وسكن الروح الانسانى العلوى إلى الروح الحيوانى وصيره نسا وتكون من سكون الروح إلى النفس القلب وأعنى بهذا القلب اللطيفة التي محلها اللبنة للحمية فاللبنة للحمية من عالم الخلق وهذه اللطيفة من عالم الأمر وكان تكون القلب من الروح والنفس في عالم الأمر كتكون الذرية من آدم وحواء في عالم الخلق ولولا الساكنة بين الزوجين اللذين أحدهما النفس ماتكون القلب لمن

والحرام وذلك من الزهد إذ قيل لمالك بن أنس ما الزهد قال التقوى ، وأما بالاضافة إلى خفايا ما يتركه فلانهاية للزهد فيه إذ لانهاية لما تمتع به النفس في الحطرات والحظرات وسائر الحالات لاسيا خفايا الرياء فان ذلك لا يطلع عليه إلا سماسة العلماء بل الأموال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تنهاه فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرا في نومه فقال له الشيطان أما كنت تركت الدنيا لما الذي بدا لك قال وما الذي تجد قال توسدك الحجر . أي تمتعت برفع رأسك عن الأرض في النوم فرمى الحجر وقال خذ مع ما تركته لك ، وروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس اللسوح حتى تقب جلده تركا لتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللبس فسأته أمه أن يلبس مكان اللسوح جبة من صوف فضعل فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى آثرت على الدنيا فبكي ووزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه ، وقال أحمد رحمه الله تعالى الزهد زهد أويس يبلغ من العز أن جلس في قوصرة وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط فقال ما أنت أنت إنما أقامني الذي لم يرض لي أن أتم بظل الحائط فاذن درجات الزهد ظاهر أو باطنا لا حصر لها وأقل درجاته الزهد في كل شبة ومحذور ، وقال قوم الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحذور فليس ذلك من درجاته في شيء ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن . فان قلت مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ماسوى الله فكيف يتصور ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى . فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الاقبال بكل القلب عليه ذكر أو فكريا ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء ولا بقاء إلا بضروريات النفس فهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستمانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله فان ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه المشتغل بلطف الناقه وسبقها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج ولا غرض لك في تتم ناقتك بالذات بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش للمهلك بالأكل والشرب وعن الحر والبرد للمهلك باللباس والسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى فذلك لا يناقض الزهد بل هو شرط الزهد . وإن قلت فلا بد وأن أتلقذ بالأكل عند الجوع . فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ فان شارب الماء البارد قد يستلذذ بالشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ومن يقضى حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا إليه فالإنسان قد يستريح في أيام الليل بتنسم الأسحار وصوت الأطيوار ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة لما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه فيكون فيه أنس بالدنيا وتقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس ويشرب الماء الحار ويقول من وجد قنة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا ، فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط فانه وإن كان شاقا فثدته قريبة والاحتفاء مدة يسيرة للتنعم على التأييد لا يتقل على أهل المعرفة القاهرين لأنهم سياسة الشرع للتصميم بمرورة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

(بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة)

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم فالفضول كالخيل السوسة مثلا إذ غالب الناس

القلوب قلب متطلع إلى الأب الذي هو الروح العلوى ميال إليه وهو القلب المؤيد الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها رواه خديجة رضى الله عنه قال : القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهو فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب النفاق وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان في مثل البقلة يعدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كتل القرحة يعدها التبيح والصدید فأى للمادتين

إنما يقتنها لترفه ركوها وهو قادر على الشيء والمهم كالأكل والشرب ولنا تقدر على تفصيل أصناف الفضول فان ذلك لا ينحصر وإنما ينحصر المهم الضروري والمهم أيضا يتطرق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته فلا بد من بيان وجه الزهد فيه والمهمات ستة أمور : الطم لللبس والسكن وأثائه والنسك والسالك والجاه يطلب لأغراض وهذه الستة من جعلها وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربيع المهلكات ونحن الآن تقتصر على بيان هذه المهمات الستة [الأول الطم] ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض فلا بد من قبض طول وعرضه حتى يتم به الزهد فأما طول له فبالإضافة إلى جملة العمر فان من يملك طعام يومه فلا يتقنع به وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله وأما طول له فلا يقصر إلا بقصر الأمل وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند عدة الجوع وخوف المرض ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدخر من غذائه لمغاثته وهذه هي الدرجة العليا . الدرجة الثانية : أن يدخر لشهر أو أربعين يوما . الدرجة الثالثة : أن يدخر لسنة فقط وهذه رتبة ضغفاء الزهاد ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس كداود الطائي فإنه ورث عشرين دينارا فأمسكها وأتقها في عشرين سنة فهذا لا يصاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار وأقل درجاته في اليوم واليلة نصف رطل وأوسطه رطل وأعلى مد واحد وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت ولو الحبز من النخالة وأوسطه خبز الشعير والذرة وأعلى خبز البر غير منخول فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التتم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله وأما الأم فأقله للحل أو البقل والحل وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان وأعلى اللحم أي لحم كان وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين فان صار دائما أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن أصلا وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم واليلة مرة وهو أن يكون صائما وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ليلة ولا يشرب وأعلى أن يتهمى إلى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعا وما زاد عليه وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربيع المهلكات ولينظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في الطعام وركهم الأدم قالت عائشة رضي الله تعالى عنها « كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار قيل لها فهم كنتم تعيشون قالت بالأسودين التمر والماء ^(١) » وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم . وقال الحسن « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف ويتعل الخوص ويلبص أصابعه ويأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد أكل كما تأكل العبيد وأجاس كما تجلس العبيد ^(٢) » وقال المسيح عليه السلام بحق أقول لكم إنه من طلب الفردوس فغبر الشعير له والنوم على الزابل مع الكلاب كثير . وقال الفضيل

(١) حديث عائشة كانت تأتي أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار الحديث ابن ماجه من حديث عائشة كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوتهم دخان الحديث وفي رواية له ما يوقد فيه بنار ولأحمد كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوتهم نار وفي رواية له ثلاثة أهلة (٢) حديث الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار

غلبت عليه حكم له بها والقلب للنكوس ميل إلى الأم التي هي النفس الأمارة بالسوء ومن القلوب قلب متردد في ميه إليها وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة والعقل جوهر الروح العلوي ولسانه والبال عليه وتديره للقلب المؤيد والنفس الزكية للطمثنة تدير الوالد للولد البار والزوج للزوجة الصالحة وتديره للقلب المنكوس والنفس الأمارة بالسوء تدير الوالد للولد العاق والزوج للزوجة السيئة فنكوس من وجه

ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر^(١) . وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول : يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير وإياكم وخبز البر فانكم لن تقوموا بشكره وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في الطعام والشرب في ربيع المهلكات فلانعيده ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوية بعسل فوضع القدح من يده وقال «أما إنى لست أحرمه ولكن أركه تواضعاً لله تعالى»^(٢) . وآتى عمر رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال اعزلوا عنى حسابها وقد قال يحيى بن معاذ الرازى الزاهد الصادق قوته ما وجد ولبائه ما ستر ومسكنه حيث أدرك الدنيا سجنه والقبر مضجعه والحلوة مجلسه والاعتبار فكرته والقرآن حديثه والرب أنيسه والذكر رفيقه والزهد قرينه والحزن شأنه والحياء شعاره والجوع إدامه والحكمة كلامه والتراب فراشه والتقوى زاده والصمت غنيمة والصبر معتمده والتوكل حسبه والعقل دليله والعبادة حرفته والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى [اللهم الثانى] اللبس وأقل درجاته ما يدفع الحرّ والبرد ويستالورة وهو كساء بتغطى به وأوسطه قميص وقلنسوة ونملان وأعله أن يكون معه مندبل وسراويل وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حدّ الزهد وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه بل يلزمه القمود في البيت ، فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومندبلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث المقدار ، أما الجنس فأقله المسوح الجلشنة وأوسطه الصوف الحشن وأعله القطن الغليظ ، وأما من حيث الوقت فأقصاه ما يستر سنة وأقله ما يبقى يوماً حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه وأوسطه ما يتماسك عليه شهراً وما يقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضادّ للزهد إلا إذا كان المطلوب خشوته ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه فمن وجد زيادة من ذلك فينبغى أن يتصدق به فان أمسكه لم يكن زاهداً بل كان مجاً للدنيا لينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس قال أبو بردة أخرجت لنا عائشة رضى الله تعالى عنها كساء ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يحب المتبذل الذى لا يبالي ما لبس»^(٤) وقال عمرو بن الأسود العنسى لا لبس مشهوراً أبداً ولا أنام بليل على دنار أبداً ولا أركب على ما تور أبداً ولا أملاً جوفى من طعام أبداً قال عمر من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود^(٥) وفي الخبر «ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى يزرعه وإن كان عنده حبياً»^(٦) واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوباً بأربعة دراهم^(٧)

ومنجذب إلى تدبيرها من وجه إذ لا بد له منها وقول القائلين واختلافهم في عقل فمن قائل إن عقله الدماغ ومن قائل إن عقله القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك واختلافهم في ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد وأنجذابه إلى البارئارة وإلى العاقبى أخرى ولقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاقبى فإذا روى في تدبير العاقبى قيل مسكنه الدماغ وإذا روى في تدبير البار قيل مسكنه القلب فالروح العلوى بهم بالارتفاع إلى مولاه شوقاً وحنواً وتزهاً

الحديث تقدم دون قوله إنما أنا عبد فإنه ليس من حديث الحسن إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم (١) حديث ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر تقدم (٢) حديث لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده الحديث تقدم (٣) حديث أخرجت عائشة كساء ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين (٤) حديث إن الله يحب المتبذل الذى لا يبالي ما لبس لم أجده أصلاً (٥) حديث عمر من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود رواه أحمد بإسناد جيد (٦) حديث ما من عبد لبس ثوب شهرة الحديث ابن ماجه من حديث أبى ذرّ بإسناد جيد دون قوله وإن كان عنده حبياً (٧) حديث اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوباً بأربعة دراهم أبو يعلى من حديث أبى هريرة قال

وكانت قيمة ثوبه عشرة (١) . وكان إزاره أربعة أذرع ونصف (٢) . واشترى سراويل بثلاثة دراهم (٣) . وكان يلبس فميتين يضاوين من صوف (٤) وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ وفي الخبر كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات (٥) . ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحداً وباسيراء من سندس قيمته مائتا درهم (٦) فكان أصحابه يمسونه ويقولون يا رسول الله أنزل عليك هذا من الجنة تعجبا وكان قد أهدها إليه للموقس ملك الاسكندرية فأراد أن يكرمه بلبسه ثم نزع وأرسل به إلى رجل من الشركين وصله به ثم حرم لبس الحرير والدياج وكأنه إنما لبسه أو لا تأكيدا للتحريم كما لبس خاتما من ذهب يوم مات ثم نزع (٧) فحرم لبسه على الرجال وكما قال لعائشة في شأن بريرة اشترطى لأهلها الولاء (٨) فلما اشترطته صد عليه السلام اللبن فحرمه وكما أباح للتمعة ثلاثا ثم حرمها لتأكيد أمر النكاح (٩) وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيصة لها علم فلما سلم قال شطاني النظر إلى هذه اذهبوا بها إلى أبي جهنم واتنوني بأنجانيتها (١٠) يعني كساءه فاختر لبس الكساء على الثوب الناعم وكان شر الكعبة قد أنشئت فأبدل بسير جديد فضلى فيه فلما سلم قال أعيذوا الشرك الخلق وانزعوا هذا الجديد فأنى نظرت إليه في الصلاة

دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى البرازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم الحديث وإسناده ضعيف (١) حديث كان قيمة ثوبه عشرة دراهم لم أجده (٢) حديث كان إزاره أربعة أذرع ونصف أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرسل كان رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع ، وعرضه ذراعان ونصف الحديث وفيه ابن لهيعة . وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة كان له إزار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر ، وفيه محمد بن عمر الواقدي (٣) حديث اشترى سراويل بثلاثة دراهم للمعروف أنه اشتراه بأربعة دراهم كما تقدم عند أبي يعلى وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس إلا أنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه قال الترمذي حسن صحيح (٤) حديث كان يلبس فميتين يضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للشملة والبرد والحبرة . وأما لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء رأته في حلة حمراء ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الحرورية وعليه أحسن ما يكون من حلال اليمن وقال رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلال وفي الصحيحين من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدهما إزار غايظ مما يصنع باليمن وتقدم في آداب العيشة ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رثة وعليه بردان أخضران سكت عليه أبو داود واستغربه الترمذي وللبرازين من حديث قدامة الكلابي وعليه حلة حبرة وفيه عريف بن إبراهيم لا يعرف قاله الذهبي (٥) حديث كان قميصه كأنه قميص زيات الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات (٦) حديث لبس يوما واحداً وباسيراء من سندس قيمته مائتا درهم أهدها له الموقس ثم نزع الحديث (٧) حديث لبس يوما خاتما من ذهب [١] ثم نزع متفق عليه وقد تقدم (٨) حديث قال لعائشة في شأن بريرة اشترطى لأهلها الحديث متفق عليه من حديثها (٩) حديث أباح للتمعة ثلاثا ثم حرمها مسلم من حديث سلمة بن الأكوع (١٠) حديث صلى في خيصة لها علم الحديث متفق عليه وقد تقدم في الصلاة .

[١] قول العراقي ثم نزع الحديث هكذا في النسخ بغير ذكر راو ولم يشكلم عليه الشارح فليظنراه .

عن الأكواع ومن
الأهسكون القلب
والنفس فاذا ارتقى
الروح يحنو القلب إليه
حنو الولد الحسني
البار إلى الوالد وحن
النفس إلى القلب الذي
هو الولد حين الولادة
الحنية إلى ولدها وإذا
حنّت النفس ارتقت
من الأرض وانزوت
عروقها الضاربة في
العالم السفلي وأنطوى
هواها وانحسنت
مادته وزهدت في الدنيا
وتجافت عن دار
الغرور وأنابت إلى دار
الخلود وقد تخلد النفس
التي هي الأم إلى
الأرض بوضعها الجبلي
لتسكونها من الروح
الحيوانى الجنس

«ولبس خاتما من ذهب ونظر إليه على للنبر نظرة فرمى به فقال شغلني هذا عنكم نظرة إليه ونظرة إليكم^(١)». «وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى مرة نعلين جديدين فأعجبه حسنهما فخر ساجدا وقال : أهيبني حسنهما فتواضعت لربي خشية أن يعقني ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مكين رآه^(٢)» وعن سنان بن سعد قال حكيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أعمار وجملت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال «انظروا ما أحسنها وما أليها قال قام إليه أعرابي فقال يا رسول الله هب لي وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم يبخل به قال فدفعتها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى فمات صلى الله عليه وسلم وهي في الحياكة^(٣)» وعن جابر «قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الأبل فلما نظر إليها بكى وقال يا فاطمة تجرعي حرارة الدنيا لتعيم الأبد فأنزله الله عليه وسوف يعطيك ربك فترضى -^(٤)» وقال صلى الله عليه وسلم «إن من خيار أمتي فيما أنبأني للآأطلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى ويكون سرا من خوف عذابه مؤتمهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان أجسامهم في الأرض وأقدتهم عند العرش^(٥)» فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملابس «وقد أوصى أمته عامة باتباعه إذ قال «من أحبني فليستن بسنني^(٦)» وقال «عليكم بسنني وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالتواجد^(٧)» وقال تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله - «وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها خاصة وقال إن أردت اللحوق بي فإياك ومجالسة الأغنياء ولا تزعي ثوبا حتى ترقيه^(٨)» وعد على قميص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من آدم واشترى على بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم. ولبسه وهو في الخلافة وقطع كيه من الرسنين وقال الحمد لله الذي كساك هذا من ريشاه. وقال الثوري وغيره البس من الثياب ما لا يشرك عند الطلاء ولا يحقرك عند الجهال وكان يقول إن الفقير ليرى وأنا أصلى فأدعه يجوز ويمر بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البرة فأمته ولا أدعه يجوز. وقال بعضهم قومت ثوبى سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوائق. وقال ابن شبرمة خير ثيابي ما خدمني وشرها ما خدمته. وقال بعض السلف : البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة ولا تلبس منها ما يشرك فينظر إليك. وقال أبو سليمان الداراني : الثياب ثلاثة ثوب لله وهو ما يستر العورة وثوب للنفس وهو ما يطلب لينة وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه. وقال بعضهم من رقى ثوبه برق دينه

(١) حديث لبس خاتما فنظر إليه على للنبر فرمى به وقال شغلني هذا عنكم الحديث تقدم (٢) حديث احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما الحديث تقدم (٣) حديث سنان بن سعد حكيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة صوف من صوف أعمار الحديث أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد قوله وأمر أن يحاك له أخرى فهي عند الطبراني فقط وفيه زمعة بن صالح ضعيف ويقع في كثير من نسخ الإحياء سيار بن سعد وهو غلط (٤) حديث جابر دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحى الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق باسناد ضعيف (٥) حديث إن من خيار أمتي فيما أنبأني العلى الأطل قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويكون سرا من خوف عذابه الحديث تقدم وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه (٦) حديث من أحبني فليستن بسنني تقدم في النكاح (٧) حديث عليكم بسنني وسنة الخلفاء الراشدين الحديث أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث العرياض بن سارية (٨) حديث قال لعائشة إن أردت اللحوق بي فإياك ومجالسة الأغنياء

ومستندها في ركونها إلى الطبايع التي هي أركان العالم السفلى . قال الله تعالى - ولو شئنا لرفضناها ولكنها أخلد إلى الأرض واتبع هواه - فإذا سكنت النفس التي هي الأم إلى الأرض انجذب إليها القلب للسكوس انجذاب الولد إلى والدته المودعة الناقصة دون الوالد الكامل للستقيم وتتجذب الروح إلى الولد الذي هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الوالد إلى ولده فمذ ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه وفي هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة

وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهما وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قريص ومترز تحتها وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه . وقال بعض السلف أول النسك الزى وفي الخبر « البذاعة من الإيمان » وفي الخبر « من ترك ثوب جمال وهو بقدر عليه تواضع لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله أن يدخر له من عبقرى الجنة في تحت الياقوت » وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه قل لأوليائى لا يلبسوا ملابس أعدائى ولا يدخلوا مداخل أعدائى فيكونوا أعدائى كما هم أعدائى ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ فقال انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق وكان عليه ثياب رفاق وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر في بزته فجعل يتكلم في الزهد فوضع أبو ذر راحته على فيه وجعل يضرب به فغضب ابن عامر فشكاه إلى عمر فقال أنت صنعت بنفسك تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزّة وقال على كرم الله وجهه إن الله تعالى أخذ على أمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره ولما عوتب في خشونة لباسه قال هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدى به السلم ونهى صلى الله عليه وسلم عن التعم وقال « إن لله تعالى عبادا ليسوا بالمتعمين (١) » ورؤى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافيا قليل له أنت الأمير وتعمل هذا فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإفراء وأمرنا أن نحتفي أحيانا (٢) . وقال على لعمر رضى الله عنهما إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارع القميص ونكس الإزار واخفف النعل وكل دون الشبع وقال عمر اخشوشنوا وإياكم وزى العجم كسرى وقصر . وقال على كرم الله وجهه من تزيا بزى قوم فهو منهم وقال رسول الله ﷺ « إن من شرار أمتى الذين غدوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشققون في الكلام (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكمين وما أسفل من ذلك ففي النار ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا (٤) » وقال أبو سليمان الداراني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يلبس الشعر من أمتى إلا مراة أو أحق (٥) » وقال الأوزاعي لباس الصوف في السفر سنة وفي الحضر بدعة ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف فقال له قتيبة مادعاك إلى مدرعة الصوف فسكت فقال أكلك ولا تبيخني فقال أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي أو فقرا فأشكروني وقال أبو سليمان لما اتخذ الله إبراهيم خيلا أوحى إليه أن وار عورتك من الأرض وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدا سوى السراويل فانه كان يتخذ سراويلين فاذا غسل أحدهما لبس

الترمذى وقال غريب والحاكم وصححه من حديث عائشة وقد تقدم (١) حديث نهى عن التعم وقال إن لله عبادا ليسوا بالمتعمين أحمد من حديث معاذ وقد تقدم (٢) حديث فضالة بن عبيد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإفراء [١] وأمرنا أن نحتفي أحيانا أبو داود باسناد جيد (٣) حديث إن من شرار أمتى الذين غدوا بالنعيم الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة باسناد ضيف سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام الحديث وآخره أولئك شرار أمتى وقد تقدم (٤) حديث أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه الحديث مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد ورواه أيضا النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلي كلا الحديثين محفوظ (٥) حديث أبي سليمان لا يلبس الشعر من أمتى إلا مراة أو أحق لم أجده له إسنادا .

[١] الإفراء بكسر الهمزة ثم راء ساكنة ثم فاء مقصورة ثم هاء وليست بتاء : التدهن والترجيل كل يوم . وقيل التوسع في الطعام والشرب يرفهان اه .

- ذلك تقدير العزيز
العليم . - وقد ورد
في أخبار داود عليه
السلام أنه سأل ابنه
سليمان أين موضع العقل
منك قال القلب لأنه
قالب الروح والروح
قالب الحياة . وقال
أبو سعيد القرشي
الروح روحان روح
الحياة وروح المات فاذا
اجتمعا عقل الجسم
وروح المات هي التي إذا
خرجت من الجسد
يصير الحي ميتا وروح
الحياة ما به مجارى
الأنفاس وقوة الأكل
والشرب وغيرها ،
وقال بعضهم : الروح
نسيم طيب يكون به
الحياة والنفس ربح
حارة تصكون منها

الآخر حتى لا يأتي عليه حال الإلوةورته مستورة ، وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه مالك تلبس الجيد من الثياب فقال وما للعبد والثوب الحسن فاذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبدا ، وروى عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلي ، وقال الحسن لفرقد السبخي تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك بلغني أن أكره أصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقا . وقال يحيى بن معين : رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الحرق من المزابل ويصلها ويفقها ويلبسها قلت إنك تكسى خيرا من هذا فقال ماضرم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة فجعل يحيى بن معين يحدث بها ويسكن [الميم الثالث] للسكن وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات : أعلاها أن لا يطلب موصفا خاصا لنفسه فيقتنع بزوايا الساجد كأصحاب الصفة وأوسطها أن يطلب موصفا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سعف أو خص أو ما يشبهه وأدناها أن يطلب حجرة مبنية إما بجماء أو بإجارة فان كان قدر سعة السكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرج هذا القدر عن آخر درجات الزهد فان طلب التشديد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالسكينة حد الزهد في السكن باختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالأجر واختلاف قدره بالسعة والضيق واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكا أو مستأجرا أو مستعارا وللزهد مدخل في جميع ذلك وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الضرورة وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من السكن دفع للحر والبرد ودفع الأعين والأذى وأقل الدرجات فيه معلوم وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطلب الفضول والساعي له بعيد من الزهد جدا وقد قيل أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشديد يعني بالتدريز كلف دروز الثياب فانها كانت تشل شلا والتشديد هو البنيان بالجص والأجر وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد (١) وقد جاء في الخبر « يأتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود الجمانية » وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم عليه كان قد علا بها (٢) « ومر عليه السلام بمجنونة معلاة فقال لمن هذه قالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم فأخبر فذهب فهدمها فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير (٣) » وقال الحسن « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لينة على لينة ولا قصبة على قصبة (٤) »

(١) حديث كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسعف والجريد أما شل الثياب من غير كلف فروى الطبراني والحاكم أن عمر قطع ما فضل عن الأصابع من غير كلف وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما البناء ففي الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة فصفوا النخل قبله المسجد وجعلوا عضادته الحجارة الحديث ولهما من حديث أبي سعيد كان المسجد على عريش فوق كفة للمسجد (٢) حديث أمر العباس أن يهدم عليه له كان قد علاها الطبراني من رواية أبي العالية أن العباس بنى غرفة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم اهدمها الحديث وهو منقطع (٣) حديث مر بمجنونة معلاة قال لمن هذه ؟ قالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه الحديث أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ فرأى قبة مشرفة الحديث والجنيذة القبة (٤) حديث الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لينة على لينة الحديث ابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية هكذا مر سلا والطبراني في الأوسط من حديث عائشة من سأل عنى أوسره أن نظري إلى فلينظر إلى أشعث شاحب مشعر لم يضع لينة على لينة الحديث وإسناده ضعيف .

الحركات للذمومة
والتهوات ويقال
فلان حار الرأس وفي
الفصل الذي ذكرناه
جمع التنييه بماهية
النفس وإشارة للشايع
بماهية النفس إلى
ما يظهر من آثارها
من الأفعال الذمومة
والأخلاق الذمومة
وهي التي تعالج بحسن
الرياضة إزالتها
وتبديلها بالأفعال
الردية نزال والأخلاق
الردية تبدل . أخبرنا
الشيخ العالم رضي الدين
أحمد بن اسمعيل
القزويني قال أنا إجازة
أبو سعيد محمد بن أبي
العباس الحلبي قال أنا
القاضي محمد بن سعيد
الفرخزادي قال أنا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعبده شراً أهلك ماله في الماء والطين ^(١) » وقال عبد الله ابن عمر « مررت علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصالاً فقال ما هذا قالنا نحن لنا قدوهي فقال أرى الأمر أعجل من ذلك ^(٢) » وأخذ نوح عليه السلام بيتاً من قصب قليل له لو بنيت فقال هذا كثير لمن يموت ، وقال الحسن دخلنا على صفوان بن يحيى وهو في بيت من قصب قدمال عليه قليل له لو أصلحته فقال كم من رجل قدم مات وهذا قائم على حاله ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة ^(٣) » وفي الخبر « كل نفقة للعبد يؤجر عليها إلا ما أنفقته في الماء والطين ^(٤) » وفي قوله تعالى - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً - إنه الرياسة والتطاول في البنيان . وقال صلى الله عليه وسلم « كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكنّ من حرّ أو برد ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي شكى إليه ضيق منزله « اتسع في السماء ^(٦) » أي في الجنة ، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بنى بحص وأجر فسكبر وقال ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون يعني قول فرعون - فأوقد لي يا هامان على الطين - يعني به الأجر ويقال إن فرعون هو أول من بنى له بالحص والأجر وأول من عمله هامان ثم تبعهما الجبابرة وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعا في بعض الأمصار فقال أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ثم رأيت مبنيا من رهن ثم رأيت الآن مبنيا باللبن فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهن وكان أصحاب الرهن خيرا من أصحاب اللبن وكان في السلف من يبني داره مرارا في مدة عمره لضعف بنائه وقصرأوله وزهده في إحكام البنيان وكان منهم من إذا حج أو غزى نزع بيته أو وهبه لجيرانه فاذا رجع أعاده وكانت بيوتهم من الخشيش والجلود وهي عادة العرب الآن يبلاد اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة. قال الحسن كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت يدي إلى السقف، وقال عمرو

أبو اسحق أحمد بن محمد
ابن إبراهيم قال أنا
الحسين بن محمد بن
عبد الله السفياني
قال حدثنا محمد
ابن الحسن القطيفي
قال حدثنا أحمد بن
عبد الله بن يزيد
القيلي قال حدثنا
صفوان بن صالح قال
حدثنا الوليد بن مسلم
عن ابن لهيعة عن
خاله بن يزيد عن

ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز وهذا حكم كل أثاث فانه إنما يراد المقصود فاذا استخفى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة وما لا يستخفى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخرف في كل ما يكفي فيه الخرف ولا يبالى بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به وأوسطها أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد كالتي معه قصة بأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ النافع فيها وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء لتخفيف وأعلها أن يكون له بعد ذلك حاجة آلة من الجنس النازل الحسيس فان زاد في العدد أوفى قلته الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد قالت عائشة رضي الله عنها : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف (١) . وقال الفضيل ما كان فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنية وسادة من أدم حشوها ليف ، وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط جلس فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام فدمت عيناهم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما الذي أبكاك يا ابن الخطاب قال ذكرت كسرى وقصر وماها فيه من الملك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط فقال صلى الله عليه وسلم أما ترى يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة قال بلى يا رسول الله قال فذلك كذلك (٢) » ودخل رجل على أبي ذر فجلس بقلب بصره في بيته فقال يا أبذر ما أرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث فقال إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا فقال إنه لا بد لك من متاع مادمت ههنا فقال إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه ، ولما قام عمر بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له مامعك من الدنيا فقال معي عصا أتوكأ عليها وأتكل بها حية إن لقيتها ومعى جرابي أحمل فيه طعامي ومعى قصعة أكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبون ومعى مطهرتي أحمل فيها شراي وطهورى للصلاة لما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي فقال عمر صدقت رحمك الله « وقد قدم رسول الله ﷺ من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها سترا وفي يديها قلبيين من فضة فرجع فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أبو رافع فقال من أجل الستر والسوارين فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى فقال اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة فباع القلبيين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم فدخل عليها ﷺ فقال بأبي أنت قد أحسنت (٣) »

النفس لطيفة مودعة في انقلب منها الأخلاق والصفات المذمومة كما أن الروح لطيفة مودعة في القلب منها الأخلاق والصفات الممودة كما أن العين محل الرؤية والأذن محل السمع والأنف محل الشم والتم محل الذوق وهكذا النفس محل الأوصاف المذمومة والروح محل الأوصاف الممودة وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين أحدهما الطيش والثاني الشره وطيشها من جهلها وشرها من حرصها وشبهت النفس في طيشها بكرة مستديرة على مكان أملس

(١) حديث عائشة كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه (٢) حديث ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية وسادة من أدم حشوها ليف الترمذي في النجاشي من حديث حفصة بقصة العبادة وقد تقدم ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه (٣) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه الحديث متفق عليه من حديثه وقد تقدم (٤) حديث قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سترا وفي يديها قلبيين من فضة فرجع الحديث لم أره مجموعا ولأبي داود وابن ماجه من حديث سفينة إسناد جيد أنه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على عضادتي الباب فرأى القرام قد ضرب في ناحية البيت فرجع فقالت فاطمة لعل النظر فارجعه الحديث والنسائي من حديث ثوبان بإسناد جيد قال جاءت ابنة هبيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفي يدها فتخ من ذهب الحديث

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترًا فتهتكه وقال « كلار آيتہ ذکر الدنیا أرسلی به إلى آل فلان (١) » وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية فإزال يتقلب ليلته فلما أصبح قال لها أعدي العباءة الخلقة ونحى هذا الفراش عنى قد أسهرنى الليلة (٢) وكذلك آتته دنانير خمسة أو ستة ليلا فبيتها فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل قالت عائشة رضى الله عنهما فنام حينئذ حتى صمعت غبطه ثم قال « ما ظن محمد بربه لولقى الله وهذه عنده (٣) » وقال الحسن أدركت سبعين من الأخيار مالا أحدهم إلا توبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط كان إذا أراد النوم يباشر الأرض بحمسه وجعل توبه فوقه [اللهم الخامس] للنكح وقد قال قائلون لأمعنى للزهد فى أصل النكاح ولأى كثرتة وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال قد حجب إلى سيد الزاهد بن النساء فكيف زهد فيه بن وواقته على هذا القول ابن عيينة وقال كان أزهده الصحابة على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان له أربع نسوة وبيع عشرة سرية والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشغوم والمرأة قد تكون شاغلا عن الله وكشف الحق فيه أنه قد تكون المزوجة أفضل فى بعض الأحوال كما سبق فى كتاب النكاح فيكون ترك النكاح من الزهد وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد وإن لم يكن عليه آفة فى تركه ولا فضله ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إلىهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله وترك ذلك من الزهد فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر والمضاجعة والواقعة فليس هذا من الزهد أصلا فإن الولد مقصود ببقاء نسله وتكثير أمة محمد ﷺ من القربات واللذة التى تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره إذ لم تكن هى المقصد والمطلب وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد فى شئ لأن فى ترك ذلك فوات بدنه فكذلك فى ترك النكاح انقطاع

وفيه أنه وجد فى يد فاطمة سلسلة من ذهب وفيه يقول الناس فاطمة بنت محمد فى يدها سلسلة من نار وأنه خرج ولم يقعد فأمرت بالسلسلة فيمت فاشترت بثمنها عبدا فأعتقته فلما سمع قال الحمد لله الذى نجى فاطمة من النار (١) حديث رأى على باب عائشة سترًا فتهتكه الحديث الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من حديثها (٢) حديث فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وفيه كان ينام على عباءة مثنية الحديث ابن حبان فى كتاب أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراشا رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فأنطلقت فبعثت إلى بفراش حشوه صوف فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا الحديث وفيه أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته وفيه بحاله بن سعيد مختلف فيه والمعروف حديث حفصة التقدمة ذكره من الشمال (٣) حديث آتته دنانير خمسة أو ستة عشاء فبيتها فسهر ليله الحديث وفيه ما ظن محمد بربه لولقى الله وهذه عنده أحمد من حديث عائشة باسناد حسن أنه قال فى مرضه الذى مات فيه يا عائشة ما فعلت بالذهب فجاء ما بين الحمسة إلى الثمانية إلى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول ما ظن محمد الحديث وزاد أتقها وفى رواية سبعة أو تسعة دنانير وله من حديث أم سلمة باسناد صحيح دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شام [١] الوجه قالت لحسبت ذلك من وجع قعات يابى الله مالك شام الوجه قال من أجل الدنانير السبعة التى أنتنا أمس أمسينا وهى فى خصم الفراش وفى رواية أمسينا ولم تنفقا .

[١] شام بالمعجمة متغير يقال شهم تغير عن حاله لعارض اه .

مصوب لا تزال متحركة
يجلبها ووضعها وشبهت
فى حرصها بالفراش
الذى يلقي نفسه على
ضوء الصباح ولا يفتح
بالضوء اليسير دون
المهجوم على جرم الضوء
الذى فيه هلاكه فمن
الطيش توجد العجلة
وقلة الصبر والصبر
جوهر العقل والعلو
صفة النفس وهواها
وروحها لا ينبله إلا
الصبر إذ العقل يجمع
المهوى ومن الشر
يظهر الطمع والحرص
وما اللذان ظهرا فى
آدم حيث طمع فى
الخلود لحرص على أكل
الشجرة وصفات النفس
لها أصول من أصل
تكونها لأنها مخلوقة

نفسه فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذته من غير خوف آفة أخرى وهذا ما عناه سهل لاهالة
ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله ﷺ في أنه لا يشغله
كثرة النسوة ولا اشتغال القلب باصلاحهن^(١) والاتفاق عليهن^(٢) فلما عني زهده فيهن^(٣) حذر من مجرد لذة
الوقاع والنظر ولكن أتى بتصوّر ذلك لغير الأنبياء والأولياء فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان
فينبئ أن يترك الأصل إن كان يشغله وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهم أو جمال
للرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك قال أبو سليمان: الزهد في النساء أن يختار المرأة الدون
أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة. وقال الجنيد رحمه الله أحب للمرء اللبدي أن لا يشغل قلبه بثلاث
وإلا تغير حاله: التمسك وطلب الحديث والتزوج وقال أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع
لهمه فاذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل لما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا [اللهم السادس]
ما يكون وسيلة إلى هذه الخسة ، وهو المال والجاه: أما الجاه فعناء ملك القلوب بطلب محل فيها يتوصل
به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وانفق إلى
من يخدمه افتقر إلى جاه لا يصلح له لأنه لم يكن له عنده محل وقدر لم يتم بخدمته وقيام
القدر والمحل في القلوب هو الجاه وهذا له أول قريب ولكن يتعاضد به إلى هاوية لا عمق لها ومن حرم
حول المحي بوشك أن يقع فيه وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب ثمن أو لدفع ضرر أو لخلاص
من ظلم فأما النفع فيض عنده المال فان من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للاستأجر قدر وإنما
يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل
فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بعمل له في قلوبهم أو محل له
عند السلطان وقدر الحاجة فيه لا يضبط لاسيا إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والحائض
في طلب الجاه سالك طريق الملاك بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلا فان اشتغاله
بالدين والعبادة يمهده من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين
المسلمين فأما التوهّمات والتقدير التي تتحوّل إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهمي أو هام
كاذبة إذ من طلب الجاه أيضا يخل عن أذى في بعض الأحوال فصلاح ذلك بالاحتمال والصبر أولى من
علاجه بطلب الجاه ، فاذا نطلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلا واليسير منه داع إلى الكثير وضررته
أشد من ضررته الجاه فليحترز من قليله وكثيره . وأما المال فهو ضروري في العيشة أعنى القليل منه
فان كان كسوبا فاذا كتبت حاجة يومية فينبئ أن يترك الكسب كان بعضهم إذا اكتسب جنتين
رفع سفته وقيام هذا شرط الزهد فان جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء
الزهاد وأقربا بهم جميعا وإن كانت له ضئيلة ولم يكن له قوة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي
ربه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته
ولكن يكون من ضعفاء الزهاد فان شرط التوكل في الزهد كما شرطه أوبس القرني رحمه الله فلا يكون هذا
من الزهاد وقولنا إنه خرج من حد الزهاد نفي به أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من القامات
المحمودة لا ينالها وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة وأمر للنفر في
جميع ذلك أخف من أمر العليل وقد قال أبو سليمان لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه
فان أجابوا وإلّا تركهم وفضل نفسه ماشاء معناه أن التضييق الشروط على الزاهد يحميه ولا يلزمه كل
ذلك في عياله، نعم لا ينبغي أن يجيبهم أيضا فخرج عن حد الاعتدال وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم

من تراب ولها بحبه
وصف وقيل وصف
الضف في آدمي من
التراب ووصف البخل
فيه من الطين ووصف
الشهوة فيه من الحمأ
للنون ووصف الجهل
فيه من الصلصال
وقيل قوله كالفخار فهذا
الوصف فيه شيء من
الشيطنة لدخول النار
في الفخار فمن ذلك
الخداع والحيل والحسد
فمن عرف أصول
النفس وجبلاتها عرف
أن لا قدرة له عليها
إلا بالاستعانة بيارها
وقاطرها فلا يتحقق
العبد بالانسانية
إلا بسند أن يدبر
دواعي الحيوانية فيه
بالعلم والعدل وهو

(١) حديث كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب باصلاحهن والاتفاق عليهن تقدم في النكاح .

إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين لأن ذلك من الزينة لامن الحاجة ، فاذا ما اضطر الانسان إليه من جاء ومال ليس يحذور ، بل الزائد على الحاجة سم قاتل والقتصر على الضرورة دواء نافع وما بينهما درجات متشابهة ، لما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سماً قاتلاً فهو مضرٌ وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواءً نافعا ولكنه قليل الضرر والسم محظور شره والدواء فرض تناوله وما بينهما مشقة أمره فمن احتاط فانما يحاط لنفسه ومن تساهل فانما يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريه إلى ما يريه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرقة الناجية لاجمالة ، والقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة الشروط ، وبدل عليه ماروى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا فلم يقرضه شيئا فرجع مهموما فأوحى الله تعالى إليه لو سألت خليلك لأعطاك فقال يارب عرفت مقتك للدنيا خفت أن أسألك منها شيئا فأوحى الله تعالى إليه ليس الحاجة من الدنيا ، فاذا قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدنيا أيضا كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من الحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الدل فيه ، وولاية سعاده به أن يسلم لورثته فياً كلونه ، وربما يكونون أعداء له وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معينهم عليها ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القمل لا يزال ينسج على نفسه حيا ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا فيموت وبهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فانما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهي حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والأهل والولد وشماتة الأعداء ومراآة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا ، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه فقصده الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها ولو ترك محبوبا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلا لنفسه وساعيا في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل في قلبه معاقبة بالدنيا التي فاتته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدنيا ومغالب ملك الموت قد علمت بمرور قلبه تجذبه إلى الآخرة فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشيخ يشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجازبة من الجانبين ، والذي يشر بالمنشار إنما ينزل للمؤلم يدينه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره فما ظنك بألم يتمكن أولا من صميم القلب خصوصا به لا بطريق السراية إليه من غيره فهذا أول عذاب يلقاه قبل مابراه من حسرة فوت النزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين ، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى وعند الحجاب تسلط عليه نار جهنم ، إذ النار غير مساطة إلا على محبوب . قال الله تعالى - كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم - فترتب العذاب بالنار على ألم الحجاب وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه ، ففسأل الله تعالى أن يقرر في أسعنا ما نقت في روع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قيل له أحب من أحببت فانك مفارقة (١) وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر :

(١) حديث نقت في روعه أحب من أحببت فانك مفارقة تقدم

رعاية طرفي الافراط والتفريط ثم بذلك تقوى إنسانيته ومعناه ويدرك صفات الشيطنة فيموالأخلاق المذمومة وكال إنسانيته ويتفاضه أن لا يرضى لنفسه بذلك ثم تكشف له الأخلاق التي تنازع بها الربوية من الكبر والعز وروية النفس والسجب وغير ذلك فيرى أن صرف الصودية في ترك المنازعة للربوية والله تعالى ذكر النفس في كلامه القديم بثلاثة أوصاف : بالطمأنينة قال - يا أيها النفس المطمئنة وسماها الوامة

كعدود كدود القز ينسج دائماً وبهلك غما وسط ماهو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه رفضوا الدنيا بالكلية حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل الله لهم أزهده منكم فيما حرم الله عليكم . وفي لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالحصب والرخاء لو رأيتهم قلم مجانين ، ولورأوا خياركم قالوا لهؤلاء من خلاق ، ولورأوا شراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء يوم الحساب . وكان أحدهم يمرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول أخاف أن يفسد على قلبي ، فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى - ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون - وقال عز وجل - ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً - . وقال تعالى - فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام احمني معك في سياحتك ، فقال أخرج مالك والحقني . فقال لأستطيع فقال عيسى عليه السلام بعجب يدخل النقي الجنة أو قال بشدة . وقال بعضهم : ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ملكان بالشرق وملكان بالمغرب يقول أحدهم بالشرق : يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا ويقول اللذان بالمغرب أحدهما لدوا للموت وأبنوا للخراب ، ويقول الآخر كلوا وتمتعوا اطول الحساب .

(بيان علامات الزهد)

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد وليس كذلك فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب اللذخ بالزهد فكم من الرهايين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا دبرا لا باب له وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرم إليه ومدحهم له فذلك لا يبدل على الزهد دلالة قاطمة بل لا بد من الزهد في المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والتياب الرقيقة كما قال الخواص في وصف المدعين إذ قال وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يعوهون بذلك على الناس ليهدي إليهم مثل لباسهم لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى المساكين ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وأنهم على السنة وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعلة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى الضايق وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهديب أخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم فقلبتهم فادعوا حالاً لهم فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى . فهذا كله كلام الخواص رحمه الله . فاذن معرفة الزهد أمر مشكل بل حال الزهد على الزهد مشكل وينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات : العلامة الأولى أن لا يفرح بوجود ولا يحزن على مفقود كما قال تعالى - لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم - بل ينبغي أن يكون بالضد من ذلك وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده . العلامة الثانية أن يستوى عنده ذامه ومادحه فالأول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه . العلامة الثالثة أن يكون أنه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إمامة الدنيا وإمامة الله وهما في القلب كالماء والهواء في القدر فإما إذا دخل خرج الهواء ولا يحتمل وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشغل بشيء

قال - لا أنسى يوم
القيامة ولا أنسى
بالنفس اللوامة -
وسماها أمارة ، فقال
- إن النفس لأماراة
بالسوء - وهي نفس
واحدة . ولما صفت
متفابرة ، فاذا امتلأ
القلب سكينه خلج
على النفس خلج
الطمانينة لأن السكينه
مزيد الإيمان وفيها
ارتقاء القلب إلى مقام
الروح لما منح من
حظ اليقين وعند
توجه القلب إلى محل
الروح تتوجه النفس
إلى محل القلب ، وفي
ذلك طمانينتها وإذا
ازهبت من مقام
جبلاتها ودواعي
طبيعتها متطلعة إلى

ولذلك قيل لبعضهم إلى ماذا أفضى بهم الزهد فقال إلى الأُنس بالله . فأما الأُنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان وقد قال أهل المعرفة إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لهما ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام: اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي . وقال أبو سليمان من شغل نفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين والزاهد لا بد وأن يكون في أحد هذين المقامين . ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه وعند ذلك يستوى عنده للدخ والتم والوجود والعدم ولا يستدل بما سلكه قليلا من المال على قد زهده أصلا . قال ابن أبي الحوارى : قلت لأبي سليمان أكان داود الطائي زاهدا قال نعم قلت قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين دينارا فأتفقها في عشرين سنة فكيف كان زاهدا وهو يمسك الدنانير ، فقال أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد وأراد بالحقيقة الغاية فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه وآخره أن يترك كل ماسوى الله حتى لا يتوسد حجرا كما فعله المسيح عليه السلام ، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادئه نصيبا وإن قل فإن أمثالنا لا يستجريء على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه . وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاضمه شيء فلا بعد في أن نعظم السؤال اعتمادا على الجود المجاوز لكل كمال . فاذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم وذلك لطلبه الأُنس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة : مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها . وقيل علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول أبى رباطا أو أعمر مسجدا . وقال يحيى ابن معاذ : علامة الزهد السخاء بالموجود . وقال ابن خفيف علامته وجود الراحة في الخروج من الملك . وقال أيضا : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف . وقال أبو سليمان : الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم . وقال أحمد ابن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد قصر الأمل . وقال السري : لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه . ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه . وقال النصراني : الزاهد غريب في الدنيا والعارف غريب في الآخرة . وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث عمل بلا علاقة وقول بلا طمع وعز بلا رياسة . وقال أيضا الزاهد الله يسهطك الخلل والحرد والعارف يشمك السك والعبر وقال له رجل متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأصدمع الزاهدين ، فقال إذا صرت من رياضتك لنفسك في السرى إلى حد لوقطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضمف في نفسك . فأما ما تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح . وقال أيضا : الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها ويتف شعرها ويحرق ثوبها ، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها . وقال السري ما رست كل شيء من أمر الزهد قلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فاني لم أبلغه ولم أطقه . وقال الفضيل رحمه الله جعل الله الشركه في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا . فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيان إن شاء الله تعالى .

مقار الطمأنينة فهي
لوامة لأنها تعود
بالأتمة على نفسها
لنظرها وعدلها بعمل
الطمأنينة ثم انحدابها
إلى محلها التي كانت
فيه أماراة بالسوء ،
وإذا أقامت في محلها
لا يشاها نور العلم
والعرفة فهي على
ظلمتها أماراة بالسوء
فالنفس والروح
يتطاردان ، فتارة
يملك القلب دواعي
الروح ، وتارة يملكه
دواعي النفس . وأما
السرى فقد أشار
القوم إليه ووجدت
في كلام القنوم أن
منهم من جعله بعد
القلب وقبل الروح ،
ومنهم من جعله بعد

﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

(وهو الكتاب الخامس من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله مدبر الملك والمكوت المنفرد بالهزة والجبروت الرافع للسماء بغير همام القدر فيها أرزاق
النقاد الذي صرف أعين ذوى القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب
ورفع همهم عن الالتفات إلى ماعده والاعتماد على مدبر سواه فلم يبدوا إلا إياه علماً بأنه الواحد القدر
الصمد الإله وتحققاً بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتنى عندهم الرزق وأنه ما من ذرة
إلا إلى الله خلقها وما من دابة إلا على الله رزقها فلما تحقروا أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا
عليه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل والصلاة على محمد قانع الأباطيل المهادي إلى سواء السبيل وعلى
آله وسلم تسليماً كثيراً .

[أما بعد] فإن التوكل منزك من منازل الدين ومقام من مقامات اللوقين بل هو من معالي درجات
القرابين وهو في نفسه غامض من حيث العلم ثم هو شاق من حيث العمل ووجه غموضه من حيث
الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد والتناقل عنها بالكيفية طعن في السنة
وقدح في الشرع والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً تتغير في وجه العقل وانقماش في
غمرة الجهل وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقضى التوحيد والنقل والشرع في غاية
العموض والعسر ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الحفاء بالإحسان الطماء الذين اكتحلوا
من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالأعراب عما شاهدوه من حيث
استنطقوا ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ثم نردفه بالتوحيد في الشطر
الأول من الكتاب ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني .

(بيان فضيلة التوكل)

أما من الآيات فقد قال تعالى - وعلى الله توكلوا إن كنتم مؤمنين - وقال عز وجل - وعلى الله فليتوكل
التوكلون - وقال تعالى - ومن يتوكل على الله فهو حسبه - وقال سبحانه وتعالى - إن الله يحب التوكلين -
وأعظم بمقام موسوم بحجة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه فمن الله تعالى حسبه
وكافيه وحجه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم فإن المحبوب لا يئذب ولا يبعد ولا يحجب وقال تعالى -
أليس الله بكاف عبده - فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل هو المكذب لهذه الآية فإنه سؤال
في معرض استنطاق الحق كقوله تعالى - هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً -
وقال عز وجل - ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم - أي عزيز لا يبدل من استجار به ولا يضيع
من لاذ بجانبه والتجأ إلى ذمامه وحماه وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره وقال تعالى
- إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - بين أن كل ما سوى الله تعالى عبد مسخر حاجته
مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه وقال تعالى - إن الذين تصدون من دون الله لا يملكون لكم
رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه - وقال عز وجل - والله خزائن السموات والأرض ولكن للشاكرين
لا يفقهون - وقال عز وجل - يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه - وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد
فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار . وأما الأخبار : فقد قال

﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

الروح وأعلى منها
وألطف وقالوا السر
عمل للشاهدة
والروح عمل المحبة .
واقرب عمل العرفة
والسر الذي وتمت
إشارة القوم إليه غير
مذكور في كتاب
الله وإنما للذكور
في كلام الله الروح
والفلس وتنوع صفاتها
واقرب والقواد والعقل
وحيث لم نجد في كلام
الله تعالى ذكر السر
بالمعنى المشار إليه ورأينا
الاختلاف في القول
فيه وأشار قوم إلى أنه
دون الروح وقوم إلى
أنه ألطف من الروح
فبقول والله أعلم : الذي
صموه سرا ليس هو
جس مستقل بنفسه

صلى الله عليه وسلم فما رواه ابن مسعود «أريت الأم في اللوسم فرأيت أمي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبتني كثرتهم وهياتهم قبيل لي أرضيت قلت نعم قيل ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل : من هم يا رسول الله؟ قال الذين لا يكتون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة وقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعله منهم فقام آخر فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال صلى الله عليه وسلم : سبقك بها عكاشة^(١)» وقال صلى الله عليه وسلم «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماساً وتروح بطاناً^(٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكفه الله اليها^(٣)» وقال صلى الله عليه وسلم «من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه^(٤)» ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول : بهذا أمرني ربي عز وجل قال عز وجل - وأمرأهلك بالصلاة واصطبر عليها -^(٥)» الآية وقال عليه السلام «لم يتوكل من استرقى واكتوى^(٦)» وروى أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقد رمى إلى النار بالمنجنيق أنك حاجة قال أما ليك فلا وفاء بقوله حسبي الله ونعم الوكيل إذ قال ذلك حين أخذ ليرمي فأزل الله تعالى - وإبراهيم الذي وفى - وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود مامن عبد يعتمني دون خلقي فتكيد السموات والأرض إلا جعلت له مخرجاً . وأما الآثار فقد قال سعيد بن جبير لدغني عن قرب فأقسمت على أمي لتسترقين فنأولت الرائي يدي التي لم تدغ وقرأ الخواص قوله تعالى - وتوكل على الحى الذى لا يموت - إلى آخرها فقال ما ينهى للعبد بعد هذه الآية أن يلبأ إلى أحد غير الله تعالى . وقيل لبعض العلماء فى منامه من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته وقال بعض العلماء لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن الفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك . وقال يحيى بن معاذ فى وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطاب العبد . وقال إبراهيم بن آدم سألت بعض الرهبان من أين تأكل فقال لى ليس هذا العلم عندى ولكن سل ربي من أين يطعمنى . وقال هرم بن حيان لأويس القرنى أين تأمرنى أن أكون فأوماً إلى الشام قال هرم كيف العيشة قال أويس أف

(١) حديث ابن مسعود أريت الأم فى اللوسم فرأيت أمي قد ملأوا السهل والجبل الحديث رواه ابن منيع باسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس (٢) حديث لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير الحديث الترمذى والحاكم ومجاهد من حديث عمرو وقد تقدم (٣) حديث من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة الحديث الطبرانى فى الصغير وابن أبى الدنيا ومن طريقه البيهقى فى الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصين ولم يسمع منه وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم (٤) حديث من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما فى يديه الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عباس باسناد ضعيف (٥) حديث كان إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول بهذا أمرني ربي قال تعالى - وأمرأهلك بالصلاة واصطبر عليها - الطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية ومحمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيصدمحاه من جد أبيه (٦) حديث لم يتوكل من استرقى واكتوى الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبير والطبرانى واللفظ له إلا أنه قال أو من حديث القيرة بن شعبة وقال الترمذى من اكتوى أو استرقى فقد برى من التوكل وقال النسائى ما توكل من اكتوى أو استرقى .

له وجود وذات كالروح
والنفس وإنما
صفت النفس وتزكت
انطلق الروح من وثاق
ظلمة النفس فأخذ فى
المروج إلى أوطان
القرب واترح القلب
عند ذلك عن مستقره
متطلعا إلى الروح
فاكتسب وصفاً اذا
على وصفه فانجم على
الواجدين ذلك الوصف
حيث رأوه أصفى من
القلب فسموه سرا
ولما صار للقلب وصف
زائد على وصفه بتطلعه
إلى الروح اكتسب
الروح وصفاً اذا
فى عروجه وانجم
على الواجدين فسموه
سرا والذي زعموا أنه
الطف من الروح روح

لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها للوعظة وقال بعضهم متى رضيت بالله وكيفا وجدت إلى كل خير سبيلا ، نسأل الله تعالى حسن الأدب .

(بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل)

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان وجميع أبواب الإيمان لا ينتظم إلا بعلم وحال وعمل والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل . فلنبداً ببيان العلم الذي هو الأصل وهو للسمى إيماناً في أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق وكل تصديق بالقلب فهو علم وإذا قوى سمى يقيناً ولكن أبواب اليقين كثيرة ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي يترجمه قولك : لا إله إلا الله وحده لا شريك له والإيمان بالقدرة التي يترجم عنها قولك : لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك والإيمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك : وله الحمد فمن قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير تم له الإيمان الذي هو أصل التوكل أعني أن يصير معنى هذا القول وصفا لازماً لقلبه غالباً عليه فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ولا يتم علم المعاملة إلا بها فاذن لا تعرض إلا للقدر الذي يتعلق بالمعاملة والأفان التوحيد هو البحر الحضم الذي لا ساحل له فتقول : للتوحيد أربع مراتب وينقسم إلى لب وإلى لب اللب وإلى قشر وإلى قشر القشر ولتمثل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فإن له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب اللب فالرتبة الأولى من التوحيد هي أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام القريين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار والرابعة أن لا يرى إلا واحدا فلا يرى نفسه أيضا وإذا لم يرفسه لكونه مستقرا بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده بمعنى أنه في عن رؤية نفسه والخلق فالأول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان والثاني موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه ولم تضعف بالمعاصي عقده ولهذا العقد حيل يقصدها لتضعيفه وتحليله تسمى بدعة وله حيل يقصدها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصدها أيضا أحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما والعارف به يسمى متكلماً وهو في مقابلة المتدع ومقصده دفع المتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام وقد يخص التكلم باسم للوحد من حيث إنه بمعنى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تتحل عقده والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلا واحدا إذ انكشفت له الحق كما هو عليه ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإن تلك رتبة العوام والتكلمين إذ لم يفارق التكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تليق الكلام الذي به حيل المتدع عن تحليل هذه العقدة والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الشكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد ، فالأول كالتشرة العليا من الجوز ، والثاني كالتشرة السفلى ، والثالث كالب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب وكأن التشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مر الذاق وإن نظر إلى باطنه فهو كربة للنظر وإن أخذ

متصفة بوصف أخص
بمعهده والذي صموه
قبل الروح سرا هو قلب
اتصف بوصف زائد
غير ماعهده وفي مثل
هذا الترقى من الروح
والقلب تترقى النفس
إلى عمل القلب وتخدع
من وصفها تصير قسا
مطمئنة تتردد كثيرا
من مردات القلب من
قبل إذ صار القلب يريد
ما يريد مولاه متبرئاً
عن الحسول والقوة
والارادة والاختيار
وعندها ذاق طعم
سرف العبودية حيث
صار حراً عن إرادته
واختياره وأما العقل
فهو لسان الروح
وترجمان البصيرة
والبصيرة للروح بمثابة

حطبا أطقاً النار وأكبر الدخان وإن ترك في البيت ضيق السكان فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مضموم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت والقشرة السفلى هي القلب والبدن وتوحيد اللناق يصون بدنه عن سيف الفزاة فانهم لم يؤمروا بشق القلوب والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيدها فائدة بعده وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فانها تصون القلب وتحرسه عن الفساد عند الادخار وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى القلب وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والشاهدة التي تحصل بانسراج الصدر وانساجه وإشراق نور الحق فيه إذ ذاك الشرح هو للراد بقوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - وبقوله عز وجل - أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وكأن القلب تقيس في نفسه بالإضافة إلى القشرة وكله القصد ولكنه لا يخلو عن شوب عصاره بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه فكذلك توحيد الفعل مقصد طال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة النير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق. فان قلت كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحدا وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا . فاعلم أن هذه غاية علوم الكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم العاملة، نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ويكون واحدا بنوع آخر من للشاهدة والاعتبار وهذا كما أن الانسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ تقول إنه إنسان واحد فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفرقة وكأنه في عين الجمع واللتنف إلى الكثرة في تفرقة فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد وباعتبارات أخرى كثيرة وبعضها أشد كثرة من بعض ومثاله الانسان وإن كان لا يطابق القرض ولكنه يبي في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا ويستبين بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام لم يبلغه وتؤمن به إيمان تصديق فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر والدوام نادر عز زو إلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال فماذا أنت فقال أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل وقد كان من المتوكلين فقال الحسين قد أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد فسكان الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد فطالبه بالمقام الرابع فهذه مقامات الوحيدين في التوحيد على سبيل الاجمال . فان قلت فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه . فأقول أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانها وليس التوكل أيضا مبني عليه بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث. وأما الأول وهو النفاق فواضح. وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل

القلب والعقل بشاشة
اللسان . وقد ورد في
الحجر عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه
قال لا يروى من لسان
الله العقل فقال له أقبل
فأقبل ثم قال له أدبر
فأدبر ثم قال له أقعد
فقعدي ثم قال له انطق
فانطق ثم قال له اصمت
فصمت فقال وعرفني
وجلالتي وعظمتي
وكبريائي وساطعاني
وجبروتي ما خلقت
خلقا أحب إلي منك
ولأأكرم علي منك
بك أعرف وبك
أحمد وبك أطاع
وبك أخذ وبك
أعطي وإياك أعاتب
ولك الثواب وعليك
العقاب وما أكرمك

الابتدعة فيه مذكور في علم الكلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه . وأما الثالث : فهو الذي يبني عليه التوكل إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل فلنذكر منه القدر الذي يرتبط بالتوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب . وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وقهر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم الملتفرد بابداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك وإليه رجائك وبه تقتك وعليه اتكالك فانه الفاعل على الانفراد دون غيره وما سواه مسغرون لاستقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض وإذا افتتحت لك أبواب الكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا آتم من الشاهدة بالبصر وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتغى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسنين : أحدها الالتفات إلى اختيار الحيوانات . والثاني الالتفات إلى الجمادات أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتقادك على للطرفي خروج الزرع ونباته ونعائه وعلى النيم في نزول المطر وعلى البرد في اجتماع النيم وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور ، ولذلك قال تعالى - فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون - قبل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجانا ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه مالم يحركه محرك وكذلك محركه وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه عز وجل فالنفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي النفات من أخذ لتحز رقبتك فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لا يحكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والنعيم والأرض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب بل هذا تمثيل في حقه لا اعتقادك أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى - وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى - فاذا انكشف لك أن جميع ما في السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وأيسر عن مزج توحيدك بهذا الشرك فأنت في المهلكة الثانية وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ويقول كيف ترى الكل من الله وهذا الانسان يمطيك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذي يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك وإن شاء عفا عنك فكيف لا تخافه وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ويقول له أيضا ، نعم إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو السخر له وعند هذا زل أقدام الأكرمين إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشهدوا بنور البصائر كوز الكاتب مسخرا مضطرا كما شاهد جميع الضمفاء كون القلم مسخرا وعرفوا أن غلط الضمفاء في ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فتري رأس القلم يسود الكاغد ولم يعتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو السواد للبياض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدتها فكذلك من لم ينتسرح بنور الله تعالى صدره للإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل فوقه في الطريق

شيء أفضل من
الصبر ، وقال عليه
السلام « لا يهجمك
إسلام رجل حتى
تعلموا ما عقده عقله »
وسألت عائشة رضي
الله عنها النبي صلى الله
عليه وسلم قالت قلت
« يا رسول الله بأي شيء
يتفاضلون الناس ؟ قال
بالعمل في الدنيا
والآخرة قالت قلت
أليس يحزى الناس
بأعمالهم ؟ قال يا عائشة
وهل يعمل بطاعة
الله إلا من قد عقل
فبفدر عقولهم يعملون
وعلى قدر ما يعملون
يحزون » وقال عليه
السلام « إن الرجل
لينطلق إلى المسجد
فيصلي وصلاته

على الكاتب وهو جهل محض بل أرباب القلوب والشاهدات قد أنطق الله تعالى في حتمهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى معموا تقديسها وتسيبها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بالأحرف ولا صوت لا يسمعه الدين هم عن السمع معزولون ولست أثنى به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الأصوات فإن الحمار شريك في مولا قدر لما يشارك فيه البهائم وإنما أريد به مما يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي . فان قلت فهذه أهوية لا يجلبها العقل فصف لي كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت وكيف سمحت ووقدت وكيف شهدت على نفسها بالعجز . فاعلم أن لكل ذرة في السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر وذلك مما لا ينحصر وله يتناهى فانها كالكلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له - قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر - الآية ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت وإفشاء السر لئلا يصدور الأحرار قبور الأسرار وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك قد توجى بخضايه فنادى بسره على ملا من الخلق ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » (١) بل كان يذكر ذلك لهم حتى يكون ولا يضحكون . ولما انتهى عن إفشاء السر القدر (٢) . ولما قال « إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أممائي فأمسكوا » (٣) ولما خص حذيفة رضى الله عنه ببعض الأسرار (٤) . فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب الشاهدات ما نمان : أحدهما استحالة إفشاء السر . والثاني خروج كلماتها عن الحصر والتهابة ولو كنا في اللال الذي كفايه وهي حركة القلم نحكي من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ونزد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن هي حروفا وأصواتا ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول : قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه اسود وجهه بالخبز ما بال وجهك كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد فلم سودت وجهك وما السبب فيه فقال الكاغد ما أنصفتي في هذه اللقاة فإني ما سودت وجهي بنفسى ولكن سل الخبز فانه كان مجموعا في الهبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلما وعدوانا فقال صدقت فسأل الخبز عن ذلك فقال ما أنصفتي فإني كنت في الهبرة وادعا ساكنا عازما على أن لا أبرح منها فاعتدى على القلم بطعمه الفاسد واختطفني من وطني وأجلاني عن بلادى وفرق جمعى وبددنى كما ترى على ساحة يضاء فالسؤال عليه لاهل فقال صدقت ثم سألت القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه وإخراج الخبز من أوطانه فقال مل اليد والأصابع فإني كنت قصبيا نابتا على شط الأنهار متزها بين خضرة الأشجار فجاءتني اليد بسكين فحقت عنى قشرى ومزقت عنى ثيابى واقتامتنى من أصلى وفضلت بين أنا وبينى ثم برتنى وشقت رأسى ثم غمستنى في سواد الخبز ومرارته وهى تستخدمنى وتمشينى على قمة رأسى ولقد ثرت الملح على جرحى بسؤالك وعتابك فتنتع عنى وسل من قهرنى فقال صدقت ثم سألت اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له فقالت اليد ما أنا إلا لحم وعظم ودم وهل رأيت لحما يظلم أوحيا يتحرك بنفسه وإنما أنا مركب مسخر ركبتى فارس يقال له القدرة والعزة فهى التي ترددنى

(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا الحديث تقدم غير مرة (٢) حديث النهى عن إفشاء سر القدر ابن عدى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر القدر سر الله فلا تمشوا لله عز وجل سره انظ أبى نعيم وقال ابن عدى لا تكلموا في القدر فانه سر الله الحديث وهو ضيف وقد تقدم (٣) حديث إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا الحديث الطبرانى وابن حبان في الضعفاء وتقدم في العلم (٤) حديث أنه خص حذيفة ببعض الأسرار تقدم .

لا تعدل جناح بموضة
وإن الرجل ليأتى
السجد فيصلى وصلاته
تعدل جبل أحد إذا
كان أحسنهما عقلا
فيل وكيف يكون
أحسنهما عقلا ؟ قال
أورعهما عن محارم
الله وأحرصهما على
أسباب الخير وإن
كان دونه في العمل
والتطوع . وقال :
عليه الصلاة والسلام
« إن الله تعالى قسم
العقل بين عباده
أشتاتا فان الرجلين
يستوى علمهما
وبرهما وصومهما
وصلاتهما ولكنهما
يتفاوتان في العقل
كالقدرة في جنب أحد »
وروى عن وهب بن

وتجول بي في نواحي الأرض أما ترى الدر والحجر والشجر لا يتعدى شئ منها مكانه ولا يتحرك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر أما ترى أيدى الوترى تساوين في صورة اللحم والعظم والدم ثم لامعاملة بينها وبين القلم فأنا أيضا من حيث أنا لامعاملة بيني وبين القلم فسل القدرة عن شأني فإني مركب أزججني من ركبتي فقال صدقت ثم سألت القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها فقالت دع عنك لومي ومعاتبتي فكم من لأم ملوم وكم من ملوم لا ذنب له وكيف خفي عليك أمرى وكيف ظننت أنني ظلمت اليد لما ركبته وقد كنت لها راكبة قبل التحريك وما كنت أحركها ولا أستسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بي أنني ميتة أو معدومة لأنني ما كنت أتحرك ولا أتحرك حتى جاءني موكل أزججني وأرهنني إلى ماتراه مني فكانت لي قوة على مساعدته ولم تكن لي قوة على مخالفته وهذا الوكيل يسمى الإرادة ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله إذ أزججني من غمرة النوم وأرهنني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأني فقال صدقت ثم سألت الإرادة ما الذي جرأك على هذه القدرة الساكنة الطمئنة حتى صرقتها إلى التحريك وأرهنقتها إليه إرهابا لم نجد عنه مخلصا ولا مناصا فقالت الإرادة لا تمجبل على فعلك لنا عذر وأنت تلوم فإني ما انتهضت بنفسى ولكن أنهضت وما انتهضت ولكني بعثت بحكم قاهر وأمر جازم وقد كنت ساكنة قبل بعثته ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطراب فإني ميكنة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ولا أدري بأى جرم وقعت عليه وسخرت له وألزمت طاعته لكنى أدري أنني في دعة وسكون مالم يرد على هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقعت عليه وقفا وألزمت طاعته إلزاما بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمري مادام هو في التردد مع نفسه والتعير في حكمه فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه فاذا انجز حكمه أزججت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه فسل العلم عن شأني ودع عنى عتابك فإني كما قال القائل :

مق ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لانفارقهم فالراحلون م

فقال صدقت وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا لهم ومعابها لإيام على استنهاض الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة فقال العقل أما أنا فسراج ما اشتملت بنفسى ولكن أشعلت وقال القلب أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت وقال العلم أما أنا فنقش نقش في يابض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسى فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عنى فسل القلم عنى لأن الخط لا يكون إلا بالقلم فعند ذلك تمنع السائل ولم يقنع جواب وقال قد طال نعي في هذا الطريق وكثرت منازلى ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ولكنى كنت أطيب نفسا بكرة الترداد لما كنت أسمع كلاما مقبولا في النواد وعذرا ظاهرا في دفع السؤال فأما قولك إنى خط ونقش وإنما خطنى قلم فلست أفهمه فإني لأعلم قلما لإمن القصب ولا لوجها لإمن الحديد أو الخشب ولا خطا إلا بالحبر ولا سراجا إلا من النار وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولأشاهد من ذلك شيئا أسمع جمجمة ولا أرى طعنا فقال له القلم إن صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف . واعلم أن المهالك في الطريق التي توجهت إليها كثيرة فالصواب لك أن تتصرف وتدع ما أنت فيه لما هذا بمشك فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له وإن كنت راغبا في استتمام الطريق إلى القصد فألقى صمك وأنت شهيد . واعلم أن العوالم في طريقك هذا ثلاثة عالم الملك والشهادة أولها ولقد كان السكاغر والحبر والقلم واليد من هذا العالم وقد تجاوزت

منبه أنه قال إنى أجد في سبعين كتابا أن جميع ما أعطى الناس من بده الدنيا إلى انقطاعها من العقل في جنب عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم كهية رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا. واختلف الناس في ماهية العقل والكلام في ذلك يكبر ولا تؤثر نقل الأقاويل وليس ذلك من غرضنا قال قوم: العقل من العلوم فإن الخالي من جميع العلوم لا يوصف بالعقل وليس العقل جميع العلوم فإن الخالي عن معظم العلوم يوصف بالعقل وقالوا ليس من العلوم النظرية فإن من

تلك للنازل على سهولة والثاني عالم الملكوت وهو ورأى فإذا جاوزتني انتهت إلى منازل وفيه اللهاية والقيح والخيال الشاهقة والبحار الفرقة ولا أدري كيف نسم فيها والثالث وهو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت لأن عالم الملك أسهل منه طريقا وعالم الملكوت أوعر منه منها وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والسما فلهي في حد اضطراب الساء ولاهي في حد سكون الأرض وثباتها وكل من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشهادة فإن جاوزت قوته إلى أن يعوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت فإن انتهى إلى أن يمشي على الساء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تتعق فإن كنت لا تتعذر على المشي على الساء فانصرف قد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الساء الصافي وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام «لوازداد يقينا لمشي على الهواء» (١) لما قيل له إنه كان يمشي على الماء فقال السالك السائل قد تحيرت في أمرى واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ولست أدري أطبق قطع هذه المهامة التي وصفتها أم لا فهل ذلك من علامة؟ قال نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نعوى فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من أبواب الملكوت ككشف بالقلم أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره ككشف بالقلم إذا نزل عليه - اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم - فقال السالك لقد فتحت بصري وحدقته فوالله ما أرى قسبا ولا خشبا ولا أعلم قلما إلا كذلك فقال العلم لقد أبدت النجمة أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات فكذلك لا تشبه يده الأيدي ولا قلبه الأقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت فليس الله تعالى في ذاته بهيتم ولا هو في مكان بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي ولا قلبه من قصب ولا لوجه من خشب ولا كلامه بصوت وحرف ولا خطه رقم ورسم ولا جبره زاج وعص فان كنت لا تشاهد هذا هكذا فأراك إلا عشتا بين حولة التنزيه وأئونة التشبيه مذبذبا بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فكيف زهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها وزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات وأخذت تتوقف في يده وقلبه ولوجه وخطه فان كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خالق آدم على صورته» الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكأن مشبها مطلقا كما يقال كن يهوديا صرفا وإلا فلا تلعب بالتوراة وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصار لا بالأبصار فكأن منزها صرفا ومقدسا فخلا واطو الطريق فانك بالواد المقدس طوى واستمع بسر قلبك لما يوحى فاعلك نجد على النار هدى ولعلك من سرادقات العرش تتأدى بما نودى به موسى - إنى أنا ربك - فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه عشت بين التشبيه والتنزيه فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بين النقص ولقد كان زيتة الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولولم تمسه نلر فلما نفع فيه العلم بمحدثه اشتعل زيته فأصبح نورا على نور فقال له العلم اغتم الآن هذه الفرصة واتضح بصرك لملك نجد على النار هدى ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهي

(١) حديث قيل له إن عيسى يمشي على الماء قال لوازداد يقينا لمشي على الهواء تقدم .

شرط ابتداء النظر
تقدم كمال العقل فهو
إذن من العلوم
الضرورية وليس هو
جميعها فان صاحب
الحواس المختلة عاقل
وقد عسى بعض
مدارك العلوم
الضرورية. وقال بعضهم
العقل ليس من أقسام
العلوم لأنه لو كان منها
لوجب المحصم بأن
الداهل عن ذكر
الاستحالة والجواز
لا يتصف بكونه عاقلا
ونحن نرى العاقل في
كثير من أوقاته ذاهلا
وقالوا هذا العقل صفة
يتبها بها درك العلوم .
وقيل عن الحرث بن
أسد الهامسي وهو من
أجل الشايع أنه قال

فاذا هو كما وصفه العلم في التزييه ما هو من خشب ولا قصب ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم وكان له في كل قلب رأسا ولأرأس له قضي منه العجب وقال نعم الرقيق العلم جزاراته تعالى عن خيرا إذا الآن ظهر لي صدق أنباءه عن أوصاف القلم فاني أراه قلما لا لأقلام فصد هذا ودع العلم وشكره وقال قد طال مقامى عندك ومرادنى لك وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه فاسفر إليه وقال له: ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبث به الارادات إلى أشخاص القدر وصر فيها إلى للتدورات فقال أو قد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وصممت من جواب القلم إذ سألته فأحالك على اليد قال لم أنس ذلك قال فجوابي مثل جوابه قال كيف وأنت لا تشبهه قال القلم أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته قال نعم قال فسل عن شأنى الملقب بيمين الملك فاني في قبضته وهو الذي يرد دنى وأنا متهور مسخر فلا فرق بين القلم الإلهى وقلم الأدمى في معنى التسخير وإنما الفرق في ظاهر الصورة فقال فمن عين الملك فقال القلم أما سمعت قوله تعالى - والسماوات مطويات بيمينه - قال نعم قال والأقلام أيضا في قبضة يمينه هو الذي يرد بها فاسفر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائب ما يزيد على عجائب القلم لا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه بل لا تحوى مجلدات كثيرة عشر عشر وصفه والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان ويد لا كالأيدي وأصبع لا كالأصابع فرأى القلم محركا في قبضته فظهر له عذر القلم فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم فقال جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهى الحوالة على القدرة إذ لا بد لحكم لها في نفسها وإعماح محركها القدرة لا محالة فاسفر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقق عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت إنما أنا صفة فاسأل القادر إذ الصمدة على الموصفات لا على الصفات وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجرأة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودى من وراء حجاب سرادات الحضرة - لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون - فحشيتة هية الحضرة غر صفا يضرب في غشيتها فلما أفاق قال سبحانك ما أعظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بفوك من عقابك وبرضاك من سخطك ومالى إلا أن أسألك وأتضرع إليك وأبتهل بين يديك فأقول : اشرح لى صدرى لأعرفك واحلل عقدة من لساني لأتنبى عليك فنودى من وراء الحجاب إياك أن تطمع في الثناء وتزيد على سيد الأنبياء بل ارجع إليه فما آتاك غفده وما نهاك عنه فاتته عنه وما قاله لك قلله فانه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال « سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (١) » فقال إلهى إن لم يكن لسان جرأة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك فنودى إياك أن تتخطى رقاب الصديقين فأرجع إلى الصديق الأكبر فأتدبه فان أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأبهم اقتديتم اهتديتم أما سمعت يقول العجز عن درك الإدراك إدراك فيك كيف نصيما من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عجز عن ملاحظة جماعنا وجلالنا فنصد هذا رجوع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتبته وقال لليمين والقلم والعلم والإزادة والقدرة وما بعدها اقبلوا عذرى فاني كنت غريبا حديث المهدي بالدخول في هذه البلاد ولكل داخل دهشة لما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل والآن قد صبح عندي عذركم وانكشف لى أن للتفرد بالملك والمكوت والمزة والجبروت هو الواحد القهار فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته مرددون في قبضته وهو الأول والآخر والظاهر والباطن فلماذا كرك ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيله كيف يكون هو الأول والآخر وهو وصفان متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن فالأول ليس بآخر والظاهر ليس ياطن فقال هو الأول بالإضافة إلى الموجودات إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحد ابعد واحد وهو الآخر

(١) حديث سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك تقدم .

العقل غريزة يتبها بها
درك العلوم وعلى هذا
يتقرر ما ذكرناه في
أول ذكر العقل : أنه
لسان الروح لأن
الروح من أمر الله
وهى التحملة للأمانة
التي أبت السماوات
والأرضون أن يعملنها
ومنها يفيض نور
العقل وفي نور العقل
تنشكّل العلوم فالعقل
للعلوم بمثابة الروح
للكتاب وهو صفته
منكوس متطلع إلى
النفس تارة ومنتصب
مستقيم تارة فمن كان
العقل فيه منكوسا
إلى النفس فرقه في
أجزاء الكون وعدم
حسن الاعتدال
بذلك وأخطأ طريق

بالإضافة إلى سير السائرين إليه فانهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر فهو آخر في المشاهدة أول في الوجود وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لأدراكه بالحواس الخمس ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في القمل : أعنى من انكشف له أن الفاعل واحد . فان قلت فقد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يتنى على الإيمان بعالم الملكوت فمن لم يفهم ذلك أو يجده فطريقه ؟ فأقول : أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له إنكارك لعالم الملكوت كأنكار السمنية لعالم الجبروت ، وهم الذين حصروا العلوم في الحواس الخمس فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لا تدرك بالحواس الخمس فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس ، فان قال وأنا منهم فإني لأهتدي إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئا سواه ، فيقال إنكارك لما شاهدناه بما وراء الحواس الخمس كأنكار السوفسطائية للحواس الخمس فانهم قالوا ما زراه لا تثق به فلعلنا نراه في المنام ، فان قال وأنا من جملتهم فإني شاك أيضا في المحسوسات فيقال هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه فيترك أياما قلائل وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء هذا حكم الجاحد . وأما الذي لا يجحد ولكن لا يفهم فطريق السالكين معه أن ينظر وإلى عينه التي يشاهد بها عالم الملكوت فان وجدوها صحيحة في الأصل وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الإزالة والتنقية اشتغلوا بتفتيته اشتغال الكمال بالأبصار الظاهرة فإذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه فان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك ولللكوت بشهادة التوحيد كلوه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فان في عالم الشهادة أيضا توحيدا إذ يعلم كل أحد أن للترزلة يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأمرين فيقال له على حد عقوله إلى العالم واحد والدبر واحد إذ لو كان فيما آلهة إلا الله لفسدتا فيكون ذلك على ذوق مارآء في عالم الشهادة فينفرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله وقد كلف الله الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وكذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عاداتهم في المحاوراة . فان قلت فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه ؟ فأقول نعم فان الاعتقاد إذا قوى عمل الكشفي في إثارة الأحوال إلا أنه في الغالب يفضي ويتسارع إليه الاضطراب والترزول غالبا ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بيته . وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيء من ذلك بل لو كشف النطاء لما ازداد يقينا وإن كان يزداد وضوحا كما أن الذي يرى إنسانا في وقت الإسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحا في تفصيل خلقته ومماثال للكاشفين وللمتقين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري فان سحرة فرعون لما كانوا مطالبين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكثرثوا بقول فرعون - لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف - بل - قالوا لن نؤثررك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تضي هذه الحياة الدنيا - فان البيان والكشف يمنع التخيير . وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثمبان ظنا نظروا إلى مجمل السامري وصموا خواره تعيروا وصموا قوله - هذا إنحكم وإله موسى - ونسوا أنه لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم صرا ولا نفعا فكل من آمن بالنظر

الاهتداء ومن انتصب العقل فيه واستقام تأيد العقل بالبصيرة التي هي لروح بمثابة القلب واهتدى إلى الكون ثم عرف الكون بالكون مستوفيا أقسام المعرفة بالكون والكون فيكون هذا العقل عقل الهداية فكما أحب الله إقباله في أمره دل على إقباله عليه وما كرهه الله في أمره دل على الإدبار عنه فلا يزال يتبع محاب الله تعالى ويجنب مساخطه وكلما استقام العقل وتأيد بالبصيرة كانت دلالاته على الرشد ونهيه عن الشيء . قال بعضهم : العقل على

إلى ثعبان يكفر لاحالة إذا نظر إلى مجمل لأن كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير . وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فذلك لا نجد فيه اختلافا وتضادا أصلا . فان قلت ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر إلا في حركات الانسان فانه يتحرك إن شاء ويسكن إن شاء فكيف يكون مسخرا . فاعلم أنه لو كان مع هذا إتيان إن إراد أن يشاء ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء لكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط لو كان علم أنه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشأ أم لم يشأ فليست المشيئة إليه إذ لو كانت إليه لا تقترن إلى مشيئة أخرى وتسلسل إلى غير نهاية وإذا لم تكن المشيئة اليه فهما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لاحالة ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة ضرورة عند انجرام المشيئة فالمشيئة تحدث ضرورة في القلب فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض وليس للبعد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة إلى التدور بعدها ولا وجود الحركة بعد مع المشيئة للقدرة فهو مضطر في الجميع . فان قلت فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجبورا مختارا . فأقول لو انكشف الغطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور فهو إذن مجبور على الاختيار فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار ، فلنشرح الاختيار بلسان التكلمين شرحا وجيزا يليق بما ذكر متظفلا وتابعا فان هذا الكتاب لم يقصد به إلا العلم العاملة ، ولكني أقول لفظ الفعل في الانسان يطلق على ثلاثة أوجه : إذ يقال الانسان يكتب بالأصابع ويتنفس بالرئة والخنجرة ويحرق الماء إذا وقف عليه بحممه فينسب إليه الحرق في الماء والتنفس والكتابة ، وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطرار والجبر واحدة ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات فنسعى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا ونسعى تنفسه فعلا إراديا ونسعى كتابته فعلا اختياريا والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لأنه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء انحرق الهواء لاحالة فيكون الحرق بعد التخطى ضروريا والتنفس في معناه فان نسبة حركة الخنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انحراق الماء إلى ثقل البدن فهما كان الثقل موجودا وجد الانحراق بعده وليس الثقل اليه وكذلك الإرادة ليست اليه ، ولذلك لو قصد عين الإنسان بإبرة طبق الأجفان اضطرارا ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أن تغميض الأجفان اضطرارا فعل إرادى ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة في مشاهدته بالادراك حدثت الإرادة بالغميض ضرورة وحدثت الحركة بها ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضروريا . وأما الثالث وهو الاختيارى فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق وهو الذى يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل وتارة يشاء وتارة لا يشاء فيظن من هذا أن الأمر اليه وهذا الجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه ، ويبانه أن الإرادة تبع للعلم الذى يحكم بأن الشيء موافق لك والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد وإلى ما قد يتردد العقل فيه فالذى تقطع به من غير تردد أن يقصد عينك مثلا بإبرة أو بدتك بسيف فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق فلا جرم تنبعت الإرادة بالعلم والقدرة بالإرادة وتوصلت حركة الأجفان بالدفع وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة ويكون ذلك بالإرادة ومن الأشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدري أنه موافق أم لا فيحتاج الى روية وفكر حتى يتميز أن الخير في الفعل أو الترك فإذا حصل بالفكر والرؤية العلم بأن أحدهما خير التحق ذلك بالذى تقطع به من غير روية فكر فانبعثت الإرادة ههنا كما تنبث لدفع السيف والسنان فإذا انبثت لفعل ما ظهر للعقل

ضربين ضرب يصير به أمر دنياه وضرب يصير به أمر آخرته ، وذكر أن العقل الأول من نور الروح والعقل الثاني من نور الهداية فالعقل الأول موجود في عامة ولد آدم والعقل الثاني موجود في الموحدين مفقود من المشركين . وقيل إنما سمى العقل عقلا لأن الجهل ظلمة فإذا غلب النور بصيره في تلك الظلمة زالت الظلمة فأبصر فصار عقلا فالجهل ، وقيل عقل الإيمان بسببته في القلب ومتممه في الصدر يتلوه عيني الفؤاد والذى ذكرناه عن كون العقل لسان

أنه خير سميت هذه الإرادة اختياراً مشتقاً من الخير أي هو انبعاث إلى ما ظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة ولم ينتظر في انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه إلا أن الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا انقصر إلى الروية فلا خيار عبارة عن إرادة خاصة وهي التي انبعثت بإشارة العقل فيها له في إدراكه توقف وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ولا يتصور أن تنبثق الإرادة إلا بحكم الحس والتخييل أو بحكم جزم من العقل ولذلك لو أراد الانسان أن يحجز ربة نفسه مثلاً لم يمكنه لانهدم القدرة في اليد والقدم السكين ولكن لفقد الإرادة الداعية للشخصية للقدرة وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبث بحكم العقل أو الحس بكون العقل موافقاً وقتله نفسه ليس موافقاً له فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عقوبة مؤلمة لا تطاق فإن العقل هنا يتوقف في الحكم ويتردد لأن تردده بين شر الشرين فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شراً لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل أقل شراً وكان حكمه جزماً لا ميل فيه ولا صارف منه انبعثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه كالذي يتبع بالسيف للقتل فإنه يرمى بنفسه من السطح مثلاً وإن كان مهلكاً ولا يبالي ولا يمكنه أن لا يرمى نفسه فإن كان يتبع بضرب خفيف فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمى نفسه ولا تنبث له داعية البتة لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس والقدرة مسخرة للداعية والحركة مسخرة للقدرة والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدري فأنما هو محل ومجرى لهذه الأمور فأما أن يكون منه فكلاً ولا فاذن معنى كونه مجبوراً أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لانه ومعنى كونه مختاراً أنه محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً محضاً موافقاً وحدث الحكم أيضاً جبراً فإذ هو مجبور على الاختيار ففعل النار في الاحراق مثلاً جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الانسان على منزلة بين المنزلتين فإنه جبر على الاختيار فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة لأنها كانت ذاتها واتموا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسباً وليس مناقضاً للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه وفعل الله تعالى يسمى اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تخيير وتردد فإن ذلك في حقه محال وجميع الأفعال المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستمارة والتجوز وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه . فإن قلت فهل تقول إن العلم ولد الإرادة والإرادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وأن كل متأخر حدث من المتقدم . فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى وإن آييت ذلك فامعنى ترتب البعض من هذا على البعض . فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرة الأزلية وهو الأصل الذي لم يبق كافة الخلق عليه إلا الراسخون في العلم فانهم وقفوا على كنهه معناه والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيهه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق ويان ذلك يطول ولكن بعض المقادير مترتب على البعض في الحدوث ترتب الشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد محل الحياة وكلاهما يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكشوفين بنور الحق والإفلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق والضرورة وكذلك جميع أفعال الله تعالى ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثاً يضاهي فعل الجانين تعالى الله عن قول الجاهلین علواً كبيراً وإلى هذا أشار قوله تعالى - وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون - وقوله تعالى - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما

الروح وهو عقل واحد ليس هو على ضربين ولكنه إذا انصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل ووضع الأشياء في مواضعها وهذا العقل هو العقل المستضيء بنور الشرع لأن اتصافه واعتداله هداه إلى الاستقامة بنور الشرع لكون الشرع ورد على لسان النبي المرسل وذلك لقرب روحه من الحضرة الالهية ومكاشفة بصيرته التي هي للروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته واستقامة عقله بتأيد البصيرة فالبصيرة تحيط بالمعلوم التي يستوعبها العقل والتي

لاعين . ما خلقناهما إلا بالحقّ - فكلّ ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون إلا كما حدث وعلى هذا الترتيب الذي وجدنا تأخر متأخر إلا لا نتظار شرطه وللشروط قبل الشرط محال والمحال لا يوصف بكونه مقدورا فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لا فقد شرط الحياة ولا يتأخر عنها الإرادة بعد انعم إلا لا فقد شرط العلم وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق بل كل ذلك بحكمة وتديرو وتفهم ذلك عسير ولكننا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثلا لا يقرب مبادئ الحق من الأفهام الضعيفة وذلك بأن تقدر إنسانا محدثا قد اتهمس في الماء إلى رقبته فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان الماء هو الرفع وهو ملائله فقدرة القدرة الأزلية حاضرة ملائله للمقدورات متعلقة بها ملائله الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل لرفع الحدث بالماء امتظارا للشرط وهو غسل الوجه فاذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر أعضائه وارتفع الحدث فربما يظن الجاهل أنه الحدث ارتفع عن اليدين برفضه عن الوجه لأنه حدث عقيه إذ يقول كان الماء ملائله لم يكن رافعا والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه، فاذن غسل الوجه هو الرفع للحدث عن اليدين وهو جهل يضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة والإرادة بالعلم وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء اللئالي لها لا يغسل الوجه والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيهما شيء ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكشفات فلنترك جميع ذلك فان مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل فان الفاعل بالحقيقة واحد فهو الخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ولم تقدر على أن تذكرك من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله وما أخف مؤته على اللسان وما أسهل اعتقاد مفهوم أظهري القلب وما أعز حقيقته وله عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم . فان قلت فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد فان كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ومفعول من فاعلين غير مفهوم . فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد وإن كان له معنيان ويكون الاسم مجمل المراد بينهما ما يتناقض كما يقال قتل الأمير فلانا ويقال قتله الجلاد ولكن الأمير قاتل بمعنى والجلاد قاتل بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى واقفه عز وجل فاعل بمعنى آخر فعنى كون الله تعالى فاعلا أنه المخرع الموجد ومعنى كون العبد فاعلا أنه المخل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالإرادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبطت القدرة بالله ارتباط المعلول بالعلة وارتبطت بالمتحرف بالمتحرف وكل ماله ارتباط بقدرة فان محل القدرة يسمى فاعلا فكيف كان الارتباط كما يسمى الجلاد قاتلا والأمير قاتلا لأن القتل ارتباط بقدرة هما ولكن على وجهين مختلفين فذلك سمى فاعلا فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد ونسبها لبعضهما مرة أخرى إلى نفسه فقال تعالى في الموت - قل يتوفاكم ذلك الموت - ثم قال عز وجل - الله يتوفى الأنفس حين موتها وقال تعالى - أفأرأيتم ما تعمرنون - أضاف إليهم قال تعالى - أناصينا الماء صبائهم شققنا الأرض شققا فابتنا فيها حيا وعينا - وقال عز وجل - فأرسلنا إليهم باروخنا فتمثل لها بشراسويا - ثم قال تعالى - فنفضنا فيها من روحنا وكان النافع جبريل عليه

يضيق عنها نطاق العقل لأنها تستمد من كلمات الله التي ينفد البحر دون نفاذها والعقل ترجمان تؤدى البصيرة إليه من ذلك شطرا كما يؤدى القلب إلى اللسان بعض ما فيه ويستأثر ببعضه دون اللسان ولهذا المعنى من حمد على مجرد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حظى بعلوم الكائنات التي هي من الملك والملك ظاهر الكائنات ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت والملكوت باطن الكائنات اختص بمكاشفته أرباب البصائر

السلام وكما قال تعالى - فاذا قرأناه فاتبع قرآنه - قيل في التفسير معناه إذا قرأه عليك جبريل . وقال تعالى - قاتلوم يذبهم الله بأيديكم - فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه والتعذيب هو عين القتل بل صرح وقال تعالى - فلم تقتلهم ولكن الله قتلهم - وقال تعالى - وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى - وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرا ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذي يكون الصبد به راميا ، إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى - الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم - ثم قال - الرحمن علم القرآن - وقال - علمه البيان - وقال - ثم إن علينا ياناه - وقال - أفرأيت ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون - ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الأرحام « إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم بصورها جسدا ، فيقول يارب أذكر أم أنثى أسوى أم معوج فيقول الله تعالى ماشاء ويخلق الملك (١) » وفي لفظ آخر « ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة » . وقد قال بعض السلف إن الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجساد ، وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلجج في جسم ولذلك سمى روحا وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب يصائرهم فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرد وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات في الأرض والسموات ثم قال - أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - . وقال - شهد الله أنه لا إله إلا هو - فيبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم عرفت ربي ربي ولولا ربي لما عرفت ربي وهو معنى قوله تعالى - أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيي والمميت ثم فوض الموت والحياة إلى ملكين ففي الخبر « أن ملكي الموت والحياة تناظرا ، فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء ، وقال ملك الحياة أنا أحى الموتى فأوحى الله تعالى إليهما كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع وأنا المميت والمحيي لا يميت ولا يحيي سواي (٢) » فأذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تناقض هذه المعاني إذا فهمت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للذي ناوله التمرة « خذها لولم تأتها لأنتك (٣) » أضاف الاتيان إليه وإلى التمرة ، ومعلوم أن التمرة لا تأتي على الوجه الذي يأتي الانسان إليها وكذلك لما قال التائب أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد فقال صلى الله عليه وسلم « عرف الحق لأهله (٤) »

(١) حديث وصف ملك الأرحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم بصورها جسدا الحديث البراز وابن عدى من حديث عائشة إن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل الرحم فيقول يارب ماذا الحديث وفي آخره فإمن شيء إلا وهو يخلق معه في الرحم وفي سنده جهالة وقال ابن عدى إنه منكر ، وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه (٢) حديث إن ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء وقال ملك الحياة أنا أحى الأموات فأوحى الله إليهما أن كونا على عملكما الحديث لم أجده أصلا (٣) حديث قال للذي ناوله التمرة خذها لولم تأتها لأنتك ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجالهم رجال الصحيح (٤) حديث إنه قال للذي قال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد عرف الحق لأهله تقدم في الزكاة .

والعقول دون الجامدين
على مجرد العقول دون
البصائر وقد قال بعضهم
إن العقل عقلان عقل
للهداية مسكنه في القلب
وذلك للمؤمنين الموقنين
ومتعمله في الصدر بين
عينى الفؤاد والعقل
الآخر مسكنه في الدماغ
ومتعمله في الصدر بين
عينى الفؤاد قبل الأول
يدبر أمر الآخرة ،
وبالشأن يدبر أمر
الدنيا والذي ذكرناه
أنه عقل واحد إذا
تأيد بالبصيرة دبر
الأمرين وإذا تفرد
دبر أمرا واحدا وهو
أوضح وأبين ، وقد
ذكرنا في أول الباب
من تديره للنفس
الطمئنة والأمانة

فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة ومن أضافه إلى غيره فهو التجوز والستير في كلامه وللتجوز وجه كما أن للحقيقة وجهاً واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ولكن ظن أن الانسان مخترع بقدرته فهما فاعلا بحركته وظن أنه تحقيق وتوهم أن نسبه إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فإنه مجاز بالاضافة إلى نسبه إلى الجلال فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس وقالوا إن الفاعل قد وضعه أي اللغوي للمخترع فلا فاعل إلا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز أي تجوز به عما وضعه اللغوي له ولما جرى حقيقة للفق على لسان بعض الأعراب قصداً أو اتفاقاً صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «أصدق بيت قاله الشاعر قول لييد: * ألا كل شيء ما خلا الله باطل *» (١) أي كل ما لا تقوام له بنفسه وإعما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وإعما حقيقته وحقيقته بغيره لا بنفسه فاذن لا حق بالحقيقة إلا الحى القيوم الذى ليس كمثل شيء فإنه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته فهو الحق وما سواه باطل ولذلك قال سهل: يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا كنى الآن كالم تكن فإنه اليوم كما كان. فإن قلت قد ظهر الآن أن الكل جبر لتمامى الثواب والعقاب والغضب والرضا وكيف غضبه على فعل نفسه. فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر فلان طول بعادته فهذا هو القدر الذى رأينا الرمز إليه من التوحيد الذى يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة فإن التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذى يورث الثقة بحسب الأسباب ولا يتم حال التوكل كما سياتى إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل وهذا الإيمان أيضاً باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق الكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليستقده الطالب لمقام التوكل اعتقاداً قاطعاً لا يترتب فيه وهو أن يصدق تصديقاً يقينياً لا ضعف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تختمه نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لامنتهى لوصفها ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلاً ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار اللسكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضرم أمرهم أن يدبروا الملك واللسكوت بما أعطوا من العلوم والحكم لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزداد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولأن ينقص منها جناح بعوضة ولأن يرفع منها ذرة ولا أن ينقص منها ذرة ولا أن يدفع مرض أوعيب أو نقص أو فقر أو ضرر عمن بلى به ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجوا فيها البصر وطولوا فيها النظر ماراً أو فيها من ضاوت ولا فطور وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وهجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبنى وكما ينبنى وبالتقدير الذى ينبنى وليس في الامكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الالهية بل كل فقر وضرفى الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة وكل نقص في الآخرة بالاضافة إلى شخص فهو نعيم بالاضافة إلى غيره إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ولولا المرض لما تهم الأصحاء بالصحة ولولا النار

ما يتبته الانسان به إلى كونه عقلاً واحداً مؤيداً بالبصيرة تارة ومنفرداً بوصفه تارة والله اللهم للصواب .
[الباب السابع والخمسون في معرفة الخواطر وتفصيلها وتعميرها]

أخبرنا شيخنا أبو العجيب المسهروردى قال أخبرنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحسبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال أنا هناد قال أنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود

(١) حديث أصدق بيت قائله العرب بيت لييد : * ألا كل شيء ما خلا الله باطل *

متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ قاله الشاعر وفي رواية لمسلم أشعر كلمة تكلمت بها العرب

لما عرف أهل الجنة قدر النعمة وكان فداء أرواح الانس بأرواح البهائم وتسلطهم على ذمها ليس بظلم بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران وفداء أهل الايمان بأهل الكفران عين العدل وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس فان الكمال والنقص يظهر بالاضافة فقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص فكذلك الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لمب فيه وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في الصعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا أن ذلك غايض لا يقبله إلا المالمون ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الأكترون ومنع من إفشاء سره المكاشفون . والحاصل أن الخير والشر مقضى به وقد كان ماضى به واجب الحصول بعد سبق الشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولتقتصر على هذه الرامز من دلوم المكاشفة التي هي أصول مقام التوكل ولترجع إلى علم المعاملة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الشر الثاني من الكتاب : في أحوال التوكل وأعماله وفيه بيان حال التوكل وبيان ما قاله الشيخوخ في حد التوكل وبيان التوكل في الكسب للمنفرد والميل وبيان التوكل بترك الادخار وبيان التوكل في دفع الضرر وبيان التوكل في إزالة الضرر بالتداوى وغيره والله الوفاق برحمته .

بيان حال التوكل

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من علم وحال وعمل وذكرنا العلم فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه وإنما العلم أصله والعمل ثمرة وقد أكثر الخاضون في بيان حد التوكل واختلفت عباراتهم وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حده كما جرت عادة أهل التصوف به ولا فائدة في النقل والاكتثار فلنكشف الغطاء عنه ونقول : التوكل مشتق من الوكالة يقال وكل أمره إلى فلان أي فوضه إليه واعتمد عليه فيه ويسمى الوكول إليه وكلا ويسمى القوض إليه متكللا عليه ومتوكلا عليه مهما اطمانت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلا فنقول : من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبس فوكلا للخصومة من يكشف ذلك التلبس لم يكن متوكلا عليه ولا واثقا به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقديه أربعة أمور : منتهى الهداية ومنتهى القوة ومنتهى الفصاحة ومنتهى الشفقة أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبس حتى لا يخفى عليه من غوامض الخليل شيء أصلا وأما القدرة والقوة فليستجري على التصريح بالحق فلا يدهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يخجل فانه ربما يطالع على وجه تلبس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الهياء أو صارف آخر من الصوارف الضعفة للقلب عن التصريح به وأما الفصاحة فهي أيضا من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الانصاح عن كل ما استجرا القلب عليه وأشار إليه فلا كل ظلم بمواقع التلبس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبس وأما منتهى الشفقة فيكون باعتبارها على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من المجهود فان قدرته لا تنفي دون العناية به إذا كان لاجمه أمره ولا يبالى به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك فان كان شاكا في هذه الأربعة أو في واحدة منها أو جوز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكل منه لمطمئن نفسه إلى وكيله بل بقي متزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليُدفع ما يحذر منه من تصور

رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للشيطان لمة بابن آدم ولذلك لمة فأمانة الشيطان فايصاد بالتبر وتكذيب بالحق وأمانة الملك فايصاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتموذ باقته من الشيطان ثم قرأ الشيطان يدكم الفقر ويأمركم الفحشاء - » وإنما يتطلع إلى معرفة اللتين وتمييز الخواطر طالب مر يد يتشوق إلى ذلك تشوق العطشان إلى الماء لما يطم من وقع ذلك وخطره وفلاحه وصلاحه

ويكليه وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله في شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الحاصل فيه والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تفاوت تفاوتنا لا ينحصر فلا جرم تفاوت أحوال التوكلين في قوة الطمأنينة والثقة تفاوتنا لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه كما لو كان الوكيل والدلولوك وهو الذي يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله فانه يحصل له يقين ينتهي الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الحاصل الأربعة قطعية وكذلك سائر الحاصل يتصور أن يحصل القطع به وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لسانا وأقواما بياناً وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فإذا عرفت التوكل في هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة اتكل بحالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته فانه لا حول ولا قوة إلا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فان الحول عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة فان كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسيب أحد أمرين إما ضعف اليقين بأحدى هذه الحاصل الأربعة وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وإنزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه فان القلب قد ينزعج تبعاً للوهم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين فان من يتناول عسلاً فشيبه بين يديه بالعدرة ربما نثر طبعه وتغذر عليه تناوله ولو كلف العاقل أنه يبيت مع الليث في قبر أو فراش أو يبيت نثر طبعه عن ذلك وإن كان متيقناً بكونه ميتاً وأنه حجاب في الحال وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يغيره الآن ولا يغيره وإن كان قادر عليه كأنها مطردة بأن لا يقرب القلم الذي في يده حية ولا يقرب السنور أسداً وإن كان قادراً عليه ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الليث في فراش أو الليث معه في البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قل وقد يقوى فيصير مرضاحتي يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه فاذا لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام - أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي - فالتمس أن يكون مشاهداً إحياء الليث بعينه ليثبت في خياله فان النفس تتبع الحيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس الطمئنة وذلك لا يكون في البداية أصلاً فكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب اللئلي والذاهب فان اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده وكذا النصراني ولا يقين لهم أصلاً وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين إلا أنهم معرضون عنه فاذا الجبن والجرأة غرأوا ولا ينفع اليقين معها هي أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل كأن ضعف اليقين بالحاصل الأربعة أحد الأسباب وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى وقد قيل مكتوب في التوراة لمعون من تقته إنسان مثله وقد قال عليه السلام «من استعز بالبيد أذله الله تعالى (١)» وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكل فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

وفساده ويكون ذلك عبداً مراداً بالخطوة صفو اليقين ومنع الموقنين وأكسب التشوف إلى ذلك للمقربين ومن أخذ به في طريقهم ومن أخذ في طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التشوف لأن التشوف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والارادة والحظ ومن الله الكريم من هو في مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطاع إلى معرفة اللتين ولا يهتم بتمييز الخواطر ومن الخواطر ما هي رسل الله تعالى إلى العبد كما قال بعضهم لي قلب إن عصيته

(١) حديث من اعتر بالبيد أذله الله العقبلي في الضمفاء وأبو نعم في الحلية من حديث عمر أوردته العقبلي في ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموي . وقال لا يتابع على حديثه وقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال يخالف في روايته .

الدرجة الأولى : ما ذكرناه وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفائته وعنايته كحالها في الثقة بالوكيل . الثانية : وهي أقوى أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفرغ إلى أحد سواها ولا يستمد إلا إياها فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها وإن نابه أمر في غيبها كان أول سابق إلى لسانه يأماه وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فإنها مفرغه فإنه قد وثق بكفالتها وكفائتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتميز الذي له ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طوبل بتفصيل هذه الحصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلا في ذهنه ولو سكن كل ذلك وراء الإدراك فمن كان بالله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتاده عليه كاف به كما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلا حقا فإن الطفل متوكل على أمه والفرق بين هذا وبين الأول أن هذا متوكل وقد نفى في توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته بل إلى التوكل عليه فقط فلا مجال في قلبه لغير التوكل عليه . وأما الأول فيتوكل بالتكليف والسكسب وليس فانيا عن توكله لأن له التفاتا إلى توكله وشورابه وذلك شغل صارف عن ملاحظة التوكل عليه وخدمه وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ما أدناه قال ترك الأمانى قبل وأوسطه قال ترك الاختيار وهو إشارة إلى الدرجة الثانية . وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه . الثالثة : وهي أعلاها أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الليث بين يدي الغامل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغامل الليث وهو الذي قوى يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات وأن كلاً يحدث جبرا فيكون باثنا عن الاطلاع لما يجرى عليه ويفارق الصبي فإن الصبي يفرغ إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويدعو خلفها بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله وإن لم يسألها اللبن فالأم تغامحه وتقيه وهذا التمام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسأل فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق والتمام الثاني لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط . فان قلت فهذه الأحوال هل تصور وجودها . فاعلم أن ذلك ليس بمجال ولكنه عزيز نادر والتمام الثاني والثالث أعزها والأول أقرب إلى الامكان ثم إذا وجد الثالث والثاني فدوامه أبعد منه بل يكاد لا يكون التمام الثالث في دوامه إلا كصفرة الوجه فان انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع واتباضه عارض كما أن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع واتباضه عارض والوجه عبارة عن ابتضاض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تمتحى عن ظاهر البشرة الحرة التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة فان البشرة ستر رقيق تراءى من وراءه حمرة الدم واتباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم وكذا ابتضاض القلب بالسكسية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم وأما التمام الثاني فيشبه صفرة المحموم فإنه قد يدوم يوما ويومين والأول يشبه صفرة مريض استحك مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول . فان قلت فهل يبقى مع العبد تدير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال ؟ فاعلم أن التمام الثالث ينفي التدير رأسا مادامت الحالة باقية بل يكون صاحبها كالمهتوت والتمام الثاني ينفي كل تدير إلا من حيث الفرع إلى الله بالدعاء والابتهاج كتدير الطفل في التعلق بأمه فقط والتمام الأول لا ينفي أصل التدير والاختيار ولكن ينفي بعض التديرات كالنحوك على وكيله في الخصومة فإنه يترك تديره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدير الذي أشار إليه وكيله به أو التدير الذي عرفه من عادته وسنته دون صريح إشارته فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل لا محالة بالتدير للحضور ولا يكون هذا مناقضا لتوكله عليه إذ ليس هو فزعامة

عصبت الله وهذا حال
عبد استقام قلبه
واستقامة القلب
اطمأنينة النفس وفي
طمأنينة النفس بأس
الشیطان لأن النفس
كلما تحركت كدرت
صفو القلب وإذا
تكدر طمع الشيطان
وقرب منه لأن صفاء
القلب محفوف بالتذكر
والرعاية وللذكر نور
بتقيه الشيطان كاتقاء
أحدنا النار . وقد
ورد في الخبر إن
الشیطان جائم على
قلب ابن آدم فإذا
ذكر الله تعالى تولى
وخس وإذا غفل
التقم قلبه فحدثه ومناه
وقال الله تعالى - ومن
يمش عن ذكر

إلى حول نفسه وقوته في إظهار الحجة ولا إلى حول غيره بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له إذ لو لم يكن متوكلاً عليه ولا ممتدداً له في قوله لما حضر قوله وأما للمعلوم من عادته واطراد سنته فهو أن يعلم من عادته أنه لا يحاج الحضم إلا من السجل فقام توكله إن كان متوكلاً عليه أن يكون محولاً على سنته وعادته ووافياً بمقتضاها وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند حاجته فاذن لا يستغنى عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل ولو ترك شيئاً من ذلك كان قصراً في توكله فكيف يكون فعله تصافيه ، نعم بعد أن حضر وفاء بإشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقد ناظرا إلى محاجته فقد انتهى إلى القيام الثاني والثالث في حضوره حتى يبقى كالمجهوت ينتظر لا يفرغ إلى حوله وقوته إذ لم يبق له حول ولا قوة وقد كان فزعاً إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته وقد انتهى نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجرى وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل بل هو على الانقسام وسياق تفصيله في الأعمال فإذا فزع التوكل إلى حوله وقوته في الحضور والإحضار لا يناقض التوكل لأنه يعلم أنه لولا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلاً وتعباً محضاً بلا جدوى فاذن لا يصير مفيداً من حيث إنه حوله وقوته بل من حيث إن الوكيل جعله ممتدداً لمحاجته ومعرفه ذلك بإشارته وسنته فاذن لا حول ولا قوة إلا بالوكيل إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل لأنه ليس خالقاً حوله وقوته بل هو جاعل لهما مفيداً في أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله وإعما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد وهو الذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما مشرطاً لما يخلقهما من بعدهما من الفوائد والمقاصد فاذن لا حول ولا قوة إلا بالله حقاً وصدقاً فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار فيمن يقول لا حول ولا قوة إلا بالله^(١) وذلك قد يستبعد فيقال كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها وهيئات قائماً ذلك جزاء على هذه الشهادة التي ذكرناها في التوحيد ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة لا إله إلا الله وثوابها كنسبة معنى إحداها إلى الأخرى إذ في هذه الكلمة إضافة شيتين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة ، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيتين لتعرف به ثواب لا إله إلا الله بالإضافة إلى هذا وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولين فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات وأكثر الخلق قبدوا بالقتربين وما طرقتوا إلى اللبين وإلى اللبين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «من قال لا إله إلا الله صادقا من قلبه مخلصا وحببت له الجنة^(٢)» وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والإخلاص أراد بالطلق هذا القيد كما أضافه المصنف إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع والمراد به القيد بالعمل الصالح فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب بأصاحبه ولكنه حديث نفس وإعما الصدق والإخلاص وراءها ولا ينصب سرير الملك إلا للقرابين وهم المخلصون ، نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اللبين أيضاً درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنهى إلى الملك أماترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة القرابين السابقين تعرض لسرير الملك فقال - على

الرحمن تقيض له شيطاناً فهو له قرين - وقال الله تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - فبالنقوى وجود خالص الذكر وبها يفتح بابها ولا يزال العبد يتقى حتى يحصى الجوارح من المكروه ثم يحمى من الفضول وما لا يرضيه فتصير أقواله وأفعاله ضرورة ثم تنتقل تنواه إلى باطنه ويظهر الباطن ويقيد عن المكروه ثم من الفضول حتى يتقى حديث النفس قال سهل بن عبد الله أسوأ المعاصي حديث النفس ويرى الإصغاء

(١) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله تقدمت في الدعوات (٢) حديث من قال لا إله إلا الله صادقا مخلصا من قلبه وحببت له الجنة الطبراني من حديث زيد بن أرقم وأبو يعلى من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

سرر موضونة متسكين عليها متقابلين - ولما انتهى إلى أصحاب اليمين ما زاد على ذكر الماء والظل
والفواكه والأشجار والخور العين وكل ذلك من لذات المنظور والشروب والمأكل والنكوح ويتصور
ذلك للبهائم على الدوام وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين
ولو كان لهذه اللذات قدر لها وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة أفترى أن أحوال البهائم
وهي مسية في الرياض متمتعة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات متمتعة بالنزوان والسفاد أعلى
والدواشرف وأجدر بأن تكون عند ذوى السكالم مغبوظة من أحوال الملائكة في سرورهم تقرب
من جوار رب العالمين في أعلى عليين هيات هيات ما أبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون
حماراً أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام وليس
يغنى أن شبه كل شيء منجذب إليه وأن النفس التي نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها
إلى صنعة الكتابة فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالكتاب وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل
لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لا محالة وهؤلاء
هم الذين يقال فيهم - أولئك كالأنعام بل هم أضل - وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس في قوتها طلب
درجة الملائكة فتركها الطاب للعجز، وأما الانسان ففي قوته ذلك والقادر على نيل السكالم أخرى بالذم
وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب السكالم. وإذا كان هذا كلاماً معترضاً فلنرجع إلى المتصور
قد بينا معنى قول لا إله إلا الله ومعنى قول لا حول ولا قوة إلا بالله وأن من ليس قائلاً بهما عن مشاهدة
فلا يتصور منه حال التوكل. فان قلت ليس في قولك لا حول ولا قوة إلا بالله إلا نسبة شيئين إلى الله
فوقال قائل السماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه؟ فأقول لا، لأن الثواب على قدر درجة
الثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة إن جاز
وصفهما بالصغر تجوز أفليست الأمور بعظم الأشخاص بل كل عامى يفهم أن الأرض والسماء ليستا من
جهة آدميين بل هما من خلق الله تعالى فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة
وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يدقق النظر في الرأي والمعقول حتى يشق الشعر بمحمة نظره فهي مهاكة
محطرة ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون إذ أثبتوا لأنفسهم أمراً وهو شرك في التوحيد وإثبات خالق
سوى الله تعالى فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو
الذى يصدق قول لا حول ولا قوة إلا بالله وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد إلا عقبتان. إحداهما: النظر
إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والقيم والمطر وسائر الجمادات. والثانية: النظر إلى اختيار
الحيوانات وهي أعظم العقبتين وأخطرها وبقطعها كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة
أعنى ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها فإذا رجع حال التوكل إلى التبرى من الحول والقوة
والتوكل على الواحد الحق ويتضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى.

بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل

ليبين أن شيئاً منها لا يخرج عماداً ذكرنا ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال فقد قال أبو موسى
الدبلي قلت لأبي يزيد ما التوكل؟ فقال ما تقول أنت قلت إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعي
عن عينك ويسارك ما تحرك لذلك شرك فقال أبو يزيد نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة
يتممون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل فاذكره أبو موسى
فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام الثالث وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم
الذى هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة وأن ما فعله الله تعالى فعله بالواجب فلا يميز بين أهل النار

إلى ما أحدث به النفس
ذنباً فيتقيه ويتقصد
القلب عند هذا الاتقاء
بالذكر اتقاد السكواكب
في كبد السماء وبصير
القلب سماء محفوظة بزينة
كواكب الذكر فاذا
صار كذلك بمسد
الشیطان ومثل هذا
العبد يسدر في حقه
الخواطر الشيطانية
ولماته ويكون له
خواطر النفس ويحتاج
إلى أن يتقها ويميزها
بالعلم لأن منها خواطر
لا يضر إضارها
كطالبات النفس
بحاجاتها وحاجاتها
تنقسم إلى الحقوق
والحظوظ ويتعين
التمييز عند ذلك وإتمام
النفس بمطالبات

وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة وهذا أغمض أنواع العلم ووراه سر القدر وأبو يزيد قد استكام إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحياة شرطاً في المقام الأول من التوكل فقد احتراز أبو بكر رضي الله عنه في الغار إذ سدت منافذ الحيات (١) إلا أن يقال فضل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره أو يقال إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لافي حق نفسه وإنما يزول التوكل بتحريك سره وتغييره لأمر يرجع إلى نفسه وللنظر في هذا مجال ولكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل فإن حركة السر من الحيات هو الخوف وحق التوكل أن يخاف مسلط الحيات إذ لا حول للحيات ولا قوة لها إلا بالله فإن احتراز لم يكن اتسكاله على تديره وحوله وقوته في الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير . وسئل ذو النون الصري عن التوكل فقال خلع الأرباب وقطع الأسباب فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه فقيل له زدنا فقال إلقاء النفس في البودية وإخراجها من الربوبية وهذا إشارة إلى التبري من الحول والقوة فقط . وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال إن كان لك عشرة آلاف درهم عليك دائنق دين لم تأمن أن تموت ويبق دينك في عنقك ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تأمن من الله تعالى أن يقضيها عنك وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسمعة القدرة وأن في القدورات أسباباً خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال التعلق بالله تعالى في كل حال فقال السائل زدني فقال تترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو التولى لذلك فالأول علم المقامات الثلاث والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وسلم إذ قال له جبريل عليه السلام ألمك حاجة فقال أما إليك فلا، إذ كان سؤاله سبباً يفضي إلى سبب وهو حفظ جبريل له فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك فيكون هو التولى لذلك وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم يرمعه غيره وهو حال عزيز في نفسه ودوامه إن وجد أهدمه وأعز . وقال أبو سعيد الخزاز التوكل اضطراب بلا مسكون وسكون بلا اضطراب ولعله يشير إلى المقام الثاني فسكونه بلا اضطراب إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وتفتته به واضطراب بلا سكون إشارة إلى فزعه إليه وإتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها . وقال أبو علي الدقاق التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالتوكل يسكن إلى وعده والسلام يكفي بملءه وصاحب التفويض يرضى بحكمه وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه فإن العلم هو الأصل والوعد يتبعه والحكم يتبع الوعد ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك وللشيوخ في التوكل أقاويل شتى ما ذكرناه فلان طولها فإن الكشف أنفع من الرواية والقل فهذا ملحق بحال التوكل والله الموفق برحمته وطفه .

بيان أعمال التوكلين

اعلم أن العلم يورث الحال والحال يثمر الأعمال وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللاحم على الوضوء وهذا ظن الجهال فإن ذلك حرام في الشرع والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين بل تكشف الغطاء عنه وتقول إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسمعه بملءه إلى مقاصده وسمعي العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالسكب أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع أو لإزالة ضار قد نزل به

الحظوظ قال الله تعالى
يا أيها الذين آمنوا
إن جاءكم فاسق بنبأ
فتبينوا - أي فتبينوا
وسبب نزول الآية
الوليد بن عقبة حيث
بعثه رسول الله صلى
الله عليه وسلم إلى بني
المصطلق فكذب عليهم
ونسبهم إلى الكفر
والعصيان حتى هم
رسول الله صلى الله
عليه وسلم بقتلهم ثم
بعث خاله إليهم فسمع
أذان المغرب والمشاء
ورأى ما يدل على
كذب الوليد بن عقبة
فأنزل الله تعالى الآية
في ذلك فظهر الآية
وسبب نزولها ظاهر
وصار ذلك تنبيهاً من
الله عباده على التثبت

(١) حديث إن أبا بكر سدت منافذ الحيات في الغار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم تقدم .

كالنفاذ من الرض فقصود حركات العبد لاتعدو هذه الصنون الأربعة وهو جاب النافع أو حفظه أو دفع الضار أو قطعه فاندكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع .

[الفن الأول : في جلب النافع] فتقول فيه : الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات مقطوع به ومظنون ظنا يوثق به وموهوم وهما لاشق النفس به ثقة تامة ولانطمئن إليه . الدرجة الأولى : المقطوع به ، وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت السببيات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمد اليد إليه وتقول أنا متوكل ، وشروط التوكل ترك السعي ومد اليد إليه سعي وحركة وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالي الخنك على أسافله فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء فانك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شيعا دون الحيز أو يخلق في الحيز حركة إليك أو يسخر ملكا ليضغه لك ويوصله إلى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى وكذلك لو لم تزرع الأرض وطعمت في أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر أو تله زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم . أما العلم . فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك . وأما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى لاهي اليد والطعام وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تنجح في الحال وتفلسج ، وكيف تعمل على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك ، وكيف تعمل على حضور الطعام ، وربما يسلب الله تعالى من يظلمك عليه أو يبعث حية تزحجك عن مكانك وتفرق بينك وبين طعامك . وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتقول فإذا كان هذا حاله وعلمه فليعد اليد فانه متوكل . الدرجة الثانية : الأسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أن السببيات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرقتها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد فهذا ليس شرطا في التوكل بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لاهي الزاد كما سبق ولكن فعل ذلك جائز . وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص فان قلت : فهذا سعي في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة . فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين : أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى . والثاني أن يكون بحيث يقوى على التقوى بالحشيش وما يتفق من الأشياء الحسية فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينهس إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجترى به فيجبا به مجاهدا نفسه . والمجاهدة عماد التوكل وعلى هذا كان يعمل الخواص ونظراؤه من التوكلين . والدليل عليه أن الخواص كان لاتفارقه الإبرة والقراض والحبل والركرة ويقول . هذا لا يقدح في التوكل . وسببه أنه علم أن البوادي لا يكون للآدم فيها على وجه الأرض وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البر بغير دلو ولا حبل ولا يظلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يظلب وجود الحشيش والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه في كل يوم أو يومين مرة فان السافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام

في الأمور قال سهل في هذه الآية الفاسق الكذاب والكاذب صفة النفس لأنها تسمى أشياء وتسل على أشياء غير حقاقتها فتعين الثبوت عند خاطرها وإقامتها فيجعل العبد خاطر النفس نبأ يوجب الثبوت ولا يستفزه الطبع ولا يستعجله الهوى فقد قال بعضهم أدنى الأدب أن تقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة . ومن الأدب عند الاشتباه إنزال الخاطر بحرك النفس وخالفها وبارئها وفاطرها وإظهار الفقر والغفلة إليه والاعتراف

وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتكشف عورته ولا يوجد المقرض والابرة في البوادي غالباً عند كل صلاة ولا يقوم مقامهما في الحياطة والتطعم شيء مما يوجد في البوادي فكل ما في معنى هذه الأربعة أيضا يلتحق بالدرجة الثانية لأنه مظنون ظنا ليس مقطوعاً به لأنه محتمل أن لا يتخرق الثوب أو يعطيه إنسان ثوباً أو يهدى على رأس البئر من يسميه ولا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوفاً إلى فيه فبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الأول ولهذا هو لوانحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لأماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلاً فهو آثم به ساع في هلاك نفسه كما روى أن زاهداً من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعا وقال لأسأل أحداً شيئاً حتى يأتيني ربي رزقي فقدم سبعا فكاد يموت ولم يأتيه رزق فقال يارب إن أحييتني فأتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك فأوحى الله جل ذكره إليه وعزتي لأرزقك حتى تدخل الأمصار وتقع بين الناس فدخل الصر وقعد فجاءه هذا بطعام وهذا شراب فأكل وشرب وأوحى في نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا أما علمت أني أن أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلي من أن أرزقه بيد قدرتي فإذا التبتاعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلاً في الوكيل بالخصومة من قبل ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب. فان قلت فما قولك في القعود في البلد بغير كسب أهو حرام أو مباح أو مندوب. فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأن صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكاً نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكاً نفسه حتى يكون فعله حراماً بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه والصبر يمكن إلى أن يتفق ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام وإن فتع باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له ولكن ليس فعله حراماً إلا أن يشرف على الموت ففعل ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه رزقه بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكل وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه فان الرزق يأتيه لامحالة وعند هذا يصبح ما قاله بعض العلماء وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه كما لو هرب من اللوت لأدركه وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب وكان عاصياً ولقال له يا جاهل كيف أخلقك ولا أرزقك ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل فانهم أجمعوا على أن لا رزق ولا ميت إلا الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماساً وتروح بطاناً ولزالت بدعائكم الجبال»^(١) وقال عيسى عليه السلام : انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوماً بيوم . فان قلتم نحن أكبر بطوناً فانظروا إلى الأنعام كيف قبض الله تعالى لها هذا الحق للرزق . وقال أبو يعقوب السوسى التوكلون تجرى أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم العبيد كلهم في رزق الله تعالى لكن بعضهم يأكل

بالجهل وطلب المعرفة والمعونة منه فإنه إذا أتى بهذا الأدب يناث ويمن ويتبين له هل الخاطر لطلب حظاً أو طلب حق فان كان للحق أمضاء وإن كان للحظ نفاذ وهذا التوقف إذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم لان الافتقار إلى باطن العلم عند فقد الدليل في ظاهر العلم ثم من الناس من لا يسهه في صحته إلا الوقوف على الحق دون الحظ وإن أمضى خاطر الحظ يصير ذلك ذنب حاله فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب ومن الناس من يدخل في تناول الحظ ويمضي خاطره

(١) حديث لو توكلتم على الله حق توكله الحديث وزاد في آخره ولزالت بدعائكم الجبال وقد تقدمنا قريباً دون هذه الزيادة فرواها الإمام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ ابن جبل باسناد فيه لين لو عرقتهم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب الكبي مرسلاً دون قوله لمشيتم على البحور وقال هذا منقطع

بذل كالسؤال وبعضهم يتعب وانتظار كالتجار وبعضهم بامتهان كالصانع وبعضهم بمنزلة كالمسألة يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة . الدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التي يتوكل بها ، فإضاؤها إلى للسبب من غير ثقة ظاهرة كالذي يستعصى في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه وذلك يخرج بالسكية عن درجات التوكل كلها وهو الذي فيه الناس كلهم أغنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والانتكال على الأسباب فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل وهذا مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكي بالاضافة إلى إزالة الضار فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف التوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئا بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب وأمثال هذه الأسباب التي يوثق بها في السبب كما يكثر فلا يمكن إحصاؤها . وقال سهل في التوكل إنه ترك التدبير وقال إن الله خلق الخلق ولم يعجبهم عن نفسه وإنما حجابهم بتدبيرهم ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهي التي تحتاج إلى تدبير دون الأسباب الجلية فاذن قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج عن التوكل والذي يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الانتكال على مسبب الأسباب فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل . وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا والمتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات : الأول : مقام الخواص ونظرائه وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعا وما فوقه أو تيسير حشيش له أو قوت أو تثبيتته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك فإن الذي يحمل الزاد قد يفقد الزاد أو يضل بعيره ويموت جوعا فذلك يمكن مع الزاد كما أنه يمكن مع فقده . المقام الثاني : أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأصاير وهذا أضف من الأول ولكنه أيضا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة معوله على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ولكنه بالقعود في الأمصار متعرض لأسباب الرزق فإن ذلك من الأسباب الجلية إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى الذي يسحره سكان البلد لا يصل رزقه إليه لا إلى مكان البلد إذ تصور أن يفعل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم . المقام الثالث : أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذي ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب وهذا السمر لا يخرج عن مقامات التوكل إذ لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة بل يكون نظره إلى الكفيل الحق يحفظ جميع ذلك وتيسير أمواجه له بل يرى كسبه وبضاعته وكنابته بالاضافة إلى قدرته تعالى كما يرى القلم في يد الملك الوقع فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرك وإلى ماذا يميل وبم يحكم ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبا لبياله أو لغيره على الساكن فهو يبيدنه مكتسب وقلبه عنه منقطع فحال هذا أشرف من حال القاعد في بيته . والدليل على أن الكسب لا ينافي حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط وانضاف إليه الحال والمعرفة كما سبق أن الصديق رضي الله عنه لما بوع بالخلافة أصبح أخذ الأتواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادي حتى كرهه المسلمون وقالوا كيف تفعل ذلك وقد أمنت الخلافة النبوة فقال لا تشغلوني عن عيالي فاني إن أضعتهم كنت لمساوأم أضيع حتى فرضوا له قوضاً هل بيت من المسلمين فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطيب قلوبهم واستغرق الوقت بمصالح المسلمين أولى ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق

بمزيد علم لديه من الله وهو علم السعة لصد مأذون له في السعة عالم بالأذن فيمضى خاطر الحظ والمراد بذلك على بصيرة من أمره يحسن به ذلك ويليق به عالم بزيادته وتقصانه عالم بحاله يحكم لسلم الحال وعلم القيام لا يقاس على حاله ولا يدخل فيه بالتقليد لأنه أمر خاص بعبد خاص وإذا كان شأن العبد تميز خواطر النفس في مقام تخلصه من للمات الشيطان تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك وتصير الخواطر الأربعة في حقه ثلاثا ويسقط خاطر الشيطان إلا

في مقام التوكل فمن أولى بهذا المقام منه فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعي بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره فمن دخل السوق ودرمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا، نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد . وقال أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد رحمه الله عليهما وكان من التوكلين : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارتق السوق كنت أكتسب في كل يوم دينارا ولا أبيت منه دافعا ولا أستريح منه إلى قبراط أدخل به الحمام بل أخرجه كله قبل الليل وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرة وكان يقول أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي . واعلم أن الجلوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل فإن لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف ولكن يقوى بالحال والعلم كتوكل المكتسب وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل إليهم فهذا أقوى في توكلهم لكنه بعد اشتهار القوم بذلك قد صار لهم سوقا فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلا إلا بشروط كثيرة كما سبق . فان قلت لما الأفضل أن يعمدني بيته أو يخرج ويكتسب ؟ . فاعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئا بل يكون قوى القلب في الصبر والانسكال على الله تعالى فالقعود له أولى وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى لأن استشرف القلب إلى الناس سؤال بالقلب وتركه أهم من ترك الكسب وما كان التوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم . كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزي أن يعطى بعض الفقراء شيئا فضلا عما كان استأجره عليه فرده فلما ولي قال له أحمد الحقه وأعطه فانه يقبل فالحقه وأعطاه فأخذه فسأل أحمد عن ذلك فقال كان قد استشرفت نفسه فرد فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ . وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئا . وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره رأيت الحضرة ورضى بصحبي ولكني فارتته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصا في توكلتي فاذن للكاتب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا . فان قلت لما علامة عدم اتكاله على البضاعة والسكافية . فأقول علامته أنه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارتها أو توفى أمر من أموره كان راضيا به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا فان من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقدته ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه وكان بشر يعمل المغازل فتركها وذلك لأن البعادي كاتبه قال بلغني أنك استمنت على رزقك بالمغازل أرايت إن أخذ الله سمكك وبصرك الرزق على من ؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها وقيل تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها وقيل فعل ذلك لما مات عياله كما كان لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها فلما مات عياله فرقها . فان قلت فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها وهو يعلم أن الكسب هير بضاعة لا يمكن . فأقول بأن يعلم أن الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة وأن الذين كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة وأن يوطن نفسه على

نادرا لضيق مكانه من النفس لأن الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس واتساع النفس باتباع الهوى والإخلاق إلى الارض ومن ضابقت النفس على التميز بين الحق والحظ ضاقت نفسه ومقط محل الشيطان إلا نادرا لدخول الابتلاء عليه ثم من المرادين التملقين بمقام المقرئين من إذا صار قلبه سماء مزينا بزينة كوكب الذكر بصير قلبه سماويا يترقى ويخرج بباطنه ومعناه وحقيقته في طبقات السموات وكلما ترقى تتضاءل النفس المطمئنة وتبعد عنه خواطرها حتى يجاوز السموات

أن الله لا يفعل به إلا ما فيه صلاحه فان أهلك بضاعته فهو خير له فلعنه لو تركه كان سببا لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به وغيابه أن يموت جوعا فينبغي أن يعتقد أن الموت جوعا خيرا له في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته فاذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها ففي الخبر «إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو ضله لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كشيئا حزيننا يتطير بحاربه وابن عمه من سبقني من دهاني وماهي إلا رحمة رحمه الله بها (١)» ولذلك قال عمر رضي الله عنه لأبأبي أصبحت غنيا أوقيرا فاني لأدري أيهما خير لي ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري لي من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك فاني ما شمت منه راحة هذا كلامه مع علا قدره ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال ما أدركته ولعله أراد إدراك أقصاه وما لم يكمل الايمان بأن لافاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن كل ما يقدره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتحصنه العبد لم يكمل حال التوكل فبناء التوكل على قوة الايمان بهذه الأمور كما سبق وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تتبني على أصولها من الايمان . وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين ولذلك قال سهل من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد . فان قلت فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية . فأقول نعم هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان وحسن الظن تلقين الله تعالى قال الله تعالى - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا - فان الانسان بطبعه مشغوف بسعاع تخويف الشيطان ولذلك قيل الشفيق بسوء الظن مولع وإذا انضم إليه الجبن وضغف القلب ومشاهدة المتكلمين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضا تبطل التوكل فقد حكى عن عابد أنه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم فقال له الامام لو اكتب لك ان كان أفضل لك فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا فقال في الرابعة يهودى في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين فقال إن كان صادقا في ضمانه فمكروك في المسجد خير لك فقال يا هذا لو لم تكن إماما تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيرا لك إذ فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى بالرزق . وقال إمام المسجد لبعض المسلمين من أين تأكل؟ قال يا شيخ اصبر حتى أعيذ الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك . وينفع في حسن الظن بمجى الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق إلى صاحبه وفيها عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعا كما روى عن حذيفة المرعشي وقد كان ختم ابراهيم بن آدم قميل له ما أعجب ما رأيت منه فقال بقينا في طريق مكة أياما لم نجد طعاما ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب فنظر إلى ابراهيم وقال يا حذيفة أرى بك الجوع فقلت هو ما رأى الشيخ فقال على بدواة وقرطاس فحُثت به إليه فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليه بكل حال والمشار إليه بكل معنى وكتب شعرا :

(١) حديث إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو ضله لكان فيه هلاكه فينظر الله إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جدا نحوه إلا أنه قال إن العبد ليشراف على حاجة من حاجات الدنيا الحديث بنحوه .

بمروج باطنه كما كان ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بظاهره وقلبه فاذا استكمل العروج تنقطع عنه خواطر النفس لتستره بأنوار القرب وبعد النفس عنه وعند ذلك تنقطع عنه خواطر الحق أيضا لأن الخاطر رسول والرسالة إلى من بعد وهذا قريب وهذا الذي وصفناه نازل ينزل به ولا يدرى بل يعود في هبوطه إلى منازل مطالبات النفس وخواطره فتعود إليه خواطر الحق وخواطر الملك وذلك أن الخواطر تستدعي وجودا . وما أشرنا إليه حال الفناء ولا خاطر فيه وخواطر

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عارى
 هى ستة وأنا الضمين لصفها فكمن الضمين لصفها يابارى
 مدحى لتبرك لهب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إلى الرقعة فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك فخرجت فأول من لقينى كان رجلا على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فلما وقف عليها بكى وقال ما فعل صاحب هذه الرقعة قفلت هو في المسجد الفلانى فدفعت إلى صرة فيها ستائة دينار ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن ركب البغلة فقال هذا نصرانى فحشت إلى ابراهيم وأخبرته بالقصة فقال لا تمسها فانه يجيى الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصرانى وأكب على رأس ابراهيم يقبله وأسلم . وقال أبو يعقوب الأقطع البصرى : جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا فحدثنى نفسى بالخروج فخرجت إلى الوادى لملى أجد شيئا يسكن ضعفى فرأيت ساجمة مطروحة فأخذتها فوجدت فى قلبى منها وحشة وكان قائلا يقول لى جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت بها ودخات المسجد وقعدت فاذا أنا برجل أعجمى قد أقبل حتى جالس بين يدى ووضع قطرة وقال هذه لك فقلت كيف خصصتى بها قال اعلم أنا كنا فى البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على العرق فندرت إن خلصنى الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصرى من المجاورين وأنت أول من لقيته فقلت اقتحمها ففتحها فاذا فيها صيد مصرى ولوز مقشور وسكر كذاب قبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقى إلى أصحابك هدية منى إليكم وقد قبلتها ثم قلت فى نفسى رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادى : وقال عمشاد الدينوى : كان على دين فاشتغل قلبى بسببه فرأيت فى النوم كأن قائلا يقول يا غيلى أخذت علينا هذا القدار من الدين خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا نصابا ولا غيرها . وحكى عن بنان الجمال قال : كنت فى طريق مكة أجيى من مصر ومعى زاد فجاتنى امرأة وقالت لى يا بنان أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتوم أنه لا يرزقك قال فرميت بزادى ثم أتى على ثلاث لم آكل فوجدت خالخالا فى الطريق فقلت فى نفسى أحمله حتى يجيى صاحبه فرجما يعطينى شيئا فأرده عليه فاذا أنا بتلك المرأة فقالت لى أنت تاجر تقول عسى يجيى صاحبه فأخذ منه شيئا ثم رمته لى شيئا من الدراهم وقالت أفتقها فاكتفيت بها إلى قريب من مكة . وحكى أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له منها وقالوا هو ذا يجيى النفير فنشترى ما يوافق فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا إنها تصلح له فقالوا لصاحبها بكم هذه فقال إنها ليست للبيع فألحوا عليه فقال إنها لبنان الجمال أهدتها إليه امرأة من سمرقند فحملت إلى بنان وذكرت له القصة ، وقيل كان فى الزمان الأول رجل فى سفر ومعهم قرص فقال إن أكلته مت فوكل الله عز وجل به مسلكا وقال إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقي القرص عنده . وقال أبو سعيد الحراز : دخلت البادية بغير زاد فأصابتنى فاقة فرأيت الرحلة من بعيد فسرت بأن وصلت ثم فكرت فى نفسى أتى سكنت واتسكنت على غيره وآليت أن لأدخل الرحلة إلا أن أحمل إليها فحمرت لنفسى فى الرمل حفرة وواريت جسدى فيها إلى صدرى فسمعت صوتا فى نصف الليل عاليا بأهل الرحلة إن لله تعالى وليا حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه بقاء جماعة فأخرجونى وحملونى إلى القرية . وروى أن رجلا لازم باب عمر رضى الله عنه فاذا هو بقاتل يقول : يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى اذهب فتعلم القرآن فانه سيعينك عن باب عمر فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر فاذا هو قد اعتزل

الحق اتقى لمكان
 القرب و خاطر النفس
 بعد عنه بعد النفس
 و خاطر الملك تخلف عنه
 كتخلف جبريل فى ليلة
 للعراج عن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم
 حيث قال . لودنوت
 أعملة لا حترقت . قال
 محمد بن على الترمذى
 المحدث والكلم إذا
 تخمق فى درجته لم يخافا
 من حديث النفس
 فكما أن النبوة
 محفوظة من إلقاء
 الشيطان كذلك محل
 الكلمة والحادثة
 محفوظ من إلقاء النفس
 وفتنتها وعروس بالحق
 والسكينة لأن السكينة
 حجاب للكلم والمحدث
 مع نفسه . وصحمت

واشتغل بالعبادة فجاءه عمر فقال له إن قد اشتقت إليك لما الذي شغلك عنى فقال إنى قرأت القرآن فأغنانى عن عمر وآل عمر فقال عمر رحمك الله الذى وجدت فيه فقال وجدت فيه وفى السماء رزقكم وماتوعدون - فقلت رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض فبكى عمر وقال صدقت فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس إليه . وقال أبو حمزة الخراسانى حجبت سنة من السنين فبينما أنا مشى فى الطريق إذ وقعت فى برى فإزعجتى نفسى أن أستغيث فقلت لا والله لا أستغيث فإستتمت هذا الحاطر حتى مر برأس البرجرجلان فقال أحدهما للآخر تعال حتى نسد رأس هذا البرك لا يقع فيه أحد فأتوا بقصب وبارية وطموار رأس البر فهممت أن أصبح قفلت فى نفسى إلى من أصبح هو أقرب منهما وسكنت فينا أنا بعد ساعة إذ أنا بشىء جاء وكشف عن رأس البر وأدلى رجله وكأنه يقول تعلق بى فى مهممة لك كنت أعرف ذلك فتعلقت به فأخرجنى فاذا هو سبع فرس وهتف بى هاتف بأبى حمزة أليس هذا أحسن نجيبناك من التالف بالتلف فشيت وأنا أقول:

نهانى حياى منك أن أكشف الهوى وأغنىتنى بالفهم منك عن الكشف
تلطفت فى أمرى فأبدت شاهدى إلى غائبى واللفظ يدرك باللفظ
ترأيت لى بالغيث حتى صكأتما تبشرنى بالغيث أنك فى الكف
أراك وبى من هيتى لك وحشة فتؤاسى باللفظ منك وبالعطف
وتحىي محبا أنت فى الحب حفته وإذا عجب كون الحياة مع الحنف

وأمثال هذه الوقائع مما يكبر وإذا قوى الايمان به وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر وقوى الايمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه فى أسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه، تم التوكل بهذه الأحوال والشاهدات وإلا فلا يتم أصلا .

بيان توكل للعيل

اعلم أن من له عيال فخكه يفارق المنفرد لأن المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين : أحدهما قدرته على الجوع أسبوعا من غير استئراف وضيق نفس . والآخر أبواب من الايمان ذكرناها من جعلتها أن يطيب نفسا بالموت إن لم يأتيه رزقه علما بأن رزقه الموت والجوع وهو وإن كان نقصا فى الدنيا فهو زيادة فى الآخرة فيرى أنه سبق إليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة وأن هذا هو المرض الذى به يموت ويكون راضيا بذلك وأنه كذا قضى وقدر له فهذا يتم التوكل للمنفرد ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ولا يمكن أن يقرر عندهم الايمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق مضبوط عليه فى نفسه إن اتفق ذلك نادرا وكذا سائر أبواب الايمان فاذن لا يمكنه فى حقه إلا توكل المكتسب وهو اللقمان الثالث كتوكل أبى بكر الصديق رضى الله عنه إذ خرج للكسب فأما دخول البوادي وترك العيال توكلوا فى حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلوا فى حقهم فهذا حرام وقد يفضى إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا بهم بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة فى الآخرة فله أن يتوكل فى حقهم ونفسه أيضا عيال عنده ولا يجوز له أن يضعها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدة فإن كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل . ولذلك روى أن أبى تراب النخسى نظر إلى صوفى مد يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام فقال له لا يصح لك التصوف أزم السوق أى لا تصوف إلا مع التوكل ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام . وقال أبو طى الروذبارى إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فأزموه السوق ومرره بالمحل والكسب فاذن بدنه عياله وتوكله فيها يضر بدنه كتوكله فى عياله وإنما يفارقهم فى شىء واحد وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع

الشيخ أبى محمد بن
عبد الله البصرى
بالبصرة يقول الحواطر
أربعة : خاطر من
النفس و خاطر من
الحق و خاطر من
الشیطان و خاطر من
الملك فأما الذى من
النفس فيحسن به من
أرض القلب والذى
من الحق من فوق
القلب والذى من الملك
عن بين القلب والذى
من الشيطان عن يسار
القلب والذى ذكره
إنما يصح لعبد أذاب
نفسه بالتقوى والزهد
وتصفى وجوده واستقام
ظاهره وباطنه
فيكون قلبه كالمرآة
المجولة لا يأتيه
الشیطان من ناحية

وليس له ذلك في عياله وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادر أو ملازمة البلاد والأمصار أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي وكل ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدوا تلك أسبابا وذلك لضعف إيمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقاً أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيراً لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوز رزقه أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزاً عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأُم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتكفل به شاءت أم أبت اضطراباً من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ثم لما لم يكن له من يرضع به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى الضغ ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدى الأم عند انفصاله على حسب حاجته أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم فإذا صار بحيث يواجه الغذاء الكثيف أثبت له أسناناً قواطع وطواحين لأجل المضغ فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة ، فحينئذ بعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشته يلوغ به زادت فإنه لم يكن قادراً على الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته ، نعم كان المشفق عليه شخصاً واحداً وهي الأم أو الأب وكانت شفقة مفردة جداً فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرة أو مرتين وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرفق والرحمة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته فقد كان الشفق عليه واحداً والآن المشفق عليه ألف وزيادة وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فأرأوه محتاجاً ولو رأوه يتيماً لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه فمارؤى إلى الآن في سنى الحصب يتيم قد مات جوعاً مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان للشفق واحداً والمشفق الآن ألف ، نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض فكيف من يتيم قد يسر الله تعالى له حالاً هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين وبترك التمس والاعتصام على قدر الضرورة ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

جري قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسمى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

فإن قلت الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزاً بصباه وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ويقولون هو مثنا فليجهد لنفسه . فأقول إن كان هذا القادر بطالاً فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فإن التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى فما للبطال والتوكل وإن كان مشتغلاً بالله ملازماً لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالتاس لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكفلونه ذلك بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه

إلا ويصبره فإذا السود
القاب وعلاء الرين
لا يصبر الشيطان .
روى عن أبي هريرة
رضي الله عنه عن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم « إن العبد
إذا أذنب نكث في
قلبه نكته سوداء
فإن هو نزع واستغفر
وتاب صقل وإن عاد
زيد فيه حتى تملو قلبه
قال الله تعالى - كلابل
ران على قلوبهم -
ما كانوا يكسبون - »
سمعت بعض العارفين
يقول كلاماً دقيقاً
كوشف به فقال الحديث
في باطن الانسان
والخيال الذي تراه
لباطنه وتخييل بين
القلب وصفاء الذكر

في قلوب الناس حتى يحملون إليه فوق كفايته وإنما عليه أن لا يفتلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس وما رؤى إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار هات جوعا ولا يرى قط بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقد ر عليه فان من كان لله تعالى كان الله عز وجل له ومن اشتغل بالله عز وجل أتى الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها فقد در الله تعالى الملك والملكوت تديرا كافيا لأهل الملك والملكوت فمن شاهد هذا التديير وثق بالمدير واشتغل به وآمن ونظر إلى مدير الأسباب لا إلى الأسباب ، نعم مادي به تديير يصل إلى المشتغل به الحلو والطيور السمان والثياب الرقيقة والحول النفيسة على الدوام لا محالة وقد يقع ذلك أيضا في بعض الأحوال لكن دبره تديرا يصل إلى كل مشغل بعبادة الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناولها لهامالة والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التتم على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة وليس ذلك من طريق الآخرة وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب وهو في الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل نادرا وفي النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب فأثر الاضطراب ضعيف عند من انفتحت بصيرته فذلك لا يطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدير الملك والملكوت تديرا لا يجاوز عبدا من عباده رزقه وإن سكن إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله في حق المضطرب فإذا انكشفت هذه الأمور وكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس أمم ما قاله الحسن البصري رحمه الله إذ قال وددت أن أهل البصرة في عيالي وأن حبة بدينار . وقال وهيب بن الورد لو كانت السماء نحاسا والأرض رصاصا واهتمت برزقي لظننت أني مشرك فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم في نفسه ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل فإياك أن تجمع بين الإفلاس من الإفلاس عن وجود المقام ذوقا والإفلاس عن الايمان به علماء ، فاذن عليك بالقناعة بالنزر القليل والرضا بالقوت فانه يأتيك لامحالة وإن فررت منه وعند ذلك على الله أن يعث إليك رزقك على يدي من لا يحتسب فان اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى - ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب - الآية ، إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذا الذ الأطعمة لما ضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأن إلى ضمانه فان الذي أحاط به تديير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظنر للحاق بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى إليها وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه في السماء قال الله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وأسرار السماء لا يطاع عليها ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال ماذا تطلبون ؟ قالوا نطلب الرزق فقال إن علمت أي موضع هو فاطلبوه قالوا نسأل الله قال إن علمت أنه ينسأكم فذكروه فقالوا ندخل البيت وتوكل ونظر ما يكون فقال التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة ؟ قال ترك الحيلة . وقال أحمد بن عيسى الحراز كنت في البادية فثاني جوع شديد فقلتني نفسي أن أسأل الله تعالى طعاما فقلت ليس هذا من أفعال التوكلين فطالبتني أن أسأل الله صبرا فلما هممت بذلك سمعت هاتفاهتف بى ويقول :

ويزعم أنه منا قريب وأنا لانضيق من أمانا

ويسألنا على الإلتار جهدا حمانا لآراء ولايرانا

قد فهمت أن من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يصف بالجبن باطنه وقوى إيمانه بتديير الله تعالى كان مطمئن النفس أبدا واتقا باقه عز وجل فان أسوأ حاله أن يموت ولا بدأن بأني الموت كما يأتي من

هو من القلب وليس هو من النفس وهذا بخلاف ما تقرر فسأته عن ذلك فذكر أن بين القلب والنفس منافاة ومعادنات وتألفا وتوددا وكلا انطلقت النفس في شئ بهواها من القول والفعل تأثر القلب بذلك وتكدر فإذا عاد الصدم من مواطن مطالبات النفس وأقبل على ذكره ومحل مناجاته وخدمته لله تعالى أقبل القلب بالمعاتب للنفس وذكر النفس شيئا من فعلها وقولها كاللأم للنفس والمعاتب لها على ذلك فإذا كان الحاضر أول الفعل

ليس مطمئنا فاذن تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب والذى ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التي دبرها صادق فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما برطيك من الأرزاق الصيبة التي لم تكن في ظنك وحسابك ولا تكن في توكلك منتظرا للأسباب بل لسبب الأسباب كالاتيكون منتظرا لقم السكاتب بل لقلب السكاتب فانه أصل حركة القلم والمحرك الأول واحد فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه وهذا شرط توكل من يخوض البوادي بلا زاد أو قعد في الأمصار وهو خامل وأما الذي له ذكر بالعبادة والعم فاذن قنع في اليوم واليلة بالطعام حمرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام بل يأتيه أضافه فتركة التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور فان اشتغاره بسبب ظاهره يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الحامل مع الاكتساب فالاهتمام بالرزق فيسبح بذوى الدين وهو بالعلماء أتبع لأن شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا مهملين إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن فان الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرغ لله عز وجل وإعانة للمعطي على نيل الثواب ومن نظر إلى مجاري سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيمًا عن الأحقق الرزوق والمائل المحروم فقال أراد الصانع أن يدل على نفسه إذ لو رزق كل عاقل وحررم كل أحقق لظن أن العقل رزق صاحبه فلما رأوا خلافه علموا أن الرزاق غيرهم ولأنه بالأسباب الظاهرة لهم ، قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلكن إذن من جهلن البهائم

(بيان أحوال التوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال)

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفاق ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام فأخرج إليهم غلمانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يطوا بعضهم رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفا رغيفا ويحتمدوا في أن لا ينفلوا عن واحد منهم وأمر ناديا حتى نادى فيهم أن اسكنوا ولا تتعلقوا بفلان إذا خرجوا إليكم بل ينبغي أن يطمئن كل واحد منكم في موضعه فان الغلمان مسخرون وهم مأثورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم فمن تعلق بالفلان وآذاهم وأخذ رغيفين فاذا فتع باب اليدان وخرج أتبعته بفلان يكون موكلا به إلى أن أتقدم لعقوبته في مياد معلوم عندي ولكن أخفيه ومن لم يؤذ الغلمان وقع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فأتى أخضه بحلقة سنية في اليعاد المذكور لعقوبة الآخر ومن ثبت في مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا حلقة له ومن أخطأ غلمانا فما أوصلوا إليه شيئا فبات اليلة جائعا غير متسخط للغلمان ولا قنلايته أوصل إلى رغيفا فأتى غدا أستوزره وأفوض ما سكي إليه فاتسم السؤال إلى أربعة أقسام: قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يفتتوا إلى العقوبة الوعودة وقالوا من اليوم إلى غد فرج ونحن الآن جائعون فبادروا إلى الغلمان فأذوهم وأخذوا الرغيفين فسبقت العقوبة إليهم في اليعاد المذكور فقدموا ولم ينفعهم الندم ، وقسم تركوا التعلق بالفلان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين فطلبه الجوع فسدوا من العقوبة وما فازوا بالحلقة وقسم قالوا إنا نجلس بمراى من الغلمان حتى لا يخطئونا ولكن تأخذ إذ أعطونا رغيفا واحدا ونقع به فلعلنا نوز بالحلقة ففازوا بالحلقة وقسم رابع اختلفوا في زوايا اليدان وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان وقالوا إن ابهونا وأعطونا قنعا برغيف واحد وإن

ومفتحه لمرغه من
أم شأن العبد لأن
الأضال من الخواطر
تنشأ حتى ذهب بعض
العلماء إلى أن العلم
للفترض طلبه بقول
رسول الله صلى الله
عليه وسلم « طلب
العلم فريضة على
كل مسلم » هو علم
الخواطر قال لأنها أول
الفعل وبفسادها فساد
الفعل وهذا للمعنى
لا يتوجه لأن رسول الله
صلى الله عليه وسلم
أوجب ذلك على كل
مسلم وليس كل المسلمين
عندهم من القريحة
والعرفة ما يعرفون به
ذلك ولكن يعلم
الطالب أن الخواطر
عبارة البذر فنهامها هو

أخطأونا قاسينا شدة الجوع الليلة فلمانا تقوى على ترك التسخط فنال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك فما تفهم ذلك إذ اتبعهم العلمان في كل زاوية وأعطوا كل واحد رغبيا واحدا وجرى مثل ذلك أياما حتى اتفق على الدور أن اختفى ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار العلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش فباتوا في جوع شديد فقال اثنان منهم ليتنا تعرضنا للعلمان وأخذنا طعامنا فلننا نطيق الصبر وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة فهذا مثال الخلق والميدان هو الحياة في الدنيا وباب الميدان الموت والبعاد المجهول يوم القيامة والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعا راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميعة القيامة لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون والتعلق بالعلمان هو المعتدى في الأسباب والعلمان المسخرون هم الأسباب والجالس في ظاهر الميدان يرى العلمان هم المقيمون في الأمصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون والمختفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل والأسباب تتبعهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الندور فان مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى وقد انقسم الحاق إلى هذه الأقسام الأربعة ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتغالهم وساح في البوادي ثلاثة وتسخط منهم اثنان وفاز بالقرب واحد ولعله كان كذلك في الأعمار السالفة وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف .

[الفن الثاني في التمرض لأسباب الادخار] فمن حصل له مال يارث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله في الادخار ثلاثة أحوال : الأولى أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل كل إن كان جائعا ويلبس إن كان عاريا ويشتري مسكنا مختصرا إن كان محتاجا ويفرق الباقي في الحال ولا يأخذه ولا يدخره إلا بالتقدير الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدخره على هذه النية فهذا هو الوافي بموجب التوكل تحقيقا وهي الدرجة العليا . الحالة الثانية القابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل أن يدخر لسنة فما فوقها فهذا ليس من التوكلين أصلا وقد قيل لا يدخر من الحيوانات إلا الثلاثة : الفأرة والخملة وابن آدم . الحالة الثالثة أن يدخر لأربعين يوما فما دونها فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المأمور بالوعد في الآخرة للمتوكلين اختلفوا فيه فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل وذهب الحواصم إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما يزيد على الأربعين وقال أبو طالب السبكي لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا وهذا اختلاف لا مفرق له بعد تجوز أصل الادخار ، نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له وكل ثواب موعود على رتبة فانه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية ويسمى أصحاب النهايات السابقين ، وأصحاب البدايات أصحاب اليمين ، ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات وكذلك السابقون وأعلى درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين فلا معنى للتقدير في مثل هذا بل التحقيق أن التوكل يترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس فان ذلك كالمستنع وجوده أما الناس فمتفاوتون في طول الأمل وقصره وأقل درجات الأمل يوم وليسلة فما دونه من الساعات وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الانسان وبينهما درجات لا حصر لها فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى القصود ممن يؤمل سنة وتمييده بأربعين لأجل ميعة موسى عليه السلام . بيد فان تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما لسر جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور كما قال عليه السلام «إن الله خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا» (١) لأن استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر فإذا ناء

(١) حديث خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث

بذر السعادة ومنها
ما هو بذر الشقاوة .
وسبب اشتباه
الحواطر أحد أربعة
أشياء لا خامس لها إما
ضعف اليقين أو قلة العلم
بعرفة صفات النفس
وأخلاقها أو متابعة
الهوى بنحرم قواعد
التقوى أو محبة الدنيا
جاهها ومألها وطلب
الرفعة والمنزلة عند
الناس فمن عصم
عن هذه الأربعة
يفرق بين لمة الملك
ولمة الشيطان ومن
ابتلى بها لا يظلمها
ولا يطلبها وانكشف
بعض الحواطر دون
البعض لوجود بعض
هذه الأربعة دون
البعض وأقوم الناس

السنة لا يدخر له إلا بحسب ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق باحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب فان أسباب الدخل في الارتفاعات والزيادات تتكرر بتكرر السنين غالبا ومن أذخر لأقل من سنة فله درجة بحسب تصرفه ومن كان أمه شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهرا ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر بل هو ينه في الرتبة ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل فالأفضل أن لا يدخر أصلا ، وإن ضعف قلبه فكلاما في ادخاره كان فضله أكثر ، وقدر في الفقير الذي أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه وأسامة أن يسلاه فسلاه وكفناه يردته فلما دفنه قال لأصحابه «إنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضاحية . قلنا وماهي يا رسول الله ؟ قال كان صوامقا وما كثيرا الذكر لله تعالى غير أنه كان إذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه ، ثم قال صلى الله عليه وسلم بل أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ^(١) الحديث ، وليس الكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام في معنى ذلك فان ادخاره لا ينقص الدرجة وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف ، وهذا في حق من لا يزعج قلبه بترك الادخار ولا يستشرف نفسه إلى أبدى الخلق بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق فان كان يستشعر في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له أولى بل لو أمسك ضيعة يكون دخله واقيا بقدر كفايته وكان لا يتفرغ قلبه إلا به فذلك له أولى لأن المقصود إصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه والمخدور ما يشغل عن الله عز وجل وإلا فالدنيا في عينها غير مهدورة لا وجودها ولا عدمها ، ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمهترمون وأهل الحرف والصناعات فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المهترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب فصواب الضيف ادخاره قدر حاجته كأن صواب القوى ترك الادخار ، وهذا كله حكم المنفرد ، فأما العليل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبرا لضعفهم وتسكين قلوبهم وادخار أكثر من ذلك يبطل للتوكل لأن الأسباب تتكرر عند تكرار السنين فادخاره ما يزيد عليه سيئه ضعف قلبه وذلك يناقض قوة التوكل فالمتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة ، وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة ^(٢) ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئا ^(٣) ونهى بلالا عن الادخار في كسرة خبز ادخارها ليفطر عليها فقال ^(٤) «أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا» ^(٥)

بتمييز الحواطر وأقومهم بعرفة النفس ومعرفتها صفة النال لا تكاد تيسر إلا بعد الاستقصاء في الزهد والتقوى . واتفق للشافح على أن من كان أكمله من الحرام لا يفرق بين الألهام والوسوسة . وقال أبو طي الدقاق من كان قوته معلوما لا يفرق بين الألهام والوسوسة وهذا لا يصح على الإطلاق إلا بقيد وذلك أن من العلوم ما يقسمه الحق سبحانه وتعالى لعبادان يسوق إليه في الأخذ منه والنقوت به ومثل هذا المعلوم لا يحجب عن تمييز الحواطر إنما ذلك

ابن مسعود وسلمان الفارسي بإسناد ضعيف جدا وهو باطل (١) حديث أنه قال في حق الفقير الذي أمر عليا أو أسامة فسلاه وكفناه يردته أنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر الحديث وفي آخره من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر لم أجد له أصلا وتقدم آخر الحديث قبل هذا . (٢) حديث ادخر لعياله قوت سنة متفق عليه وتقدم في الزكاة (٣) حديث نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئا لقد تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها (٤) حديث نهى بلالا عن الادخار وقال أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا البزاز من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وبلال دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صبر من تمر فقال ذلك ، وروى أبو يعلى والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة وكلها ضعيفة وأما ما ذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز فلم أره .

وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تخبأ (١) » اقتداء بسيد التوكلين صلى الله عليه وسلم وقد كان قصر أمه بحيث كان إذا بال يتيم مع قرب الماء ويقول « ما يدري لعل لا أبلغه (٢) » وقد كان صلى الله عليه وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذ كان لا يثق بما ادخره ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعلقاً للأقوياء من أمته فان أقوياء أمته ضعفاء بالاضافة إلى قوته وادخر عليه السلام لئلا يسهل لضعف قلبه وفي عياله ولكن ليس ذلك للضعفاء من أمته بل أخبر « أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزاءه (٣) » تطيباً لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والظن فيتركون اليسور من الحير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات لما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم لإرحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ، ويدل عليه ما روى أبو أمامة الباهلي « أن بعض أصحاب الصفة توفي فلما وجد له كفن فقال ﷺ فقتلوا ثوبه فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان (٤) » وقد كان غيره من المسلمين يموت ويغلف أموالاً ولا يقول ذلك في حقه وهذا يحتمل وجهين لأن حاله يحتمل حالين: أحدهما أنه أراد كيتين من النار كما قال تعالى - تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم - وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقير والتوكل مع الافلاس عنه فهو نوع تلبيس. والثاني أن لا يكون ذلك عن تلبيس فيكون المعنى به نقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه وذلك لا يكون عن تلبيس فان كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص بقدرة من الآخرة . وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن الدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ما روى عن بشر قال الحسين الغازلي من أصحابه كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل أعمر خفيف العارضين فقام إليه بشر قال وما رأيتك قام لأحد غيره قال ودفع إليّ كفاً من دراهم وقال اشتر لنا من أطيب ما تقدّر عليه من الطعام الطيب وما قال لي قط مثل ذلك قال فبعت بالطعام فوضعت فأكل معه وما رأيتك أكل مع غيره قال فأكلنا حاجتنا وبقي من الطعام شيء كثير فأخذ به الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف ففجيت من ذلك وكرهته له فقال لي بشر لملك أنكرت فعله؟ قلت نعم أخذ بهية الطعام من غير إذن فقال ذاك أخونا فتح الموصلي زارنا اليوم من الموصل فأنما أراد أن يعلنا أن التوكل إذا صح لم يضرّ معه الادخار [القرن الثالث في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف] اعلم أن الضرر قد يمرض للخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً أما في النفس فكان نوم في الأرض المسبعة أو في مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المسائل والسقف المنكسر فكل ذلك منهي عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة ، فتم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ومظنونة وإلى موهومة ترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة السكى والرقية

يقال في حق من دخل في معلوم باختيار منه ويشار لأنه ينحجب لموضع اختياره والذي أشرنا إليه منسوخ من إرادته فلا يحجبه المسلم وفرقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان وقالوا إن النفس تطالب وتلح فلا تزال كذلك حتى تصل إلى مرادها والشيطان إذا دعا إلى زلة ولم يجب يوسوس بأخرى إذ لا غرض له في تخصيص بل مراده الاغواء كيفما أمكنه وتكلم الشيوخ في الحاطرين إذا كانا من الحق أيهما يتبع قال الجنيّد الحاطر الأول

(١) حديث قال لبلال إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تخبأ الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد هوثة . حديث الق الله فقيرا [١] قد تقدم (٢) حديث أنه صلى الله عليه وسلم بال وتيمم مع قرب الماء ويقول ما يدري لعل لا أبلغه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث إن الله يحب أن تؤتى رخصه الحديث أحمد والطبراني والبيهقي من حديث أم عمرو وقد تقدم (٤) حديث أبي أمامة توفي بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخله إزاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه .

[١] قول العراقي حديث لعل الله فقيرا الخ لم يكن هذا الحديث موجوداً بالأصل فلهذا بنسخته تأمل.

فان السكى والرقية قد تقدم به على المهدور دفعا لما يتوقع وقد يستعمل بعد نزول المهدور للازاله للتورسول
الله صلى الله عليه وسلم لم يصف للتوكلين إلا بترك السكى والرقية والطيرة ولم يصنفهم بأنهم إذا خرجوا إلى
موضع بارد لم يلبسوا جبة والحبة تلبس دفعا للبرد للتوقع وكذلك كل ما في معناها من الأسباب ، نعم
الاستظهار يأكل الثوم مثلا عند الخروج إلى السفر في الشتاء تهبجا لقوة الحرارة من الباطن ربما
يكون من قبيل التعمق في الأسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من السكى بخلاف الحبة وترك الأسباب
الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والقشنى
فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال الله تعالى - فاتخذنه وكيفا واصبر على ما يقولون - وقال تعالى -
ولنصبرن على ما آذيتهم وما على الله فليتوكل المتوكلون - وقال عز وجل - ودع أذامهم وتوكل على الله -
وقال سبحانه وتعالى - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - وقال تعالى - نعم أجر العاملين الذين
صبروا وعلى ربهم يتوكلون - وهذا في أذى الناس وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب
فترك دفعها ليس من التوكل في شيء إذ لا فائدة فيه ولا يراد السعى ولا يترك السعى لعينه بل لإعاقته على
الدين وترتب الأسباب ههنا كترتها في الكسب وجلب النافع فلا تطول بالاعادة وكذلك في الأسباب
الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير لأن هذه أسباب
عرفت بسنة الله تعالى إماما ظنا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أن أهمل البعير
وقال توكلت على الله «اعاقها وتوكل (١)» وقال تعالى - خذوا حذركم - وقال في كيفية صلاة الخوف
- وليأخذوا أسلحتهم - وقال سبحانه - وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل - وقال تعالى
لموسى عليه السلام - فأسر بعبادى ليلا - والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب
واختفاء رسول الله ﷺ في الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر (٢) وأخذ السلاح في الصلاة
ليس دافعا قطعاً كقتل الحية والعقرب فإنه دافع قطعاً ولكن أخذ السلاح سبب مظنون وقد بينا أن
المظنون كالتطوع وإعسا الوهوم هو الذى يقتضى التوكل تركه . فان قلت قد حكى عن جماعة أن
منهم من وضع الأسد يده على كفته ولم يتحرك . فأقول وقد حكى عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه
فلا ينبغي أن يترك ذلك المقام فإنه وإن كان مهيجا في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق العلم من الغير
بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطا في التوكل وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها .
فان قلت وهل من علامة أعلم بها أنى قد وصلت إليها ؟ فأقول الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن
من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه أن يسخر لك كلب هو معك في إهابك يسمى الغضب فلا يزال
يحضك ويعض غيرك فان سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستشل إلا بأشارتك وكان مسخرا
لك فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذى هو ملك السباع وكلب دارك أولى بأن يكون
مسخرا لك من كلب البوادمى وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك فاذا لم يسخر لك الكلب
الباطن فلا تطمع في استسجار الكلب الظاهر . فان قلت فاذا أخذ التوكل سلاحه حذرا من العدو وأغلق
بابه حذرا من اللص وعقل بعيره حذرا من أن ينطلق فأبى اعتبار يكون متوكلا . فأقول يكون متوكلا
بالم والحال فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يدفع بكفايته في إغلاق الباب بل لم يدفع إلا بدفع الله
تعالى إياه فكأن باب يغلق ولا ينفع وكأن من بعير يعقل ويموت أو يفات وكأن من أخذ سلاحه يقتل

لأنه إذا بقي رجع صاحبه
إلى التأمل وهذا شرط
العلم . وقال ابن عطاء
الثانى أقوى لأنه ازداد
قوة بالأول . وقال
أبو عبدالله بن خفيف
هما سواء لأنهما
من الحق فلا مزية
لأحدهما على الآخر قالوا
الواردات أعم من
الحواطر لأن الحواطر
تمتص بنوع خطاب
او مطالبة والواردات
تكون تارة حواطر
وتارة تكون واردة
سرور ووارد حزن
ووارد قبض ووارد
بسط . وقيل بنور
التوحيد يقبل الحواطر
من الله تعالى وبنور
للعرفة يقبل من
للك وبنور الايمان

(١) حديث اعقلها وتوكل الترمذى من حديث أنس قال يحيى القطان منكر ورواه ابن خزيمة في
التوكل والطبرانى من حديث عمرو بن أمية الضمري باسناد جيد قيدها (٢) حديث اخفى رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن أعين الأعداء دفعا للضرر تقدم في قصة اختفائه في الغار عند إرادة الهجرة .

أويغلب فلا يتكفل على هذه الأسباب أصلاً بل على مسبب الأسباب كما ضربنا المثل في الوكيل في الحصومة فإنه إن حضر وأحضر السجل فلا يتكفل على نفسه وسجله بل على كفاية الوكيل وقوته. وأما الحال فهو أن يكون راضياً بما يقضى الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول اللهم إن سلطت على مافي البيت من يأخذه فهو في سيديك وأنا راض بحكمك فإني لأدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها أو عارية وودعة فتستردها ولا أدري أنه رزقي أو سبقت مشيئتك في الأزل بأنه رزقي غيري وكيفما قضيت فأنا راض به وما أغلقت الباب تحصناً من قصائك وتسخطه له بل جرياً على مقتضى سننك في ترتيب الأسباب فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب فإذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى وإن لم يجده بل وجدته مسروقاً نظراً إلى قلبه فإن وجدته راضياً أو غير راضٍ بذلك عالماً أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صح مقامه في التوكل وظهر له صدقه. وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقاً في دعوى التوكل لأن التوكل مقام بعد الزهد ولا يصح الزهد إلا بمن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي بل يكون على العكس منه فكيف يصح له التوكل، نعم قد صح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكوله ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب يئسه فقد كانت السركة مزيداً له في ذنبه من حيث إنه ظهر له تصوره عن جميع المقامات وكذبته في جميع الدعاوى فبمدهذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاؤها ولا يتبدل بحمل غرورها فإنها خداعة أمانة بالسوء مدعية للخير. فإن قلت فكيف يكون للتوكل مال حتى يؤخذ. فأقول للتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه وإنا يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات العيشة من أثاث البيت وقد يدخل في يده مال وهو يسكك ليجد محتاجاً فيصرفه إليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلاً لتوكله وليس من شرط التوكل إخراج السكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده وإنما ذلك في المأكول وفي كل مال زاد على قدر الضرورة لأن سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء التوكلين في زوايا المساجد وما جرت السنة بفرقة الكيزان والأمتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطاً في التوكل ولذلك كان الخواص يأخذ في السفر الحبل والركوة والقراض والإبرة دون الزاد لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأمرين. فإن قلت فكيف يتصور أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه فإن كان لا يشتهي فلم أمسكه وأغلق الباب عليه وإن كان أمسكه لأنه يشتهي لحاجته إليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهي. فأقول إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع ولولا أن الخيرة له في مال رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك مهيمن له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعاً به إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلى بفقد ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في التسبب والتعب أكثر فلما أخذ الله تعالى منه بتسليط اللبس تغير ظنه لأنه في جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به فيقول لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة كانت لي في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني فيمثل هذا الظن بتصور أن يندفع عنه الحزن إذ به يخرج عن أن يكون فرحاً بأسباب من حيث إنها أسباب بل من حيث إنه يسرهما مسبب الأسباب عناية وتلطفاً وهو كالمرضى بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله فإن قدم إليه الدواء فرح وقال لولا أنه

ينهى النفس وبنور
الاسلام يرد على العدو
ومن قصر عن درك
حقائق الزهد وتطلع
إلى تمييز الخواطر
الخطير أولاً بميزان
الشرع فما كان من
ذلك نقلاً أو فرضاً عليه
وما كان من ذلك محرماً
أو مكروهاً ينفيه فإن
استوى الخاطر ان في
نظر العلم ينفذ أمرهما
إلى مخالفة هوى
النفس فإن النفس قد
يكون لها هوى كما من
في أحدهما والغالب من
شأن النفس الا عوجاج
والركون إلى الدون
وقد يلم الخاطر بنشاط
النفس والعبد يظن أنه
بنهوض القلب وقد
يكون من القلب نفاق

يعرف أن الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قربه إلى وإن أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضا فرح وقال لولا أن الغذاء يضرني ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه وكل من لا يعتد في لطف الله تعالى ما يستدته للريض في الوالد المشفق الحانيق لعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى وعرف أهله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب فانه لا يدري أي الأسباب خير له كما قال عمر رضي الله عنه : لأبالي أصبحت غنيا أو فقيرا فاني لأدري أيهما خير لي فكذلك ينبغي أن لا ينال للتوكل يسرق متاعه أولا يسرق فانه لا يدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الانسان وكم من غنى يتلى بواقعة لأجل غناه يقول ياليتني كنت فقيرا .

(بيان آداب التوكلين إذا سرق متاعهم)

للتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه . الأول : أن يباق الباب ولا يستقصي في أسباب الحفظ كالتماسه من الجيران الحفظ مع العلق وبكلمه أغلاقا كثيرة فقد كان مالك بن دينار لا يبتليق بابه ولكن يشده بشريط ويقول لولا الكلاب ما شدته أيضا . الثاني : أن لا يترك في البيت متاعا معرض عليه السراق فيكون هو سبب محصيتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ولذلك لما أهدى المفيرة إلى مالك بن دينار ركوة قال خذها لاحاجة لي إليها قال لم ؟ قال يوصوس إلى العدو أن اللص أخذها فكأنه احترز من أن يصي السارق ؟ ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها ولذلك قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا لما عليه من أخذها . الثالث : أن ما يضر إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول ما يأخذه السارق فهو منه في حل أو هو في سبيل الله تعالى وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة وإن لم يشترط الفقر فهو أولى فيكون له نيتان لو أخذه غنى أو فقير : أحدهما أن يكون ماله مانعا له من المصيبة فانه ربما يستغنى به فيتوانى عن السرقة بعمده وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله في حل . والثانية أن لا يظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ، ومهما بنو حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينو دفع المصيبة عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامتل قوله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما »^(١) ونصر الظالم أن تمنعه من الظلم وغفوه عنه إعدام للظلم ومنع له وليتحقق أن هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويغير القضاء الأزلي ولكن يتحقق بالزهد نية فان أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لأنه نواه وقصدته وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضا كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترك العزل فأقر النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش قتل في سبيل الله تعالى وإن لم يولد له^(٢) لأنه ليس أمر الولد إلا الوقاع فأما الحق والحياة والرزق والبقاء فليس إليه فلو خاق لكان ثوابه على فله وقضه لم ينصم فكذلك أمر السرقة . الرابع : أنه إذا وجد المال مسروقا فينبغي أن لا يعزّن بل يفرح إن أمكنه ويقول لولا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ثم إن لم يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل فلا يبالغ في طلبه وفي إساءة الظن بالمسلمين ، وإن كان قد جعله في سبيل الله فيترك طلبه فانه قد قدمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة فان

بكونه إلى النفس يقول بعضهم منذ عشرين سنة ما سكن قلبي إلى قسي ساعة فيظهر من سكون القلب إلى النفس خواطر تشبه بخواطر الحلق على من يكون ضعيف العلم فلا يدرك نفاق القلب والخواطر المتولدة منه إلا العلماء الراسخون . وأكثر ما دخل الآفات على أرباب القلوب والآخذين من اليقين واليقظة والحال بسهم من هذا القبيل وذلك لقلة العلم بالنفس والقلب وبقاء نصيب الهوى فيهم . وينبغي أن يعلم العبد قطعا أنه مهما بقى عليه أثر

(١) حديث انصر أخاك ظالما أو مظلوما متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام الحديث لم أجده أصلا .

أعيد عليه فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جمعه في سبيل الله عز وجل وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية ولكنه غير محبوب عند التوكلين . وقد روى أن ابن عمر سرق ثاقته فطلبها حتى أعيانهم قال في سبيل الله تعالى فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فبعاه رجل ، فقال : يا أبا عبد الرحمن إن نأقتك في مكان كذا فلبس نعله وقام ثم قال أستغفر الله وجلس فقيل له ألا تذهب فتأخذها فقال إن كنت قلت في سبيل الله . وقال بعض الشيوخ رأيت بعض إخواني في النوم بعد موته قلت ما فعل الله بك قال غفر لي وأدخلني الجنة وعرض علي منازل في فرايتها قال وهو مع ذلك كئيب حزين قلت قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين فتتس الصعداء ثم قال نعم إنى لا أزال حزينا إلى يوم القيامة قلت ولم ؟ قال إنى لما رأيت منازل في الجنة رفضت لي مقامات في عليين مارأيت مثلها فيأ رأيت فقرحت بها فلما هممت بدخولها نادى مناد من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له وإنما هي لمن أمضى السبيل ، قلت وما إمضاء السبيل؟ فقيل لي كنت تقول للشيء إنه في سبيل الله ثم ترجع فيه فلو كنت أمضيت السبيل لأمضينا لك . وحكى عن بعض العباد بمكة أنه كان نائما إلى جنب رجل معه هميانه فانتبه الرجل ففقد هميانه فاتهم به فقال له كم كان في هميانك فذكر له لحمله إلى البيت ووزنه من عنده ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحاما مع فجاء هو وأصحابه معه وردوا الذهب فأبى وقال خذوه حللا طيبا فإ كنت لأعود في مال أخرجه في سبيل الله عز وجل فلم يقبل فألحوا عليه فدعا ابنا له وجعل يصره صررا ويبعث بها إلى الفقراء حتى لم يبق منه شيء فبهكذا كانت أخلاق السلف وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فتاب عنه كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجهم فيعطيه فقيرا آخر وكذلك يفعل في الهرام والدنانير وسائر الصدقات . الخامس : وهو أقل الدرجات أن لا يدعوا على السارق الذي ظلمه بالأخذ ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأسفه على ما فات وبطل زهده ولو بالغ فيه بطل أجره أيضا فبأصيب به ففي الخبر « من دعا على ظالمه فقد انتصر » (١) . وحكى أن الزبيع بن خيثم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفا وكان قائما يصلى فلم يقطع صلواته ولم يزعج طلبه فبعاه قوم بوزنه ، فقال أما إنى قد كنت رأيت وهو يحمله قيل وما منعك أن تزجره . قال كنت فيها هو أحب إلي من ذلك يعني الصلاة فعملوا يدعون عليه فقال لا تفعلوا وقولوا خيرا فأنى قد جعلها صدقة عليه . وقيل لبعضهم في شيء قد كان سرق له ألا تدعو على ظالمك قال ما أحب أن أكون عوناً للشيطان عليه قيل أرأيت لو ورد عليك قال لا أخذه ولا أنظر إليه لأنى كنت قد أحلته له . وقيل لآخر : ادع الله على ظالمك ، فقال ما ظلمنى أحد ثم قال إنما ظلم نفسه ألا يكفيه السكين ظلم نفسه حتى أزيد شرا . وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف في ظلمه ، فقال لا تغرق في شتمه فإن الله تعالى ينتصف للحجاج ممن اتهمك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه . وفي الخبر « إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظلوم » (٢) . السادس أن يغتم لأجل السارق وعصيانه ونرضه لعذاب الله تعالى ويشكر الله تعالى إذ جمعه مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك نقصا في دينه لا نقصا في دينه فقد شكوا بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله

(١) حديث من دعا على من ظلمه فقد انتصر تقدم (٢) حديث إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة الحديث تقدم .

من الهوى وإن دق
وقل يبقى عليه بحسبه
بقية من اشتباه
الحواطر ثم قد يخلط
في تمييز الحواطر من
هو قليل العلم ولا
يؤاخذ بذلك ما لم يكن
عليه من الشرع
مطالبة وقد لا يسمح
بذلك بعض الدالين لما
كوشفوا به من دقيق
الحفاء في التمييز ثم
استمعالمهم مع علمهم
وقلة التثبت . وذكر
بعض العلماء أن لمة
الملك ولمة الشيطان
وجدنا لحركة النفس
والروح وأن النفس
إذا تحركت اتقدح من
جوهرها ظلمة تنسكت
في القاب همة سوء
فينظر الشيطان إلى

قال إن لم يكن لك غم أنه قد صار في السلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين. وسرق من علي بن الفضل دنائير وهو يطوف بالبيت فرآه أبوه وهو يبكي ويعزن فقال أهي الدنائير تبكي؟ فقال لا والله ولكن طي للسكين أن يسئل يوم القيامة ولا تكون له حجة وقيل بعضهم ادع طي من ظلمك فقال إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه فهذه أخلاق السلف رضى الله عنهم أجمعين .

[الفن الرابع في السعي في إزالة الضرر كدواوة للرض وأمثاله] اعلم أن الأسباب الزيلة للمرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالماء للزيل لضرر العطش والحبز للزيل لضرر الجوع وإلى مظنون كالتصد والحجامت وشرب الدواء للسهل وسائر أبواب الطب أعنى معالجة البرودة بالحرارة والحاررة بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطب وإلى موهوم كالسكى والرقية . أما المقطوع فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت . وأما الموهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم للتوكلين وأقواها السكى ويليها الرقية والطيرة آخر درجاتها والاعتماد عليها والاتكال إليها غاية التعمق في ملاحظة الأسباب وأما الدرجة التوسطة وهي المظنونة كالدواوة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء فعمله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص فهي طي درجة بين الدرجتين ويدل طي أن التداوى غير مناقض للتوكل فمل رسول الله ﷺ وقوله وأمره به أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم « ما من داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام (١) » يعني للموت وقال عليه السلام « تداووا عباد الله فإن الله خالق الداء والدواء (٢) » . « وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئا قال: هي من قدر الله (٣) » وفي الخبر المشهور « ما مرت بملا من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة (٤) » وفي الحديث أنه أمر بها وقال « اجتمعوا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يتبيخ بك الهم فيقتلهم (٥) » فذكر أن تبيخ الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله تعالى وبين أن إخراج الدم خلاص منه إذ لا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج العرق من تحت الثياب وإخراج الحية من البيت وليس من شرط التوكل ترك ذلك بل

القلب فيقبل بالاغواء والوسوسة وذكر أن حركة النفس تكون إما هوى وهو عاجل حظ النفس أو أمنية وهي عن الجهل الغريزي أو دعوى حركة أوسكون وهي آفة العقل ومحنة القلب ولا ترد هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة بجهد أو غفلة أو طلب فضول ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب فيه فانها ترد بخلاف ما أور أو طي وفق منهي ومنها ما يكون فيها فضيلة إذا وردت بمباحات . وذكر أن الروح إذا تحركت اتقدح من جوهرها نور ساطع يظهر من

(١) حديث ما من داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود قوله إلا السام وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله عرفه إلى آخره وإسناده حسن وللترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك إلا الحرم والطبراني في الأوسط والبخاري من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندهما ضعيف والبخاري من حديث أبي هريرة ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ولملم من حديث جابر لكل داء دواء (٢) حديث تداووا عباد الله الترمذي وصححه وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك (٣) حديث سئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله فقال هي من قدر الله الترمذي وابن ماجه من حديث أبي خزيمة وقيل عن أبي خزيمة عن أبيه قال الترمذي وهذا أصح (٤) حديث ما مرت بملا من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث اجتمعوا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين الحديث البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا ورفضه الترمذي بلفظ إن خيرا ما تجتمعون فيه سبع عشرة الحديث دون ذكر التبيخ وقال حسن غريب وقال البزار إن طريقه المقدمة أحسن من هذا الطريق ولابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف من أراد الحجامة فليتحرق سبعة عشر الحديث.

هو كسب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت وليس من التوكل الحروق عن سنة الوكيل أصلاً وفي خبر مقطوع «من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة (١)» وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوي بالحمية (٢) وقطع لسعد بن معاذ عرقاً (٣) أي فصدته وكوى سعد بن زرارة (٤) وقال لعلى رضي الله تعالى عنه وكان رمد العين «لأننا كل من هذا يعني الرطب وكل من هذا فإنه أوفق لك (٥)» يعني سلقاً قد طبخ بدقيق شعير . وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين «تأكل تمرًا وأنت أرمد فقال إني آكل من الجانب الآخر فتبسم صلى الله عليه وسلم (٦)» . وأما فضله عليه الصلاة والسلام فقد روى في حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة (٧) قيل السنن السكي . وتداوى ﷺ غير مرة من العقب وغيرها (٨) وروى أنه كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فكان يظفئه بالحناء (٩) وفي خبر أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء وقد جعل على قرحة خرجت به تراباً (١٠) وما روى في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر وقد صنف في ذلك كتاب وسمى طب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر بعض العلماء في الاسرائيليات أن موسى عليه السلام اعتل بطة فدخل عليه بنو إسرائيل فصرفوا عنته

(١) حديث من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة الطبراني من حديث معقل بن يسار وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس وإسنادها واحداً خلت على رواه في الصحاح وكلاهما فيه زيد العمى وهو ضعيف (٢) حديث أمره بالتداوي لغير واحد من الصحابة الترمذي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعراب حين سألوه تداووا الحديث وسيأتي في قصة على وصهيب في الحمية بعده (٣) حديث قطع عرقاً لسعد بن معاذ مسلم من حديث جابر قال رمى سعد في أكله فحسه النبي صلى الله عليه وسلم بيده بمشقص الحديث (٤) حديث أنه كوى أسعد بن زرارة الطبراني من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ومن حديث أبي أسامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل (٥) حديث قال لعلى وكان رمداً لأننا كل من هذا الحديث أبو داود والترمذي وقال حسن غريب وابن ماجه من حديث أم النذر (٦) حديث قال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمرًا وأنت رمد الحديث تقدم في آفات اللسان (٧) حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة ابن عدى من حديث عائشة وقال إنه منكر وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويعني بن معين (٨) حديث أنه تداوى غير مرة من العقب وغيرها الطبراني بإسناد حسن من حديث جبلة بن الأزرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عقب فغشى عليه فرقاه الناس الحديث وله في الأوسط من رواية سعيد بن مسيرة وهو ضعيف عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى تمضمض كفاً من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلاً ولأبي جعلى والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بماء مسموم وفيه جابر الجعفي ضعف الجمهور (٩) حديث كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فيظفئه بالحناء البرز بن عدى في الكامل من حديث أبي هريرة وقد اختلف في إسناده على الأحوص بن حكيم كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء الترمذي وابن ماجه من حديث سلمى قال الترمذي غريب (١٠) حديث جعل على قرحة خرجت بيده تراباً البخاري ومسلم من حديث عائشة كان إذا اشتكى الإنسان التي منه أو كانت قرحة أوجرح قال النبي صلى الله عليه وسلم بيده هكذا ووضع سفيان بن عيينة الراوى سبابة بالأرض ثم رفعها وقال بسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا يشفى سقيمنا .

ذلك النور في القلب همة عالية بأحد معان ثلاثة إما بفرض أمر به أو بفضله نذب إليه وإما بمباح يسود صلاحه إليه وهذا الكلام يدل على أن حركة الروح والنفس هما اللوجيتان للمتين . وعندى والله أعلم أن اللتين يتقدمان على حركة الروح والنفس لحركة الروح من لمة الملك والهمة العالية من حركة الروح وهذه الحركة من الروح بركة لمة الملك وحركة النفس من لمة الشيطان ومن حركة النفس الهمة الدنيئة وهي من شؤم لمة الشيطان فاذا وردت اللتان ظهرت الحركتان

فقالوا له لوتداويت بكذا لبرئت فقال لأتداوى حتى يفاينى هو من غير دواء فطالت علته فقالوا له إن
دواء هذه العلة معروف مجرب وإنما تتداوى به فبئراً فقال لأتداوى وأقامت علته فأوحى الله تعالى إليه
وعزنى وجلالى لأبرأتك حتى تتداوى بما ذكره لك فقال لهم داوونى بما ذكرتم فداووه فبرأ
فأوجس فى نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تبطل حكمتى بتوكلك على من أودع العقاقير
منافع الأشياء غيرى . وروى فى خبر آخر أن نبيا من الأنبياء عليهم السلام شكاعة يجدها فأوحى الله
تعالى إليه كل البيض . وشكا نبي آخر الضعف فأوحى الله تعالى إليه كل اللحم باللبن فإن فيها القوة قيل
هو الضعف عن الجماع . وقد روى أن قوما شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى إليه مرهم
أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنه يحسن الولد ويفعل ذلك فى الشهر الثالث والرابع إذ فيه
يصور الله تعالى الولد وقد كانوا يطعمون الحلبى السفرجل والنساء الرطب فهذا تبين أن مسبب
الأسباب أجرى سنته بربط اللسيات بالأسباب إظهارا للحكمة والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى
كسائر الأسباب فكأن الحبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجيين دواء الصفراء والسقمونيا
دواء الاسهال لا يفارقه إلا فى أحد أمرين : أحدهما أن معالجة الجوع والعطش بالماء والحبز جلى واضح
يدركه كافة الناس ومعالجة الصفراء بالسكنجيين يدركه بعض الخواص فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق
فى حقه بالأول : والثانى أن الدواء يسهل والسكنجيين يسكن الصفراء بشرط آخر فى الباطن وأسباب
فى الزجاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها وربما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن
الاسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعى سوى الماء شروطا كثيرة وقد يتفق من العوارض ما يوجب
دواء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبدا ينحصر فى هذين الشيئين
وإلا فالمسبب يتلو السبب لامحالة مهما تمت شروط السبب وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخييره
وترتيبه بحكم حكته وكمال قدرته فلا يضر التوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب
والدواء فقد روى عن موسى عليه السلام أنه قال يارب من الداء والدواء؟ فقال تعالى منى قال فما يصنع الأطباء؟
قال يا كلون أرزاقهم ويطيون نفوس عبادى حتى يأتى شفاى أو قضائى فأذن معنى التوكل مع التداوى
التوكل بالعلم والحال كما سبق فى فنون الأعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع فأما ترك التداوى رأسا فليس
شرطا فيه . فإن قلت فالسكى أيضا من الأسباب الظاهرة النفع . فأقول ليس كذلك إذ الأسباب
الظاهرة مثل القصد والحجامة وشرب السهل وسقى البردات للمحرور وأما السكى فلو كان مثلها فى الظهور
لما خلت البلاد الكثيرة عنه وقما يعتاد السكى فى أكثر البلاد وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب
فهذا من الأسباب الوهومة كالرقى إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار فى الحال مع الاستئناء
عنه فإنه مامن وجع يعالج بالسكى إلا أنه دواء يفضى عنه ليس فيه إحراق فالاحتراق بالنار جرح مجرب
للبنية محذور السراية مع الاستئناء عنه بخلاف القصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ولا يسد مسدهما
غيرهما ولذلك «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى» (١) وكل واحد منهما بعيد
عن التوكل وروى أن عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالسكى فامتنع فلم يزالوا به وعزم عليه
الأمر حتى اكتوى فكان يقول كنت أرى نورا وأسمع صوتا وتسلم على الملائكة فلما كتويت انقطع
ذلك عنى وكان يقول اكتبونا كتاب فوالله ما أنزلت ولا أنجحت ثم تاب من ذلك وأتاب إلى الله تعالى

وظهر سر العطاء
والابتلاء من معط
كريم ومبل حكيم وقد
تكون هاتان اللتان
متداركتين وينمحي أثر
إحداهما بالأخرى
وللتفطن للتيقظ
يفتح عليه بمطالمة
وجود هذه الآثار فى
ذاته باب أنس ويتق
أبدانته قد أحاله مطالما
آثار اللتين . وذكر
خاطر خامس : وهو
خاطر العقل متوسط
بين الخواطر الأربعة
يكون مع النفس
والعدو لوجود التمييز
وإثبات الحجبة على
العبد ليدخل العبد فى
الشيء بوجود عقل إذ
لو فقد العقل سقط
العقاب والعتاب وقد

(١) حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى البخارى من حديث ابن عباس
وأهمل أمقى عن السكى ، وفى الصحيحين من حديث عائشة رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم
فى الرقية من كل ذى حمة .

فرد الله تعالى عليه ما كان يحد من أمر الملائكة وقال لمطرف بن عبد الله أم تر إلى الملائكة التي كان أكرمى الله بها قد ردها الله تعالى على بعد أن كان أخبره بفتحها فاذن السكى وما يجرى مجراه هو الذى لا يليق بالتوكل لأنه يحتاج في استنباطه إلى تدير ثم هو منموم ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها والله أعلم .

(بيان أن ترك التداوى قد يحمى في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل)

وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم)

اعلم أن الذين تداؤوا من السلف لا ينصرفون ولكن قد ترك التداوى أيضا جماعة من الأكابر فرما يظن أن ذلك نقصان لأنه لو كان كالاتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا يكون حال غيره في التوكل أكمل من حاله ، وقد روى عن أبي بكر رضى الله عنه أنه قيل له لو دعوتك طبيبا فقال الطبيب قد نظر إلى وقال إنى فعالم ما أريد . وقيل لأبي الدرداء في مرضه ما تشكى قال ذنوبى قيل فماتتسى قال مغفرة روى قالوا ألا ندعوك طبيبا قال الطبيب أمرضى . وقيل لأبي ذر وقد رمدت عيناه لوداوتيهما قال إنى عنهما مشغول فقيل لوسألت الله تعالى أن يهلكك فقال أسأله فإى هوأم على منهما . وكان الريح ابن خيم أصابه فالج قبيل له لوداوت فقال قد همت ثم ذكرت عادا وعمودا وأصحاب الرمس وقرنواين ذلك كثير أو كان فيهم الأطباء فهلك الداوى والداوى ولم تكن الرقى شيئا . وكان أحمد بن حنبل يقول أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواء وغيره وكان به علل فلا يخبر للطبيب بها أيضا إذا سأله . وقيل لسهل متى يصح لعبد التوكل قال إذا دخل عليه الضرر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت إليه شغلا بهاله ونظر إلى قيام الله تعالى عليه فإذا منهم من ترك التداوى وراه ومنهم من كرهه ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصلهم إلا بعصر الصوارف عن التداوى . فنقول إن ترك التداوى أسبابا . السبب الأول : أن يكون المريض من الكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة وتارة بحس وظن وتارة بكشف محقق ويشبه أن يكون ترك الصديق رضى الله عنه التداوى من هذا السبب فإنه كان من الكاشفين فإنه قال لما نشأ رضى الله عنها في أمر اليراث إنما من أختك وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملا فولدت أنثى فلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأننى فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بانها حامله وإلا فلا يظن به إنكار التداوى وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به . السبب الثانى : أن يكون المريض مستحولا بهاله وبخوف عاقبه وإطلاع الله تعالى عليه فينسيه ذلك ألم المرض فلا تغرغ قلبه التداوى فضلا بهاله وعليه يدل كلام أبى ذر إذ قال إنى عنهما مشغول . وكلام أبى الدرداء إذ قال إنما تشكى ذنوبى فكان تألم قلبه خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته أو كالحائف الذى يعمل إلى ملك من اللوك ليقتل إذ اتيل له لا تأكل وأنت جائع فيقول أنا مشغول عن ألم الجوع فلا يكون ذلك إنكارا لكون الأكل نافعا من الجوع ولا طمنا فيمن أكل ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له ما الموت فقال هو ذا الحى القيوم فقيل إنما سألتك عن القوام فقال القوام هو العلم قيل سألتك عن الغذاء قال الغذاء هو الذى كرك قيل سألتك عن طعمة الجسد قال مالك وللجسد دع من تولاه أولا يتولاه آخر إذا دخل عليه علة فرده إلى صائه أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردها إلى صائها حتى يصلحها . السبب الثالث : أن تكون العلة مزمنة والدواء الذى يؤمر به بالاضافة إلى علة موهوم النفع جار مجرى السكى والريقة فيترك التوكل وإله يشير قول الريح بن خيم إذ قال ذكرت عادا

يكون مع الملك والروح
ليوقع الفعل مختارا
ويستوجب به
الثواب . وذكر
خاطر سادس وهو خاطر
اليقين وهو روح
الإيمان ومزيد العلم
ولا يبعد أن يقال الخاطر
السادس وهو خاطر
اليقين حاصله راجع
إلى ما يرد من خاطر
الحق وخاطر العقل
أصله تارة من خاطر
الملك وتارة من خاطر
النفس وليس من
العقل خاطر على
الاستقلال لأن العقل
كما ذكرنا غريزة نبهيا
بها إدراك العلوم ونهيا
بها الانجذاب إلى
دواعى النفس تارة
وإلى دواعى الملك تارة

وتعود وفيهم الأطباء فهلك المداوى والتداوى أى أن الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك في نفسه وقد يكون عند الرضا كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له فلا يثلب على ظنه كونه نافعا ولا شك في أن الطبيب المحرب أشد اعتقادا في الأدوية من غيره فتكون التهمة والظن بحسب الاعتقاد والاعتقاد بحسب التجربة وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد هذا مستندهم لأنه يبقى الدواء عنده شيئا موهوما لأصله وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب غير صحيح في البعض ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظرا واحدا فيرى التداوى نعمقا في الأسباب كالسكى والرقى فيتركه توكلًا . السبب الرابع . أن يقصد العبد بترك التداوى استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى أو ليحرب نفسه في القدرة على الصبر فقد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره فقد قال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى العبد على قدر إيمانه فان كان صلب الإيمان شدد عليه البلاء وإن كان في إيمانه ضعف خفف عنه البلاء (١) » وفي الخبر « إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمن خرج كالذهب الإبريز لا يرد ومنهم دون ذلك ومنهم من يخرج أسود محترقا (٢) » وفي حديث من طريق أهل البيت « إن الله تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه فان صبر اجتنابه فان رضى اصطفاه (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون (٤) » وقال ابن مسعود رضى الله عنه تجد المؤمن أصح شيئا قلبا وأمرضه جسما وتجد المنافق أصح شيئا جسما وأمرضه قلبا . فلما عظم الثناء على المرض والبلاء أحب قوم المرض واغتتموه لينالوا ثواب الصبر عليه فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويسلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشمله المرض عنه وإنما يمنع المرض جوارحه وعلما أن صلاتهم قعودا مثلا مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة ففي الخبر « إن الله تعالى يقول للملائكة اكتبوا لبيد صالح ما كان يعمل فانه في وثاقى إن أطلقته أبدته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وإن توفيقته توفيقته إلى رحمتى (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس (٦) » قيل معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب وإليه الإشارة بقوله تعالى - وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم - وكان سهل يقول ترك التداوى وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوى لأجل الطاعات وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها وكان يداوى الناس منها وكان إذا رأى العبد يصلى من

وإلى دواعى الروح تارة
وإلى دواعى الشيطان
تارة فعلى هذا لا تزيد
الخواطر على أربعة
ورسول الله صلى الله
عليه وسلم لم يذكر غير
المتين وهاتان اللتان
هما الأصل والخواطران
الآخران فرع عليهما
لأن لمة الملك إذا حركت
الروح واهتزت الروح
بالهمة الصالحة قربت
أن تهتز بالهمة الصالحة
إلى حظائر القرب فورد
عليه عند ذلك خواطر
من الحق وإذا تحقق
بالقرب يتحقق بالقضاء
فتثبت الخواطر الربانية
عند ذلك كما ذكرناه
قبل لموضع قربه
فيكون أصل خواطر
الحق لمة للملك ولمة

(١) حديث نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل الحديث أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف وقد تقدم مختصرا ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح على شرط الشيخين (٢) حديث إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف (٣) حديث من طريق أهل البيت إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث على ولم يخرج له ولده في مسنده وللطبراني من حديث أبي عتبة إذا أراد الله بعبد خيرا ابتلاه وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالا ولا ولدا وسنده ضعيف (٤) حديث تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون ابن أبي عاصم في الأحاد والثاني وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة والبيهقي في الشعب من حديث أبي فاطمة وهو صدر حديث إن الرجل ليكون له المنة عند الله الحديث وقد تقدم (٥) حديث إن الله يقول للملائكة اكتبوا لبيد صالح ما كان يعمل فانه في وثاقى الحديث الطبراني من حديث عبد الله بن عمر وقد تقدم (٦) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس تقدم ولم أجده مرفوعا .

قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات يجب من ذلك ويقول صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوى للقوة والصلاة قائما. وسئل عن شرب الدواء فقال كل من دخل في شيء من الدواء فإنما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف. ون لم يدخل في شيء فهو أفضل لأنه إن أخذ شيئا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم يأخذه ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لهم بأن فذة من أعمال القلوب مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالبا مدهشا . وقال سهل رحمه الله علل الأجسام رحمة وعلل القلوب عقوبة . السبب الخامس : أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها فيرى للمرض إذا طال تكفيرا فيترك التداوى خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال عليه السلام « لا يزال الحمى والليلية بالعبد حتى يمضى على الأرض كالبردة ماعليه ذنب ولا خطيئة ^(١) » وفي الخبر « حمى يوم كفارة سنة ^(٢) » قيل لأنها تهد قوة سنة وقيل للانسان ثلثة مئة وستون مفصلا فتدخل الحمى في جميعها ويجد من كل واحد ألما فيكون كل ألم كفارة يوم ، ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأله يزيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محمومًا فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله وسأل ذلك طائفة من الأنصار فكانت الحمى لا تزالهم ^(٣) ولما قال صلى الله عليه وسلم « من أذهب الله كرميته لم يرض له ثوابا دون الجنة ^(٤) » قال فلقد كان من الأنصار من يتحنى العمى وقال عيسى عليه السلام: لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو في ذلك من كفارة خطايا . وروى أن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاد فقال يارب ارحمه فقال تعالى كيف أرحمه فيما به أرحمه أي به أكره ذنوبه وأزيد في درجاته . السبب السادس أن يستشعر العبد في نفسه مبادئ البطر والظنيان أطول مدة الصحة فيترك التداوى خوفا من أن يماجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والظنيان أطول الأمل والتسوية في تدارك الفائت وتأخير الحيرات فان الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو إلى المعاصي وأقلها أن تدعو إلى التنسم في الباحات ، وهو تضييع الأوقات وإهمال للربح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات وإذا أراد الله بعبده خيرا لم يخله عن التنبه بالأمراض والمصائب ولذلك قيل لا يخلو

(١) حديث لا تزال الحمى والليلية بالعبد حتى يمضى على الأرض كالبردة ماعليه خطيئة أبو يعلى وابن عدى من حديث أبي هريرة والطبراني من حديث أبي الدرداء نحوه وقال الصداع بدل الحمى وللطبراني في الأوسط من حديث أنس مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع في صفائها ولونها وأسانيده ضعيفة (٢) حديث حمى يوم كفارة سنة القضاعى في مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال ليلة بدل يوم (٣) حديث لما ذكر رسول الله ﷺ كفارة الذنوب بالحمى سأله يزيد بن ثابت أن لا يزال محمومًا الحديث وسأل ذلك طائفة من الأنصار أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدرى بأسناد جيد أن رجلا من المسلمين قال يا رسول الله أريت هذه الأمراض تصيبنا ما لنا فيها قال كفارات قال أبي وان قلت قال فان شوكة لنا فوقها قال فدعا أبى أن لا يفارقه الوعلك حتى يموت الحديث وللطبراني في الأوسط من حديث أبي بن كعب أنه قال يا رسول الله ما جزاء الحمى قال تجرى الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق فقال اللهم إني أسألك حمى لا تمنعني خروجا في سبيلك ولا خروجا إلى بيتك ولا مسجد نبيك الحديث والاسناد مجهول قاله على بن المديني (٤) حديث من أذهب الله كرميته لم يرض له ثوابا دون الجنة تقدم الرفوع منه دون قوله فلقد كان في الأنصار من يتحنى العمى.

الشیطان اذا حرك النفس هوت بجباتها الى مركزها من الفريزة والطبع فظهر منها لحرکتها خواطر ملامعة لتريزتها وطبيعتها وهو اها فصارت خواطر النفس نتيجة لمة الشيطان فأصلها لثان وينتجان آخرين وخواطر اليقين والعقل مندرج فيها والله أعلم

[الباب الثامن والخمسون في شرح الحال والمقام والفرق بينهما]

قد كثر الاشتباه بين الحال والمقام واختلفت إشارات الشيوخ في ذلك ووجود الاشتباه لمكان تشابههما

الؤمن من علة أو قلة أو زلة وقد روى «أن الله تعالى يقول الفقر سجنى وللرض قيدي أحبس به من أحب من خلقى» فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصى فأى خير يزيد عليه ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية في ترك المعاصى فقد قال بعض العارفين لإنسان كيف كنت بعدى؟ قال في عافية قال إن كنت لم تصص الله عز وجل فأنت في عافية وإن كنت قد عصيته فأى داء أدوأ من العصية ما عوفى من عصي الله . وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة النبط بالمراقى في يوم عيد ما هذا الذى أظهره؟ قالوا يا أمير المؤمنين هذا يوم عيدكم فقال كل يوم لا يصحى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد . وقال تعالى - من بعد ما أراكم ماتحبون - قيل العواقب - إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى - وكذلك إذا استغنى بالعافية . وقال بعضهم : إنما قال فرعون : أنار بكم الأعلى لطول العافية لأنه لبث أربعين سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية لعنه الله ولوأخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية . وقال صلى الله عليه وسلم «أكثروا من ذكر هادم اللذات (١)» وقيل الحمى رائد الموت فهو مذكر له ودافع للتسويق ، وقال تعالى - أولايرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون - قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها ، ويقال إن العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يقب قال له ملك الموت يا غافل جاءك منى رسول بعد رسول فلم تحب ، وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال وقالوا لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوما أن يروع روعة أو يصاب بيلة حتى روى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها . وأن النبي صلى الله عليه وسلم «عرض عليه امرأة فحكي من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل وانها مامرست قط ، فقال لا حاجة لى فيها (٢)» . وذاكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ما أعرفه فقال صلى الله عليه وسلم : إليك عنى من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلي نظر إلى هذا وهذا (٣)» لأنه ورد في الخبر «الحمى حظ كل مؤمن من النار (٤)» . وفي حديث أنس وعائشة رضى الله عنهما «قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة (٥)» . وفي لفظ آخر «الذى يذكر ذنوبه فحزنه» ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أغلب فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها إذ رأوا أنفسهم مزيدا فيها لامن حيث رأوا التداوى قصانا وكيف يكون قصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم .

في نفسهما وتداخلهما
قراءة لبعض الشيء
حالا وتراعى لبعض
مقاما وكلا الرؤيتين
صحيح لوجود تداخلهما
ولا بد من ذكر ضابط
يفرق بينهما على أن
اللفظ والصبرة عنهما
مشعر بالفرق فالحال
سمى حال التحول والقام
مقاما لثبوته واستقراره
وقد يكون الشيء
بعينه حالاً ثم يصير
مقاما مثل أن ينبعث
من باطن العبد داعية
المحاسبة ثم تزول
الداعية بقلية صفات
النفس ثم تعود ثم
تزل فلا يزال العبد
حال المحاسبة يتعاهد
الحال ثم يحول الحال
بظهور صفات النفس

(١) حديث أكثروا ذكر هادم اللذات الترمذى وقال حسن غريب والنسائى وابن ماجه من حديث أنى هريرة وقد تقدم (٢) حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها فقيل فانها مامرست قط فقال لا حاجة لى فيها أحمد من حديث أنس بنحوه بإسناد جيد (٣) حديث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ما أعرفه فقال إليك عنى الحديث أبو داود من حديث عامر البرام أخى الحضرمي [١] بنحوه وفى إسناده من لم يسم (٤) حديث الحمى حظ كل مؤمن من النار البراز من حديث عائشة وأحمد من حديث أنى أمامة والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس وأبو منه والديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وحديث أنس ضعيف وابقها حسان (٥) حديث أنس وعائشة قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟

[١] الحضرمي : نطن من محارب بن خصفة .

(بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال)

فلو قال قائل إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لغيره وإلا فهو حال الضعفاء، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء ، فيقال ينبغي أن يكون من شرط التوكل ترك الحجابة والغصد عند تبيخ الدم . فان قيل إن ذلك أيضا شرك فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيا عن نفسه ، إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأى فرق بينهما ؟ . فان قال وذلك أيضا شرط التوكل فيقال ينبغي أن لا يزال لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالحية وهذا لا قائل به ، ولا فرق بين هذه الدرجات فان جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته ، ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ما روى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون فانهم لما قصدوا الشام واتموا إلى الجاية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما وبواه ذريعا فافترق الناس فرقتين ، فقال بعضهم لا ندخل على الوباء فنلقى بأبيدنا إلى التهلكة ، وقالت طائفة أخرى بل ندخل وتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى ولا نفر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم - ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت - فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه ، فقال ترجع ولا ندخل على الوباء ، فقال له المخالفون في رأيه : أنفر من قدر الله تعالى ؟ قال عمر نعم نعم من قدر الله إلى قدر الله ، ثم ضرب لهم مثلا ، فقال : أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط واديا له شعتان : إحداهما مخضبة ، والأخرى مجدبة أليس إن رعى المخضبة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى فقالوا نعم ثم طلب عبد الرحمن ابن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال عندى فيه يأمر المؤمنين شيء سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر الله أكبر فقال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع في أرض وأتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ^(١) » ففرح عمر رضى الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ورجع من الجاية بالناس ، فاذن كيف انفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل . فان قلت فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء ، وسبب الوباء في الطب الهواء وأظهر طرق التداوى الفرار من الضر ، والهواء هو الضر فلم يرخص فيه ؟ . فاعلم أنه لا خلاف في أن الفرار عن الضر غير منهى عنه ، إذ الحجابة والغصد فرار من الضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح وهذا لا يدل على القصد ولكن الذى يتقدح فيه والعلم عند الله تعالى أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقى ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له فانه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن فالخروج من البلد لا يخلص غالبا من الأمر الذى استحك من قبل ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الوهومات كالرقى والطيرة وغيرها ، ولو تجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منيها عنه ولكن صار منيها عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر وهو أنه لو رخص للأشياء في الخروج لما بقى في البلد إلا المرضى الذين أقدمهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وقعدوا التمهدين ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يمجزون عن مباشرتهما بأنفسهم فيكون ذلك سعيًا في إهلاكهم تحقيقًا وخلصهم منتظر

فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة لم أقف له على إسناد (١) حديث عبد الرحمن بن عوف إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه الحديث وفي أوله قصة خروج عمر بالناس إلى الجاية وأنه بلغهم أن بالشام وباء الحديث رواه البخارى .

إلى أن تداركه
المعونة من الله الكريم
ويغلب حال المحاسبة
وتتقهر النفس
وتتضبط وتملكها
المحاسبة فخير المحاسبة
وطنه ومستقره ومقامه
فيصير في مقام المحاسبة
بعد أن كان له حال
المحاسبة ، ثم بنازله
حال المراقبة ، فمن
كانت المحاسبة مقامه
يصير له من المراقبة
حال ، ثم يحول حال
المراقبة لتناوب السهو
والغفلة في باطن العبد
إلى أن ينقش صباب
السهو والغفلة ويتدارك
الله عبده بالمعونة
فخير المراقبة مقاما
بعد أن كانت حالا ولا
يستقر مقام المحاسبة

كما أن خلاص الأسماء منتظر فلوأقاموا لم تسكن الإقامة قاطعة بالموت ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخللاص وهو قاطع في إهلاك الباقيين وللسلمون كالبقيان يشد بعضه بضواؤهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه فهذا هو القى ينقذ عندنا في تعليل التمسك وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البله فانه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البله حاجة إليهم، نعم لو لم يبق بالبله إلا مطعونون واقفروا إلى التمهدين وقدم عليهم قوم فربما كان ينقذ استجاب الدخول هنا لأجل الاعانة ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن قية للسلمين، وبهذا شبه الفرار من الطاعون في بعض الأخبار بالفرار من الزحف (١) لأن فيه كسرا لقلوب بقية السلمين وسعيا في إهلاكهم فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ما سمع وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك . فان قلت ففي ترك التداوى فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل ؟ . فنقول فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات أو احتاج إلى ما يذكره للموت لتبلى النفلة أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لتصوره عن مقامات الراضين والتوكلين أو نصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف المنافع حتى صار في حقه موهوما كالرقي أو كان شغفه بحاله يمنع عن التداوى وكان التداوى يشغله عن حاله لضغفه عن الجمع فإلى هذه المعاني رجعت الصوارف في ترك التداوى وكل ذلك كالات بالإضافة إلى بعض الخلق وقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كان مقامه أعلى من هذه اللقائات كلها إذ كان حاله يقتضى أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وقدها فانه لم يكن له نظر في الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب كما أن الرغبة في المال تمس والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كالا فهي أيضا تمس بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجر والذهب أو كل من الهرب من الذهب دون الحجر وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء اللدر والذهب عنده وكان لا يمسكه لتعلم الخلق مقام الزهد فانه منتهى قوتهم لالخوفه على نفسه من إمساكه فانه كان أعلى رتبة من أن تعرفه الدنيا، وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها (٢) فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة، وإنما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصا لأنه مما تمس إليه حاجتهم مع أنه لا ضرر فيه بخلاف إدخال الأموال فان ذلك بعظم ضرره، نعم التداوى لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهى عنه ومن حيث إنه يقصد به الصحة ليستعان بها على المصاعب وذلك منهى عنه والمؤمن في طالب الأمر لا يقصد ذلك وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث إنه جعله الله تعالى سببا للنفع كما لا يرى الماء مرويا ولا الخبز مشبعا لحكم التداوى في مقصوده كحكم الكسب فانه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه فقد ظهر بالمعاني التي أوردناها أن ترك التداوى قد يكون أفضل في بعض الأحوال ، وأن التداوى قد يكون أفضل في بعض ، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال

قراره إلا بنازل حال المراقبة ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بنازل حال المشاهدة فإذا منع البعد بنازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ونازل المشاهدة أيضا يصكون حالا يحول بالاستتار ويظهر بالتجلى ثم يصير مقاما وتخلص نفسه عن كسوف الاستتار ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه كالتحقق بالبقاء والتخلص إلى البقاء والترقى من عين اليقين إلى حق اليقين وحق اليقين نازل بمغرق شفاف القلب وذلك أعلى فروع

(١) حديث تشبيه الفرار من الطاعون بالفرار من الزحف رواه أحمد من حديث عائشة بأسناد جيد ومن حديث جابر بأسناد ضعيف وقد تقدم (٢) حديث أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها تقدم ولفظه عرضت عليه مفاتيح خزائن السماء وكنوز الأرض فردها .

والأشخاص والنيات وأن واحدا من الفعل والترك ليس شرطا في التوكل إلا ترك الموهومات كالسكى والرقى فان ذلك تعمق في التدبيرات لا يليق بالتوكلين .

(بيان أحوال التوكلين في إظهار المرض وكتابه)

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البرّ وهو من أهدى اللقائات لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمانه أسلم عن الآفات ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والصدق ومقاصد الإظهار ثلاثة : الأول أن يكون مرضه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب فيذكره لاني معرض الشكاية بل في معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى ، فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن الطبيب أوجاعه وكان أحمد بن حنبل يغير بأمرام يمجدها ويقول إنما أصف قدرة الله تعالى في . الثاني : أن يصف لعير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا في المعرفة فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها فيتحدث به كما يتحدث بالنعم . قال الحسن البصري : إذا حمد المريض لله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى . الثالث أن يظهر بذلك عجزه وانقاره إلى الله تعالى وذلك يحسن ممن تليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز كما روى أنه قيل لعلى في مرضه رضى الله عنه كيف أنت قال بشر فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية فقال أتجلد على الله ؟ فأحب أن يظهر عجزه وانقاره مع ما علم به من القوة والضراوة وتأدب فيه بأدب النبي صلى الله عليه وسلم إياه حيث مرض على كرم الله وجهه فسمعه عليه السلام وهو يقول : اللهم صبرنى على البلاء فقال له صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العافية (١) » فهذه النيات برخص في ذكر المرض وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام كما ذكرته في تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لله تعالى فان خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه لأنه ربما يوم الشكاية ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجود من العلة ومن ترك التداوى توكلًا فلاوجه في حقه للإظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى القضاء ، وقد قال بعضهم من بث لم يصبر ، وقيل في معنى قوله - فبصر جميل - لاشكوى فيه ، وقيل ليعقوب عليه السلام ما الذي أذهب بصرك ؟ قال مر الزمان وطول الأحران فأوحى الله تعالى إليه : تفرغت لشكواى إلى عبادى فقال يارب آتوب إليك ، وروى عن طاوس ومجاهد أنهما قالَا يكتب على المريض أنينه في مرضه وكانوا يكرهون أنين المرض لأنه إظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل ما أصاب إبليس لعنه الله من أبوب عليه السلام إلا أنينه في مرضه فجعل الأنين حظه منه ، وفي الخبر « إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده فان حمد الله وأثنى بغير دعواه وإن شكا وذكر شرا قالَا كذلك تكون (٢) » وإنما كره بعض المباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة في الكلام فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم منهم فضيل ووهيب وبشر ، وكان فضيل يقول أشتهى أن أمرض بلا عواد وقال لا أكره العلة إلا لأجل العواد رضى الله عنه وعنه أجمين .

الشاهدة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم إني أسألك إيمانًا يياشر قلبي » قال سهل بن عبد الله للقلب تجوفان أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهو قلب القلب وسويداؤه والتجوف الثاني ظاهر القلب وفيه العقل ومثل العقل في القلب مثل النظر في العين وهو صقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذي في سواد العين ومنه تنبع الأشعة المحيطة بالمرئيات فهكذا تنبع من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات وهذه الحالة التي خرقت شفاف

(١) حديث مرض على فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول اللهم صبرنى على البلاء فقال قد سألت الله البلاء فسل الله العافية تقدم مع اختلاف (٢) حديث إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده الحديث تقدم .

كل كتاب التوحيد والتوكل بمون الله وحسن توفيقه يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا والله سبحانه وتعالى للوفيق .

﴿ كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ﴾

(وهو الكتاب السادس من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرتهم ، وصفي أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته ، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرفت بأوتار معرفته ، ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها بكنهه جلاله حتى تاهت في يدهاء كبريائه وعظمته ، فكلما اهتزت لملاحظة كنهه الجلال غشيها من الدهش ما أغبر في وجه العقل وبصيرته ، وكلامت بالانصراف آية نوديت من سرادقات الجمال صبر أيها الأيسر عن نيل الحق بجهله ومجلمته ، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرق في بحر معرفته ، ومحرقة بنار محبته . والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكال نبوته ، وطى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمة ، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيرا .

[أما بعد] فإن المحبة لله هي الغاية القصوى من اللقائات والقدرة العليا من الدرجات فما بعد إدراك المحبة مقام إله هو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ولا قبل المحبة مقام إله هو مقدمة من مقدماتها كالنوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر اللقائات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بامكانها ، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها ، وقال لا معنى لها إلا الواظبة على طاعة الله تعالى ، وأما حقيقة المحبة بحال إلامع الجنس والثالث ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولثة الناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر ، ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبة ثم بيان حقيقتها وأسبابها ثم بيان أن لا مستحق للجنة إلا الله تعالى ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على العرفة في الدنيا ثم بيان الأسباب القوية لطلب الله تعالى ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ثم بيان السبب في قصور الأنفهام عن معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ثم بيان معنى الانبساط في الأنس ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ثم بيان حقيقته ثم بيان أن الدعاء وكرهه للعاصي لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصي ثم بيان حكايات وكلمات للذابين متفرقة ، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب .

(بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى)

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض وكيف يفرض مالا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته فلا بد وأن يتقدم الحب ثم بذلك يطبع من أحب ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل - بهمهم ويحبونه - وقوله تعالى - والذين آمنوا أشد حبا لله - وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة إذ قال أبو رزين العقيلي « يا رسول الله ما الإيمان قال أن يكون

القلب ووصلت إلى سويدائه وهي حق اليقين هي أسنى المطايا وأعز الأحوال وأشرفها ونسبة هذه الحال من المشاهدة ككنية الأجر من التراب إذ يكون ترابا ثم طيننا ثم لبننا ثم أجرا فالشاهدة هي الأول والأصل يكون منها الفناء كالطين ثم البقاء كاللبن ثم هذه الحالة وهي آخر الفروع . ولما كان الأصل في الأحوال هذه الحالة وهي أشرف الأحوال وهي محض موهبة لا تكتسب سميت كل المواهب من الدوازل بالعباد الأحوال لأنها غير مقدورة

﴿ كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ﴾

الله ورسوله أحب إليك مما سواها (١) « وفي حديث آخر « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها (٢) » وفي حديث آخر « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين (٣) » وفي رواية « ومن نفسه » كيف وقد قال تعالى - قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم - الآية. وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والانسكار وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهبة فقال « أحبوا الله ما يذكركم به من نعمه وأحبوني لحب الله إياي (٤) » وروى « أن رجلا قال يارسول الله إنى أحبك فقال ﷺ : استمد للفقر فقال إني أحب الله تعالى فقال استمد للبلاد (٥) » وعن عمر رضي الله عنه قال « نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انظروا إلى هذا الرجل ألقى نورا قلبه لقد رأيت بينه وبين أبيه ينفذونه بأطيب الطعام والشراب فدعا حب الله ورسوله إلى ماترون (٦) » وفي الخبر المشهور « إن إبراهيم عليه السلام قال ملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله فأوحى الله تعالى إليه هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه فقال يملك الموت الآن فاقبض (٧) » وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه . فاذا علم أن الموت سبب اللقاء أنزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه « اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد (٨) » وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال « يارسول الله متى الساعة؟ قال ما أعددت لها قال ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أنى أحب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب (٩) » قال أنس فإرأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغفه ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عز جميع البشر . وقال الحسن من عرف ربه أحبه ومن عرف الدين اهتدى فيها والؤمن لا يلهو حتى يغفل فاذا تفكر حزن . وقال أبو سليمان الداراني

(١) حديث أبي رزين العقيلي أنه قال يارسول الله ما الإيمان؟ قال أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواها أخرجه أحمد بزيادة في أوله (٢) حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها متفق عليه من حديث أنس بلفظ لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله وذكره بزيادة (٣) حديث لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين وفي رواية ومن نفسه متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم دون قوله ومن نفسه وقال البخاري من والده وولده وله من حديث عبد الله بن هشام قال عمر يارسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي فقال لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال عمر فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي فقال الآن يا عمر (٤) حديث أحبوا الله لما يذكركم به من نعمه الحديث الترمذي من حديث ابن عباس وقال حسن غريب (٥) حديث إن رجلا قال يارسول الله إنى أحبك فقال استمد للفقر الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل بلفظ فأعد للفقر تخمنافا دون آخر الحديث وقال حسن غريب (٦) حديث عمر قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به الحديث أبو نعيم في الحلية باسناد حسن (٧) حديث إن إبراهيم قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه هل رأيت خليلا يقبض خليله الحديث لم أجد له أصلا (٨) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك الحديث تقدم (٩) حديث قال أعرابي يارسول الله متى الساعة قال ما أعددت لها الحديث متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه .

للعبد بكسبه فأطلقوا القول وتداولت السنة الشيوع أن القامات مكاسب والأحوال مواهب وطى الترتيب الذي درجنا عليه كلها مواهب إذ المكاسب محفوفة بالمواهب وللواهب محفوفة بالمكاسب فالأحوال مواجيد والقامات طرق الواجيد ولكن في القامات ظهر

المكاسب وبطنت الواهب وفي الأحوال بطن الكسب وظهرت الواهب فالأحوال مواهب علوية محماوية والقامات طرقها وقول أمير المؤمنين طي بن أبي طالب رضي الله عنه سلوني عن طرق

إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا . وروى
 أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نخلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم ما الذي بلغ بكم ما أرى
 فقالوا الخوف من النار فقال حق على الله أن يؤمن الخائف ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا
 وتغيرا فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا الشوق إلى الجنة فقال حق على الله أن يعطيكم ما أرجون ثم
 جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن على وجوههم المرآة من النور فقال ما الذي بلغ
 بكم ما أرى قالوا نحب الله عز وجل فقال أنتم العربون أنتم العربون أنتم المقربون . وقال عبد الواحد بن زيد
 مررت برجل قائم في الحاج فقلت أما تجد البرد فقال من شغل حب الله لم يجد البرد . وعن سرى السقطي
 تدعى الأمم يوم القيامة بأبيائها عليهم السلام فقال يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد غير
 المحبين لله تعالى فانهم نادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه فتكاد قلوبهم تتخلع فرحا . وقال هرم
 ابن حبان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه وإذا وجد حلاوة الاقبال إليه
 لم ينظر إلى الدنيا بين المشيمة ولم ينظر إلى الآخرة بين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة .
 وقال يحيى بن معاذ عفوه يستغرق اللذوب فكيف رضوانه ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه وحبه
 يدهش العقول فكيف وده ووده ينسى مادونه فكيف لطفه . وفي بعض الكتب عبيد أنا وحقك لك
 عجب فبحق عليك كن لي عجا . وقال يحيى بن معاذ إني مقيم بفنائك مشغول بفنائك صغيرا أخذتني إليك وسر بلنتي
 بعمرتك وأمكنتي من لطفك وتمنتني في الأحوال وقلبتني في الأعمال سترا وتوبة وزهدا وشوقا ورضا
 وحبا تسقني من حياضك وتهملني في رياضك ملازما لأمرك ومشغولا بقولك ولما طرت شاربي ولاح
 طائرني فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا فلي ما بقيت حولك دندنه
 وبالضراعة إليك هممة لأنى عجب وكل عجب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف وقد ورد
 في حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر وإنما القموض
 في تحقيق معناه فلنشغل به .

(بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى)

اعلم أن الطلب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها ثم معرفة شروطها وأسبابها
 ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى : فأول ما ينبغي أن يتحقق أنه لا يتصور محبة إلا
 بمعرفة وإدراك إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماديل هو من
 خاصية الحي المدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلائمه وإلى
 ما ينافيه وينافره ويؤله وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلاهم وإلذا فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب
 عند المدرك وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعجاب ألم ولذته لا يوصف
 بكونه محبوبا ولا مكروها فاذن كل لذية محبوب عند المتذبه ومعنى كونه محبوبا أن في الطبع ميلا إليه
 ومعنى كونه مبغوضا أن في الطبع نفرة عنه فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء اللذذ فان تأكد
 ذلك الميل وقوى سمي عشقا والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فاذا قوى سمي مقتافها
 أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته . الأصل الثاني : أن الحب لما كان تابعا للإدراك
 والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فكل حاسة إدراك نوع من المدركات
 ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع
 المنبلم فلذة العين في الابصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور اللطيفة الحسنة المستلذة ولذة الأذن في
 النغمات الطيبة للموزونة ولذة النهم في الروائح الطيبة ولذة الذوق في الطعوم ولذة اللبس في اللين والنعمية

السموات فأنى أعرف
 بها من طرق الأرض
 إشارة إلى القامات
 والأحوال فطسرق
 السموات التوبة والزهد
 وغير ذلك من القامات
 فان السالك لهذه
 الطرق يصير قلبه
 سماويا وهي طرق
 السموات ومتزل
 البرصكات وهذه
 الأحوال لا يتحقق بها
 إلا ذو قلب سهاوى .
 قال بعضهم الحال هو
 الذكر الخفى وهذا
 إشارة إلى شيء مما
 ذكرناه وسمعت الشايخ
 بالمرق يقولون الحال
 مامن الله فكل
 ما كان من طريق
 الاكتساب والأعمال
 يقولون هذا مامن
 العبد فاذا لاح للمريد

ولما كتبت هذه المدركات بالحواس ملذذة كانت محبوبة أي كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعل قرعة عيني في الصلاة» (١) فسمى الطيب محبوبا ومعلوم أنه لاحظ للمعين والسمع فيه بل للشم فقط وسمى النساء محبوبات ولاحظ فيهن إلا للبصر واللمس دون الشم والذوق والسمع وسمى الصلاة قرعة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس بل حس سادس مظنته القلب لا يدركه إلا من كان له قلب ولذلك الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان فان كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس حتى يقال إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يجب فاذن قد بطلت خاصية الإنسان وما عيّن به من الحس السادس الذي يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات فلا مشاحة فيه وهيئات فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر والقلب أشد إدراكا من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار فتسكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ولا معنى للحب إلا الليل إلى ما في إدراكه لذة كما سيأتي تفصيله فلا ينكر إذن حب الله تعالى إلا من قصد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلا . الأصل الثالث : أن الإنسان لا يخفى أنه يجب نفسه ولا يخفى أنه قد يجب غيره لأجل نفسه وهل يتصور أن يجب غيره لذاته لأجل نفسه هذا مما قد يشكل على الضمراء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يجب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته والحق أن ذلك متصور وموجود فلبين أسباب المحبة وأقسامها وبيانه أن المحبوب الأول عند كل حي نفسه وذاته ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلا إلى دوام وجوده ونفرة عن عدمه وهلاكه لأن المحبوب بالطبع هو اللاتم للحب وأي شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه فلذلك يجب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل لا مجرد ما يخافه جمع الموت ولا مجرد الخنز من سكرات الموت بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك ولا يجب الموت والعدم المحض إلا المتفاسدة ألم في الحياة ومهما كان مبتلى بيبلاء فمحبوبه زوال البلاء فان أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأن فيه زوال البلاء فالهلاك والعدم محموت ودوام الوجود محبوب وكان دوام الوجود محبوب فكأن الوجود أيضا محبوب لأن الناقص فاقد للكمال والنقص عدم بالإضافة إلى القدر القعود وهو هلاك بالنسبة إليه والهلاك والعدم محموت في الصفات وكأن الوجود كما أنه محموت في أصل الذات ووجود صفات الكمال محبوب كما أن دوام أصل الوجود محبوب وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى - ولن تجد لسنة الله تبديلا - فاذن المحبوب الأول الإنسان ذاته ثم سلامة أعضائه ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقائه فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها والمال محبوب لأنه أيضا آلة في دوام الوجود وكاله وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يجب هذه الأشياء للأعيانها بل لارتباط حفظه في دوام الوجود وكاله بها حتى إنه يحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ بل يتعمل المشاق لأجله لأنه يخافه في الوجود بدمعه فيكون في بقاء نفسه نوع بقاء له فلفرط حبه لبقاء نفسه يجب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبدا ، نعم لو خير بين قتله وقتل ولده وكان طبعه باقيا على اعتداله آثر بقاء نفسه على بقاء ولده

(١) حديث حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء الحديث النسائي من حديث أنس دون قوله ثلاث وقد تقدم .

شيء من الواهب والواجد قالوا هذا مامن الله ومحموه حالا إشارة منهم إلى أن الحال موهبة . وقال بعض مشايخ خراسان الأحوال موارث الأعمال . وقال بعضهم الأحوال كالبروق فان بقي لحديث النفس وهذا لا يكاد يستقيم على الإطلاق وإنما يكون ذلك في بعض الأحوال فانها تسطرق ثم تستلبها النفس فأما على الإطلاق فلا والأحوال لا تمتزج بالنفس كالدهن لا يمتزج بالماء . وذهب بعضهم إلى أن الأحوال لا تكون

لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكامل نفسه فانه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجملا بكاملهم فان العشرة والمال والأسباب الخارجية كالجنح الكمل للانسان وكمال الوجود ودوامه محبوب الطبع لا محالة فاذا المحبوب الأول عند كل حى ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله والسكره عنده ضد ذلك فهذا هو أول الأسباب. السبب الثاني: الاحسان فان الانسان عبد الاحسان وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها وقال رسول الله ﷺ «اللهم لا تجعل لنا جزا على» يدا فيحبه قلبي^(١)» إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطرار لا يستطاع دفعه وهو جيلة وفطرة لا سبيل إلى تغييرها وبهذا السبب قد يحب الانسان الأجنبي الذى لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة وهذا إذا حقق رجوع إلى السبب الأول فان المحسن من أمد بالمال والعمونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التى بها يتبها الوجود إلا أن الفرق أن أعضاء الانسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهى عين الكمال المطلوب فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببها كالتبيب الذى يكون سببها في دوام صحة الأعضاء ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذى هو سبب الصحة إذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لا لذاته بل لأنه سبب للصحة وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب ولكن العلم محبوب لذاته والأستاذ محبوب لكونه حبيب العلم محبوب وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام فاذا يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الانسان نفسه فكل من أحب المحسن لاحسانه فأحب ذاته تحقيقا بل أحب إحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه . السبب الثالث أن يحب الشيء لذاته لا لحظ يتال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيق البالغ الذى يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن فان كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لانفريها ولا تظن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فان قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها وإدراك نفس الجمال أيضا لذبة فيجوز أن يكون محبوبا لذاته وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجارى محبوب لا يشرب الماء وتوكل الخضرة أو يتال منها حظ سوى نفس الرؤية وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجارى^(٢) والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل حتى إن الانسان لتفرج عنه العموم والعموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر فهذه الأسباب ملادة وكل لذبة محبوب وكل حسن وجمال فلا يغلو إدراكه عن لذة ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا بالطبع فان ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله جميل يحب الجمال»^(٣) .

[الأصل الرابع فى بيان معنى الحسن والجمال] اعلم أن المحبوس فى مضيق الخيالات والمهوسات

(١) حديث اللهم لا تجعل لكافر على يدا فيحبه قلبي أبو منصور الديلمى فى مستند القردوس من حديث معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع وقد تقدم (٢) حديث كان يعجبه الخضرة والماء الجارى أبو نعيم فى الطب النبوى من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجارى وإسناده ضعيف (٣) حديث إن الله جميل يحب الجمال مسلم فى أثناء حديث لابن مسعود.

الإذا دامت فأما إذا لم تدم فهى لوائح وطوالع وبوادروهى مقدمات الأحوال وليست بأحوال . واختاف الشايع فى أن العبد هل يجوز له أن ينتقل إلى مقام غير مقامه الذى هو فيه قبل إحكام حكم مقامه . قال بعضهم : لا ينبغي أن ينتقل عن الذى هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه . وقال بعضهم : لا يكمل المقام الذى هو فيه إلا بعد ترقية إلى مقام فوقه فينظر من مقامه العالى إلى مادونه من المقام فيحكم أمر مقامه . والأولى أن يقال والله أعلم : الشخص فى مقامه يعطى حالا من

ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الحلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الانسان فان الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصرا ولا متخيلا ولا متشكلا ولا متلونا مقدر فلا يتصور حسنه وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لثمة فلم يكن محبوبا وهذا خطأ ظاهر فان الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الحلقة وامتزاج البياض بالحمرة فانا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن بل نقول لهذا ثوب حسن وهذا إناء حسن فأى معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ومعلوم أن المعين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة وامن شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقيبح فمعنى الحسن الذى تشترك فيه هذه الأشياء فلا بد من البحث عنه وهذا البحث يطول ولا يليق بعلم العامة الاطناب فيه فنصرح بالحق ونقول كل شيء بمفعاله وحسنه في أن يحضر كاله اللائق به الممكن له فاذا كان جميع كالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الذى جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كركر وفر عليه والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده فحسن كل شيء في كماله الذى يليق به فلا يحسن الانسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ولا يحسن الأواني بما يحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء . فان قلت فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم فانها لا تنفك عن إدراك الحواس لها ففى محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس . فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والروءة وسائر خلال الخير وشي من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته وآية ذلك وأن الأمر كذلك أن الطبايع محبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضی الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا بل على حب أبواب المذاهب مثل الشافعى وأبى حنيفة ومالك وغيرهم حتى إن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه والذب عنه ويحاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه فسكن من دم أريق في نصرة أبواب المذاهب وليت شعري من يحب الشافعى مثلا فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته فاستحسانه الذى حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة فان صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مع التراب وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والاحاطة بمدارك الدين وانتهاضه لافادة علم الشرع ونشره هذه الخيرات في العالم وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة فأما الحواس قاصرة عنها وكذلك من يحب أبابكر الصديق رضى الله عنه ويفضله على غيره أو يحب عليا رضى الله تعالى عنه ويفضله ويتصب له فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره فمعلوم أن من يحب الصديق رضى الله تعالى عنه مثلا ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله إذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ولكن بقي ما كان الصديق به صديقا وهى الصفات الحمودة التى هى مصادر السير الجميلة فكان الحب باقيا

مقامه الأعلى الذى سوف يرتقى إليه فيوجد أن ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذى هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ولا يضاف الشيء إلى العبد أنه يرتقى أولا يرتقى فان العبد بالأحوال يرتقى إلى المقامات والأحوال مواهب ترقى إلى المقامات التى يترج فيها الكسب بالموهبة ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب ترقيه إليه فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات بزائد الأحوال فقل ما ذكرناه يتضح تداخل المقامات والأحوال حتى التوبة

بقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور ، وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهوانه لجميع خلال الخير ينشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ومحلها من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوا لأجله ، فاذن الجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحبوب مصدر السير الجميلة ، وهي الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس حتى إن الصبي الغلي وطبه إذا أردنا أن نجيب إليه غائبا أو حاضرا حيا أوميتا لم يكن لنا سبيل إلا بالاطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة فهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ولم يقدر أن لا يحبه فهل غلب حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبغض أبي جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالاطناب في وصف المحاسن والقابح التي لا تدرك بالحواس بل لما وصف الناس حاتما بالسخاء ووصفوا خالدًا بالشجاعة أحبهم القلوب حبا ضرورياً وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله الحب منهم بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك في بعض أنظار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين بعد الزار ونأى الديار ، فاذن ليس حب الانسان مقصورا على من أحسن إليه بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي قط إحسانه إلى المحب لأن كل جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة ، فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للذمى الباطنة أكثر من حبه للذمى الظاهرة ففتان بين من يحب تشا مصورا على الحائظ للجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة . السبب الخامس : المناسبة الحفية بين المحب والمحبوب ، إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم « لما تعارف منها ائتلف وماتنا كرمها اختلف ^(١) » وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه لأنه أيضا من عجائب أسباب الحب ، فاذن ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب ، وهو حب الانسان وجود نفسه وكاله وبقائه وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويسعى على بقائه ودفع الهلكات عنه وحبه من كان محسنا في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه وحبه لكل ما هو جميل في ذاته ، سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن فلواجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحب لامحالة كما لو كان للانسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوا لامحالة غاية الحب وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها ، فان كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحب لامحالة في أعلى الدرجات ، فلتبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كلها واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى .

ولا تعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام وفي الزهد حال ومقام وفي التوكل حال ومقام وفي الرضا حال ومقام . قال أبو عثمان الخيري منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته ، أشار إلى الرضا ويكون منه حالاً ثم يصير مقاما والمحبة حال ومقام ولا يزال العبد يتوب بطروق حال التوبة حتى يتوب وطروق حال التوبة بالانزجار أولا . قال بعضهم الزجر هيجان في القلب لا يسكنه إلا الاتقياء من الغفلة فيرده إلى اليقظة فاذا تيسقت أبصر الصواب من الخطأ .

(١) حديث لما تعارف منها ائتلف مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في آداب الصحبة .

(بيان أن الستحق للمحبة هو الله وحده)

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله لذلك لجهله وتصوره في معرفة الله تعالى وحسب الرسول صلى الله عليه وسلم محمود لأنه عين حب الله تعالى وكذلك حب العلماء والأقبياء لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوز به إلى غيره فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه . وإيضاحه بأن ترجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بحملتها ولا يوجد في غيره إلا آحادها وأنها حقيقة في حق الله تعالى ووجودها في حق غيره وهم وتخيل ، وهو مجاز محض لاحقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ما تخيله ضفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقياً وبيان أن التحقيق يقتضى أن لا يحب أحداً غير الله تعالى . فأما السبب الأول وهو حب الانسان نفسه وبقائه وكآله ودوام وجوده وبضه لهلاكه وعدمه وتصانعه وقواطع كآله فهذه جيلة كل حى ، ولا يتصور أن ينفك عنها وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى فان من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكآله وجوده من الله وإلى الله وبالله فهو المبتدع الوجود له وهو للبقى له وهو الكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب للوصول إليه وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب والإفالة من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محض وعدم صرف له لا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالبقاء ، وهو ناقص بحد لوجوده لولا فضل الله عليه بالتكليف لحلقته . وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا اليوم الحى الذى هو قائم بذاته وكل ما سواه قائم به فان أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره ، فالضرورة بحسب المفيد لوجوده والديم له إن عرفه خالقا موجداً ومختزاً مبقياً وقيوماً بنفسه ومقوماً لغيره فان كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وربه والمحبة ثمرة العرفقة فتعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا هذ فيها وكيف يتصور أن يحب الانسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه ، ومعلوم أن البتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل فيجب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس فان الكمل من آثار قدرته ووجود الكمل تابع لوجوده كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وقائض منها ووجودها هو خطأ محض إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أظهر من مشاهدة الأبصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعاً عند وقوع القابلة بين الشمس والأجسام الكيفية كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضاً حاصل من قدرة الله تعالى ولكن الترض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق فاذن إن كان حب الانسان نفسه ضرورياً لغيره لمن به قوامه وأولاد واهل ثانياً في أصاه وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضاً ضرورى إن عرف ذلك كذلك ومن خلا عن هذا الحب فلا نه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم في التمتع به والانتفاع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يطاق أرضه إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة فينظر فيه بقدر قربه في الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم .

وقال بعضهم : الزجر ضياء في القلب يصير به خطأ تصدق الزجر في مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه زجر من طريق السلم وزجر من طريق العقول وزجر من طريق الاعيان فينازل التائب حال الزجر وهى موهبة من الله تعالى تقوده إلى التوبة ولا يزال بالبسد ظهور هوى النفس يحويه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاما وهكذا في الزهد لا يزال يتزهد بنزلة حال تربيته ترك الاشتغال بالدنيا وتفتيح له الإقبال عليها

وأما السبب الثاني وهو حبه من أحسن إليه فواساه بما له ولاطفه بكلامه وأمدّه بمعونه واتدب
لنصرته وقمع أعداءه وقام بدفع شرّ الأشرار عنه وانتهى وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في
نفسه وأولاده وأقاربه فإنه محبوب لا محالة عنده وهذا بينه يقتضى أن لا يحب إلا الله تعالى فإنه
لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط فأما أنواع إحسانه إلى كل عبده فليست
أعدها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - وقد
أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر ولكننا تقتصر الآن على بيان أن الاحسان من الناس غير
متصور إلا بالجواز وإنما المحسن هو الله تعالى ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ومكنك
منها لتصرف فيها كيف تشاء فانك تظن أن هذا الاحسان منه وهو غلط فإنه إنما تم إحسانه به
وبعالمه وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك فمن الذى أنعم بخلق
ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذى حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه
أن صلاح دينه أودنيه في الاحسان إليك ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله ومهما سلب الله
عليه الدواعى وقرر في نفسه أن صلاح دينه أودنيه في أن يسلم إليك ماله كان مقهوراً مضطراً
في التسليم لا يستطيع مخالفته فالمحسن هو الذى اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعى الباعثة
الرهقة إلى الفعل وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطر في ذلك اضطراب
مجرى الماء في جريان الماء فيه فإن اعتقدته محسناً أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لا من
حيث هو واسطة كنت جاهلاً بحقيقة الأمر فإنه لا يتصور الاحسان من الانسان إلا إلى نفسه أما
الاحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له في البذل إما آجل وهو الثواب
وإما عاجل وهو اللذة والاستسغار أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب قلوب الخلق
إلى الطاعة والمحبة وكما أن الانسان لا يلقى ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقى في يد إنسان
إلا لغرض له فيه وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده وأما أنت فليست مقصوداً بل يدك آلة له في القبض
حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك الماله فقد استخرك في القبض
للتوصل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضاً هو أرجح عنده
من ماله ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلاً البتة فاذن هو غير مستحق للشكر
والحب من وجهين : أحدهما أنه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه فلا قدرته على المخالفة فهو جار مجرى
خازن الأمير فإنه لا يرى محسناً بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة
والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك فكذلك كل محسن
لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعى عليه وألقى في نفسه أن حظه ديناً
ودينياً في بذله فبذله لذلك . والثاني أنه معتاض عما بذله حظاً هو أوفى عنده وأحب مما بذله فكما
لا يعد البائع محسناً لأنه بذل بم عوض هو أحب عنده مما بذله فكذلك الواهب اعتاض الثواب
أو الحمد والثناء أو عوضاً آخر وليس من شرط العوض أن يكون عيناً متمولاً بل الحظوظ كلها
أعوض تستحق الأموال والأعيان بالإضافة إليها فالاحسان في الجود والجود هو بذل المال من
غير عوض وحظ يرجع إلى البازل وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذى أنعم على العالمين إحساناً
إليهم ولأجلهم لا لحظ وغرض يرجع إليه فإنه يتعالى عن الأغراض فلنفظ الجود والاحسان في حق
غيره كذب أو مجاز ومعناه في حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد
بالجود والاحسان والطول والامتنان فإن كان في الطبع حب المحسن فينبغى أن لا يحب العارف إلا الله

فدمجو أثره بدلالة
شره النفس وحرصها
على الدنيا ورؤية العاجلة
حتى تتداركه المعونة
من الله الكريم فيزهد
ويستقر زهده ويصير
الزهد مقامه ولا تزال
نازلة حال التوكل تفرغ
باب قلبه حتى يتوكل
وهكذا حال الرضا حتى
يظن على الرضا ويصير
ذلك مقامه وههنا
لطيفة وذلك أن مقام
الرضا والتوكل يثبت
ويحكم بيقائمه مع وجود
داعية الطبع ولا يحكم
ببقاء حال الرضا مع
وجود داعية الطبع
وذلك مثل كراهة
بجدها الراضى بحكم
الطبع ولكن علمه
بمقام الرضا يصير حكم

تعالى إذ الاحسان من غيره محال فهو السحق لهذه اللعبة وحده وأما غيره فيستحق اللعبة على الانسان بشرط الجهل بمعنى الاحسان وحقيقته . وأما السبب الثالث وهو حبك المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه وهذا أيضا موجود في الطباع فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق مهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك فانك تجد في قلبك تفرقة بينهما إذ تجد في القلب ميلا إلى الأول وهو الحب وتفرقة عن الثاني وهو البغض مع أنك آيس من خير الأول وآمن من شر الثاني لا تقطع طعمك عن التوغل إلى بلادها فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا إلا من حيث يتعلق منه بسبب فإن الله هو المحسن إلى الكافة والتفضل على جميع أصناف الخلائق أولا بما جادهم وثانيا بتكليفهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم وثالثا بتربيتهم وتنعيمهم بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم وإن لم تكن في مظان الضرورة وربما بتجليلهم بالمزايا والزوائد التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجية عن ضروراتهم وحاجاتهم ومثال الضروري من الأعضاء الرأس والقلب والكبد ومثال المحتاج إليه العين واليد والرجل ومثال الزينة استقواس الحاجبين وحرمة الشفتين وتلوذ العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الانسان الساء والغذاء ومثال الحاجة السواء واللحم والفواكه ومثال المزايا والزوائد خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائذ الفواكه والأطعمة التي لا تنخرم بدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى القرش فاذن هو المحسن فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فإنه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الاحسان وخالق أسباب الاحسان فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى . وأما السبب الرابع وهو حب كل جميل لذات الجمال لالخط ينال منه وراء إدراك الجمال فقد بينا أن ذلك مجبول في الطباع وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة والأول يدركه الصبيان والبهائم والثاني يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركون فيه من لا يعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال فإن كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب ومثال هذا في الشهادة حب الأنبياء والعلماء وذوى السكارم السنية والأخلاق للرضية فإن ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الأعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه ، نعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه العدالة عليه حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الصديق رضى الله تعالى عنه أو الشافعي رحمة الله عليه فلا يحبه إلا الحسن ما ظهر له منهم وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر الأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها وادلة عليها فمن رأى حسن تصنيف الصنف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة ثم كلما كان العلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة كان العلم أشرف وأجمل وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا وأجل للمهمات هو الله تعالى فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى

الطبع وظهور حكم
الطبع في وجود
الكراهية المضمرة
بالعلم لا يخرج عنه
مقام الرضا ولكن يفقد
حال الرضا لأن الحال
تجردت موهبة أحقرت
داعية الطبع فيقال
كيف يكون صاحب
مقام في الرضا ولا يكون
صاحب حال فيه والحال
مقدمة المقام والمقام
أثبت تقول : لأن المقام
لما كان مشوبا بكسب
العبد احتمل وجود
الطبع فيه والحال لما
كانت موهبة من الله
تزهت عن مزج الطبع
حال الرضا أصل ومقام
الرضا أمكن ولا بد
للمقامات من زائد
الأحوال فلا مقام إلا

وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به فاذن جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ترجع إلى ثلاثة أمور - أحدها علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه . والثاني قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة . والثالث تزهمهم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى . أما العلم فأين علم الأولين والآخريين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وقد خاطب الخاق كلهم فقال عز وجل - وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً - بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة أو بوضحة لم يطلعوا على عشر عشر ذلك - ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء - والقدر اليسير الذي علمه الخلائق كلهم فتعليمه عدوه كما قال تعالى - خاق الانسان علمه البيان - فان كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً وكان هو في نفسه زينة وكلاً للموصوف به فلا ينبغي أن يجب بهذا السبب إلا الله تعالى فعلوم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يجب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعم وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم ما تقاضاه معيشته والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم لأن الأعم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور في الامكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لانهاية لها ومعلومات الخاق متناهية . وأما صفة القدرة: فهي أيضاً كمال والعجز نقص فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فانه محبوب وإدراكه لتدني حتى إن الانسان ليسمع في الحكاية شجاعة على وخالد رضى الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصادف في قلبه اهتزازاً وفرحاً وارتياحاً ضرورياً بمجرد لذة السماع فضلاً عن المشاهدة ويورث ذلك حبا في القلب ضرورياً للمتصف به فانه نوع كمال فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكاً وأقوامهم بطشاً وأقهرهم للشهوات وأقهرهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره مامنتهى قدرته وإنما غاية أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الانس في بعض الأمور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا ضراً ولا نفعاً بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الحرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ولا يحتاج إلى عدا ما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متمتعاً بقدرة فضلاً عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك ولو سلط بهو ضاع على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه فليس لعمد قدرة إلا بتمكن مولا كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال - إنا ملكنا له في الأرض - فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكن الله تعالى إياه في جزء من الأرض والأرض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غبرة من تلك المدرة ثم تلك الغبرة أيضاً من فضل الله تعالى وتمكينه فيستحيل أن يحب عبداً من عباده تعالى لقدرة وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يجب الله تعالى لذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فهو الجبار

بعد سابقة حال ولا تفرد للمقامات دون سابقة الأحوال. وأما الأحوال فمنها ما يصير مقاما ومنها ما لا يصير مقاما والسر فيه ما ذكرناه أن الكسب في المقام ظهر والوهبة بطنت وفي الحال ظهرت للوهبة والكسب بطن فلما كان في الأحوال الوهبة غالبية لم تقيّد وصارت الأحوال إلى ما لانهاية لها ولطف سنى الأحوال أن يصير مقاما ومقدورات الحق غير متناهية ومواهبه غير متناهية ولهذا قال بعضهم لو أعطيت روحانية عيسى وكلمة موسى وخلة إبراهيم

الفاهر والعليم القادر السموات مطويات يمينه والأرض وملكها وما عليها في قبضته وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته إن أهلكتهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعي بخلقها ولا يسه لئوب ولا فتور في اختراعها فلا قدرة ولا قادر إلا هو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستبلاء فان كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواء أصلا . وأما صفة التنزه عن العيون والنقائص والتقدس عن الرذائل والخبائث فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة والأنبياء والصديقون وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقديس والتنزه إلا للواحد الحق الملك القدوس ذي الجلال والاکرام . وأما كل مخلوق فلا تخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله وإيس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فان منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدا مسخرا لغيره قائما بغيره وذلك محال في حق غيره فهو التفرد بالكمال المنزه عن النقص القدوس عن العيوب وشرح وجوه التقديس والتنزه في حقه عن النقائص بطول وهو من أسرار علوم الكاشفات فلا يتطول بذكره فهذا الوصف أيضا إن كان كالا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقة إلهه وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا بل بالاضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا كما أن للفارس كالا بالاضافة إلى الحمار وللإنسان كالا بالاضافة إلى الفرس وأصل النقص شامل للكل وإنما يتفاوتون في درجات النقص ؛ فاذن الجليل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذي لا ند له الفرد الذي لا ضد له الصمد الذي لا منازع له الغني الذي لا حاجة له القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض الفاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة الأزلى الذي لا أول لوجوده الأبدى الذي لا آخر لبقائه الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به جبار السموات والأرض خالق الجماد والحيوان والنبات المفرد بالعزة والجبروت المتوحد بالملك والملكوت ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال الذي تتجبر في معرفة جلاله العقول وتخرس في وصفه الألسنة الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الأنبياء الاقرار بالقصور عن وصفه كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» (١) وقال سيد الصديقين رضی الله تعالى عنه: العجز عن درك الإدراك إدراك سبحان من لم يجعل للحقائق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ، فليت شعري من ينكر إمكان حب الله تعالى تحميها ويحمله مجازا أينسركر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والحمد ونعوت الكمال والحاسن أو ينسركر كون الله تعالى موصوفا بها أو ينسركر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوبا بالطبع عند من أدركه فسبحان من احتجب عن بشار العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبق له منه الحسن الذين هم عن نار الحجاب مبعدون وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتهبون وفي مسارج المحسوسات وشهوات البهائم يترددون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالاحسان لأن الاحسان يزيد وينقص ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إن أود الأوداء إلى من عبدني بغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقا ، وفي الزبور : من أظلم ممن

(١) حديث لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك تقدم .

عليه السلام لطلبت ما وراء ذلك لأن مواهب الله لا تنحصر وهذه أحوال الأنبياء ولا تعطى الأولياء ولكن هذه إشارة من القائل إلى دوام تطوع العبد وتطلبه وعدم قناعته بما هو فيه من أمر الحق تعالى لأن سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه به على عدم القناعة وقصر باب الطلب واستئزال بركة للزيد بقوله عليه السلام «كل يوم لمأزدد فيه علما فلا بورك لي في صبيحة ذلك اليوم» وفي دعائه صلى الله عليه وسلم «اللهم ما قصر عنه رأبي وضمف فيه

عبدني لجنة أونار لولم أخلق جنة ولا ناراً ألم أكن أهلاً أن أطاع ، ومرّ عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا نخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم نحلوا خفتم ونحلوا قار جوتهم ، ومرّ بقوم آخرين كذلك فقالوا نعبده حباً له وتعظيماً لجلاله فقال أتم أولياء الله حقا معكم أمرت أن أنعم وقال أبو حازم إني لأستحي أن أعبده للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل وكالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل ، وفي الخبر «لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجراً لم يعمل ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل»^(١) وأما السبب الخامس للحب فهو للنسبة والشاكلة لأن شبه النبي منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل ، ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير ويألف الطير نوعه ويفر من غير نوعه وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح ، وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهده الأخبار والآثار كما استقصيناه في باب الأخوة في الله من كتاب آداب الصعبة فليطلب منه وإذا كانت النسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمناسبة الصبي الصبي في معنى الصبا وقد يكون خفياً حتى لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» فالعارف هو التناصب والتناكر هو التباين وهذا السبب أيضاً يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى الشابهة في الصور والأشكال بل إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها في الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغيرة حتى يتر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك فالتى يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاعتداه والتخلق بأخلاق الربوبية حتى قيل تحاققوا بأخلاق الله وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والاحسان والالطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل إلى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى لاجتماع طلب القرب بالمسكان بل بالصفات ، وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي فهي التي يومية إليها قوله تعالى - ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي - إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق وأوضح من ذلك قوله تعالى - فإذا سويته ونفخت فيه من روحي - ولذلك أسجد له ملائكته ويشير إليه قوله تعالى - إنا جعلناك خليفة في الأرض - إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة وإليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق آدم على صورته»^(٢) حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة للدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا ، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علواً كبيراً وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام «مرضت فلم تعبدني فقال يارب وكيف ذلك قال مرض عبدني فلان فلم تعده ولو عدته وجددتني عنده»^(٣) وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرض كما قال الله تعالى «لا يزال يتقرب العبد إلى بالوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به»^(٤) وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد

عملى ولم تبلغه نيق وأمنيق من خير وعدته أحداً من عبادك أو خير أنت معطيه أحداً من خلقك فأنا أرغب إليك وأسألك إياه» فاعلم أن مواهب الحق لا تنحصر والأحوال مواهب وهي متصلة بكلمات الله التي ينفذ البحر دون نقادها وتنفذ أعداد الرمال دون أعدادها والله النعم للمعطى .

[الباب التاسع والخمسون في الاشارات إلى اللقائات على الاختصار والايجاز] أخبرنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب الهروردي رحمه الله قال أنا أبو منصور بن

(١) حديث لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجراً لم يعمل ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل (٢) حديث إن الله خلق آدم على صورته تقدم (٣) حديث قوله تعالى مرضت فلم تعبدني فقال وكيف ذلك قال مرض فلان الحديث تقدم (٤) حديث قوله تعالى لا يزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

عزب الناس فيه إلى قصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول حتى قال بعضهم أنا الحق وصل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا هو إله وقال آخرون منهم مدرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون أتحد به ، وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتشليل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الأفلون ، ولعل أبا الحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد في قول القائل :

لازلت أنزل من ودادك منزلا تحبير الأسباب عند نزوله

فلم يزل يعدو في وجدته على أجمة قد قطع قصبا وبقى أصوله حتى تشقت قدماه وتور متاومات من ذلك وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقبلها وجودا، فهذه هي المعلومة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحميها لا مجازا وفي أعلى الدرجات لا في أدناها فكان المعقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط كما أن المعقول للممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ثم كل من يحب من الخالق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غير لمشاركته إياه في السبب والشركة نقصان في الحب وغض من كماله ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد إله الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والكمال ولا شريك له في ذلك وجودا ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا فلا جرم لا يكون في حبه شركة فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا يتطرق الشركة إلى صفاته فهو المستحق إذا الأصل المحبة والكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا.

(بيان أن أجل الذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم)

وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة)

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات والانسان جامع لجملة من القوى والفرائز لكل قوة وغريزة لذة ولذتها في نيلها لمقتضى طبيعتها الذى خلقت له فان هذه الفرائز ما ركبت في الانسان عبثا بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبيعتها وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام فلا جرم لذتها في نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبيعتها وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاستماع والشم فلا تخلو غريزة من هذه الفرائز عن ألم ولذتها بالإضافة إلى مدرجاتها فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهى لقوله تعالى - أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الايمان واليقين ولا معنى للاشتغال بالأمامى فان الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعانى لأن الضعيف يطلب المعانى من الألفاظ وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة ما يدرك المعانى التي ليست متخيلة ولا محسوسة كما دراكه خلق العالم وأفقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق الجادلة والمناظرة فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية وإلا فالصفة التي فارق الانسان بها البهائم وبها يدرك معرفه الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن تنم وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها ثمقتضى طبيعتها المعرفة والعلم وهى لذتها كما أن مقتضى سائر الفرائز هو لذتها وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة حتى إن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شئ خسيس يفرح به والذى ينسب إلى الجهل ولو في شئ حقير يغمم به وحتى إن الانسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتدح به في الأشياء الحقيرة فالعالم بالعلم بالشرط يحظى خسته لا يطبق السكوت فيه عن التعالم وينطلق لسانه بذكر ما يطله وكل ذلك لقرط لذة العلم وما يستشعره

خيرون إجازة قال أنا أبو محمد الحسن بن علي بن محمد الجوهري إجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس بن محمد قال أنا أبو محمد يحيى بن صاعد قال أنا الحسين بن الحسن المروزي قال أنا عبد الله ابن المبارك قال أنا الهيثم بن جميل قال أنا كثير بن سليم المدائني قال سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله إنى رجل ذرب اللسان وأكثر ذلك على أهلى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أين أنت من الاستغفار فأتى استغفاره

من كمال ذاته به فان العلم من أخص صفات الربوبية وهى منتهى الكمال ولذلك يرتاح انطبع إذا أتى عليه بالتكاه وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذبه ثم ليست لذة العلم بالحراثة والحياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدير أمر الحلق ولذذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملسكوت السموات والأرض بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف العلوم حتى إن الذى يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك مجده لذة وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه فان علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تديره فى رياسته كان ذلك ألد عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك فان اطلع على أسرار الوزير وتديره وما هو عازم عليه فى أمور الوزارة فهو أشهى عنده والذمن علمه بأسرار الرئيس فان كان خبيراً بباطن أحوال الملك والسلطان الذى هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده والذمن علمه بباطن أسرار الوزير وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشدّ وجه له أكثر لأن لذته فيه أعظم فهذا استبان أن ألد المعارف أشرفها وأشرفها بحسب شرف العلوم فان كان فى المعلومات ما هو الأجل والأكل والأشرف والأعظم فالعلم به ألد العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها وليت شعري هل فى الوجود شئ أجل وأعلى وأشرف وأكل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها وهل يتصور أن تكون حضرة فى الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التى لا يحيط بمبادئ جلالها ومعجائب أحوالها وصف الواصفين فان كنت لا تشك فى ذلك فلا ينبغى أن تشك فى أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتيب الأمور الالهية الهيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وهذا تبين أن العلم لذيد وأن ألد العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتديره فى مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين فينبغى أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعنى لذة الشهوة والنضب ولذة سائر الحواس الخمس فان اللذات مختلفة بالنوع أولاً كخالفه لذة الوقاع لذة السماع ولذة المعرفة لذذة الرياسة وهى مختلفة بالضعف والقوة كخالفه لذة الشبق المتعلم من الجماع لذة القاتر للشهوة وكخالفه لذة النظر إلى الوجه الجميل القائق الجمال للذة النظر إلى مادونه فى الجمال وإتمام عرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها فان الخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألد عنده من الروائح الطيبة وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل فيعلم به أن لذة القلبية فى الشطرنج أقوى عنده من لذذة الأكل فهذا معيار صادق فى الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول: اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس وإلى باطنة كلذة الرياسة والقلبية والكرامة والعلم وغيرها إذ ليست هذه اللذة للمعين ولا للأنف ولا للأذن ولا لللس ولا للذوق والمعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة فلو خير الرجل بين لذذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء فان كان الخير خسيس المهمة ميت القلب شديد النهمة اختار اللحم والحلاوة وإن كان على المهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة فاخياره للرياسة يدل على أنها ألد عنده من المطعومات الطيبة ، نعم الناقص الذى لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي أو كالأذى ماقت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذذة المطعومات على لذذة الرياسة وكما أن لذذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والتمه ففذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى

فى اليوم واللييلة
مائة مرة» وروى
أبوهريرة رضى الله عنه
فى حديث آخر «فانى
لأستغفر الله وأنوب
إليه فى كل يوم مائة
مرة» وروى أبو بريدة
قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم «إنه
ليغان على قلبى فأستغفر
الله فى اليوم مائة مرة»
وقال الله تعالى - وتوبوا
إلى الله جميعا أيا
المؤمنون لعلكم
تفلحون - وقال الله
عز وجل - إن الله يحب
التوابين - وقال الله
تعالى - يا أيها الذين
آمنوا توبوا إلى الله
نوبة نصوحا - التوبة
أصل كل مقام وقوام
كل مقام ومفتاح كل

أسرار الأمور الالهية ألد من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق وغاية العبارة عنه أن يقال - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين - وأنه أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعا فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحقر الخلق الذين يرأسهم لهله بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته وكونه مشوبا بالكسورات التي لا يتصور الخلو عنها وكونه مقطوعا بالموت الذي لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستهظم بالاضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين فإنها خالية عن المزاحمات والكسورات متمسكة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض وإذا خرج النظر عن القدرات فلانها لعرضها فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذي هو أمر رباني سماوي وإنما الموت تغيراً لأحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخلصها من حبسها فأما أن يعدمها فلا ولا تحببن الذين قتلوا في سبيل الله أو اتابوا أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم - الآية . ولا تظن أن هذا مخصوص بالمقتول في الحركة فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبر « إن الشهيد يتنحى في الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتنحون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء^(١) » فاذن جميع أقطار مملكات السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بحسبه وشخصه فهو من مطالعة جمال المملكات في جنة عرضها السموات والأرض وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً إلا أنهم يتفاوتون في سعة منزلاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوى الكمال من لذات الحواس كلها وأن هذه اللذة لا تكون لبيحة ولا لصبي ولا لعمتوه وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثران الرياسة فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله ومملكات سمواته وأسرار مملكته أعظم لذة من الرياسة فهذا مختص بمعرفة من نال مرتبة المعرفة وذائقها ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له لأن القلب معدن هذه القوة كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ولا رجحانها على لذة شم البنفسج عند العنين لأنه قد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف ولعمري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف الشكليات وانحلال الشبهات التي قوى حرصهم على طلبها فإنها أيضاً معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق والحكاية فيه قليلة الحدوى فهذا

(١) حديث إن الشهيد يتنحى أن يرد في الآخرة إلى الدنيا ليقتل مرة أخرى الحديث متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم وليس فيه وإن الشهداء يتنحون أن يكونوا علماء الحديث .

حال وهي أول اللقائات وهي بمثابة الأرض للبناء فمن لا أرض له لا بناء له ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له وإن يبلغ علمي وقد سعى وجهدي اعتبرت اللقائات والأحوال وثمرتها فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه فصارت مع الإيمان أربعة ثم رأيتها في إفادة الولادة العنوية الحقيقية بمثابة الطابع الأربع التي جعلها الله تعالى بأجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية ومن تحقق بحقائق هذه الأربع لم ينجس مملكات السموات

القدر ينهك على أن معرفة الله سبحانه ألد الأشياء وأنه لالذة فوقها ولهذا قال أبو سليمان الداراني إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له أخبرني يا أبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العباد والانتطاع عن الخلق فكنت فقال ذكر الموت فقال وأي شيء الموت فقال ذكر القبر والبرزخ فقال وأي شيء القبر فقال خوف النار ورجاء الجنة فقال وأي شيء هذا إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا . وفي أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت متشوقا بطلب الرب تعالى فقد لهما ذلك عما سواه ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحرث في النوم فقال ما فعل أبو نصر الثمار وعبد الوهاب الوراق فقال تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يا كلان وبشر بن قات فأنت قال علم الله قلة رغبتني في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه وعن علي بن الوفي قال رأيت في النوم كأنني أدخلت الجنة فرأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا قال ثم جاوزتهما إلى حظيرة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شخص بصره بنظر إلى الله تعالى لا يطرف فقلت لرضوان من هذا فقال معروف الكرخي عبد الله لا خوف من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين بشر بن الحرث وأحمد بن حنبل ولذلك قال أبو سليمان : من كان ليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثوري لرابعة ما حقيقة إيمانك قالت ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبدته حبا له وشوقا إليه ، وقالت في معنى المحبة نظما :

أحبك حين حبّ الهوى وحبا لأنك أهل لها
فأما الذي هو حبّ الهوى فشغلي بذكرك عن سواها
وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

واعلمها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإتمامه عليها بمحظوظ العاجلة ومحبته لها هو أهل له الحب لجلاله وجماله الذي انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواهما والذمة مطالعة جمال الربوية هي التي عبر عنها رسول الله ﷺ حيث قال حاكيا عن ربه تعالى «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» (١) وقد تعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ولذلك قال بعضهم إنني أقول يارب يا الله فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا يتنادى جليسه وقال إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة أي يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون ما يقوله جنونا أو كفرا ثم تصد العارفين كلامهم وصله وقاؤه فقط فهي قرة العين التي لا تعلم نفس ما أخفي لهم منها وإذا حصلت اتحدت لهم موم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها فلو ألقى في النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم ينتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية وليت شعري من لم يفهم لإحباب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل وأي معنى لو عداته تعالى به عباده وذكروا أنه أعظم النعم بل من عرف الله عرف أن اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قال بعضهم :

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت الحديث البخاري من حديث أبي هريرة .

ويكشف بالقدر والآيات ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المزلات ويعطي بجميع الأحوال والمقامات فكلها من هذه الأربع ظهرت وبها تهيات وتأكدت فأحد الثلاث بمد الإيمان التوبة النصوح والثاني الزهد في الدنيا والثالث تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقالية من غير فتور وقصور ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها وهي

كانت لقي أهواء مفارقة فاستجمعت مذ رأيتك العيين أهواي
فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الوري مذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك ياديني ودنياي
ولذلك قال بعضهم : وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جته

وما أرادوا بهذا إلا إشاراً لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح فان الجنة معدن تمتع الحواس . فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط ومثال أطوار الخلق في لذتهم ما ذكره وهو أن الصبي في أول حركته وتميزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو حتى يكون ذلك عنده لذة من سائر الأشياء ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها ثم تظهر لذة الرياضة والملاهي والتكاثر وهي آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى - اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر - الآية ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها فكل متأخر فهو أقوى وهذا هو الأخير إذ يظهر حب اللعب في سن التمييز وحب النساء والزينة في سن البلوغ وحب الرياضة بعد العشرين وحب العلوم يقرب الأربعين وهي الغاية العليا وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشغل بملاعبة النساء وطلب الرياضة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياضة ويشغل بمعرفة الله تعالى . والعارفون يقولون - إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون - .

(بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا)

اعلم أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال كالصور التخيلية والأجسام اللطونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات وإلى ما لا يدخل في الخيال كذات الله تعالى وكل ما ليس بحس كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ومن رأى إنساناً ثم غص بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأن الصورة المرئية تكون موافقة للتخيلية وإنما الاتراق بمزيد الوضوح والكشف فان صورة المرئي صارت بالرؤية أتم انكشافاً ووضوحاً وهو كمشخص يرى في وقت الاسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رؤى عند تمام الضوء فانه لاتفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف ، فاذن الخيال أول الادراك والرؤية هو الاستكمال لادراك الخيال وهو غاية الكشف وسمى ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه في الدين بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل للكشوف في الجهة أو الصدر مثلا استحق أن يسمى رؤية وإذا فهمت هذا في التخيلات فاعلم أن المعلومات التي لاتتشكل أيضاً في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان : إحداهما أولى والثانية استكمال لها وبين الأولى والثانية من التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين التخيل والمرئي فيسمى الثاني أيضاً بالاضافة إلى الأول مشاهدة ولقاء ورؤية وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجاباً بين البصر والرئي ، ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ومالم ترتفع كان الادراك الحاصل مجرد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بموارض البدن ومقتضى الشهوات

قلة الكلام وقلة الطعام
وقلة المنام والاعتزال
عن الناس . واتفق
العلماء الزاهدون
والشايخ على أن هذه
الأربع بها تستقر
المقامات وتستقيم
الأحوال وبها صار
الأبدال أبدالاً بتأييد
الله تعالى وحسن
توفيقه وبنين بالبيان
الواضح أن سائر
المقامات تندرج في
حصة هذه ومن ظفر
بها فقد ظفر بالمقامات
كلها أولها بعد الإيمان
التوبة وهي في مبدأ
صحتها تنفتقر إلى أحوال
وإذا صحت تشتمل
على مقامات وأحوال
ولا بد في ابتدائها
من وجسود زاجر

وما غاب عليها من الصفات البشرية فانها لا تنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار والقول في سبب كونها حجاباً بطول ولا يلبق بهذا العلم ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام - لن تراني - وقال تعالى - لا تدركه الأبصار - أي في الدنيا ، والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الله تعالى ليلة المعراج (١) . فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة فمنها ما تراكم عليه الحبث والصدأ فصار كالمرآة التي فقد بطول تراكم الحبث جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصقيل وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد تعود بالله من ذلك . ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضاً يقطع منه الحبث الذي هو متدنس به ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين كما وردت به الأخبار سبعة آلاف سنة (٢) ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غيرة وكدورة ما وإن قلت . ولذلك قال الله تعالى - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً - فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها فإذا أكل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافق استحقاق الجنة وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحد من خلقه فانه واقع بعد اقامة وقت القيامة مجهول فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقاؤه عن الكدورات حيث لا يبرهق وجهه غيرة ولا قنرة لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى فيتجلى له تجلياً يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما علمه كانكشاف تجلي المرآة بالإضافة إلى ما تجلله ، وهذه المشاهدة والتجلى هي التي تسمى رؤية ، فاذن الرؤية حق بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان فان ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علواً كبيراً بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة فتراه في الآخرة كذلك ، بل أقول المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتباغ كمال الكشف والوضوح وتقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة ، والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح كما ضربنا من المثال في استكمال الخيال بالرؤية ، فإذا لم يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيتها في الوضوح إلى غاية

ووجدان الزاجر حال لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواهب وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها . قال رجل لبشر الحافي مالي أراك مهموماً . قال لأنني ضالٌّ ومطلوب ظللت الطريق والمقصود وأنا مطلوب به ، ولو تبينت كيف الطريق إلى المقصد لطلبت ولكن سنة الغفلة أدركتني وليس لي منها خلاص إلا أن أزجر فأزجر . وقال الأصمعي : رأيت أعرايا بالبصرة يشتكي عينيه وهما يسيل منها المساء قات له ألا

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم رأى الله تعالى ليلة المعراج على الصحيح هذا الذي صححه المصنف هو قول عائشة في الصحيحين أنها قالت من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ولمسلم من حديث أبي ذر سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نور أني أراه وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى إثبات رؤيته له وعائشة لم تر ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحديث أبي ذر قال فيه أحمد ما زلت له منكراً . وقال ابن خزيمة في القلب من صحة إسناده شيء مع أن في رواية لأحمد في حديث أبي ذر رأيت نوراً إنني أراه ورجال إسنادهما رجال الصحيح (٢) حديث إن أقصى المكث في النار في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمي الحديث وفيه وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة وإسناده ضعيف .

الكشف أيضا جهة وصوره لأنها هي بينها لا تفرق منها إلا في زيادة الكشف كأن الصورة المرئية هي التخيلة بينها إلا في زيادة الكشف وإليه الإشارة بقوله تعالى - إسمي نورم بين أيديهم وبأيامهم يقولون ربنا آتمم لنا نورنا - إذ تمام النور لا يؤثر إلا في زيادة الكشف ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كأنه ينقلب النواة شجرة والحب زرعاً ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل ومن لم يزرع الحب فكيف يحصل له زرع فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي أيضا على درجات متفاوتة فاختلف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كما يختلف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر إذ تختلف لهامحاله بكثرتها وقتها وحسنها وقوتها وضعفها ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام «إن الله يتجلي للناس عامة ولأبي بكر خاصة»^(١) فلا ينبغي أن يظن أن غير أبي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والشاهدة ما يجده أبو بكر بل لا يجد إلا عشره إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشيره ولما فضل الناس بسر وقر في صدره فضل لهامحاله يتجل أنفراد به وكأنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على الطعوم والنكوح وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة وعلى النكوح والطعوم والشروب جميعا فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة إذ يرجع نعيمها إلى الطعوم والنكوح وهؤلاء بينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفناه من إشارات لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة للنكوح والطعوم والشروب وسائر الخلق مشغولون به ولذلك لما قيل لرابعة ماتقولين في الجنة فقالت الجارم الدار فيبت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا يحشر المرء إلا على ما عات عليه ولا يموت إلا على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الذي يتعم به بعينه فقط إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف النطاء فتضاعف اللذة به كما تضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فان ذلك منتهى لذته وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي فمن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره بل ربما يتأذى به فاذن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته فأصل السموات هي المعرفة التي عبر الشرح عنها بالآيمان. فان كانت فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضعافها لأن لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حد قريب لا ينتهي في القوة إلى أن يستحق سائر لذات الجنة فيها. فاعلم أن هذا الاستحقاق للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بهلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها فلما عارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لوعرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلا إلى لذة اللقاء والشاهدة كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته وللذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها وللذة المس باليد إلى لذة الواقع وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول

(١) حديث إن الله يتجلي للناس عامة ولأبي بكر خاصة ابن عدى من حديث جابر . وقال باطل بهذا الاسناد وفي الميزان للذهبي أن لدار قطنى رواه عن الهاملى عن طى بن عبدة وقال الدار قطنى إن طى بن عبدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن الجوزى في الموضوعات من حديث جابر وأبي بردة وعائشة .

تمسح عينيك فقال لا لأن الطبيب زجرني ولاخير فيمن لا ينجبر فالزجر في الباطن حال يهبها الله تعالى ولا بد من وجودها للتائب ثم بعد الانزجار يجد العبد حال الانتباه. قال بعضهم: من لزم مطالعة الطوارق اتقه. وقال أبو يزيد : علامة الانتباه خمس إذا كر نفسه افتقر وإذا كر ذنبه استنفر إذ ذكر الدنيا ر وإذا ذكر الآخرة استبشر وإذا ذكر المولى اقشعر . وقال بعضهم: الانتباه أوائل دلالات الخير إذا انتبه العبد من رقدة غفلته أداه ذلك الانتباه إلى

لذة النظر إلى وجه المشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب أحدها كمال جمال المشوق ونقصانه فان اللذة في النظر إلى الأجل أكل لا محالة . والثاني كمال قوة الحب والشهوة والعشق فليس التذامن اشتد عشقه كالتذاذ من ضعف شهوته ووجهه . والثالث كمال الإدراك فليس التذاذ من رؤية المشوق في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعد كالتذاذ بإدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ولا إدراك اللذة الضاحجة مع توب حائل كإدراكها مع التجرد . والرابع اندفاع العوائق للشهوة والآلام الشاغلة للتلب فليس التذاذ الصحيح الفارغ للتجرد فننظر إلى المشوق كالتذاذ الخائف للدعور أو الرريض التأم أو للشغول قلبه بهم من الهمات قدر طاشقا ضعيف العشق ينظر إلى وجهه مشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتماع عليه عقارب وزناير تؤذي بمرئته غه وتشغل قلبه فهو في هذه الحالة لا يغلو عن لذة مامن مشاهدة مشوقه فلوطرأت على القبأة حالة انبهتك بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذيات وبقي سلبا فارغا وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق للفرط حتى بلغ أقصى الغايات فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتد بها فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به والعقارب والزناير مثال الشهوات للتسلطة على الانسان من الجوع والعطش والغضب والنم والحزن وضعف الشهوة والحب مثال تصور النفس في الدنيا ونقصاتها عن الشوق إلى اللأ الأمل والثغاتها إلى أسفل السافلين وهو مثل تصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياضة والثغاتها إلى العيب بالصفور والعارف وإن قويت في الدنيا معرفته فلا يغلو عن هذه المشوات ولا يتصور أن يغلو عنها البتة نعم قد تضاعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلم يدوم بل يمرض من الشواغل والأفكار والحواطر ما يشوشه وينصه وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة مننصة إلى اللوت وإنما الحياة الطيبة بعد اللوت وإنما العيش عيش الآخرة - وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يملون - وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يجب لقاء الله تعالى فيجب اللوت ولا يكره إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فان المعرفة كالبنر وبهر المعرفة لا ساحل له فلا حيلة بكنه جلال الله محال فكما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت كثر التعمير في الآخرة تو عظم كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا ولا يزرع إلا في صعيد القلب ولا حصاد إلا في الآخرة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله (١)» لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمدومة التمسك والمواظبة على المجاهدة والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرد لطلب ويستدعى ذلك زمانا لا حصة فمن أحب الموت أحب لأنه رأى نفسه واقفا في المعرفة بالناس إلى منتهى ما يسر له ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تمهله قوته لو عمر فهذا سبب كراهة الموت ووجه عند أهل المعرفة . وأما سائر الخلق فنظروهم مقصور على شهوات الدنيا إن اسمت

التيقظ فإذا تيقظ
أثره تيقظه الطاب
لطريق الرشدي طلب
وإذا طلب عرف
أنه على غير سبيل الحق
فيطلب الحق ويرجع
إلى باب توبتهم يعطى
باتباهه حال التيقظ.
قال فارس : أوفى
الأحوال التيقظ
والاعتبار . وقيل :
التيقظ تبيان خط
السلك بعد مشاهدة
سبيل النجاة . وقيل :
إذا صحت اليقظة كان
صاحبها في أوائل
طريق التوبة . وقيل :
اليقظة خردة من
جهة الولي لقلوب
الخائفين تدلهم على
طلب التوبة فإذا تمت

(١) حديث أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله إبراهيم الحارثي في كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهادي عن المطلب عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله ووالد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف في صحبته ولأحمد من حديث جابر إن من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الأمانة والتمنى من حديث أبي بكر أن رجلا قال يارسول الله أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم.

أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا الموت وكل ذلك حرمان وخسران معدره الجهل والنفلة فالجهل والنفلة مفترس كل شقاوة والعلم والمعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق فانه المحبة المفرطة القوية ومعنى لفحة المعرفة ومعنى لفحة الرؤية ومعنى كونها اللذات سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان كما يمكن الرياسة الله من الطعومات عند الصبيان . فان قلت فهذه الرؤية محلها القلب أو العين في الآخرة . فاء إن الناس قد اختلفوا في ذلك وأرباب البصائر لا يمتنعون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن اللبقة ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق في عينه أو في جبهته بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها فان العين محل وظرف لانظر إليه ولا حكم له والحق فيه أن القدرة الأزلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين ، هذا في حكم الجواز ، فأما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع (١) والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره إذ لا يجوز إزالة الظواهر بالضرورة والله تعالى أعلم .

(بيان الأسباب القوية لحب الله تعالى)

اعلم أن أسعد الخلق حالا في الآخرة أقوام حبا لله تعالى فان الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير منقص ومكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة وإنما يكتب العبد حب الله تعالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى يتسبي إلى الاستهتار الذي يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الأكثرون وإنما يحصل ذلك بسببين : أحدهما قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب فان القلب مثل الإنياء الذي لا يتسع للخل مثلا ما لم يخرج منه الماء - ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه - وكال الحب في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه ومبادم يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فيقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله ويقدر ما يبقى من الماء في الإنياء ينقص من الحل المصوب فيه وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى - قل الله ثم ذرهم في خوضهم - ويقول تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - بل هو معنى قولك لا إله إلا الله أي لا معبود ولا محبوب سواه فكل محبوب فانه معبود فان العبد هو القيد والمعبود هو القيد به وكل يحب فهو مقيد بما يحبه ولذلك قال الله تعالى - أرأيت من اتخذ إلهه هواه - وقال عليه السلام « أبيض إله عبد في الأرض الهوى » ولذلك قال عليه السلام « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة (٢) » ومعنى الاخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب لما حاله من ليس له إلا محبوب واحد وقد طال إلى المشوقه وتمادى عنه حبسه على من السجن ومكن من المحبوب وروح بالأمن أبدا فأبدا أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا ومحبة الأهل والمال والولد والأقارب والمقارب والدواب والبساتين والمتزهات

(١) حديث رؤية الله في الآخرة حقيقة متفق عليه من حديث أبي هريرة أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر الحديث (٢) حديث من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة تقدم .

يقضه قل بذلك إلى
مقام التوبة فهذه
أحوال ثلاثة تقدم
التوبة ثم التوبة في
استقامتها تحتاج إلى
المحاسبة ولا تستقيم
التوبة إلا بالمحاسبة .
قل عن أمير
المؤمنين على رضی
الله عنه أنه قال :
حاسبوا أنفسكم قبل
أن تحاسبوا وزنوا
قبل أن توزنوا
وتزينوا للعرض
الأكبر على الله يومئذ
تعرضون لا تخفى
منكم خافية - فالمحاسبة
بحفظ الأنفاس وضبط
الحواس ورعاية
الأوقات وإشارة المهمات
ويصلم العبد أن

حتى إن التفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسفار ملتفت إلى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه فيقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنه باق ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا وينقص بقدرة من الآخرة بالضرورة كما أنه لا يقرب الإنسان من للشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدرة ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب ضررتها فالدنيا والآخرة ضررتان وهما كالشرق والمغرب وقد انكشف ذلك لدى القلوب انكشافاً أوضح من الإبصار بالعين وسيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والاعتقاد إليهما بزمام الخوف والرجاء فما ذكرناه من المقامات كالقوة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ثم يتشعب منه الخوف والرجاء ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط حتى يتسع بعده لتزول معرفة الله وجهه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو أحد ركني المحبة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «الظهور شطر الإيمان» (١) كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة . السبب الثاني لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلائها على القلب وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلاقتها يجرى مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي السكامة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال - ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء - وإليها الإشارة بقوله تعالى - إليه يصعد الكلم الطيب - أي المعرفة - والعمل الصالح يرفعه - فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالخدم وإتمام العمل الصالح كله في تطهير القلب أولاً من الدنيا ثم إدامة طهارته فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل فالعلم هو الأول وهو الآخر وإنما الأول علم العمالة وغرضه العمل وغرض العمالة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه حلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة ومهما حصلت هذه المعرفة تبعها المحبة بالضرورة كما أن من كان متعدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ومهما أحبه حصلت اللذة فاللذة تبع المحبة بالضرورة والمحبة تبع المعرفة بالضرورة ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد استطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافي والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله تعالى وفي صفاته وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى الأقوياء ويكون أول معرفتهم لله تعالى ثم به يعرفون غيره وإلى الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى - أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - ويقوله تعالى - شهد الله أنه لا إله إلا هو - ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك قال عرفت ربي وربى ولولا ربي لما عرفت ربي وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى - سنزيهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - الآية ويقول عز وجل - أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض - ويقوله تعالى - قل انظروا ماذا في السموات والأرض - ويقوله تعالى - الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليه البصر خاسئاً وهو حير - وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكير والاعتبار والنظر في آيات خارجه عن الحصر . فان قلت كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما

الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس في اليوم والليلة رحمة منه لعله سبحانه يمهده واستيلاء الغفلة عليه كي لا يستبده الهوى وتستره الدنيا فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية لأداء حق الربوبية ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى ويسد مدخل الشيطان بحسن المحاسبة والرقابة ولا يدخل في الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تسكت في

(١) حديث الظهور شطر الإيمان - لم من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم .

ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة . فاعلم أن الطريق الأسمى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو فاض والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق فلا فائدة في إيرادها في الكتب وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحفظ النفس وللناصح من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانتساب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية إذ ما من ذرة من أهل السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكته ومنهى جلاله وعظمته وذلك مما لا يتناهى - قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي - فالخوض فيه انغماس في عمار علوم للكشفة ولا يمكن أن يتطفل به على علوم العامة ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه . فنقول : أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلتتكمم فيها ولترك الأذى ثم الأفعال الإلهية كثيرة فنطلب أقلها وأحقرها وأضرها ولننظر في هجابها فأقل مخلوقات هو الأرض وما عليها أعنى بالإضافة إلى اللائكة وماكوت السموات فانك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة وثلاثين مرة فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها التي هي مركوزة فيها فانه لانسبة لها إليه وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السموات السبع ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة في فلاة والكرسي في العرش كذلك فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث التقادير وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها بل ما أضر الأرض بالإضافة إلى البحار فقد قال رسول الله ﷺ «الأرض في البحر كالأصطبل في الأرض» (١) ومصداق هذا عرف بالشاهدة والتجربة وعلم أن للكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض ثم انظر إلى الأديم المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض وإلى سائر الحيوانات وإلى صغرها بالإضافة إلى الأرض ودع عنك جميع ذلك فأضر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه فانظر في البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بمقل حاضر وفكر صاف فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل القيل الذي هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطومًا مثل خرطومه وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للقليل بزيادة جناحين وانظر كيف قسم أعضائه الظاهرة فأثبت جناحه وأخرج يده ورجله وشق سمعه وبصره ودبر في بطنه من أعضاء الغذاء وآلاته مادبره في سائر الحيوانات وركب فيما من القوى الغازية والجاذبة والدافعة والماسكة والمأخضة ما ركب في سائر الحيوانات هذا في شكله وصفاته ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه وعرفه أن غذاءه دم الانسان ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الانسان وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو معد الرأس وكيف هداه إلى مسام بشرة الانسان حتى يضع خرطومه في واحد منها ثم كيف قواه حتى يرضيه الخرطوم وكيف علمه المن والتجرع للدم وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفًا حتى يجري فيه الدم الرقيق ويتسنى إلى بطنه وينشر في سائر أجزائه ويقضيه ثم كيف عرفه أن الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الحرب واستعداد آله وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بيد بيده منه فيترك المن ويهرب ثم إذا سكنت اليد يوجد ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يصير موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحمل حدقته الأجزاء لصغرها وكانت الأجزاء مصفلة لمرآة الحدقة عن القذى والنباح خلق للبعوض والذباب يدين فنظر إلى الذباب

(١) حديث الأرض في البحر كالأصطبل في الأرض لم أجده أصلًا .

القلب نكته سوداء
وتعقد عليه غفدة
والتفقد الحاسب يحيى
الباطن للصلاة بضبط
الجوارح ويعقق مقام
الحاسبة فيكون عند
ذلك لصلاته نور يشرق
على أجزاء وقته إلى
الصلاة الأخرى فلا تزال
صلاته منورة تامة بنور
وقته ووقته منورا
معمورا بنور صلاته .
وكان بعض المهاسبين
يصكبت الصلوات في
قرطاس ويدع بين كل
صلتين يابسا وكما
ارتكب خطيئة من
كلمة غيبة أو أمر آخر
خط خطا وكلماتكم
أو تحرك فيما لا يبيح
تقط قطعة ليصير
ذنبه وحركته فيما

فتراه على الدوام يمسح حدقيه بيديه وأما الانسان والحيوان الكبير فخلق لحدقيه الأجنان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الإبصار وتحسن صورة العين وتبشكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شبك الأهداب واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصفلتين من غير أجنان وعلما كيفية التصقيل باليدن ولأجل ضعف أبصارها تراها تهافت على السراج لأن بصره ضعيف فهي تطلب ضوء النهار فاذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه في بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الموضع المضي فلا يزال يطلب الضوء ويرمى بنفسه إليه فاذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق ولعلك تظن أن هذا لتفانها وجهلها فاعلم أن جهل الانسان أعظم من جهلها بل صورة الآدمي في الاكباب على الشهوات الله نيا صورة الفراش في التهافت على النار إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أن تحتها السم النافع القاتل فلا يزال يرمى نفسه عليها إلى أن ينفس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكا مؤبدا فليت كان جهل الآدمي بجهل الفراش فأنها باعترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أومدة مديدة ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول «إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش»^(١) فهذه لمعة عجبية من معجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات وفيها من المعجائب ما واجتمع الأولون والآخرون على الاحاطة بكنهه وعجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جليلة من ظاهر صورته فأما خلقا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره فانظر إلى النحل ومعجائبها وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون وكيف استخراج من لعابها الشم والعسل وجمل أحدهما ضياء وجمل الآخر شفاء ثم لو تأملت معجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن التماسات والأقذار وطاعتها لواحد من جملتها هو أكبرها شخصا وهو أميرها ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والانصاف بينها حتى انه يقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة لتضيت منها عجبا آخر العجب إن كنت بصيرا في نفسك وفارغا من مم بطنك وفرجك وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاة إخوانك ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال السدس فلا تبنى بيتا مستديرا ولا مربعا ولا مخرجا بل سدسا لخاصية في الشكل السدس يقصر فهم المهندسين عن دركها وهو أن أوسع الأشكال وأحوالها المستديرة وما يقرب منها فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لاتضيع الزوايا فتبقى فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإن الأشكال للمستديرة إذا جمعت لم تجتمع مترامة ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا للسدس وهذه خاصية هذا الشكل فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قدمه

لا يعنيه لضيق المحاسبة
مجارى الشيطان
والنفس الأمارة بالسوء
لموضع صدقه في حسن
الافتقاد وحرصه على
تحقيق مقام العباد وهذا
مقام المحاسبة والرعاية
يقع من ضرورة صحة
التوبة. قال الجيد: من
حسنت رعايته دامت
ولايته . وسئل
الواسطي: أي الأعمال
أفضل قال مراعاة السر
والمحاسبة في الظاهر
والمراقبة في الباطن
ويكمل أحدهما بالآخر
وبهما تستقيم التوبة
والمراقبة والرعاية حالان
شريفان وصبران
مقامين شرفيين
صحاح بصحة مقام
التوبة وتستقيم التوبة

(١) حديث إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش متفق عليه من حديث أبي هريرة، ثلثي ومثل أمي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنا أخذ بحجزكم وأنتم تمتحونون فيه لفظ مسلم واقصر البخاري على أوله ولمسلم من حديث جابر وأنا أخذ بحجزكم وأنتم تفتنون من يدي .

لطفاً به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتناً بعيشه فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه فاعتبر بهذه اللعة اليسيرة من محنرات الحيوانات ودع عنك مجاب ملكوت الأرض والسموات فإنّ القدر الذي بلغه فهنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه ولانسبة لما أحاط به علنا إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء ولانسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بلمه بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علما في جنب علم الله تعالى فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين وزيادة المعرفة تزداد المحبة فإن كنت طالبا لسعادة لقاء الله تعالى فابذل الدنيا وراء ظهرك واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم فمساك تحظى منها بقدر يسير ولكن تال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له .

(بيان السبب في تفاوت الناس في الحب)

اعلم أنّ المؤمنين مشتركون في أصل الحب لا شراكم في أصل المحبة ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين والتخيلون هم الضالون والعارفون بالحقائق هم القريبون وقد ذكر الله حال الأسماء الثلاثة في قوله تعالى - فأما إن كان من القريبين فروح وريحان وجنة نعيم - الآية فإن كنت لانفهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثلا فنقول أصحاب الشافعي مثلا يشتركون في حب الشافعي رحمه الله الفقهاء منهم والعموم لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ولكن العامي يعرف علمه مجملا واقفيه يعرفه مفصلا فتكون معرفة الفقيه به أتم وإعجابه به وجه له أشد فأن رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لاجمالة ومال إليه قلبه فإن رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لاجمالة حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه فاذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذفه وصنعتة ازداد به معرفة وازداد له حبا وكذا سائر الصناعات والفضائل والعامي قد يسمع أن فلانا مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل والبصير إذا فقه عن التصنيف واطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لاجمالة لأن محجوب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والصفة والعالم بمجملته صنع الله تعالى وتصنيفه والعامي يعلم ذلك ويعتقده وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه حتى يرى في العوض مثلا من عجائب صنعه ما ينهر به عقله ويثير فيه له ويزداد بسببه لاجمالة عظمة الله وجلاله وكال صفاته في قلبه فيزداد له حبا وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدل بذلك على عظمة الله الضائع وجلاله وازداد به معرفة قوله حبا وبحر هذه المعرفة أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى بحر لا ساحل له فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لاحصر له ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب المحمّلة التي ذكرناها للحب فإن من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه منما عليه ولم يحبه لقائه ضمنت محبته إذ تفرقت بغير الاحسان فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعيم وأما من يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه فهدا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة والتفاوت في المحبة هو السبب لتفاوت في سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى - وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا -

على الكمال بهما
فصارت الحاسبة
والرأفة والرأفة من
ضرورة مقام التوبة .
أخبرنا أبو زرعة بإجازة
عن ابن خلف أبي بكر
الشيرازي قال سمعت
أبا عبد الرحمن السلمي
يقول سمعت الحسن
الفارسي يقول سمعت
الجريري يقول أمرنا
هذا مبنى على فضيل
وهو أن تلزم شك
للرأفة لله تعالى ويكون
العلم على ظاهره قائما .
وقال المرتضى: للرأفة
مراعاة السر للملاحظة
الحق في كل لحظة
ولفظه قال الله تعالى
- ألن هو قائم على
كل نفس بما كسبت -
وهذا هو علم القيام

(بيان السبب في تصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه)

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلها هو الله تعالى وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبغها إلى الأفهام وأسبغها على العقول وترى الأمر بالضد من ذلك فلا بد من بيان السبب فيه وإثباته فلما ظهر الموجودات وأجلها بمعنى لا يفهمه إلا بمثال وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات بحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخطا أجلي عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ صفاته الباطنة كشموته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لا نعرفه وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته أمحياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانا فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته فلونظرنا إلى كل مافي العالم سواء لم نعرف به صفته لتعاليه إلا لدليل واحد وهو مع ذلك جلي واضح ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما شاهدناه ونذكره بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسما وأرض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد وجميع مافي العالم شواهدنا طاعة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته والموجودات المدركة لا حصر لها فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها إلا شاهد واحد وهو ما أحسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله إذ كل ذرة فأنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها يشهد بذلك أول تركيب أعضائنا واتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة فانا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق في الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظيم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه فإن ما تقتصر عن فهمه عقولنا فله سببان: أحدهما خفاؤه في نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله . والآخر ما يتناهى وضوحه وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لاختفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره فان بصر الخفاش ضعيف يبصره نور الشمس إذا اشرفت فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة وفي غاية الاستراق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره بسبب خفائه فسبحان من احتجب بإشراق نوره واحتفى عن البصائر والأبصار بظهوره ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فإن الأشياء تسبق بأضدادها وماعم وجوده حتى إنه لا ضد له عسر إدراكه فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ومثاله نور الشمس للشرق على الأرض فانا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويترول عند غيبة الشمس فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لا غروب لها لكاننا نظن أنه لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرها

وبذلك يتم علم الحال ومعرفة الزيادة والقصان وهو أن يعلم ميار حاله فيما بينه وبين الله وكل هذا ملازم لصحة التوبة وصحة التوبة ملازم لها لأن الحاضر مقدمات العزائم والعزائم مقدمات الأعمال لأن الحواطر تحقق إرادة القلب والقلب أمير الجوارح ولا تتحرك إلا بتحرك القلب بالارادة والمراقبة حسم مواد الحواطر الرديئة فصار من تمام المراقبة تمام التوبة لأن من حصر الحواطر بالمراقبة اصطلام عروق إرادة للكارة من

فأنا لا نشاهد في الأسود إلا السواد وفي الأبيض إلا البياض فأما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس وأظلمت للواضع أدركنا تفرقة بين الحالين فعلنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء وانصفت بصفة فارتقت عند الغروب عرفنا وجود النور بعده وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بصبر شديد وذلك للمشاهدة الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور هذا مع أن النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره انظر كيف تصور استبهاام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده فأنه تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض وبطل الملك والملسكوت ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين الشيتين في الدلالة ولكن دلالة عامة في الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه فلا جرم أورتت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب في تصور الأفهام وأما من قويت بصيرته ولم تصنف منته فانه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله وأفعاله أثر من آثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل وينهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وغصص وزاج مرقوم على بياض فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف وكل العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث أنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظرا إلا في الله ولا عارفا إلا بالله ولا محبا إلا له وكان هو الواحد الحق الذي لا يرى إلا الله بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبد الله فهذا الذي يقال فيه إنه فنى في التوحيد وأنه فنى عن نفسه وإليه الإشارة بقول من قال كنا بنا فقنينا عنا فقينا بل نحن فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهومة موصلة للعرض إلى الأفهام أو باستغلامهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغريم مما لا يسئهم فهذا هو السبب في تصور الأفهام عن معرفة الله تعالى وانضم إليه أن المدركات كلها التي هي شهادة على الله إنما يدركها الانسان في الصبا عند فقد العقل ثم يتدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهوته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وأهلها فقط وقعها عن قلبه بطول الأنس ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للمادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعيا فقال سبحانه الله وهو يرى طول النهار نفسه وأعضائه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطمة لا يحس بشهادتها لطول الأس بها ولو فرض أنك بلغ عاقلا ثم انقضت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لحيف على عقله أن ينبر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب الخالقها فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسياسة في محاربا الواسعة فالناس في طلبهم معرفة الله كالدهوش الذي يضرب به التل إذا كان راكب الحمار وهو يطلب حمارة والجلبات إذا صارت مطلوبة صارت معناسة فهذا سر هذا الأمر فليحقق ولذلك قيل:

قد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكمة لا يعسرف القمر

لكن بطن بما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف قد ستر

القلب وبالمهاسة
استدراك ما انقلت
من المراقبة . أخبرنا
أبو زرعة عن ابن
خلف عن السلمي قال
سمعت أبا عثمان القرني
يقول أفضل ما يلزم
الانسان في هذا
الطريق المهاسبة
والمراقبة وسياسة
العمل بالعلم وإذا صحت
التوبة صحت الابانة
قال ابراهيم بن آدم
إذا صدق العبد في
توبته صار منيبا لأن
الابانة ثانی درجة
التوبة وقال أبو سعيد
القرشي المنيب الراجع
عن كل شيء يشغله
عن الله الى الله وقال
بعضهم الابانة الرجوع
منه اليه لا من شيء

(بيان معنى الشوق إلى الله تعالى)

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ونحن ثبت وجود الشوق إلى الله تعالى وكون العارف مضطراً إليه بطريق الاعتبار والنظر بأحوال البصائر وبطريق الأخبار والآثار أما الاعتبار فيسكن في إثباته ما سبق في إثبات الحب فكل محبوب يشاق إليه في غيبته لامحالة فأما الحاصل الحاضر فلا يشاق إليه فإن الشوق طلب وتشوق إلى أمر والوجود لا يطلب ولكن يياته أن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجهه ولم يدرك من وجهه فأما ما لا يدرك أصلاً فلا يشاق إليه فإن من لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه لا يتصور أن يشاق إليه وما أدرك بكامله لا يشاق إليه وكال الإدراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوماً للنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجهه ولم يدرك من وجهه وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثل من الشهادات . فنقول مثلاً من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشاق إلى استكمال خياله بالرؤية فلو أمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفة حتى نسيه لم يتصور أن يشاق إليه ولو رآه لم يتصور أن يشاق في وقت الرؤية فمضى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشاق إلى استكمال رؤيته ونعم الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه . والثاني : أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلاً ولا سائر محاسنه فيشاق لرؤيته وإن لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضواً وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط والوحيان جميعاً متصوران في حق الله تعالى بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين فإن ما أتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان في غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحاً غاية الاتضاح بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات فإن الخيالات لا تفر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات وهي مكدرات للمعارف ومنغصات وكذلك يضاف إليها شواغل الدنيا فأنما كمال الوضوح بالمشاهدة وتماثل إشراق التجلي ولا يكون ذلك إلا في الآخرة وذلك بالضرورة بوجوب الشوق فإنه منتهى محبوب العارفين فهذا أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيها اتضح انضاحاً ما الثاني أن الأمور الإلهية لانهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لانهاية لها غامضة والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر فلا يزال متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية لقاء ومشاهدة ولا يتصور أن يسكن في الدنيا وقد كان إبراهيم بن آدم من الشواقين فقال قلت ذات يوم يارب ان أعطيت أحداً من المهين لك ما يسكن به قلبه قبل لقاءك فأعطني ذلك فقد أضرب القلق قال فرأيت في النوم أنه أوفني بين يديه وقال يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقاءي وهل يسكن الشواق قبل لقاء حبيبه قلت يارب تهت في حبك فلم أدرك ما أقول فاعفرتني وعلني ما أقول فقال قل اللهم رضني بقضائك وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة وأما الشوق الثاني فيشبهه أن لا يكون له نهاية لافي الدنيا ولا في الآخرة إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لأن ذلك لانهاية له ولا يزال المبدأ ما بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة لأنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال فهو يجد لذلك شوقاً لذيذاً لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون

غيره فمن رجح من غيره إليه ضيق أحد طرفي الانابة والنيب على الحقيقة من لم يكن له مرجح سواء فرجع إليه من رجوعه ثم يرجع من رجوع رجوعه فيبقى شجواً لا وضح له قائماً بين يدي الحق مستغرقاً في عين الجمع ومخالفة النفس ورؤية عيوب الأفعال والمجاهدة بتحقيق الرعاية والراقبة . قال أبو سليمان ما استحسن من نفسي عملاً فأحسبه وقال أبو عبد الله السجزي من استحسن شيئاً من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته إلا أن يرجح

أطراف الكشف والظر متوالية إلى غير نهاية فلا يزال النعم واللذة متزايدا أبداً لا يباد وتكون لذة ما يتجدد من اطراف النعم شاغلة عن الاحساس بالشوق إلى ما لم يحصل وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلاً فإن كان ذلك غير مبذول فيكون النعم واقفاً على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرا على الدوام وقوله سبحانه وتعالى - نورهم يسمى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا آثم لنا نورنا - محتمل لهذا المعنى وهو أن ينعم عليه بأتمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور ويحتمل أن يكون الراد به إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والاشراق فيكون هو الراد بتمامه وقوله تعالى - انظرونا نقبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتسوا نورا - يدل على أن الأنوار لا بد وأن يتزود أصلها في الدنيا ثم يزاد في الآخرة إشراقاً فلما أن يتجدد نور فلا والحكم في هذا برجم الظنون مخطر ولم ينكشف لنا فيه بعدما يوثق به فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علماً ورشداً وبريناً الحق حقاً فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه. وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى فلما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقاءك ^(١) » وقال أبو الدرداء لكعب أخبرني عن أخى آية يعني في التوراة فقال يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقاءى وإني إلى لقاءهم لأشد شوقاً قال ومكتوب إلى جانبها من طلبى وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فقال أبو الدرداء أشهد أنى لسمعت رسول الله ^ﷺ يقول هذا وفى أخبار داود عليه السلام إن الله تعالى قال يادود أبلغ أهل أرضى أنى حبيب لمن أحببى وجلس لمن جالسى ومؤنس لمن أنس بذكرى وصاحب لمن صاحبى ومختار لمن اختارنى ومطيع لمن أطاعنى ما أحببى عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحببته جبالاً يتقدمه أحد من خلقى من طلبنى بالحق وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فافرضوا يا أهل الأرض ما أتم عليه من غرورها واهلوا إلى كرامتى ومصاحبى ومجالسنى وائسوا بى أو انسكم وأسارع إلى محبتكم فانى خافت طينة أحبائى من طينة إبراهيم خليلى وموسى نبيى ومحمد صفيى وخلقت قلوب الشائقين من نورى ونعمتها بجلالى . وروى عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لى عبادة من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ويذكرونى وأذكرونى وينظرون إلى وأناظر إليهم فان حدثت طريقهم أحببتك وإن عدت عنهم مقتك قال يارب وما علامتهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشقيق غنمه ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكفه عند الغروب فإذا جهن الليل واختلط الظلام وفرشت الفرس ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم واقترشوا إلى وجوههم وناجوني بكلامى وتعلقوا إلى بانامى فبين صارخ وبك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد يعنى ما يتحملون من أجلى وبسمى ما يشكون من حبي أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها فى موازينهم لاستقلتها لهم . والثالثة أقبل بوجهى عليهم فترى من أقبلت بوجهى عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه . وفى أخبار داود عليه السلام ان الله تعالى أوحى اليه يادود الى كم تذكر الجنة ولا نسألنى الشوق الى قال يارب من الشائقون اليك قال ان للشائقين الى الدين صفتهم من كل كدر ونبتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم الى آخرها ينظرون الى وانى لأحمل قلوبهم بيدي فأضنها على سمائى ثم ادعو نجباء ملائكتى فإذا اجتمعوا

(١) حديث أنه كان يقول فى دعائه اللهم انى أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد اللوت الحديث أحمد والحاكم وتقدم فى الدعوات .

الى ابتدائه فيروض
نفسه ثانياً ومن لم يزن
نفسه بميزان الصدق
فيأله وعليه لا يبلغ
مبلغ الرجال ورؤية
عيوب الأفعال من
ضرورة صحة الانابة
وهو فى تحقيق مقام
التوبة ولا تستقيم
التوبة الا بصدق
المجاهدة ولا يصدق
العبد فى المجاهدة الا
بوجود الصبر. وروى
فضالة بن عبيد قال
سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول
المجاهد من جاهد نفسه
ولا يتم ذلك الا بالصبر
وأفضل الصبر الصبر
على الله بمكوف اللهم
عليه وصدق للرقابة
له بالقلب وجسم مواد

سجدوا لي فأقول إني لم أدعكم لتسجدوا لي ولكن دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلى
وأباهي بكم أهل الشوق إلىّ فإن قلوبهم لتضيء في سماءي للملائكة كما تضيء الشمس لأهل الأرض.
ياداود إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ونعمتها بنور وجهي فأخذتهم لنفسي عهدي ،
وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلىّ يزادون في
كل يوم شوقا . قال داود يارب أرني أهل محبتك ، فقال ياداود أنت جبل لبنان فإن فيه أربعة
عشر نفسا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول فإذا أتيتهم فأقرهم مني السلام وقل لهم إن ربكم
يقربكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة فانكم أجابى وأصفياني وأولياني أفرح لفرحكم
وأسارع إلى محبتكم فأتاكم داود عليه السلام فوجدتم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة
الله عز وجل ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال داود إني رسول الله
إليكم جيشكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماءهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى
الأرض ، فقال داود إني رسول الله إليكم يقربكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة ألا تنادوني
أسمع صوتكم وكلامكم فانكم أجابى وأصفياني وأولياني أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر
إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرقيقة . قال جبرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم
سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من
أعمارنا . وقال الآخر . سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامن علينا بحسن النظر
فيما بيننا وبينك . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أنجرتني على
الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا فأدم لنا لزوم الطريق إليك وأنعم بذلك المنة
علينا . وقال الآخر : نحن مقصرون في طلب رضاك فأعنا علينا بمجودك . وقال الآخر : من
نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكير في عظمتك أنجرتني على الكلام من هو مشتغل بعظمتك
متفكر في جلالك وطلبتنا الدنو من نورك . وقال الآخر : كنت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك
وقربك من أوليائك وكثرة منتك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك
وفرغتنا للاشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك . وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما هي
النظر إلى وجهك . وقال الآخر : كيف يجترى الصد على سيده إذ أمرتنا بالدعاء بمجودك فهب
لنا نورا نهتدي به في الظلمات من أطباق السموات . وقال آخر : ندعوك أن تقبل علينا
وتدعيه عندنا . وقال الآخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا . وقال
الآخر : لا حاجة لنا في شيء من خلقك فامن علينا بالنظر إلى جمال وجهك . وقال الآخر :
أسألك من بينهم أن تعمي عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة . وقال
الآخر : قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أوليائك فامن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء
دونك . فأحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق
كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سريبا فاني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري
وجلالى . فقال داود يارب بم نالوا هذا منك قال بحسن الظن والكشف عن الدنيا وأهلها والحلوات بي
ومناجاتهم لي وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل شيء من ذكرها وفرغ قلبه لي
واختارني على جميع خلقي فعذر ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى
ينظر إلىّ نظر الناظر بعينه إلى الشيء وأريه كرامتي في كل ساعة وأقره من نور وجهي ، إن

الحواطر والصبر
ينقسم إلى فرض
وفضل فالفضل كالصبر
على أداء المفترضات،
والصبر عن المحرمات
ومن الصبر الذي هو
فضل الصبر على الفقر
والصبر عند الصدمة
الأولى وسكان
المصائب والأوجاع
وترك الشكوى
والصبر على إخفاء
الفقر، والصبر على كتم
المنع والكرامات
ورؤية العبر والآيات
ووجوه الصبر فرضا
وفضلا كثيرة وكثير
من الناس من يقوم
بهذه الأقسام من
الصبر ويضيق عن
الصبر على الله بلزوم
حمة المراقبة والرعاية

مرض مرضته كما تعرض الوالدة الشفيقة ولدها ، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى ، فإذا فعلت ذلك به يداود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحبها إليه لا يفتقر عن الاشتغال بي . يستعجلى القدوم وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلقى لا يرى غيرى ولا أرى غيره فلو رأيت يداود وقد ذابت نفسه وتعمل جسمه وتمشمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع بذكرى أباهى به ملائكتى وأهل سمواتى يزداد خوفاً وعبادة ، وعزتي وجلالى يداود لأقصدته فى الفردوس ولأشفين صدره من النظر إلى حتى يرضى وفوق الرضا . وفى أخبار داود أيضاً : قل لبادى للتوجهين إلى محبتى ماضركم إذا احتجبت عن خلقى ورفعت الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى بيون قلوبكم وما ضرركم ما زويت عنكم من الدنيا إذا بسطت دينى لكم وما ضرركم مسخطة الخلق إذا التمس رضائى . وفى أخبار داود أيضاً : إن الله تعالى أوحى إليه تزعم أنك تحبى ، فإن كنت تحبى فأخرج حب الدنيا من قلبك فإن حبي وحبا لا يجتمعان فى قلب . يداود خالص حبيبي مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة ودينك قلدنيه ولا تقلد دينك الرجال ، أما ما استبان لك مما وافق محبتى فتمسك به ، وأما ما أشكل عليك قلدنيه فحاشى أنى أسارع إلى سياستك وتقويك وأكن قائداً ودليلك أعطيك من غير أن تسألنى وأعينك على الشدائد وإن قد حلفت على نفسى أنى لا أتيب إلا عبداً قد عرفت من طلبته وإرادته إلقاء كفه بين يدي وأنه لا غنى به عنى ، فإذا كنت كذلك نزع القدلة والوحشة عنك وأسكن النقى قلبك فأنى قد حلفت على نفسى أنه لا يطمئن عبد لى إلى نفسه ينظر إلى ضالها إلا وكلته إليها أضف الأشياء إلى لا تضاد عملك فكون متعباً ولا يتنفع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفى حداً فليس لها غاية ، متى طلبت منى الزيادة أعطيك ولا تجد للزيادة منى حداً ، ثم أعلم بنى إسرائيل أنه ليس بينى وبين أحد من خلقى نسب فلتتظم رغبتهم وإرادتهم عندي أجمع لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ضمنى بين عينيك وانظر إلى يصر قلبك ولا تنظر بعينك التى فى رأسك إلى الدين حجت عقولهم عنى فأمرجوها وسخت باقطع ثوابى عنها فأنى حلفت بزتى وجلالى لا أتحس ثوابى لبيد دخل فى طاعنى للتجربة والتسوف تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المرئيين ، فلو علم أهل محبتى منزلة المرئيين عندي لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها . يداود لأن تخرج مريداً من سكرة هو فيها تستنقنه فأكتبك عندي جهيدا ، ومن كتبتك عندي جهيدا لا تكون عليه وحشة ولا فاقة إلى الخلقين . يداود : تمسك بكلامى وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتئين منها فأحجب عنك محبتى لا تؤيس عبادى من رحمتى أقطع شهوتك لى فأنما أبعث الشهوات لضعة خلقى ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فأنها تنقص حلاوة مناجاتى ، وإنما عقوبة الأقوياء عندي فى موضع التناول أدنى ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم عنى فأنى لم أرض الدنيا لحبيبي ونزته عنها . يداود : لا تجعل بينى وبينك طالما يحجبك بسكره عن محبتى . أولئك قطاع الطريق على عبادى المرئيين استمن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة فى الإفطار فإن محبتى للصوم إدمانه . يداود تحب إلى بمعاذة نفسك امنعها الشهوات أنظر اليك وترى الحجب بينى وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة تقوى على ثوابى إذا مننت عليك به وأنى أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعنى . وأوحى الله تعالى إلى داود يداود لوليم المدبرون عنى كيف انتظروا لهم ورفض بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لما اتوا شوقاً إلى وتقطعت أوصالهم من محبتى

ونفى الخواطر ، فاذن حقيقة الصبر كائنة فى التوبة ككينونة للراقبة فى التوبة والصبر من أعز مقامات اللواتين وهو داخل فى حقيقة التوبة . قال بعض العلماء : أى شئ أفضل من الصبر وقد ذكره الله تعالى فى كلامه فى نيف وتسعين موضعا وما ذكر شيئا بهذا العدد وحة التوبة تحتوى على مقام الصبر مع شرفه . ومن الصبر الصبر على النعمة ، وهو أن لا يصر فيها فى معصية الله تعالى وهذا أيضا داخل فى حصة التوبة

ياداود هذه إرادتي في الدارين عنى فكيف إرادتي في القبلين على ياداود أحوج ما يكون العبد إلى إذا اغتنى عنى وأرحم ما أكون بعبدى إذا أدبر عنى وأجل ما يكون عندى إذا رجع إلى ، فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والأنس ، وإتمام تحقيق معناها ينكشف بما سبق .

(بيان محبة الله للعبد ومعناها)

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده فلا بد من معرفة معنى ذلك . ولتقدم الشواهد على محبته ، فقد قال الله تعالى - بحجم ومحبونه - وقال تعالى - إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا - وقال تعالى - إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين - ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال - قل فلم يعذبكم بذنوبكم - وقد روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أحب الله تعالى عبدا لم يضره ذنب والثائب من الذنب كمن لا ذنب له ثم تلا - إن الله يحب التوابين - (١) » ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت كما يضر الكافر الماضى بعد الإسلام وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الإيمان إلا من يحب (٢) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله (٣) » وقال عليه السلام « قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت محبه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به (٤) » الحديث . وقال زيد بن أسلم : إن الله يحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : عمل ما شئت فقد غفرت لك ، وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر ، وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط ، وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس والجمال موافق أيضا ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر ، فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا بل الأسمى كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلا حتى إن اسم الوجود الذى هو أعم الأسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود التبويح ، وإنما الاتواء في إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم ، إذ معنى الجنسية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلا فليست الجنسية لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا خلقه ، وهذا التباعد في سائر الأسمى

(١) حديث أس إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والثائب من الذنب كمن لا ذنب له ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له ولده في مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثانى من حديث ابن مسعود تقدم في التوبة (٢) حديث إن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب الحديث الحاكم وصححه اسناده والبيهقى في الشعب من حديث ابن مسعود (٣) حديث من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ابن ماجه من حديث أبى سعيد باسناد حسن دون قوله ومن أكثر الى آخره ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن لميعة (٤) حديث قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه الحديث البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

وكان سهل بن عبد الله يقول الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ، وروى عن بعض الصحابة بلينا بالضراء فصرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر ومن الصبر رعاية الأقتصاد فى الرضا والتضرب والصبر عن محبة الناس والصبر على المحمول والتسواضع والتدل داخل في الزهد وإن لم يكن داخل في التوبة وكل مافات من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد فى الزهد وهو ثالث الأربعة التى ذكرنا وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس وطمأنينتها من تركيتها وترهبتها بالتوبة

أظهر كالم والارادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق وواضع اللغة إنما وضع هذه الأسماء أولاً للخلق فان الخلق أسبق إلى القول والأفهام من الخالق فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل والمهبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس الى موافق ملائم وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فانها ما يوافقها فتستفيد بنيله كالا فتلتذ بنيله وهذا محال على الله تعالى فان كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبداً وأزلاً ولا يتصور تجرده ولا زواله فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره بل نظره إلى ذاته وأفضاله قسط وليس في الوجود لإذاته وأفضاله ، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الليثي رحمه الله تعالى لما قرئ عليه قوله تعالى - محبهم ومحبونه - فقال بحق محبهم فإنه ليس محب لإفئسه على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره فمن لا يحب لإفئسه وأعمال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته فهو إذن لا يحب لإفئسه ، وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الأزل حبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلى الارادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقضى له كما قال تعالى «لا يزال عبيدي يقرب إلى بالنوافل حتى أحبه» فيكون تقربه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه فكل ذلك فعل الله تعالى واطفه به فهو معنى حبه ، ولا يفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه إما لينصره بقوته أو ليسترخ بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه أو ليهي أسباب طعامه وشرابه فيقال إن الملك يحبه ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق للملائم له وقد يقرب عبداً ولا يمنعه من الدخول عليه لاللائتفاع به ولا للاستنجاد به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفاً من الأخلاق الرضية والحاصل الحميدة بما يليق به أن يكون قريباً من حضرة الملك وافر الحظ من قربه مع أن الملك لا غرض له فيه أصلاً فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال قد أحبه وإذا اكتسب من الحاصل الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال قد توصل وحبب نفسه إلى الملك فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني بالمعنى الأول وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجديد القرب فان الحبيب هو القريب من الله تعالى والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية فهو قرب بالصفة لا بالمكان ومن لم يكن قريباً لخصار قريباً فقد تغير فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد قد تغير وصف العبد والرب جميعاً اذ صار قريباً بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله تعالى إذا تغير عليه محال بل لا يزال في نموت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الأزال ولا ينكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص فان الشخصين قد يتقاربان يتحركهما جميعاً وقد يكون أحدهما ثابتاً فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر بل القرب في الصفات أيضاً كذلك فان التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله والأستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالتزول إلى درجة تلميذه والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم فلا يزال دائماً في التغير والترقى إلى أن يقرب من أستاذه والأستاذ ثابت غير متغير فكذلك ينبغي أن يفهم ترقى العبد في درجات القرب فكلما صار أكمل صفة وأتم علماً وإحاطة بمقائق الأمور وأثبت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن

فالنفس اذا تزكت
بالتوبة النصوح زالت
عنها الشراسة الطبيعية
وقلة الصبر من وجود
الشراسة للنفس وإزالتها
واستصاها والتوبة
النصوح تلين النفس
وتخرجها من طبيعتها
وشراستها إلى اللين
لأن النفس بالمحاسبة
والمراقبة تصفو وتطهر
نيرانها التساجعة
بمتابعة الهوى وتبلغ
بطمأنينتها محل لرضا
ومقامه وتطمئن فيه
بحارى الأقدار قال
أبو عبد الله النباجي
فإن عباد يستحيون
من الصبر ويتلقفون
مواضع أقداره بالرضا
تلقفاً ، وكان عمر بن
عبد العزيز يقول

الذائل صار أقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله ، نعم قد يقدر التليذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله محال فإنه لا نهاية الكمال وسواك الصديق في درجات الكمال متناه ولا ينتهى إلا إلى حد محدود لا يطعم له في المساواة ثم درجات القرب متفاوتة تفاوتاً لا نهاية له أيضاً لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال فاذن محبة الله للعبد بتقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه . وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال القدي وهو مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشاقق إلى مافاتة وإذا أدرك منه شيئاً يلتذبه والشوق والمهبة بهذا المعنى محال على الله تعالى . فان قلت محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله ؟ فأقول يستدل عليه بعلاماته وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإذا أحب الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه ؟ قال لم يترك له أهلاً ولا مالا ^(١) » فعلمة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره . قيل لعيسى عليه السلام لم لا تشترى حماراً فتركبه فقال أنا أعزّ على الله تعالى من أن يشغاني عن نفسه بحمار ، وفي الخبر « إذا أحب الله عبداً ابتلاه فان صبر اجتنابه فان رضى اصطفاه ^(٢) » وقال بعض العلماء إذا رأيتك تحبه ورأيتك يبتليك فاعلم أنه يريد يضافيك ، وقال بعض المريدين لأستاذهم قد طولت بشئ من المحبة فقال يا بنى هل ابتلاك بمحبوب سواء فأثرت عليه إياه قال لا قال فلأطعم في المحبة فإنه لا يعطيه عبداً حق يلوه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه ^(٣) » وقد قال « إذا أراد الله بعبده خيراً ابصره بعبوب نفسه ^(٤) » فأخص علاماته حبه لله فان ذلك يدل على حب الله . وأما الفعل الدال على كونه محبوباً فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو الشير عليه والدبر لأمره والمزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه والسدد لظاهره وباطنه والجامل همومه ما واحداً والبغض للدنيا في قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له ببلدة النجاة في خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد ، فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله فانها أيضاً علامات حب الله للعبد .

(القول في علامات محبة العبد لله تعالى)

اعلم أن المحبة يدعيها كل واحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى فلا ينبغي أن يفتقر الإنسان بتأبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يتمتعها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وتمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار وهي كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والشاهدة في دار السلام فلا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقائه وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغي أن يكون محباً للموت غير فارق منه فان المحب لا يتقبل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه

- (١) حديث إذا أحب الله عبداً ابتلاه الحديث الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني وقد تقدم .
- (٢) حديث إذا أحب الله عبداً ابتلاه فان صبر اجتنابه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرج له ولله في مسنده (٣) حديث إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة باسناد حسن بلفظ إذا أراد الله بعبده خيراً (٤) حديث إذا أراد الله بعبده خيراً بصره بعبوب نفسه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بزيادة فيه باسناد ضعيف .

أصبحت ومالي سرور
إلا مواقع القضاء قال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم لابن عباس
حين وصاه « اعمل لله
باليقين في الرضا فان لم
يكن فان في الصبر
خيراً كثيراً » وفي الخبر
عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم « من خير
ما أعطى الرجل الرضا
بما قسم الله تعالى له »
فالأخبار والآثار
والحكايات في فضيلة
الرضا وشرفه أكثر
من أن تحصى والرضا
ثمره التوبة النصوح
وما تخلف عبد عن
الرضا إلا تخلفه عن
التوبة النصوح فاذن
تجمع التوبة النصوح
حال الصبر ومقام الصبر
وحال الرضا ومقام

ليتم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى الشهادة . قال صلى الله عليه وسلم « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » (١) وقال حذيفة عند الموت حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم . وقال بعض السلف : مامن خصلة أحب إلى الله أن تكون في الصديق بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقد قدم حب لقاء الله على السجود وقد شرط الله سبحانه حقيقة الصديق في الحب القتل في سبيل الله حيث قالوا إنا نحب الله فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال - إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا - وقال عز وجل - يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون - وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما : الحق ثقيل وهو مع تله مرىء والباطل خفيف وهو مع خفته وبىء فان حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدرتك وإن ضيقت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تمجزه ، ويروى عن اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فغفروا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يا رب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدا فأتني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني ويقر بطني فإذا القيتك غدا قلت يا عبد الله من جدع أنفك وأذنتك فأقول فيك يا رب وفي رسولك فتقول صدقت قال سعد فلقد رأيته آخر النهار وان أنه وأذنه لملعتان في خيط (٢) قال سعيد بن المسيب أرجو أن يروى الله آخر قسمه كما أبرأه ، وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان لا يكره الموت إلا مريب لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه . وقال البويطي لبعض الزهاد أحب الموت فكانت توقف فقال لو كنت صادقا لأحببته وتلاقوه تعالى - فتمنوا الموت إن كنتم صادقين - قال الرجل فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يتبعن أحدكم الموت » (٣) فقال إيماناً له لضر نزل به لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه . فان قلت ممن لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محبا لله ؟ فأقول كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد وهذا يتنافى كمال حب الله تعالى لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ولكن لا يعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة فان الناس متفاوتون في الحب ويدل على التفاوت ما روى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاة عاتبة قريش في ذلك وقالوا أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى فقال والله لقد أنكحته إياها وإني لأعلم أنه خير منها فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله فقالوا وكيف وهي أختك وهو مولاك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فليتنظر إلى سالم » (٤) فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيجبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه

(١) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة (٢) حديث اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فغفروا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يا رب إني أقسم عليك إذا لقيت العدو غدا فأتني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ويجدع أنفي وأذني الحديث الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية وإسناده جيد (٣) حديث لا يتبعن أحدكم الموت لضر نزل به الحديث متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (٤) حديث أبي حذيفة بن عتبة أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاة عاتبة قريش في ذلك وفيه فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فليتنظر إلى سالم لم أره من حديث حذيفة وروى أبو بصير في الحلية المرفوع منه من حديث عمر أن سالما يحب الله حقا من قلبه وفي رواية له إن سالما شديدا يحب الله عز وجل ولم يخف الله عز وجل ما عصاه وفيه عبد الله بن لمية

الرضا والخوف والرجاء
مقامان شريهان من
مقامات أهل اليقين
وهما كائنان في صلب
التوبة النصوح لأن
خوفه حمله على التوبة
ولولا خوفه ما تاب
ولولا رجاءه ما خاف
فالرجاء والخوف
يتلازمان في قلب المؤمن
ويتبدل الخوف
والرجاء لآثار التوب
في التوبة . دخل رسول
الله صلى الله عليه وسلم
على رجل وهو في
سياق الموت فقال
« كيف تجدك قال
أجدني أخاف ذنوبي
وأرجو رحمة ربّي فقال
ما اجتمع في قلب عبد
في هذا الوطن إلا أعطاه
الله ما رجا وآمنه بما

ببقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها .
وأما السبب الثاني للكرهية : فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره
عجلته قبل أن يستعد للقاء الله فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالحب الذي وصله الحبر بقدوم
حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليبيء له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب
عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق فالكرهية بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلا وعلامته
الدروب في العمل واستعراق الهم في الاستعداد . ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يهجه
في ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويجتنب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ولا يزال
مواظبا على طاعة الله ومتقربا إليه بالزواجر وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب
في قلب محبوبه وقد وصف الله المحبين بالآثار فقال - يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم
لحاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - ومن بقى مستمرا على متابعة الهوى
فمحبوبه ما يهواه بل يترك المحب هوى نفسه هوى محبوبه كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

بل الحب إذا غلب فمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب كما روى أن زليخا لما آمنت وتزوج بها
يوسف عليه السلام انفردت عنه وتحملت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى فكان يدعوها إلى فراشه
نهارا فتدافعه إلى الليل فإذا دعاها ليلا سوفت به إلى التهار وقالت يا يوسف إنما كنت أحبك قبل
أن أعرفه فأما إذ عرفته فما أثبت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا حتى قال لها إن الله جل
ذكره أمرني بذلك وأخبرني أنه مخرج منك ولدين وجاءلها نيين فقالت أما إذا كان الله تعالى
أمرك بذلك وجعلني طريقا إليه فطاعة لأمر الله تعالى فنحنها سكنت إليه ؟ فأذن من أحب الله
لا يصيه ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وفي هذا المعنى قيل أيضا :

وأترك ما أهوى لما قد هويته فأرضى بما ترضى وإن سخظت نفسى

وقال سهل رحمه الله تعالى علامة الحب إثاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل
صار حبيبا وإنما الحبيب من اجتنب اللهاى وهو كما قال لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال
تعالى - يحبهم ويحبونه - وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه وإنما عدوه نفسه وشهوته فلا
يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهوته ولذلك قال تعالى - والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله
بالله نصيرا - فان قلت فالصيان هل يضاد أصل المحبة فأقول : إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها فكم
من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بأنه يضره وذلك لا يدل على
عدم حبه لنفسه ولكن المعرفة قد تضاهى والشهوة قد تناب فيعجز عن القيام بحق المحبة ويدل عليه ما روى
« أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قليل فيحده في مصيبة يرتكبها إلى أن
آتى به يوما فحده فلغنه رجل وقال ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه
وسلم لا تلغنه فإنه يحب الله رسوله (١) » فلم يخرج بالمصيبة عن المحبة نعم يخرج بالمصيبة عن كمال الحب

(١) حديث آتى نعيمان يوما فحده فلغنه رجل قال ما أكثر ما يؤتى به فقال لا تلغنه فإنه يحب الله
ورسوله البخارى وقد تقدم .

يغاف هوجاء في تفسير
قوله تعالى سولنا تلقوا
بأيديكم إلى التهلكة
هو العبد يذنب
الكبائر ثم يقول قد
هلك لا ينفى عمل
فالتائب خاف ظناب
ورجال الغفرة ولا يكون
التائب تابيا إلا هو راج
خائف ثم إن التائب
حيث قيد الجوارح عن
السكران واستعان بنعم
الله على طاعة الله فقد
يشكر النعم لأن كل
جائحة من الجوارح
نعمة وشكرها قيدها
عن العصية واستعمالها
في الطاعة وأى شاكر
للنعماء كبر من التائب
المستقيم فإذا جمع مقام
التوبة هذه المقامات
كلها فقد جمع مقام

وقد قال بعض العارفين إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حيا متوسطا فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصي وبالجملة في دعوى المحبة خطر ولذلك قال الفضيل إذا قبل لك أحب الله تعالى فاسكت فانك إن قلت لا ، كفرت وإن قلت نعم ، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت . ولقد قال بعض العلماء ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشئ من ذلك . ومنها أن يكون مستهترا يذكر الله تعالى لا يفتقر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به فعلمة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب إليه فان من يحب إنسانا يحب كلب محله فالحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه وذلك ليس شركة في الحب فان من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله وكلامه لأنه كلامه فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الأخوة والصحة ولذلك قال تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحبوا الله لما يندوكم به من نعمة وأحبوني لله تعالى»^(١) وقال سفيان من أحب من يحب الله تعالى فأنما أحب الله ومن أكرم من يكرم الله تعالى فأنما يكرم الله تعالى . وحكى عن بعض المريدين قال كنت قد وجدت حلاوة الناجاة في صن الارادة فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتني فترة فانقطعتم عن التلاوة قال فسمعت قائلا يقول في المنام إن كنت تزعم أنك تحبني فلم جفوت كتابي أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابي قال فانتبهت وقد أشرب في قلبي محبة القرآن فعاودت إلى حالي . وقال ابن مسعود لا ينبض أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله . وقال سهل رحمة الله تعالى عليه علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي ﷺ وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادا وبلغت إلى الآخرة . ومنها أن يكون أنسه بالخلة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويستم هده الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق وأقل درجات الحب التلذذ بالخلة بالحبيب والتم بمناجاته فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألد عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته قيل لبراهيم بن آدم وقد نزل من الجبل من أين أقبلت فقال من الأنس بالله وفي أخبار داود عليه السلام لا تستأنس إلى أحد من خلقي فاني إنما أقطع عنى رجلين رجلا استبطأ ثوابي فانقطع ورجلا نسيتي فرضى بحاله وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه وأن أدعه في الدنيا حيران ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ما قاطع عن درجة محبته وفي قصة برخ وهو العبد الأسود الذي استسقى به موسى عليه السلام إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام إن برخا نعم العبد هو لي إلا أن فيه عيبا قال يارب وما عيبه قال يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه ومن أحبني لم يسكن إلى شيء . وروى أن عابدا عبد الله تعالى في غيضة دهرها طويلا فنظر إلى طائر وقد عشش في شجرة بأوى إليها وبصر عندها فقال لو حولت مسجدى إلى تلك الشجرة فسكنت أنس بصوت هذا الطائر

(١) حديث أحبوا الله لما يندوكم به من نعمة الحديث تقدم .

التسوية حال الزجر
وحال الانتباه وحال
التيقظ ومخالفة النفس
والتقوى والمجاهدة
ورؤية عيوب الأفعال
والانابة والصبر والرضا
والمحاسبة والمراقبة
والرعاية والشكر
والخوف والرجاء وإذا
صحت التوبة النصح
وزكّت النفس انجحت
مرآة القلب وبان قبس
الدنيا فيها فيحصل
الزهد والزهد يتحقق
فيه التوكل لأنه لا يزهد
في الوجود إلا لاعتماده
على الموعود والسكون
إلى وعد الله تعالى هو
عين التوكل وكلما بقي
على العبد يقية في تحقق
المقامات كلها بعد
توبته يستدركه

قال فضل فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان قل لفلان العابد استأنست بمخلوق لأحطتك درجة لا تتلها بشيء من عملك أبدا ، فاذن علامة المحبة كمال الأنس بمنجاة الم محبوب وكمال التمتع بالحلوة به . وكمال الاستيحاش من كل ما ينقص عليه الحلوة ويعوق عن لقمة النجاة وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بلغة النجاة كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه وقد انتهت هذه اللذة يعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الحلوة والنجاة قرّة عينه يدفع بها جميع الهموم بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على سمعه مرارا مثل العاشق الوطن فانه يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبته فالحب من لا يطمئن إلا بحبويه . وقال قتادة في قوله تعالى - الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب - قال هشت إليه واستأنست به . وقال الصديق رضي الله تعالى عنه من ذاق من خالص محبة الله شغفه ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبي بكر المحب لا يسأم من حديث حبيبته وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قد كذب من ادعى محبتي إذا جنة الليل نام عنى أليس كل محب يحب لقاء حبيبته فما أناذا موجود لمن طلبني . وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأقصدك فقال إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيى بن معاذ من أحب الله أبغض نفسه . وقال أيضا من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب : يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق . ومنها أن لا يتأسف على ما فوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطف والاستعتاب والتوبة . قال بعض العارفين إن لله عبادا أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان ملك ملكهم تاما وما شاء كان فما كان لهم فهو واصل إليهم وما فاتهم فبحسن تديره لهم وحق المحب إذا رجع من غفاته في لحظة أن يقبل على محبوبه ويشغل بالعتاب ويسأله ويقول رب بأي ذنب قطعت برك عنى وأبعدتني عن حضرتك وشغلتنى بنفسى وبمتابعة الشيطان فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئا إلا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل السكل بالرضا وعلم أن المحبوب لم يقدر له إلا ما فيه خيره ويذكر قوله - وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم - ومنها أن يتم بالطاعة ولا يستعقلها ويسقط عنه تعها كما قال بعضهم كابدت الليل عشرين سنة ثم تعمت به عشرين سنة . وقال الجنيد علامة المحب دوام النشاط والدهوب بشهوة تفتت بدنه ولا تفتت قلبه . وقال بعضهم العمل على المحبة لا يدخله الفتور . وقال بعض العلماء والله ما اشتفى محب لله من طاعته ولو حلل بعظيم الوسائل فكل هذا أو مثاله موجود في المشاهدات فان العاشق لا يستعمل الصمى في هوى معشوقه ويستتلك خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تماوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به فهكذا يكون حب الله تعالى فان كل حب صار غالبا قهرا لا محالة ما هو دونه فمن كان محبوبه أحب إليه من السكل ترك السكل في خدمته وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه ، وقيل لبعض الهيين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء ما كان سبب حاله هذه في المحبة فقال سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول أنا والله أحبك بقلبي كله وأنت ممرض عنى بوجهك كله فقال له المحبوب إن كنت تحبني فأيش تنفق على قال يا سيدي أملكك ما أملك

يزهده في الدنيا وهو ثالث الأربعة . أخبرنا شيخنا قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرو قال أنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس قال أنا أبو محمد يحيى بن ساعدة قال حدثنا الحسين بن الحسن السروزي قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا الهيثم بن جميل قال أنا محمد بن سليمان عن عبد الله بن بريدة قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فبدأ بغاطمة رضي الله عنها فرأها قد أحدثت في البيت سرا ووزاود في يديها فلما رأى

ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك فقات هذا خلق لحاق وعبد أميد فكيف سجد لمعبود فكل هذا بسببه . ومنها أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله رحماً بهم شديداً على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئاً مما يكرهه كما قال الله تعالى - أشداه على الكفار رحماً بينهم - ولا تأخذهم لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف وبه وصف الله أوليائه إذ قال الذين يكفون محبى كما يكف الصبي بالشيء . ويأوون إلى ذكرى كما يأوى النسرى إلى وكره ويغضبون لمهارمه كما يغضب النمر إذا حرد فانه لا يبالي قل الناس أو كثروا فانظر إلى هذا المثال فان الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلاً وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصحاح حتى يرد إليه فان نام أخذه معه في ثيابه فاذا اتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده ضحك ومن نازعه فيه أبضه ومن أعطاه أجه وأما النمر فانه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه فهذه علامات المحبة فمن تمت فيه هذه العلامات قدمت محبته وخلص حبه فصفاً في الآخرة شرابه وعذب مشربه ومن امتزج بحبه حب غير الله تمت في الآخرة بقدر حبه إذ يمزج شرابه بقدر من شراب القربين كما قال تعالى في الأبرار - إن الأبرار لى نعيم - ثم قال - يستقون من رحيق مختم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون - فاذا طاب شراب الأبرار لشرب الشراب الذى هو لامة مقربين والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال - إن كتاب الأبرار لى عليمين - ثم قال - يشهده المقربون - فكان أمانة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقربون وكان الأبرار يجدون الزيد فى حالهم ومعرفتهم بقربهم من القربين ومشاهدتهم لهم - كذلك يكون حالهم فى الآخرة - ما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة - كما بدأنا أول خلق نعيده - وكما قال تعالى - جزاء وفاقاً - أى وافق الجزاء نعمالمهم فقول الحالى بالصرف من الشراب وقبول الشوب بالشوب وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب فى حبه وأعماله - فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - وإن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها - وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين - فمن كان حبه فى الدنيا رجاء لنعيم الجنة والخور العين والقصور مكن من الجنة ليتبوا منها حيث يشاء فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان فهناك تنتهى لذته فى الآخر لأنه إنما يعطى كل إنسان فى المحبة ما تشبهه نفسه وتلذذ عينه ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يلب عابه إلا حبه بالاخلاص والصدق أنزل فى مقعد صدق عند مليك مقتدر - فالأبرار يرتعون فى البساتين ويتعمون فى الجنان مع الخور العين والولدان والمقربون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها تقوم بقضاء شهوة البطن والفرج . شغولون وللمجالسة أقولم آخرون ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الأبواب (١) » ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال - وما أدراك ما عليون - كما قال تعالى - القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة - ومنها أن يكون فى حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتمظيم وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب والخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ليست لتيرم وبعض مخاوفهم أشد من بعض فأولها خوف الإعراض وأشد منه خوف الحجاب وأشد منه خوف الابعاد وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى شبب سيد

ذلك رجوع ولم يدخل
ثم جلس فجعل ينكت
فى الأرض ويقول
مالى وللدنيا مالى
وللدنيا فرأت فاطمة
أنه إنما رجع من أجل
ذلك الستر فأخذت
الستر والزوائد
وأرسلت بهما مع بلال
وقالت له اذهب إلى
النبي صلى الله عليه وسلم
قل له قد تصدقت به
فضعه حيث شئت فأتى
بلال إلى النبي صلى الله
عليه وسلم فقال قالت
فاطمة قد تصدقت به
فضعه حيث شئت فقال
النبي صلى الله عليه وسلم
بأبى وأمى قد فعلت
بأبى وأمى قد فعلت
اذهب فعه . وقيل
فى قوله تعالى - إنا
جعلنا ما على الأرض
زيناً لها لنولم أهم

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الأبواب البراز من حديث أنس بن مالك ضعيف مقتصر على الشطر الأول وقد تقدم والشطر الثانى من كلام أحمد بن أبى الحوارى وأمله أدرج فيه .

المحبين (١) إذ سمع قوله تعالى - ألا بعدا لنمود - ألا بعدا لمدين كما بعدت نمود - وإنما عظم هيبته البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه وتنم به لحديث البعد في حق البعدين يشيب سماعه أهل القرب في القرب ولا يعن إلى القرب من ألف البعد ولا يبيكي لحوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ثم خوف الوقوف وسلب الزيد فانا قدمنا أن درجات القرب لانهاية لها وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا ولذلك قال رسول الله ﷺ « من استوى يومه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون (٢) » وكذلك قال عليه السلام « إنه ليقان على قلبي في اليوم والليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة (٣) » وإنما كان استغفاره من القدم الأول فانه كان بعدا بالإضافة إلى القدم الثاني ويكون ذلك عقوبة لهم على الفطور في الطريق والالتفات إلى غير المحبوب كما روى أن الله تعالى يقول إن أدنى ما أضع بالعالم إذا أثر شهوات الدنيا على طاعتي أن أصله لذنيذ مناجاتي فسلب للزيد بسبب الشهوات عقوبة للمعوم فأما الخصوص فيحجبهم عن الزيد مجرد الدعوى والمجب والركون إلى ما ظهر من مبادئ اللطف وذلك هو السكر الحفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته . مع إبراهيم بن آدم قائلا يقول وهو في سياحته وكان على جبل :

كل شيء منك مغفور سوى الإعراض عنا
قد وهبنا لك ما فات فهب ما فات منا

فاضطرب وغشى عليه فلم يبق يوما وليلة وطرأت عليه أحوال ثم قال سمعت النداء من الجبل يا إبراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت ثم خوف السلو عنه فان الحب يلزمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب الزيد ولا يتسلى إلا بلطف جديد فان تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعه والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر فان هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها فاذا أراد الله السكر به واستدرجه أخفى عنه ماورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويفتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكرو البيان وكان من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضى هيجان الحب وهي أو صاف اللطف والرحمة والحكمة فن أوصافه ما يلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والمزة والاستغناء وذلك من مقدمات السكر والشقاء والحرمان ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره وذلك هو التفت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والاعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبرواقباضه عن دوام الذكر وملا له لوظائف الأوراد أسباب هذه اللعاني ومقدماتها وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام التفت نمود بالله منه وملازمة الحوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب فان من أحب شيئا خاف لامحالة فقدته فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته وقد قال بعض العارفين من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال ومن عبده من طريق الحوف الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ومن عبده من طريق المحبة والحوف أحبه الله تعالى فحبه ومكنه وعلمه فالهيب لا يخلو عن خوف والحائف لا يخلو عن محبة ولكن الذي غلبت عليه المحبة

(١) حديث شيبتي هود أخرجه الترمذي وقد تقدم غير مرة (٢) حديث من استوى يومه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون لا أعلم هذا إلا في منام لعبد العزيز بن أبي رواد قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله أوصني فقال ذلك بزيادة في آخره رواه البيهقي في الزهد (٣) حديث إنه ليقان على قلبي متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم .

أحسن عملا - قيسل
الزهد في الدنيا . سئل
أمير المؤمنين على بن
أبي طالب رضى الله
عنه عن الزهد فقال
هو أن لا يتبالي بمن
أكل الدنيا مؤمن أو
كافر . وسئل الشبلي
عن الزهد فقال ويلكم
أبى مقدار جناح
بعوضة أن يزهدها .
وقال أبو بكر الواسطي
إلى متى تصول بترك
كيف وإلى متى تصول
بإعراضك عما لا تزن
عند الله جناح بعوضة
فاذا صح زهد العبد
صح توكله أيضا لأن
صدق توكله مكنه من
زهده في الوجود فمن
استقام في التوبة
وزهد في الدنيا وحقق

حق اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو في مقام المحبة وبعد من المحبين وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر فأعما الخوف بسدله ويخفف وقه على القلب فقد روى في بعض الأخبار أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من ممرته فعمل ذلك فهم في الجبال وحر عقه ووله قلبه وبقي شاخصا سبعة أيام لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء فسأل له الصديق ربه تعالى فقال يا رب اتقصه من الذرة بعضها فأوحى الله تعالى إليه إنما أعطيتاه جزءا من مائة ألف جزء من العرفقود ذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذي سألتني هذا فأخرت إجابتهم إلى أن شفقت أنت لهذا فلما أجبته فيها سألت أعطيتهم كما أعطيتهم ذرة من العرفقة بين مائة ألف عبد فهذا ما أصابه من ذلك فقال سبحانك يا أحكم الحاكمين اتقصه مما أعطيت فأذهب الله عنه جملة الجزء وبقي معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة فاعتدل خوفه وجهه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل في وصف حال العارف :

قريب الوجد ذو مرمى بعيد عن الأحرار منهم والبيد
غريب الوصف ذو علم غريب كأن فؤاده زبر الحديد
قد عزت معانيه وجلت عن الأبصار إلا للتشديد
يرى الأعياد في الأوقات تجري له في كل يوم ألف عيد
ولالأجباب أفرح بعيد ولا يجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيّد رحمه الله ينشد آياتا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره وهي هذه الآيات :

سرت بأناش في الصيوب قلوبهم حلوا بقرب الماجد التفضل
عراصا بقرب الله في ظلّ قدسه تجول بها أرواحهم وتنقل
مواردم فيها على المز والتهى ومصدرم عنها لما هو أكمل
تروح جز مفرد من صفاته وفي حال التوحيد عشى وترقل
ومن جد هذا ماتدق صفاته وما كتبه أولى لديه وأعدل
صا كتم من علمي به ما يصونه وأبذل منه ما أرى الحق يبذل
وأعطي عباد الله منه حقوقهم وأمنع منه ما أرى النعم يفضل
على أن للرحمن سرا يصونه إلى أهله في السر والوصون أجل

ومثال هذه العارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له بل لو اشترك الناس فيها لحربت الدنيا بالحكمة تنقض فحول الغفلة لعمارة الدنيا بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لحربت الدنيا لهدم فيها وطلبت الأسواق ولما يقى بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولو قفت الألسنة والأقدام عن كثير مما انتشر من العلوم ولكن لله تعالى فيها هو شر في الظاهر أسرار وحكم كما أن له في الخبر أسراراً وحكماً ولا منتهى لحكته كما لا غاية لقدرة . ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تمظيها للمحبوب وإجلالها له وهيبته منه وغيرة على سره فان الحب سر من أسرار الحبيب ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء وتعظم العقوبة عليه في المعنى وتسجل عليه البلوى في الدنيا ، نعم قد يكون للمحب سكرة في جبهته حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله

هذين القاميين استوفى
سائر اللقائات وتكون
فيها وتحقق بها وترتيب
التوبة مع للراقبة
وارتباط إحداها
بالأخرى أن يتوب
العبد ثم يستقيم في
التوبة حتى لا يكتب
عليه صاحب النجاة
شيئا ثم يرتقى من
تطهير الجوارح عن
للماضي إلى تطهير
الجوارح عما لا يضي
فلا يسمع بكلمة فضول
ولا حركة فضول ثم
ينتقل للرعاية والمهاسبة
من الظاهر إلى
الباطن وتستولى
الراقبة على الباطن
وهو التحقق بعلم
القيام بمحو خواطر
الصية عن باطنه

فيظهر عليه حبه فان وقع ذلك عن غير تحمل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور وربما تشتمل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد بيض القلب به فلا يندفع فيضانه فالقادر على الكتمان يقول: وقالوا قريبا قلت ماأنا صانع بقرب شعاع الشمس لو كان في حجري فمالي منه غير ذكر بمخاطر يهيج نار الحب والشوق في صدري والمجاز عنه يقول:

يخفي فيسدى السمع أسرايه ويظهر الوجد عليه النفس
ويقول أيضا:

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره في جفنه كيف يكتم
وقد قال بعض العارفين أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم إشارة به كأنه أراد من يكثر التعريض به في كل شيء ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو ممقوت عند المهيبين والعلماء بالله عز وجل ودخل ذو النون المصري على بعض إخوانه ممن كان يذكر الهبة فراه مبتلى بيلاه فقال لا يحبه من وجد ألم ضره فقال الرجل لكني أقول لا يحبه من لم يتم بضره فقال ذو النون ولكني أقول لا يحبه من شمر نفسه بحبه فقال الرجل أستغفر الله وأتوب إليه فان قلت الهبة منتهى المقامات وإظهارها إظهار للخير فلماذا يستنكر فاعلم أن الهبة محمودة وظهورها محمود أيضا وإنما الذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار وحق الحب أن يتم على حبه الخفي أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله وينبغي أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب بل ينبغي أن يكون قصد الحب اطلاع الحبيب فقط فأما إرادته اطلاع غيره فشر في الحب وقادح فيه كما ورد في الإنجيل إذا تصدقت فتصدق بحيث لاتعلم شمالك ما صنعت يمينك فالتى يرى الخفيات بحزبك ءلانية وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير ربك فاظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه . حكى أن رجلا رأى من بعض المجانين ما استجبه له فيه فأخبر بذلك معروفا الكرخي رحمه الله فتبسم ثم قال يا أخى له محبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين فهذا الذى رأيت من مجانينهم وما يبكره التظاهر بالحب بسبب أن الحب إن كان عارفا وعرف أحوال اللائكة في حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لاستسكف من نفسه ومن إظهار حبه وعلم قطعا أنه من أخس المهيبين في مملكته وأن حبه أقمص من حب كل محب لله قال بعض الكاشفين من المهيبين عبت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل اليهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت أن لى عند الله شيئا فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات في قصة طويلة قال في آخرها فبلغت صفا من اللائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء قلت من أتم فقالوا نحن المحبون لله عز وجل نبيده ههنا منذ ثلثة ألاف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواء ولا ذكرنا غيره قال فاستحييت من أعمالى فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه في جهنم فاذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحيامته حق الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى ، نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته كما حكى عن الجنيد أنه قال مرض أستاذنا السرى رحمه الله فلم نعرف له دواء ولا عرفنا لها صيا فوصف لنا طبيب حاذق فأخذنا قارورة مائه فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليه مليا ثم قال لى أراه بول عاشق قال الجنيد فصمت وعشى على ووقعت القارورة من يدى ثم رجعت إلى السرى فأخبرته فتبسم ثم قال قاتله الله ما أبصره قلت بأستاذ وتبين الهبة في البول قال نعم وقد قال السرى مرة

ثم خواطر الفضول
فأذا تمكن من
رعاية الخطرات عصم
عن مخالفة الأركان
والجوارح وتستقيم
توبته قال الله تعالى
لنبيه صلى الله عليه
وسلم - فاستقم كما
أمرت ومن تاب
معك - أمره الله
تعالى بالاستقامة في
التوبة أمرا له ولأتباعه
وأمرته وقيل لا يكون
للريد مريدا حتى
لا يكتب عليه صاحب
الشمال شيئا عشرين
سنة ولا يقرم من
هذا وجود العصمة
ولكن الصادق الثابت
في النادر إذا ابتلى
بذنب ينمحي أثر الذنب
من باطنه في

لو شئت أقول ما أبيض جلدي على عظمي ولا سل جسمي إلا حبه ثم غشى عليه وتدل الغشية على أنه أضحى في غلبة الوجد ومقدمات الغشية فهذه مجامع علامات الحب وثمراته . ومنها الأنس والرضا كما سيأتي . وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من ذنائب الأخلاق ، نعم قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه والمحبون لا يخرجون عن هذين التسمين ولذلك قال الجنيد الناس في محبة الله تعالى عام وخاص فالعوام نالوا ذلك بمحرماتهم في دوام إحسانهم وكثرة نعمه فلم يتعال كوا أن أرضوه إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والاحسان فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبهوا إذ استحق عندهم المحبة بذلك لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم نعم من الناس من يحب هواه وعدواقه إبليس وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الضرور والجهل فيظن أنه محب لله عز وجل وهو الذي قدمت فيه هذه العلامات أو يلبس بها نقاها ورياء وحممة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك كهداء السوء وقرء السوء أو تلك بضياء الله في أرضه وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال يادوست أى يا حبيب قليل له قد لا يكون حبيبا فكيف تقول هذا فقال في أذن القائل سرا: لا يخلو إما أن يكون مؤمنا أو منافقا فان كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل وإن كان منافقا فهو حبيب إبليس وقد قال أبو تراب النخعي في علامات المحبة آياتا :

ألفظ ساعة لوجود
النم في باطنه
على ذلك والنم توبة
فلا يكتب عليه
صاحب التوال شيئا
فاذا تاب توبة نصوحا
ثم زهد في الدنيا
حتى لا يهتم في غذاه
لشائه ولا في عشاءه
لغذائه ولا يرى الأذخار
ولا يكون له خلق
م يفسد قد جمع
في هذا الزهد
والفقر والزهد أفضل
من الفقر وهو فقر
وزيادة لأن الفقير
عادم للشيء اضطرارا
والزاهد تارك للشيء
اختيارا وزهده
يحقق توكله وتوكله
يحقق رضاه ورضاه
يحقق الصبر وصبره

لا تخدعن فلاحبيب دلائل
● منها تنعمه بمر بلائه
فالتنع منه عطية مقبولة
ومن الدلائل أن ترى من عزمه
ومن الدلائل أن يرى متبسا
ومن الدلائل أن يرى متفهما
ومن الدلائل أن يرى متشفا
ولديه من تحف الحبيب وسائل
وسروره في كل ما هو فاعل
والفقر إكرام وبر عاجل
وطوع الحبيب وإن ألح العاذل
والقلب فيه من الحبيب بلايل
لكلام من يحظى لديه السائل
متحفظا من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ :

ومن الدلائل أن تراه مشمرا
ومن الدلائل حزنه ونحيبه
ومن الدلائل أن تراه مسافرا
ومن الدلائل زهده فيما يرى
ومن الدلائل أن تراه باهكيا
ومن الدلائل أن تراه ملسا
ومن الدلائل أن تراه راضيا
ومن الدلائل ضحكه بين الورى
في خرفتين على شطوط الساحل
جوف الظلام لما له من عاذل
نحو الجهاد وكل فعل فاضل
من دار ذل والنعم الزائل
أن قد رآه على قبيح فاضل
كل الأمور إلى اللبيك العادل
بليكه في كل حكم نازل
والقلب محزون كقلب الثنا كل

(بيان معنى الأنس بالله تعالى)

قد ذكرنا أن الأنس والحروف والشوق من آثار المحبة إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على الحب بحسب نظره وما يظن عليه في وقتها فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منبج الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنهه الجلال انبث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه وتسمى هذه الحالة

في الازعاج شوقا وهو بالاضافة إلى أمر غائب وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد استبشيره القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أما وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم البالاة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشمار فيسمى تألمه خوفا وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها فالأنس من هذه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ماغاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له أنت مشتاق فقال لا إنما الشوق إلى غائب فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشاق وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقى في الامكان من مزايا الأنطاف ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة كما حكى أن إبراهيم بن آدم نزل من الجبل قليل له من أين أقبلت فقال من الأنس بالله وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله بل كل ما يوق عن الخلوة فيكون من أقل الأشياء على القلب كما روى أن موسى عليه السلام لما كلفه ربه مكث دهرًا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذته العشيان لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه . ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه يا من آتني بذكره وأوحشني من خلقه وقال الله عز وجل لداود عليه السلام كن لي مشتاقا وبى مستأسا من سواي مستوحشا وقيل لرابعة بنت هبة المزيلة قالت بتركي مالا يعني وأنى بن لم يزل . وقال عبد الواحد بن زيد مرت يراهب قلت له ياراهب لقد أعجبتك الوحدة فقال يا هذا لو ذقت حلوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك الوحدة رأس العبادة قلت ياراهب ما أقل ما أعجده في الوحدة قال الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم قلت ياراهب متى يدوق العبد حلوة الأنس بالله تعالى قال إذا صفا الود وخلصت العاملة قلت ومتى يصفو الود قال إذا اجتمع لهم فصارها واحدا في الطاعة . وقال بعض الحكماء عجبا للخلاق كيف أرادوا بك بدلا عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك . فان قلت فما علامة الأنس فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشره الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر فان خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة وغريب في حضر وحاضر في سفر وشاهد في غيبة وغائب في حضور محالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر كما قال على كرم الله وجهه في وصفهم هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستلأنوا ما استوعر الترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون محبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالهل الأمل أوثك خلفاء الله في أرضه والهداة إلى دينه فهذا معنى الأنس بالله وهذه علامته وهذه شواهد وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه وجعله بأن جمال اللذرات بالبصائر أكمل من جمال البصائر ولذا معرفتها أغلب على ذوى القلوب ومنهم أحمد بن غالب يعرف بسلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبي الحسن النورى والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا . وقال ليس إلا الصبر فأما الرضا فقير متصور وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر فان المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل :

بحق حبس النفس
وصدق المجاهد
وحبس النفس لله
بحق خوفه وخوفه
بحق رجاءه ويجمع
بالتوبة والزهد كل
المقامات والزهد
والتوبة إذا اجتمع
صحة الإيمان وعقوده
وشروطه يعوز هذه
الثلاثة رابع بهتمامها
وهو دوام العمل لأن
الأحوال السنية
ينكشف بعضها بهذه
الثلاثة وتيسر بعضها
متوقف على وجود
الرابع وهو دوام
العمل وكثير من
الزهاد المتحققين بالزهد
للتستمين في التوبة
تخلفوا عن كثير من
سنى الأحوال لتخلفهم

الأنس بالله لا يحويه بطلان وليس يدركه بالحوال محتمل
والأنسون رجال كلهم نجيب وكلهم صنفوة لله عمال
(بيان معنى الانبساط والادلال الذي تسمره غلبة الأنس)

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكّم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينفضه خوف التنفير والحجاب فإنه يثمر نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والناجاة مع الله تعالى وقد يكون منسكراً الصورة لما فيه من الجرامة وقلة الهيبة ولكن محتمل بمن أقيم في مقام الأنس ومن لم يتم في ذلك المقام ويتشبه بهم في الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالى كليهما موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقى لبي إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام ليستسقى لهم في سبعين ألفاً فأوحى الله عز وجل إليه كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم سرأثرهم خبيثة يدعونني على غير يقين ويأمنون مكري أرجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ فقل له يخرج حتى أستجيب له فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق إذا ببعد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود في شملة قد عقدها على عنقه فصرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له ما اسمك فقال اسمي برخ قالت طلبتنا منذ حين أخرج فاستسقى لنا فخرج فقال في كلامه ما هذا من فعلك ولا هذا من حلك وما الذي بدالك أتقصت عليك عيونك أم عاندت الرياح عن طاعتك أم نقد ما عندك أم اشتد غضبك على الذين أئسنت كنت غفارا قبل خلق الخطائين خلقت الرحمة وأمرت بالمعطف أم تربنا أنك تمتنع أم تخشى الموت فتعجل بالعقوبة قال فابرح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر وأبنت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب قال فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال كيف رأيت حين خاصمت ربي كيف أنصفتي فهم موسى عليه السلام به فأوحى الله تعالى إليه أن برخا يضحكني كل يوم ثلاث مرات. وعن الحسن قال احترقت أخصاص بالبصرة فبقي في وسطها خص لم يحترق وأبو موسى يومئذ أمير البصرة فأخبر بذلك فبعث إلى صاحب الحصص قال فأني بشيخ فقال يا شيخ ما بال خصك لم يحترق قال إني أقسمت على ربي عز وجل أن لا يحرقه فقال أبو موسى رضي الله عنه إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يكون في أمي قوم شعثة رهوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرم»^(١) قال ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار فقال له أمير البصرة انظر لا تحترق بالنار فقال إني أقسمت على ربي عز وجل أن لا يحرقني بالنار قال فاعزم على النار أن تطأ قال فعزم عليها فطفت وكان أبو حصص يمشي ذات يوم فاستقبله رستاقي مدهوش فقال له أبو حصص ما أصابك فقال ضل حماري ولا أملك غيره قال فوقف أبو حصص وقال وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حمارة قال فظهر حمارة في الوقت ومر أبو حصص رحمه الله . فهذا وأمثاله يجري لدى الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم. قال الجنيد رحمه الله أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة. وقال مرة لوصيها العموم لكفروهم وهم يمدون للزيد في أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل:

قوم تخالجهم زهو بسيدم والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهوا برؤيته عما سواه له يا حسن رؤيتهم في عز ما تاهوا

ولا تستبعدون رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما في القرآن تنبيهات على

عن هذا الرابع ولا يراد الزهد في الدنيا إلا لكمال الفراغ المستعان به على إدامة العمل لله تعالى والعمل لله أن يكون الصبد لا يزال ذا كرا أو تاليا أو مصليا أو مراقبا لا يشغله عن هذه إلا واجب شرعي أو مهم لا بد منه طبيعي فاذا استولى العمل القلبي على القلب مع وجود الشغل الذي أداء إليه حكم الشرع لا يستر باطنه عن العمل فاذا كان مع الزهد والتقوى متمسكا بدوام العمل فقد أكمل الفضل وما إلى جهدا في العبودية

(١) حديث الحسن عن أبي موسى يكون في أمي قوم شعثة رهوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرم ، ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة .

هذه المعاني لو فطنت وفهمت فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولى البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها
 بعين الاعتبار فأعماهى عند ذوى الاعتبار من الأسماء . فأول القصص قصة آدم عليه السلام
 وإبليس أما تراها كيف اشتركا فى اسم العصية والمخالفة ثم تباينا فى الاجتناب والعصية . أما إبليس
 فأبلس عن رحمة . وقيل إنه من البعدين . وأما آدم عليه السلام ثقيل فيه - وعصى آدم ربه
 فغوى ثم اجتنابه ربه فتاب عليه وهدى - وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى الاعراض
 عن عبد والاقبال على عبد وما فى السبوبة سيان ولكن فى الحال مختلفان ، فقال - وأما من
 جاءك يسمى وهو يخشى فأنت عنه تلهى - وقال فى الآخر - أما من استغنى فأنت له تصدى -
 وكذلك أمره بالعود مع طائفة ، قال عز وجل - وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا قتل سلام
 عليكم - وأمره بالإعراض عن غيرهم ، قال - وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض
 عنهم - حتى قال - فلا تقم بعد الذكرى مع القوم الظالمين - وقال تعالى - واصبر نفسك مع
 الذين يدعون ربهم بالمعناة والعشى - فكذا الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون
 بعض ، فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام - إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء
 وتهدى من تشاء - وقوله فى التمليل والاعتذار لما قيل له - اذهب إلى فرعون - فقال - ولم
 على ذنب - وقوله - إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطق لسانى - وقوله - إننا
 نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى - وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأن الذى
 أقيم مقام الأنس بلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض
 والهية ضوقب بالسجن فى بطن الحوت فى ظلمات ثلاث ونودى عليه إلى يوم القيامة - لولا أن
 تداركه نعمة من ربه لتبذ بالهراء وهو مذموم - . قال الحسن الهراء هو القيامة ، ونهى نبينا
 صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به . وقيل له - فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ
 نادى وهو مكظوم - وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات وبعضها لما سبق فى
 الأزل من التفاضل والتفاوت فى القسمة بين العباد ، وقد قال تعالى - ولقد فضلنا بعض النبيين
 على بعض - وقد قال - منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات - فكان عيسى عليه السلام من
 المفضلين ولإدلاله سلم على نفسه ، فقال - والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا -
 وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف فى مقام الأنس . وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فانه أقيم
 مقام الهية والحياة فلم ينطق حتى أتى عليه خالقه ، قال - وسلام عليه - وانظر كيف احتمل
 لإخوة يوسف ماضوه يوسف . وقد قال بعض العلماء : قد عدت من أول قوله تعالى - إذ قالوا
 ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا - إلى رأس العشرين من أخباره تعالى عن زهدم فيه نيفا
 وأربعين خطبة بعضها أكبر من بعض وقد يجتمع فى الكلمة الواحدة الثلاث والأربع فففر
 لهم وغفا عنهم ولم يحتمل العزيز فى مسألة واحدة سأل عنها فى القدر حتى قيل عى من ديوان النبوة
 وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكبر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك . وكان
 آصف من للسرفين وكانت مصيبتة فى الجوارح فضا عنه فقد روى أن الله تعالى أوحى إلى سليمان
 عليه السلام يارأس العابدين ويا ابن عجة الزاهدين إلى كم يصيبني ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه
 مرة بعد مرة فوعزنى وجلالى لئن أخذته عصفه من صفاني عليه لأتركه مثله لمن معه ونكالا
 لمن يهده . فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا

قال أبو بكر الوراق :
 من خرج من قالب
 العبودية صنع به ما
 يصنع بالآبق . وسئل
 سهل بن عبد الله
 التستري : أى منزلة إذا
 قام العبد بمقام مقام
 العبودية قال إذا ترك
 التدبير والاختيار فاذا
 تحقق العبد بالتسوية
 والزهد ودوام العمل
 لله يشغله وقته الحاضر
 عن وقته الآتى ويصل
 إلى مقام ترك التدبير
 والاختيار ثم يصل إلى
 أن يملك الاختيار ،
 فيكون اختياره من
 اختيار الله تعالى لئوال
 هواه ووفور عله
 وانقطاع مادة الجهل
 عن باطنه . قال يحيى
 ابن معاذ : الرازى مادام

كثيما من رمل ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال إلهي وسيدى أنت أنت وأنا أنا فكيف أتوب إن لم تقب على وكيف أستعصم إن لم تصمني لأعودن فأوحى الله تعالى إليه صدقت يا آصف أنت أنت وأنا أنا استقبل التوبة وقد ثبت عليك وأنا التواب الرحيم ، وهذا كلام مدلل به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه ، وفي الخبر « إن الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشقى على المهلكة كم من ذنب واجهته به غفرته لك قد أهلكت في دونه أمة من الأمم » فهذه سنة الله تعالى في عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ما صفت به للشبهة الأزلية وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل لها في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول - قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد - وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول - للذي القدوس السلام للؤمن للهيمن العزيز الجبار للتكبر - وتارة يتعرف إليهم في أفضاله المحرقة قول الرجوة فيتلو عليهم سنته في أعدائه وفي أنبيائه فيقول - ألم تر كيف فعل ربك بماذات الصناد - ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب القبيل - ولا يبدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه ومعرفة صفاته وأسمائه ومعرفة أفضاله وسنته مع عباده ، ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس واقتضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك القرآن قال « من قرأ سورة الإخلاص قد قرأ ثلث القرآن (١) » لأن منتهى التقديس أن يكون واحدا في ثلاثة أمور : لا يكون حاصله من هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله لم يلد ولا يكون حاصله من هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله لم يولد ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلا له ولا فرعا من هو مثله ودل عليه قوله - ولم يكن له كفوا أحد - ويجمع جميع ذلك قوله تعالى - قل هو الله أحد - وجعله تفصيل قول لا إله إلا الله فهذه أسرار القرآن ولا تنتهي أمثال هذه الأسرار في القرآن - ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين - ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه نوروا القرآن والتوا غرائبه فيه علم الأولين والآخرين وهو كما قال ولا يعرفه إلا من طال في آحاد كلماته فكره وصفا له فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر ملك قادر وأنه خارج عن حد استطاعة البشر وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي القصص والأخبار فكان حريصا على استنباطها لينكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم الزخرفة الخارجة عنه فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذي هو ثمرة وبيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى أعلم .

(القول في معنى الرضا بقضاء الله وحقيقته وما ورد في فضيلته)

اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات التربين وحقيقته غامضة على الأكثرين وما يدخل عليه من التشابه والابهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وقفه في الدين فقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فضل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي وأن يمدح بذلك قوم فرأوا الرضا بالعبور والفسوق وترك الاعتراض والانكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى ، ولو انكشف هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال « اللهم قفه في الدين وعلمه التأويل (٢) »

(١) حديث من قرأ سورة الإخلاص قد قرأ ثلث القرآن أحمد من حديث أبي بن كعب باسناد صحيح ورواه البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي العرداء نحوه (٢) حديث دعاؤه لابن عباس اللهم قفه في الدين وعلمه التأويل متفق عليه دون قوله وعلمه التأويل ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم في العلم .

العبء يتعرف يقال له لا تختر ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف فاذا عرف وصار عارفا يقال له إن شئت اختر وإن شئت لا تختر لأنك إن اخترت فاختيارنا اخترت وإن تركت الاختيار فاختيارنا تركت الاختيار فانك بنا في الاختيار وفي ترك الاختيار والعبء لا يتحقق بهذا المقام العالي والحال العزيز الذي هو الغاية والنهاية وهو أن يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار إلا بإحكامه هذه الأربعة التي ذكرناها لأن ترك التدبير فناء وتمليك التدبير

فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا ثم بحكايات أحوال الراضين ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوره فيما يخالف
المهوى ثم نذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصي .

(بيان فضيلة الرضا)

أما من الآيات قوله تعالى - رضى الله عنهم ورضوا عنه - وقد قال تعالى - هل جزاء الإحسان
إلا الإحسان - ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا البعد عن الله تعالى وقال تعالى
- وما كن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر - قد رفع الله الرضا فوق جنات عدن
كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والنكرو ولقد كراهه أكبر - فكما
أن مشاهدة اللذكري في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب
سكان الجنان ، وفي الحديث « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضائك (١) فسؤالهم
الرضا بعد النظر نهاية التفضيل . وأما رضا البعد فنسند كحقيقته وأما رضوان الله تعالى عن البعد فهو
بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للبعد ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته إذ تنصرف أفهام الخلق
عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بادرأكه من نفسه . وطى الجملة فلارتبة فوق النظر إليه فاعلموا
الرضا لأنه سبب دوام النظر فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمانى لما ظفروا بنعيم النظر فلأمرؤا
بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلما أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب وقال الله تعالى - ولقد ينمزيه
قال بعض للفسرين فيه يأتي أهل الجنة في وقت للزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين : إحداها هدية
من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها فذلك قوله تعالى - فلا تحم نفس مأخفي لهم من قررة
أعين - والثانية السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على الهدية فضلا وهو قوله تعالى - سلام قولامن
رب رحيم - والثالثة يقول الله تعالى : إني عنكم راض . فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك
قوله تعالى - ورضوان من الله أكبر - أى من النعم الذى هم فيه فهذا أفضل رضا الله تعالى وهو نعم رضا
البعد . وأما من الأخبار فقد روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه ما أتم قالوا
مؤمنون فقال ما علامة إيمانكم فقالوا نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ورضى بمواقع القضاء فقال
مؤمنون ورب الكعبة (٢) » وفي خبر آخر أنه قال « حكاء علماء كادوا من قههم أن يكونوا أنبياء (٣) »
وفي الخبر « طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفايا ورضى به (٤) » وقال عليه السلام « من رضى من الله
تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل (٥) » وقال أيضا « إذا أحب الله تعالى
عبدا ابتلاه فان صبر اجتناب فان رضى اصطفاه » وقال أيضا « إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة
من أمتى أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا فتقول لهم

(١) حديث إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضائك البرار والطيراني في الأوسط من حديث
أنس في حديث طويل بسند فيه لين وفيه فيتجلى لهم يقول أنا الذى صدقتم وعدى وآمنت عليكم
نعمتى وهذا محل إكرامى فسلوني فيسألونه الرضا الحديث ورواه أبو جلى بلفظهم قول ماذا تريدون
فيقولون رضائك الحديث ورجاله رجال الصحيح (٢) حديث سأل طائفة من أصحابه ما أتم قالوا
مؤمنون فقال ما علامة إيمانكم الحديث تقدم (٣) حديث أنه قال في حديث آخر حكاء علماء كادوا
من قههم أن يكونوا أنبياء أيضا (٤) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفايا ورضى
به الترمذى من حديث فضالة بن عبيد بلفظ وقع وقال صحيح وقد تقدم (٥) حديث من رضى من
الله بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل رويناه في أمالى الهاملى باسناد ضعيف من حديث
على بن أبى طالب ومن طريق الهاملى رواه أبو منصور الديلمى في مسند التردوس .

والاختيار من الله
تعالى لعبده وردة إلى
الاختيار تصرف بالحق
وهو مقام البقاء وهو
الانسلاخ عن وجود
كان بالبعد إلى وجود
يصير بالحق وهذا
البعد مايق عليه من
الاعوجاج ذرة واستقام
ظاهره وباطنه في
العبودية وعمر السلم
والعمل ظاهره وباطنه
وتوطن حضرة القرب
بنفس بين يدي الله
عز وجل متمسكة
بالاستكانة والافتقار
متحققة بقول رسول
الله صلى الله عليه وسلم
« لا تنكفى إلى نفسى
طرفة عين فأهلك ولا
إلى أحد من خلقك
فأضيق الكلائي كلاله

للالئكة هل رأيتم الحساب فيقولون ما رأينا حسابا فتقول لهم هل جزئ الصراط فيقولون ما رأينا صراطا فتقول لهم هل رأيتم جهنم فيقولون ما رأينا شيئا فتقول لللائكة من أمة من أمتهم فيقولون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا فيقولون خصلتان كانتا فينا قبلنا هذه النزلة بفضل رحمة الله فيقولون وماهما فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا فتقول لللائكة بحق لكم هذا (١) وقال صلى الله عليه وسلم «يا معشر القراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب ققرم وإفلا (٢)». وفي أخبار موسى عليه السلام إن بني إسرائيل قالوا له سل لنا ربك أمرا إذا نحن فطناه يرضى به عنا فقال موسى عليه السلام: إلهي قد سمعت ما قالوا فقال يا موسى قل لهم يرضون عنى حتى أرضى عنهم، ويهد لهذا ما روى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أحب أن يعلم ماله عند الله عز وجل فليظن بالله عز وجل عنده فإن الله تبارك وتعالى ينزله العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه (٣)» وفي أخبار داود عليه السلام بالأولياتي والمهم بالدنيا إن المهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم. يداود إن بحق من أولياتي أن يكونوا روحانيين لا يهتمون. وروى أن موسى عليه السلام قال يارب دلي على أمر فيه رضاك حتى أعمله فأوحى الله تعالى إليه: إن رضاي في كرهك وأنت لا تصبر على ماتكره. قال يارب دلي عليه، قال فإن رضاي في رضاك بقضائي. وفي مناجاة موسى عليه السلام أي رب أي خلقك أحب إليك؟ قال من إذا أخذت منه المهبوب سلمني قال فأبى خلقك أنت عليه ساخط. قال من يستخيري في الأمر فإذا قضيت له سخط قضائي. وقد روى ما هو أشد من ذلك وهو أن الله تعالى قال «أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي ولم يرض بقضائي فليخذ ربا سواي (٤)» ومثله في الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع، فمن رضى فله الرضا منى حتى يلقاني ومن سخط فله السخط منى حتى يلقاني (٥)» وفي الخبر المشهور «يقول الله تعالى خالقت الخير والشر فطوبى لمن خالقه للخير وأجريت الخير على يديه وويل لمن خالقه للشر وأجريت الشر على يديه وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف (٦)» وفي الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكأ إلى الله عز وجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين لما أجيب إلى ما أراد ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكوا هكذا كان بدوك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض

(١) حديث إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتي أجنحة فيطرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف، وفيه حميد بن طي القيسي ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرآن، وللأحاديث الصحيحة في الورد وغيره (٢) حديث أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب ققرم وإفلا تقدم (٣) حديث من أحب أن يعلم ماله عند الله فليظن بالله عنده الحديث الحاكم من حديث جابر وصححه بإفظ منزله ومنزلة الله (٤) حديث قال الله أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي الحديث الطبراني في الكبير وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هند الدارمي مقتصر على قوله من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليتمس ربا سواي وإسناده ضعيف (٥) حديث قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا الحديث لم أجده بهذا اللفظ وللطبراني في الأوسط من حديث أنى أمانة خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين الحديث وإسناده ضعيف (٦) حديث يقول الله خالقت الخير والشر فطوبى لمن خالقه للخير وأجريت الخير على يديه الحديث ابن شاهين في شرح

الوليد ولا تغفل عنى.

[الباب الستون :

في ذكر إشارات

المشاخ في القامات

على الترتيب]

قولهم في التوبة قال

رويم معنى التوبة أن

يتوب من التوبة قيل

معناه قول رابصة

أستغفر الله العظيم

من قلة صدق في قولي

أستغفر الله . وسئل

الحسن الغازلي عن

التوبة ، فقال تسألني

عن توبة الانابة أو

عن توبة الاستجابة

فقال السائل ما توبة

الانابة ؟ فقال : أن

تخاف من الله عز

وجل من أجل

قدرته عليك . قال

فما توبة الاستجابة .

وهكذا سبق لك مني وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا أقريرد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدل ما قدرته عليك فيكون ما أحب فوق ما أحب ويكون ما تريد فوق ما أريد وعزتي وجلالي لأن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأهونك من ديوان النبوة . وروى أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون يحمل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه ، قال له بعض ولده بأبت : أمارى ما يصنع هذا بك لونهته عن هذا فقال بأبي : إنى رأيت ما لم تروا ، وعلت ما لم تعلموا إلى تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار السكرامة إلى دار الهوان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء فأخاف أن أتحرك أخرى فيصينى مالا أعلم . وقال أنس بن مالك رضى الله عنه « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين لما قال لى كفى فقلت لم فعلته ولا كفى لم أفعله لم لا فعلته ولا قال فى شىء كان ليه لم يكن ولا لى شىء لم يكن ليه كان وكان إذا خاصنى مناصم من أهله يقول دعوه لوقضى شىء لكان (١) . ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد فان سلمت لما أريد كفتك ما تريد ، وإن لم تسلم لما أريد أصبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد . [وأما الآثار] فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يعمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز ما بهى لى سرور إلا فى مواقع القدر . وقيل له ماتتسى ، فقال ما يقضى الله تعالى . وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحقه دواء . وقال الفضيل : إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك . وقال عبد العزيز ابن أبي رواد : ليس الشأن فى أكل خبز الشعير والحل ولا فى لبس الصوف والشعر ولكن الشأن فى الرضا عن الله عز وجل . وقال عبد الله بن مسعود : لأن الحس حجرة أحرقت ما أحرقت وأبنت ما أبنت أحب إلى من أن أقول كفى كان ليه لم يكن أولئى لم يكن ليه كان . ونظر رجل إلى قرحة فى رجل محمد بن واسع ، فقال لى لأرحمك من هذه القرحة ، فقال : لى لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج فى عيني . وروى فى الاسرائيليات أن تابدا عبد الله دهرا طويلا فأرى فى المنام فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر إلى عملها فكان بيت قائما وتبيت نائمة وبظل صائما وتظل مغطاة ، فقال أمالك عمل غير ما رأيت ، قالت ما هو والله إلا ما رأيت لأعرف غيره فلم يزل يقول تذكرى حتى قالت خصيلة واحدة هى فى إن كنت فى شدة لم آتمن أن أكون فى رخاء وإن كنت فى مرض لم آتمن أن أكون فى صحة وإن كنت فى الشمس لم آتمن أن أكون فى الظل فوضع العابد يده على رأسه وقال أهذه خصيلة هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد . وعن بعض السلف إن الله تعالى إذا قضى فى السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء فدوة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . وقال عمر رضى الله عنه ما أبالى على أى حال أصبحت وأميت من شدة أو رخاء . وقال الثورى يوما عند راحة : اللهم ارض عنى فقالت أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض فقال أسئف الله قال جعفر ابن سليمان الضبي لى يكون البعد راضيا عن الله تعالى قالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالذمة . وكان الفضيل يقول إذا استوى عنده النعم والعطاء فقد رضى عن الله تعالى . وقال أحمد بن أبي الحواري قال أبو سليمان الداراني إن الله عز وجل من كرمه قد رضى من عبيده بما رضى العبيد من مواليهم

قال أن تستحي من الله لقربه منك وهذا الذى ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها ربما تاب فى صلاته من كل خاطر يلعبه سوى الله تعالى ويستغفر الله منه وهذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل وجودك ذنب لا يقاس به ذنب . قال ذوالنون توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من النفلة ، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم . مثل أبو محمد سهل عن الرجل

السنة عن أبي أمامة بأسناد ضعيف (١) حديث أنس خدمت النبي صلى الله عليه وسلم لما قال لى كفى فقلت لم فعلته الحديث متفق عليه وقد تقدم .

قلت وكيف ذلك قال أليس مراد الصبر من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت نعم قال فإن محبة لله من عبده أن يرضوا عنه . وقال سهل حظ العبيد من اليقين طي قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا طي قدر عيشهم مع الله عز وجل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يحكته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين وجعل النهم والحزن في الشك والسخط (١) » .

(بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى)

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصور فأعنا من ناحية إنكار المحبة فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغرق الهم به فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين : أحدهما أن يبطل الاحساس بالألم حتى يجرى عليه الإؤلوم ولا يحس وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ومثاله الرجل المحارب فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى إذا رأى الدم استدل به على الجراحة بل الذي يغدو في شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بألم ذلك لشغل قلبه بل الذي يحجم أو يحاق رأسه بمعدية كالة يتألم به فإن كان مشغول القلب بهم من مهماته فرغ للزينة والحجام وهو لا يشعر به وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا عشقه ثم لا يدرك غمه وألمه لفراط استيلاء الحب على قلبه هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصور في الألم العظيم بالحب العظيم فإن الحب أيضا يتصور تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الألم وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهرة بحيث يدهش ويثني عليه فلا يحس بما يجرى عليه . فقد روى أن امرأة فتحت الوصل عثرت فاقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أما تجدين الوجع ؟ فقالت إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجهه ، وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه فقيل له في ذلك فقال يادوست ضرب الحبيب لا يوجع . وأما الوجه الثاني فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضيا به بل راعبا فيه مريدا له أعني بقلبه وإن كان كارها بطبعه كالذي يلتبس من القصاد الفصد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومتولد من القصاد به منة بفعله فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الألم وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمره سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضيا بها ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه هذا إن كان يلاحظ الثواب والاحسان الذي يجازى به عليه ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ الحب في مراد محبوبه ورضاه لا لخص آخر وراه فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوا عنده ومطلوبا وكل ذلك موجود في للشاهدات في حب الخلق وقد توأصفتها المتواصفون في نظمهم وشرمهم ولا مئة له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر فإن نظر إلى الجمال فمأهوا لإجله ولحم ودم مشحون بالأقدار والأخبار بدياته من نطقة ملرة ونهايته جيفة قدرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة وإن نظر إلى المدرك

(١) حديث إن الله يحكته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا والحديث الطبراني من حديث ابن مسعود إلا أنه قال بتسطه وقد تقدم .

يتوب من الشيء
ويتركه ثم يخطر ذلك
الشيء بقلبه أو يراه
أو يسمع به فيجد
حلاوته فقال الحلاوة
طبع البشرية ولا بد
من الطبع وليس له حيلة
إلا أن يرفع قلبه إلى
مولاه بالشكوى
وينكره بقلبه ويلزم
نفسه الانكار ولا
يفارقه ويدعو الله أن
ينسيه ذلك ويشغله
بغيره من ذكره
وطاعته قال وإن غفل
عن الانكار طرفة
عين أخاف عليه أن
لا يسلم وتعمل الحلاوة
في قلبه ولكن مع
وجدان الحلاوة يلزم
قلبه الانكار ويحزن
فإنه لا يضره . وهنا

للجمال فهي العين الحسيدة التي تفلط فيما ترى كثيرا فترى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا والقيبح جميلا فاذا تصور استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدى الذي لا ينتهي لكأله المدرك بعين البصيرة التي لا يعترها الغلط ولا يدور بها الوت بل تبقى بعد الموت حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف فهنا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار وشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المهبين وأقوالهم فقد قال شقيق البلخي من يرى ثواب الشدة لا يشتهي المخرج منها . وقال الجنيد سألت سريرا السقطي هل يجد الحب ألم البلاء ؟ قال لا قلت وإن ضرب بالسيف قال نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة ضربة على ضربة . وقال بعضهم أحببت كل شيء بوجه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار . وقال بشر بن الحرث مررت برجل وقد ضرب ألف سوطا في شرقية بعد ادولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس فنبته فقلت له لم ضربت ؟ فقال لأنني عاشق فقلت له ولم سكت ؟ قال لأن معشوقى كان مجذائى ينظر إلى فقلت فلو نظرت إلى المشوق الأكبر قال فزعتى زعقة خرميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله تعالى إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم لما ظنك بقلوب وقت بين جماله وجلاله إذا لاحظت جلالة هابت وإذا لاحظت جماله تاهت . وقال بشر قصدت عبادان في بدايتى فاذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه فرضت رأسه فوضعت في حجرى وأنا أردد الكلام فلما أفاق قال من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى لو قطعتى إربا إربا ما ازددت له إلا حبا . قال بشر لما رأيت بعد ذلك رقعة بين عبد وبين ربه فأنكرتها . قال أبو عمرو ومحمد بن الأشعث إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشقظهم جماله عن الاحساس بألم الجوع بل فى القرآن ما هو أبلغ من ذلك قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسن بذلك . وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة فى خان عطاء بن مسلم شابا وفى يده مديحة وهو ينادى بأعلى صوته والناس حوله وهو يقول:

يوم الفراق من القيامة أطول والوت من ألم التفرق أجمل

قالوا الرحيل فقلت لست براحل لكن مهجفى التى ترحل

ثم بقر بالمديحة بطنه وخر ميتا فسألت عنه وعن أمره فقيل لى أنه كان يهوى ففى بعض الملوك حجب عنه يوما واحدا ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل دلتى على أعبد أهل الأرض فدلته على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب بصره فسمعه وهو يقول : إلهى متعتى بهما ماشئت أنت وسلبتقى ماشئت أنت وأبقت لى فىك الأمل يا رب يا وصول . ويروى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشتد وجده عليه حتى قال بعض القوم لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث فمات الغلام فخرج ابن عمر فى جنازته وما رجا أشد سرورا أبدا منه فقيل له فى ذلك فقال ابن عمر إنما كان حزنى رحمة له فلما وقع أمر الله رضىنا به . وقال مسروق : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك فالديك يوقظهم للصلاة والحمار يتقنون عليه الماء ويعمل لهم خبائهم والكلب يحرسهم قال فجاء الثعلب فأخذ الديك فخرنوا له وكان الرجل صالحا فقال عسى أن يكون خيرا ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فخرنوا عليه فقال الرجل عسى أن يكون خيرا ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى أن يكون خيرا ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فاذا قد سبى من حولهم وبقواهم قال وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب

الذى قاله سهل كاف
بالغ لكل طالب صادق
يريد صحة توبته .
والعارف القوى الحال
يتمكن من إزالة
الحلاوة عن باطنه
ويسهل عليه ذلك .
وأصعب سهولة ذلك
متوعة للعارف ومن
تمكن من قلبه حلاوة
حب الله الخاص عن
صفاء مشاهدة وصرف
يقين فأى حلاوة تبقى
فى قلبه وإنما حلاوة
الهوى لعدم حلاوة حب
الله . وسئل السوسى
عن التوبة فقال التوبة
من كل شيء ذمه العلم
إلى مادمه العلم وهذا
وصف يعم الظاهر
والباطن لمن كوشف
بصريح العلم لأنه لا بقاء

والخير والديكة فكانت الحيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى فاذن من عرف حقي
لطف الله تعالى رضى بفعله على كل حال . وروى أن عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد
مضروب الجنين بفالج وقد تآثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا
من خلقه فقال له عيسى يا هذا أى شئ من البلاء أراه مصروفا عنك فقال يا ربح الله تأخير من لم يجعل
الله فى قلبه ما جعل فى قلبى من معرفته فقال له صدقت هات يدك فناولته يده فاذا هو أحسن الناس وجها
وأفضلهم هيئة وقد أذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتبعه معه وقطع عروة بن الزبير
رجله من ركبتة من أكلة خرجت بها ثم قال الحمد لله الذى أخذ منى واحدة وإياك لأن كنت أخذت
لقد أبيت ولئن كنت ابتليت لقد عاقبت ثم لم يدع وردة تلك الليلة وكان ابن مسعود يقول الفم والنعى
مطيطان ما أبالى أيتهما ركبت إن كان الفم فإن فيه الصبر وإن كان النعى فإن فيه البذل . وقال
أبوسليمان الداراني قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا فمالي منه إلا مشام الريح وعلى ذلك لو أدخل
الحلائق كلهم الجنة وأدخلنى النار كنت بذلك راضيا ، وقيل لعارف آخر هل نلت غاية الرضا عنه فقال
أما للغاية فلا ولكن مقام الرضا قد نلته لوجعنى جسرا على جهنم يعب الحلائق على إلى الجنة ثم ملأنى
جهنم نحلة لقمته وبدلا من خليقته لأحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه وهذا الكلام من علم
أن الحب قد استغرق همه حتى منه الاحساس بألم النار فإن بقى إحساس فيغمره ما يحصل من لذته فى
استشعاره حصول رضا محبوبه بالقائه إياه فى النار واستيلاء هذه الحالة غير محال فى نفسه وإن كان
بيدا من أحوالنا الضعيفة ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء . وبنظن أن
ما هو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء . وقال الروذبارى قلت لأبي عبد الله بن الجلاء الدمشق قول فلان
وددت أن جسدى قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه مامنا . فقال يا هذا إن كان هذا من
طريق التعظيم والاجلال فلا أعرف . وإن كان هذا من طريق الاشفاق والنصح للخلق فأعرف قال
ثم غشى عليه وقد كان عمران بن الحصين . فاستسقى بطنه فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم
ولا يقعد قد تقب له فى سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء
فجعل يبكي لما يراه من حاله فقال لم تبكي ؟ ول لأنى أراك على هذه الحالة العظيمة قال لا تبك فإن أحبه
إلى الله تعالى أحبه إلى ثم قال أحدثك شيئا لم لعل الله أن ينعلمك به وا كتم على حتى أموت إن اللاتكة
تورنى فأنس بها وتسلم على فأسمع تسليحها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة إدهو سبب هذه
النعمة الجسيمة فمن يشاهد هذا فى بلانه كيف لا يكون راضيا به قال ودخلنا على سويد بن منبجة
نوده فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف فقالت له امرأته أهلى فداؤك ما نطعمك
مانسقيك فقال طالت الضجة ودبرت الحرائيف وأصبحت نضوا لا أظعم طمأنا ولا أسبيغ شرابا منذ كذا
فذكر أياما وما يسرنى أنى نعتت من هذا قلامة ظفر . ولما قدم سعد بن أبى وقاص إلى مكة وقد
كان كف بصره جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له فيدعوه لهذا ولهذا وكان محباب
الدعوة . قال عبد الله بن السائب فأتينته وأنا غلام فتعرفت إليه فعرفنى وقال أنت قارى أهل مكة؟
قلت نعم فذكر قصة قال فى آخرها قلت له يا عم أنت تدعو للناس فلودعوت لنفسك فرد الله عليك
بصرى . فقال يا بنى قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصرى . وضاع لبعض الصوفية ولد صغير
ثلاثة أيام لم يعرف له خبر فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك فقال اعتراضى عليه فيما قضى أشد
على من ذهب ولدى ، وعن بعض العباد أنه قال إني أذنبت ذنبا عظيما فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة
وكان قد اجتهد فى العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب فقيل له وما هو ؟ قال قلت مرة لثى كان ليته

لجهل مع العلم كما لا يقاوم
ليل مع طلوع الشمس
وهذا يستوعب جميع
أقسام التوبة بالوصف
الخاص والعام وهذا
العلم يكون علم الظاهر
والباطن بتطهير الظاهر
والباطن بأخص
أوصاف التوبة وأعم
أوصافها . وقال
أبو الحسن التورى
التوبة أن تتوب عن
كل شئ سوى الله
تعالى . قولهم فى الورع
قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « ملاك
دينكم الورع » أخبرنا
أبو زرعة إجازة عن
أبي بكر بن خلف عن
أبي عبد الرحمن السلمى
إجازة قال أنا أبو سعيد
الحلال قال حدثنى

لم يكن . وقال بعض السلف لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب إليّ من أن أقول لشيء قضاء الله سبحانه ليته لم يقضه ، وقيل لعبد الواحد بن زيد هبنا رجل قد تعبد خمسين سنة تقصده فقال له يا حبيبي أخبرني عنك هل قنعت به ؟ قال لا ، قال أنست به ؟ قال لا ، قال فهل رضيت عنه ؟ قال لا ، قال فإتمام زيدك منه الصوم والصلوة ؟ قال نعم ، قال لولا أني أستحي منك لأخبرتكم بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة ومعناه أنك لم يفتح لك باب القلب فتتري إلى درجات القرب بأعمال القلب وإنما أنت تمدني طبقات أصحاب اليمين لأن مزيدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم . ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة فقال لمن أتم ؟ قالوا محبوبك فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة قهاريوا فقال ما بالكم ادعيتهم هبتي إن صدقتم فاصبروا على بلائي ، وللشبلي رحمه الله تعالى :

إن الهبة للرحمن أسكرني وهل رأيت مجا غير سكران

وقال بعض عباد أهل الشام كلكم يلقي الله عز وجل مصدقا ولطه قد كذبه وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها ولو كان بها شلل ظل يوارىها يعني بذلك أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستكفون منه . وقيل إنه وقع الحريق في السوق فقيل لسرى احترق السوق وما احترق دكانك فقال الحمد لله ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتي دون المسلمين فتاب من التجارة وترك الحانوت بنية عمه ثوبة واستغفارا من قوله الحمد لله ، فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين ومهما كان ذلك ممكنا في حب الخلق وحفظهم كان ممكنا في حق حب الله تعالى وحفظ الآخرة قطعا . وإمكانه من وجهين : أحدهما الرضا بالألم لما توقع من الثواب الوجود كالرضا بالقصد والحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء . والثاني الرضا به لالخط وراهه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له قد يفتل الحب بحيث ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب فيكون ألد الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه وتقوى إرادته ولو في هلاك روحه كما قيل • فما الجرح إذا أرضاكم ألم • وهذا ممكن مع الاحساس بالألم وقد يستولى الحب بحيث يدعش عن إدراك الألم فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده فلا ينبغي أن ينكره من قده من نفسه لأنه إنما قده لقمه سبه وهو فرط حبه ومن لم يفتل طعم الحب لم يعرف محابته فله مجيبين محابته أعظم مما وصفناه . وقد روى عن عمرو بن الحرث الرافعي قال : كنت في مجلس بالرقعة عند صديق لي وكان معنا فقي يتعشق جارية مغنية وكانت معنا في المجلس فضربت بالفضيب وغنت :

علامة ذل الهوى على العاشقين البكا

ولاسيا عاشق إذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى أحسنت والله يا سيدتي أفأذنين لي أن أموت فقالت مت راشدا قال فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فيه وغمض عينه فحركناه فإذا هو ميت . وقال الجنيد رأيت رجلا متعلقا بكم صبي وهو يتضرع إليه ويظهر له الهبة فالتفت إليه الصبي وقال له إلى متى ذال التفاق الذي تظهر لي فقال قد علم الله أني صادق فيما أوردته حتى لو قلت لي متى لمت فقال إن كنت صادقا لمت قال فتحنى الرجل وغمض عينه فوجد ميتا . وقال صمنون المحب كان في جيراننا رجل وله جارية بها فاية الحب فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيا فبينما هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه قال فدعش الرجل وسقطت للامتنع من يده ورجل يحرك ما في القدر بيده حتى سقطت أصابعه فقالت الجارية ما هذا ؟ قال هذا ما كان قولك آه . وحكى عن محمد بن عبد الله البغدادي قال رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول :

ابن قتيبة قال ثنا عمر بن عثمان قال حدثنا بقة عن أبي بكر بن أبي مرزب عن حبيب بن عبيد عن أبي الدرداء رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجس على نهر فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله في النهر وقال يلعنه الله عز وجل قوما ينفعهم . قال عمر بن الخطاب لا ينبغي لمن أخذ بالقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا قال معروف السرخي احفظ لسانك من اللعن كما تحفظه من الدم . نقل عن الحرث بن أسد الحاسبي أنه كان على طرف أصبعه الوسطى عرق إذا مديده إلى

من مات عشقا فليمت هكذا لاخير في عشق بلا موت

ثم رمى نفسه إلى الأرض فعملوه ميتا فهذا أو أمثاله قد يصدق به في حب المخلوق والتصديق به في حب الخالق أولى لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال، نعم الذي قد البصر ينكر جمال الصور والذي قد السمع ينكر لذة الألحان والنعمة الموزونة فالذي قد القلب لا بد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب.

(بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا)

طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك المرق .
سئل الشبلي عن الورع فقال الورع أن تتورع أن يقتت قلبك عن الله طرفة عين . وقال أبو سليمان الداراني الورع أول الزهد كما أن القناعة طرف من الرضا . وقال يحيى بن معاذ الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل . سئل الخراساني عن الورع فقال أن لا يتكلم العبد إلا بالحق غضب أو رضى وأن يتكلم بما يرضى الله تعالى . أخبرنا أبو زرعة بإجازة عن أبي بكر بن خلف بإجازة عن السلمي قال سمعت الحسن بن أحمد

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا وكذلك كراهة للمعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضا وقد غلط في ذلك بعض البطالين للترين وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع ، فأما الدعاء فقد تعبدنا به وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام على ما نقلناه في كتاب الدعوات تمل عليه وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى اللقائم من الرضا وقد أتى الله تعالى على بعض عباده بقوله لو سيدعوتار غبارها وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أطيعوا الله وأطيعوا رسوله وأطيعوا أمراءكم» وقال تعالى - رضوا بأن يكونوا مع الخوالم وطبع على قلوبهم - وفي الخبر للشهور «من شهد منكرا فرضى به فكأنه قد فعله» وفي الحديث «الدال على الشر كفاعله» (١) «وعن ابن مسعود: إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه قيل وكيف ذلك؟ قال يلفنه فيرضى به وفي الخبر «لو أن عبدا قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر بالمغرب كان شريكا في قتله» (٢) «وقد أمر الله تعالى بالحدس والنافسة في الخيرات وتوقى الشرور فقال تعالى - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون - وقال النبي صلى الله عليه وسلم «لا حد إلا في اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو يثبها في الناس ويطلبها ورجل آتاه الله مالانسلطه على هلكته في الحق» (٣) «وفي لفظ آخر «ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناه الليل والنهار فيقول الرجل لو آتاني الله مثل ما آتى هذا لعلت مثل ما فعل» . وأما بعض الكفار والفجار والانسكار عليهم ومقتهم لما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى - لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين - وقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء - وقال تعالى - وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا - وفي الخبر «إن الله تعالى أخذ الليثاق على كل مؤمن أن يفيض كل منافق وعلى كل منافق أن يفيض كل مؤمن» (٤) «وقال عليه السلام «الراء مع من أحب» (٥) «وقال «من أحب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيامة» (٦) «وقال عليه السلام «أوثق

(١) حديث الدال على الشر كفاعله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بن مالك
(٢) حديث لو أن رجلا قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر في المغرب كان شريكا في قتله لم أجده له أصلا بهذا اللفظ ولا بن عدى من حديث أبي هريرة من حضر مصيبة فكرها فأكأتمها غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأتمها حضرها وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف (٣) حديث لا حدس إلا في اثنتين الحديث البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم (٤) حديث إن الله أخذ الليثاق على كل مؤمن أن يفيض كل منافق الحديث لم أجده له أصلا (٥) حديث الراء مع من أحب تقدم (٦) حديث من أحب قوما ووالاهم حشر معهم الطبراني من حديث أبي قريظة وابن عدى من حديث جابر من أحب قوما على أعمالهم حشر في زمرة من زاد ابن عدى يوم القيامة وفي طريقه إسماعيل بن يحيى التيمي ضعيف .

عزى الايمان الحب في الله والبغض في الله (١) وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصعبة وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا نعيد. فان قلت فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى (٢) فان كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قاذح في التوحيد وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة أمضاء الله تعالى وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد. فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاما من مقامات الرضا وممونه حسن الخلق وهو جهل محض بل تقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد فليس من التضاد في شيء واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه إذ قد يموت عدوك الذي هو أيضا عدو بعض أعدائك وساع في إهلاكه فتكره موته من حيث إنه مات عدو وعدوك وترضاه من حيث إنه مات عدوك وكذلك العصية لها وجهان وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك. الملك ورضا بما فعله فيه ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه محموتا عند الله وبغضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد ولتقت فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدي محبيه إنى أريد أن أميز بين من يحبني ويغضني وأنصب فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا وهو أنى أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضربا يضطره ذلك إلى الشتم لى حتى إذا شتمنى أبغضته وأخذته عدوا لى فكل من أحبه أعلم أيضا أنه عدوى وكل من أبغضه أعلم أنه صديق ومحبي ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذى هو سبب البغض وحصل البغض الذى هو سبب العداوة خلق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشرط المحبة أن يقول أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة فأنا محب له وراض به فانه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك وأما شتمه إياك فانه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ولكنه كان مرادك منه فانك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذى دبرته فأنا راض به ولو لم يحصل لك ذلك نقصانا في تدبيرك وتعويضا في مرادك وأنا كاره لمرادك ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك إذ كان ذلك يقتضى أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو رادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضا منبغض له لأن شرط المحب أن يكون الحبيب المحبوب حبيبا واعدوه عدوا وأما بغضه لك فأنى أراضه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعى البغض ولكنى أبغضه من حيث إنه وصف ذلك للبغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك فهو محموت عندى لمقتة إياك وبغضه ومقتة لك أيضا عندى مكروه من حيث إنه وصفه وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضى وإنما التناقض أن

ابن جعفر يقول سمعت
محمد بن داود الدينورى
يقول سمعت ابن الجلاء
يقول أعرف من أقام بمكة
ثلاثين سنة ولم يشرب
من ماء زمزم إلا من
ماء استقاء بركوته
ورشائه ولم يتناول من
طعام جلب من مصر
شيئا. وقال الخواص:
الورع دليل الخوف
والخوف دليل المعرفة
واللعرفة دليل القرية
قولهم في الزهد: قال
الجنييد: الزهد خلو
الأيدي من الأملاك
والقلوب من التبع.
وسئل الشبلى عن الزهد
فقال لا زهد في الحقيقة
لأنه إما أن يزهد فيها
ليس له فليس ذلك
زهدا أو يزهد فيها هو له

(١) حديث أوثق عزى الايمان الحب في الله والبغض في الله رواه أحمد وتقدم في آداب الصعبة
(٢) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله الترمذى من حديث سعد بن أبي وقاص من سعادة ابن آدم
رضاه بما قسم الله عز وجل الحديث وقال غريب وتقدم حديث ارض بما قسم الله لك تكن أغنى
الناس وحديث إن الله بقسطه جعل الروح والفرح في الرضا وتقدم في حديث الاستخارة واقدردلى
الحبيرة حيث كافى ثم رضى به وحديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من

يقول هو من حيث إنه مرادك مرضى ومن حيث إنه مرادك مكروه وأما إذا كان مكروها لامن حيث إنه فعله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لاتناقض فيه ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لأنحصى فاذن تسليط الله دواعي الشهوة والعصية عليه حتى يجره ذلك إلى حب العصية ويجره الحب إلى فعل العصية يضاهى ضرب المحبوب للشخص الذى ضربناه مثلا يجره الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم ومقت الله تعالى لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدييره يشبه بغض الشتم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما حصل بتدييره واختياره لأسبابه وفضل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبده أعنى تسليط دواعي العصية عليه يدل على أنه سبقت مشيئته بإصاده ومقته فواجب على كل عبد محب لله أن يخض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويباعدى من أبغده الله عن حضرته وإن اضطره بجهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته فإنه يباعد مطرودا مملون عن الحضرة وإن كان بعيدا بإصاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره والبعيد عن درجات القرب يذنبى أن يكون مقينا بغيضا إلى جميع المحبين مواقة للمحبيب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإصاده وبهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من البغض فى الله والحب فى الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم وللبالغة فى مقته مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل وهذا كله يستمد من سر القدر الذى لارخصة فى إفشائه وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان فى الشئبة والآرادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى به فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قال بهما جميعا منه من غير اقرار فى الرضا والكراهة فهو أيضا مقصر وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه فالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم «القدر سر الله فلا تشوهه»^(١) وذلك يتعلق بعلم الكاشفة وغرضنا الآن بيان الامكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصى مع أنها من قضاء الله تعالى وقد ظهر الفرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصى وسائر الأسباب العينية على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة الضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى فى العطش وشرب الماء طلبا لازالة العطش مباشرة سبب رتبته مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبته الله تعالى وأمر به وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل واستقصيائه فى كتاب التوكل فهو أيضا لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم إظهار البلاء فى معرض الشكوى وانكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض . وقد قال بعض السلف من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار أى فى معرض الشكوى وذلك فى الصيف فأما فى الشتاء فهو شكر والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الأطعمة وغيرها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع والكل من صنع الله تعالى وقول القائل الفقر بلاء وعنة والعيال هم وحب والاحتراف كد ومشقة كل ذلك قاذح فى الرضا بل ينبغى أن يسلم التديير لمديره والمملكة للملكها ويقول ما قاله عمر رضى الله عنه : لا أبالى أصبحت غنيا أو فقيرا فإنى لأدرى أيهما خيرلى .

فكيف يزهديه وهو
 معه وعندة فليس
 إلا لطف النفس وبذل
 مواساة ، يشير إلى
 الأقسام التى سبقت بها
 الأذلام وهذا لو اطرده
 هدم قاعدة الاجتهاد
 والكسب ولكن
 مقصود الشبلى أن يقال
 الزهد فى عين اللذات
 بالزهد لئلا يفتقر به .
 قاله رسول الله صلى
 الله عليه وسلم «إذا
 رأيت الرجل قد أوتى
 زهدا فى الدنيا ومنطقا
 فاقربوا منه فإنه يلقي
 الحكمة» وقد سمي الله
 عز وجل الزاهدين
 علماء فى قصة قارون
 فقال تعالى - وقال
 الذين أوتوا العلم ويلكم
 ثواب الله خير - قيل

العمل وحديث أسألك الرضا بالقضاء الحديث وغير ذلك (١) حديث القدر سر الله فلا تشوهه أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر وابن عدى فى الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف .

(بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومدمتها لا يقدح في الرضا)

اعلم أن الضعيف قد يظن أن نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون (١) يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بظهور الطاعون أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأسماء وبقي فيه المرضى مهملين لا متعهد لهم فيهلكون هزلاً وضراً ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأخبار بالفرار من الزحف (٢) ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل وإذا عرف للمعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فراراً من القضاء بل من القضاء الفرار عما لا بد من الفرار منه وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي والأسباب التي تدعو إليها لأجل التنفير عن العصية ليست منسومة لما زال السلف الصالح يتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها فقال ابن المبارك قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بها شرًا من بغداد قيل وكيف قال هو بلد تزدري فيه نعمة الله وتستصغر فيه مصيبة الله ولما قدم خراسان قيل له كيف رأيت بغداد قال ما رأيت بها إلا شرباً غضبان أو تاجراً لهفان أو قارماً حيران ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة وقد كان مقامه ببغداد يقرب استعداد القافلة ستة عشر يوماً فكان يتصدق بستة عشر ديناراً لكل يوم دينار كفارة لمقامه وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز وكعب الأحمار . وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له أين تسكن فقال العراق قال فإتضع به بلغني أنه ما من أحد يسكن العراق إلا قبض الله له قريناً من البلاد وذكر كعب الأحمار يوماً العراق فقال فيه تسعة أعشار الشر وبقية الداء الضال وقد قيل قسم الحير عشرة أجزاء فثمة أعشاره بالشام وعشره بالعراق وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك وقال بعض أصحاب الحديث كنا يوماً عند الفضيل بن عياض فجاءه سوفي متدرع ببائة فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال أين تسكن فقال ببغداد فأعرض عنه وقال يأتينا أهدم في زى الرهبان فإذا سألتاه أين تسكن قال في عسى الظلمة وكان بشر بن الحرث يقول مثال التمدد ببغداد مثال التمدد في الحش وكان يقول لا تهتدوا بي في المقام بها من أراد أن يخرج فليخرج وكان أحمد بن حنبل يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر في يقضى قيل وأين تختار السكنى قال بالنفوس . وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد زاهد من زاهد وشريروهم شرير فهذا يدل على أن من بل يبلدة تكثر فيها المعاصي ويقبل فيها الحير فلا عذر له في المقام بها بل ينبغي أن يهاجر قال الله تعالى - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - فان منه عن ذلك عمال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضياً بحاله مطمئناً النفس إليه بل ينبغي أن يكون مزعج القلب منها قائلاً على الدوام - ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها - وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل الطميين قال الله تعالى - واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة - فاذن ليس في شيء من أسباب هوس الدين البتة رضا مطلق إلا من حيث إضاعتها إلى فعل الله تعالى فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها محال وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل القامات الثلاث رجل يحب الموت شوقاً إلى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ورجل قال لا اختار شيئاً بل أرضى

هم الزاهدون . وقال سهل بن عبد الله للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الهدى ، وقيل في قوله تعالى - وجعلناهم آفة يهدون بأمرنا لما صبروا - قيل عن الدنيا . وفي الخبر «العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا فاذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم» وجاء في الأثر لا تزال لإله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يألوا ما قص من دينهم فاذا ضلوا ذلك وقالوا لإله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين .

(١) حديث النهي عن الخروج من بلد الطاعون تقدم في آداب السفر (٢) حديث إن شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف فيه .

بما اختاره الله تعالى ورفضت هذه السألة إلى بعض العارفين فقال صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلمهم فضولا واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط فقال للثوري كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم واليوم وددت أني مت فقال له يوسف لم ؟ قال لما تخوف من الفتنة فقال يوسف لكني لا أكره طول البقاء فقال سفيان لم ؟ قال لعل أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا قليل لو هيب إيش تقول أنت ؟ فقال أنا لا أختار شيئا أحب ذلك إلى أحب إلى الله سبحانه وتعالى قبله الثوري بين عينيه وقال روحانية ورب الكعبة .

(بيان جملة من حكايات المهين وأقوالهم ومكاشفاتهم)

وقال سهل : أعمال البر كلها في موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم . وقيل من سمى باسم الزهد في الدنيا فقد سمى بألف اسم محمود ومن سمى باسم الرغبة في الدنيا فقد سمى بألف اسم مذموم . وقال السري الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا ويجمع هذا الحظوظ المالية والاجاهية وحب المنزلة عند الناس وحب المهدمة والثناء وسئل الشبلي عن الزهد فقال الزهد غفلة لأن الدنيا لا شيء والزهد في لا شيء غفلة وقال بعضهم لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا

قيل لبعض العارفين إنك محب فقال لست محبا إنما محروب والمحب متمبوب وقيل له أيضا الناس يقولون إنك واحد من السبعة فقال أنا كل السبعة وكان يقول إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلا قيل وكيف وأنت شخص واحد قال لأنني رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه وقيل له بلغنا أنك ترى الحضر عليه السلام فتبسم وقال ليس العجب ممن يرى الحضر ولكن العجب ممن يريد الحضر أن يراه فيحتجب عنه وحكى عن الحضر عليه السلام أنه قال ما حدثت نفسي يوما قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته إلا ورأيت في ذلك اليوم ولما لم أعرفه وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك قيل فحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى فقال وهذا أيضا لا يجوز أن أطلعكم عليه قيل فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم دعوت نفسي إلى الله فجمحت على فعمزت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك . وحكى عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخصيه مع عقبيه عن الأرض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينه لا يظرف قال ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قصد فقال اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم الشيء على الماء والشيء في الهواء فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم على الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء ثم انفتق فرآني فقال يحيى قلت نعم ياسيدي فقال مذمتي أنت ههنا ؟ قلت منذ حين فسكت فقلت ياسيدي حدثني بشيء فقال أحدثك بما يصلح لك أدخلني في الملك الأسفل فدورني في الملك السفلى ورأني الأرضين وما تحتها إلى الثرى ثم أدخلني في الملك العلوي فطوف بي في السموات ورأني ما فيها من الجنان إلى العرش ثم أوقفني بين يديه فقال سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك ؟ فقلت ياسيدي ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه فقال أنت عبدى حقا تعبدني لأجلى صدقا لأفغان بك ولأنعمان فقد ذكر أشياء ، قال يحيى فهالني ذلك وامتلات به وعجبت منه فقلت ياسيدي لم لاسأله العرفة به وقد قال لك ملك الملوك سلني ما شئت قال فصاح بي صيحة وقال اسكت ويملك غرت عليه متى حتى لأحب أن يعرفه سواه . وحكى أن أبا تراب النخشي كان معجبا ببعض المريدين فكان يدينه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدهته فقال له أبو تراب يوما لو رأيت أبا يزيد فقال إنني عنه مشغول فلما أكره عليه أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد حاج وجد المريدي فقال ويحك ما أصنع بأبي يزيد قد رأيت الله تعالى فأغتناني عن أبي يزيد قال أبو تراب فهاج طبيعى ولم أملك نفسي فقلت ويملك تعتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة قال فببت الذي من قوله وأنكره فقال وكيف ذلك قال له ويملك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك ترى أبا يزيد

عند الله قد ظهر له على مقداره فصرف ماقلت فقال احملى اليه فذكر قصة قال في آخرها فوقنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة وكان يأوى إلى غيضة فيها سباع قال فرأينا وقد قلب فروة على ظهره فقلت لافق هذا أبو يزيد فانظر إليه فانظر إليه الفقى فصرق فخر كناه فاذا هويت فعاونا على دفعه فقلت لأبي يزيد ياسيدى نظره إليك قله قال لا، ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه فلما رأنا انكشف له سر قلبه فضاقت عن حمله لأنه في مقام الصفاء للريدين فقتله ذلك. ولما دخل الزنج البصرة قتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا لو سألت الله تعالى دفعهم فسكت ثم قال إن لله عبادا في هذه البلدة لودعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة ولكن لا يفعلون قيل لم قال لأنهم لا يحبون ما لا يحب ثم ذكر من إجابة الله أشياء لا يستطيع ذكرها حتى قال ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها وهذه أمور ممكنة في أنفسها فمن لم يحظ بشئ منها فلا ينبغي أن يغلو عن التصديق والايمان بإمكانها فإن القدرة واسعة والفضل عظيم ومعجائب الملك والملكوت كثيرة ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له ولذلك كان أبو يزيد يقول إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فأطلب ما وراء ذلك فإن عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة فإن سكنت إلى ذلك حبيبتك به وهذا بلاه مثلهم ومن هو في مثل حالهم لأنهم الأمل فالأمل . وقد قال بعض العارفين : كوشفت بأربعين حوراء رأيتن يتساعين في الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشن ويتثنى ممهن فنظرت إليهن نظرة فعوقبت أربعين يوما ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال، وقيل لى انظر إليهن قال فسجدت وغمضت عيني في سجودى لثلاث أنظر إليهن وقلت أعوذ بك مما سواك لاحاجة لى بهذا فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عني . فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه للظلمة وقلبه القاسى لضاق مجال الايمان عليه بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرا وباطنا ، ثم مكاتبة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحسن المحول فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم وهى أعز موجود فى الأتقياء من الناس وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق بغيبض عليه نور اليقين وينكشف له مبادئ الحق وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق بجرى مجرى إنكار من أنكرك إمكان انكشاف الصورة فى الحديدية إذا شكلت وقيمت وصقلت وصورت بصورة المرآة فنظر للنكر إلى ما فى يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والحجب وهو لا يحكى صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف المرئى فيها عند ظهور جوهرها وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال فهذا حكم كل من أنكركرامات الأولياء إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك وتصوره من رآه وبشئ المستند ذلك فى إنكار قدرة الله تعالى بل إنما يشتم روائع المكاشفة من سلك شيئا ولو من مبادئ الطريق كما قيل لبشر بأى شئ بلغت هذه للزلة قال كنت أكره الله تعالى حالى معناه أسأله أن يكتم على ويخفى أمرى . وروى أنه رأى الحضير عليه السلام ، فقال له ادع الله تعالى لى ، فقال بسر الله عليك طاعته . قلت : زدنى قال وسترها عليك ، فقيل معناه سترها عن الخلق ، وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها . وعن بعضهم أنه قال ألقنى الشوق إلى الحضير عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يرينى إياه ليعلمنى شيئا كان أهم الأشياء على . قال فرأيتة فما غلب على همى ولا همى إلا أن قلت له يا أبا العباس علمنى شيئا إذا قاتته حجت عن قلوب الخليفة فلم يكن لى فيها قدر ولا يعرفنى أحد بصلاح ولا ديانة ، فقال قل : اللهم أسبل على كسيف

زهدهم فى الدنيا
لهوانها عندهم وعندى
أن الزهد فى الزهد
غير هذا وإنما الزهد
فى الزهد بالخروج من
الاختيار فى الزهد لأن
الزاهد اختار الزهد
وأرادته وإرادته تستند
إلى علمه وعلمه قاصر
فاذا أقيم فى مقام ترك
الارادة وانسلخ من
اختياره كاشفه الله
تعالى بهراده فيسترك
الدين بمراد الحق لا بمراد
نفسه فيكون زهده
بالله تعالى حينئذ أو
يعلم أن مراد الله منه
التلبس بشئ من
الدنيا فما يدخل بالله
فى شئ من الدنيا
لا يقص عليه زهده
فيكون دخوله فى

سترك وحط على سرادقات حبيبك واجعلني في مكنون غيبك واحجبني عن قلوب خاقك قال ثم غاب فلم أره ولم أشتق إليه بعد ذلك فإزات أقول هذه الكامات في كل يوم فحكي أنه صار بحيث كان يستدل ويمتن حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه في الطرق يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به فكانت راحته ركود قلبه واستقامة حاله في ذلته وخموله فكذا حال أولياء الله تعالى في أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا والمغرورون إنما يطلبونهم تحت الرقعات والطيافة في المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة وغيره الله تعالى على أوليائه تأتي بالإخفاء كما قال تعالى: أوليائي تحت قباب لا يعرفهم غيري ، وقال صلى الله عليه وسلم «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره» (١) وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه العمان القلوب الشكيرة العجيبة بأنفسها المستشيرة عملها وعلما وأترب القلوب إليها القلوب النكسرة المستشيرة ذلت نفسها استتمارا إذا ذل واهتمضم لم يحس بالذل كما لا يحس الصبد بالذل مهما ترفع عليه مولاة فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته إلى الذل بل كان عند نفسه أحسن منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا في حقه بل يرى نفسه دون ذلك حتى صار التواضع الطبع صفة ذات لمثل هذا القلب يرجى له أن يستشقي مبادئ هذه الروائح فإن قدنا مثل هذا القلب وحرمانا مثل هذا الروح فلا ينبغي أن يطرح الإيمان بما كان ذلك لأنه فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله مؤنابهم فحسى أن يحشر مع من أحب ويشهد لهذا ما روى أن عيسى عليه السلام قال لبي إسرائيل ابن يثبت الزرع قالوا في التراب فقال بحق أقول لكم لا تبت الحكمة إلا في قاب مثل التراب ولقد انتهى الريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها بأذلال النفس إلى منتهى الضعة والحسة حتى روى أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجندبته رجل إلى طعام ثلاث مرات ثم كان رده ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله في المرة الرابعة فسأله عن ذلك فقال قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينظر دمه يدعى فيرمى له عظم فيعود ولورد دنتي خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت وعنه أيضا أنه قال نزلت في محلة ففرت فيها بالصلاح فتشقت على قلمي فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقها ولبستها لم لبست مرصفتي فوقها وخرجت وجملت أمشي قليلا قليلا فلحقوني فترعوا مرصفتي وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجعوني ضربا فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسي فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخاصمهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس فان اللتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له فليس بين القلب وبين الله حجاب بهر وتحال حائل وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس ، ولذلك حكى أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد ، فقال له يوما أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لأفطر وأقوم الليل لأنام ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئا وأنا أصدق به وأحبه ، فقال أبو يزيد ولو صمت ثلثمائة سنة وقت ليها ما وجدت من هذا ذرة . قال ولم ؟ قال لأنك محجوب بنفسك قال فهذا دواء ؟ قال نعم قال قل لي حتى أعلمه قال لا تقبله ، قال فاذكره لي حتى أعلم قال اذهب الساعة إلى الزين فاحلق رأسك ولحيتك واتزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزا واجمع الصبيان حولك وقل كل من صفني صفعة أعطيته جوزة وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك فقال الرجل سبحان الله تقول لي مثل هذا فقال أبو يزيد قولك سبحان الله شرك قال وكيف ؟ قال لأنك عظمت نفسك فسبحتها

(١) حديث رب أشعث أغبر ذي طمرين مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

النفس من الدنيا بالله
وباذن منه زهدا
في الزهد والزاهد
في الزهد استوى عنده
وجود الدنيا وعدمها
إن تركها تركها بالله
وإن أخذها أخذها
بالله وهذا هو الزهد في
الزهد وقد رأينا من
المارفين من أقيم في
هذا القيام . وفوق هذا
مقام آخر في الزهد وهو
لمن يرد الحق إليه
اختياره لسمة علمه
وطهارة نفسه في مقام
البقاء فيزهد زهدا
ثالثا ويترك الدنيا بعد
أن مكن من ناصيتها
وأعبدت عليه
موهوبة ويكون تركه
الدنيا في هذا القيام
باختياره واختياره

وما سبعت ربك فقال هذا لأفعله ولكن دلتني على غيره فقال ابتدء من هذا قبل كل شيء فقال لأطبقه قال قد قات لك إنك لا تقبل فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه ولا ينجي من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله فمن لا يطبق الدواء فلا يفي أن ينكر إمكان الشفاء في حق من داوى نفسه بعد المرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلاً فأقل درجات الصحة الايمان بإمكانها فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضاً وهذه أمور جلية في الشرع واضحة وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعد نفسه من علماء الشرع فقد قال عليه السلام «لا يستكمل العبد الايمان حتى تكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب من أن يعرف» (١) وقد قال عليه السلام «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرأى بشيء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخرة والآخرة آثر أمر الآخرة على الدنيا» (٢) وقال عليه السلام «لا يكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق وإذا رضى لم يدخله رضاه في باطل وإذا قدر لم يتناول ما ليس له» (٣) وفي حديث آخر «ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود العدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر وخشية الله في السر والعلانية» (٤) فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله عليه وآله لأولى الإيمان فالمعجب ممن يدعى علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد ما لا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة علياً وراء الإيمان، وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه إيماناً أخذ لحاقاً من لا يفتقر عن ذكرى ولا يكون له هم غيرى ولا يؤثر على شيئاً من خلقه وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعاً وإن قطع بالمشاير لم يجد لس الحديد أما فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والكشفات وكل ذلك وراء الحب وراء كمال الإيمان ومقامات الإيمان وتفاوته في الزيادة والنقصان لا حصر له ولذلك قال عليه السلام للصديق رضى الله عنه «إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتى وأعطاني مثل إيمان كل من آمن به من ولد آدم» (٥) وفي حديث آخر «إن لله تعالى ثلاثاً خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة فقال أبو بكر يا رسول الله هل في منها خلق فقال كلها فيك يا أبا بكر وأجبهوا إلى الله السخاء» (٦) وقال عليه السلام

(١) حديث لا يستكمل عبد الايمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف ذكره صاحب الفردوس من حديث طي بن أبي طلحة وعلى هذا فهو معضل فعلى ابن أبي طلحة إيماناً مع من التابعين ولم أجد له أصلاً (٢) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه ما لم يترادى ضعفه ابن ميمون والنسائي ووثقه ابن حبان واسم أبيه الواحد (٣) حديث لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق الحديث الطبراني في الصغير بلفظ ثلاث من أخلاق الإيمان وإسناده ضعيف (٤) حديث ثلاث من أوتيهن فقد أوتى ما أوتى آل داود العدل في الرضا والغضب غريب بهذا اللفظ والمعروف ثلاث منجيات فذكرهن بنحوه وقد تقدم (٥) حديث إنه قال للصديق إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتى الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن طي مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف (٦) حديث إن لله تعالى ثلاثاً خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة الحديث الطبراني في الأوسط من حديث أنس مرفوعاً عن الله خلقه بضعة عشر وثلاثاً خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة ومن رحدث ابن عباس الإسلام ثلاثاً عشرة شريعة

من اختيار الحق قد يختار تركها حيناً تأسياً بالأنبياء والصالحين ويرى أن أخذها في مقام الزهد رفق أدخل عليه لموضع ضمه عن درك شأو الأقوياء من الأنبياء والصديقين فيترك الرفق من الحق بالحق للحق وقد يتناول به باختياره رفقاً بالنفس بتدبير يسوسه فيه صريح العلم وهذا مقام التصرف لأقوياء العارفين زهدوا ثالثاً بالله كما رغبوا ثانياً بالله كما زهدوا أولاً بالله .

[قولهم في الصبر] قال سهل: الصبر انتظار الفرج من الله وهو أفضل الخدمة وأعلاها وقال بعضهم: الصبر

« رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمقي في كفة فرجحت بهم ووضع أبو بكر في كفة وجيء بأمتي فوضعت في كفة فرجح بهم (١) » ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال « لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لآخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله تعالى (٢) » يعني نفسه .

(خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالهبة ينتفع بها)

قال سفيان : الهبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غيره دوام الله كروا لله غيره إظهار المحبوب وقال بعضهم كراهية البقاء في الدنيا وهذا كله إشارة إلى ثمرات الهبة فأما نفس الهبة فمعرضوا لها ، وقال بعضهم الهبة معنى من المحبوب قهر للقلوب عن إدراكه وتمتع الألسن عن عبارته ، وقال الجنيد حرم الله تعالى الهبة على صاحب العلاقة وقال كل محبة تكون بمعرض فاذا زال العرض زالت الهبة وقال ذو النون قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذلل لغير الله وقيل للشبلي رحمه الله صف لنا العارف والمحبة فقال العارف إن تكلمت هلك والمحبة إن سكنت هلك وقال الشبلي رحمه الله :

يا أيها السيد العكريم حبك بين الحشا مقيم
يارافع النوم عن جفوني أنت بما مر بي عليم
هجيت لمن يقول ذكرت إلي وهل أنسى فأذكر مانسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيأ ولولا حسن ظني ما حيينت
فأحيأ بالمئي وأموت شوقاً فكم أحيأ عليك وكم أموت
شربت الحب كأما بعد كأس فما نفذ الشراب وما رويت
قلبت خياله نصب ليعني فان قصرت في نظري عميت

وقالت رابعة العدوية يوماً من يدلنا على حبيبتنا فقالت خادمة لها حبيبتنا معنا ولكن الدنيا قطعنا عنه وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إنى إذا اطلمت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملائمة من حبي وتوليتة بحفظي وقيل تكلم ممنون يوماً في الهبة فاذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمات وقال إبراهيم بن آدم إلهي إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وأستقي بذكرك وفرغتي للتفكير في عظمتك . وقال السري رحمه الله من أحب الله عاش ومن مال إلى الدنيا طاش والأحمق يندو ويروح في لاش والعاقل عن عبوبه فئاش وقيل لرابعة كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم فقالت والله إنى لأحبه حباً شديداً ولكن حب الخالق شغلني عن حب الخلقين وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال الرضا عن الله تعالى والحب له وقال أبو يزيد المحب لأحب الدنيا ولا الآخرة إنما يحب من مولاة مولاة وقال الشبلي الحب دهش في لذة وحريرة في تعظيم وتبيل المحبة أن تجو أترك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك وقيل الهبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح وقال الخواص الهبة محوارادات واحتراق جميع الصفات والحاجات وسئل سهل عن الهبة فقال

وفيه وفي الكبير من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ الإيمان وللبزار من حديث عثمان بن عفان إن لله تعالى مائة وسبع عشرة شريعة الحديث وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضيفة (١) حديث رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمقي في كفة فرجحت بهم الحديث أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف (٢) حديث لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لآخذت أبا بكر خليلاً الحديث متفق عليه وقد تقدم.

أن تصبر في الصبر
أى لا تطالع فيه
الفرج . قال الله تعالى
والصابرين في البأساء
والضراء وحين البأس
أولئك الذين صدقوا
وأولئك هم التقون .
وقيل : لكل شيء
جوهر وجوهر الإنسان
العقل وجوهر العقل
الصبر فالصبر عرك
النفس وبالعرك تلين
والصبر جاز في الصابر
يجرى الأنفاس لأنه
يحتاج إلى الصبر عن
كل مبهى ومكروه
ومذهوم وظاهره أو الباطن
والعلم يدل والصبر
يقبل ولا تتفجع دلالة العلم
بغير قبول الصبر ومن
كان العلم سائسه في
الظاهر والباطن لا يتم

عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه وقيل معاملة الهب على أربع منازل على المحبة والمهية والحياء والتعظيم وأفضلها التعظيم والمحبة لأن هاتين المنزلتين يتيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما وقال هرم بن حبان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل عليه وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة . وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من للتعبديات تقول وهي باكية والدموع على خدها جارية والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت اللوت يباع لاشتريته شوقا إلى الله تعالى وحبالقائه قال فقلت لها فلي ثقة أنت من عملك قالت لا ولكن لحي إياه وحسن ظني به أقترأ بعذبي وأنا أحبه وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام لو يعلم اللدبرون عنى كيف استظاري لهم ورفقي بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لما توا شوقا إلى وتقطعت أوصالهم من محبتى يا داود هذه إرادتى فى الدبرين عنى فكيف إرادتى فى القبلين على يا داود أحوج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عنى وأرحم ما أكون بعبدى إذا أدبر عنى وأجل ما يكون عندى إذا رجعت إلى وقال أبو خالد الصغار لقي نبي من الأنبياء ما بدا فقال له إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه أتم تعملون على الحروف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق . وقال الشبلى رحمه الله أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ذكركمى لهذا كرىن وجنتى للمطيعين وزيارتى للمشتاقين وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام يا آدم من أحب حبيبا صدق قوله ومن أنس بحبيبه رضى فعله ومن اشتاق إليه جد فى مسيره وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول واشوقاه لمن يرانى ولا أراه . وقال الجنيد رحمه الله بكى بونس عليه السلام حتى عمى وقام حتى انحنى وصلى حتى أقعد وقال وعزتك وجلالك لو كان بينى وبينك بحر من نار لخصته إليك شوقا منى إليك وعن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال المعرفة رأس مالى والعقل أصل دينى والحب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى والثمة كزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبر رداى والرضا غنيمتى والمعز غفري والزهد حرفتى واليقين قوتى والصدق شفعى والطاعة حبي والجهاد خلقى وقررة عينى فى الصلاة (١) وقال ذوالنون سبحان من جعل الأرواح جنودا مجنده فأرواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا إلى الجنة وأرواح المنافقين هوائية فلذلك مالوا إلى الدنيا . وقال بعض المشايخ رأيت فى جبل السكام رجلا أمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول :

الشوق والهوى صيرانى كما ترى

ويقال الشوق نار الله أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بهما فى قلوبهم من الحواطر والارادات والعباير والحاجات فهذا القدر كاف فى شرح المحبة والأنس والشوق والرضا فلنقتصر عليه والله الوفق للصواب تم كتاب المحبة والشوق والرضا والأنس يتلوه كتاب النية والاخلاص والصدق .

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

(وهو الكتاب السابع من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

نحمد الله حمد الشاكرين ونؤمن به إيمان الوقنين ونقر بوحدانيته إقرار الصادقين ونشهد أن لا إله

(١) حديث على سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالى والعقل أصل دينى الحديث ذكره القاضى عياض من حديث على بن أبى طالب ولم أجد له إسنادا .

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

ذلك له إلا إذا كان الصبر مستقره وممكنه والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر ومصدرها الفريضة العقلية وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما وبالصبر يتعامل على النفس وبالعلم يترقى الروح وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس ليستقر كل واحد منهما فى مستقره وفى ذلك صريح العدل وصحة الاعتدال واتصال أحدهما عن الآخر أعنى العلم والصبر ميل أحدهما على الآخر أعنى النفس والروح وبيان ذلك بدق وناهيك بشرف

إلا الله رب العالمين وخالق السموات والأرضين ومكلف الجن والأنس والملائكة القرابين أن يعبدوه عبادة المخلصين فقال تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - فإله إلا الدين الحالمص التين . فانه أغنى الأغنياء عن شركة الشاركن والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

[أما بعد] فقد انكشف لأرباب القلوب بصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة فالناس كلهم هلكت إلا العالمون والعالمون كلهم هلكت إلا العاملون والعالمون كلهم هلكت إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم فالمحل بغير نية عناء والنية بغير إخلاص رياء وهو لافناق كفاء ومع المصيان سواء والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً - وقد مننا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً - وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والإخلاص ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب : الباب الأول في حقيقة النية ومعناها . الباب الثاني : في الإخلاص وحقيقته . الباب الثالث : في الصدق وحقيقته . [الباب الأول في النية] وفيه بيان فضيلة النية وبيان حقيقة النية وبيان كون النية خيراً من العمل وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس وبيان خروج النية عن الاختيار .

(بيان فضيلة النية)

قال الله تعالى - ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه - والراد يتلك الإرادة هي النية وقال ﷺ « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتييل بين الصفيين الله أعلم بنيته (٢) » وقال تعالى - إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما - فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم (٣) » وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية وقال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد للملائكة في صحف مخرجة فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول ألتوا هذه الصحيفة فإنه لم يرد بما فيها وجهي ثم ينادى الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون ياربنا إنه لم يعمل شيئاً من ذلك فيقول الله تعالى إنه نواه (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « الناس أربعة رجل آتاه الله عز وجل علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله فيقول لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهماني الأجر سواء ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علماً فهو يتخط بجهله في ماله فيقول رجل لو آتاني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهماني في الوزر سواء (٥) » ألا ترى كيف شركة بالنية في محاسن عمله

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات الحديث متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتييل بين الصفيين الله أعلم بنيته أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة (٣) حديث إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها للملائكة الحديث الدار قطنى من حديث أنس بإسناد حسن (٥) حديث الناس أربعة رجل آتاه الله علماً ومالاً الحديث ابن ماجه

الصبر قوله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - كل أجر أجره بحساب وأجر الصابرين بغير حساب . وقال الله تعالى لنيه : - واصبر وما صبرك إلا بالله - أضاف الصبر إلى نفسه لشرف مكانه وتكامل النعمة به . قيل وقف رجل على الشبلى فقال أى صبر أشد على الصابرين فقال الصبر في الله فقال لا ، فقال الصبر لله فقال لا ، فقال الصبر مع الله فقال لا ، فغضب الشبلى وقال ويحك أى شئ هو فقال الرجل الصبر عن الله قال فصرخ الشبلى صرخة كاد أن تلتف روحه . وعندى

ومساويه وكذلك في حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ذل «إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطننا موثقا يخيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخصة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا قال حسبهم العذر فشركوهم بحسن النية (١)» وفي حديث ابن مسعود «من هاجر بيتني شيئا فهو له فهاجر رجل فزوج امرأة منافكان يسمى مهاجر أم قيس (٢)» وكذلك جاء في الخبر «إن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار (٣)» لأنه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم «من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله ما نوى (٤)» وقال أبي «استعنت رجلا بغزو معي فقال لاحق تجهل لي جعلنا فجمعت له فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جمعت له (٥)» وروى في الاسرائيليات أن رجلا مركبشان من رمل في جماعة فقال في نفسه لو كان هذا الرمل طعاما لتسمته بين الناس فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك. وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدقت به، وقد ورد في أخبار كثيرة «من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة (٦)» وفي حديث عبد الله بن عمرو «من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيمته وفارقها أزهق ما يكون فيها (٧)» وفي حديث أم سلمة «أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم البيداء فقلت يا رسول الله يكون فيهم السكر والأجير فقال يخشرون على نياتهم (٨)» وقال عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنما يقتل المقتلون على النيات (٩)» وقال عليه السلام «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الحقائق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله

في معنى الصبر عن الله وجهه ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجه وذلك أن الصبر عن الله يكون في أخص مقامات المشاهدة يرجع العبد عن الله استحياء وإجلالا وتطبيق بصيرته حجلا وذوبانا ويتغيب في مفاوز استتكااته وتخفيه لإحساسه بعظيم أمر التجلي وهذا من أشد الصبر لأنه بؤداستدامة هذا الحال تأدية لحق الجلال والروح تود أن تتكحل بصبرتها باستماع نور الجمال وكما أن النفس منازعة لعموم حال الصبر فالروح في هذا الصبر منازعة فاشد الصبر

من حديث أبي كيشة الأعماري بسند جيد بلفظ مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر الحديث وقد تقدم ورواه الترمذي بزيادة وفيه وإنما الدنيا لأربعة نفر الحديث وقال حسن صحيح (١) حديث أنس إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا الحديث البخاري مختصرا وأبو داود (٢) حديث ابن مسعود من هاجر بيتني شيئا فهو له فهاجر رجل فزوج امرأة منافكان يسمى مهاجر أم قيس الطبراني بإسناد جيد (٣) حديث إن رجلا قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار لم أجده لأصلاقي للموصلات وعمار واه أبو اسحق الفراوي في السنن من وجه مرسل (٤) حديث من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله ما نوى النسي من حديث عبادة ابن الصامت وتقدم غير مرة (٥) حديث أبي استعنت رجلا بغزو معي فقال لاحق تجهل لي جعلنا فجمعت له فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جمعت له الطبراني في مسند الشاميين ولأبي داود من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيرا للغزو وسمى له ثلاثة دنائير فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أجده في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنائيره التي ممي (٦) حديث من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة متفق عليه وقد تقدم (٧) حديث عبد الله بن عمرو من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد قوله وفارقها أرغب ما يكون فيها ودون قوله وفارقها أزهق ما يكون فيها وفيه زيادة ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو (٨) حديث أم سلمة في الجيش الذي يخسف بهم يخشرون على نياتهم مسلم وأبو داود وقد تقدم (٩) حديث إنما يقتل المقتلون على النيات ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ إنما يعث ورويناه في فوائد تمام بلفظ إنما يعث المسلمون على النيات ولا ين ماجه من حديث أبي هريرة إنما يعث الناس على نياتهم وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه .

هي العليا فهو في سبيل الله (١) « وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « يبعث كل عبد على مامات عليه (٢) » وفي حديث الأحنف عن أبي بكر « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال لأنه أراد قتل صاحبه (٣) » وفي حديث أبي هريرة « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان ومن ادان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنثن من الجيفة (٥) » .

وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى ، وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن نقصت نقص بقدره . وقال بعض السلف . رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائي البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك . وقال الثوري : كانوا يتعلمون النية للعمل كما تعلمون العمل . وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل وما دمت تنوي الخير فأنت بخير ، وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يداني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فاني لأحب أن يأتي على ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله فقيل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا قربت أو تركته فهم بعمله فان الهام بعمل الخير كعامله ، وكذلك قال بعض السلف : إن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وإن ذنوبكم أخفى من أن تعدوها ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين بغير اسئمتكم ما بين ذلك . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن نامت ولاتهم بصية وانتهت إلى غير إثم . وقال أبو هريرة : يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم ، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ أو لبس أو نكح حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبأ أخباركم - يبكي ويردها ويقول : إنك إن بلوتنا فاضحتنا وهتكت أستاذنا . وقال الحسن : إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار بالنيات . وقال أبو هريرة : مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير وما أريد به غيري فكثيره قليل . وقال بلال بن سعد : إن العبد يقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه فان تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى فان صلاح نيته فبالحرى أن يصلح ما دون ذلك ، فاذن عماد الأعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيراً والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بمائق .

(بيان حقيقة النية)

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها

(١) حديث إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الحقائق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا الحديث ابن المبارك في الزهد موقوفا على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع في الصحيحين من حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (٢) حديث جابر يبعث كل عبد على مامات عليه رواه مسلم (٣) حديث الأحنف عن أبي بكر « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار متفق عليه (٤) حديث أبي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصر على قصة الدين دون ذكر الصداق (٥) حديث من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الحديث أبو الوليد الصغار في كتاب الصلاة من حديث إسحق بن أبي طلحة مرسل .

عن الله تعالى ذلك .
وقال أبو الحسن بن
سالم هم ثلاثة متصبر
وصابر وصبار فالمتصبر
من صبر في الله فمرة
يصبر ومرة يجزع
والصابر من يصبر في
الله وقه ولا يجزع
ولكن تتوقع منه
الشكوى وقد يمكن
منه الجزع وأما الصبار
فذلك الذي صبره في
الله والله وبالله فهذا لو
وقع عليه جميع البلايا
لا يجزع ولا يتغير من
جهة الوجود والحقيقة
لأن جهة الرسم
والحلقة وإشارته في
هذا ظهور حكم العلم
فيه مع ظهور صفة
الطبيعة . وكان
الشبلي يمثل بهذين
البيتين :

أمران : علم وعمل العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه وذلك لأن كل عمل أعنى كل حركة وسكون اختياري فانه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم وإرادة وقدرة لأنه لا يريد الانسان ما لا يظنه فلا بد وأن يعلم ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من إرادة ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موقفاً للفرض إما في الحال أو في المآل فقد خلق الانسان بحيث يوافق بعض الأمور ويلائم غرضه ويخالفه بعض الأمور فيحتاج إلى جلب اللأثم الموافق إلى نفسه ودفع الضرر النأفي عن نفسه فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا فان من لا يصبر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول ومن لا يصبر النار لا يمكنه الهرب منها غخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكفي ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والليل ولقد الداعية الحركة إليه غخلق الله تعالى له الليل والرغبة والإرادة وأعنى به نزوعاً في نفسه إليه وتوجهاً في قلبه إليه ثم ذلك لا يكفي فكم من مشاهد طعاما راغب فيه يريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا غفلت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقا له فاذا جازمت المعرفة بأن الشيء موافق ولا بد وأن يفعل وسلت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبثت الإرادة وتحقق الليل فاذا انبثت الإرادة انتهت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة والانبعاث النفس بحكم الرغبة والليل إلى ماهو موافق للفرض إما في الحال وإما في المآل فالحرك الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث والغرض الباعث هو المقصد النوي والانبعاث هو المقصد والنية وانبعاث القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون يباعث واحد وقد يكون يباعثين اجتماعاً في فعل واحد وإذا كان يباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان ملياً بانتهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضداً له ومعاوناً فيخرج من هذا التقسيم أربعة أقسام فلنذكر لكل واحد مثالا وإسما . أما الأول . فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما إذا هجم على الانسان سبع فكلما رآه قام من موضعه فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع فانه رأى السبع وعرفه ضارا فانبثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث فيقال نيته الفرار من السبع لانية له في القيام لغيره وهذه النية تسمى خاصة ويسمى العمل بعوجها إخلاصا بالإضافة إلى الغرض الباعث ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته . وأما الثاني : فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافياً في الحمل لو انفرد ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيضيه الفقره وقرابته وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غنى فيرغب في قضاء حاجته وقريب أجني فيرغب أيضا فيه وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حية ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأول فلنسلم هذا مراقبة للباعثات : والثالث : أن لا يستقل كل واحد لو انفرد

إن صوت الهب من ألم الشوق
ق وخوف الفراق
يورث ضرا
صابر الصبر فاستغاث
به الصبر
ر فصاح الهب للصبر
صبرا
قال جعفر الصادق
رحمه الله أمر الله تعالى
أنبياءه بالصبر وجعل
الحظ الأعلى للرسول
صلى الله عليه وسلم
حيث جعل صبره بالله
لا بنفسه فقال
- وما صبرك إلا بالله -
وسئل السري عن
الصبر فتكلم فيه فدب
على رجله عقرب فجعل
يضربه بإبرته فقبله لم
لا تدفعه ؟ قال أستحي
من الله تعالى أن أتكلم

ولكن قوى مجموعهما على إتهام القدرة ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضيمان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه النبي فيطلب درهما فلا يعطيه ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقير وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الشاء ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب في التصديق عليه لكان لا يعثه مجرد الرياء على العطاء ولو اجتمعا أو رثا بمجموعهما تحريك القلب ولنسم هذا الجنس مشاركة . والرابع : أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالاعانة والتسهيل . ومثاله في المحسوس أن يعاون الضيف الرجل القوي على الحمل ولو انفرد القوي لاستقل ولو انفرد الضيف لم يستقل فان ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه . ومثاله في غرضنا أن يكون للانسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفر عن عمله وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه فهو شوب تطرق إلى النية ولنسم هذا الجنس المعاونة فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقا أو شريكا أو معينا وسنذكر حكمها في باب الاخلاص والغرض الآن بيان أقسام النيات فان العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه ولذلك قيل إنما الأعمال بالنيات لأنها تابعة لاحكامها في نفسها وإنما الحكم للتبوع .

(بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن خير من عمله »)

اعلم أنه قديظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى والعمل ظاهر ولعمل السر فضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكير خيرا من التفكير وقديظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل بل ليس كذلك فان نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم والعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله وقد يقال إن معناه أن النية بمجرد خيره من العمل بمجرد دون النية وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد إذ العمل بلائية أو على الغفلة لا خير فيه أصلا والنية بمجرد خيره وظاهر الترجيح للشركيين في أصل الخير بل المعنى به أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل أى لكل واحد منهما أثر في القصد وأثر النية أكثر من أثر العمل فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته والغرض أن للعبد اختيارا في النية وفي العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرا فهذا معناه وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار ببعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود فمن قال الخبز خير من الفاكهة فأنما يعنى به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاعتناء ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن الاعتناء مقصدا وهو الصحة والبقاء وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها ببعض

(١) حديث نية المؤمن خير من عمله الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواص ابن سمان وكلاهما ضعيف .

في حال ثم أخالف
ماتكم فيه . أخبرنا
أبوزرعة إجازة عن
أبي بكر بن خلف إجازة
عن أبي عبد الرحمن
قال سمعت محمد بن خالد
يقول سمعت الفرغاني
يقول سمعت الجنييد
رحمه الله يقول إن الله
تعالى أكرم المؤمنين
بالإيمان وأكرم الأيمان
بالعقل وأكرم العقل
بالصبر فالإيمان زين
للمؤمن والعقل زين
للإيمان والصبر زين
العقل وأنشد عن
ابراهيم الحسواص
رحمه الله :

صبرت على بعض
الأذى خوف كله
ودافعت عن نفسي
لنفسى ففرت

فالطاعات غذاء للقلوب ، والقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعمها ببقاء الله تعالى . فالقصد لذة السعادة بقاء الله قط ولن يتنعم بقاء الله إلا لمن مات محبا لله تعالى عارفا بالله ولن يحبه إلا لمن عرفه ولن يأنس بربه إلا لمن طال ذكره له ، فالأنس يحصل بدوام الذكر والمعرفة تحصل بدوام الفكر ؛ والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ولن يتفرغ القلب لهووم الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوطه بها كما يميل العاقل إلى القصد والحجامة لعله بأن سلامته فيهما ، وإذا حصل أصل الليل بالمعرفة فالتما يقوى بالعمل بمقتضى الليل والمواظبة عليه فإن للمواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى ترشح الصفة وتزوى بسببها فالماثل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميلة في الابتداء إلا ضعيفا ، فإن اتبع مقتضى الليل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكد ميلة ورسخ وعسر عليه النزوع وإن خالف مقتضى ميلة ضعف ميلة وانكسر وربما زال وانمحق بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلا فيميل إليه طبعه ميلا ضعيفا لثوبته وعمل بمقتضاها فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميلة حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ، ولو نظم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميلة لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الليل ويكون ذلك زبرا ودفا في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه ويتقعق ويمحق وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة والشروع كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة ، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب وترى القلب إذا تألم بلمه بموت عزيز من أعزته أو هجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائض وتغير اللون إلا أن القلب هو الأصل للتبوع فكأنه الأمير والراعي والجوارح كالخدم والراعي والانواع ، فالجوارح خادمة للقلب بتأكد صفاتها فيه فالقلب هو القصد والأعضاء آلات موصلة إلى القصد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد (١) » وقال عليه الصلاة والسلام « اللهم أصلح الراعي والرعية (٢) » وأراد بالراعي القلب . وقال الله تعالى - لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم - وهي صفة القلب ، فمن هذا الوجه يجب لامحالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ، ثم يجب أن تكون النية من جملة أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له . وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب بإرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكسب على الذكر والفكر بالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الفرض لأنه متمكن من نفس القصد ، وهذا كما أن المعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالكرب والدواء الواصل إلى المعدة ، فالكرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسرى منه الأثر

وجرعها للكروه

حتى تدرت

ولولم أجرعها إذن

لاشأزت

ألارب ذلساق للنفس

عزة

ويارب نفس بالتذال

عزت

إذا ما مدت الكف

النفس الغنى

إلى غير من قال

اسألوني فقلت

سأصبر جهدي إن في

الصبر عزة

وأرضى بدنياي وإن

هي قلت

قال عمر بن عبدالعزيز

رحمه الله : ما أنتم الله

على عبد من نعمة ثم

اتزعه ففاضه مما

اتزعه منه الصبر

إلا كان ماعاضه خيرا

(١) حديث إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد متفق عليه من حديث النعمان بن بشير

وقد تقدم (٢) حديث اللهم أصلح الراعي والرعية تقدم ولم أجده .

إلى العدة ، فما يلاقى عين العدة فهو خير وأنفع فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ للطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها قسط دون الجوارح ، فلا تظن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب فإن من يجد في نفسه تواضعا ، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه ، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا لأن من مسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه مسح نوبا لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيده الرقة وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كدمه وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا فيقال العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل عن غفلة ، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كدمه بل زاده شرا فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها وهي صفة الرياء التي هي من الليل إلى الدنيا فهذا وجه كون النية خيرا من العمل ، وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية الحسنات وإنما الاتمام بالعمل يزيد بها تأكيدها فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إيثارا لوجه الله تعالى وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، والتقوى هنا عنى القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن قوما بالمدينة قد شركونا في جهادنا » كما تقدم ذكره لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الحارثيين في الجهاد وإنما فرقوا بالأيديان لموافق تخص الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردها في فضيلة النية فأعرضنا عنها ليكشف لك أسرارها فلا تطول بالإعادة.

(بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية)

اعلم أن الأعمال وإن اتسمت أساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك بما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام طاعات ومعاصي ومباحات. القسم الأول: للماضي وهي لا تغير عن موضعها بالنية فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات » فيظن أن للعصية تنقلب طاعة بالنية كالذي يغتاب إنسانا مراعاة لقلب غيره أو يطعم فقيرا من مال غيره أو يبني مدرسة أو مسجدا أو رباطا بمال حرام وتصده الخير فهذا كله جهل والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر ، فإن عرفه فهو معاند للشرع وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طاب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا هيئات بل للروح لذلك على القلب حتى الشهوة وباطن الهوى فإن القلب إذا كان سائلا إلى طالب الجاه واستماله قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبس على الجاهل ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل. قيل يابا بمحمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد بالسكينة باب التعلم فمن يظن بالسكينة بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل

بما انتزعه منه وأنشد
لسمنون :

تجرعت من حالبه
نعمي وأبؤسا

زمانا إذا أجرى عزاليه
احتسى

فكم غمرة قد جرعتني
كؤوسها

فجرعتها من محرصبري
أكؤوسا

تدرعت صبري
والتحفت صروفه

وقلت لنفسي الصبر أو
فاهلـكـي أسى

خطوب لوان الشم
زاحم خطبها

لساخت ولم تدرك لها
الكف ملسا

[قولهم في الفقر] قال
ابن الجلاء : الفقر أن

لا يكون لك فإذا كان
لك لا يكون لك حتى

فان من لا يعلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم الزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم والمقصود أن من قصد الخير بمعضية عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالاسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم ، وقد قال الله سبحانه - فاستلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يذخر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه ^(١) » ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للصفهاء والأشرار المشغولين بالفسق والفجور القاصرين همهم على ممارسة العلماء ومباراة الصفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والسالكين فان هؤلاء إذا تعلموا كانوا ناطع طريق الله وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجريء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك ووبال جميعه يرجع إلى العلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مطمعه وملبسه ومسكنه فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة ومثلا وألني سنة وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ثم العجب من جهله حيث يقول « إنما الأعمال بالنيات » وقد قصدت بذلك نشر علم الدين فان استعمله هو في الفساد فالمعضية منه لامن وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير وإعما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلوم العلم يحسن ذلك في قلبه والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفا من قاطع طريق وأعد له خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله فان إعداد الخيل والرباط والقوة للفرزة من أفضل القربات فان هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرم مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله تعالى ثلاثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء ^(٢) » فليت شعري لم حرم هذا السخاء ولم يجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فاذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا أن يمده بغيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى فمن لا يزال مؤثرا لدنياه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقون أحوال من يتردد إليهم فلو رأوا منه تقصيرا في نقل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه وإذارا وأمنه فجورا واستحلال حرام هجره ونفوه عن مجالسهم وتركوا تسكينه فضلا عن تعليمه لهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر وقد تمود جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة وماتوا ذوا من الفاجر الجاهل . حتى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يكلمه فلم يزل يسأله عن تغييره عليه وهو

نؤثر . وقال السكتاني إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح النفي بالله تعالى لأنها حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر . وقال النوري : نعمت الفقراء السكون عند العدم والبذل عند الوجود . وقال غيره : والاضطراب عند للوجود . وقال الدراج فتشمت كنف أستاذي أريد مكحلة فوجدت فيها قطعة فنجرت ، فلما جاء قلت له : إنى وجدت في كنفك هذه القطعة . قال قد رأيتها ردها ثم قال خذها واشتر بها شيئا فقات : ما كان أمر هذه القطعة بحق معبودك فقال مارزقي

(١) حديث لا يذخر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله الحديث الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله لا يذخر الجاهل على الجهل وقال لا ينبغي بدل ولا يحل وقد تقدم في العلم (٢) حديث إن لله ثلاثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء تقدم في كتاب المحبة والشوق .

لا يذكره حتى قال بلفظي أنك طيبت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو
أتملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم فمكثت كما كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم وهذا
وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيالة والأحكام الواسعة وأصحاب
الألسنة الطويلة والفضل الكثير، أعنى الفضل من العلوم التي لا تشمل على التحذير من الدنيا
والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها بل هي العلوم التي تتعاق بالخلق ويتوصل بها إلى جمع
الحطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران فاذن قوله عليه السلام «إنما الأعمال بالنيات» يختص
من الأقسام الثلاثة بالطاعات والباحات دون العاصي إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد والمباح ينقلب
معصية وطاعة بالقصد فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً، نعم لنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف
إليها قصد خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة. القسم الثاني الطاعات
وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها. أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى
لا غير فإن نوى الرياء صارت معصية وأما تضاعف الفضل فبكرة النيات الحسنة فإن الطاعة الواحدة
يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل
حسنة عشر أمثالها (١) كما ورد به الخبر ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات
كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين أو لها أن يعتقد أنه بيت الله
وأن داخله زار الله فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال
«من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على الزور إكرام زأره» (٢) وثانيها أن ينتظر الصلاة
بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى - ورابطوا - وثالثها الترهيب
بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات فإن الاعتكاف كفو وهو في معنى الصوم وهو
نوع ترهب، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رهبانية أمي القموذ في المساجد» (٣) ورابعها
عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد
وخامسها التجرد لتذكر الله أو الاستماع ذكره وللتذكر به كما روى في الخبر «من غدا إلى المسجد ليذكر
الله تعالى أو يذكره به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى» (٤) وسادسها أن يقصد إفادة العلم بأمر معروف
ونهي عن منكر إذ المسجد لا يخلو عن من يسيء في صلواته أو يتعاطى ما لا يحل له في أمره بالمعروف ويرشده
إلى الدين فيكون شريكاً معه في خيره الذي يعلم منه فتضاعف خيراته. وسابعها أن يستفيد أخاً
في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله. وثامنها
أن يترك الذنوب حياءً من الله تعالى وحياءً من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضى هتك الحرمه،
وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع
خصال أخا مستفاداً في الله أو رحمة مستنزلة أو علماً مستظرفاً أو كلمة تدل على هدى أو تصرفه

الله تعالى من الدنيا
مضراء ولا يضاء
غيرها فأردت أن
أوصي أن تشد في كفي
فأردها إلى الله وقال
ابراهيم الحواصم الفقر
رداء الشرف ولباس
المسلمين ولباب
الصالحين . وسئل
سهل بن عبد الله عن
الفقر الصادق فقال
لا يسأل ولا يرد ولا
يجس . وقال أبو علي
الروذباري رحمه الله
سألني الزقاق فقال
يا أبا علي لم ترك الفقراء
أخذ البلغ في وقت
الحاجة قال قلت لأنهم
مستغنون بالمعطي عن
العطايا قال نعم ولكن
وقع لي شيء آخر فقلت
هات أفدني ما وقع لك

(١) حديث تضعيف الحسنة بعشر أمثالها تقدم (٢) حديث من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى
وحق على الزور إكرام زأره ابن حبان في الضمراء من حديث سلمان والبيهقي في الشعب نحوه من
رواية جماعة من الصحابة لم يسموا باسناد صحيح وقد تقدم في الصلاة (٣) حديث رهبانية أمي القموذ
في المساجد لم أجده أصلاً (٤) حديث من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكره به كان كالمجاهد في سبيل
الله تعالى هو معروف من قول كعب الأحبار رويناه في جزء ابن طوق وللطبراني في الكبير من حديث
أبي أمامة من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلمه كان له كأجر حج تاما حجة وإسناده جيد
وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة من غدا إلى المسجد أرواح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح

عن ردى أو يترك الذنوب خشية أوحياء فهذا طريق تكثير النيات وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلا واحتمل نيات كثيرة وإنما يحضر في قلب العبد الزمن بقدر جده في طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه فهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات [القسم الثالث المباحات] يوم من شئ من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات فما أعظم خسران من يفعل عنها ويتعاطاها تعاطى الهائم للمهملة عن سهو وغفلة ولا ينفى أن يستحق العبد شيئا من الخطرات والخطوات والاحتظات فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذى قصده بهذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «حلالها حساب وحرامها عقاب» (١) وفي حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شئ حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه» (٢) وفي خبر آخر «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغيره الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنث من الحيفة» فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية . فان قلت لما الذى يمكن أن ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله . فاعلم أن من يتطيب مثلا يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصور أن يقصد التعم بلذات الدنيا أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرته المال ليجسده الأقران أو يقصد به رياء الخلق أو يقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة أوليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبية إذا كان مستحلا للنظر إليهن ولأمور أخر لا تحصى وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون أنث من الحيفة في القيامة إلا القصد الأول وهو التلذذ والتعم فان ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسئل عنه ومن نوقش الحساب عذب ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسرانا بأن يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى وأما النيات الحسنة فأنه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة (٣) وينوى بذلك أيضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائرا لله إلا يطيب الرائحة وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحهم وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التى تؤدى إلى إيداء مخالطيه وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المعتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيصون الله بسببه فمن تعرض للغبية وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراجلون هم

وقال الله تعالى - ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم - أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر فقد قال الشافعى رحمه الله من طاب ريح من ادعقله فهذا أو أمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبية على قلبه وإذا لم يغلب على قلبه إلا النعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات

(١) حديث حلالها حساب وحرامها عقاب تقدم (٢) حديث معاذ إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شئ حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه لم أجده له إسنادا (٣) حديث إن لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة أبوداود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه الحديث ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبين مهنته وفي إسناده اختلاف وفي الصحيحين أن عمر رأى حلة سيرة عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يرم الجمعة الحديث .

قال لأنهم قوم لا ينفعهم
الوجود إذ لله فاقهم
ولا تضرم الفاقة إذ لله
وجودهم قال بعضهم
الفقر وقوف الحاجة
على القلب ومحوها
عما سوى الرب وقال
السوحي الفقير الذى
لا تغنيه النعم ولا تفقره
الحزن . وقال يحيى بن
معاذ حقيقة الفقر أن
لا يستغنى إلا بالله ورحمه
عدم الأسباب كلها
وقال أبو بكر الطوسي
بقيت مدة أسأل عن
معنى اختيار أمهاتنا
لهذا الفقر على سائر
الأشياء فلم يجنى أحد
بجواب يعنى حتى
سألت نصر بن الحامى
فقال لى لأنه أول
منزل من منازل

وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية في شيء والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ماعداه ولهذا قال بعض العارفين من السلف إنى لأستحب أن يكون لى فى كل شىء نية حتى فى أكلى وشربى ونومى ودخولى إلى الخلاء وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن و فراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه وتطيب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان طيبا بأكله ونسكاحه وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممنوع لمن غلب على قلبه هم الآخرة ولذلك ينبغى أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو فى سبيل الله وإذا بلغه اغتيا ب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستقل إلى ديوانه حسنة له وليتو ذلك بسكوته عن الجواب فى الخبر « إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول يارب هذه أعمال ما عملتها قط فيقال هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك (١) » وفى الخبر « إن العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فى آنى وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فاقص لهذا من حسنة له وهذا من حسنة له حتى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة قد فويت حسنة وبقى طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكوا له صكوا إلى النار (٢) » وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحق شيطان من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فان الله تعالى مطلع عليك وشهيد بما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد وقال بعض السلف كتبت كتابا وأردت أن أتربه من حائط جارلى فتخرجت ثم قلت تراب وما تراب قرتبه فتهتف بى هاتف سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غدا من سوء الحساب وصلى رجل مع الثورى فرآه مقلوب الثوب فمرفه فمد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوء فسأله عن ذلك فقال إنى لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله وقد قال الحسن إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بينى وبينك الله فيقول والله ما أعرفك فيقول بلى أنت أخذت ابنة من حائطى وأخذت خيطا من ثوبى فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين فان كنت من أولى العزم والنهى ولم تكن من القهقرين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تأمل أولا أنك لم تتحرك وماذا تقصد وما الذى تنال به من الدنيا وما الذى يفوتك من الآخرة وبماذا ترجع الدنيا على الآخرة فاذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأرض عزمك وما خطر ببالك وإلا فأمسك ثم راقب أيضا قلبك فى إمساكك وامتناعك فان ترك الفعل فقل ولا بدله من نية صحيحة فلا ينبغى أن يكون الداعى هوى خفى لا يطلع عليه ولا يفرنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاعتراض فقد روى عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل فى حائط بالطين وكان أجيرا لقوم فهدموا له رغيفا إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده فدخل عليه قوم

(١) حديث إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة الحديث وفيه هذه أعمال الذين اغتابوك الحديث أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق أبى نعيم من حديث شيب بن سعد البلوى مختصرا إن العبد لياقى كتابه يوم القيامة منتصرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لى ولم أعلمها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لاتشعر وفيه ابن لهيعة (٢) حديث إن العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال وفيه وبأى قد ظلم هذا وشتم هذا الحديث تقدم مع اختلاف .

التوحيد فقتعت بذلك
وسئل ابن الجلاء عن
الفقر فسكت حتى صلى
ثم ذهب ورجع ثم قال
انى لم أسكت إلا لدرهم
كان عندى فذهبت
فأخرجته واستجيت
من الله تعالى أن أتكلم
فى الفقر وعندى ذلك
ثم جلس وتكلم .
قال أبو بكر بن
طاهر عن حكم الفقير
أن لا يكون له رغبة
فان كان ولا بد لا تجاوز
رغبته كفايته . قال
فارس قلت لبعض
الفقراء مرة وعليه أثر
الجوع والضر لم لا تسأل
فيطمعوك ؟ فقال إنى
أخاف أن أسألهم
فيمنونى فلا يفلحون
وأشدد لبعضهم :

فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ فتهجروا منه لما علموا من سخاوتهم وزهدهم وظنوا أن الخير في طلب الساعة في الطعام فقال إنى أعمل لقوم بالأجرة وقدسوا إلى الرغيف لأتقوى به على عملهم فلما كلمهم لم يكفهم ولم يكفى وضعت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله فان ضعفه عن العمل تقص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام تقص في فضل ولا حكمة للفوائد مع الفرائض . وقال بعضهم دخلت على سفيان وهو يأكل فما كفى حتى لقي أصابه ثم قال لولا أنى أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه . وقال سفيان من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فإن أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد بأحد الوزرين التفارق وبالتالي تريضه أخاه لما يكره لوعله فهكذا ينبغي أن يتفقد العيد نيته في سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية فان لم تحضره النية توقف فان النية لا تدخل تحت الاختيار .

(بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار)

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكبيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات» فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله نويت أن أدرس لله أو أكل لله ويظن ذلك نية وهيئات فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر والنية بمنزلة من جميع ذلك وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى مظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما آجلا والليل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة بل ذلك كقول الشيعان نويت أن أشتى الطعام وأميل إليه أوقول الفارغ نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلي فذلك محال بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وإنما تنبعت النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين وإذا اعتقد قائما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالأشخاص والأحوال والأعمال فاذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد دينا ولادنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعثة إلا الشهوة فكيف ينوي الولد وإذا لم يغب على قلبه أن إقامة سنة النكاح (١) اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم فضلها لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية ، نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوى أولا إيمانه بالشرع ويقوى إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التسب وغيره فاذا فعل ذلك ربما انبعت من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحركه تلك الرغبة وتحرك أعضاءه لمباشرة العقد فاذا انتهت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان نوايا فان لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا نية حتى إن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصرى وقال ليس تحضرني نية ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات الدردي فقالت أجيء بالمرأة فسكت ساعت ثم قال نعم قليل له في ذلك فقال كان لي في الدردي نية

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه
فقلت خامة ساق عبه الجرجا
فقر وصبرها ثوبان تحهما
قلب يرى ربه الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به
يوم التزاور في الثوب الذى حلما
الدهر لى مأمته إن غبت يأملى
والعيد مادمت لى مرأى ومستعما .
[قولهم في الشكر]
قال بعضهم الشكر هو التيبة عن الذممة برؤية النعم . وقال يحيى بن معاذ الرازى لست بشاكر مادمت تشكر وظاية الشكر

(١) حديث إن النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقدم في آداب النكاح .

ولم تحضرنى في المرأة نية فتوقفت حتى هياها الله تعالى ومات حماد بن سليمان وكان أحد علماء أهل الكوفة فقيل للشورى ألا تشهد جنازته فقال لو كان لى نية لقلت وكان أحدهم إذا سئل عما لمن أعمال البر يقول إن رزقى الله تعالى نية فقلت وكان طاوس لا يحدث إلا بنية وكان يسئل أن يحدث فلا يحدث ولا يسئل فيبديءه فقيل له في ذلك قال أتحبون أن أحدث بغير نية إذا حضرته نية فقلت. وحكى أن داود بن الحبر لما صنف كتاب العقل جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد صفحا وورده فقال مالك قال فيه أسانيد ضعاف فقال له داود أنا لم أخرجه على الأسانيد فأنظر فيه بعين الحبر وإنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت قال أحمد فردته على حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال جزاك الله خيرا فقد انتفعت به وقيل لطاوس ادع لنا فقال حتى أجد له نية. وقال بعضهم أنا في طاب نية لزيادة رجل منذ شهر فما صحت لى بعد . وقال عيسى بن كثير مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه ألا تعرض عليه العشاء قال ليس من نيتي وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا إلا بنية لهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلما أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت بل هو انبعاث القلب يجرى مجرى الفتح من الله تعالى فقد تيسر في بعض الأوقات وقد تعذر في بعضها ، نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فان قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالبا ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم تيسر له ذلك بل لا تيسر له في القرئض إلا بمجهود وجهه وقيامته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فرجما تفتت له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تيسر للراغب في الدنيا وهذه أعز النيات وأعلاها ويعز على بساط الأرض من يفهمها فضلا عن يعاطاها ونيات الناس في الطاعات أقسام إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقى النار ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواء فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الوعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرها الجنة فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالأجير السوء ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذا أكثر أهل الجنة البله وأما عبادة ذوى الأبواب فاتها لا تجاوز ذكرك الله تعالى والفكر فيه جبالها ووجاله وسائر الأعمال تكون مؤكداً وروادف وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والطعوم في الجنة فانهم لم يقصدوها بل هم الذين يدعون ربهم بالعبادة والعشى يريدون وجهه فقط وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتعممون بالنظر إلى وجهه الكريم ويسخرون من يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتعمم بالنظر إلى الحور العين مما يتعمم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشد فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطرن من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجهه الله الكريم يضاهى استعظام الحنساء لصاحبها وإفهامها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء فعلى أكثر القلوب عن إحصار جمال الله وجلاله يضاهى عمى الحنفاء عن إدراك جمال النساء فانها لا تشمر به أصلا ولا تلتفت إليه ولو كان لها عقل وذكرن لها لا تحسنت عقل من يانفت إليهن ولا يزالون مختلفين كل حزب بما لديهم فرحون - ولذلك خلقهم -

التحير وذلك أن
الشكر نعمة من
الله يجب الشكر
عليها وفي أخبار داود
عليه السلام إلهي
كيف أشكرك وأنا
لا أستطيع أن
أشكرك إلا بنعمة
تأية من نعمك فأوحى
الله إليه إذا عرفت
هذا قد شكرته
ومعنى الشكر في اللغة
هو الكشف والانتهاز
يقال شكر وكشر
إذا كشف عن قعر
وأظهره فشر النعم
وذكرها وتعدادها
باللسان من الشكر
وباطن الشكر أن
تستعين بالنعم على
الطاعة ولا تستعين بها
على المعصية فهو شكر

حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام فقال له كل الناس يطلبون من الجنة إلا أبا زيد فان يطلبنى ورأى أبو زيد ربه في المنام فقال يارب كيف الطريق إليك فقال أترك نفسك وتعال إلى . ورؤى الشبلى بعد موته في المنام قفيل له ما فعل الله بك فقال لم يطلبنى على دعاوى البرهان إلا على قوله واحد قلت يوما أى خسارة أعظم من خسران الجنة فقال أى خسارة أعظم من خسران لقائى والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء فانما يقول من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه بقصة لأن الأعمال بالنيات وذلك مثل العفو فانه أفضل من الانتصار في الظلم وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليربح نفسه ويتقوى على العبادات في المستقبل وليس تنبثق نيته في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفساعة بلم ووحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء إني لأستجم نفسي بشئ من الله فيكون ذلك عوننا لى على الحق وقال على كرم الله وجهه روحوا القلوب فانها إذا كرهت عميت وهذه دقائق لا يدركها إلا بمسيرة العلماء دون الحشوية منهم بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور بالحجم مع حرارته ويستعبده القاصر في الطلب وإنما ينتهى به أن يجيد أولا قوته ليحتمل المعالجة بالصدو والحاذق في لعب الشطرنج مثلا قد ينزل عن الرخ والفرس مجانا ليتوصل بذلك إلى الغلبة والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيكر عليه فيقهره فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبدها الضعفاء فلا ينبغي للمريد أن يضمرك انكارا على ما يراه من شيخه ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمه لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق .

(الباب الثانى فى الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته)

(فضيلة الاخلاص)

قال الله تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - وقال - ألا لله الدين الخالص - وقال تعالى - إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله - وقال تعالى - فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - نزلت فيمن يعمل لله ويعب أن يحمده عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله (١) » وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال « ظن أبي أن له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ قال النبي صلى الله عليه وسلم إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم (٢) » وعن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من

(الباب الثانى فى الاخلاص)

(١) حديث ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله الترمذى وصححه من حديث النعمان بن بشير (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن أن له فضلا على من دونه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم رواه النسائى وهو عند البخارى بلفظ هل تصرون وترزقون إلا بضعفائكم .

النعمة . وصممت شيخنا رحمه الله ينشد عن بعضهم :
أوليتى نعماً أبوح بشكرها
وكفيتنى كل الأمور بأسرها
فلا شكرنك ما حبيت وإن أمت
فلتشكرنك أعظمى فى قبرها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ابتلى فصر وأعطى فشكر وظلم ففقر وظلم فاستفقر » قيل فما باله قال « أولئك

أحبت من عبادي (١) « وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لاتبهوا القلة العمل واهتموا للقبول فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل «أخلص العمل مجزك منه القليل (٢)» وقال عليه السلام «مامن عبد يخلص لله العمل أربعين يوما إلا ظهرت بناييع الحكمة من قلبه على لسانه (٣)» وقال عليه السلام «أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول يارب كنت أقوم به آتاه الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول للملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا تقديبل ذلك ورجل آتاه الله ما لا يقول الله تعالى لقد أتعت عليك فماذا صنعت فيقول يارب كنت أتصدق به آتاه الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول للملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا تقديبل ذلك ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول للملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا تقديبل ذلك قال أبو هريرة ثم خط رسول الله ﷺ على غزدي وقال يا باهريرة أولئك أول خلق تسمر نار جهنم بهم يوم القيامة (٤)» فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكي حتى كادت نفسه تزهرق ثم قال صدق الله إذ قال - من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها - الآية وفي الاسرائيليات أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا إن ههنا قوم ما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال أين تريد رحلك الله قال أريد أن أقطع هذه الشجرة قال وما أنت وذاك تركت عبادتك واشتغلتك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال إن هذا من عبادتي قال فاني لا أتركك أن تقطعها فقاتله فأخذته العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس أطلعتني حتى أكلت قمام عنه فقال إبليس يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك والله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لا بد لي من قطعها فإذ به لاقته العابد وصرعه وقعد على صدره فجزئ إبليس فقال له هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنقع قال وما هو قال أطلعتني حتى أقول لك فأطلقه فقال إبليس أنت رجل فقير لاشيء لك إنما أنت كل على الناس يعولونك ولعلك تحب أن تفضل على إخوانك وتواسى جيرانك وتشبع وتستغنى عن الناس قال نعم قال فارجع عن هذا الأمر ولك على أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهم ما فأنفت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك فيكون ذلك أنقع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يفرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمي قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها

(١) حديث الحسن مرسل يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي رويته في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلا يقول كل واحد من رواته سألت فلانا عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف (٢) حديث أنه قال لمعاذ أخلص العمل مجزك منه القليل أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع (٣) حديث مامن عبد يخلص لله أربعين يوما ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى وقد تقدم (٤) حديث أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم الحديث وقد تقدم .

لهم الأمن وهم مهتدون . وقال الجليلي فرض الشكر الاعتراف بالعم بالقلب واللسان . وفي الحديث «أفضل الذكر لإله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله» . وقال بعضهم في قوله تعالى - وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة - قال الظاهرة العوافي والغبني والباطنة البسلاوي والفقير فان هذه نعم أخروية لما يستوجب بها من الجزاء . وحقبة الشكر أن يرى جميع المقضى له به نعمًا غير ما يضره في دينه لأن الله تعالى لا يقضى للعبد للمؤمن شيئًا إلا وهو نعمته في حقه فإما عاجلة

وما ذكره أكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحاف له فرجع العابد إلى متعبه فبات فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخدهما وكذلك الغد ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له إلى أين ؟ قال أقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها قال فتناوله العابد ليفعله بكافل أول مرة فقال بهرات فأخذه إبليس وصرعه فاذا هو كالمصفور بين رجله وقعد إبليس على صدره وقال لتبين عن هذا الأمر أولاً فبجحت فنظر العابد فاذا لاطاقة له به قال يا هذا غلبتني غلّ عني وأخبرني كيف غلبتني أولاً وغلبتني الآن فقال لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لاهه وهذه المرة غضبت لنفسك وللدينا فصرعتك وهذه الحكايات تصديق قوله تعالى - لإعبادك منهم المخلصين - إذ لا يتخلص الصبد من الشيطان إلا بالاخلاص ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول يا نفس أخلصي تتخلصي . وقال يعقوب الكفوف : المخلص من يكتم حسنه كما يكتم سيئاته . وقال سليمان : طوبى لمن سحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى ، وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري : من خلصت نيته كفاء الله تعالى ما بينه وبين الناس ، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له أخلص الية في أممالك يكفك القليل من العمل . وقال أيوب السخيتاني : تخليص النيات على المال أشد عليهم من جميع الأعمال ، وكان مطرف يقول من صفا صفي له ومن خلط خلط عليه . ورؤى بعضهم في المنام قليل له كيف وجدت عمالك ؟ فقال كل شيء عملته لله وجدته حتى حبة رمان لقطها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيتها في كفة السيئات وكان قد تفق حمار لي قيمته مائة دينار فمأريته له ثوابا فقلت موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها قبيل لي إنه قد وجه حيث بعث به فانه لما قيل لك قد مات قلت في لعنة الله فبطل أجرك فيه ولوقلت في سبيل الله لوجدته في حسناتك . وفي رواية قال وكنت قد صدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرم إلى فوجدت ذلك لاطى ولالى . قال سفيان لما سمع هذا ما أحسن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه . وقال يحيى بن معاذ : الاخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من القرث والهم ، وقيل كان رجل يخرج في زى النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم فاتفق أن حضر يوما موضعا فيه مجمع للنساء فسرت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفثت فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت التوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه فدعا الله تعالى بالاخلاص وقال إن نجوت من هذه الفضيحة لأعود إلى مثل هذا فوجدت الدرّة مع تلك المرأة فصاحوا أن أطلقوا الحرّة فقد وجدنا الدرّة . وقال بعض الصوفية : كنت قائما مع أبي عبيد التستري وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة فمر به بعض إخوانه من الأبدان فساره بشي فقال أبو عبيد لا ، فمر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني فقلت لأبي عبيد ما قال لك ؟ فقال سألتني أن أحج معك قلت لا قلت فملا فمات ؟ قال ليس لي في الحج نية وقد نيت أن أتم هذه الأرض العسية فأخاف إن حججت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى لأنى أدخل في عمل الله شيئا غيره فيكون ما أنافه أعظم عندي من سبعين حجة . وروى عن بعضهم قال : غزوت في البحر فمرض بضنا فملا فقلت اشتريها فأتفّع بها في غزوى فاذا دخلت مدينة كذا بعثها فرمحت فيها فاشتريتها فرأيت تلك البيلة في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه اكتب الفزاة فأملى عليه خرج فلان منزها وفلان مرأيا وفلان تاجرا وفلان في سبيل الله ثم نظر إلى وقال اكتب فلان خرج تاجرا فقلت

يرفها ويفهمها وإما آجلة بما يقضى له من المكارة فاما أن تكون درجة له أو تمحيصا أو تكفيرا فاذا علم أن مولاه أنصح له من نفسه وأعلم بمصالحه وأن كل ما منه نعم فقد شكر .

[قولهم في الخوف]
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رأس الحكمة مخافة الله» وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «كان داود النبي عليه السلام يعود الناس يظنون أن به مرضا وما به مرض إلا خوف الله تعالى والحياء منه» قال أبو عمر الدمشقي الخائف من يخاف من

الله في أمرى ماخرجت أبحر وما معى تجارة أبحر فيها ماخرجت إلا للرزوق قال باشيخ قد اشترت أس حجلة تريد أن تبيع فيها فبكيت وقلت لا تسكتبونى تاجرا فنظر إلى صاحبه وقال ما ترى فقال اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى في طريقه حجلة ليربع فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى . وقال سرى السقطى رحمه الله تعالى : لأن تصلى ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تسكتب سبعين حديثا أو سبعمائة بعلو . وقال بعضهم في إخلاص ساعة نعمة الأبد ولكن الاخلاص عزيز ويقال العلم بذر والعمل زرع وماؤه الاخلاص . وقال بعضهم إذا أنقض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا أعطاه محبة الصالحين ومنعه القبول منهم وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الاخلاص فيها وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها . وقال السوسى : مراد الله من عمل الخلائق الاخلاص فقط . وقال الجليل : إن لله عبادا عقلا فلما عقلا فلما عملوا فلهما عملوا فاستدعاهم الاخلاص إلى أبواب البر أجمع . وقال محمد بن سعيد الروزى : الأمر كله يرجع إلى أصلين فعل منه بك وفعل منك له فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل فاذن أنت قد سمعت بهذين وفزت في الدارين .

(بيان حقيقة الاخلاص)

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا ويسمى الفعل الصفى الخالص إخلاصا قال الله تعالى - من بين فرت ودم لنا خالصا سائغا للشاربين - فانما خلوص اللين أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرت ومن كل ما يمكن أن يمزج به والاخلاص يضاهه الاشتراك فمن ليس مخلصا فهو مشترك إلا أن الشرك درجات فالإخلاص في التوحيد يضاهه التشريك في الإلهية والشرك منه خفى ومنه جلى وكذا الاخلاص والاخلاص وضده يتواردان على القلب فمحله القلب وإنما يكون ذلك في التصود والنيات وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث فمهما كان الباعث واحدا على التجرد سمى الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى النوى فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو محاص ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب كما أن الاتحاد عبارة عن الليل ولكن خصصته العادة بالليل عن الحق ومن كان باعته مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ولما تسلكم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربح المهلكات وأقل أمور ماورد في الخبر من « إن الرائي يدعى يوم القيامة بأربع أسماء يامرأى يا معادع يا شرك يا كافر (١) » وإنما تسلكم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إيمان الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن يصوم ليتنفع بالحلمة الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب أو يستق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من شر يعرض له في بلده أو ليهرب عن عدوه في منزله أو يتبرم بأهله وولده أو يشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياما أو ليفزوا وليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيبه الساكر وجرحها أو يصلى بالليل وله غرض في دفع الناس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله أو يتم العلم ليسهل عليه طلب ما يكتفيه من المال أو ليكون عزيزا بين العشرة أو ليشكون تقاربه أو ماله محروسا بجز العلم عن الأطعام أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصحة ويتفرج بلدة الحديث أو تسكف بخدمه العلماء والصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس أو لينال بدرق في الدنيا

(١) حديث إن الرائي يدعى يوم القيامة يامرأى يا معادع الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والاخلاص وقد تهمد .

نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان . وقال بعضهم ليس الخائف من بيكى وبمسح عينيه ولكن الخائف التارك ما يخاف أن يعذب عليه . وقيل الخائف الذى لا يخاف غير الله قيل أى لا يخاف لنفسه إنما يخاف إجلالا له والخوف للنفس خوف العقوبة . وقال سهل الخوف ذكر والرجاء أنى أى منهما تولد حقائق الإيمان . قال الله تعالى - ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله - قيل هذه الآية قطب القرآن لأن مدار

أو كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء أو تواضعا ليتنظف أو يتبرد أو اغتسل لتطهير راحته أو روى الحديث ليعرف بعلوم الاسناد أو اعتكف في المسجد ليخف كراء السكن أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها أو تصدق على السائل ليقطع إيرامه في السؤال عن نفسه أو يعود مريض العباد إذا مرض أو يشيع جنازة ليشيع جناز أهله أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالحير ويدكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار فمهما كان باعته هو التقرب إلى الله تعالى والسكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك وقد قال تعالى «أنا أغنى الشركاء عن الشرك» وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويعيل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهوته قلما يبتغى فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس فلذلك قيل من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب بل الخالص هو الذي لا يباعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة اللواقحة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية ، وبالجملة فاما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث الدينى أو أقوى منه أو أضعف ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره وإنما الاخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلا وكثيرا حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يغب الأكل والشرب أيضا بل تكون رغبته فيه كرهته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجلبة فلا يشتهى الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله ويتبعنى أن لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ويكون قدر الضرورة مطلقا باعده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى فمثل هذا الشخص لو أكل وشرب وأقصى حاجته كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلا حتى يرجع نومه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة الخاصين فيه ومن ليس كذلك فباب الاخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الندور وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتمت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة ، وبالجملة غير الله فقد اكتمت جميع حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا فإذا نزل علاج الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذا تيسر الاخلاص وكمن أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لأنه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول لأنى تأخرت يوما لعذر فصلت في الصف الثانى فاعتزنى خجلة من الناس حيث رأوتنى في الصف الثانى فعرفت أن نظر الناس إلى فى الصف الأول كان مسرنا وسبب استراحة قلبى من حيث لا أشعر وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وقفه الله تعالى والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها فى الآخرة سيئات وهم الرادون بقوله تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - وبدا لهم سيئات ما كسبوا -

الأمر كله على هذا .
وقيل إن الله تعالى جمع للخائفين ما فرقه على المؤمنين وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان فقال تعالى - هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون - وقال - إنما يخشى الله من عباده العلماء - وقال - رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه - . وقال سهل: كمال الإيمان بالعلم وكمال العلم بالخوف . وقال أيضا: العلم كسب الإيمان والخوف كسب المعرفة . وقال ذوالنون: لا يسقى المحب كأس المحبة إلا من إمد أن ينضح الخوف قلبه . وقال فضيل بن عياض

ويقوله تعالى - قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - وأشدّ الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء فان الباعث للأكثرين على نشر العلم لئلا الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والشاء والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترى الواعظين على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه وهو يدعى أنه يفرح بما يسره من نصرة الدين ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهمل بغيره ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول إنما غمك لا تقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت الثابت واغنامك لقوات الثواب محمود ولا يدرى السكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوبا وأعود عليه في الآخرة من انقراذه ، وليت شعري لو اعتم عمر رضى الله عنه بتصدعه أبى بكر رضى الله تعالى عنه للامامة أ كان غمه محمودا ومذموما ولا يسترىب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموما لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل بل فرح عمر رضى الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر ، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك وقد يتخذه بعض أهل العلم بفرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به وإخياره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور فان النفس سهلة القيادة في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكاييد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها ، فعرفة حقيقة الاخلاص والعمل به بحر عميق يفرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والقرء القذ وهو المستثنى في قوله تعالى - لإعبادك منهم المخلصين - فليكن العبد شديد التقدير والراقة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر.

(بيان أقوال الشيوخ في الإخلاص)

قال الموسى : الاخلاص فقد رؤية الاخلاص ، فان من شاهد في إخلاصه الاخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص ، وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فان الالتفات إلى الاخلاص والنظر إليه محب ؛ وهو من جملة الآفات . والخالص : ماصفا عن جميع الآفات فهذا تعرض لآفة واحدة . وقال سهل رحمه الله تعالى : الاخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة ، وهذه كلمة جامعة محيطه بالفرض وفي معناه قوله إبراهيم بن أدهم : الإخلاص صدق النية مع الله تعالى . وقيل لسهل أى شئ أشد على النفس ، فقال : الاخلاص إذ ليس لها فيه نصيب . وقال رويم : الاخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين ، وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا والعايد لأجل تنعم النفس بالشهوات في الجنة معاول بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين وهو الاخلاص المطلق . فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج وإنما المطلوب الحق لذوى الأبواب وجه الله تعالى فقط ، وهو القائل لا يتحرك الانسان الا لحظ والبراءة من الحظوظ صفة الالهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر . وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ وقال هذا من صفات

إذا قيل لك تخاف الله
اسكت فانك ان قلت لا
كفرت وان قلت نعم
كذبت فليس وصفك
وصف من يخاف .
[قولهم في الرجاء] قال
رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول الله
عز وجل أخرجوا من
النار من كان في قلبه
مثقال حبة من خردل
من إيمان ثم يقول
وعزنى وجسالى
لأجعل من آمن بى
من ساعة من ليل
أو نهار كمن لا يؤمن
بى . قيل « جاء أعرابي
إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال من بى
حساب الخلق ؟ فقال
الله تبارك وتعالى قال
هو بنفسه ؟ قال نعم

الإلهية وما ذكره حق ، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا ، وهو الشوائب الموصوفة في الجنة فقط . فأما التلذذ بمجرد المعرفة والناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى . فهذا حظ هؤلاء وهذا لا يعمد الناس حظا بل يتعجبون منه . وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والناجاة وملازمة الشهود لاحضرة الالهية سراً وجهراً جميع نعم الجنة لاستحقاقه ولم يلتفتوا إليه فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره . وقال أبو عثمان : الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط وقدك قال بعضهم الاخلاص في العمل : أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه فإنه إشارة إلى مجرد الاخفاء . وقد قيل الاخلاص : ما استر عن الخلائق وصفا عن العلائق وهذا أجمع للمقاصد . وقال المحاسبي : الاخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء وكذلك قول الخواص : من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية . وقال الحواريون ليسى عليه السلام : ما الخالص من الأعمال فقال الذي يعمل لله تعالى لا يجب أن يحمده عليه أحد وهذا أيضا تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للاخلاص . وقال الجليل : الاخلاص تصفية العمل من الكدورات . وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والاخلاص أن يعافيك الله منهما . وقيل : الاخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها وهذا هو البيان الكامل والأقوال في هذا كثيرة . ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم « إذ سئل عن الاخلاص قال : أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت (١) » أى لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا .

(بيان درجات الشوائب والآفات المكذرة للاخلاص)

اعلم أن الآفات المشوشة للاخلاص بعضها جلى وبعضها خفى وبعضها ضيف مع الجلاء وبعضها قوى مع الحفاء ولا يفهم اختلاف درجاتها في الحفاء والجلاء إلا بمثال . وأظهر مشوشات الاخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا . فنقول : الشيطان يدخل الآفة على الصلى مهما كان مخلصا في صلته ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له حسن صلته حتى ينظر اليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يفتابك فتخضع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلته وهذا هو الرياء الظاهر ولا يخفى ذلك على البتدين من الريدين . الدرجة الثانية يكون المرید قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمر في صلته كما كان فيأتيه معرض الحير ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور اليك وماتفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت فأحسن عملك بين يديه فمساء يقتدى بك في الحشوع وتحسين العبادة وهذا أغمض من الأول وقد يخضع به من لا يخضع بالأول وهو أيضا

(١) حديث سئل عن الاخلاص فقال أن تقول : ربى الله ثم تستقيم كما أمرت لم أره بهذا اللفظ وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبدالله التقي قلت يارسول الله حدثني بأمر أعصم به قال قل ربى الله ثم استقم وهو عند مسلم بلفظ : قل لى فى الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم .

فبسم الأعرابي فقال
النبي صلى الله عليه
وسلم م ضحككت
ياأعرابى ؟ فقال
إن الكريم إذا قدر
عفا وإذا حاسب
سامح . وقال شاه
الكرمانى : علامة
الرجاء حسن الطاعة .
وقيل : الرجاء رؤية
الجلال بعين الجلال .
وقيل : قرب القلب
من ملاطفة الرب .
قال أبو طي الروذبارى :
الحسوف والرجاء
كجناح الطائر اذا
استويا استوى الطائر
وتم فى طيرانه . قال
أبو عبد الله بن خفيف :
الرجاء ارتياح القلوب
لرؤية كرم المرجو .
قال مطرف : لو

عين الرياء ومبطل للاخلاص فانه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوّة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه فهذا مرض التلبس بل المقننى به هو الذى استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه فأما عذا فمرض النفاق والتلبس فمن اقتدى به أثيب عليه . وأما هو فيطالب بتلبسه ويقاب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفا به . الدرجة الثالثة وهى أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوّة والشاهدة للغير مرض الرياء ويعلم أن الاخلاص في أن تكون صلاته في الخلوّة مثل صلاته في الملأ ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخضع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته فيقبل على نفسه في الخلوّة ويحسن صلته على الوجه الذى يرتضيه في الملأ ويصلى في اللأ أيضا كذلك فهذا أيضا من الرياء الغامض لأنه حسن صلته في الخلوّة لتحسن في اللأ فلا يكون قد فرق بينها فالثقات في الخلوّة والملأ إلى الخلق بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة اللرايين ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلته في الخلوّة واللأ وهيات بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملا جميعا وهذا من شخص مشغول بهم بالخلق في اللأ والخلا جميعا وهذا من السكايد الخفية للشيطان . الدرجة الرابعة أدق وأخفى أن ينظر إليه الناس وهو في صلته فيصجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لأجلهم فانه قد عرف أنه تفتن لذلك فيقول له الشيطان تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخضع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين السكر والحداع فان خشوعه لو كان نظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوّة ولما لا يختص حضورها بحالة حضور غيره وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوّة كما يألفه في اللأ ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببا فاما دام بفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفى من الرياء ، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب الخلة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء (١) كما ورد به الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بصمة الله تعالى وتوفيقه وهداياته وإلا فالشيطان ملازم للمتشمخين لعبادة الله تعالى لا يسهل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب فان هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفى لا يرتبط نظر الخاق بها ولا ستئاس الطبع بها فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها ويكون ابتعاد القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية أو مشوبة بها شوائب يخرج عن حد الاخلاص بسببه وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس يخالص بل من يعتكف في مسجده مور نظيف حسن العمارة بأنس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف وقد يكون المحرك الخفى في سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ويتبين ذلك في ميله إلى أحد للمجدين أو أحد للوضعين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك أمرج بشوائب الطبع وكدورات

(١) حديث الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب الخلة السوداء في الظلمة الظلماء على الصخرة

تقدم في العلم وفي ذم الجاه والرياء .

وزن خوف المؤمن
ورجاؤه لا اعتدلا .
والخوف والرجاء
للإيمان كالجنحين
ولا يكون خافها إلا
وهو راجع ولا راجيا
إلا وهو خائف لأن
موجب الخوف الإيمان
وبالإيمان رجاء
وموجب الرجاء الإيمان
ومن الإيمان خوف
ولهذا المعنى روى
عن لقمان أنه قال
لابنه خف الله تعالى
خوفا لا تأمن فيه
مكره وارجع أشد من
خوفك ، قال فكيف
أستطيع ذلك وإني
لى قلب واحد ؟ قال
أما علمت أن المؤمن
لذو قلبين يخاف
بأحدهما ويرجو

النفس ومبطل حقيقة الاخلاص لعمرى النفس الذى يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة فنها ما يئلب ومنها ما يعل لكن يسهل فدركه ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير وغنى القاب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرا ، ولهذا قيل ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها فان الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادى إلى حمرة الدينار الموه واستدارته وهو مفشوش زائف فى نفسه وقبائط من الخالص الذى يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغر العبي فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم ومداخل الآفات التطرفة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالا والفطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة فى التفصيل .

(بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به)

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس فى أن ذلك هل يقتضى ثوابا أم يقتضى عقابا أم لا يقتضى شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه وأما الذى لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب القتل والعقاب . وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر فى المشوب وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له (١) وليس تخلوا الأخبار عن تعارض فيه والذى يتقدم لما فيه والعلم عند الله أن ينظر إلى قدر قوة الباعث فان كان الباعث الدينى مساويا للباعث النفسى تقاوما وتساقتا وصار العمل لا له ولا عليه وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب نعم العقاب الذى فيه أخف من عقاب العمل الذى تجرد للرياء ولم يمزج به شائبة التقرب وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما نضل من قوة الباعث الدينى وهذا لقوله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - ولقوله تعالى - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها - فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد وكشف الغطاء عن هذات الأعمال تأثيرها فى القلوب بتأكيد صفاتها فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وقته وداعية الخير من النجيات وإنما قوتها بالعمل على وقعتها فإذا اجتمعت الصفتان فى القلب فهما متضادتان فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج فان كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالمضرب بالحجارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من البردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما وإن كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر فكل لا يضيع مثقال ذرة

(١) الأخبار التى يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له قال وليس تخلوا الأخبار عن تعارض أبو داود من حديث أبي هريرة أن رجلا قال يا رسول الله رجل يبتغى الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضا من الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجر له الحديث والنسائي من حديث ابن أمية باسناد حسن أرأيت رجلا غزا ياتمس الأجر والدكر ماله فقال لا شيء له فأعادها ثلاث مرات يقول لا شيء له ثم قال إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه وللترمذى وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال له أجزان أجر السر وأجر العلانية وقد تقدم فى ذم الجاه والرياء .

بالآخر وهذا لأنهما من حكم الإيمان . [قولهم فى التوكل] قال السرى : التوكل الانحلاخ من الحول والقوة . وقال الجنييد التوكل أن تكون لله كما لم تكن فيكون الله لك كما لم يزل . وقال سهل : كل المقامات لها وجه وفقا غير التوكل فانه وجه بلا تقا قال بعضهم يريد توكل العناية لا توكل الكفاية والله تعالى جعل التوكل مقرونا بالإيمان فقال - وعلى الله فتوكلوا وإن كنتم مؤمنين - وقال - وعلى الله فليتوكل المؤمنون - وقال لبيد - وتوكل على الحى الذى لا يموت - وقال

من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى فكذلك لا يضيع مثال ذرة من الحبر والشر ولا ينفك عن تأثير في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده فإذا جاء ما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا قد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه وإن كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر وقد قال النبي ﷺ «أتبع السيئة الحسنة تمحها» (١) فإذا كان الرياء المحض يمحوه الاخلاص المحض عقيه فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعته تجارة صح سحبه وأثيب عليه وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس نعم يمكن أن يقال إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكه وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وإنما اشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة ولكن الصواب أن يقال مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب. وما عندي أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها التناهم وبين جهة لا غنيمة فيها ويعد أن يقال إدراك هذه التفرقة يحبط بالسكينة ثواب جهادهم بل العدل أن يقال إذا كان الباعث الأصلي والزجج القوي هو إغلاء كلمة الله تعالى وإتمام الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا فان هذا الالتفات نقصان لا محالة. فان قلت فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء يحبط للثواب وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين «أن رجلا سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن يسطع المعروف أو قال يتصدق فيجب أن يعمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت - فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - (٢) وقد قصد الأجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبي ﷺ أنه قال «أدنى الرياء شرك» (٣) وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «يقال لمن شرك في عمله خذ أجره ممن عملت له» (٤) وروى عن عبادة «أن الله عز وجل يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل لي عملا فأشرك معي غيره ودعت نصيبي لشريك» وروى أبو موسى «أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتسكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (٥) وقال عمر رضي الله عنه تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون تدملا دفن راحته ورقا وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ «من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له» فتقول هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقول من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين

(١) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها تقدم في رياضة النفس وفي التوبة (٢) حديث طاوس وعبد من التابعين أن رجلا سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن يسطع المعروف أو قال يتصدق فيجب أن يعمد ويؤجر فنزلت - فمن كان يرجوا لقاء ربه - ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلا وقد تقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث معاذ أدنى الرياء شرك الطبراني والحاكم وتقدم فيه (٤) حديث أبي هريرة يقال لمن أشرك في عمله خذ أجره ممن عملت له تقدم فيه من حديث محمود بن ليث بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة من عمل عملا أشرك فيه منى غيره تركته وشريكه وفي رواية مالك في اللوطأ فهو له كله (٥) حديث ابن موسى من قاتل لتسكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تقدم فيه (٦) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له تقدم في الباب الذي قبله.

ذواته: التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة. وقال أبو بكر الرقاق: التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد. وقال أبو بكر الواسطي: أصل التوكل صدق الفاقة والافتقار وأن لا يفارق التوكل في أمانيه ولا يلتفت بسره إلى توكله لحظة في عمره. وقال بعضهم من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا يدقها فيه وينس الدنيا وأهلها لأن حقيقة التوكل لا يقوم لها أحد من الخلق على كماله. وقال سهل أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى

حرام لما فيه من الرياء وتغير العبادة عن موضعها وأما لفظ الشركه حيث ورد فمطلق للتساوي وقد بينا أنه إذا تساوى التصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب ثم إن الانسان عند الشركه أبدا في خطر فانه لا يدري أى الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالاولئك قال تعالى - فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - أى لا يرجى اللقاء مع الشركه التى أحسن أحوالها التساقط ويجوز أن يقال أيضا منصب الشهادة لا ينال إلا بالاخلاص في الغزو وبعيد أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزججه إلى مجرد الغزو وإن لم يكن غنمة وقد روى عن علي بن أبي طالب من الكفار إحداهما غنية والأخرى فقيرة فقال إلى جهة الأغنياء لا إله إلا الله وللغنية لا ثواب له على غزوه ألبتة ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فان هذا حرج في الدين ومدخل للبأس على المسلمين لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الانسان عنها إلا على الندور فيكون تأثير هذا في حصان الثواب فأما أن يكون في إحباطه فلا، نعم الانسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ويكون الأغلب على سره الحظ النفسى وذلك مما يخفى غاية الحفاء فلا يحصل الأجر إلا بالاخلاص والاخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط فلذلك ينبغي أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر وهكذا ينبغي أن يكون كل ذى بصيرة ولذلك قال سفیان رحمه الله لأعتد بما ظهر من عملي وقال عبدالعزیز بن أبى رواد جاورت هذا البيت ستين سنة وحجبت ستين حجة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله لئنه لالى ولاهلى ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ القصد أن لا يفوت الاخلاص ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا وقد حكى أن بعض الفقهاء كان يخدم بأسيح الحجاز ويحفظ في أعماله فتكلم أبو سعيد في الاخلاص يوما يريد إخلاص الحركات فأخذ الفقير يفتقه فدهقه عند كل حركة ويطالبه بالاخلاص فعمد عليه قضاء الحوائج واستنصر الشيخ بذلك فسأله عن أمره فأخبره بمطالته نفسه بحقيقة الاخلاص وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فتركها فقال أبو سعيد لا تفعل إذ الاخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الاخلاص فما قلت لك أترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك.

(الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته)

(فضيلة الصدق)

قال الله تعالى - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا» (١) ويكفى في فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض الدح والثناء فقال - واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا - وقال - واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادقا الوعد وكان رسولا نبيا - وقال تعالى - واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا - وقال ابن عباس أربع من كن فيه فقد ربح الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر. وقال بشر بن الحرث من عامل الله بالصدق

(الباب الثالث في الصدق)

(١) حديث إن الصدق يهدي إلى البر الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم.

حكيت بين يدي
الفاصل يقبله كيف أراد
ولا يكون له حركة
ولان تدبير وقال حمدون
القصار : التوكل هو
الاعتصام بالله . وقال
سهل أيضا : العلم كله باب
من التمسك والتعبد كله
باب من الورع والورع
كله باب من الزهد
والزهد كله باب من
التوكل . وقال :
التقوى واليقين مثل
كفتى اليزان والتوكل
لسانه به تعرف الزيادة
والنقصان ويقع لى أن
اتوكل على قدر العلم
بلوكل فكل من كان
أتم معرفة كان أتم
توكلا ومن كل توكله
ظاب في رؤية الوكيل
عن رؤية توكله ثم إن

استوحش من الناس . وقال أبو عبد الله الرملي رأيت منصوراً الدينوري في المنام قلت له ما فعل الله بك قال غفر لي ورحمني وأعطاني مالم أؤمل قلت له أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا؟ قال الصدق وأقبح ما توجه به الكذب . وقال أبو سليمان اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل لحكيم ما رأيت صادقا فقال له لو كنت صادقا لعرفت الصادقين وعن محمد بن طي الكتاني قال وجدنا دين الله تعالى مبني على ثلاثة أركان على الحق والصدق والعدل فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول . وقال الثوري في قوله تعالى - ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة - قال هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا صادقين ، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود من صدقتني في سريرته صدقتني عند المخلوقين في علانيته وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في دجلة فقال الشبلي إن كان صادقا فإله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام وإن كان كاذبا فإله تعالى يفرقه كما أغرق فرعون . وقال بعضهم أجمع الفقهاء والملاء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض الإسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب المطعم . وقال وهب بن منبه وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرءونها ويتدارسونها . لاكثر أنفع من العلم ولا مال أربح من الحلم ولا حسب أوضع من الغضب ولا قرين أزين من العمل ولا رفيق أشين من الجهل ولا شرف أعز من التقوى ولا كرم أوفى من ترك الهوى ولا عمل أفضل من الفكر ولا حسنة أظلى من الصبر ولا سيئة أخزى من الكبر ولا دواء ألين من الرفق ولا داء أوجع من الحرق ولا رسول أعدل من الحق ولا دليل أنصح من الصدق ولا قهر أذل من الطمع ولا غنى أشقى من الجمع ولا حياة أطيب من الصحة ولا ميثمة أهنأ من العفة ولا عبادة أحسن من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس أحفظ من الصمت ولا غائب أقرب من الموت . وقال محمد بن سعيد الروزي إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى امرأة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة . وقال أبو بكر الوراق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق وقيل لذي النون هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل؟ قال :

قد بينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل

فدعاوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه فقال الصدق والسخاء والشجاعة ثقيل زدنا فقال التقي والحياء وطيب الغذاء . وعن ابن عباس رضي الله عنهما «أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال : قول الحق والعمل بالصدق^(١)» وعن الجنيد في قوله تعالى - ليسأل الصادقين عن صدقهم - قال يسأل الصادقين عن أنفسهم عند ربهم وهذا أمر على خطر .

(بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه)

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان صدق في القول وصدق في النية والأرادة وصدق في العزم وصدق في الوفاء بالعزم وصدق في العمل وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدق لأنه مبالغة في الصدق ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه . الصدق الأول : صدق اللسان وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبه عليه والخبر إيمان يتعلق بالماضي أو بالمستقبل

(١) حديث ابن عباس سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق لم أجده بهذا اللفظ .

قوة للمعرفة فيصرف العلم بالعدل في القسمة وإن الأقسام نصبت بازاء للقسوم لهم عدلا وموازنة فإن النظر إلى غير الله لوجود الجهل في النفس وكل ما أحس بشيء يقدر في توحيده يراه من منبع النفس فقصاص التوكل يظهر بظهور النفس وكأله يثبت بضية النفس وليس للأقوياء اعتماد بصحيح توكلهم وإنما شغلهم في تقييب النفس بتقوية مواد القلب فإذا غابت النفس انحسرت مادة الجهل فصح التوكل والمبد غير ناظر إليه وكما تحرك من

وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبس أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كالان: أحدهما الاحتراز عن العاريض فصدقيل في العاريض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب إذ المحذور من الكذب تفهم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتمتضيه للصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار ذلك فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به وتمتضيه الدين فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه لأن الصدق ما أريد له داته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه نعم في مثل هذا الوضع ينبغي أن يعدل إلى العاريض ما وجد إليه سبيلا، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورى بغيره (١) وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد وليس هذا من الكذب في شيء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نعى خيرا» (٢) ورخص في النطق على رفق المصلحة في ثلاثة مواضع من أصلح بين اثنين ومن كان له زوجتان ومن كان في مصالح الحرب، والصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعى فيه إلا الصدق النية وإرادة الخير فهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه ثم التعريض فيه أولى وطريقه ما حكي عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجه خيطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي ليس هو ههنا واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقا وأفهم الظالم أنه ليس في الدار فالكامل الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن العاريض أيضا لإعند الضرورة والكامل الثاني أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله - وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض - فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته فهو كاذب وكقوله - إياك نعبد وإياك نستعين - فإنه إذا اقتص بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ولو طوب يوم القيامة بالصدق في قوله أنا عبد الله لم يجز عن تحميقه فإنه إن كان عبدا لنفسه أو عبدا الدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام يا عبدة الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة» (٣) فسمى كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له وإنما العبد الحق لله عز وجل من أعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا لحقت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبعبته وتقيد بباطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يعتق أيضا عن إرادته لله من حيث هو بل يفتن بما يريد الله له من تقرب أو إبعاد فتفتي إرادته في إرادة الله تعالى وهذا عبتق عن غير الله فصار حرا ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا و صار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه إن حركة تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضى لم يبق فيه متع طلب والتماس واعتراض بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية

النفس بقية يرد على ضميرم سر قوله تعالى - إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء - فيطلب وجود الحق الأعيان والأركان ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون في نفسه ويصير التوكل حينئذ اضطرارا ولا يقصد في توكل مثل هذا التوكل ما يقصد في توكل الضمء في التوكل من وجود الأسباب والوسائط لأنه يرى الأسباب مواتا لاحياة لها إلا بالتوكل وهذا توكل خواص أهل المعرفة. [قولهم في الرضا] قال الحرت الرضا نكون

(١) حديث كان إذا أراد سفرا ورى بغيره متفق عليه من حديث كعب بن مالك (٢) حديث ليس بكاذب من أصلح بين الناس الحديث متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وقد تقدم (٣) حديث تعس عبد الدينار الحديث البخارى من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

لله تعالى فالعبد الحق هو الذي وجوده مولود لآلئسه وهذه درجة الصديقين . وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى وما قبل هذا فلا يتحقق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق في القول . الصدق الثماني : في النية والأرادة ويرجع ذلك إلى الاخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا كبريئا في فضيلة الاخلاص من حديث الثلاثة حين يسئل العالم ما عملت فيها علمت ؟ فقال فعلت كذا وكذا ، فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم (١) فإنه لم يكذب ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته ، وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد في القصد وكذلك قول الله تعالى - والله يشهد إن المنافقين لكاذبون - وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق ولكن كذبهم لامن حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال ، إذ صاحبه يظهر من نفسه أن به قدما يقول فكذب في دلالة بقرينة الحال على ما في قلبه فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الاخلاص فكل صادق فلا بد وأن يكون مختصا . الصدق الثالث : صدق العزم فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه إن رزقي الله لا تصدقت بجميعه أو بشرطه أو إن لقيت عدوا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة فكان الصدق هنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال لقمان شهوة صادقة وبهاال هذا الرئوس شهوته كاذبة مهمالم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة فقد يطاق الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق والصديق هو الذي تصادف عزمته في الخبرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد بل تسخو نفسه أبدا بالعزم الصمم الجازم على الخبرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه : لأن أقدم فحضر عنتي أحب إلي من أن أتأمر على قوم فهم أبو بكر رضي الله عنه كذا ذلك بما ذكره من القتل . ومراتب الصديقين في العزائم تختلف فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولو لكان إذا خلى ورأيه لم يقدم ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل في الصادقين والؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب إليه من حياة أبي بكر الصديق . الصدق الرابع : في الوفاء بالعزم فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لامشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعالى - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - فقد روى عن أنس « أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما صنع قال فشهد أحدا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا أبا عمرو وإلى أين فقال واهل لريح الجنة إني أجد ريحها دون أحد قاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون مابين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر ما عرفت أخي إلا بيناته ، فترلت هذه الآية - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - (٢) . ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب

القلب تحت جريان الحكم وقال ذواتون الرضا سرور القلب عبر القضاء . وقال سفيان عند رابعة اللهم أرض عنا فقالت له أما تستحي أن تطلب رضا من است عنه براض فسألها بعض الحاضرين متى يكون الصدر ارضيا عن الله تعالى فقالت إذا كان سروره بالصيغة كسروره بالنعمة . وقال سهل إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة - فطوبى لهم وحسن مآب - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا » وقال عليه السلام « إن الله

(١) حديث الثلاثة حين سأل العالم ماذا عملت فيها علمت ما عملت فما عملت تقدم (٢) حديث أنس أن عمه أنس بن

ابن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر - (١) وقال فضالة بن عبيد سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته . قال الراوى : فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجل جيد الإيمان إذا لقي العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عائر فقتله فهو فى الدرجة الثانية ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الثالثة ورجل أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الرابعة (٢) » وقال مجاهد رجلان خرجا على ملا من الناس فعود قتالا إن رزقنا الله تعالى مالنا لنصدقن فبخلوا به فزلت - ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين - وقال بعضهم إنما هو شئ نووه فى أنفسهم لم يشكروا به قتل - ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله غلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون - فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث فإن النفس قد تسخو بالزم ثم نكسح عند الوفاء لشدة عليها ولهيجان الشهوة عند التحمك وحصول الأسباب ، ولذلك استثنى عمر رضى الله عنه فقال لأن أقدم فترضب عنقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلا أن تسول لى نفسى عند القتل شيئا لأجده الآن لأنى لا آمن أن يشغل عليها ذلك فتخبر عن عزمها ، أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالزم وقال أبو سعيد الحراز رأيت فى المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لى ما الصدق قلت الوفاء بالعهد فقالا لى صدقت وعرجا لى السماء . الصدق الخامس فى الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به إلا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لأن للرأى هو الذى يقصد ذلك ورب واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدى الله تعالى وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدى شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الأعمال وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار فهذا غير صادق فى عمله وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ولا مراثبا بإمام ولا ينبجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلاية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر وليس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن فاذا ن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت زياء وبفوت بها الاخلاص وإن كانت عن غير قصد فيفوت

النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث فى قتاله بأحد حتى قتل فوجد فى جسده إضع وتمايون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول - رجال صدقوا - الآية الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى فى الكبرى وهو عند البخارى مختصرا إن هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر (١) حديث وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية أبو نعيم فى الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلا (٢) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان الحديث الترمذى وقال حسن .

تعالى بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط وقال الجنييد الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلوب فاذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا وليس الرضا والمجبة كالخوف والرجاء فانها حالان لا يشارقان المبدأ فى الدنيا والآخرة لأنه فى الجنة لا يستغنى عن الرضا والمجبة . وقال ابن عطاء الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد لأنه اختار له الأفضل فبرضى له وهو ترك السخط . وقال أبو تراب ليس ينال الرضا من الله من

بها الصدق ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل سريري خيرا من علانيتي واجعل علانيتي سالمة (١) » وقال يزيد بن الحرث إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور وأنشدوا:

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى فقد عز في الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سرا فما له على سعيه فضل سوى الكد والعنا
فما خالص الدينار في السوق نافق ومغشوشه الردود لا يقتضى الثنا

للدنيا في قلبه مقدار.
وقال السري : خمس
من أخلاق القربين
الرضا عن الله فيما يحب
النفس وتكبره
والحب له بالتعجب
إليه والحياء من الله
والأنس به والوحشة
مما سواه. وقال الفضيل
الراضى لا يتمنى فوق
منزلته شيئا وقال ابن
شعون الرضا بالحق
والرضا له والرضا عنه
فالرضا به مدبر واختارا
والرضا عنه قاما
ومعطيا والرضا له إلهما
وربا . سئل أبو سعيد
هل يجوز أن يكون
العبد راضيا ساخطا قال
نعم يجوز أن يكون
راضيا عن ربه ساخطا
على نفسه وعلى كل قاطع

وقال عطية بن عبد الغافر : إذا واقمت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به اللائكة يقول هذا عبدى حقا . وقال معاوية بن قرة من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالهار ، وقال عبد الواحد بن زيد كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أسهل الناس به وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلانية منه ، وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول إلهى عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة ويكسى ، وقال أبو يعقوب التهرجورى : الصدق موافقة الحق في السر والعلانية فاذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق . الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات وأعزها الصدق في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور فإن هذه الأمور لها مبدأ ينطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته ضمى صاحبه صادقا فيه كما يقال فلان صدق القتال ، ويقال هذا هو الخوف الصادق وهذه هي الشهوة الصادقة وقال الله تعالى - إنا المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا - إلى قوله - أولئك هم الصادقون - وقال تعالى - ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر - إلى قوله - أولئك الذين صدقوا - وسئل أبو ذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له سألتك عن الإيمان فقال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية (٢) » ولنضرب للخوف مثلا فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق أى غير بالغ درجة الحقيقة أما تراه إذا خاف سلطانا أو قاطع طريق في سفره كيف يصف لونونه وترتعد فرسه ويتنعم عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه ويتقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده وقد يزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار كل ذلك خوفا من درك المذود ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان نصية عليه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لم أر مثل النار نام هار بها ولا مثل الجنة نام طالبها (٣) » فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدا ولا غاية لهذه اللقائات حتى ينال تمامها ولكن لكل عبيد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوى فإذا قوى سمى صادقا فيه فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لانهاية لها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام « أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطبق ذلك قال بل أرى فواعده البقيع في ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو به قد سد الأفق يعني جوانب السماء فوقه النبي صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه فأفاق وقد عاد

(١) حديث اللهم اجعل سريري خيرا من علانيتي الحديث تقدم ولم أجده (٢) حديث أبي ذر سألته عن الإيمان فقرأ قوله تعالى - ولكن البر من آمن بالله اليوم الآخر - إلى قوله - أولئك الذين صدقوا - رواه محمد بن نصر للروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجده إسنادا .
(٣) حديث لم أر مثل النار نام هار بها الحديث تقدم .

جبريل لصورته الأولى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما ظننت أن أحدا من خلق الله هكذا قال وكيف لو رأيت إسرافيل إن العرش لعل كاهله وإن رجليه قد مرقتا تحت نجوم الأرض السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوضع (١) ، يعنى كالمصغور الصغير، فانظر ما الذى يشاهد من العظمة والهبة حتى يرجع إلى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم . وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسرى بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالى من خشية الله تعالى (٢) يعنى الكساء الذى يلقى على ظهر البعير وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا يبنوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال ابن عمر رضى الله عنهما لن تبلغ حقيقة الايمان حتى تنظر الناس كلهم حتى في دين الله . وقال مطرف مامن الناس أحد إلا وهو أحقق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الحق أهون من بعض وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير (٣) » فالصادق إذن في جميع هذه المقامات عزيز ثم درجات الصدق لانهايتها وقد يكون للبعد صدق في بعض الأمور دون بعض فان كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا قال سعد بن معاذ ثلاثة أنا فيهن أقوى وفيها سواهن ضعيف ماصليت صلاة منذ أسلمت تحدثت نفسى حتى أفرغ منها ولا شيعت جنازة تحدثت نفسى بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دقتها وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولاً إلا علمت أنه حق فقال ابن السيب ما ظننت أن هذه الحصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام فهذا صدق في هذه الأمور وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة وآتوا الجوائز ولم يلفوا هذا اللبغ فهذه هي درجات الصدق ومعانيه والكلمات للأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لا تعرض إلا لأحاد هذه اللعان نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد لعامة للؤمنين قال الله تعالى - والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون - وصدق الطاعة لأهل العلم والورع وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضا غير محيطة بجميع الأقسام. وقال جعفر الصادق: الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختار عليك غيرك فقال تعالى - هو اجتنابكم - وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إنى إذا أحببت عبدا ابتليت به يلبا لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه فان وجدته صابرا اتخذته وليا وحببها وإن وجدته جزوعا بشكونى إلى خلقى خذلته ولا أبالى فاذن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاق الخلق عليها . ثم كتاب الصدق والاخلاص ، يتلوه كتاب البراقبة والمهاسب والحمد لله .

يقطعه عن الله . وقيل للحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما إن أبا ذر يقول الفقر أحب إلى من العنى والسقم أحب إلى من الصحة قال رحم الله أبا ذر ، أما أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه في غير الحالة التى اختار الله له وقال على رضى الله عنه من جلس على بساط الرضا لم ينله من الله مكروه أبدا ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله في كل حال . وقال يحيى رجع الأمر كله إلى هذين الأصلين فضل منه بك وفضل

- (١) حديث قال لجبريل أحب أن أراك في صورتك التى هي صورتك فقال لا تطبق ذلك الحديث تقدم في كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا الذى ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين (٢) حديث مررت ليلة أسرى بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالى من خشية الله الحديث محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقى في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيدى ضعفه الجمهور وقال البيهقى ورواه حماد بن سلمة عن أبى عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطارده وهذا مرسل (٣) حديث لا يبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير لم أجده أصلا في حديث مرفوع .

﴿ كتاب المراقبة والمحاسبة ﴾

(وهو الكتاب الثامن من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارحة بما اجتاحت المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست الحسب على خواطر عباده إذا اختلجت الذي لا يهرب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض تهركت أو سكنت المحاسب على التقير والتقطير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت التفضل بقبول طاعات العباد وإن سفرت المتطول بالفنو عن معاصيهم وإن كثرت وإنما محاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنتظر فيما قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشتيت في صعيد القيامة وهلكت وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لحابت وخسرت فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت واستغرقت رحمة الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت فينفحات فضله آسمت القلوب للإيمان وانشرحت ويمعن توفيقه تقيدت الجوارح بالمبادات وتآذيت وبمحسن هدايته أنجحت عن القلوب ظلمات الجهل وانقضت وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت وبلطيف عنايته ترجع كفة الحسنات إذا قتلت وبقيسه تيسرت من الطاعات ما تيسرت فنه العطاء والجزاء والابعاد والادناء والاسعاد والاشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء .

منك له قرضي بما
عمل وتخلص فيما تعمل
وقال بعضهم الراضى
من لم يندم على قامت
من الدنيا ولم يتأسف
عليها . وقيل ليحيى
ابن معاذ حتى يبلغ العبد
إلى مقام الرضا قال إذا
أقام نفسه على أربعة
أصول فيما يعامل به يقول
إن أعطيتى قبلت
وإن منعتى رضيت
وإن تركتى عبت
وإن دعوتى أجيبت
وقال الشبلى رحمه الله
بين بدى الجنيد لاحول
ولا قوة إلا بالله . قال
الجنيد قولك ذائق
صدر فقال صدقت قال
فضيق الصدر ترك
الرضا بالقضاء وهذا
إنما قاله الجنيد رحمه

[أما بعد] قد قال الله تعالى - ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أثمتنا بها وكفى بنا حاسبين - وقال تعالى - ووضع الكتاب لا يتادى صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا معاملا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا - وقال تعالى - يوم يعثمهم الله جميعا فلينبئهم بما عملوا أحصاء الله ونسوه والله على كل شيء شهيد - وقال تعالى - يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - وقال تعالى - ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون - وقال تعالى - يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه - وقال تعالى - واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه - فصرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد وأنهم سيناقتشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الدر من الحطرات واللحظات وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأتقاس والحركات ومحاسبتها في الحطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفي القيامة حاسبه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه وما به ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الحزى والقت سيباته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمراقبة فقال عز من قائل - يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورا بظوا - فرا بظوا أنفسهم أولا بالمشاركة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاقبة فكانت لهم في المراقبة مقامات ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ولكن كل حساب فبعد مشاركة ومراقبة ويتبعه عند الحسبان المعاقبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق .

(المقام الأول من المراقبة والمحاسبة)

اعلم أن مطاب للتعاملين في التجارات المشتركة في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكان التاجر

يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما
مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى - قد أفلح من زكاها وقد خاب من
دساها - وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعلمها ويستخرها
فيما يزكيا كما يستعين التاجر بشريكه وغلومه الذي يتجر في ماله وكما أن الشريك يصير خصما منازعا
يحاذيه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا ويقا به أويما تبرا بما فكذلك
العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا فيوظف عليها الوظائف ويحصرط عليها الشروط ويرشدها إلى
طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يخل عن مراقبتها لحظة فانه لو أهملها لم يربحها
إلا الحياة وتضييع رأس المال كالعبء الحائن إذا خلا له الجو واتهمد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي أن
يحاسبها ويطلبها بالوفاء بما شرط عليها فان هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى
مع الأنبياء والشهداء فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها
محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت قصيرها إلى التصرم والاقضاء ولا خير في خير لا يدوم بل
شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقى الفرح باقيا وقضاءه دائما وقضى
الشر والحير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الحير ولذلك قيل :

أشد النعم عندى في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يخل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها
وسكناتها وخطراتها وحظواتها فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نقيسة لا عوض لها يمكن أن
يشتري بها كثر من السكوز لا يتناهى نعيمة أبد الآباد فاقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى
ما يحب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل ، فاذا أصبح العبد وفرغ من فريضة
الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك
العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس مالى بضاعة إلا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال
ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أهلهنى الله فيه وأنسى أجلي وأنعم على
به ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا لحاسبى أنك قد توفيت
ثم قد رددت فأياك ثم إياك أن تضيق هذا اليوم فان كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها واعلمى بانفس
أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد في الخبر «أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع
وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التى عملها فى تلك الساعة
فيقاله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التى هى وسيلته عند الملك الجبار الملووزع
على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الاحساس بألم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة
ففرح تنقها ويغشاها ظلامها وهى الساعة التى عصى الله فيها فيقاله من الهول والفرع الموقم على أهل
الجنة لتفحص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه (١) وهى الساعة
التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشئ من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غيب ذلك ما ينال
القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاتته وناهيك به حسرة وغنا
وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه اجهدى اليوم فى أن تعمري خزانتك ولا تندعها
فارغة عن كنوزك التى هى أسباب ملكك ولا تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من

(١) حديث ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها
مملوءة من حسناته الحديث بطوله لم أعده أصلا .

الله تفيها منه على
أصل الرضا وذلك أن
الرضا يحصل لا شرع
القلب وانفساحه
واشراح القلب من
نور اليقين قال الله تعالى
- أفن شرح الله صدره
للإسلام فهو على نور
من ربه - فاذا تمكن
النور من الباطن اتسع
الصدر وانفتحت عين
البصيرة وعان حسن
تدبير الله تعالى فيتنوع
السخط والضجر لأن
اتساع الصدر يتضمن
حلاوة الحب وفعل
المحبوب بوقع الرضا
عن المحب الصادق لأن
المحب يرى أن الفعل
من المحبوب مراده
واختياره فيفى في لذة
رؤية اختيار المحبوب

درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم العين وحسرتك لا يطاق وإن كان دون ألم النار وقد قال بعضهم هب أن السوء قد عفى عنه أليس قد طاعتوا به المحسنين أشار به إلى العين والحسرة وقال الله تعالى - يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن - فهذه وصيته لنفسه في أوقاته ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها إليها فاتها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تم أعمال هذه التجارة وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وإنما تعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بحرم أو إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم يعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ثم إذا صرفها عن هذا لم تنفع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله ورسوله ومطالعة كتب الحكمة للانعاط والاستفادة وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضولها اللسان والبطن أما اللسان فلائنه منطلق بالطبع ولا مؤونة عليه في الحركة وجنائه عظيمة بالنسبة والكذب والتميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والأطعمة والامتن والدعاء على الأعداء والمهارة في الكلام وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكور والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراتة فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر فنطق المؤمن ذكر ونظرة عبرة وصمته فكرة وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد - وأما البطن فيكافه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات وبعثه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة وبشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها وهكذا بشرط عليها في جميع الأعضاء واستقصاء ذلك بطول ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها وهذه شروط يفتر إليها في كل يوم ولكن إذا تعود الانسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارة فيها وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارة فيها ببق ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد والله عليه في ذلك حق ويكر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والالتزام للحق في مجاريها وبحذرهما مغبة الإهمال وبمعتها كما يوعظ العبد الآبق للتمرد فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستصبة عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها - وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين - فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام المراتبة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى - واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروا وهذا المستعمل وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة وزيادة ونقصان فانه يسمى محاسبة فالنظر فيما بين يدي البصير في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيئنا - وقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا - وقال تعالى

عن اختيار نفسه كما قيل :
وكل ما يفعل المحبوب محبوب .

[الباب الحادى
والستون في ذكر
الأحوال وشرحها]
حدثنا شيخنا شيخ
الاسلام أبو النجيب
السهروزي رحمه الله
قال أنا أبو طالب الزيني
قال أخبرتنا كريمة
السرورية قالت أنا
أبو الهيثم الكشميري
قال أنا أبو عبد الله
الفسري قال أنا
أبو عبد الله البخاري
قال ثنا سليمان بن حرب
قال حدثنا شعبة عن
قتادة عن أنس بن
مالك رضى الله عنه
عن النبي صلى الله عليه
وسلم قال ثلاث من

- ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه - ذكر ذلك تحذيرا وتنبها للاحتراز منه في المستقبل . وروى عبادة بن الصامت أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويصطه « إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فأمضه وإن كان غيا فانتبه عنه ^(١) » . وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة . وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة . وروى شداد بن أوس عن صلى الله عليه وسلم أنه قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ^(٢) » دان نفسه أي حاسبها ويوم الدين يوم الحساب وقوله - أننا لمدينون - أي لحاسبون . وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيشوا للعرض الأكبر ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة . وقال لكعب كيف تجدها في كتاب الله قال ويل للذيان الأرض من ديان السماء فعلاء بالذرة وقال إلامن حاسب نفسه فقال كعب يأمر المؤمنين أن يأتوا إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف إلامن حاسب نفسه وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للـ مستقبل إذا قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها . [للرابطة الثانية الرقابة] إذا أوصى الانسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا الرقابة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكائنة فانها إن تركت طفت وفسدت . ولندكر فضيلة الرقابة ثم درجاتها . أما الفضيلة : فقد سأل جبريل عليه السلام عن الاحسان فقال « أن تعبد الله كأنك تراه ^(٣) » وقال عليه السلام « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ^(٤) » وقد قال تعالى - أفن هو قائم على كل نفس بما كسبت - وقال تعالى - ألم يعلم بأن الله يرى - وقال الله تعالى - إن الله كان عليكم رقيبا - وقال تعالى - والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قانعون - . وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدي رقيبا على فلا أبالي بغيره . وقال أبو عثمان المغربي : أفضل ما يلزم الانسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والرقابة وسياسة عمله بالعلم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات . وقال الجريري : أمرنا هذا مبني على أصلين أن نلزم نفسك الرقابة لله عز وجل ويكون العلم على ظاهره كقائما . وقال أبو عثمان : قال لي أبو حفص إذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ولا يفرنك اجتماعهم عليك فانهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك . وحكى أنه كان لبعض الشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه كيف تكرم هذا وهو شاب وعن شيوخ فدعا بئدة طيور وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا وقال اذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ورجع الشاب والطائر حي في يده فقال مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك فقال لم أجد موضعا لا يراني فيه أحد إذ الله مطلع على في كل مكان فاستحسنوا منه هذه الرقابة وقالوا حق لك أن تكرم .

كن فيه وجد حلاوة
الايمان : من كان الله
ورسوله أحب إليه مما
سواه ومن أحب عبدا
لا يحبه إلا الله ومن يكره
أن يعود في الكفر بعد
إذ أنهذ الله منه كما
يكره أن يلتقى في النار .
وأخبرنا شيخنا
أبو زرعة طاهربن
أبي الفضل قال أنا
أبو بكر بن خائف قال
أنا أبو عبد الرحمن قال
أنا أبو عمر بن حيوة
قال حدثني أبو عبيد بن
مؤمل عن أبيه قال
حدثني بشر بن محمد
قال حدثنا عبد الملك
ابن وهب عن ابراهيم
ابن أبي عبيدة عن
العرباض بن سارية
قال « كان رسول الله

(١) حديث عبادة بن الصامت إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته الحديث تقدم (٢) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت الحديث تقدم (٣) حديث سأل جبريل عن الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم (٤) حديث اعبد الله كأنك تراه الحديث تقدم .

وحكى أن زليخا لما خات يوسف عليه السلام قامت نطقت وجه ضم كان لها فقال يوسف مالك أمتحيين من مراقبة جماد ولا أمتحي من مراقبة الملك الجبار . وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له ألا نتحي فقال ممن أمتحي ؟ وما يرانا إلا الكواكب قالت فأين مكوكها . وقال رجل للجنيديهم أمتحين على غض البصر فقال بطلك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيدي : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل ، وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له ومن يسكنها ؟ قال يقول الله عز وجل إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمى فراقبوني والذين اثنت أصلاهم من خشيق وعزتي وجلالي إني لأم بسذاب أهل الأرض فاذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب . وسئل الهاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب تعالى . وقال للرتشي : المراقبة مراعاة السر بلا حظة الغيب مع كل لحظة ولقطة . ويروى أن الله تعالى قال للملائكة أتم موكلون بالظاهروا بالرقيب على الباطن . وقال محمد بن علي الترمذي اجعل مراقبتك لمن لا تقيب عن نظره إليك واجعل شكرك لمن لا تنتطع نعمه عنك واجعل طاعتك لمن لا تستخني عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه . وقال سهل : لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان . وسئل بعضهم عن قوله تعالى - رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه - فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لماده . وسئل ذوالنون بم ينال العبد الجنة ؟ فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يفتل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه ينيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غداً للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي عظمي فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت . وقال سفيان الثوري : عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء وعليك بالخذر ممن يملك العقوبة . وقال فرقد السنجي : إن المتأفق ينظر فاذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبدالله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى مكة فرسنا في بعض الطريق فأنحدر عليه راع من الجبل فقال له يراعى بعني شاة من هذه الغنم فقال إني مملوك فقال قل لسيديك أكلها الذئب قال فأين الله قال فبكي عمر رضى الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تمتك في الآخرة .

(بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها)

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعى جانبه ويعني بهذه المراقبة حالة القلب يشمرها نوع من المعرفة وشمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه وأما المعرفة التي تشمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك فهذه المعرفة إذا صارت يقينا

صلى الله عليه وسلم
يدعو اللهم اجعل
حك أحب إلى من
نفسى وصمى وبصرى
وأهلى ومالى ومن
الماء الباردة فكان
رسول الله صلى الله
عليه وسلم طلب
خالص الحب وخالص
الحب هو أن يحب الله
تعالى بكليته وذلك
أن العبد قد يكون في
حال قائماً بشروط
حاله بحكم العلم والجملة
تفاضاه بصد العلم مثل
أن يكون راضياً
والجملة قد تصكره
ويكون النظر إلى
الالتقياد بالعلم لا إلى
الاستعصاء بالجملة
قد يجب الله تعالى
ورسوله بحكم الإيمان

أعنى أنها خلت على الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فربما علم لاشك فيه لا يظن على القلب كالعلم بالموت فاذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه والوقوف بهذه العروة هم للقرىون ، وهم يتسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليقين ، فراقبتهم على درجتين . الدرجة الأولى : مراقبة القرين من الصديقين ، وهي مراقبة التعظيم والاجلال ، وهو أن يصير القلب مستخرقا ملاحظا ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا وهذه مراقبة لانطول النظر في تفصيل أعمالها فانها مقصورة على القلب . أما الجوارح فانها تتعطل عن الالتفات إلى اللباحات فضلا عن المخطورات ، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمتعممة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد ، بل يسد الرعية من ملك كلية الراعى والقلب هو الراعى فاذا صار مستخرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذى صار همه ما واحدا فكفاه الله سائر الهوموم ، ومن نال هذه الدرجة قد ينفذ عن الخلق حتى لا يصير من يحضر عنده وهو فاع عينيه ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا يسمع به وقد يمر على ابنه مثلا فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك ، فقال لمن طابه إذا مرت بى فركنى ولا تستبعد هذا فانك تجد نظير هذا فى القلوب المظمنة للملوك الأرض حتى إن خدم للملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة استراقهم بهم بل قد يشتغل القلب بهم حقير من مهجات الدنيا فيغوص الرجل فى الفكر فيه ويمشى فرما يجاوز للوضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له . وقد قيل لبيد الواحد بن زيد هل تعرف فى زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق ، فقال ما أعرف إلا رجلا سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريما حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد من أين جئت يا عبته ، فقال من موضع كذا وكان طريقه على السوق فقال من أقيت فى الطريق فقال ما رأيت أحدا . ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة فدفعها فمقطت على وجهها فقيل له لم فعلت هذا ؟ فقال ما ظننتها إلا جدارا . وحكى عن بعضهم أنه قال مررت بجماعة يرامون وواحد جالس بيدها منهم فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال ذكر الله تعالى أشهى قلت أنت وحدك فقال معى ربى وملسكأى قلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله له قلت أين الطريق فأشار نحو السماء وقام ومشى ، وقال أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا به فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فانها لا تتحرك إلا بما هو فيه . ودخل الشبلى على أبى الحسين النورى وهو معتكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شئ فقال له من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ، فقال من سنور كانت لنا فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الحجر لا تتحرك لها شمرة . وقال أبو عبد الله بن خفيف خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبى على الروذبارى فقال لى عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد إن فى صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال المراقبة ، فلو نظرت إليهما انظرة لملك تستفيد منهما فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقة وليس على كتنى شئ فدخلت المسجد فاذا بشخصين قاعدين مستقبلى القبلة فسلمت عليهما فما أجابانى فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب . قلت : نشدتكما بالله إلا ردتما على السلام فرجع الشاب رأسه من مرقته فنظر إلى وقال يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير . يا ابن خفيف : ما أقل شغلك حتى تنفرغ إلى لقائنا . قال فأخذ بكلىتى ثم طأطأ رأسه فى المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والمصر

ويحب الأهل والولد
بحكم الطبع . وللمحبة
وجوه وبواعث الهبة
فى الانسان متنوعة
لنفسا محبة الروح
ومحبة القلب ومحبة
النفس ومحبة العقل
فقول رسول الله
صلى الله عليه وسلم
وقد ذكركم الأهل
والنساء والماء البارد
معناه استئصال عروق
الهبة بمحبة الله تعالى
حتى يكون حب الله
تعالى غالبا فيحب الله
تعالى بقلبه وروحه
وكليته حتى يكون
حب الله تعالى أغلب
فى الطبع أيضا والجليلة
من حب الماء البارد
وهذا يكون حبا
صافيا لخواص تنضم

فذهب جوعى وعطشى وعنائى . فلما كان وقت العصر قلت عظمى فرفع رأسه إلى وقال : يا ابن خفيف نحن أصحاب المصاب ليس لنا لسان العظة فقيت عندها ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكل شيئا ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى أحلفهما أن يعطاني لعل أن أتفع بفظهما فرفع الشاب رأسه وقال لى يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبتة على قلبك يعظك بلسان فضله ولا يعظك بلسان قوله والسلام تم عنا فهذه درجة للراقبين الذين غلب على قلوبهم الاجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لقبير ذلك . الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليقين وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرم وباطنهم على قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متمسة للتلقت إلى الأحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة . نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يعجمون إلا بعد التثبت فيه ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به فى القيامة فاتهم يرون الله فى الدنيا مطالعا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فانك فى خلوتك قد تعاطى أعمالا فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتجسجس جلوبك وتراعى أحوالك لاعتن إجلال وتعظيم بل عن حياء فان مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستعرك فانها تهيب الحياء منك وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستعرك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به لاحياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله تعالى ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته ، وله فيها نظران نظر قبل العمل ونظر فى العمل . أما قبل العمل فلينظر أن مآثره وتعمرك بفضله خاطره أهو لله خاصة أهو فى هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فان كان لله تعالى أمضاه ، وإن كان لعير الله استجيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرفتها سوء فعلها وسعيها فى فضيحها وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بصمته وهذا التوقف فى بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لا يحصى لأحد عنه فان فى الخبر «إنه ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الديوان الأول لم . والثانى كيف . والثالث لمن^(١)» ومعنى لم أى لم فعلت هذا أ كان عليك أن تظله لمولك أوملت إليه بشهوتك وهو لك فان سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى فقيل له كيف فعلت هذا فان لله فى كل عمل شرطا وحكما لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بلم فيقال له كيف فعلت أبلم محقق أم بجهل وظن فان سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو اللطالبة بالاخلاص فيقال له لمن عملت ألوجه الله خالصا وفاق ببولك لإله إلا الله فيكون أجرك على الله أولمراة خلق مثلك فخذ أجرك منه أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وقيناك نصيبك من الدنيا أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وإن عملت لعيرى فقد استوجبت مقى وعقابى إذ كنت عبدا لى تأكل رزقى وترفه بنعمتى ثم تعمل لعيرى أما سمعتنى أقول - إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - إن الذين تمبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه - ويحك أما سمعتنى أقول - ألله الدين الحاصل - فاذا عرف العبد أنه بصد هذه اللطالبات والتويخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد لسؤال جوابا وليسكن الجواب صوابا فلا يبدى ولا يعيد إلا بعد التثبت

(١) حديث ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الأول لم . والثانى كيف . والثالث لمن . لم أنف له على أصل .

به وبنوره نار الطبع والجليلة وهذا يكون حب اللات عن مشاهدة بكوف الروح وخالوصه إلى مواطن القرب . قال الواسطى فى قوله تعالى - يحبهم ويحبونه - كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته فالهاء راجعة إلى الذات دون النعت والصفات . وقال بعضهم الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة فاذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة فاذا نال الحب حبان حب عام وحب خاص فالحب العام مفسر بامثال الأمر وربما كان حبا من معدن العلم بالألاء

ولا يحرك جفنا ولا أتملة إلا بعد التأمل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لما ذاب الرجل ليستل عن كحل عينيه وعن فته الطين بأصبعيه وعن لسه ثوب أخيه (١) وقال الحسن كان أحدهم إذا أراد أن تصدق بصدقة نظر وثبت فان كان لله أمضاه . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عندهم فان كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان « اتق الله عند همك إذا هممت (٢) » وقال محمد بن علي إن المؤمن وقاف متأن يقف عند هم ليس كعاطب ليل فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العالم اللتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكابد الشيطان فحتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يعز بينه وبين ما يحبه الله وبرضاه في نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسل في هذه المراقبة بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولا تظن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يندر هبات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لأنه يعلم آفات النفوس ومكابد الشيطان ومواقع الضروريات في ذلك والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فلا يزال الجاهل في نعب والشيطان منه في فرح وهجامة فتعود بالله من الجهل والفتنة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران لحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالقل وسعيه بالجراحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لموى النفس فيتقيه ويحذر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به فان الخطرة الأولى في الباطن إذا لم تدفع أورثت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والتصد يورث الفعل والفعل يورث البوار والقت فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبه الأول وهو الخاطر فان جميع ما وراءه يقعه وهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فينضرك في ذلك بنور العلم ويستفيد بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فان هجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضيء بنور علماء الدين وليفر من العلماء الضالين القبلين على الدنيا فرار من الشيطان بل أشد قد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لا تسأل عنى طالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي أولئك قطع الطريق على عبادي ، فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشر والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فان مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضا ومقبتها وهى شهوات الدنيا فلتكن همه المرید أولا في أحكام العلم أوفى طلب عالم معرض عن الدنيا أوضيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات (٣) » جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقا لمن ليس له عقل وواع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات ولذلك قال عليه السلام « من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا (٤) » فما قدر العقل الضعيف الذي سعد الأدمى به حتى يعد إلى محوه ويحتمه بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأعصار فان الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واعتزلوا

والنعماء وهذا الحب مخرجه من الصفات وقد ذكر جمع من المشايخ الحب في المقامات فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذي يكون لكسب العبد فيه مدخل . وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح وهو الحب الذي فيه السكرات وهو الاصطناع من الله الكريم لعبده واصطفاؤه إياه وهذا الحب يصكون من الأحوال لأنه محض موهبة ليس للكسب مدخل وهو مفهوم من قول النبي صلى الله عليه وسلم « أحب إلى من الماء البارد لأنه

(١) حديث قال لمعاذ إن الرجل ليستل عن كحل عينيه الحديث تقدم في التي قبله (٢) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن اتق الله عند همك إذا هممت أحمد والحاكم وصحه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم (٣) حديث إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث مهران بن حصين وفيه حفص بن عمر العدني صنفه الجمهور (٤) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا تقدم ولم أجده .

بالوسط بين الخلق في الخصومات النائرة في اتباع السموات وقالوا هذا هو الفقه وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به الإدفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه وفي الخبر «أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المارح وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه التثبت» (١) «ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمرو وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعاً لهوامة معجبا برأيه وكان بمن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال «فاذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعملك بخاصة نفسك» (٢) «وكل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى - ولا تقف ما ليس لك به علم - وقوله عليه السلام «إياكم والظن والظن فان الظن أ كذب الحديث» (٣) «وأراد به ظناً بغير دليل كما يستق بعض المومنين قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه واصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق رضى الله تعالى عنه اللهم أنى الحق حقا وارزقني اتباعه وأرنى الباطل باطلا وارزقني اجتنابه ولا تجعله متشابها على فاتبع الهوى . وقال عيسى عليه السلام «الأمور ثلاثة: أمر استبان رعهه فاتبعه وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عاله» (٤) «وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم» (٥) «فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتننا على عبده - وكان فضل الله عليك عظيماً - وأراد به العلم وقال تعالى - فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون - وقال تعالى - إن علينا للهدى - وقال - ثم إن علينا بيانه - وقال - وطى الله قصد السبيل - وقال على كرم الله وجهه: الهوى شريك العنى ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طاردهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفي الصدق السلامة رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصديق من صدق غيبه ولا يعدمك من حبيب سوء ظن نعم الخلق التكرم والحياء سبب إلى كل جميل وأوثق العرالتقوى وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثوالوارزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فان لم تأته أذاك وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك واستدل على ما لم يكن بما كان فانما الأمور أشباه والرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوء فوت ما لم يكن ليدركه لما نالك من دنياك فلا تسكترن به فرحاً وما فاتك منها فلا تقبه نفسك أسفاً وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وسفلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، فاذا نظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة أهى لله أم للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرى بشيء من عمله وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخرة والآخرة أثر الآخرة على الدنيا» (٦) «وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحواولكن

(١) حديث أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المارح وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه التثبت لم أجده (٢) حديث فاذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً الحديث تقدم (٣) حديث إياكم والظن الحديث تقدم (٤) حديث قال عيسى الأمور ثلاثة الحديث الطبراني من حديث ابن عباس باسناد ضيف (٥) حديث اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم لم أجده (٦) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

كلام عن وجدان روح
تلتذ بحب الذات
وهذا الحب روح
والحب الذى يظهر عن
مطالعة الصفات ويطمع
من مطالع الإيمان
قال هذا الروح ولما
صحت محبتهم هذه أخبر
الله تعالى عنهم بقوله -
أذلة على المؤمنين - لأن
الحب يذل لهجوبه
والحبيب محبوبه
وينشد:
لعين تغدى ألف عين
وتتقى
ويكرم ألف للحبيب
المكرم
وهذا الحب الخالص
هو أصل الأحوال
السنية وموجبها وهو
في الأحوال كالتوبة
في اللقائات فمن صحت

لا يئنه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(١). النظر الثاني للمراقبة عند الشروع في العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه وهذا ملازم له في جميع أحواله فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب فإن كان قاعدا مثلا فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ «خير المجالس ما مستقبل به القبلة»^(٢) ولا يجلس متربعا إذ لا يجالس للولك كذلك وملك للولك مطلع عليه قال إبراهيم بن آدم رحمه الله جلست مرة متربعا فسمعت هاتفا يقول هكذا يجالس للولك فلم أجلس بعد ذلك متربعا وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التي ذكرناها في مواضعها فكل ذلك داخل في الرقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فرعاته لآدابها وفاء بالمراقبة فاذن لا يخلو الصبد إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح فراقبته في الطاعة بالاخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات وإن كان في معصية فراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير وإن كان في مباح فراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود للنعم في التمتع والشكر عليها ولا يخلو الصبد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها ونعمة لا بد له من الشكر عليها وكل ذلك من الرقبة بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرة أو محذور يلزمه تركه أو نذبة حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عبادة الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام الرقبة - ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه - فينبغي أن يتفقد الصبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتبس أفضل الأعمال ليستعمل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مضبون والأرباح تتال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دينه لآخرته كما قال تعالى - ولاتنس نصيبك من الدنيا - وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث ساعة مضت لا تنب فيها على الصبد كيفما اقتضت في مشقة أو رفاهية وساعة مستقبلية لم تأت بعد لا يدري الصبد أيبس إليها أم لا ولا يدري ما يقضى الله فيها وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتحصر على فوات هذه الساعة وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى ولا يطول أمه خمسين سنة فيطول عليه العزم على الرقبة فيها بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فقله آخر أنفاسه وهو لا يدري وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدرك الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام «لا يكون المؤمن ظاعنا إلا في ثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لغة في غير محرم»^(٣) وما روى عنه أيضا في معناه «وطى العاقل أن تكون له أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يخلو فيها للمعظم والشرب»^(٤)

نوبته على الكمال تحقق بسائر اللقائات من الزهد والرضا والتوكل على ما شرعناه أولا ومن صحت محبته هذه تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والحو وغير ذلك والتوبة لهذا الحب أيضا بمثابة الجمان لأنها مشتملة على الحب العام الذي هو لهذا الحب كالجسد ومن أخذ في طريق المحبوبين وهو طريق خاص من طريق الهبة يتكامل فيه ويجمع له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذي تشتمل عليه التوبة

(١) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه تقدم (٢) حديث خير المجالس ما مستقبل به القبلة الحاكم من حديث ابن عباس وقد تقدم (٣) حديث أبي ذر لا يكون للمؤمن ظاعنا إلا في ثلاث تزود لمعاد الحديث أحمد وابن حبان والحاكم وصححه أنه صلى الله عليه وسلم قال إنه في صحف موسى وقد تقدم (٤) حديث وطى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجي فيها ربه الحديث وهي بقية حديث أبي ذر الذي قبله .

فإن في هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات ثم هذه الساعات التي هو مشغول الجوارح بالطعام والشرب لا ينبغي أن يغفل عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام : قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون في عجائب صنعه وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه كما فضلنا بعضه في كتاب الشكر وهذا مقام ذوى الأبواب وقسم ينظرون فيه بعين القتل والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته وهذا مقام الزاهدين وقوم يرون في الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تفتح عليهم بسببه وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المهيين إذ ألهم إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن تمحلت له أبواب المكوت وذلك عزيز جداً . وقسم رابع ينظرون إليه بين الرغبة والحرص فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جلته ويذمون منه ما لا يوافق هوائهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطيبخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطيبخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » (١) فهذه الرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهج لمن أحكم الأصول .

(الرابطة الثالثة : محاسبة النفس بعد العمل . ولذا ذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها)

أما الفضيلة : فقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لعدو هذه إشارة إلى المحاسبة على ماضي من الأعمال ، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا ، وفي الخبر « أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصني فقال أمستوص أنت فقال نعم قال إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان غياً فائته عنه » وفي الخبر وينبغي للعامل أن يكون له أربع ساعات يحاسب فيها نفسه . وقال تعالى - وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون - والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إنى لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة » (٢) وقال الله تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم وعن ميمون بن مهران أنه قال لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل ، وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبابكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ما أحد من الناس أحب إلي من عمر ثم قال لها كيف قلت فأعادت عليه ما قال فقال لأحد أعز علي من عمر فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكعبة فتدبرها وأبدلها بكعبة غيرها « وحدث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى فداوم رجاءه لا يعرض بمخافته » (٣)

(١) حديث لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر مسلم من حديث (أبي هريرة) (٢) حديث (أبي هريرة) (٣) حديث أبي طلحة حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حديثه صدقة تقدم غير مرة .

النصح وعند ذلك لا يتقلب في أطوار المقامات لأن التقلب في أطوار المقامات والترقي من شيء منها إلى شيء طريق المهيين ومن أخذ في طريق المجاهدة من قوله تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - ومن تسوله تعالى - ويهدي إليه من ينيب - أثبت كون الانابة سبباً للهداية في حق المحب وفي حق المحبوب صرح بالاجتناب غير معطى بالكسب فقال الله تعالى - يجتبي إليه من يشاء - فمن أخذ في طريق المحبوبين يطوى بساط أطوار المقامات ويندرج فيه

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب قبيل له يا أبو يوسف قد كان في نيك وغلما نك ما يكفونك هذا فقال أردت أن أجرب نفسي هل تنكره . وقال الحسن : المؤمن قوام على نفسه محاسبها ثم انما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ثم فسر المحاسبة فقال إن المؤمن يعجزه الشيء يصعبه فيقول والله إنك لتعجبنى وإنك من حاجق ولكن هيات حيل بيني وبينك وهذا حساب قبل العمل ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا والله لا أعثر بهذا والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله . وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطاً فاسمته يقول ويبي وبينه جدار وهو في الحائط عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يخ بخ والله لتتقين الله أو لعذبك . وقال الحسن في قوله تعالى - ولا أقسم بالنفس اللوامة - قال لا يلقي المؤمن إلا عاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي ماذا أردت بأكلتي ماذا أردت بشربي والفاجر يعصى قداماً لا ياتب نفسه . وقال مالك ابن دينار رحمه الله تعالى رحم الله عبداً قال لنفسه ألسنت صاحبة كذا ألسنت صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم أزمها كتاب الله تعالى فكان له قائداً وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه ، وقال ميمون بن مهران : التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان فاشم ومن شريك شحيح ، وقال إبراهيم التيمي : مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعانق سلاسلها وأغلها قلت لنفسى يا نفس أى شيء تريدين فقالت أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً قلت فأنت في الأمنية فاعملى ، وقال مالك بن دينار سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر في مكياله رحم الله امرأ نظر في ميزانه فما زال يقول حق أبكاني ، وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال كنت أصعبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجيئ إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ما حملك على ما صنعت يوم كذا .

(بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل)

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فيبذى أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الحيرة لهم في فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبدأً بالأبداً هذه المسألة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل ، فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربه النواقل والفضائل وخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملته نفسه بالأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولاً فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنواقل وإن ارتكب معصية اشتغل بقوتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحجة والقبول فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغب في شيء منها فيبغى أن يتقى غيبة النفس ومكرها فانها خداعة ملبسة مكاراة فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره وليتكفل بنفسه

صفوها وخالصها بأنم وصفها والمقامات لا تقيده ولا تحبسه وهو يقيدها ويحبسها بترقيه منها وانزاعه صفوها وخالصها لأنه حيث أشرفت عليه أنوار الحب الخاص خلع ملابس صفات النفس ونسوتها والمقامات كلها مصفية للموت والصفات الدنسانية فالزهد يصفه عن الرغبة والتوكل يصفه عن قلة الاعتماد المتولد عن جهل النفس والرضا يصفه عن ضربان عرق المنازعة والمنازعة لبقاء جمود في النفس ما أشرق عليها فتموس المحبة الخاصة فيبغى ظلمتها

من الحساب ما يستولاه غيره في صعيد القيامة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته أنه لم سكت وعن سكونه لم سكن ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر أدى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبت عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي القدي على شريكه على قلبه وفي جريمة حساب ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون . أما بعضها بالقرامة والضمان وبعضها برد عينه وبعضها بالقوبة لها على ذلك ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتميز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة كما نقل عن توبة ابن الصمة وكان بالرقه وكان محاسبا لنفسه فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هي وأحد عشرون ألف يوم وخمسة يوم فصرخ وقال : يا وليق ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خر مغشيا عليه فإذا هوميت فسمعوا قائلا يقول يالك ركضة إلى الفردوس الأمل فكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ، ولو رمى المبد بكل معصية حجرا في داره لامتلت داره في مدة يسيرة قرية من عمره ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والمكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه.

(الرابطة الرابعة في معاينة النفس على تفصيها)

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها بل ينبغي أن يعاقبها فإذا أكل لقمة شبة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة فقد روى عن منصور بن إبراهيم أن رجلا من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على غذاها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبت . وروى أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومته فكث كذلك زمانا طويلا فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فاقتن بها وهم بها فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بساقه فقال ما هذا الذي أريد أن أصنع فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فقدم فلما أراد أن يجير رجله إلى الصومعة قال هيات هيات رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود معي في صومتي لا يكون والله ذلك أبد فتركتها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت فشكر الله له ذلك وأزل في بعض كتبه ذكره ويحكى عن الجنيد قال سمعت ابن الكربي يقول أصابتني ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت في نفسي تأخرا وتقصيرا فحدثني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء وأدخل الحمام ولا أعنى على نفسي فقلت واهيأه أنا أطامل الله في طول عمري فيجب له على حق فلا أجدي المسارعة وأجد الوقوف والتأخر آليت أن لا أغتسل إلا في مرتعتي هذه وآليت أن لا أزعمها ولا أعصرها ولا أجنفها في الشمس . ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازبهما فتكشفت جارية فنظر إليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال إنك للحاظلة إلى ما يضرك ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينقص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبي سنان مر بفرقة فقال متى بنيت هذه ثم أقبل على نفسه فقال تسأين عما لا ينجيك لأعاقبك بصوم سنة فصامها . وقال مالك بن ضيفم جاء رباح القيسي يسأل عن

وجودها فمن تحقق
بالحب الخاص لانت
نفسه وذهب جمودها
فإذا ينزع الزهد منه
من الرغبة ورغبة
الحب أحرقت رغبته
وماذا يصفي منه التوكل
ومطالعة الوكيل حشو
بصيرته وماذا يسكن
فيه الرضا من عروق
المنازعة ممن لم تسلم
كليتة . قال الروذباري
مالم تخرج من كليتك
لا تدخل في حد الهبة
وقال أبو يزيد من
قتلته محبته فدينه
رؤيته ومن قتلته عشقه
فدينته منادته ، أخبرنا
بذلك أبو زرعة عن
ابن خلف عن أبي
عبد الرحمن قال سمعت
أحمد بن علي بن جعفر

أبي بدمصر قلنا إنه نائم فقال أنوم هذه الساعة هذا وقت نوم؟ ثم ولى منصرفاً فأتبعناه رسولاً وقلنا له ألا نوقفه لك جاء الرسول وقال هو أشغل من أن يفهم عن شيئاً أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول أقلت وقت نوم هذه الساعة أنسكان هذا عليك بنام الرجل متى شاء وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم تكلمين بما لا تملين أما إن لله على عهداً لا أقضه أبداً لا أؤسذك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل سوءة لك أما تستحين كم توبخين وعن غيبك لا تنتهين قال وجعل يسكي وهو لا يشعر بمكانى فلما رأيت ذلك انصرفت وركته . ويحكى عن نعيم الدارى أنه نام ليلة لم يتم فيها تهجد فقام سنة لم يتم فيها عقوبة لذى صنع . وعن طلحة رضى الله تعالى عنه قال « انطلق رجل ذات يوم فزرع ثيابه وتمرغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه ذوقى ونار جهنم أشد حراً أجيفة بالليل بطلاة بالتهار فبينما هو كذلك إذ أنصر النبي صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة فأناه فقال غلبتنى نفسى فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ألم يكن لك بد من الذى صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة ثم قال لأصحابه تزودوا من أخيك فجعل الرجل يقول له يا فلان ادع لى يا فلان ادع لى فقال النبي صلى الله عليه وسلم فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم سدده فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مأبهم^(١) . وقال حذيفة بن قبادة قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهواتها فقال ما طي وجه الأرض نفسى أبغض لى منها فكيف أعطيها شهواتها ودخل ابن الهالك على داود الطائى حين مات وهو في بيته على التراب فقال يا داود سجت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب فالיום ترى ثواب من كنت تعمل له . وعن وهب بن منبه أن رجلاً تصد زماناً ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبباً يأكل في كل سبت إحدى عشرة عمرة ثم سأل حاجته فلم يعطها فرجع إلى نفسه وقال منك أئيت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك فترى إليه ملك وقال يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت وقد قضى الله حاجتك . وقال عبد الله بن قيس كنا في غزاة لنا فحضر العدو فصيح في الناس فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح وإذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول أى نفسى ألم أشهد مشهد كذا وكذا قتل لى أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ألم أشهد مشهد كذا وكذا قتل لى أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك قتل لى فرمقته اليوم فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان فى أوائلهم ثم إن العدو حمل على الناس فانكشروا فكان فى موضعه حتى انكشروا امراتوه ونابت يقاتل فوالله ما زال ذلك دأبه حتى رأته صريماً فعدت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة وقد ذكرنا حديث أبي طلحة لما اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول ماذا عملت اليوم وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام فى الدنيا . وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه الصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه ما حملك على أن صنعت يوم كذا كذا . وأنسكرو وهيب بن الورد شيئا طي نفسه فتنف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه ويحك إنى أريد بك الخير ورأى محمد ابن بشر داود الطائى وهو يأكل عند إبطاره خبراً بغير ملح فقال له لو أكلته بملح فقال إن نفسى لتدعونى إلى الملح منذ سنة ولا ذاق داود ملحاً مادام فى الدنيا فمكنا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم والعجب

يقول سمعت الحسين بن علويه يقول قال أبو يزيد ذلك فاذا التقلب فى أطوار القمامات لعوام المهين وطى بساط الأطوار لحواص المهين وهم المهبوبون تخلفت عن مهمهم القمامات وربما كانت القمامات على مسدراج طبقات السموات وهى مواطن من يتعثر فى أذيال بنياه . قال بعض الصكبار لآراهيم الحواص إلى ماذا أدى بك التصوف فقال إلى التوكل فقال تسمى فى عمران باطنك أين أنت من الفناء فى التوكل برؤية الوكيل فالنفس إذا تحركت

(١) حديث طلحة انطلق رجل ذات يوم فزرع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء وكان يقول لنفسه ونار جهنم أشد حراً الحديث بطوله ابن أبى الدنيا فى محاسبة النفس من رواية لىث بن أبى سليم عنه وهذا منقطع أو مرسل ولا أدرى من طلحة هذا .

أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر وتخلف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبضوا عليك ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدوك وأشد طغيانا عليك وضرك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك فان غابتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ولو عقلت لعلت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنقص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها .

[الرابطة الخامسة المجاهدة]

وهو أنه إذا حسب نفسه فرأها قد قارفت مصيبة فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت وإن رآها تنوأنى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤديها بتقبل الأوراد عليها بلومها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات منه وتداركاً لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحياتك الليلة وأخر ليلة صلاة المغرب حتى تطلع كوكبان فأعتق رقتين وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشياً أو التصديق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذه لها بما فيه نجاتها . فان قلت إن كانت نفسى لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فماسبيل معالجتها . فأقول سبيلك في ذلك أن تسمعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين (١) ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صجبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ أحواله وتقتدى به وكان بعضهم يقول كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعاً إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهد وقد اتقى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتنع نفسه أيما قلائل بشهوات مكدره ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهي به أبد الآباد فعوذ بالله تعالى من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة للريد في الاجتهاد اقتداء بهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى وميام مرضى (٢) » قال الحسن أجهدتهم العبادة قال الله تعالى - والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم ورجلة - قال الحسن يعملون ما عملوا من أعمال البر ويحافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله (٣) » ويروى أن الله تعالى يقول للملائكة ما بال عبادى مجتهدين

(١) الأخبار الواردة في حق المجتهدين أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين وله وللنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته وللمتذنى من حديث بلال عليكم بقيام الليل فإنه ذاب الصالحين قبلكم الحديث وقال غريب ولا يصح وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذلك (٢) حديث رحم الله أقواماً يحسبهم مرضى وميام مرضى لم أجده أصلاً في حديث مرفوع ولكن رواه أحمد في ازهد موقوفاً على علي في كلام له قال فيه ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض (٣) حديث طوبى لمن طال عمره وحسن عمله الطبراني من حديث عبد الله بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة عن وهو مدلس وللمتذنى من حديث أبي بكره خير الناس من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح وقد تقدم .

بصفتها متفلة من دائرة الزهد يردها الزاهد إلى الدائرة بزهد والتوكل إذا تحركت نفسه يردها بتوكله والراضى يردها برضاه وهذه الحركة من النفس بقايا وجودية تنفتر إلى سياسة العلم وفي ذلك تنسم روح القرب من بعيد وهو أداء حق العبودية مبلغ العلم وبحسبه الاجتهاد والسكب ومن أخذ في طريق الخاصة عرف طريق التخلص من البقايا بالتستر بأنوار فضل الحق ومن اكتسى ملابس نور القرب بروح دأمة المكوف محبة عن

فيقولون إلهنا خوقهم شيئا غفوه وشوقهم إلى شيء فاشتاقوا إليه فيقول الله تبارك وتعالى فكيف
لورآني عبادي لسكانوا أشد اجتهادا . وقال الحسن : أدركت أقواما وصحبت طوائف منهم ما كانوا
يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ولهمى كانت أهون في أعينهم من هذا
التراب الذي تطؤونه بأرجلكم إن كان أحدهم ليمش عمره كله ماطوى له ثوب ولأمر أهله بصنعة
طعام قط ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم
الليل قيام على أطرافهم يفتشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكك
رقابهم إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها وإذا عملوا السيئة
أحزتهم وسألوا الله أن يضربها لهم والله مازالوا كذلك وعلى ذلك والله ماسدوا من الذنوب ولا نجوا
إلا بالمغفرة . ويحكى أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه وإذا فيهم شاب
ناحل الجسم فقال عمر له يا فتى ما الذي بلغ بك ما أرى فقال يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض فقال
سألتك بالله لإصداقتي فقال يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندي زهرتها
وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها وكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار
فأظلمات لتلك نهاري وأسهرت ليلي وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه . وقال
أبو نعيم كان داود الطائي يشرب القنيت ولا يأكل الخبز قليل له في ذلك فقال بين مضع الخبز وشرب
القنيت قراءة خمسين آية ودخل رجل عليه يوما فقال إن في سقف بيتك جذعا مكسورا فقال يا ابن
أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون
فضول الكلام . وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزيق من غدوة إلى العصر لما التفت
عينة ولا يسرة قليل له في ذلك فقال إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى
فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة . وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق
إلا وساقاه متفتخان من طول الصلاة وقالت والله إن كنت لأجلس خلقه فأبكي رحمة له . وقال
أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا الظمأ لله بالهواجر والسجود لله في جوف الليل
ومجالسة أقوام ينتقون أطياب الكلام كما ينتقى أطياب الثمر ، وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة
ويصوم في الحر حتى يخضر جسده ويصفر فكان علقمة بن قيس يقول له لم تعذب نفسك فيقول
كرامتها أريد وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلى حتى يسقط فدخل عليه أنس بن مالك والحسن
فقالا له إن الله عز وجل لم يأمر بك بكل هذا فقال إنما أنا عبد مملوك لأدع من الاستكانة شيئا إلا جئت
به ، وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجله فكان يصلي جالساً ألف ركعة
فإذا صلى العصر احتجى ثم قال عجبت للخلقة كيف أرادت بك بدلامتك عجبت للخلقة كيف أنست
بسواك بل عجبت للخلقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك ، وكان ثابت البناني قد حبيت إليه
الصلاة فكان يقول اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلي لك في قبره فائذن لي أن أصلي في قبري .
وقال الجنيد : مارأيت أعبد من السرى أنت عليه ثمان وتسعون سنة مارؤى مضطجعا إلا في علة
الموت . وقال الحرث بن سعد : مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه في ذلك
فقال وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقة الأهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم
وسوا حظهم الأكبر من ربهم فيكي القوم عن آخرهم ، وعن أبي محمد الغزالي قال جاورا أبو محمد
الجزيري بمكة سنة فلم ينم ولم يشكاه ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يمد رجله ففسر عليه
أبو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له يا أبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا فقال علم صدق باطني

الطوارق والصروف
لا يزججه طلب ولا
يوحشه سلب فالزهد
والتوكل والرضا كائن
فيه وهو غير كائن
فيها على معنى أنه كيف
تقلب كان زاهدا وان
رغب لأنه بالحق لا
بنفسه وإن رؤى منه
الالتفات إلى الأسباب
فهو متوكل وإن وجد
منه الكراهة فهو
راض لأن كراهته
لنفسه ونفسه للحق
وكراهته للحق أعيد
إليه نفسه بدواعيها
وصفاتنا مطهرة
موهوبة محمولة
ملطوف بها صار عين
الداء دواءه وصار
الاعلال شفاهه وناب
طلب الله له مناب كل

فأتاني على ظاهري فأطرق الكتاني ومشى مفكرا ، وعن بعضهم قال دخلت على فتوح الموصلي فرأيته قد مد كفيه بيكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه فدنوت منه فاذا دموعه قد خالطها صفرة فقلت ولم بالله يا فتوح بكيت الدم فقال لولا أنك أحلفتني بالله ما أخبرتك ، نعم بكيت دما فقلت له على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال على تخلفي عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لي الدموع قال فرأيته بعد موته في المنام فقلت ما صنع الله بك ؟ قال غفر لي فقلت له فماذا صنع في دموعك ؟ فقال قربني ربي عز وجل وقال لي يا فتوح الدمع على ماذا ؟ قلت يارب على تخلفي عن واجب حقتك فقال والدم على ماذا ؟ قلت على دموعي أن لا تصح لي فقال لي يا فتوح ما أردت بهذا كله وعزتي وجلالي لقد صعد حافظك أربعين سنة بصحيفة منك ما فيها خطيئة ، وقيل إن قوما أرادوا سفرا فخادوا عن الطريق فأتهموا إلى راهب منفرد عن الناس فادوه فأشرف عليهم من صومعته فقالوا ياراهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق فأومأ برأسه إلى السماء فعمل القوم ما أراد فقالوا ياراهب إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا ؟ قال سلوا ولا تكروا فإن النهار إن يرجع والعمر لا يعود والطالب حيث فجب القوم من كلامه فقالوا ياراهب علام الخاق غدا عند مليككم فقال على نياتهم فقالوا أوصنا فقال تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما باع البعير ثم أُرشدتم إلى الطريق وأدخل رأسه في صومعته . وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته ياراهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجبني فناديته الثالثة فأشرف على وقال ياهذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضى بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهاتته وفكر في حسابيه وعقابه فنهارة صائم وليله قائم قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار فذلك هو الراهب وأما أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم فقلت ياراهب فما الذي قطع الخاق عن الله بعد أن عرفوه ؟ فقال يا أخي لم يقطع الخاق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها لأنهم عمل المعاصي والدنوب والمآل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقربه من ربه . وقيل لداود الطائي لو سرحت لحيتك فقال إني إذن افارغ ، وكان أويس القرني يقول هذه ليلة الركوع فيجي الليل كله في ركعة وإذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود فيجي الليل كله في سجدة ، وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتبنا بالطعام والشراب فقالت له أمه لورقت بنفسك قال الرفق أطلب دعيني أتمب قليلا وأتعم طويلا وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا . وقال سفيان الثوري عند الصباح محمد القوم السرى وعند المات محمد القوم التقي . وقال عبد الله بن داود : كان أحدم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أي كان لا ينام طول الليل ، وكان كهمس بن الحسن يصلي كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه قومي يا ما أوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ثم كان بيكي ويقول ذهب نصف عملي وكانت ابنة الريح بن خيثم تقول له يا أبت مالي أرى الناس ينامون وأنت لاتنام ؟ فيقول يا ابتنا إن أبناك يخاف البيات ولما رأت أم الريح ما يلقى الريح من البكاء والسهر نادته يا بنتي لملك قلت قتيلا قال نعم يا أمنا قالت فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك فوالله لو يملون ما أنت فيه لرحمك وعفوا عنك فيقول يا أمنا هي نفسي ، وعن عمر ابن أخت جبر بن الحرث قال سمعت خالي جبر بن الحرث يقول لأمي يا أختي جوفى وخواصرى تضرب على قتالت له أمي يا أخي أتأذن لي حتى أصلح لك قليل حياء بكف دقيق عندي تحمسه برم جوفك فقال لها ويحك أخاف أن يقول من أين لك هذا الدقيق فلا أدري إيش أقول له فيسكت أمي وبكي معها

طالب من زهد وتوكل
ورضا أو صار مطالبه
من الله ينوب عن كل
مطلوب من زهد
وتوكل ورضا . قالت
رابعة : بحب الله لا يسكن
أنيته وحنينه حتى
يسكن مع محبوبه .
وقال أبو عبد الله
القرشي حقيقة المحبة
أن تهب لمن أحببت
كلك ولا يبقى لك نك
شيء . وقال أبو الحسين
الوراق : السرور بالله
من شدة المحبة له والمحبة
في القلب نار تحرق كل
دنس . وقال يحيى بن
معاذ صبر المحبين أشد
من صبر الزاهدين
واحبها كيف يصبر
الانسان عن حبيبه .
وقال بعضهم من ادعى

وبكيت معهم . قال عمر ورأت أمي ما يبشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسا ضعيفا فقالت له أمي يا أخي ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك فسمعتة يقول لها وأنا فليت أمي لم تلدني وإذا ولدتنني لم يدرئديها علي . قال عمر وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار . وقال الربيع : أتيت أويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ثم جلس فجلست فقلت لا أشغله عن التسييح فمكث مكانه حتى صلى الظهر ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلس فقلبت عيناه فقال اللهم إني أعوذ بك من عين نومة ومن بطن لا تشبع ققلت حسبي هذا منه ثم رجعت ونظر رجل إلى أويس فقال يا أبا عبد الله مالي أراك كأنك مريض فقال وما لأويس أن لا يكون مريضا يطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم . وقال أحمد بن حرب : يا عجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما ، وقال رجل من النساك أتيت إبراهيم بن آدم فوجدته قد صلى العشاء فعمدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءه إلا ذلك في صدرى فقلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعا ثم لم تجد الوضوء فقال كنت الليل كله جائلا في رياض الجنة أحيانا وفي أودية النار أحيانا فهل في ذلك نوم . وقال ثابت البناني : أدركت رجلا كان أحدهم يصل فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوا ، وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش وتزل السماء في إحدى عيني فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل كان ورد صمنون في كل يوم خمسمائة ركعة ، وعن أبي بكر المطوعي قال كان وردى في شبيبتي كل يوم ليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة شك الراوي ، وكان منصور بن للتمر إذا رأيته قلت رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إن حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لا تسكت لملك يابني أصبت نفسا لملك قتلت قتيلًا ؟ فيقول يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسى ، وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل وظمأ المواجر فقال هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك خطير أمر وكان يقول ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها وكان إذا جاء الليل قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح فاذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسى فاذا جاء الليل قال من خاف أدبج وعند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعضهم : صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار . ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : صليت خلف علي رضى الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انقلبت عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم شيئا يشبههم كانوا يصبحون شعنا غبرا صفرا قد باتوا لله سجدا وقيامًا يتلون كتاب الله براوحون بين أقدامهم وجباههم . وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكان القوم باتوا غافلين يعنى من كان حوله وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطا في مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومي فوالله لأزحفن بك زحفا حتى يكون السكل منك لامتى فاذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولى بالضرب من دابق وكان يقول أياظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا كلا والله لئراحمهم عليه زحاما حتى يملوا بهم تدخفوا ورواهم رجالا . وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد

عجة الله من غير تورع
عن محارمه فهو كذاب
ومن ادعى عجة الجنة
من غير إتيان ملكه
فهو كذاب ومن ادعى
حب رسول الله صلى
الله عليه وسلم من غير
حب الفقراء فهو كذاب
وكانت رابعة تنشد :
تعصى الإله وأنت
تظهر حبه

هذا للمعري في القفال
يديع
لو كان حبك صادقا
لأطعته

إن الهب لمن يحب
مطيع

وإذا كان الحب
للأحوال كالتسوية
للتمقانات فمن ادعى
حالا يعتبر حبه ومن
ادعى حبه تعتبر قوته

مالوقيل له القيامة غدا ما وجد متزايدا ، وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحرّ فلا ينام وأنه مات وهو ساجد وأنه كان يقول : اللهم إني أحب لقاءك فأحِبّ لقائي . وقال القاسم بن محمد غدوت يوما وكنت إذا غدوت بدأت بعاشة رضى الله عنها أسلم عليها فغدوت يوما إليها فإذا هي تصلى صلاة الضحى ، وهي تقرأ - فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم - وتبكي وتدعو وتردد الآية قصت حتى مللت وهي كما هي فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت أفرغ من حاجتي ثم أرجع ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد الآية وتبكي وتدعو . وقال محمد بن إسحاق لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجا اعتلت إحدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء . وقال بعضهم : ما أخاف من اللوت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل . وقال طي بن أبي طالب كرم الله وجهه سببا الصالحين صفة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم عليهم غيرة الحاشئين . وقيل للحسن : ما بال المتجددين أحسن الناس وجوها فقال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره ، وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلهي خلقتني ولم تؤامرني وتميتني ولا تمنني وخلقت معي عدوا وجعلته يجري مني مجرى الدم وجعلته يراني ولا أراه ثم قلت لي امتصك إلهي كيف أمتصك إن لم تمسكني إلهي في الدنيا المموم والأحزان وفي الآخرة العقاب والحساب فأبى الراحة والفرح ، وقال جعفر بن محمد كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات كان إذا صلى الصلوة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا كان السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد حدثت به بعض البصريين فقال لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح . وعن القاسم بن راشد الشيباني قال كان زمعة نازلا عندنا بالمحصب . وكان له أهل وبنات ، وكان يقول فيصلى ليلا طويلا فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته أيها الركب للمرسون أكل هذا الليل ترقدون أفلاتقومون قرحلون فيتواثبون فيسمع من ههنا بك ومن ههنا داع ومن ههنا قارى ومن ههنا متوضي ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعض الحكماء : إن لله عبادا أنتم عليهم فرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتنا للحكمة وتوايت للعظمة وخزائن للقدرة فهم بين الخلق مقبولون ومدبرون وقلوبهم تجول في اللسكوت وتلوح بمحجوب النجوم ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واصفا أن يصفه فهم في باطن أمورهم كالديباج حسنا وهم في الظاهر مناديل مبدولون لمن أرادهم تواضعا ، وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء . وقال بعض الصالحين : بينا أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تهيبه لها دوى عال فاتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية - يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا - إلى قوله - وعذركم الله نفسه - قال فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خرم منشيا عليه فقلت وأسفاه هذا لشقائي ، ثم انتظرت إفاقة فأفاق بعد ساعة فسمعتة وهو يقول أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ بك من أعمال الباطلين أعوذ بك من إعراض المنافقين ثم قال لك خشعت قلوب الحانفين وإليك فرزعت آمال القصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفص يده فقال مالي وللدنيا

فإن التوبة قال الروح الحب وهذا الروح قيامه بهذا القلب والأحوال أعراض قوامها بجوهر الروح . وقال سمون : ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لأرء مع من أحب» فهم مع الله تعالى وقال أبو يعقوب السوسى لا تصح المحبة حتى تخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في الغيب ولم يكن هذا بالمحبة فإذا خرج الحب إلى هذه النسبة كان محبا من غير محبة

ومال الدنيا ولي عليك يا دنيا بأبناء جنسك وآلاف نعيمك إلى عميك فاذهبي وإياهم فاخذعي ثم قال
 أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة في التراب ييلون وعلى الزمان يفنون فذا بدته يا عبد الله ألتفتد
 اليوم خافتك أنتظر فراغك فقال وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتتبادر مخاف سبقها بالموت إلى نفسه
 أم كيف يفرغ من ذهب أيامه وبقيت آثامه ثم قال أنت لها ولسلك شدة أتوقع زولها ثم لها عنى
 ساعة قرأ - وبداهم من الله ما لم يكونوا يحتمسبون - ثم صالح صيحة أخرى أشد من الأولى وخرت
 مغشيا عليه فقلت قد خرجت روحه فدوت منه فاذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقوطن أنا ما خاطرى
 هب لي إسماعى من فضلك وجللى بسترى واعف عن ذنوبى بكرم وجهك إذا وقتت بين يديك فقلت
 له بالذى ترجوه لنفسك وتثق به إلا كتبتى فقال عليك بكلام من يضطك كلامه ودع كلام من أوقته
 ذنوبه إني لفي هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس وبجاهدى فلم يجد عوناً على ليخرجنى مما أنا فيه
 غيرك فأليك عنى يا مخدوع فقد عطلت على لسانى وميلت إلى حديثك شعبة من قلبى وأنا أعوذ بالله
 من شرك ثم أرجو أن يعيدنى من سخطه ويفضل على برحمته . قال فقلت هذاولى الله أخاف أن أسخطه
 فأعاقب فى موضعى هذا فانصرفت وتركته . وقال بعض الصالحين بينا أنا أسير فى مسيرى إذ ملمت إلى
 شجرة لأستريح تحتها فاذا أنا بشيخ قد أشرف على فقال لى يا هذا قم فان الموت لم يمت ثم هام على وجهه
 فاتبعته فسمعتة وهو يقول - كل نفس ذائقة الموت - اللهم بارك لى فى الموت فقلت وفيما بعد الموت
 فقال من أيقن بما بعد الموت شمر منزلة الخدر ولم يكن له فى الدنيا مستقر ثم قال يامن لوجهه عنت
 الوجوه يبيض وجهى بالنظر إليك واملا قباى من المحبة لك وأجرنى من ذل التوبيخ غدا عندك فقد
 آن لى الحياء منك وحان لى الرجوع عن الاعراض عنك ، ثم قال لولا حلك لم يسخى أجلى ولولا
 عفوك لم يتبسطن فىما عندك أملى ثم مضى وتركنى ، وقد أنشدوا فى هذا للمنى :

تحيل الجسم مكنث الفؤاد	تراه بقعة أوبطن وادى
ينوح على معاص فاضحات	يكدر ثقلها صفو الرقاد
فان هاجت مخاوفه وزادت	فدعوته أغشى ياعمداى
فأنت بما ألقىه عليم	كثير الضغ عن زلل العباد
وقيل أيضا :	ألد من التلذذ بالقوائى
منيب فر من أهل ومال	يسبح إلى مكان من مكان
ليخمل ذكره ويعيش فردا	ويظفر فى العبادة بالأمانى
تلذذه التسلاوة أين ولى	وذكر بالسواد وباللسان
وعند الموت يأتبه بشير	ييشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ما أراد وماتمضى	من الراحة فى غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يحتم القرآن فى كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة فقيل له
 قد أجهدت نفسك فقال كم عمر الدنيا فقيل سبعة آلاف سنة فقال كم مقدار يوم القيامة فقيل خمسون
 ألف سنة فقال كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يامن ذلك اليوم يعنى أنك لو عشت عمر الدنيا
 واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربحك
 كثيرا وكنت بالرغبة فيه جديرا فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها فهكذا كانت سيرة السلف
 الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها فهما تتردت نفسك عليك وامتمت من المواظبة على العبادة
 فطالع أحوال هؤلاء فانه قد عز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجح

مثل الجنيد عن
 المحبة قال : دخول
 صفات المحبوب على
 البذل من صفات
 المحب . قيل هذا على
 معنى قوله تعالى « فاذا
 أحببتة كنت له سمعا
 وبصرا » وذلك أن
 المحبة إذا صفت وكملت
 لا تزال تجذب بوصفها
 إلى محبوبها ، فاذا
 انتهت إلى غاية جهدها
 وقتت والرابطة متأصلة
 متأكدة وبكمال وصف
 المحبة أزال اللوانع من
 المحب وبكمال وصف
 المحبة تجذب صفات
 المحبوب تطلقا على
 المحب الخاص من
 موانع قادحة فى صدق
 الحب ونظرا إلى
 قصوره بعد استفاد

في القلب وأجت على الاقتداء فليس الخبر كالمعينة وإذا هجرت عن هذا فلا تنفل عن سماع أحوال هؤلاء فان لم تكن إبل فعزى وخير نفسك بين الاقتداء بهم والسكون في زميرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجملة العاقلين من أهل عصرك ولا ترض لما أن تتخرط في سلك الحق وتقع بالشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء فان حدثت نفسك بأن هؤلاء رجال أفوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجهندات وقل لها يا نفس لا تستكفي أن تكوني أقل من امرأة فأخس رجل يصر عن امرأة في أمر دينها وديناها ، ولندكر الآن نبذة من أحوال المجهندات فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت الصلوة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوكة أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت إلهي هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنا أم رددتها على فأعزى وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما أبقيتى وعزتك لو انترتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من وجودك وكرمك . وروى عن عجرة أنها كانت تحي الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون إليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين وأن ترفني لديك في عليين في درجة القربين وأن تلتحق ببادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ثم نخر ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر . وقال يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما صنع عن النياحة والبكاء فقلت لصاحب لي لو أتيناها إذا دخلت فأمرناها بالرفق بنفسها فقال أنت وذلك قال فأتيناها فقلت لها لو رقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئا فكان لك أقوى على ما تريد من قال فيك ثم قالت والله لو ددت أن أبكي حتى تنفد دموعي ثم أبكي دما حتى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحى وأنى لي بالبكاء وأنى لي بالبكاء فلم تزل تردد وأناى لي بالبكاء حتى غشى عليها . وقال محمد بن معاذ حدثني امرأة من المتبعدات قالت رأيت في منامى كأنى أدخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم فقلت ما شأن أهل الجنة قيام فقال لي قائل خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها فقلت ومن هذه المرأة فقيل أمة سوداء من أهل الأبيكة يقال لها شعوانة قالت فقلت أختي والله قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيحة تطير بها في الهواء فلما رأتها ناديت يا أختي أما ترى من مكانى من مكانك فلو دعوت لى مولاك فألحق بك قالت فتبسمت لى وقالت لى بأن لقدومك ولكن احفظى عنى اثنتين أزمى الحزن قلبك وقدمى محبة الله على هواك ولا يضرك منى مت . وقال عبد الله بن الحسن كانت لى جارية رومية وكنت بها معجبا فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبى فانتبهت فالتفتها فلم أجدها فقامت أطلبها فإذا هى ساجدة وهى تقول بحبك لى إلا ما غفرت لى ذنوبى فقلت لها لا تقولى بحبك لى ولكن قولى بحبى لك فقالت يا مولاي بحبى لى أخرجنى من الشرك إلى الاسلام وبعبى لى أيقظ عينى وكثير من خلقه نيام . وقال أبو هاشم القرشى قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية فزلت في بعض ديارنا قال فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا فقلت يوما لحادم لى أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع قال فأشرف عليها فآراها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهى مستقبلة القبلة تقول خلقت سرية ثم غديتها بنعمتك من حال إلى حال وكل أحوالك لها حسنة وكل بلاتك عندها جميل وهى مع ذلك متعرضة لخطك بالتوئب على معاصيك فلنته بعد فلتة آراها أظن أنك لا ترى سوء فعلها وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير . وقال ذو النون المصري خرجت ليلت من وادى كنعان فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل على وهو يقول

جهده فيعود الهب
يفسوا لك اكتساب
الصفات من المحبوب،
فيقول عند ذلك :
أنا من أهوى
ومن أهوى أنا
نحن روحان حللتنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته
وإذا أبصرته أبصرتنا
وهذا الذى عبرنا عنه
حقيقة قول رسول الله
صلى الله عليه وسلم
« تخلقوا بأخلاق الله »
لأنه بزاهة النفس
وكال الزكية يستمد
للمحبة والمهبة موهبة
غير معطلة بالزكية
ولكن سنة الله
جارية أن يزكى نفوس
أحبائه بحسن توفيقه
وتأييده وإذا منح
زاهة النفس وطهارتها

- وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون - ويسكني فلما قرب من السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف ويدها ركوة فقالت لي من أنت غير فرقة مني قتلت رجل غريب فقالت يا هذا وهل يوجد مع الله غربة قال فكيف تقولها فقالت لي ما الذي أبكك قتلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه قالت فان كنت صادقا فلم بكيت قتلت برحمتك الله والصادق لا يسكني قالت ولم ذلك قالت لأن البكاء راحة القلب فسكت متعجبا من قولها . وقال أحمد بن علي استأذنا على عفيرة فحجبتنا فلما زما الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعنا وهي تقول اللهم إني أعوذ بك عن جاء يشغلني عن ذكرك ثم فتحت الباب ودخلنا عليها قتلنا لها يا أمة الله ادعي لنا فقالت جعل الله قراكم في بيتي للنفرة ثم قالت لنا مكث عطاء السلمي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء فمات منه نظرة فغمضا عليه فأصابه فتق في بطنه فبليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تمس وباليها إذا عصت لم تصد . وقال بعض الصالحين خرجت يوما إلى السوق ومعى جارية حبشية فاحتسبتها في موضع ناحية السوق وذهبت في بعض حوائجي وقلت لا تبرح حتى أنصرف اليك قال فانصرفت فلم أجدها في اللوضع فانصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها فلما رأته عرفت الغضب في وجهي فقالت يا مولاي لا تسجل على إنك أجلسني في موضع لم أر فيه ذا كر الله تعالى خفت أن يخسف بذلك اللوضع فصجبت لقولها وقلت لها أنت حرة . فقالت ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لي أجران وأما الآن فقد ذهب عنى أحدها . وقال ابن العلاء السعدي كانت لي ابنة عم يقال لها بريدة تعبدت وكانت كثيرة القراءة في الصحف فكلمها أمت على آية فيها ذكر النار بكيت فلم تزل تبكي حتى ذهبت عنها من البكاء فقال بنوعهما انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نزلها في كثرة البكاء قال فدخلنا عليها قتلنا يا بريدة كيف أصبحت قالت أصبحتنا أيضا فانيخين بأرض غربة ننظر متى ندعى فنجيب قتلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه فقالت إن يكن لعيني عند الله خير لما يضرها ما ذهب منها في الدنيا وإن كان لها عند الله شرف فسيزيدها بكاء أطول من هذا ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا فهى والله في شئ غير ما نحن فيه . وكانت معاذة المدوية إذ جاء النهار تقول هذا يومى الذى أموت فيه فلما تطعم حتى تمسى فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التى أموت فيها فصلى حتى تصبح . وقال أبو سليمان الداراني بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وقت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قاعة إلى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قواني على قيام هذه الليلة قالت جزاؤه أن تصوم له غدا وكانت شموانة تقول في دعائها إلهى ما أشوقنى إلى لقاءك وأعظم رجائى لجزائك وأنت الكريم الذى لا يخيب لى عليك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين إلهى إن كان دنائى لى ولم يقربنى منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالتدب وسائل على فان عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك إلهى قد جرت على نفسى فى النظر لها وبقى لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدنا إلهى إنك لم تزل بى برا أيام حياتى فلا تقطع عنى برك بعد مماتى ولقد رجوت عن تولائى فى حياتى باحسانه أن يسفنى عند مماتى بنيرانه إلهى كيف أياس من حسن نظرك بعد مماتى ولم تولئى إلا الجليل فى حياتى إلهى إن كانت ذنوبى قد أخافتنى فان عجبى لك قد أجارتنى تقول من أمرى ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله إلهى لو أردت إهاتى لما هدبتى ولو أردت فضيحتى لم تسترنى فمتنى بما له هدبتى وأدم لى ما به سترتنى إلهى ما أظنك تردنى فى حاجة أنفيت فيها عمري إلهى لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك . وقال الخواص دخلنا على رحلة العابدة وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عميت وصلت حتى أقعدت وكانت تصلى قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئا من العفوليهون عليها الأمر قال فشهقت

جذب روحه بمجاذب
الهبة خلغ عليه خلغ
الصفات والأخلاق
ويكون ذلك عنده
رتبة فى الوصول فتارة
ينبعث الشوق من
باطنه إلى ما وراء ذلك
لكون عطايا الله
غير متناهية
وتارة يتسلى بما منح
فيكون ذلك وصوله
الذى يسكن نيران
هوقه ويباعث الشوق
بمستقر الصفات للهوية
الحققة رتبة الوصول
عند المحب ولولا باعث
للشوق رجح التهمى
وظهرت صفات نفسه
الحائقة بين اللره وقلبه
ومن ظن من الوصول
غير ما ذكرناه أو تخايل
له غير هذا القدر فهو

ثم قالت على بنسى فرح فؤادى وكلم كبدى والله لوددت أن الله لم يخلقنى ولم أك شيئا مذكورا
ثم أقبلت على صلاتها . فطيك إن كنت من الرابطين الرايقين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء
من المجتهدين لينبث نشاطك ويزيد حرصك وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فانك إن تطع أكثر
من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيها ذكرناه كفاية للمعتبر وإن
أردت مزيدا فطيك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة
والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فان
حدثك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت إنما تيسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الأعوان
والآن فان خالفت أهل زمانك رأوك مجنوننا وسخرؤا بك فواقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك
إلا ما يجرى عليهم والصلية إذا عمت طابت فإياك أن تتدلى بعجل غرورها وتتخضع بتزويرها وقل
لها أريت لو هجم سيل جارف يفرق أهل البلد ويثبؤا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم
بحقيقة الحال وقدرت أنت على أن تفارقهم وتركبى فى سفينة تتخلصين بها من القرق فهل يخلج
فى نفسك أن للصلية إذا عمت طابت أم تركين مواضعهم وتستجلبينهم فى صنيعهم وتأخذين حذر
عما دهاك فاذا كنت تركين مواضعهم خوفا من القرق وعذاب القرق لا يتعمدى إلا ساعة فكيف
لاهرين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حال ومن أين تطيب للصلية إذا عمت ولأهل
النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ولم يهلك الكفار إلا بمواقفة أهل زمانهم
حيث قالوا - إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون - فطيك إذا اشتغلت بمعاينة نفسك
وحملها على الاجتهاد فاستصحت أن لا تترك معاتبها وتويخها وتبريها وتعريفها سوء نظرها لنفسها
فصاها تنزجر عن طغيانها .

(الرابطة السادسة فى تويخ النفس ومعاتبتها)

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنيدك وقد خلقت أمارة بالسوء مائلة إلى الشر فراررة من الخير
وأمرت بتزكيتها وتقومها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها ووظاها
عن لذاتها فان أهملتها جمحت وشردت ولم تنظر بها بعد ذلك وإن لازمتها بالتويخ والمعاينة والعذل
والملازمة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة للدعوة
إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تنفلس ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن
بوعظ غيرك مالم تشتغل أولابوعظ نفسك أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ
نفسك فان اعطت فظ الناس وإلا فاستحي منى وقال تعالى - وذكر فان الله كرى تفع المؤمنين -
وسيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبدا تعزز بظننها وهدايتها ويشد أنها
واستنكافها إذا نسبت إلى الحق فتقول لها يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفتنة
وأنت أشد الناس غباوة وحماة أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنت صائرة إلى إحداهما على
القرب فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم
تختطفين أوغدا فأراك تترين الموت بعيدا ويراها الله قريبا أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن
البعيد ما ليس بآت أما تعلمين أن الموت يأتى بضة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة
وأنة لا يأتى فى شيء دون شيء ولا فى شتاء دون صيف ولا فى صيف دون شتاء ولا فى نهار دون ليل ولا فى ليل
دون نهار ولا يأتى فى الصادون الشباب ولا فى الشباب دون الصبايل كل نفس من الأتاس يمكن أن يكون
فيه الموت فجأة فان لم يكن الموت فجأة فيكون للرض فجأة ثم بنفسى إلى الموت فمالك لا تستمدن للموت

متعرض للذهب
النصارى فى اللاهوت
والناسوت. وإشارات
الشيوخ فى الاستسراق
والفناء كلها عائدة إلى
تحقيق مقام الهبة
بإستبلاء نور اليقين
وإخلاصة الذكر على
القلب وتحقيق حق
اليقين بزوال العوجاج
البقايا وأمنت اللوث
الوجودى من بقاء
صفات النفس وإذا
جمحت الهبة ترتبت
عليها الأحوال وتبعها.
سئل الشبل عن الهبة
فقال كأس لها وهج
إذا استقر فى الحواس
وسكن فى النفوس
تلاشت. وقيل للهجة
ظاهر وباطن ظاهرها
اتباع رضا المحبوب

وهو أقرب إليك من كل قريب أمتدبرين قوله تعالى - اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم - ويحك يا نفس إن كانت جرائمك على معصية الله لا اعتقادك أن الله لا يبرك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك . ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومفتك له فبأي جسارة تمرضين لقت الله وغضبه وشده بدعا به أتظنين أنك تطيقين عذابه هيات هيات جري نفسك إن الهالك البطر عن ألم عذابه فاحبس ساعة في الشمس أوفى بيت الحمام أوفى أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك أم تغترين بكرم الله وفضله واستغائه عن طاعتك وعبادتك فمالك لاتعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك فاذا قصدك عدو فلم تستبطين الحيل في دفعه ولا تكتفين إلى كرم الله تعالى وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقض إلا بالدينار والدرهم فمالك تزعين الروح في طلبها ونحصيلها من وجوه الحيل فلم لاتعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كثر أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب أتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا يتبدل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للانسان إلا ماسعى . ويحك يا نفس ما أعجب تقاقلك ودعوايك الباطلة فانك تدعين الايمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك - وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها - وقال في أمر الآخرة - وأن ليس للانسان إلا ماسعى - فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرحك عن السعي فيها فكذبته بأفمالك وأصبحت تكالين على طلبها تنكالب الدهوش المستهتر ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض للفرور المستحقر ما هذامن علامات الايمان لو كان الايمان باللسان فلم كان الناقدون في الدرك الأسفل من النار . ويحك يا نفس كأنك لاتؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انقلت وتخلصت وهيات أتحسبين أنك تركين صدقك لم تكني نقطة من متى يعني ثم كنت علقه غلقت فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى فان كان هذا من إضمارك فما أ كفرك وأجهلك أمتفكرين أنه مما خدعك من نقطة خلقك قد ترك ثم السبيل يسرك ثم أمانك فأقبرك أتكذبينه في قوله ثم إذا شاء أشرك فان لم تكني مكذبة فمالك لاتأخذين حذرک ولو أن يهوديا أخبرك في آله أطمعتك بأنه يضرك في مرضك لعبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه أفكان قول الأنبياء للوئديين بالمعجزات وقول الله تعالى في كنه للزلة أقل عندك تأثيرا من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وتصور علم والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقربا لميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء أم صار حرجهم وأغللها وأنكأها وزقومها ومقامها وصددها ومومها وأفاعها وعظفها أحقر عندك من عقرب لاتحسبن بألمها إلا يوما أو أقل منه ما هذه أفعال العقلاء بل لو انكشف لبيها ثم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فان سكنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فمالك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولله بختطفك من غير مهلة فبا إذا آمنت استرجال الأجل وهبك أنك وعدت بالامهال مائة سنة أتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العبة يفلح ويقدر على قطع العبة بها إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك أرأيت لو سافر رجل ليتفق في القرية فأقام فيها سنين متعطلا بطلا بد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس بما يطمع فيه بمدة قرية أو حساباته أن مناصب القمهاء تنال من غير تفقه اعياها على كرم الله سبحانه وتعالى

وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شيء ولا يبقى فيه بقية لغيره ولا لنفسه فمن الأحوال السنية في المحبة الشوق ولا يكون المحب إلا مشتاقا أبدا لأن أمر الحق تعالى لا نهاية له فما من حال ينافسها المحب إلا ويعلم أن ما وراء ذلك أوفى منها وأتم : حزني كسنتك لالدا أمد

ينهي إليه ولا لدا أمد ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس كسبه وإنما هو موهبة خص الله تعالى بها المحبين . قال أحمد ابن أبي الخوارى دخلت على أبي سليمان

ثم هي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلافلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشغلين فيه بذلك فان أوحى إليك بالامهال لما للناصح من اللبادة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا ههنا عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والشقة أنتظرين يوماً يأتيك لا تنصر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلق الله قط ولا يخلق فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون الكاره قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده أما تأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين غدا غدا فقد جاء القدر وصار يوماً فكيف وجدته أما علمت أن القدر الذي جاء وصار يوماً كان له حكم الأسم لابل تعجزين عنه اليوم فانت غدا عنه أهجر وأهجر لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها فاذا هجر العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن هجر عن قلع شجرة وهو شاب قوى فأخرها إلى سنة أخرى مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ويزيد القالع ضعةً ووهناً فلما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في الشباب بل من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب القديب والقضب الرطب يقبل الانحاء فاذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك فاذا كنت أيها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجليلة وتركين إلى التسويف لما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه حماقة ولعلك تقولين ما معنى عن الاستقامة إلا حرص على لغة الشهوات وقلة صبري على الآلام والشقات فما أحد غباوتك وأصبح اعتذارك إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التمتع بالشهوات الصافية عن الكدورات الداعة أبد الآباد ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة فان كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها قرب أكلة تمنع أكالات وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنا بشر به طول عمره وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً وامتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة أيسر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضى شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثائة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طال مدته ، وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في درجات جهنم فمن لا يطبق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطبق ألم عذاب الله ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحق جلي . أما الكفر الخفي فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بمظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحق الجلي فاعتادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراج واستغفاله عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من اللؤلؤ أو كلة واحدة تصمعيها من الخلق بل توصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الخيل وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » ويحك يا نفس لا ينبغي أن تنرك الحياة الدنيا ولا يفرنك بالله الفرور فانظري لنفسك فما أمرك بهم لغيرك ولا تضيعي أو قاتك فالأفاس معدودة فاذا مضى منك نفس فقد ذهب بضعك فاغتسمى الصحة قبل القم والفراغ قبل الشغل والنسى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدى للأخرة على قدر جائلك فيها يا نفس أما تستعدين للشقاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ولا تتكلمين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فانه قادر على ذلك أنتظنين أيها النفس أن زمهرير جهنم أخف برداً وأقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة

الداراني فرأيت يكي
قلقت ما يكيك رحمك
الله قال ويحك يا أحمد
إذا جن هذا الليل
اقترشت أهل الهبة
أقدامهم وجرت
دموعهم على خدودهم
وأشرف الجليل
جل جلاله عليهم
يقول « بيني من تخذ
بكلامي واستراح إلى
مناجاني وإني مطلع
عليهم في خلواتهم أسمع
أنيهم وأرى بكاءهم
يا جبريل ناد فيهم
ما هذا البكاء الذي
أراه فيكم هل خبركم
خبر أن حبياً يذب
أحبابه بالنار كيف
يجعل بي أن أعذب
قوما إذا جن عليهم
الليل تعلقوا إلى فمي

في الشدة والبرودة أنتظين أن العبد ينجو منها بغير سعى هيات كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجيلة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحسن التوحيد وخذق الطاعات وإنما كرم الله تعالى في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لاني أن يندفع عنك العذاب دون حصنه كأن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك للطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفى بها برد الشتاء عن نفسك وكما أن شراء الحطب والجيلة بما يستغنى عنه خالقك ومولاك وإنما اشترينه لنفسك إذ خلقه سبباً لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك أيضاً هو مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى نجاةك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فطليها والله غني عن العالمين . ويحك يا نفس انزعي عن جبهلك وقبسي آخرتك بدينك فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وكما بدأنا أول خلق نعيده . وكما بدأكم تعودون وسنة الله تعالى لا تجدن لها تبديلاً ولا تحويلاً . ويحك يا نفس ما أراك إلا ألقت الدنيا وأنست بها فصر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين في نفسك مودتها فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فأنت مؤمنة بالموت الفرق بينك وبين محابك أكثرين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر قد بصره إلى وجه ملبح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لاحالة إلى مفارقتها فهو معدود من العقلاء أم من الحمقى . أما تعلمين أن الدنيا دار للملك الملوك ومالك فيها إلا عجاز وكل ما فيها لا يصعب المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقتها واصل ما شئت فانك تجزي به وعش ما شئت فانك ميت (١) » . ويحك يا نفس أطمئني أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فانما يستكبر من الحسرة عند المفارقة وإنما يزود من السم الممك وهو لا يدري أو ما تتظن إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلاؤهم ذهبوا واخلوا وكيف أورش الله أرضهم وديارهم أعداءهم أما ترينهم كيف يجمعون مالا يأكلون ويبنون مالا يسكنون ويؤملون مالا يدركون بيني كل واحد قصراً مرفوعاً إلى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الأرض فهل في الدنيا حق وانكسار أعظم من هذا يعمر الواحد دنياه وهو مرئحل عنها يقينا ويغرب آخرته وهو سائر إليها اقطما ، أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور وإنما تعلمين بالطبع إلى التشبه والانتداء فقيسي عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء التكبين على الدنيا واقتدى من الفريقين بمن هو أعدل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والدكاء يا نفس ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك ، عجيباً لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ولعلك يا نفس أسكرتك حب الجاه وأدهشك عن فهمها ، أو ما تتفكرين أن الجاه لاعمق له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك فاحسبي أن كل من طى وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقى أنت ولا أحد ممن طى وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا فكيف تبعين يا نفس ما يبقى أبد الأباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أدعت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف ويأبى إيدارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلاً عن محلتك فان كنت يا نفس لا تتركين للدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترفها عن خسة شركائهم وتزها عن كثرة عنائهم وتوقيا من سرعة فناها أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهدت كثيرها ومالك

حلفت إذا وردوا
القيامة على أن أسفر لهم
عن وجهي وأيحمهم
رياض قدسي وهذه
أحوال قوم من المحبين
أقيموا مقام الشوق
والشوق من الهبة
كالزهد من التوبة
إذا استقرت التوبة
ظهر الزهد وإذا
استقرت الهبة ظهر
الشوق . قال الواسطي
في قوله تعالى - وعجبت
إليك رب لترضى - قال
شوقاً واستهانة بمن
وراءه - قال هم أولاء
على أنرى - من شوقه
إلى مكاملة الله ورمى
بالألواح لما فاته من
وقته . قال أبو عثمان
الشوق نعمة الهبة فمن
أحب الله اشتاق إلى

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقتها والحديث تقدم في العلم وغيره .

تفرحين بدنيا إن ساءرتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء فما أجهدك وأخس همتك وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكوني في زمرة المقرّبين من النبيين والصدّيقين في جوار رب العالمين أهد الآبدن لتكوني في صف النعال من جملة الحقّ الجاهلين أياما قلائل في أحسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ، فبادري ويحك يا نفس قد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلّي عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت . ويحك يا نفس مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن أنجرت فيها وقد ضيعت أكثرها فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك . أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أئدسك والفرع الأكرين يديك ، أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان الغلظة أنهم لا يرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ، أما تعلمين يا نفس أنهم يتنون الرجعة إلى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت في أمنيتهن ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بخذا فإيرها لا تشروه لو قدروا عليه وأنت تضيئين أيامك في الغفلة والبطالة . ويحك يا نفس أما تستحيين تزينين ظاهرهك للخلق وتبارزين الله في السرّ بالعظام أفستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق . ويحك أهو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطفة بالذائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارة وتذكرين بالله وأنت له ناسية ، أما تعلمين يا نفس أن الذنب أنتن من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمئنين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك . ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك . ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حمارا لإبليس يقولك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بمملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأسا برأس لكان الريح في يديك وكيف تعجبين بمملك مع كثرة خطاياك وزلللك وقد لمن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه . ويحك يا نفس ما أغدرك ويحك يا نفس ما أوقحك ويحك يا نفس ما أجهدك وما أجرأك على المعاصي ويحك كم تعقدين فتقضين ويحك كم تهمدين فتهدرين ويحك يا نفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جموا كثيرا وبنوا مشيدا وأملوا بيذا فأصبح جمعهم بورا وبنياهم قبورا وأملهم غرورا ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين هيهات هيهات ساء ماتوا وهمين ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابني على وجه الأرض قصرك فان بطنها عن قليل يكون قبرك أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدورسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الدم أوقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء والمعجب كل المعجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزينين بنقصان عمرك وما تقع مال يزيد وعمر ينقص . ويحك يا نفس تمضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ، فكم من مستقبل يوما لا يستكملها وكم من مؤمل لند لا يبلغه فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك قترين تحسرم عند الموت ثم لاترجعين عن جهالتك فاحذري أيها النفس السكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقعه وجلبه سره وعلايته

لقائه . وقال أيضا في قوله تعالى - فان أجل الله آت - تقرّبة للمشتاقين معناه آتى أعلم أن شوقكم إلى غالب وأنا أجلت للقائكم أجلا وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه وقال ذو النون: الشوق أعلى الدرجات وأعلى القسامات إذا بلغها الانسان استبطأ الموت شوقا إلى ربه ورجاء لقائه والنظر إليه . وعندى أن الشوق السكّان في المحبين إلى رتب يتوقعونها في الدنيا غير الشوق الذي يتوقعون به ما بعد الموت والله تعالى يكشف أهل وده بطايا مجدونها

فانظري يا نفس بأي بدن تغفين بين يدي الله وبأي لسان تهيين وأعدى للسؤال جوابا وللجواب صوابا واعلمي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال وفي دار زوال والدار مقام توفي دار حزن ونصيبه ارنيم وخلود اعمل قبل أن لا تعمل اخرجي من الدنيا اختيارا خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا قرب مسرور منبور ورب منبور لا يشرفويل لمن له الويل ثم لا يشمر بضحك وضحك ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار فيمكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا وطلبك للآخرة ابتدارا ولا تكوني ممن يجزع عن فكر ما أوتي ويتنهي الزيادة فيا تجي وينهي الناس ولا ينتهي واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف من كانت مطيته الليل والنهار فانه يساره وإن لم يسر فانتظري يا نفس بهنه للوعظة واقبل هذه النصيحة فان من أعرض عن اللوعظة قد رضى بالنار وما أراك بها راضية ولا هذه اللوعظة واعية فان كانت التساوة تمنحك عن قبول اللوعظة فاستمعي عليها بدوام التهجذ والقيام فان لم تزل فيالمواظبة على الصيام فان لم تزل فيمقبة الحاططة والكلام فان لم تزل فيصلة الأرحام والطف بالأيتام فان لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك وأقل على وانه قد تراكت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه فوطئي نفسك على النار قد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فكل ميسر لما خلق له فان لم يبق فيك مجال للوعظ فانتظري من نفسك والقنوط كبيرة من الكبار فعوذ بالله من ذلك فلا ميل لك إلى القنوط ولا ميل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فان ذلك اعتزاز وليس برجاء فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه اللصية التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فان صححت فستقوى الدمع من بحر الرحمة قد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستمعي بأرحم الراحمين واشتكي إلى أكرم الأكرمين وأدمنى الاستغاثة ولا تمل طول الشكاية لله أن يرحم ضحكك وبشكك فان مصيبتك قد عظمت وبلبتك قد تضالمت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وراحت عنك الطل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجأ إلا إلى مولاك فافزعي إليه بالتضرع واخشي في قعر عك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم للتضرع الدليل وبيت الطالب التلهف وبجيب دعوة الضطر وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمة محتاجة وقد ضالقت بك السبل وانسدت عليك الطرق واقطعت منك الحيل ولم تتجع فيك العظمت ولم يكسرك التوبيخ فالمطلوب منه كريم والسئول جواد والمستغاث به رءوف والرحمة واسعة والكرم فاض والضو شامل وقولي يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حلیم يا عظیم يا كريم أنا للذنب الصر أنا الجريء الذي لا أفلح أنا للهادى الذي لا أستحي هذا مقام للتضرع للسكين والبائس الفقير والضعيف الحفیر والمالك الفریق فجل إغاثتي وفرجى وأرني آثار رحمتك وأذقني برد غضوك ومضرتك وارزقني قوة عظمتك يا أرحم الراحمين اتداء بأبيك آدم عليه السلام قد قال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له فمعة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو عززون كتيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ما هذا الجهد الذي أرى بك قال يا رب عظمت مصيبي وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربى فصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار الشقاء بعد السعادة وفي دار النصب بعد الراحة وفي دار البلاء بعد العافية وفي دار الزوال بعد القرار وفي دار الموت والفتاء بعد الخلود والبقاء فكيف لأبكي على خطيئتي فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ألم أصطفك لنفسى وأحللتك دارى وخصصتك بكرامتى وحذرتك سخطى ألم أخلقك يدي وقدمت فيك

علما ويطلبونها ذوقا
فكذلك يكون شوقهم
ليصير الم ذوقا وليس
من ضرورة مقام الشوق
استبطاء الموت وربما
الأصحاء من المحبين
يتلهذون بالحياة لله
تعالى كما قال الجليل
رسوله عليه الصلاة
والسلام قل إن صلاتي
ونسكي ومحياي ومماتي
له رب العالمين فمن
كانت حياته لله منه
الكريم لغة للنجاة
والهبة فمخلى عنه
من التقدر ثم يكلفه من
للنخ والطايا في الدنيا
ما يتحقق بمقام الشوق
من غير الشوق إلى
ما بعد الموت وأنكر
بضمهم مقام الشوق
وقال إنما يكون الشوق

من روحى وأسجدت لك ملائكتى فصبت أمرى ونسيت عهدى وتعرضت لسخطى فوعزنى وجلالى لو ملأت الأرض رجلا كلهم مثلك يمدونى ويسبحونى ثم عصونى لأنزلتهم منازل العاصين فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلثمائة عام . وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول فى بكائه طول ليله: إلهى أنا الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى واعبيدها خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب أخرى واعبيدها إن كانت النار لك مقبلا ومأوى واعبيدها إن كانت المقامع لرأسك تهباً واعبيدها قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى . وقال منصور بن عمار سمعت فى بعض الليالى بالكوفة عابداً يناجى ربه وهو يقول يا رب وعزتك ما أردت بعصيتك مخالفتك ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لى نفسى وأعانتى على ذلك شقوتى وغرنى سترك للرخى على فصيتك بجهلى وخالفتك بفعلى فمن عذابك الآن من يستغذنى أو يجبل من أعتصم إن قطعت حبلك عنى واسوأته من الوقوف بين يديك غدا إذ أقبل للمخفين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحطوب لى كلما كبرت سنى كثرت ذنوبى ولبى كلما طال عمرى كثرت معاصى فالى من آتوب وإلى من أعود أما أن لى أن أستجى من ربى فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم وفى معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترخاء فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعىا ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضياً والسلام . ثم كتاب المحاسبة والمراقبة . ويتلوه كتاب التفكير إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه .

(كتاب التفكير)

(وهو الكتاب التاسع من ربيع اللجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

لغائب ومتى يغيب
الحبيب عن الحبيب
حتى يشاق ولهنداسل
الأنطاكى عن الشوق
فقال إنما يشاق إلى
الغائب وما غبت عنه
منذ وجدته وإنكار
الشوق على الاطلاق
لا أرى له وجهاً لأن
رتب العطايا والنح
من أنصبة القرب إذا
كانت غير متناهية
كيف ينكر الشوق
من الحب فهو غير غائب
وغير مشتاق بالنسبة
إلى ما وجد ولكن
يكون مشتاقاً إلى ما لم
يجد من أنصبة القرب
فكيف يمنع حال
الشوق والأمر هكذا .
ووجه آخر أن الانسان
لا بد له من أمور يردها

الحمد لله الذى لم يقدر لانهاء عزته نهوا ولا قطرا ولم يجعل لمراقى أقدام الأوهام ومرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى بل ترك قلوب الطالبين فى يدها كبرياته والهمة حيرى كلما اهترت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسراً وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً صبراً ثم قيل لها أجبلى فى ذل الصودية منك فكرا لأنك لو تفكرت فى جلال الربوبية لم تقدرى له قدراً وإن طلبت وراء الفكر فى صفاتك أمراً فانظرى فى نعم الله تعالى وأياديه كيف توالى عليك ترمى وجددى لكل نعمة منها ذكراً وشكراً وتأملى فى بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيراً وشراً ونفعاً وضراً وعسراً ويسراً وفوزاً وخسراً وجبراً وكسراً وطياً ونشراً وإيماناً وكفراً وعرفاناً ونسكراً فان جاوزت النظر فى الأفعال إلى النظر فى الذات فقد حاولت أمراً إمبراً خاطرت بنفسك مجاوزة حد طاقة البشر ظلماً وجوراً فقد انهرت العقول دون مبادئ إشرافه وانقصت على أعقابها اضطراباً وقهراً والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعد سيادته فخراً صلاة تبقى لنا فى عرصات القيامة عدة وذخراً وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم فى سماء الدين بدرها ولطوائف المسلمين صدراً وسلم تسليماً كثيراً .

[أما بعد] فقد وردت السنة بأن « تفكر ساعة خير من عبادة سنة (١) » وكثر الحديث فى كتاب

(كتاب التفكير)

(١) حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة

الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ولا يعني أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله وربته ولكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمرته تستفاد منه فان كان لثمرته فما تلك الثمرة أهى من العلوم أو من الأحوال أو منها جميعا وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولا فضيلة التفكير وثمرته ثم مجارى الفكر ومسارحه إن شاء الله تعالى.

(فضيلة التفكير)

قد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى - الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا - وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما « إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره (١) » وعن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالك لمتكلمون؟ فقالوا تفكر في خلق الله عز وجل قال فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه ولا تفكروا فيه فان بهنا المغرب أرضا بيضاء نورها يياضها ويياضها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفه عين قالوا يارسول الله فإين الشيطان منهم؟ قال ما يدرون خلق الشيطان أم لا قالوا من ولد آدم؟ قال لا يدرون خلق آدم أم لا (٢) » وعن عطاء قال « انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت يا عبيد ما عنك من زيارتنا؟ قال قول رسول صلى الله عليه وسلم زر غبا تردد حبا قال ابن عمير فأخبرنا بأعجب شيء رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيسكت وقالت كل أمره كان عجبا أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدى ثم قال ذريني أتعبد لربي عز وجل قمام إلى القرية فتوضأ منها ثم قام يصلى فسكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يارسول الله مايكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ويحك يا بلال وما يعنى أن أبكى وقد أنزل الله تعالى على في هذه الليلة - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الأبواب - ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها (٣) » فقيل

بلفظ ستين سنة باسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ ثمانين سنة وإسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ خير من قيام ليلة (١) حديث ابن عباس إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه باسناد ضعيف ورواه الأصهباني في الترهيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقى في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك (٢) حديث خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالك لمتكلمون فقالوا تفكروا في خلق الله الحديث رويناه في جزء من حديث عبد الله بن سلام (٣) حديث عطاء انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة الحديث قال ابن عمير فأخبرنا بأعجب شيء رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث في نزول - إن في خلق السموات والأرض - وقال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها تقدم في الصبر والشكر وأنه في صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء .

حكم الحال لموضع
بشريته وطبيعته
وعدم وقوفه على حد
العلم الذى يقتضيه حكم
الحال ووجود هذه
الأموال مثل نار الشوق
ولا نعى بالشوق إلا
مطالبة تنبعث من
الباطن إلى الأولى
والأعلى من أنصبة
القرب وهذه اللطابة
كأثمة في المحبين فالشوق
إذن كائن لاوجه
لانكاره وقد قال قوم
شوق للشاهدة واللقاء
أشد من شوق البعد
والغيوبة فيكون في
حال الغيوبة مشتاقا
إلى اللقاء ويكون في
حال اللقاء والشاهدة
مشتاقا إلى زوائد
ومبار من الحبيب

للأوزاعي ما غاية التفكير فهن قال يقرؤهن ويعلمهن . وعن محمد بن واسع أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر . وعن الحسن قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وعن الفضيل قال : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك ، وقيل لابراهيم إنك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل ، وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتعمل بقول القائل :

إذا للره كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لعيسى بن مريم ياروح الله هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال نعم من كان منطقته ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فانه مثلي . وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو وفي قوله تعالى - سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض غير الحق - قال أمنع قلوبهم التفكير في أمرى . وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطوا أعينكم حظها من العبادة فقالوا يارسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال النظر في الصحف والتفكير فيه والاعتبار عند عجائبه (١) ، وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت . لو تطالعت قلوب التمتين بفكرها إلى ما قد ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تفر لهم في الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاه فيقول يا لقمان إنك تديم الجلوس وحده فلو جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان إن طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة . وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة . وقال عبدالله ابن المبارك يوما لسهل بن طي وراه ساكتا متفكرا أين بلغت ؟ قال الصراط . وقال بشرى لوتفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل . وعن ابن عباس ركتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة بلا قلب . وبيننا أبو شريح يمشى إذ جلس فتفتح بكسائه فجعل يبكي فقيل له يبكيك ؟ قال تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلى . وقال أبو سليمان عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكير . وقال أبو سليمان الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب . وقال حاتم من العبرة يزيد العلم ومن الله كر يزيد الحب ومن التفكير يزيد الخوف . وقال ابن عباس : التفكير في الخير يدعو إلى العمل به والتفكير في الشر يدعو إلى تركه . وروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه إنى لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهو أهوا فإذا كان همه وهو أهوا إلى جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم . وقال الحسن إن أهل العقل لم يزالوا يهودون بالذكر على الفكر والفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة . وقال اسحاق بن خفاف كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قراء تفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويكي حتى وقع في دار جار له قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا ويده سيف وظن أنه لمس فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحك من السطح قال ما شعرت بذلك . وقال الجنيد أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسيم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل ثم قال يا لها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما أله طوبى لمن رزقه

(١) حديث أبي سعيد الخدري أعطوا أعينكم حظها من العبادة الحديث ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة باسناد ضعيف .

وإفضاله وهذا هو الذي
أراه وأختاره . وقال
فارس : قلوب المشتاقين
منورة بنور الله فإذا
تحركت اشتد أضاء
النور ما بين المشرق
والغرب فيعرضهم الله
على الملائكة فيقول
هؤلاء المشتاقون إلى
أشهدكم أني إليهم
أشوق . وقال أبو يزيد:
لو أن الله حجب أهل
الجنة عن رؤيته
لاستغاثوا من الجنة
كما يستغيث أهل النار
من النار . سئل ابن
عطاء الله عن الشوق
فقال هو احتراق الحشا
وتلهب القلوب وتقطع
الأكباد من البعد
بعد القرب . سئل
بعضهم هل الشوق

وقال الشافعي رحمه الله تعالى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر وقال أيضا صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم والروية والفكر بكشفان عن الحزم والقطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة فذكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تهدم . وقال أيضا الفضائل أربع : إحداهما الحكمة وقوامها الفكرة . والثانية العفة وقوامها في الشهوة . والثالثة القوة وقوامها في الغضب . والرابعة العدل وقوامها في اعتدال قوى النفس فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها .

(بيان حقيقة الفكر وعمرته)

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستمر منهما معرفة ثالثة . ومثاله أن من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فهذه طريقان : أحدهما أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بصلته إلى إيثار الآخرة اعتمادا على مجرد قوله وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة . والطريق الثاني أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار ثم يعرف أن الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين للمعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين فاحضار للمعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا وتأملا وتدبرا . أما التدبر والتأمل والتفكير فبصارات مترادفة على معنى واحد ليس تخها معان مختلفة وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل اللمسى واحدا كما أن اسم الصارم والمهند والسيف يتوارد على شئ واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار للمعرفتين من حيث إنه عبرتها إلى معرفة ثالثة وإن لم يقع الصور ولم يمكن إلا الوقوف على للمعرفتين فينتقل عليه اسم التذكر لاسم الاعتبار . وأما النظر والتفكير فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكرا ، وفائدة التذكر أن تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تتحى عن القلب ، وفائدة التفكير تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصله فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكير والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى فالمعرفة نتاج المعرفة فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية ، وإنما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت أو بالعواقب . هذا لمن يقدر على استتبار العلوم ويهتدى إلى طريق التفكير . وأما أكثر الناس فاعما منوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستمر العلوم كالتي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج للفضى إلى النتاج فيها ومعرفة طريق الاستعمال والاستتبار تارة تكون بنور الهسى في القلب يحصل بالقطرة كما كان للأبياء صلوات الله عليهم أجمعين وذلك عزيز جدا وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر ثم للتفكير قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ولا يقدر على التعبير عنها فقلته بممارسته لصناعة التعبير في الإرادة فكلم من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علما حقيقيا ولو شغل عن سبب معرفته لم يقدر على إيرادها والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن للمعرفتين السابقتين وهو أن الأبقى أولى

أعلى أم الهبة ؟ قال الهبة لأن الشوق يتولد منها فلا مشتاق إلا من غلبه الحب فالحب أصل والشوق فرع وقال النصر اباضى : للخلق كلهم مقام الشوق لامقام الاشتياق ومن دخل في حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار . ومنها الأنس وقد مثل الجنيد عن الأنس فقال : ارتفاع الحشمة مع وجود الهية . ومثل فو النون عن الأنس فقال : هو انبساط الهب إلى المحبوب قيل معناه قول الحليل - أرني كيف تهجي للوفى - وقول موسى - أرني

بالإيثار وأن الآخرة أبقى من الدنيا فتحصل له معرفة تامة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار فرجع حاصل حقيقة التفكير إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة تامة . وأما ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال ولكن ثمرة الخاصة العلم لاغير ، نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر ، فالفكر إذن هو للبدأ وللفتح للخيرات كلها وهذا هو الذى يكشفك عن فضيلة التفكير وأنه خير من الذكر والتذكر لأن الفكر ذكر وزيادة وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر ، فإذن التفكير أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل نضكر ساعة خير من عبادة سنة ، قيل هو الذى ينقل من المكارة إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، وقيل هو الذى يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال تعالى - لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا - وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة فإن الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار فإذا رسخت هذه المعرفة يقينا في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا وهذا ما عنيناه بالحال إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته وتورغبتهم ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في طراح الدنيا والانبال على أعمال الآخرة فهنا خمس درجات : أولاها التذكر وهو إحضار المرقتين في القلب ، وثانيها التفكير وهو طاب للعرفة المقصودة منهما . والثالثة حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها . والرابعة تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة . والخامسة خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضي بها للوضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنهض الأعضاء للعمل فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المرقتين كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا فينبعث نور المعرفة كما ينبعث النار من الحديد ويغير القلب بسبب هذا النور حتى يعيل إلى ما لم يكن يعيل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه ثم تنهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينهض الحاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره ، فإذن ثمرة الفكر المعلوم والأحوال والعلوم لانها يملأها والأحوال التي تصور أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرها ولهذا لو أراد مرید أن يحصر فنون الفكر ومجاريها وأنه فيها ذائق فكر لم يقدر عليه لأن مجارى الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية ، نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريها بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين ويكون ذلك ضبطا جليا فان تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها فاتها مشتملة على علوم تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر .

(بيان مجارى الفكر)

اعلم أن الفكر قد يجرى في أمر يتعلق بالدين وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين وإنما غير ضامنا يتعلق بالدين فلترك القسم الآخر ونفى بالدين المعاملة التي بين الصديقين الرب تعالى لجميع أنسكار العبد إيمان أن يتعلق بالبدن وصفاته وأحواله وإنما أن يتعلق بالمبود وصفاته وأفضاله لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين وما يتعلق بالبدن إيمان أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى أو فيما هو مكروه ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين ، وما يتعلق بالرب تعالى إيمان أن يكون نظرا في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى وإنما أن يكون في أفضاله وملكه وملكوته وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما وينكشف

أنظر إليك وأنتد

لرويم :

شغلت قلبى بما لديك فلا

ينضك طول الحية

عن فكر

آستنى منك بالوداد قد

أوحشتنى من جميع

ذا البشر

ذكرك لى مؤنى

يمارضى

يوعدنى عنك منك

بالظفر

وحينا حكنت

يامدى همى

فأنت منى بموضع النظر

وروى أن مطرف

ابن الشخير كتب إلى

عمر بن عبد العزيز

ليكن أنسك بالله

واقطعك إليه فان

له عبادا استأنسوا

بأه وكانوا في وحدتهم

لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثل وهو أن حال السائرين إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقاءه يضاهاى حال العاشق فلتتخذ العاشق للسهر مثالا ، فنقول : العاشق المستغرق الهم يشقه لا يبدو وفكره من أن يتعلق بمشوقه أو يتعاق بنفسه فان تفكر في معشوقه فاما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته وإما أن يتفكر في أفضاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفا لذته ومقويا لهبته وإن تفكر في نفسه فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى ينزعه عنها أوفى الصفات التي تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها فان تفكر في شئ خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حد العشق وهو نقصان فيه لأن العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب حتى لا يترك فيه متما لغيره فحجب الله تعالى يبنى أن يكون كذلك فلا يبدو نظره وتفكره محبوبه ومهما كان تفكره محصورا في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا فلينبدأ بالقسم الأول وهو تفكره في صفات نفسه وأفضال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه فان هذا الفكر هو الذى يتعلق بعلم العاملة الذى هو للتصود بهذا الكتاب وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم السكاشفة ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصى وإلى باطن كالصفات النجيات والمهلكات التي محلها القلب وذكرنا تفصيلها في ربيع المهلكات والمنجيات والطاعات والمعاصى تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام ويجب في كل واحد من المكروه التفكير في ثلاثة أمور : الأول التفكير في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا قرب شئ لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر . والثانى التفكير في أنه إن كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه . والثالث أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه أو قاربه فيامضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات فاذا جمعت هذه الأقسام زادت مجارى الفكر في هذه الأقسام على مائة والعبد مدفوع إلى الفكر إما في جميعها أو فى أكثرها وشرح آحاد هذه الانقسامات بطول ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع الطاعات والمعاصى والصفات المهلكات والصفات المنجيات فلنذكر في كل نوع مثالا ليقيس به المرید سائر ما هو وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه [النوع الأول المعاصى] يبنى أن يغتشى الانسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها أو لا يسبها بالأسس فيتداركها بالترك والتندم أو هو متعرض لها في نهارة فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر في اللسان ويقول إنه متعرض للغيبة والكذب وتركية النفس والاستهزاء بالغير والمارة والممازحة والخوض فيما لا يبنى إلى غير ذلك من المكروه فيقرر أولا في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد وبأن لا يجالس إلا صالحا تقيانكر عليه مهما تكلم بما بكرهه الله وإلا فيضع حجرا في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز ويتفكر في سمعه أنه يبنى به إلى التيقن والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو وأنه يبنى أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن النكر فمهما كان ذلك فيتفكر في بطنه أنه إنما يبص الله تعالى فيه بالأكل والشرب إما بكثرة الأكل من الحلال فان ذلك مكروه عند الله ومقو للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله وإما بأكل الحرام والشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه ومامكسبه ويتفكر في طريق الحلال ومدخله ثم

أشد استثناء من الناس في كثرتهم وأوحش ما يكون الناس أنس ما يكونون وأنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون . قال الواطى : لا يصل إلى محل الأنس من لم يستوحش من الأكوان كلها . وقال أبو الحسين الوراق : لا يكون الأنس بالله إلا ومعه التعظيم لأن كل من استأنست به سقط عن قلبك تعظيمه إلا الله تعالى فانك لا تزيد به أنسا إلا ازددت منه هية وتعظيما . قالت رابعة : كل مطيع مستأنس وأنشدت :
ولقد جعلتك في القواد
معدنى

يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضامة مع أكل الحرام وأن كل الحلال هو أساس العبادات كلها وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام (١) كما ورد الخبر به فهكذا يتفكر في أعضائه في هذا القدر كفاية عن الاستقصاء فهم حاصل بالتفكير حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمرابة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها [وأما النوع الثاني وهو الطاعات] فينظر أولاً في الفرائض للكتوب عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلاً إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتطر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لأضله وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان للطبع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بين الأزدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لأضله وكذلك يقول في صممه إني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر فإلى أعطله وقد أنعم الله على به وأودعنيه لأشكره فما لي أ كفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله وكذلك يتفكر في اللسان ويقول إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالذوال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فإنها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول أنا قادر على أن أتصدق بالمال الغلاتي فإني مستغن عنه ومهما احتجت إليه رزقني الله تعالى مثله وإن كنت محتاجاً الآن فأنا إلى ثواب الأيثار أحوج مني إلى ذلك المال وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن دوابه وغلمانه وأولاده فان كل ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بديق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكر فيها يرغبة في البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات [وأما النوع الثالث فهي الصفات الملهكة التي محلها القلب] فيعرفها مما ذكرناه في ربيع الملهكات وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والفضلة والغرور وغير ذلك ويتقدم من قلبه هذه الصفات فان ظن أن قلبه مزده عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلاجات عليه فان النفس أبداً تمد بالخير من نفسها وتختلف فاذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغي أن تجرب بحمل حزمة حطبي في السوق كما كان الأولون يجربون به أنقسمم وإذا ادعت الحلم تعرض لضرب يناله من غيره ثم يجربها في كظم النغيظ وكذلك في سائر الصفات وهذا تفكر في إنه هل هو موصوف بالصفة الكروية أم لا ولذلك علامات ذكرناها في ربيع للملهكات فاذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقيح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والعفلة وخبث البخله كالورأى في نفسه عجباً بالعمل فيتفكر ويقول إنما عملي يبدني وجارحني وقدرتي وإرادتي وكل ذلك ليس مني ولا إلهي وإنما هو من خلق الله وفضله على فهو الذي خلقني وخلق جارحني وخلق قدرتي وإرادتي وهو الذي حرك أعضائي بقدرته وكذلك قدرتي وإرادتي فكيف أعجب بعملي أو بنفسي ولا أقوم لنفسي بنفسي فاذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها لم ترين نفسك أكبر والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد اللوت وكم من كافر في الحال يموت مقرباً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر وكم من مسلم يموت شقياً

(١) حديث إن الله لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه

جهول وقد تقدم .

وأبخت جسمى من

أراد جلوسى

فالجسم منى للجلوس

مؤانس

وحبيب قلبي في الفؤاد

أنيسى

وقال مالك بن دينار:

من لم يأسن بمحادثة

أقده عن محادثة المخالفين

قد قل علمه وعمى

قلبه وضع عمره .

قيل لبعضهم من معك

في الدار قال الله تعالى

معى ولا يستوحش من

أنس بره . وقال

الحرّاز: الأنس محادثة

الأرواح مع المحبوب

في مجالس القرب .

ووصف بعض العارفين

صفة أهل المحبة

الواصلين فقال: جند

لهم الود في كل طرفة

بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة فإذا عرف أن الكبير مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال للتواضع وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشهره تفكر في أن هذه صفة البهائم ولو كان في شهوة الطعام والوقوع كال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما اتصف به البهائم ومهما كان الثمره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن للملائكة القريبين أبعد وكذلك يقرر على نفسه في الغضب ثم يتفكر في طريق العلاج وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب [وأما النوع الرابع وهو للنجيات] فهو التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهدي في الدنيا والإخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأهله والشوق إليه والحشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه في هذا الريع وذكرنا أسبابه وعلاماته فليتذكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يوزره من هذه الصفات التي هي للقرية إلى الله تعالى فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار فإذا أراد أن يكتب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش ذنوبه أولاً وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليحقق عند نفسه أنه متعرض لمت الله تعالى حتى ينعث له حال الندم وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فليتنظر في إحسان الله إليه وأيديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر وإذا أراد حال الخوف فليتنظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر في الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال المنكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقابه وديدانه ثم في هول النداء عند نفخة الصور ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ثم في الناشئة في الحساب والضايقة في القيامة والقطمير ثم في الصراط ودقته وشدته ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار أو يصرف إلى اليمين فينزل دار القرار ثم ليحضر بعد أهوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودرجاتها ومقامها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزانية الموكلين بها وأنهم كما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً وهلم جرا إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فليتنظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها اللقيم وملوكها الدائم فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتناب أحوال محبوبة أو التزهد عن صفات مذمومة وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتاباً مفرداً يستعان به على تفصيل الفكر أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكير فإنه جامع لجميع اللقائات والأحوال وفيه شفاء للعالمين وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال وفيه ما يزرع عن سائر الصفات المذمومة فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكير فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة قراءة آية بتفكير وفهم خير من ختمه بغير تدبر وفهم فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة فإن تحت كل كلمة منها أسراراً لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق العاملة وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قد أوتى جوامع الكلم ^(١) وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها

بدوام الاتصال وآواهم في كنفه بمخافتة السكون إليه حتى أنت قلوبهم وحنث أرواحهم شوقاً وكان الحب والشوق منهم إشارة من الحق إليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بالله فذهبت مناهم وانقطعت آمالهم عنده لما بان منه لهم ولو أن الحق تعالى أمر جميع الأنبياء يسألون لهم ما سألوه بعض ما أعد لهم من قديم وحدانيته ودوام أزليته وسابق علمه وكان نصيبهم معرفتهم به وفراغ همهم عليه واجتماع أهوائهم فيه فصار يحسد من عبيده العموم أن

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم تقدم.

العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم «إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فأنتك مفارقة وعش ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزى به» (١) «فان هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين وهى كافية للتأملين فيها طول العمر إذلو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقهم ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالسكينة فهذا هو طريق الفكر فى علوم العمارة وصفات العبد من حيث هى محبوبة عند الله تعالى أوسكروهة والبتدى. ينبغى أن يكون مستغرق الوقت فى هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن السكاره وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هوله غاية للطلب بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين وهو التعم بالفكر فى جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه أى ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب كالعاشق المستتر عند لقاء الحبيب فانه لا يتفرغ للنظر فى أحوال نفسه وأوصافها بل يبقى كالمهوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة المشاق . فأما ما ذكرناه فهو تفكر فى عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال فاذا ضيع جميع عمره فى إصلاح نفسه فحق يتعم بالقرب ولذلك كان الخواص يدور فى البوادي فلقبه الحسين بن منصور وقال فىم أنت؟ قال أدور فى البوادي أصلح حالى فى التوكل فقال الحسين أفنيت عمرك فى عمران باطنك فأين الفناء فى التوحيد فالفناء فى الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعم الصديقين. وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجربى مجربى الخروج عن العدة فى النكاح. وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجربى مجربى تهية المرأة جهازها وتزئيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها فان استغرقت جميع عمرها فى تبرئة الرحم وتزئيف الوجه كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب، فهكذا ينبغى أن تضمهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفا من الضرب وطمعا فى الأجرة فدونك وإتمام البدن بالأعمال الظاهرة فان بينك وبين القلب حجابا كثيرا فاذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوام آخرون وإذ اعرف مجال الفكر فى علوم العمارة التى بين العبد وبين ربه فينبغى أن تتخذ ذلك عادتك وديدتك صباحا ومساء فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك للبعدة من الله تعالى وأحوالك للقربة إليه سبحانه وتعالى بل كل مرید فينبغى أن يكون له جريدة يشبث فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصى والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم ، ويكفيه من المهلكات النظر فى عشرة فانه إن سلم منها سلم من غيرها وهى البخل والكبر والعجب والرياء والحسد وشدة الغضب وشراء الطعام وشراء الوقوع وحب اللال وحب الجاه . ومن المنجيات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والزهد فى الدنيا، والاحلاص فى الأعمال ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له . فهذه عشرون خصلة عشرة مذمومة وعشرة محمودة فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها فى جريدته ويدع الفكر فيها ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وركله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه فيقبل على القصة الباقية وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع ، وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات ، فاذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا خط عليها واشتغل بالباقي ، وهذا يحتاج إليه المرید المشمر .

(١) حديث إن روح القدس نفث فى روعي أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم غير مرة

رفع عن قلوبهم جميع
المهموم . وأنشد فى
معناه

كانت قلبي أهواه
مفرقة

فاستجعت إذا رأتك
النفس أهواي

فصار يهدنى من
كنت أحسه

وصرت مولى الورى
مدصرت مولائى

تركت للناس دينام
ودينهم

شعلا بذ كرك ياديني
ودنياي

وفد يكون من الأنس
الأنس بطاعة الله

وذكره وتلاوة كلامه
وسائر أبواب القربات

وهذا القدر من الأنس
نعمة من الله تعالى

ومنحة منه ولكن

وأما أكثر الناس من الموددين من الصالحين فينبغي أن يثبتوا في جرائد المعاصي الظاهرة كأكل
الشبهة وإطلاق اللسان بالغبية والتمجئة والراء والثناء على النفس والافراط في معاداة الأعداء، وموالاته
الأولياء والداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن أكثر من يعد نفسه من
وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه وما لم يظهر الجوارح عن الآثام لا يمكن
الاشتغال بصمارة القلب وتطهيره بل كل فريق من الناس يظلم عليهم نوع من العصية فينبغي أن يكون
تقدم لها وتفكرهم فيها لافي معاصيهم بمنزل عنها. مثاله العالم الورع فإنه لا يخاف في غالب الأمر عن اظهار
نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إماما لتدريس أو بالوعظ ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة
لا ينجو منها إلا الصديقون فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب
والحيلاء والتزين والتصنع وذلك من الهلكات وإن رد كلامه لم يخل عن غيظ وأتفة وحقه على من
يرده وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره وقد يلبس الشيطان عليه ويقول إن غيظك من
حيث إنه رد الحق وأنكره فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور
وضحكة للشيطان ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الاعراض لم يخل
عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد حرصا على استجلاب الثناء والله لا يحب التكلفين والشيطان
قد يلبس عليه ويقول إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها ينتشر الحق ويحسن موقعه في
القلب إعلاء لدين الله فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على
واحد من أقرانه فهو مخدوع وإنما يدورون حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ومهما
اختلف ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك حتى يكون للموقر له العتقد لفضله أكثر احتراما
ويكون بلفظه أشد فرحا واستبشارا ممن يغلو في موالاته غيره وإن كان ذلك الغير مستحقا للموالاته وربما
ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتفايروا تفاير النساء فيشقى على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره
وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه وكل ذلك رشع الصفات المهلكات المستكنة في سر
القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم
عظيمة وهو إماما لك وإماما لك ولا مطمع له في سلامة العوام فمن أحس في نفسه بهذه الصفات فالواجب
عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سئل فقد كان المسجد محوى في زمن الصحابة
رضي الله تعالى عنهم جمعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون وكانوا يتدافعون
الفتوى وكل من كان يفتي كان يود أن يكفيه غيره وعند هذا ينبغي أن يتقى شياطين الانس إذا قالوا
لا تفعل هذا فإن هذا الباب لو تفتح لاندurst العلوم من بين الخلق وليقل لهم إن دين الاسلام مستغن
عنى فإنه قد كان معمورا قبلي وكذلك يكون بعدى ولومت لم تهتم أركان الاسلام فإن الدين مستغن
عنى وأما أنا فلست مستغنيا عن إصلاح قلبي، وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية
الجهل فإن الناس لو حسبوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياسة
والملو يحملهم على كسر القيود وهم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم فالعلم
لا يندرس مادام الشيطان يحب إلى الخلق الرياسة والشيطان لا يفتقر عن عمله إلى يوم القيامة بل يتمسك
لنشر العلم أقوام لانصيب لهم في الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يؤيد هذا الدين
بأقوام لا خلاق لهم^(١)» و«إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر^(٢)» فلا ينبغي أن يفتخر العالم بهذه
التليسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يترن في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذور النفاق

ليس هو حال الأنس
الذي يكون للمحبين
والأنس حال شريف
يكون عند طهارة
الباطن وكنسه بصدق
الزهد وكمال التقوى
وقطع الأسباب
والملائق ومحو الخواطر
والمواجس وحقيقته
عندى كنس الوجود
بتخل لأئمة العظمة
وانتشار الروح في
ميادين الفسوح وله
استقلال بنفسه يشتمل
على القاب فيجمعه به
عن الهية وفي الهية
اجتماع الروح ورسوبه
إلى محل النفس وهذا
الذي وصفناه من
أنس القادات وهيبة
القادات يكون في مقام
البقاء بعد الجور على

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم تقدم (٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين
بالرجل الفاجر تقدم أيضا في العلم .

قال صلى الله عليه وسلم « حب الجاه والنال يثبت النفاق في القلب كما يثبت الماء البقل (١) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ذئبان ضاريان أرسلاني في زريبة غنم بأكثر إفساداً فيها من حب الجاه والنال في دين المرء المسلم (٢) » ولا ينقل حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والمهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم فليسكن العالم في التفتن لحفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها وهذه وظيفة العالم المتقي فأما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكيرنا فيما يقوى إيماننا بيوم الحساب إذ لو رأنا السلف الصالحون لقالوا قطما إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب فأعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار فان من خاف شيئاً هرب منه ومن رجس شيئاً طلبه وقد علمنا أن الهرب من النار يترك الشبهات والحرام ويترك للعاصي ونحن منهمكون فيها وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها ويقال لو كان هذا مذموماً لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا فليتنا كنا كالعوام إذ امتنا ماتت معنا ذنوبنا فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا النعم علينا فهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة فان فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكير في جلال الله وعظمته والتعمق بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والانصاف بجميع النجيات وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولاً معولاً مكدراً مقطوعاً وكان ضعيفاً كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتنفض عليه لذة الشهادة ولا طريق له في كمال التعمق إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه وهذه الصفات الذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوشات وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى . القسم الثاني الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه ، وفيه مقامان اللذان الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه وهذا مما منع منه حيث قيل تشكروا في خلق الله تعالى ولا تشكروا في ذات الله وذلك لأن العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر بل سائر الخلق أحوال أبحارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الحفاش بالإضافة إلى نور الشمس فانه لا يطيقه البتة بل يغتنى نهاراً وإتما يتردد ليلاً ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض وأحوال الصديقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس فانه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ويغشى على بصره لو أدام النظر ونظره المختطف إليها يورث الممش ويفرق البصر وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل فالصواب إذن أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته فان أكثر العقول لا تختمه بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو أن الله تعالى مقدس عن اللكان ومتره عن الأقطار والجهاث وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته بل ضعفت طاقتهم عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم إنه يشاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو وأن يكون جسماً مشخصاً له مقدار وحجم فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله حتى قال بعض الحق من العوام إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله لظن المسكين أن الجلالة

عمر الفناء وما غير
الأنس والهيبة اللذين
يذهبان بوجود الفناء
لأن الهيبة والأنس
قبل الفناء ظهرا من
مطالعة الصفات من
الجلال والجمال وذلك
مقام التلويح وما ذكرناه
بعد الفناء في مقام
التحكين والبقاء من
مطالعة الذات ومن
الأنس خضوع النفس
المطمئنة ومن الهيبة
خشوعها والخضوع
والخشوع يتقاربان
ويفرقان بفرق لطيف
يدرك بإسماء الروح.
ومنها القرب قال الله
تعالى لئيبه عليه الصلاة
والسلام - واسجد
واقرب - وقد ورد
« أقرب ما يكون العبد

(١) حديث حب المال والجاه يثبت النفاق في القلب الحديث تقدم (٧) حديث ما ذئبان جاثان أرسلاني في زريبة غنم الحديث تقدم .

والعظمة في هذه الأعضاء وهذا لأن الانسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه ، نعم غاية أن يقدر نفسه جميل الصورة جالس على سريره وبين يديه غلمان يتلون أمره فلا جرم فآيته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لحاتك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طير أن أنكر ذلك وقال كيف يكون خالقي أتقص مني أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثاها وهو خالقي ومصوري وعقولي أكثر الخلق قريب من هذا العقل وإن الانسان لجهول ظلوم كفار . ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تخبر عبادي بصفاتى فينكرونى ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون . ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته مخظرا من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجارى الفكر فيه لئلا نعدل إلى المقام الثانى وهو النظر في أفعاله ومجارى قدره ومجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فانها تدل على جلاله وكبريائه وتقدمه وتعالى وتدلى على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فينظر إلى صفاته من آثار صفاته فإننا لانطبق النظر إلى صفاته كما أننا نطبق النظر إلى الأرض مهما استتارت بنور الشمس ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب لأن نور الأرض من آثار نور الشمس والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر وجميع وجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته بل لاظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه كأن قولم نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر إليها فيكون الماء واسطة يفيض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نهرى بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال فهذا سر قوله ﷺ « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله تعالى » .

(بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى)

اعلم أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلق الله وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مدادا لكد ذلك لكد البحر قبل أن ينفد عشر عشره ولكننا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالثال لما عدها . فنقول للوجودات الخالوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكير فيها وكم من الوجودات التي لانعلمها كما قال الله تعالى - ويخلق ما لاتعلمون - سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يلحون - وقال - وننشك فيما لاتعلمون - وإلى ما يعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن تفكر في تفصيلها وهي منقسمة إلى ما أدر كناه بحس البصر وإلى ما لا ندركه بالبصر أما الذى لاندركه بالبصر فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسى وغير ذلك ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويضيق فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي الدركات بحس البصر وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما فالسموات مشاهد بكونها ومسمها وقمرها وحركتها ودوراتها في طلوعها وغروبها والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بنومها وأمطارها وتلوجها ورعدها وبرقها وصور أفعالها وشبهها وحوادثها فما فيها من الأجناس الشاهدة من السموات والأرض وما بينهما وكل جلس منها يتقسم إلى أنواع وكل نوع يتقسم إلى أقسام ويتشعب كل قسم

من ربه في سجوده
فالساجد إذا ذيق طعم
السجود يقرب لأنه
يسجد ويطوى
بسجوده بساط الكون
ما كان وما يكون
ويسجد على طرف
رداء العظمة يقرب .
قال بعضهم إنى لأجد
الحضور فأقول يا الله
أو يارب فأجد ذلك
على أثقل من الجبال
قيل ولم قال لأن النداء
يكون من وراء حجاب
وهل رأيت جليسا
ينامى جليسه وإنما
هى إشارات وملاحظات
ومتناغاة وملاطفات
وهذا الذى وصفه مقام
عزيز متحقق فيه
القرب ولكنه مشعر
بتحوى ومؤذن بكر

إلى أصناف ولا نهاية لانشعب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهياته ومعانيه الظاهرة والباطنة
 وجميع ذلك مجال التفكير فلا تحرك ذرة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا
 فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكتنان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك
 شاهدته تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه وهي الآيات الدالة عليه ، وقد ورد القرآن بالحث
 على التفكير في هذه الآيات كما قال الله تعالى - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار
 آيات لأولي الألباب - وكما قال تعالى - ومن آياته - من أول القرآن إلى آخره ، فلنذكر كيفية الفكر
 في بعض الآيات ، فمن آياته الإنسان المخلوق من النطفة وأقرب شيء إليك نفسك وفك من الصغائر
 الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر وعشيرة وأنت طفل عنه ، فيما من هو غافل
 عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه
 العزيز فقال - وفي أنفسكم أفلا تبصرون - وذكر أنك مخلوق من نطفة قدرة فقال - قتل الإنسان
 ما أكفره من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه قدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء
 أنشره - وقال تعالى - ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تتمشرون - وقال تعالى سأل
 بك نطفة من متى متى ثم كان علقة مخلوق نسوي - وقال تعالى - ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه
 في قرار مكين إلى قدر معلوم - وقال - أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين - وقال
 - إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج - ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة والعلقه مضغة وللضغة عظاما
 فقال تعالى - ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة
 علقة - الآية ، فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليعلم لفظه ويترك التفكير في معناه فانظر
 الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قدرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فصدت وأنت كيف أخرجها
 رب الأرباب من الصاب والتراب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم وكيف
 قدم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بمحركة الواقع وكيف
 استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ، ثم كيف خلق الولود من النطفة وسماه بجاه
 الحيض وغذاه حتى يماوربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي يضاء مشرقة علقة حمرام ثم كيف جعلها
 مضغة ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم
 ثم كيف ركب من اللحم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة فدور الرأس وشق السمع والبصر
 والأنف والتم وسائر المنافذ ثم مديد اليد والرجل وقسم رءوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأظفار ثم كيف
 ركب الأعضاء الباطنة من القلب والعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والثانة والأمعاء كل واحد
 على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ، ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء
 بأقسام أخر فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة
 منها أوزالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار فلو ذهبنا إلى أن نصف ما في آحاد هذه الأعضاء
 من العجائب والآيات لا تنقضي فيه الأعمار فانظر الآن إلى المظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها
 من نطفة سخيصة رقيقة ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة
 فعنه ضيق وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ، ولما كان الإنسان محتاجا
 إلى الحركة بجملة بدنه ويبيض أعضاءه مفتقرا للتردد في حاجاته لم يجعل عظمه عظما واحدا بل
 عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وقد شكل كل واحدة منها على وفق الحركة
 المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنتبتا من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم

يكون ذلك لمن غابت
 نفسه في نور روحه
 لغلبة سكره وقوة عهوه
 فاذا صحوا فاق تتخلص
 الروح من النفس
 والنفس من الروح
 ويعود كل من العبد
 إلى محله ومقامه فيقول
 يا الله ويلرب بلسان
 النفس للطمثنة العائدة
 الى مقام حاجتها وهل
 مسوديتها والروح
 تستقل بفتوحه وبكمال
 الحال عن الأقوال
 وهذا أتم وأقرب من
 الأول لأنه وفي حق
 القرب باستقلال الروح
 بالفتوح وأقام رسم
 المسبودية بعود حكم
 النفس إلى محل الاقتدار
 وحظ القرب لا يزال

الآخر كالرباط له ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفر اغاصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتطبق عليها فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمنع عليه ولولا الفاصل لتعذر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقدر كهبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فمنها ستة تخص القحف وأربعة عشر للحمي الأعلى واثنا عشر للحمي الأسفل والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تحريفات وزيادات ونقائصات لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة فيصل به من أسفله عظم العنق وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام المانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلانطول بذلك مجموع عدد العظام في بدن الانسان ما تناه عظم وعمانية وأربعون عظما سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل الفواصل فانظر كيف خلق جميع ذلك من نظفة سخيفة رقيقة ، وليس للقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فان هذا علم قريب يعرفه الأطباء وللشرحون وإنما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها وودبها وخالف بين أشكالها وأندادها خصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الانسان يحتاج إلى قلعه ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها فنتان بين النظرين ، ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات خلق في بدن الانسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة ، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأعشية ، وهي مختلفة القادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جعلتها اختل أمر العين وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله وشرحه يطول ، فللفكر مجال في آحاد هذه الأجزاء ثم في آحاد هذه الأعضاء ثم في جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الانسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فتري به من العجائب والصنعة ما يقضى به العجب وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قدرة فتري من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفريق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقتها ومغاريبها فلانظرن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع للعجائب من بدن الانسان بل لانسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى - أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلا وأخرج ضحاها - فارجع الآن إلى النظفة وتأمل حالها أولا وما صارت إليه ثانيا وتأمل أنه لو اجتمع الجن والانس على أن يخلقوا للنظفة صمما أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا أو مخلقا فيها عظما أو عرقا أو عصباً أو جليداً أو شعرا هل يقدرون على ذلك بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بمدان خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت إلى صورة

بتوفر نصيب الروح باقامة رسم العبودية من النفس . وقال الجنيد إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه فانظر ماذا يقرب من قلبك . وقال أبو يعقوب السوسى مادام العبد يكون بالقرب لم يكن قريبا حتى يقرب عن رؤية القرب بالقرب فاذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب وقد قال قائمهم: قد تحققتك في الله ر فناجك لساني فاجتمعنا لمعان واقترنا لمعان

إنسان مصور على حائط تأتى النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الانسان وقال الناظر إليها كأنه إنسان عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك عمله مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصيغ والقلم واليد وبالحناء وبالقدرة والعلم وبالارادة وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره وإنما منتهى فعله الجمع بين الصيغ والحائط على ترتيب مخصوص فيكبر تعجبك منه وتستعظمه وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة نخلها خالقها في الأصلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزاءها للتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أركانها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها وجمالها صميعة بصيرة عالمة ناطقة وخلق لها الظهر أساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعا لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهياتها ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصلقها وتدفع الأقداء عنها ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها ثم شق أذنيه وأودعها ماء مرا ليحفظ صمما ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت قرده إلى صباخها ولتحس بديب الهوام إليها وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطامعه وأغذيته وليستنشق بمنفذ للتخزين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه وفتح الفم وأودع اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا مما في القلب وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدد رءوسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه ولتحمها حروف الكلام وخلق الحجرية وهياها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في معارج مختلفة تختلف بها الحروف ليقسم بها طريق النطق بكثرتها ثم خلق الخارجة مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والحشونة والللاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقا حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ وزين الوجه باللحية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالأهداب ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لنضج الغذاء والسكبد لإحالة الغذاء إلى الدم والطحال والمرارة والكلى لخدمة الكبد فالطحال يخدمها بمجذب السوداء عنها وللرارة تخدمها بمجذب الصفراء عنها والكلى تخدمها بمجذب للمائية عنها والثانة تخدم الكلى بقبول الماء عنها ثم تخرجه في طريق الإحليل والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن ثم خلق اليدين وطولها لتتد إلى المقاصد وعرض الكف وقسم الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بديق الفكر وجها آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء فان بسطها كانت له طبقا يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب وإن ضمها

إن يكن غيبك التمد
 ظم عن لحظ عياني
 فلقد صيرك الوجـ
 د من الأحشاء داني
 قال ذو النون ما زاد
 أحد من الله قرابة إلا
 ازداد هيبه . وقال
 سهل أذى مقام من
 مقامات القرب الحياء
 وقال النصراني
 باتباع السنة تال
 المعرفة وبأداء
 الفرائض تال القرية
 وبالمواظبة على النوافل
 تال المحبة . ومنها
 الحياء والحياء على
 الوصف العام والوصف
 الخاص فأما الوصف
 العام فما أمر برسول
 الله صلى الله عليه وسلم
 في قوله «استحيوا من
 الله حق الحياء قالوا

ضما غير تام كانت منرفة له وإن بسطها وضم أصابها كانت مجرفة له ثم خلق الأظفار على رءوسها زينة للأنامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل وليحك بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الانسان وظهر به حكمة لكان أهجر الخلق وأضعفهم ولم يتم أحد مقامه في حك بدنه ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والنفخة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يثر على موضع الحك إلا بعد تب طويل ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث ولو كشف النطاء والنشاء وامتد البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها هيئا فثيبا ولا يرى الصور ولا آله فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آله ومصنوعه ولا يلقاه وهو يتصرف فيه فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه ، ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فانه لما صاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تتكس وتتحرك وخرج من ذلك الضيق وطلب للنفذ كأنه عاقل صبر بما يحتاج إليه ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التمام الذي ثم لما كان بدنه سخيلا لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين القرث والقمم مائتا خالصا وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأثبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ثم فتح في حلة الثدي تقبا ضيقا جدا حتى لا يخرج اللبن منه إلا بدلا من تدريجا فان الطفل لا يطبق منه إلا القليل ثم كيف هداه للاتصاص حتى يستخرج من ذلك الضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يتهدى إلا باللبن فيستغنى عن السن وإذا كبر لم يواقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ويحتاج الطعام إلى الضغ والطحن فأثبت له الأسنان عند الحاجة لاجلها ولا بعدها فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزا عن تدبير نفسه فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ، ثم انظر كيف رزقه القدرة والقيز والقل والمداية تدريجا حتى بلغ وتكامل فصار مرافقا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا إما كفورا أو شكورا مطيعا وطاعيا مؤمنا أو كافرا تصديقا لقوله تعالى - هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميما بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا - فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة بهزك هجاب الحضرة الربانية والسبب كل العجب ممن يرى خطأ حسنا أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همه إلى التفكير في النقاش والخطاط وأنه كيف نفسه وخطه وكيف اتدر عليه ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول ما أحذقه وما أكل صنمته وأحسن قدرته ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يفتل عن صانه ومصوره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته فهذه نبذة من هجاب بدئك التي لا يمكن استنساؤها فهو أقرب مجال لتفكيرك وأجل شاهد على عظمة خالقك وأنت تافل عن ذلك مشغول بيطنك وفرجك لا تعرف من تفكك إلا أن مجموع فتأكل وتشتبع فتنام وتنتهي فتجتمع وتنضب فتنازل والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك وإنما خاصة الانسان التي حجبته البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وهجاب الآفاق والأنفس إذ بها يدخل البعد في زمرة اللاتسكة للقرين ويمش في زمرة النبيين والصدقين مقربا من حضرة رب العالمين وليست هذه النزلة للبهائم ولا لانسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فانه شر من البهائم بكثير إذ لا قدرة

إنا نستحي يا رسول الله قال ليس ذلك ولكن من استحي من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلوى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحي من الله حق الحياء وهذا الحياء من اللصقات وأما الحياء الخاص فمن الأحوال وهو ما نقل عن عثمان رضى الله عنه أنه قال إني لأغتسل في البيت للظلم فألتطوى حياء من الله. أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن قال سمعت أبا الصباس البغدادي يقول سمعت أحمد السقطي

الليحة على ذلك وأما هو قد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وإذا عرفت طريق التفكير في تفكير في الأرض التي هي مقرك ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات . أما الأرض : فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا وسلك فيها سبيلا فجاءا وجعلها ذلولا لتحشوا في مناكبها وجعلها قارة لاتتحرك وأرسى فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد ثم وسع أكنافها حتى يحجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طاللت أعمارهم وكثر تطوافهم قال تعالى - والسماء بئيناها بأيدي وإنا لموسعون والأرض فرشناها فتم للهاهون - وقال تعالى هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها - وقال تعالى - الذي جعل لكم الأرض فراشا - وقد أكرر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في مجابها فظهرها مقر للأحياء وبطنها مرقد للأموات قال الله تعالى - ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا - فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبت مجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع للياه نعمتها فجزر العيون وأسأل الأنهار تجري على وجهها وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا وجعل به كل شيء حتى فأخرج به فحون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لأغصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأراييح بفضل بعضها على بعض في الأكل تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة . فان قلت إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فمتى كان في النواة نطفة مطوقة بضائقة الرطب ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ثم انظر إلى أرض البوادي وفتش ظاهرها وباطنها فتراهما ترابا متشابهة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابهة وغير متشابهة لكل واحد طعم وريح ولون وهكل يخالف الآخر فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الثرية فهذه النباتات ينفذ وهذا يقوى وهذا يهي وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا إذا حصل في المدة قلع الصفراء من أحماق العروق وهذا يستحيل إلى الصفراء وهذا يجمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل إليها وهذا يصفي الدم وهذا يستحيل دما وهذا يفرح وهذا ينوم وهذا يجوى وهذا يضعف فارتبنت من الأرض ورقة ولا تبنة إلا وفيها منافع لا يجوى البشر على الوقوف على كنفها وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربته إلى عمل مخصوص فالتخلل وتؤبر والكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل وبعض ذلك يستنبت بيت البلد في الأرض وبضه بفرس الأغصان وبضه يركب في الشجر ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وهجابه لاقضت الأيام في وصف ذلك فيمكنك من كل جنس نبذة بسيرة تدلك على طريق التفكير فهذه مجائب النبات [ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال وللعادن الحاصلة من الأرض] ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللؤلؤ وغيرها بعضها منطبعة تحت المطارق كذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللؤلؤ وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الأواني والآلات والقنود والحلى منها ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والسكرية والقار وغيرها وأقلها للملح ولا يحتاج إليه إلا لتطيب الطعام ولو خلقت عنه بطة لتسارع الهلاك إليها فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبحة بجوهرها بحيث يجتمع فيها للماء الصافي من المطر فيستحيل ملعا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه

ابن صالح يقول سمعت
محمد بن عبدون يقول
سمعت أبا العباس
المؤدب يقول قال لي
سرى : احفظ عنى
ما أقول لك إن الحياء
والأنس يطوفان
بالقلب فإذا وجد فيه
الزهد والورع حطا
وإلارحلا والحياء
إطراق الروح إجلالا
لعظيم الجلال والأنس
التساذ الروح بكمال
الجمال فإذا اجتمعا
فهو الغاية في المنى والنهاية
في العطاء وأنشد
شيخ الاسلام :
أشتاقه فإذا بدا
أطرق من إجلاله
لاخيفة بل هية
وصيانة لجماله
الموت في إداره
والعيش في إقباله

ليكون ذلك تطييبا لطعامك إذا أكلته فبينما تعيش وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ما خلق شيء منها عينا ولا لبا ولا هزلا بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه واطفه ولذلك قال تعالى - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عين ما خلقناهما إلا بالحق . ومن آياته أصناف الحيوانات: واتساءها إلى ما يطير وإلى ما يعيش واتقسام ما يعيش إلى ما يعيش على رجلين وإلى ما يعيش على أربع وعلى عشر وعلى مائة كما شاهد في بعض الحشرات ثم اتقسامها في النافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع فانظر إلى طيور الجوّ وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدرتها وحكمة مصورها وكيف يمكن أن يستقصى ذلك بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقعة أو النملة أو النحلة أو الضفادع أو السمك أو غيرها من صغار الحيوانات في بناتها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إلهائها أزواجها وفي ادخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم تقدر على ذلك ترى الضفادع بين يدها على طرف نهر فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع لها دونه حتى يمكنه أن يصل بالحيط بين طرفيه ثم يتدبى ويلقى اللعاب الذي هو خيطه على جانب يلتصق به ثم يقفز إلى الجانب الآخر فيحكّم الطرف الآخر من الحيط ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا ويجعل بعد ما بينهما متناسبا تناسبا هندسيا حتى إذا أحكم معاقده القمط ورتب الحيوط كالسدى اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى ويضيف بضعه إلى بعض ويحكّم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ويراعى في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ويقعد في زاوية مترصدا لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع الصيد بادري إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقى منكس في الهواء ينتظر ذباة تطير فإذا طارت رمى نفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجله وأحكّمه ثم أكله وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى أفترى أنه تعلم هذه الضئعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمى أو علمه أو لا هادي له ولا معلم أفترى شك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز بل القليل العظيم شخصه الظاهرة قوته عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف أفلا يشهد هو بشكائه وصورته وحركته وهداياته وعجائب صنعه لظاهره الحكيم وخالقه القادر العليم فالصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق للذبح ورجاله وكما قدرته وحكمته ما تعجب فيه الأبواب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات وهذا الباب أيضا لا يحصر له فان الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنهم ابتكروا الشهادة ، نعم إذا رأى حيوانا غريبا ولدودا تجدد تعجبه وقال سبحان الله ما أعجبه والاسان أعجب الحيوانات وليس يتمتع من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام التي ألها ونظر إلى أشكالها وصورها ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباسا لحلقه وأكادنا لهم في ظفرهم وإقامتهم وآتية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصوران لأندامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للوادي والقفازات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فانه ما خلقها إلا يعلم محيط بجميع منافعها سابق على خاقه إياها سبحانه من الأمور مكتشفة في علمه من غير تفكير ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استماعة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب المارفين بتوحيده فما لخلق إلا الاذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والافرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن ذا الذي يحصى ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن

وأصد عنه إذا بدا وأروم طيف خياله قال بعض الحكماء من تكلم في الحياء ولا يستحي من الله فيما يتكلم به فهو مستدرج . وقال ذوالنون: الحياء وجود الهيبة في القلب مع حشمة ما سبق منك إلى ربك . وقال ابن عطاء . العلم الأكبر الهيبة والحياء فإذا ذهب عنه الهيبة والحياء فلا خير فيه . وقال أبو سليمان : إن العباد عملوا على أربع درجات على الخوف والرجاء والتعظيم والحياء وأشرفهم منزلة من عمل على الحياء لما أيقن أن الله تعالى يراه على كل حال

معرفة فسأل الله تعالى أن يكرما بهديته بمنه ورافته . ومن آياته البحار العميقة المكتشفة لأقطار الأرض التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال من الماء بالإضافة إلى الماء بجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء . قال النبي صلى الله عليه وسلم « الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض ^(١) » فأنسب إصطبل إلى جميع الأرض . واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحرفان عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض كما أن سعة أضفاف سعة الأرض ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة فيزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضافه وفيه أجناس لا يهدلها نظير في البر وقد ذكرت أو صافها في مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره في صدفة تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر ثم تأمل ما عدها من العنبر وأصناف النفائس التي يقدفها البحر وتستخرج منه ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ثم عرف لللاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها ولا يستنصى على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الأجزاء كأنه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتطبيع كأنه منفصل مسخر للتصرف قابل للافصال والاتصال به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو هلك ذلك ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويفعل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار فيها متسع للكرو ومجال ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفضحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكته فيها منادية أرباب القلوب بنفحاتها قائلة لكل ذي لب أماتراني وترى صورتي وتركيبي وصفاني ومنافعي واختلاف حالاني وكثرة فوائدني أنتظن أنني كوتت نفسي أو خلقتني أحد من جنس أوما تستحي أن تنظر في كلمة مر قومة من ثلاثة أحرف فقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية للرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط ثم ينفك قلبك عن جلاله صانعه وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون توهمني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش حدقي وأجفاني وجبهتي وخدي وشفتي قري القويس يظهر شيئا فشيئا على التدريج ولا ترى داخل النطفة نقاشا ولا خارجها ولا داخل الرحم ولا خارجة ولا خبر منها للأُم ولا للآب وللنطفة وللرحم أم شاهد النقاش بأعجب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته فهل تقدر على أن تعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي هم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير

(١) حديث الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض ولم أجده .

استحيا من حسنة أكثر مما استحيا العاصون من سيئاتهم . وقال بعضهم : الغالب على قلوب المستحيين الاجلال والتعظيم دائما عند نظر الله إليهم . ومنها الاتصال . قال النورى : الاتصال مكشفات القلوب ومشاهدات الأسرار . وقال بعضهم الاتصال وصول السر إلى مقام الذهول وقال بعضهم الاتصال أن لا يشهد العبد غير خالقه ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه . وقال سهل بن عبد الله حر كوا بالبلاء فتحر كوا ولو سكنوا اتصلوا . وقال يعنى بن معاذ

اتصال بها لا من داخل ولا من خارج فان كنت لاتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أن الذي صور
 ونقش وقدر لانظير له ولا يساويه تقاش ولا مصور كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وضع بين
 الفاعلين من اللبينة والتباعد ما بين الفاعلين فان كنت لاتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فانه
 أعجب من كل عجب فان الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنمك من التبيين مع هذا البيان
 جدير بأن تعجب منه فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبائه
 فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بزمه وثلاثه فله الخلق
 والأمر والامتنان والفضل واللطف والقهر لاراد لحكمه ولا معقب لقضائه [ومن آياته الهواء اللطيف
 المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض] لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى
 بالعين شخصه وجملته مثل البحر الواحد والطيور مخلقة في جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها
 كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج
 البحر فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحاً هابتة فإن شاء جعله نثراً بين يدي رحمته كما قال سبحانه - وأرسلنا
 الرياح لواقع - فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستمد للثماء وإن شاء جعله عذاباً
 على العصاة من خلقته كما قال تعالى - إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر نزع الناس
 كأنهم أعجاز نخل منقعر - ثم انظر إلى لطف الهواء ثم شدته وقوته مهما ضغط في الماء فالزق المنفوخ
 يتحمل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه
 فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوة مع لطافته وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه
 الماء وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يفوس في الماء لأن الهواء ينقبض عن الفوس في الماء فلا ينفصل
 عن السطح الداخلة من السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف
 كالذي يقع في بئر فيتملق بذيل رجل قوي يمتنع عن الهوى في البئر فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال
 الهواء القوي حتى تمتنع من الهوى والفوس في الماء فسبحان من خلق المركب الثقيل في الهواء اللطيف
 من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرياح والبروق
 والأمطار والثلوج والنهب والصواعق فهي عجائب ما بين السماء والأرض وقد أشار القرآن إلى جملة
 ذلك في قوله تعالى - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عين - وهذا هو الذي بينهما وأشار إلى
 تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى - والسحاب المسخر بين السماء والأرض - وحيث تعرض للبرق
 والبرق والسحاب والطر فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بينك وتسمع الرعد بأذنك
 فالهيمه تشاركك في هذه المعرفة فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم اللاألهي فقد فتحت عينيك
 فأدركت ظاهرها فتمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة ترى عجائب باطنها وغرائب
 أسرارها وهذا أيضا باب يطول الفكر فيه إذ لا مطمع في استقصائه فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف
 تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلق الله تعالى إذا شاء ومتى شاء وهو مع رعايته حامل
 للماء الثقيل وعمسك له في جو السماء إلا أن يأذن الله في إرسال الماء وتمطيع القطرات كل قطرة بالقدر
 الذي أراه الله تعالى وعلى الشكل الذي شاء فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات
 متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم
 لها لاتعدل عنه فلا يتقدم للتأخر ولا يتأخر للتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة فلوا جمع الأولون
 والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عددا ما ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة
 لمجز حسابها لجن والانس عن ذلك فلا يعلم عددها إلا الذي أو جسدتها ثم كل قطرة منها عينت

الرازي :العمال أربعة
 نائب وزاهد ومشتاق
 وواصل فالنائب
 محبوب بتوحيته
 والزاهد محبوب بزهده
 والمشتاق محبوب
 بحاله والواصل لا يحبه
 عن الحق شيء . وقال
 أبو سعيد القرشي :
 الواصل الذي يصله الله
 فلا يخشى عليه القطع
 أبداً والتصل الذي
 يجهده يتصل وكما دنا
 انقطع وكان هذا
 الذي ذكره حال
 المرید والمراد لكون
 أحدها مباداً
 بالكشوف وكون
 الآخر مردوداً إلى
 الاجتهاد . وقال
 أبو يزيد : الواصلون
 في ثلاثة أحرف مهم

لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب مكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية التي في ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالظن للندوف من العجائب التي لا تحصى كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر مالا أحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل بل ليس له مؤننين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ولا للميمان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته فيقول الجاهل للفرور إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ولو قيل له مامعنى الطبع وما الذي خلقه ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقل وما الذي رقى الماء للصبوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق فيمضى كل جزء من كل ورقة ويمجى إليها في تجاويف عروق شجرية صغار يروى منه العرق الذي هو أصل الورقة ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير للممدود في طول الورقة عروق صغار فكان الكبير نهر وما انشعب عنه جداول ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تتبسط في جميع عرض الورقة فيصل للماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق فإن كان ذلك يجذب جاذب لما الذي سخر ذلك الجاذب وإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه من أول الأمر نهاية الجاهل بداية العاقل [ومن آياته ملكوت السموات والأرض وما فيها من الكواكب] وهو الأمر كله ومن أدرك الكل وطاقته عجائب السموات قد فاتته الكل تحميها فالأرض والنبع والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة في بحر وأصغر ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في كتابه فإِنَّ سُوْرَةَ الْاِنْتِشَالِ عَلَى تَفْخِيحِهَا فِي مَوَاضِعٍ وَكَمْ مِنْ قِسْمٍ فِي الْقُرْآنِ بِهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى - وَالسَّمَاءُ ذَاتَ الْبُرُوجِ ، وَالسَّمَاءُ وَالطَّارِقُ ، وَالسَّمَاءُ ذَاتَ الْحَبِكِ ، وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا - وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى - وَالشَّمْسُ وَضِحَاهَا وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا - وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى - فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ الْجَوَّارِ الْكُنُفِ - وَقَوْلِهِ تَعَالَى - وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَى ، فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّ لِقِسْمٍ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ - قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ عَجَائِبَ النُّطْفَةِ الْقُنْفُورَةِ عَجَزَ عَنْ مَعْرِفَتِهَا الْأَوْلَادُ وَالْآخَرُونَ وَمَا أُقْسِمُ اللَّهُ بِهَا فَمَا ظَنَنْتُكَ بِمَا أُقْسِمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَأَحَالَ الْأُرْزَاقَ عَلَيْهِ وَأَضَافَهَا إِلَيْهِ فَقَالَ تَعَالَى - وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُعَدُّونَ - وَأَنْتَ عَلَى التَّفَكُّرِ فِيهِ قَتَالٌ - وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ مَسَحَ بِهَا سَبْتَهُ» (١) أَي تَجَاوَزَهَا مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ وَمَنْ غَرَضٌ مِنَ الْمَرْضِيِّنَ عَنْهُ أَقْتَالَ - وَجَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَمِنْ آيَاتِهَا مَعْرُضُونَ - فَأَيُّ نِسْبَةِ لُجَمِ الْبَحَارِ وَالْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ مَتَخِرَاتٌ عَلَى الْقُرْبِ وَالسَّمَوَاتِ صَلَابٌ شَدِيدٌ مَحْفُوظَاتٌ عَنِ التَّنْزِيلِ إِلَى أَنْ يَبْتَاعَ الْكِتَابَ أَجْله وَلَقَدْ كَسَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَحْفُوظًا قَالٌ - وَجَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا - وَقَالَ سُبْحَانَهُ - وَبَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا - وَقَالَ - أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بِنَاهَا فَارْفَعْ سِكَمَا فَسَوَاهَا - فَانظُرْ إِلَى الْمَلَكُوتِ تَرَى عَجَائِبَ الْعَزْوَاجِ وَالْجِبْرُوتِ وَلَا تَنْظُرُ أَنْ مَعْنَى النَّظَرِ إِلَى الْمَلَكُوتِ بَأَنَّ تَعَدَّ الْبَصَرَ إِلَيْهِ فَرَى زُرْقَةَ السَّمَاءِ وَضَوْءَ الْكَوَاكِبِ وَتَمَرَقَهَا فَان الْبِهَامُ

له وشغلهم في الله ورجوعهم إلى الله . وقال السيارى الوصول مقام جليل وذلك أن الله تعالى إذا أحب عبداً أن يوصله اختصر عليه الطريق وقرب إليه البعيد . وقال الجنيد الواصل هو الحاصل عند ربه وقال ربيع أهل الوصول أوصل الله إليهم قلوبهم فهم محفوظو القوى ممنوعون من الخلق أبداً . وقال ذوالنون ما رجعت من رجعت إلا من الطريق وما وصل إليه أحد قرجمع عنه . واعلم أن الاتصال وللواصلة أشار إليه الشيخ وكل من

(١) حديث وويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبته أي قوله تعالى - ويتفكرون في خلق السموات والأرض - تقدم .

تشارك في هذا النظر فان كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى ابراهيم بقوله - وكذلك ترى ابراهيم ملكوت السموات والأرض - لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فاقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فأجل أيها العاقل فكرك في الملكوت فمضى لفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث قال : رأى قلبى ربى . وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى وأدنى شيء إليك نفسك ثم الأرض التي هي مقرك ثم الهواء الكنتف لك ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض ثم السموات السبع بكواكبها ثم الكرسي ثم العرش ثم اللائكة الذين هم حملة العرش ووزان السموات ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما فينك وبين هذه الفاوز العظيمة والساكنات الشاسعة والعقبات الشاهقة وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة وهي معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعى معرفتك وتقول قد عرفته وعرفت خلقه فقها ذا أتفكر وإلى ماذا أتطلع فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وفي دوراتها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقتها ومغارها ودورها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ومن غير تغير في سيرها بل تجري جميعا في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطوبها الله تعالى طي السجل للكتاب وتدبر عدد كواكبها وكترتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصي ثم انظر كيفية أشكالها فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف الواقت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر إلى إمامته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان وهجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشر جزء من أجزائها وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر واعتقد على طريق الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا والله تعالى حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره ثم في شكله ثم في لونه ثم في وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده وقربه من الكواكب التي يحينه وبعده وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة وأمر السماء أعظم بل لانسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لاقى كبر جسم ولاقى كثرة معانيه وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض فانت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمى على أن يدركها ويدور بجوانبها وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة وفي الأخبار ما يدل على عظمتها (١) ثم الكواكب

وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهو رتبة في التجلي فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار وهذه رتبة في الوصول ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والأنس بما يكشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال وهذا يجلي طريق الصفات وهو رتبة في الوصول ومنهم من ترقى لمقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين وللشاهدة منيا في

(١) الحديث الدال على عظم الشمس أحمد من حديث عبد الله بن عمر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال في نار الله الحامية لولا ما تزعمها من أمر الله لأهلك

التي تراها أصغرها مثل الأرض ثمانى مرات وأكبرها يتسنى إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض وهذا تعرف ارتفاعها وبمدها إذ للبعد صارت ترى صفارا ولتلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال - رفع صمكتها فساواها - وفي الأخبار أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام (١) فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضمافا فانظر إلى كثرة الكواكب ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لانحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها لكن لاتشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة قعدار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم «هل زالت الشمس فقال لا نعم فقال كيف تقول لانهم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام (٢) فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتهما مع اتساع أكنافها في حدقة العين مع صغرهما حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لاتنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل عالم كبيت واحد والسماء سقفة فالعجب منك أنك تدخل بيت غنى فتراه مزوقا بالصبح مموها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تنزال تذكرة وتصف حسنه طول عمره وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعه وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لاتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه لما هذا البيت دون ذلك البيت الذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر إليه ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذي انفرد بينائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت بطنك وفرجك ليس لك ثم إلا شهوتك أو حشمتك وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ولا تقدر على أن تأكل عشر مائتا كلة بهيمة فتكون الهيمة فوقك بشر درجات وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فيناقون بألسنتهم بين يديك ويضمرن خبايا الاعتقادات عليك وإن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعا ولا ضررا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذا التورور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض ثم غفلت عن التمتع بالنظر إلى جلال مالك الملك وما مثلك ومثل عقلتك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذي خفرتة في قصر مشيد من تصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجوارى واللسان وأنواع الدخائر

ما على الأرض وللطيراني في الكبير من حديث أبي أمامة وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم لولا ذلك ما أتت على شيء إلا أحرقتة (١) حديث بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام الترمذى من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال غريب قال وروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى ابن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبي هريرة ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي نصره عن أبي ذر ورجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبي نصره سماع من أبي ذر (٢) حديث أنه قال لجبريل هل زالت الشمس فقال لانهم فقال كيف تقول لانهم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام لم أجد له أصلا.

شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلى القدرات لخواص القربين وهذا اللقام رتبة في الوصول وفوق هذا حق اليقين ويكون من ذلك في الدنيا لخواص لمح وهو سريان نور الشاهدة في كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قابله وهذا من أعلى رتب الوصول فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد في أول المنزل فأين الوصول هيات منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدى فكيف في العمر القصير الدنيوى ومنها

والنمائم فإما إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبها لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بينها وغداها وكيفية ادخارها فأما حال القصر والملك الذي في القصر فهي بمنزلة عن وعن التفكير فيه بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغداها وبينها إلى غيره وكما غفلت الخلة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضا عن سكانه فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه الخلة من سقف بيتك ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرفه الخلة منك ومن سكان بيتك ، نعم ليس للخلقة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب تصرفك وبدائع صنعة الصانع فيه وأما أنت فلك قدرة على أن تجول في السموات وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه ولتقبض عنان الكلام عن هذا الخط فإنه مجال لا آخر له ولو استقصينا أعمارنا وطويلة لم تقدر على شرح ما فضل الله تعالى علينا بعرفته وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة القربون كما سرافيل وجبريل وغيرهم جميع علوم الملائكة والجن والانس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما بل هو إلى أن يسمى دهشا وحيرة وقصورا وعجزا أقرب فسبحان من عرف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم فقال - وما أو تيتيم من العلم إلا قليلا - فهذا بيان معاقب الجمل التي تجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لإحاطة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته وكما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم ، وهذا كما أنك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيرا وتعظيما واحتراما حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيد محلا من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتأهي أبدا وإنما لكل عبد منها بقدر ما رزق ، فلنقتصر على ما ذكرناه ولنضف إلى هذا ما فضلناه في كتاب الشكر فإنا نظرنا في ذلك الكتاب في فضل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا ، وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته والوقوف ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدى بها من يشاء ، فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وضعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لامن حيث ارتباطها بسبب الأسباب فقد شقي وارتمى فعوذ بالله من الضلال ، ونسأله أن يمنحنا منزلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته .

(تم الكتاب التاسع من ربيع النجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه)

يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده وبه كل جميع الديوان بمحمد الله تعالى وكرمه .

القبض والبسط وهما
حالان شريفان قال الله
تعالى - والله يقبض
ويبسط - وقد تكلم
بهما الشيوخ وأشاروا
بإشارات هي علامات
القبض والبسط ولم
أجد ككشافا عن
حقيقتيهما إلا أنها كتفوا
بالإشارة والإشارة
تمنع الأهل وأحببت
أن أشبع الكلام فيهما
لهذه يتشوق إلى ذلك
طالب ويجب بسط
القول فيه والله أعلم .
واعلم أن القبض
والبسط لهما موسم
معلوم ووقت محتموم
لا يكونان قبله ولا
يكونان بعده ووقتهما
وموسمهما في أوائل حال
الهبطة الخاصة لاني نهايتها

(كتاب ذكر الموت وما بعده)

(وهو الكتاب العاشر من ربيع النجيات ، وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي قسم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة ، وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة ، فقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحد ، ومن ملاعبة الجواري والعلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التمتع بالطعام والشراب إلى الترخ في التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن الضجع الوثير إلى المصرع الويل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزاً ، وانخذوا من دونه حجاباً وحرزاً ، وانظر - هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً - فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ، ثم جعل الموت مخلصاً للاقتناء وموعداً في حقهم للقاء وجعل القبر سجناً للأشقياء وحبساً لضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء فله الانعام بالنعم المتظاهرة ، وله الاتقام بالنعم القاهرة ، وله الشكر في السموات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذي العجرات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً .

[أما بعد] فجدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره ، والقيامة مواعده ، والجنة والنار مورد ، أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تخرج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار إلا برص إلا له ، وحميق بأن يعدت نفسه من الموتى وبراها في أمهات القبور ، فان كل ماهو آت قريب والبعيد ما ليس بآت ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ^(١) » ولن ييسر الاستعداد للشي إلا عند تجديد ذكره على القلب ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالأصناف إلى المذكرات له والنظر في النهايات عليه ونحن نذكر من أمر الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بد للبعيد من تذكره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ، ليكون ذلك مستحفاً على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فماتى من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون - اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون - ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين :

(الشطر الأول في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور ، وفيه ثمانية أبواب :)

الباب الأول في فضل ذكر الموت والترغيب فيه . الباب الثاني في ذكر طول الأمل وقصره . الباب الثالث في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عند الموت . الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده . الباب الخامس في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين . الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور . الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور . الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام .

(كتاب ذكر الموت وما بعده)

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت تقدم غير مرة .

ولا قبل حال المحبة
الخاصة فمن هو
في مقام المحبة العامة
الثابتة بحكم الايمان
لا يكون له قبض ولا
بسط وإنما يكون له
خوف ورجاء وقد يجد
شبه حال القبض وشبه
حال البسط ويظن
ذلك قبضاً وبسطاً
وليس هو ذلك وإنما
هو ثم يستره فيظنه
قبضاً واهتزاز نفساً
ونشاط طبعي يظنه
بسطاً والمهم والنشاط
يصدران من محل
النفس ومن جوهرها
لبقاء صفاتها ومادامت
صفة الأمانة فيها بقية
على النفس يكون منها
الاهتزاز والنشاط والمهم
وهي ساجور النفس

(الباب الأول في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره)

اعلم أن التهمك في الدنيا السكب على غرورها المحب لشهواتها يفغل قلبه لاحالة عن ذكر الموت فلا يذكره وإذا ذكر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم - قل إن للموت الذي تفرون منه فانه ملائكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون - ثم الناس إمامهمك وإماتائب مبتدئ أو عارف منته أما التهمك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشغل بدمته وهذا يزيد ذكر الموت من الله بعدا ، وأما النائب فانه يكثر من ذكر الموت لينبئ به من قلبه الخوف والحشية فينبئ بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يخطئه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم «من كره لقاء الله كره لقاء الله لقاءه»^(١) فان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه رضاه فلا يعد كارها للقائه ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لاشغل له سواء وإلا التحق بالتهمك في الدنيا وأما العارف فانه يذكر الموت دائما لأنه موعده للقائه لحبيبه والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب وهذا في غالب الأمر يستبطنه بحسب الموت ويجب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال حبيب جاء على فاقة لأفزع من ندم اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من الصحة والموت أحب إلى من العيش فسهل على الموت حتى ألتقاه ، فأذن النائب معذور في كراهة الموت وهذا معذور في حب الموت وتمنيه وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتا ولا حياة بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى ، وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل فان التهمك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا إذ ينقص عليه نعيمه ويكدر عليه صفوته وكل ما يكدر على الانسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة .

(بيان فضل ذكر الموت كيفما كان)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثروا من ذكر هاذم اللذات»^(٢) معناه تصوموا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم «لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا»^(٣) وقالت عائشة رضيت الله عنها «يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة»^(٤) وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للأخرة والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا ، وقال صلى الله عليه وسلم «تحفة المؤمن الموت»^(٥) وإنما قال هذا

(الباب الأول في ذكر الموت والترغيب فيه)

(١) حديث من كره لقاء الله كره لقاء الله لقاءه متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أكثروا من ذكر هاذم اللذات الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٣) حديث لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم (٤) حديث قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من ذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة تقدم (٥) حديث تحفة المؤمن الموت ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم من حديث عبدالله بن عمر مرسل بسند حسن .

والنشاط ارتضاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع فاذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذاحل وذاقب وذا نفس لوامة ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الايمان وحال المحبة الخاصة فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى قال الواسطي يقبض عمالك ويبسطك فيما له وقال النوري يقبض بياك ويبسطك لإياه واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها وظهور البسط لظهور صفة القلب وغابته

لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدامعة شيطانه فالموت إطلاق له من هذا العذاب والإطلاق تخفة في حقه وقال صلى الله عليه وسلم «الموت كفارة لكل مسلم» (١) وأراد بهذا المسلم حقا المؤمن صدقا الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من العاصي إلا باللمم والصفائر فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبار وإقامته الفرائض . قال عطاء الخراساني «مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات قالوا وما مكدر اللذات قال الموت» (٢) وقال أنس رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثر ما من ذكر الموت فإنه يحصن الذنوب ويذهب في الدنيا» (٣) وقال صلى الله عليه وسلم «كفى بالموت مفرقا» (٤) وقال عليه السلام «كفى بالموت واعظا» (٥) . «وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون ، فقال : اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» (٦) . «وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه ، فقال : كيف ذكر صاحبكم للموت قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال فان صاحبكم ليس هنالك» (٧) وقال ابن عمر رضي الله عنهما «أثبت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله فقال : أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة» (٨) وأما الآثار : فقد قال الحسن رحمه الله تعالى نضح الموت الدنيا فلم يترك لدى لب فرحا . وقال الربيع ابن خيثم ما قائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت وكان يقول لا تشعروا بي أحدا وسلوني إلى ربى سلا وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : يا أخى احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تبعى فيها الموت فلا تجده . وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه وكان عمر بن عبدالعزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يكون حتى كأن بين أيديهم جنازة . وقال إبراهيم التيمي شيئا قطعا عنى لذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل . وقال كعب

(١) حديث الموت كفارة لكل مسلم أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والحطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج الريددين إنه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزى وقد جمعت طرقه في جزء (٢) حديث عطاء الخراساني مر النبي صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات الحديث ابن أبي الدنيا في الموت هكذا مر سلا وروينا في أمالي الحلال من حديث أنس ولا يصح (٣) حديث أنس أكثر ما من ذكر الموت فإنه يحصن الذنوب ويذهب في الدنيا ابن أبي الدنيا في الموت باسناد ضعيف جدا (٤) حديث كفى بالموت مفرقا الحديث ابن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في البر والصلة من رواية أبي عبد الرحمن الحبلى مر سلا (٥) حديث كفى بالموت واعظا الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٦) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٧) حديث ذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال كيف كان ذكر صاحبكم للموت الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال أنا مالك بن مغول فقد كره بلاغا بزيادة فيه (٨) حديث ابن عمر أثبت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس الحديث ابن ماجه مختصرا وابن أبي الدنيا بكامله باسناد جيد .

والنفس مادامت لوامة فتارة مغلوبة وتارة غالبية والتقبض والبسط باعتبار ذلك منها وصاحب القلب تحت حجاب نوراني لوجود قلبه كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظلماني لوجود نفسه فاذا ارتقى من القلب وخرج من حجابه لا يقيدته الحال ولا يتصرف فيه فيخرج من تصرف القبض والبسط حيثه فلا يقبض ولا يبسط مادام متخلصا من الوجود النوراني الذي هو القلب ومتحققا بالقرب من غير حجاب النفس والقلب فاذا عاد إلى

من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهوومها . وقل مطرف رأيت فيما يرى النائم كأن قاتلا يقول في وسط مسجد البصرة : قطع ذكر الموت قلوب الخائمين فوائه ما تراهم إلا والهيمن . وقال أشعث كنا ندخل على الحسن فأنما هو النار وأمر الآخرة وذكر الموت . وقالت صفية رضي الله تعالى عنها إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت أ كثرى ذكر الموت يرق قلبك فعملت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما . وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى تتخلع أوصاله فاذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه . وقال الحسن . ما رأيت عاقلا قط إلا أصبته من الموت حذرا وعليه حزينا وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء عظمي فقال ألت أول خليفة موت قال زدني قال ليس من آباءك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك فبكي عمر لذلك . وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبراً في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول لو فارق ذكر الموت قاتلي ساعة واحدة لفسد . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نصيباً لموت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لعنينة أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسهه عليك . وقال أبو سليمان الداراني قلت لأم هرون : آتيني الموت ؟ قالت لا ، قلت لم ؟ قالت لو عصيت آدميا ما اشتيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته

(بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب)

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لثقله ففكرهم فيه وذكورهم له ومن يذكوره ليس يذكوره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجح ذكر الموت في قلبه فالطريق فيه أن يفرغ القلب من كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة عظيمة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه فاذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرجه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه وأنجم طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فينتدح موتهم ومصارعهم تحت التراب وينتدح صورهم في مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف محال التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاءهم في قبورهم وكيف أرموا نساءهم وأيتامهم وأولادهم وضيعوا أموالهم وخلصت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم ففهما تندح رجل رجلا وفصل في قلبه حاله وكيفية موته وتوهم صورته وتندح نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ونسيانه للموت وانخداعه بعوادة الأسباب وركونه إلى القوة والشباب وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الدريع والهلاك السريع وأنه كيف كان يتردد والآل قد تهدمت رجلاه ومفاصله وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراى به حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه فأنكشف له صورة الملك وقرع صممه النداء إما بالجنة أو بالنار فندح ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كفعلتهم وستكون عاقبته كما قبتهم . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكرت الموتى فقد نفست كأحدم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه السعيد من وعظ بغيره . وقال عمر بن عبد العزيز ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً ورايحاً إلى الله عز وجل تضعونه في صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحياب وقطع الأسباب فللأمة هذه الأفكار وأما لها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجد ذكر الموت في القلب حتى يقاب عليه بحيث يصير نصب عينيه فعند ذلك يوشك أن يستمد له ويتجافى عن دار الضرور وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان

الوجود من الفناء والبقاء يسود إلى الوجود والنوراني الذي هو القلب فيعود القبض والبسط إليه ضد ذلك ومهما تخلص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط قال فارس أوالا القبض ثم البسط ثم لا قبض ولا بسط لأن القبض والبسط يقع في الوجود فأما مع الفناء والبقاء فلا ثم إن القبض قد يكون عقوبة الإفراط في البسط وذلك أن الولد من الله تعالى يرد على القلب فيمتلئ القلب منه وروحاً وفرحاً واستبشاراً فتشرق النفس السمع عند ذلك وتأخذ نصيبها فاذا وصل أثر الوارد

قليل الجدوى في التحذير والتذبير ومهما طاب قلبه بشئ من الدنيا يفتى أن يتذكر في الحال أنه لا بد له من مفارقتها ، نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسناتها ثم بكى فقال والله لولا اللوت لكنت بك مسرورا ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور أقررت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته .

(الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل وسبب طوله وكيفية معالجته)

(فضيلة قصر الأمل)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر « إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لضعفك فانك يا عبد الله لا تدري ما حملك غدا »^(١) وروى على كرم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا ثم قال : إلا إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويمنع وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان إلا إن للدين أبناء وللدينا أبناء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا إلا إن الدنيا قد ارتحمت مولية إلا إن الآخرة قد ارتحمت مقبلة الأولاد إنكم في يوم عمل ليس فيه حساب الأولاد إنكم توشكون في يوم حساب ليس فيه عمل »^(٢) وقالت أم النذر « اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال : أيها الناس أمانتحيون من الله قالوا وما ذلك يا رسول الله ؟ قال تجمعون ما لا تاكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون »^(٣) وقال أبو سعيد الخدري « اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر إن أسامة لطويل الأمل والذي نفسى بيده ما طرفت عيناى إلا ظننت أن شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ولا رفت طرفى فظننت أنى واضعه حتى أقبض ولا لقت لقة إلا ظننت أنى لأسيغها حتى أغص بها من الموت ثم قال يا بنى آدم إن كنتم تعقلون فسدوا أنفسكم من اللوتى والذي نفسى بيده - إن ماتوا وعدون لآت وما آتكم بمجزين - »^(٤) وعن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالتراب فأقول له يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول ما يدري لعلى لأبأه »^(٥) وروى « أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد فحز عودا

(الباب الثاني في طول الأمل)

(١) حديث قال لعبد الله بن عمر إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء الحديث ابن حبان ورواه البخارى من قول ابن عمر في آخر حديث كنى في الدنيا كأنك غريب (٢) حديث على إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل الحديث بطوله ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف (٣) حديث أم النذر أيها الناس أمانتحيون من الله تعالى قالوا وما ذلك يا رسول الله قال تجمعون ما لا تاكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون الحديث ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقى في الشعب باسناد ضعيف وقد تقدم (٤) حديث ابن سعيد اشترى ابن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والطبرانى في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية والبيهقى في الشعب بسند ضعيف (٥) حديث ابن عباس كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالباب فأقول الماء منك قريب فيقول ما يدري لعلى لأبأه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل والبراز بسند ضعيف .

إلى النفس طنت بطبها وأفرطت في البسط حتى تشاكل البسط نشاطا فتقابل بالقبض عقوبة وكل القبض إذا فقس لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفها ولو تأدبت النفس وعدلت ولم تجر بالطغيان تارة وبالصبيان أخرى ما وجد صاحب القلب القبض وما دام روحه وأنسه ورعايته الاعتدال الذى يسد باب القبض متلقى من قوله تعالى - لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم - فوارد الفرح مادام موقوفا على الروح والقلب لا يكثف

بين يديه والآخر إلى جنبه وأما الثالث فأبده فقال هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا
الإنسان وهذا الأجل وذلك الأمل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل (١) وقال عليه السلام
«مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته النايا وقع في الهرم (٢)» قال ابن مسعود هذا
المرء وهذه الختوف حوله شوارع إليه والهرم وراء الختوف والأمل وراء الهرم فهو يؤمل وهذه
الختوف شوارع إليه فأبها أمر به أخذها فإن أخطأته الختوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل قال
عبد الله «خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا وخط خطوطا إلى جنب
الخط وخط خطا خارجا وقال أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا الإنسان للخط الذي في الوسط
وهذا الأجل محيط به وهذه الأعراض للخطوط التي حوله تنهشه إن أخطأه هذا تنهشه هذا وذلك الأمل
يعنى الخط الخارج (٣)» وقال أنس «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويقيم معه اثنتان
الحرص والأمل (٤)» وفي رواية وتنبأ معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وقال رسول
الله ﷺ «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل (٥)» وقيل بينا
عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثر بها الأرض فقال عيسى اللهم انزع منه الأمل فوضع
الشيخ المسحاة واضطجع فلبت ساعة فقال عيسى اللهم اردد إليه الأمل فقام فجعل يعمل فسأله عيسى
عن ذلك فقال بينا أنا أعمل إذ قالت لي نفسي إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير فألقيت المسحاة واضطجعت
ثم قالت لي نفسي والله لا بد لك من عيش ما بقيت فممت إلى مسحاتي، وقال الحسن قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم «أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصر وامن الأمل وثبتوا آجالكم
بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء (٦)» «وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : اللهم إني
أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع
خير العمل (٧)» الآثار : قال مطرف بن عبد الله لوعلمت متى أجلى لحشيت على ذهاب عقلي ولكن
الله تعالى من على عباده بالعقلة عن الموت ولولا العقلة ماتهنوا بهيش ولانامت بينهم الأسواق. وقال
الحسن السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما مشى المسلمون في الطرق. وقال الثوري
بلغني أن الإنسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهنا العيش. وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن إنما

(١) حديث أنه أخذ ثلاثة أعواد ففرز عودا بين يديه الحديث أحمد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل
واللفظ له الرامهرمزي في الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري وإسناده
حسن ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضا من رواية أبي المتوكل مرسل (٢) حديث
مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن الشخير وقال
حسن (٣) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا
الحديث رواه البخاري (٤) حديث أنس يهرم ابن آدم ويقيم معه اثنتان الحرص والأمل وفي رواية
ويشبه معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر ورواه مسلم بلفظ الثاني وابن أبي الدنيا في
قصر الأمل باللفظ الأول بإسناد صحيح (٥) حديث نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه
الأمة بالبخل والأمل ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده
(٦) حديث الحسن أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصر وامن الأمل الحديث
ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسل (٧) حديث كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه اللهم إني
أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل
ابن أبي الدنيا فيه. من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي إسناده ضعف وجهاله ولا أدري من حوشب.

ولا يستوجب صاحبه
التبس سببا إذا لطف
بالفرح بالوارد بالايواء
إلى الله وإذا لم يتجنى
بالايواء إلى الله تعالى
تظلمت النفس وأخذت
حظها من الفرح وهو
الفرح بما أتى المنوع
منه فمن ذلك القبض
في بعض الأحيان
وهذا من أطف
الذنوب الموجبة للقبض
وفي النفس من حركاتها
وصفات وأبواب متعددة
موجبة للقبض ثم
الخشوف والرجاء
لا يدمهما صاحب
القبض والبسط ولا
صاحب الأنى والهيبة
لأنهما من ضرورة
الإيمان فلا يندمان
وأما القبض والبسط

عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها . وقال سلمان الفارسي رضى الله عنه ثلاث أعجبتني حتى أضحكنتي مؤمل الدنيا ولطوت يطابه وغافل وليس يفعل عنه وضاحك ملء فيه ولا يدري أما خاطرب المالمين عليه أم راض وثلاث أحرزنتني حتى أبكتني فراق الأخية محمد وحزبه وهول المطلع والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار . وقال بعضهم رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في المنام فقلت أي الأعمال أبلغ عندهم قال التوكل وقصر الأمل . وقال الثوري الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة وسأل المنضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب ثم دعا ربه فرد عليه الأجل فرجع إلى الطعام والشراب . وقيل للحسن يا أبا سعيد ألا تنسل قبضك فقال الأمر أعجل من ذلك . وقال الحسن الموت معقود بنواصيك والدنيا تطوى من ورائكم وقال بعضهم أنا كرجل هاد عنقه والسيهية عليه ينتظر متى تضرب عنقه . وقال داود الطائي لو أملت أن أعيش شهرا رأيتني قد أتيت عظيما وكيف أو مل ذلك وأرى الفجائع تنشى الخلائق في ساعات الليل والنهار . وحكى أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذه يقال له أبو هاشم الرماني وفي طرف كسائه شيء مصرور فقال له أستاذه إيش هذا معك فقال لوزات دفنها إلى أخ لي وقال أحب أن تظفر عليا فقال يا شقيق وأنت أحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كنتك أبدا قال فأغلق في وجهي الباب ودخل . وقال عمر ابن عبد العزيز في خطبته إن لكل سفر زادا لا محالة فزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى وكونوا كمن عين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ولا يطولن عليكم الأمد فتسوق قلوبكم وتتقادوا لعدوكم فانه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا عسى بعد صباحه وربما كانت بين ذلك خطفات الناياء كم رأيت ورأيت من كان بالدنيا مغترا وإنما تمر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لا يداوى كلما إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح أعوذ بالله من أن آمركم بما لا أنهي عنه نفسي فتخسر صفقتي وتظهر عيبتي وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الفنى والفقر والوازين فيه منصوبة لقد عنيتم بأمر لو عنيتم به النجوم لانكدرت ولو عنيتم به الجبال للدابت ولو عنيتم به الأرض لثقت أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وأنكم صائرون إلى إحداها وكتب رجل إلى أخ له أما بعد فان الدنيا حلم والآخرة يقظة والتوسط بينهما اللوت ونحن في أضغاث أحلام والسلام وكتب آخر إلى أخ له إن الحزن على الدنيا يطويل واللوت من الانسان قريب وللنقص في كل يوم منه نصيب وللبلاد في جسمه ديب فبادر قبل أن تنادى بالرحيل والسلام . وقال الحسن كان آدم عليه السلام قبل أن يخطئ أمه خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حول فجعل أمه بين عينيه وأجله خلف ظهره . وقال عبد الله بن سميطة سمعت أبي يقول أيها الغتر بطول صحته أما رأيت ميتا قط من غير سقم أيها الغتر بطول المهلة أما رأيت ما خوذنا قط من غير عدة إنك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك أبالصحة فتفرون أم بطول العافية ترحون أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجفرون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفریط ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت ، وقال أبو بكر الصديق بيانا سايبان بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور فطلب من يقرؤه فأتى بوهب بن منبه فاذا فيه ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك ولرغبت في الزيادة من عملك وانصرت من حرصك وحيك وإعما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسعدك أهلك وحشمك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب فلا أنت إلى دنياك طامد ولا في حسانتك زائد فاعمل

فإنه ممان عند صاحب
الإيمان لنقصان الحظ
من القلب وعند صاحب
الفناء والبقاء والقرب
لتخلصه من القلب
وقد برد على الباطن
قبض وبسط ولا
يسرف سببها ولا
يغنى سبب القبض
والبسط إلا على قليل
الحظ من العلم الذي
لم يحكم علم الحال ولا
علم المقام . ومن أحكم
علم الحال والمقام لا يغنى
عليه سبب القبض
والبسط وربما يشبهه
عليه سبب القبض
والبسط كما يشبهه عليه
المهم بالقبض والنشاط
بالبسط وإنما علم
ذلك لمن استقام قلبه
ومن عدم القبض
والبسط وارتقى منها

ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة فيكي سليمان بكاء شديدا وقال بعضهم رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو أما بعد فإني أحذرك متحولك من دار مهلكك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينهرانك فان يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع ثم تبليغك صيحة الحشر وتفتح الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الأرض من أهلها والسماوات من سكانها فباحث الأسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجمء بالبين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين فكم من مفتضح ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم فيا ليت شعري ما حالي وحالك يومئذ في هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الأمل وأيقظ النائمين وحذر الغافلين أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين فإتعا عن بهوله والسلام . وخطب عمر بن عبد العزيز حمد الله وأثنى عليه وقال أيها الناس إنكم لم تخلعوا عبثا ولن تتركوا سدى وإن لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم فإتعا عن غدا بعد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء وجته التي عرضها السماوات والأرض وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى وباع قليلا بكثير وقانيا ياق وشقوة بسعادة ألا ترون أنكم في أسلاب المهالكين وسيخلف بدمكم الباقون ألا ترون أنكم في كل يوم تسيحون غدا ياورنا إلى الله عز وجل قد قضى نهبه واتقطع أمه فضعفوه في بطن صدع من الأرض غير موسى ولا محمد قد خلع الأسباب وفارق الأحياب وواجه الحساب وإيم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي ولكننا سنن من الله عادلة أمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن مصيئته وأستغفر الله ووضع كفه على وجهه وجعل يديه حتى يلت دموعه لحيته وما عاد إلى مجلسه حتى مات وقال القمقاع بن حكيم قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء وقال الثوري رأيت شيئا في مسجد الكوفة يقول أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي ولو أتاني ما أمرته بشيء ولا نهيته عن شيء ولا لي على أحد شيء ولا لأحد عندي شيء وقال عبد الله بن ثعلبة تضحك ولعل أ كفا نك قد خرجت من عند القصار ، وقال أبو محمد بن علي الزاهد خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي فاتخذ قعدا ناحية وهي تدفن جثت قعدت قريبا منه فتكلم فقال : من خاف الوعيد فصر عليه البعيد ومن طال أمه ضف عمله وكل ما هو آت قريب . واعلم يا أخي أن كل شيء يشفك عن ربك فهو عليك مشيؤم واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور وإنما يندمون على ما خلفون ويفرحون بما يقدمون لما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون . وروى أن معروفا الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة قال محمد بن أبي توبة فقال لي تقدم فقلت إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها فقال معروف وأنت تحدث نفسك أن تصل صلاة أخرى تعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته إن الدنيا ليست بدار قرار كم دار كتب الله عليها الفناء وكتب على أهلها الظن عنها فسكن من عامر موثق عما قليل يخرّب وكم من مقيم مقبض عما قليل يظعن فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما يحضرتمكم من النقلة وتزودوا فان خير الزاد التقوى وإنما الدنيا كئيب ظلال قلص فذهب بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قرير العين إذ دعاه الله بقدره ورماه يوم حنقه فسلبه آثاره وديناره وصير لقوم آخرين مصانعه ومضاه إن الدنيا لا تمر بقدر ما تضر إنما تسر قليلا وتعجز طويلا . وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

ففسه مطمئنة
لا تفتح من جوهرها
نار توجب القبض ولا
يتلاطم بحر طبعها من
أهوية الهوى حتى
يظهر منه البسط وربما
صار مثل هذا القبض
والبسط في نفسه لا من
نفسه فنكون نفسه
المطمئنة بطبع القلب
فيجري القبض
والبسط في نفسه
المطمئنة وما لقلبه قبض
ولا بسط لأن القلب
متحصن بشعاع نور
الروح مستقر في دعة
القرب فلا قبض ولا
بسط (ومنها الفناء
والبقاء) قد قيل
الفناء أن يفنى عن
الحفظ فلا يكون له
في شيء حظ بل يفنى

أنه كان يقول في خطبته أين الوضاعة الحسنة وجوههم للمحبون بشبابهم أين الملوك الذين بنوا المدن
وحصنوها بالحيطان أين الذين كانوا يطولون الثلبة في مواطن الحرب قد تضع بهم الدهر فأصبحوا
في ظلمات القبور الوحا ثم النجا النجا .

(بيان السبب في طول الأمل وعلاجه)

اعلم أن طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل والآخر حب الدنيا أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنس بها
وبشهواتها ولداتها وعلاقتها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها
وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه والانسان مشغوف بالأمانى الباطلة فيمضى نفسه أبدا بما يوافق مراده
وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج
إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه كما كفا على هذا الفكر موقوفا
عليه فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه فان خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد
له سوف ووعد نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب وإذا كبر فيقول إلى أن تصبر شيئا
فاذا صار شيئا قال إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة
أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك
فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق باتمام ذلك الشغل عشرة أشهر أخرى وهكذا
على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه النية في وقت
لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزننا من سوف
والسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعو إلى التسويف اليوم هو معه غدا وإنما زاد بطول المدة
قوة ورسوخا ويظن أنه يتصور أن يكون للخائف في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيئات فما يفرغ
منها إلا من أطرحها :

لما قضى أحد منها لبائسه وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله سبحان الله « أحب من أحببت فانك
مفارقة (١) . وأما الجهل فهو أن الانسان قد يعود على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب وليس
يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد وإنما قالوا لأن الموت في الشباب
أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ولا
يدري أن ذلك غير بعيد وإن كان ذلك بعيدا فالمرض فجأة غير بعيد وكل مرض فائما يقع فجأة وإذا
مرض لم يكن الموت بعيدا ولو تفكر هذا العاقل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب
وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وريبع من ليل ونهار لعظم استشهاده واشتغل بالاستعداد
له ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب
فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز
ولا يقدر أن تشيع جنازته لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره فأما موت نفسه
فلم يألفه ولم يتصور أن يألفه فانه لم يقع وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه فهو الأول وهو الآخر
وسيله أن يفيس نفسه بغيره ويهلم أنه لا بد وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره ولعل اللبن الذي يسطى
به لحد قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويفه جهل محض ، وإذا عرفت أن سببه الجهل
وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه أما الجهل فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسبب الحكمة

(١) حديث أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم غير مرة .

عن الأشياء كلها
شغلا بمن في فيه
وقد قال عامر بن
عبد الله لأبالي
امرأة رأيت أم حانظا
ويكون محفوظا فيها
لله عليه مصروفا
عن جميع المخالفات
والبقاء يعقبه وهو
أن يفنى عماله ويقتى
بما لله تعالى . وقيل
الباقى أن تصير
الأشياء كلها له شيئا
واحدا فيكون كل
حركته في موافقة
الحق دون مخالفته
فكان قائما عن
المخالفات باقيا في
المواقفات . وعندى
أن هذا الذى ذكره
هذا القائل هو

الباقية من القلوب الطاهرة وأما حب الدنيا فالعلاج في إخراجها من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعبأ الأولين والآخريين علاجه ولا علاج له إلا الإيمان، باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فإن حب الخطير هو الذي يعمو عن القلب حب الحقير فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استبكتف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطى ملك الأرض من الشرق إلى المغرب وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منغص فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا أماناً كان مستهدفاً فوزاً عظيماً وأماناً كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسرانا مبيناً فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لامحالة وكيف تتفتت عظامها ولتفكر أن الدود يبدأ بحدته النبي أولاً واليسرى فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر ووال منسكرونا كبير ومن الحشر والنشر وأحوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

(بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره)

اعلم أن الناس في ذلك يتفاوتون فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أيذا قال الله تعالى - يودّ أحدكم لو يعمر ألف سنة - ومنهم من يأمل البقاء إلى المهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل مأم» (١) ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدر لنفسه وجوداً في عام قابل ولكن هذا يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف فإذا جمع ما يكفيه استعمل بالعبادة ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمه إلى يوم وليلة فلا يستعد لإلتهازه وأماله فلا قال عيسى عليه السلام : لاهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فستأني فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم ومنهم من لا يجاوز أمه ساعة كما قال نبينا ﷺ «يا عبد الله إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح» ومنهم من لا يقدر البقاء أيضاً ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضى ساعة ويقول لعلى لأبلفه ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره وهذا الإنسان هو الذي يصلى صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال ما خطوت خطوة إلا ظننت أنى لأتبعها أخرى (٢) وكما نقل عن الأسود وهو حبشى أنه كان يصلى ليلاً ولتفتت عينا وشمالاً فقال له قائل ما هذا قال أنظر ملك الموت من أى جهة يأتيني فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من

(١) حديث الشيخ شاب في حب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل مأم لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال (٢) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة إيمانه فقال ما خطوت خطوة إلا ظننت أنى لأتبعها أخرى أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وهو ضعيف .

مقام صحة التوبة
النصح وليس من
الفناء والبقاء في شيء
ومن الإشارة إلى الفناء
ماروى عن عبد الله
ابن عمر أنه سلم عليه
إنسان وهو في الطواف
فلم يرد عليه فشكاه
إلى بعض أصحابه فقالوا
له كنا نترامى الله في
ذلك المكان . وقيل :
الفناء هو التوبة عن
الأشياء كما كان فناء
موسى حين تجلى ربه
للجبل . وقال الخراز :
الفناء هو التلاشي
بالحق والبقاء هو
الحضور مع الحق .
وقال الجنيد : الفناء
استجمام الشكل عن
أوصافك واشتغال
الشكل منك بكليته

أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله فان الله لا يظلم مثقال ذرة - ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - ثم يظهر أثر قصر الأمل في البادرة إلى العمل وكل إنسان يدعى أنه تصير الأمل وهو كاذب وإنما يظهر ذلك بأعماله فانه يعنى بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة فيدل ذلك على طول أمله وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يفهل عنه ساعة فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت فان عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ثم يستأنف مثله إلى الصباح وهكذا إذا أصبح ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه فمثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالوفاة له سعادة والحياة له مزيد فليكن الموت على بالك يأسكين فان السير حث بك وأنت غافل عن نفسك ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهات فيه .

(بيان البادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير)

اعلم أن من له أخوان غائبان وينظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غدا فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسى ما وراء المدة ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكاملها لا ينقص منها اليوم الذي مضى وذلك يمنع من مبادرة العمل أبدا فانه أبدا يرى لنفسه متسما في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال عليه السلام « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هراما مقيدا أو موتا مجهزا أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر أو الساعة أو الساعة أدهى وأمر (١) » وذلك ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يمظله « اغتم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ (٣) » أي أنه لا يشتغل بهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن ساعة الله غالية ألا إن ساعة الله الجنة (٤) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه (٥) » « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتستم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة (٦) » وقال أبو هريرة « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا النذير والموت الغير والساعة الوعد (٧) »

(١) حديث ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ هل ينتظرون إلا غنا الحديث وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ النصف وفيه من لم يسم (٢) حديث ابن عباس اغتم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك الحديث ابن أبي الدنيا فيه باسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدي مرسلا (٣) حديث نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ البخاري من حديث ابن عباس وقد تقدم (٤) حديث من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن (٥) حديث جاءت الراجفة تتبعها الرادفة الحديث الترمذي وحسنه ابن حديث أبي بن كعب (٦) حديث كان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتستم المنية الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السلمي مرسلا (٧) حديث أبي هريرة أنا النذير والموت الغير والساعة الموعد ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوي باسناد فيه لين .

وقال إبراهيم بن شيبان علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوجدانية وصحة العبودية وما كان غير هذا فهو من الغالط والزندقة . وسئل الحراز ما علامة الفاني ؟ قال علامة من ادعى الفناء ذهب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى . وقال أبو سعيد الحراز : أهل الفناء في الفناء صحتهم أن يصحبه علم البقاء وأهل البقاء في البقاء صحتهم أن يصحبه علم الفناء .

واعلم أن أقاويل الشيوخ في الفناء

وقال ابن عمر « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السمف فقال ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقي متملقا بحيث في آخره فيوشك ذلك الحيط أن ينقطع (٢) » وقال جابر « كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومسيبتكم بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين أصبعيه (٣) » وقال ابن مسعود رضى الله عنه « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - فقال إن النور إذا دخل الصدر اتفصح قليل يارسل الله هل لذلك من علامة تعرف قال نعم التجافي عن دار الضرور والاناة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله (٤) » وقال السدي - الذي خلق الموت والحياة ليولكم أيكم أحسن عملا - أي أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن له استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا وقال حذيفة مامن صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي أيها الناس الرحيل الرحيل وتصديق ذلك قوله تعالى - إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر - في الموت وقال مسجيم مولى بني عيم جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل على فقال أرحنى بحاجتك فاني أبادر قلت وما تبادر قال ملك الموت رحمك الله قال فقامت عنه وقام إلى صلاته ومرداود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال دعنى إنما أبادر خروج نفسى قال عمر رضى الله عنه التؤدة في كل شئ، خير إلا في أعمال الخير للآخرة ، وقال المنذر سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ويحك بادرى قبل أن يأتيك الأمر ويحك بادرى قبل أن يأتك الأمر ويحك بادرى قبل أن يأتك الأمر حتى كرر ذلك ستين مرة أحسمه ولا يرانى. وكان الحسن يقول في موعظته البادرة البادرة فأنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعماركم التي تنفرون بها إلى الله عز وجل رحم الله امرأ نظرت إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية - إنا نعد لهم عدا - يعنى الأنفاس آخر العدد خروج نفسك آخر العدد فراق أهلك آخر العدد دخولك في قبرك واجتهدا بموسى الأشعري قبل موته اجتهدا شديدا فليل له لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق فقال إن الخيل إذا أرملت تقارب رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجله أقل من ذلك قال فلم يزل على ذلك حتى مات، وكان يقول لامرأته شدى رحلك فليس على جهنم معبر وقال بعض الخلفاء على منبره: عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيحا بهم فانقبوا وعلوا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا واستعدوا للموت فقد أظلمكم وترحلوا فقد جد بكم وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر للذة وإن غابا يجد به الجديدان الليل والنهار لحرقى بسرعة الأوبة وإن قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فان أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به يعنيه التوبة ليسوقها ويرين إليه العصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيها حاسرة على ذى غفلة

(١) حديث ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السمف فقال ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه ابن أبي الدنيا فيه باسناد حسن وللترمذى نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه (٢) حديث مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره الحديث ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح (٣) حديث جابر كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه الحديث مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له (٤) حديث ابن مسعود تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - فقال إن النور إذا دخل القلب اتفصح الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرک وقد تقدم .

والبقاء كثيرة فبعضها إشارة إلى فناء المخالفات وبقاء للواقفات وهذا يقتضيه التوبة النصوح فهو ثابت بوصف التوبة وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل وهذا يقتضيه الزهد وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف للذمومة وبقاء الأوصاف المحمودة وهذا يقتضيه تزكية النفس وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء الطلق وكل هذه الاشارات فيها معنى الفناء من وجه ولكن الفناء الطلق هو ما يستولى من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد فيغلب كون

أن يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه إلى شقوة جملنا الله وإياكم ممن لا ينظره نعمة ولا تنصره
عن طاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه مبيع الدعاء وإنه بيده الخير دائماً فاعمال لما يشاء وقال
بعض المفسرين في قوله تعالى - فنتم أنفسكم - قال بالشهوات واللذات - وتربصتم - قال بالتوبة - وارتبتم -
قال شككتم - حتى جاء أمر الله - قال الموت - وغرکم بالله الغرور - قال الشيطان . وقال الحسن
تصبروا وتشددوا فأنما هي أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب
ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما يحضر تكم وقال ابن مسعود مامنكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله
عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة وقال أبو عبيدة الباجي : دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات
فيه فقال مرحبا بكم وأهلا بكم الله بالسلام وأحلنا وإياكم دار المقام هذه علانية حسنة إن صبرتم
وصدقتم واتقيتم فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسموه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه
الأذن فإن من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا ورأى محمدا يضع لينة على ابنة ولا نصبة على قصبه
ولكن رفع له علم فشمروا إليه الوحا الوحا النجا النجا اعلام تخرجون أيتيم ورب الكعبة كأنكم والأمر
معا رحم الله عبدا جعل العيش عيشا واحدا فأكل كسرة وليس خلتا ولزق بالأرض واجتهد في العبادة
وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك^(١) . وقال عاصم الأحوال
قال لي فضيل الرقاشي وأنا سائله يا هذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر يخلص إليك
دونهم ولا تنقل أذهب ههنا وههنا فينقطع عنك النهار في لاشيء فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئا
قط أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنوب قديم .

(الباب الثالث في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده)

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد للسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجرد هالكان
جديرا بأن يتنفس عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقا بأن يطول فيه
فكره ويعظم له استعداده لاسيما وهو في كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء كرب يبديسواك لا تدري
متى يفشاك . وقال لقمان لابنه يا بني أمر لا تدري متى يلقاك استمد له قبل أن يفجأك والعجب أن
الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس
خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت
بسكرات التزع وهو عنه غافل فلما لهذا سبب الإلهول والغرور . واعلم أن شدة الألم في سكرات
الموت لا يمر فيها بالحقيقة إلا من ذاقها ومن لم يذوقها فأنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدركها وإما
بالاستدلال بأحوال الناس في التزع على شدة ما هم فيه فأما القياس الذي يشهد له فهو أن كل عضو
لا روح فيه فلا يحس بالألم فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح فمهما أصاب العضو جرح
أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر
الأجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الألم فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاق غيره فما أعظم
ذلك الألم وما أشده . والتزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق
جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الذي
يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاق ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة وإنما يعظم أثر
الاحتراق لأن أجزاء النار تنوص في سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا

(١) حديث أبي عبيدة الباجي دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم الحديث
ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه .

الحق سبحانه وتعالى
على كون العبد وهو
ينقسم إلى فناء ظاهر
وفناء باطن فأما الفناء
الظاهر فهو أن
يتجلى الحق سبحانه
وتعالى بطريق الأفعال
ويسلب عن العبد
اختياره وإرادته فلا
يرى لنفسه ولا لغيره
أملا إلا بالحق ثم
يأخذ في المعاملة
مع الله تعالى بحسبه
حتى سمعت أن بعض
من أقيم في هذا
المقام من الفناء كان
يبقى أياما لا يتناول
الطعام والشراب حتى
يتجرد له فقل
الحق فيه ويقبض
الله تعالى له من

وباطنا لإوتصيه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم . وأما الجراحة فأنما تصيب للوضع الذي منه الحديد قطع فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار فآلم التزعج يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فانه النزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من العرق إلى القدم فلتأسل عن كربه وألمه حتى قالوا إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمنشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان التناول للبشر نفس الروح وأنما يستنث المضروب ويصبح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه وأنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاد على قلبه وبلغ كل موضع منه فهتد كل قوة وضعف كل جراحة فلم يترك له قوة الاستماعة . أما العقل فقد غشيه وشوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الأطراف فقد ضعفها ويود لو قدر على الاستراحة بالآتين والصياح والاستماعة ولكنه لا يقدر على ذلك فان بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارجا وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه وارتد حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله فالألم منتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه وتتقلص الشفتان ويتقلص اللسان إلى أصله وترتفع الأثنيان إلى أعالي موضعهما وتخضر أنامله فلتأسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح المتألمة من عرق واحد بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فبرداً ولا قدماه ثم ساقاه ثم غذاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الخلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويعلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والتندامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تقبل توبة العبد ما لم يفرغر»^(١) وقال مجاهد في قوله تعالى - وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن - قال إذا عين الرسل فصد ذلك تبدوله صفحة وجهه ملك الموت فلتأسل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «اللهم هون على محمد سكرات الموت»^(٢) والناس إنما يستعذبون منه ولا يستعظمون له لجهلهم به فان الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يامعشر الخوارج ابدوا لله تعالى أن يهون على هذه السكرة بيني وبين الموت فقد خفت الموت مخافة أوقفني خوفاً من الموت على الموت. وروى أن نهران بنى إسرائيل مرآة بمقبرة فقال بعضهم لبعض لودعوتهم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه فدعوا الله تعالى فاذا هم رجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال يا قوم ما أردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي وقالت عائشة رضى الله عنها لا أعبط أحدا يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروى أنه عليه السلام كان يقول «اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل اللهم فأعني على الموت وهوته على»^(٣) وعن الحسن «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال

يطعمه ويسقيه كيف شاء وأحب وهذا لعمري فناء لأنه في عن نفسه وعن الغير نظرا إلى قول الله تعالى بقاء فعل غير الله والفناء الباطن أن يكشف تارة بالصفات وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات فيستولى على باطنه أمر الحق حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصرى

(١) حديث إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغر الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر

(٢) حديث كان يقول اللهم هون على محمد سكرات الموت تقدم (٣) حديث كان يقول اللهم إنك تأخذ

الروح من بين العصب والقصب والأنامل الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث صعبة

ابن غيلان الجعفي وهو معضل سقط منه الصحابي والتابعي .

هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف^(١)». «وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدته فقال إن أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف^(٢)». «ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال إني أعلم ما يلقي مامنه عرق إلا وبألم للموت على حدته^(٣)» وكان على كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش وقال الأوزاعي بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ما لم يعث من قبره وقال شداد بن أوس الموت أقطع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالناشير وقرض بالمقاريض وعلى في القدر ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما اتضعوا بعيش ولا لدواب نوم. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال إذا بقى على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليلبلغ بسكرات الموت وكرهه درجته في الجنة وإذا كان للكافر معروف لم يجزبه هون عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفة فيصير إلى النار وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف تجدون الموت فلما مرض قيل له فأنت كيف تجده فقال كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسى يخرج من ثقب إبرة وقال صلى الله عليه وسلم «موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر^(٤)» وروى عن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لما اتوا بأذن الله تعالى لأن في كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشيء إلا مات^(٥)» وروى «لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لداب^(٦)» وروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له كيف وجدت الموت يا خليلي قال كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب فقال أما إنا قد هونا عليك وروى عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه يا موسى كيف وجدت الموت قال وجدت نفسى كالصفور حين يقلى على اللقى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير. وروى عنه أنه قال وجدت نفسى كشاة حية تسليخ يده القصاب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون على سكرات الموت^(٧)»

(١) حديث الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلًا ورجاله ثقات (٢) حديث سئل عن الموت وشدته فقال إن أهون الموت بمنزلة حسكة الحديث ابن أبي الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلًا (٣) حديث دخل على مريض فقال إني أعلم ما يلقي مامنه عرق إلا وبألم للموت على حدته ابن أبي الدنيا فيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه في المرض والكفارات من رواية عبيد ابن عمير مرسلًا مع اختلاف ورجاله ثقات (٤) حديث موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر أحمد من حديث عائشة باسناد صحيح قال وأخذة أسف ولأبي داود من حديث خالد السلمي موت الفجأة أخذه أسف (٥) حديث مكحول لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لما اتوا الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من رواية أبي ميسرة رضعه وفيه لو أن ألم شعرة ، وزاد وإن في يوم القيامة لتسعين هولاً أدناها هولاً يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الاسناد (٦) حديث لو أن قطرة من الموت لو وضعت على جبال الدنيا كلها لداب لم أجد له أصلاً ولعل المصنف لم يورده حديثاً فإنه قال وروى (٧) حديث إنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون على سكرات الموت متفق عليه من حديث عائشة .

وقلت له هل يكون بقاء التخيلات في السر ووجود الوسواس من الشرك الخفى وكان عندى أن ذلك من الشرك الخفى فقال لى هذا يكون في مقام الفناء ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الخفى أم لا ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان في الصلاة فوقمت أسطوانة في الجامع فارتعج لهدتها أهل السوق فدخلوا المسجد فرأوه في الصلاة ولم يحس بالأسطوانة ووقعها فهذا هو الاستعراق والفناء باطنياً ثم قد يتسع وعاءه حتى لعله يكون

وفاطمة رضى الله عنها تقول واكرباه لسكربك يا ابتاه وهو يقول لا كرب على أهلك بعد اليوم (١) وقال عمر رضى الله عنه لسكرب الأبحار يا كعب حدثنا عن الموت فقال نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كمنصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديدا ليجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقتى وأفارقك إلى يوم القيامة (٢) » فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه ، فما حالنا ونحن التهمكون في المعاصى وتعالى علينا من سكرات الموت بقية الدواهي فان دواهي الموت ثلاث . الأولى : شدة الزرع كاذكرناه . الدهاية الثانية مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروح والخوف منه على القلب فلو رأى صورته التي قبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته ، فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت هل تستطيع أن ترى صورتك التي قبض عليها روح الفاجر ؟ قال لا تطبق ذلك . قال بلى . قال فأعرض عني فأعرض عنه ثم التفت فاذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان فثقى على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه ، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان إذا خرج أغلق الأبواب فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فاذا هي برجل في النار قالت من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليقين منه عناء فجاء داود فرآه فقال من أنت فقال أنا الذي لا أهلب الملوك ولا يمنع مني الحجاب فقال فأنت والله إذن ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه (٣) » وروى أن عيسى عليه السلام مر بمجمعة فضرها برجله فقال تكلمى بأذن الله قالت يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا بينا أنا جالس في ملكى على تاجى وحولى جنودى وحشمى على سرى رملكى إذ بدا لى ملك الموت فزال منى كل عضو على حباله ثم خرجت نفسى إليه فبالت ما كان من تلك الجوع كان فرقة وبالت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة ، فهذه داهية يلقاها الصاة ويكفأها المطيعون ، فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة الزرع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ولو رآها في منامه ليلة لتفص عليه بقية عمره فكيف برؤيته في مثل تلك الحال . وأما المطيع فانه يراه في أحسن صورة وأجملها ، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه فاذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فاذا برجل في جوف البيت فقال من أدخلك دارى فقال أدخلتها ربها فقال أنا ربها فقال أدخلتها من هو أملك بها منى ومنك فقال من أنت من الملائكة قال أنا ملك الموت قال هل تستطيع أن ترى الصورة التي قبض فيها روح المؤمن ؟ قال نعم فأعرض عني فأعرض ثم التفت فاذا هو بشاب قد كرم من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه ، ومنها مشاهدة الملكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يترأى له ملكاه

متحققا بالفناء ومعناه روحا وقلبا ولا يغيب عن كل ما يجري عليه من قول وفعل ويكون من أقسام الفناء أن يكون في كل فعل وقول مرجعه إلى الله وينتظر الاذن في كليات أموره ليكون في الأشياء بالله لا بنفسه فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فان وصاحب الانتظار لاذن الحق في كليات أموره راجع إلى الله يباطنه في جزئياتها فان ومن ملكه الله تعالى اختياره وأطلقه في التصرف يختار كيف شاء وأراد لا منتظرا للفعل ولا منتظرا للاذن هو باقى والباقى فى مقام

(١) حديث إن فاطمة قالت واكرباه لسكربك يا أبت الحديث البخارى من حديث أنس بلفظ واكرب أبتاه وفي رواية لابن خزيمة واكرباه (٢) حديث إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض الحديث رواه في الأربعين لأبى هدية إبراهيم بن هدية عن أنس وأبو هدية هالك (٣) حديث أبى هريرة إن داود كان رجلا غيورا الحديث أحمد باسناد جيد نحوه وابن أبى الدنيا فى كتاب الموت بلفظه .

السكرات عمله فان كان مطيعا قال له جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق أجلسنا وعمل صالح
أحضرنا ، وإن كان فاجرا قال له لا جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلسنا وعمل غير صالح
أحضرنا وكلام قبيح أسمعنا فلا جزاك الله عنا خيرا فذلك شخص بصير اليت إلىهما ولا يرجع إلى
الدنيا أبدا. الداهية الثالثة : مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل للشاهدة فانهم في حال
السكرات قد تحاذلت قوام واستسلمت للخروج أرواحهم ولن تخرج أرواحهم مالم يسموا بآية ملك
الموت بأحد البشريين إما أشير بإعدو الله بالنار أو أشير بأولى الله بالجنة ، ومن هذا كان خوف
أرباب الألباب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره
وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار (١)» وقال صلى الله عليه وسلم «من أحب لقاء الله أحب لقاءه
ومن كره لقاء الله كره لقاءه فقالوا كلنا نكره الموت قال ليس ذلك بذلك إن المؤمن إذا فرج له
عماهو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب لقاءه (٢)» وروى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود
وهو لما به من آخر الليل قم فانظري ساعة هي قيام ابن مسعود ثم جاءه فقال قد طلعت الحمراء فقال
حذيفة أعوذ بالله من صباح إلى النار ، ودخل مروان على أبي هريرة فقال مروان اللهم خفف عنه
فقال أبو هريرة اللهم اشد ثم بكى أبو هريرة وقال والله ما يبكي حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم
ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي يجيء أم بار ، وروى في الحديث عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال «إن الله إذا رضى عن عبد قال يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتى بروحه لأرجمه حسي
من عمله قد بلوته فوجدته حيث أحب فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان
الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه وتقوم الملائكة صفيين
لخروج روحه معهم الريحان فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ قال فيقول له جنوده
مالك يا سيدنا فيقول أمارتون ما أعطى هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا قالوا قد جهدنا به
فكان محصوما (٣)» وقال الحسن لأراحة للمؤمن إلا في لقاء الله ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى
قيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه ، وقيل لجابر بن زيد عند الموت ما تشتهي قال
نظرة إلى الحسن فلما دخل عليه الحسن قيل له هذا الحسن فرفع طرفه إليه ثم قال يا إخوانا الساعة
والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة ، وقال محمد بن واسع عند الموت يا إخوانا عليكم السلام إلى النار
أو بهوا الله وتمنى بعضهم أن يبقى في الترع أبدا ولا يموت لثواب ولا عقاب . نخوف سوء الخاتمة قطع

(١) حديث لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره و حتى يرى مقعده من الجنة أو النار
ابن أبي الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن علي موقوفا لا يخرج نفس ابن آدم من الدنيا
حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار وفي رواية حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من
أهل الجنة هي أم من أهل النار وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما شهد لذلك إن المؤمن
إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته الحديث
(٢) حديث من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاء الله كره لقاءه الحديث متفق عليه
من حديث عبادة بن الصامت (٣) حديث إن الله إذا رضى على عبده قال يا ملك الموت اذهب إلى
فلان فأتى بروحه لأرجمه الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الدارى باسناد
ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على أنه مرفوع وللذاتى
من حديث أبي هريرة باسناد صحيح إذا حضر الميت آتته ملائكة الرحمة بحريرة يضاء فيه ولون أخرجى
راضية مرضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان الحديث .

لا ينجيه الحق عن
الخلق ولا الخلق عن
الحق والقابى محبوب
بالحق عن الخلق
والقناء الظاهر لأرباب
القلوب والأحوال
والقناء الباطن لمن
أطلق عن وثاق
الأحوال وصار بالله
لا بالأحوال وخرج
من القاب فصار مع
مقلبه لامع قلبه .
[الباب الثانى والستون]
فى شرح كلمات مشيرة
إلى بعض الأحوال فى
اصطلاح الصوفية [
أخبرنا الشيخ الثقة
أبو الفتح محمد بن
عبد الباقي بن سليمان
إجازة قال أنا أبو الفضل
أحمد بن أحمد قال أنا
الحافظ أبو نعيم

قلوب العارفين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الحاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الوضع ، ولكننا لانطول بذكره وإعادته .
(بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت)

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى . أما الصورة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه ودمعت عيناه وبيست شفتاه فهى من رحمة الله قد نزلت به وإذا غط غطيظ الخنوق واحمر لونه واربدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به (١) » وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهى علامة الخير قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله (٢) » وفى رواية حذيفة « فانها تهدم ما قبلها من الخطايا (٣) » وقال عئان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة (٤) » وقال عبيد الله وهو يشهد وقال عئان إذا احتضر الميت فلقنوه لا إله إلا الله فإنه من عبد يحتم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة . وقال عمر رضى الله عنه : احضر واموت كما ذكرهم فانهم يرون مالائرون ولقنوم لا إله إلا الله . وقال أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حضر ملك الموت رجلا يموت فظنر في قلبه فلم يجد فيه شيئا ففك لحيه فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكه يقول لا إله إلا الله ففزر له بكلمة الاخلاص (٥) » وينبغى للملقن أن لا يلبغ فى التلقين ولكن يتلطف فرما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدى إلى استنقاه التلقين وكرهيته للكلمة ويحتمى أن يكون ذلك سبب سوء الحاتمة ، وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس فى قلبه شئ غير الله فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم فى حقه وإن كان القلب مشغوبا بالدنيا ملتفتا إليها متأسفا على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقها وقع الأمر فى خطر المشيئة فان مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يفضل الله تعالى بالقبول . وأما حسن الظن فهو مستحب فى هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الرجاء وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله ، دخل وائلة بن الأسقع على مريض فقال أخبرنى كيف ظنك بالله قال أغرقتنى ذنوب لى وأشرفت على هلكة ولكنى أرجو رحمة ربى فكبر وائلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء (٦) » ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال : كيف تجدك قال أرجو الله وأخاف ذنوبى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما اجتمعا فى قلب عبد فى مثل هذا

(١) حديث ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه وذرفت عيناه الحديث الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث سلمان ولا يصح (٢) حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله تقدم (٣) حديث حذيفة فانها تهدم ما قبلها تقدم (٤) حديث من بات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة تقدم . (٥) حديث أبى هريرة حضر ملك الموت رجلا يموت فظنر فى قلبه فلم يجد فيه شيئا الحديث ابن أبى الدنيا فى كتاب المحتضرين وللطبرانى والبيهقى فى الشعب وإسناده جيد إلا أن فى رواية البيهقى رجلا لم يسم وسمى فى رواية الطبرانى إسحق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف (٦) حديث دخل وائلة ابن الأسقع على مريض فقال أخبرنى كيف ظنك بالله وفيه يقول الله أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقى فى الشعب به جميعا .

الأصفهاني قال ثنا محمد بن إبراهيم قال ثنا أبو مسلم الكشي قال ثنا مسور بن عيسى قال ثنا القاسم بن يحيى قال ثنا ياسين الزيات عن أبى الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من معادن التقوى تعلمك إلى ما قد علمت علم مالم تعلم والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه وإنما زهد الرجل فى علم مالم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم » فتشايخ الصوفية أحكموا أساس التقوى وتعلموا العلم لله تعالى وعملوا بما طموا لموضع تقواهم فطمهم الله تعالى مالم

للوطن إلا أعطاه الله الذي يرجو وآمنه من الذي يخاف^(١) وقال ثابت البناني كان شاباً به حدة وكان له أم تعظه كثيراً وتقول له يا بني إن لك يوماً فاذكر يومك فلما نزل به أمر الله تعالى أكتبت عليه أمه وجعلت تقول له يا بني قد كنت أحذر لك مصرعك هذا وأقول إن لك يوماً فقال يا أمه إن لي رباً كثيراً للعروف وإني لأرجو أن لا يدمني اليوم بعض معروفه ، قال ثابت فرحمه الله بحسن ظنه بربه . وقال جابر بن وداعة كان شاباً به رهق فاحتضر فقالت له أمه يا بني توصني بشيء قال نعم خافني لا تسليبيه فإن فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمني فلما دفن رؤى في المنام فقال أخبروا أمي أن الكلمة قد نعتني وأن الله قد غفر لي . ومريض أعرابي قيل له إنك تموت فقال أين يذهب بي قالوا إلى الله قال فما كراهتي أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه . وقال أبو الغنم بن سليمان قال أتيت لأحضرته الوفاة فاعتصر حدثني بالرخص لعلني ألقى الله عز وجل وأنا أحسن الظن به وكانوا يستحبون أن يذكروا للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه .

(بيان الحسرة عند لقاء ملك اللوت بحكايات يعرب لسان الحال عنها)

قال أشعث بن أسلم سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت واسمه عزرائيل وله عينان عين في وجهه وعين في قفاه فقال يا ملك الموت ما تصنع إذا كان نفس بالشرق ونفس بالمغرب ووقع الوفاء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع ؟ قال أَدْعُو الأرواح بأذن الله فتكون بين أصبعي هاتين وقال قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام مالي لأراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا قال ما أنا بذلك بأعلم منك إنما هي مصحف أو كتب تلتق إلى فيها أسماء ، وقال وهب بن منبه كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى الأرض فعدا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى ليس ما أعجبه بعد مرات وكذلك طلب دابة فأتى بها فلم تعجبه حتى أتى بدواب فركب أحسنها فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة ففلاها كبراً ثم سار وسارت معه الحيول وهو لا ينظر إلى الناس كبرافجاء رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً قال إن لي إليك حاجة قال اصبر حتى أنزل قال لا الآن قهره على اللجام دابته فقال اذكرها قال هو سر فأدنى له رأسه فسارمه وقال أنا ملك الموت فخير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم قال لا والله لا ترى أهلك وتلك أبداً قبض روجه فخر كأنه خشبة ثم مضى فلقى عبداً مؤمناً في تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام فقال ان لي إليك حاجة أذكركها في أذنك فقال هات فسارمه وقال أنا ملك الموت فقال أهلاً ومرحباً بمن طالت غيبته على فو الله ما كان في الأرض غائب أحب إلي أن ألقاه منك فقال ملك الموت اقض حاجتك التي خرجت لها فقال مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى قال فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك فقال تقدر على ذلك قال نعم إنني أمرت بذلك قال فدعني حتى أتوضأ وأصلي ثم أقبض روحي وأنا ساجد قبض روجه وهو ساجد . وقال أبو بكر بن عبد الله المزني جمع رجل من بني إسرائيل مالا فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصنافاً أموالي فأتى بشيء كثيراً من الخيل والابل والرقائق وغيره فلما نظر إليه بكى نحسراً عليه فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك فوالذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك قال فالمهلة حتى أفرقه قال هيهاة اتقطعت عنك المهلة فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك قبض روجه . وروى أن رجلاً جمع مالا فأوعى ولم يدع صنفاً من المال إلا اتخذه وابتقى قصراً وجعل عليه بايين وثيمين وجمع عليه حراساً من غلمانهم ثم جمع أهله وصنع لهم طعاماً وقصد على سريره ورفع إحدى رجله على الأخرى وهم يأكلون .

(١) حديث دخل على شاب وهو يموت فقال كيف تجدك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبي الحديث تقدم .

يطوا من غرائب
العلوم ودقيق الأشارات
واستبطنوا من كلام
الله تعالى غرائب العلوم
ومغائب الأسرار
وترسخ قدمهم في العلم
قال أبو سعيد الخزاز
أول الفهم لكلام الله
العمل به لأن فيه العلم
والفهم والاستنباط
وأول الفهم إلقاء السمع
والمشاهدة لقوله تعالى
- إن في ذلك لذكرى
لمن كان له قلب أو ألقى
السمع وهو شهيد .
وقال أبو بكر الواسطي
الراسخون في العلم هم
الذين رسخوا بأرواحهم
في غيب الغيب وفي
سر السر ففهمهم
ماعرهم وأراد منهم
من مقتضى الآيات

فلما فرغوا ، قال يانفس انعمي لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك فم يرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفي عنقه محلاة يتشبه بالمساكين قصرع الباب بشدة عظيمة قرطاً أفزعه وهو على فراشه فوثب إليه العلمان وقالوا ماشأ نك فقال ادعوا إلى مولانا كم قالوا وإلى مثلك يخرج مولانا قال نعم فأخبروه بذلك فقال هلا فلتم به وفلمتم قصرع الباب قرعة أشد من الأولى فوثب إليه الحرس فقال أخبروه آنى ملك الموت فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم التل والتخشع فقال قولوا له قولنا لنا وقولوا هل تأخذ به أحدا فدخل عليه وقال اصنع في مالك ما أنت صانع فانى لست بخارج منها حتى أخرج روحك فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لعنك الله من مال أنت شغلتنى عن عبادة ربى ومنعتنى أن آتخلى لربى فأنطق الله الالك فقال لم تسبى وقد كنت تدخل على السلاطين بى ويرد التقى عن باهمم وكنت تسكح التتعمات بى وتجلس مجالس الملوك بى وتتغنى فى سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتى فى سبيل الخير ففعلت خلفت وابن آدم من تراب فتطلق وير ومنطلق باثم ثم قبض ملك الموت روحه فمقط . وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما فى الأرض مثله ثم عرج إلى السماء فقالت اللائكة لمن كنت أشد رحمة بمن قبضت روحه قال أمرت بقبض نفس امرأة فى فلاة من الأرض فأثبتها وقد ولدت مولودا فرحمتها فثربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه فى فلاة لا تمتهد له بها فقالت اللائكة الجبار الذى قبضت الآن روحه هو ذلك الولود الذى رحمته فقال ملك الموت سبحان اللطيف لما يشاء قال عطاء بن يسار إذا كان ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة فيقال قبض فى هذه السنة من فى هذه الصحيفة قال فان البديل ليعرس العراس وينكح الأزواج ويبنى البنيان وإن اسمه فى تلك الصحيفة وهو لا يدرى . وقال الحسن مامن يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانفضى أجله قبض روحه فاذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء فيأخذ ملك الموت بضادى الباب فيقول والله ماأ كنت له رزقا ولا أفيت له عمرا ولا اتقصت له أجلا وإن لى فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقى منكم أحدا قال الحسن فواقه لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لدهلوا عن منتهم ولبكوا على أنفسهم وقال يزيد الرقاشى بينا جبار من الجبابرة من بنى اسرائيل جالس فى منزله قد خلا ببعض أهله إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فخار إليه فزعا مضطبا فقال له من أنت ومن أدخلك على دارى فقال أما الذى أدخلنى الدار فربها وأما أنا فالذى لا يمنع منى الحجاب ولا أستأذن على اللوك ولا أخاف صولة للتسلطين ولا يتمتع منى كل جبار عنيد ولا شيطان مرید قال فسقط فى يد الجبار وارعد حتى سقط منكبا على وجهه ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذلا له فقال له أنت إذن ملك الموت قال أنا هو قال فهل أنت ممهى حتى أحدث عهدا قال هيأت انقطعت مدتك وانقضت أنفاسك ونقدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل قال فإلى أين تذهب بى قال إلى عملك الذى قدمته وإلى بيتك الذى مهدته قال فانى لم أقدم عملا صالحا ولم أمهد بيتا حسنا قال فالى انظرى نزاعة للشوى ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله فمن بين صارخ وبك قال يزيد الرقاشى لو يملون سوء النقلب كان العويل على ذلك أكثر وعن الأعمش عن خزيمة قال دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فلما خرج قال الرجل من هذا قال هذا ملك الموت قال لقد رأيت به ينظر إلى كأنه يريدنى قال فماذا تريد قال أريد أن تخلصى منه فتأمر الريح حتى تعملنى إلى أقصى الهند ففعلت الريح ذلك ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أنام ثانيا رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائى . قال نعم كنت أتجنب منه لأنى كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند فى ساعة قريبة وكان عندك ففعلت من ذلك .

مالم يرد من غيرهم
وحاضوا بحر العلم
بالفهم لطلب الزادات
فانكشف لهم من
مدخور الحزائن
والخزون تحت كل
حرف وآية من الفهم
وعجائب النص
فاستخرجوا الدرر
والجواهر ونطقوا
بالحكمة . وقد ورد
فى الخبر عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
فما رواه سفيان بن
عيينة عن ابن جريج
عن عطاء عن أبى
هريرة أنه قال إن من
العلم كهيئة المكثون
لا يملوه إلا العطاء بالله
فاذا انطقوا به لا ينكره
إلا أهل القرة بالله .
أخبرنا أبو زرعة قال

(الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده)

(وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم)

اعلم أن في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حيا وميتا وفلاوقولا وجميع أحواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونبيّه وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته لا، بل أرسل إليه اللائكة الكرام اللوكلين بقبض أرواح الأنام فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها وعلجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان وخيرات حسان بل إلى مقصد صدق في جوار الرحمن فاشتد مع ذلك في التزع كربه وظهر أنينه وترادف قلته وارتفع حنينه وتغير لونه وعرق جبينه واضطربت في الانقباض والانبساط فماله ويمينه حتى بكى لمصرعه من حضره وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا وهل راقب الملك فيه أهلا وعشيرا وهل ساعه إذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا هيات بل امتثل ما كان به مأمورا واتباع ما وجدته في اللوح مسطورا فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود والحوض المورود وهو أول من تنشق عنه الأرض وهو صاحب الشفاعة يوم العرض فالعجب أنا لانعبر به ولنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات وقرناء للعاصي والسيئات فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام التقيين وحبيب رب العالمين لعلنا نظن أننا مخلدون أو نتوهم أننا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون هيات بل تيقن أناجيما على النار واردون ثم لا ينجو منها إلا المتقون فنحن للورود مستيقنون وللصدور عنها متوهمون لا، بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لئلا يظن منتظرين لما نحن والله من التقيين وقد قال الله رب العالمين - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم نجى الدين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا - فليظن كل عبد إلى نفسه انه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين فلقد كانوا مع ما وقفوا له من الحقائق ثم انظر إلى سيد المرسلين فانه كان من أمته على يقين إذ كان سيد النبيين وقائد التقيين واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنّة المأوى قال ابن مسعود رضی الله عنه «دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة رضی الله عنها حين دنا الفراق فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال مرحبا بكم حياكم الله آواكم الله نصرکم الله وأوصيكم بقوى الله وأوصى بكم الله إني لكم منه نذير مبين الاتعوا على الله في بلاده وعباده وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنّة المأوى وإلى السكّاس الأولى فاتقوا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله (١) ». وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته «من لأمتي بعدى

أنا أبو بكر بن خلف
قال ثنا أبو عبد الرحمن
قال سمعت الصراباذي
يقول سمعت ابن عائشة
يقول سمعت القرشي
يقول هي أسرار الله تعالى
ييدها إلى أمنا أوليائه
وسادات النبلاء من
غير صماع ولا دراسة
وهي من الأسرار التي
لم يطلع عليها إلا
الحواس . وقال
أبو سعيد الخزاز
للعارفين خزائن
أودعوها علوما غريبة
وأبناء عجمية يتكلمون
فيها بلسان الأبدية
ويخبرون عنها بسارة
الأزلية وهي من العلم
المجهول فقوله بلسان
الأبدية وعجالة الأزلية
إشارة إلى أنهم بالله

(الباب الرابع في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم)

(١) حديث ابن مسعود دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق الحديث رواه البزار وقال هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة قال وعبد الرحمن الأصهباني لم يسمع هذا من مرة وإنما هو عمن أخبره عن مرة قال ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة . قلت وقد روى من غير ما وجه رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود وروينا في مشيخة القاضي أبي بكر الأنصاري من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضيفان والحسن العربي إنما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط .

فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أنى لأخذله في أمته وبشره بأنه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بشوا وسيدم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأم حتى تدخلها أمته فقال الآن قوت عيني (١) وقالت عائشة رضى الله عنها «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقتله بسبع قرب من سبعة آبار فعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فضلى بالناس واستغفر لأهل أهدود ما لهم وأوصى بالأنصار فقال أما بعد يا معشر المهاجرين فانكم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هبتها التي هي عليها اليوم وإن الأنصار عيبى التي أويت إليها فأكرموا كريمهم يعنى عمنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ثم قال إن عبداً خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله فبكى أبو بكر رضى الله عنه وظن أنه يريد نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك يا أبا بكر سداً وهذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فاني لا أعلم امرأة أفضل عندي في الصحبة من أبي بكر (٢) قالت عائشة رضى الله عنها «قبض صلى الله عليه وسلم في بيتي وفي يومى وبين سحرى ونحرى وجمع الله بين ربي وربيته عند الموت فدخل على أخى عبد الرحمن ويده سواك فجعل ينظر إليه ففرقت أنه يعجب ذلك فقلت له آخذ لك فأوماً برأيه أن نعم فناولته إياه فأدخله في فيه فاشتد عليه فقلت أليته لك فأوماً برأيه أن نعم فليته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول لا إله إلا الله إن الموت لسكرات ثم نصب يده يقول الرفيق الأعلى الرفيق الأعلى فقلت إذن والله لا يختارنا (٣) وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأيت الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد تقلباً أطافوا بالمسجد فدخل العباس رضى الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه بمكاتهم وإشفاقهم ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه على رضى الله عنه فأعلمه بمثله فد يده وقالها فتناولوه فقال ماتقولون؟ قالوا نقول نخشى أن تموت وتصايح نساؤم لاجتماع رجالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكفاً على طى والفضل والعباس أمامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من اللبر وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إنه بلغنى أنكم تخافون على الموت كأنه استنكار منكم للموت وما تنكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتعى إليكم هل خلدني قبلي فيمن يمث فأخذه فيكم ألا إنى لاحق برى وإنكم لاحقون به وإنى أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصى المهاجرين فما بينهم فإن الله عز وجل قال - والعصر إن الإنسان لني خسر إلا الذين آمنوا - إلى آخرها وإن الأمور تجري بأذن الله فلا تعملنكم استبطاء أمر على استعجاله فإن الله عز وجل لا يعجل لمجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه - فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم - وأوصيكم بالأنصار خيراً فانهم الذين تبوءوا الدار والدين من قبلكم

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته من لأمتى بعدى فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أنى لأخذله في أمته الحديث الطبرانى من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه من لأمتى المصطفاة من بعدى قال أشير يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال الآن طابت نفسى وإسناده ضعيف (٢) حديث عائشة أمرنا أن نقتله بسبع قرب من سبعة آبار فعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فضلى بالناس واستغفر لأهل أهدود ما لهم وأوصى بالأنصار قال أحد الحديث الدارمى في مسنده وفيه إبراهيم بن الحنظل مختلف فيه عن محمد بن اسحق وهو مدلس وقد رواه بالمنعنة (٣) حديث عائشة قبض في بيتي وفي يومى وبين سحرى ونحرى وجمع الله بين ربي وربيته عند الموت الحديث متفق عليه .

ينطقون وقد قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم «بى ينطق» وهو العلم اللدنى الذى قال الله تعالى فيه فى حق الخضر - آتيناها رحمة من عندنا وعلما من لدنا علما - فما تداولته ألسنتهم من الكلمات ففهموا من بعضهم البعض وإشارة منهم إلى أحوال يعجبونها ومعاملات قلبية يعرفونها قولهم الجمع والفرقة قيل أصل الجمع والفرقة قوله تعالى - شهد الله أنه لا إله إلا هو - فهذا جمع ثم فرق فقال ولللائكة وأولوا العلم - قوله تعالى - آتيناها بالله - جمع ثم فرق بقوله - وما أنزل إلينا - والجمع أصل والفرقة

أن نحسنوا إليهم ألم يشاطروكم الثمار ألم يوسعوا عليكم في الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخاصة
 ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من أحسنهم وليتجاوز عن سيئهم ألا ولا تستأثروا عليهم
 ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بي ألا وإن موعدكم الحوض حوضي أعرض مما بين بصرى الشام
 وصنعاء اليمن يصب فيه ميزاب الكوثر ماء أشد يابضا من اللبن وألين من الزبد وأحلى من شهد
 من شرب منه لم يظمأ أبدا حضاؤه اللؤلؤ وبطحاؤه للسك من حرمة في للوقف غدا حرم الحيرة كله
 ألا فمن أحب أن يردني على غدا فليكفف لسانه ويده إلا مما ينبغي فقال العباس يابني أقد أوصى بقرش
 قال إنما أوصى بهذا الأمر قرشا والناس تبع لقريش برم برم فاجرم فاجرم فاستوصوا
 آل قريش بالناس خيرا يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم وتبدل القسم فإذا بر الناس برم أعتهم
 وإذا فجر الناس عقوم قال الله تعالى - وكذلك نولي بعض الظالمين بضما كانوا يكسبون (١) »
 وروى ابن مسعود رضى الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضى الله عنه سل يا أبا بكر
 قال يا رسول الله دنا الأجل فقال قد دنا الأجل وتدلى قال ليهنك يابني الله ما عند الله فليتشمري
 عن منقلبنا فقال إلى الله وإلى سدرة المنتهى ثم إلى جنة اللاوى والفردوس الأعلى والسكاس الأوفى
 والرفيق الأعلى والحظ والعيش الهنا فقال يابني الله من يلى غسلك قال رجال من أهل بيتي الأذى فالأذى
 قال فقيم نفسك؟ فقال في ثيابي هذه وفي حلة يمانية وفي يابض مصر فقال كيف الصلاة عليك منا
 وبكينا وبكى ثم قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا إذا غسستموني وكفتموني فضعوني
 على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ثم اخرجوا عنى ساعة فإن أول من يصلى على الله عز وجل هو
 الذى يصلى عليكم وملائكته - ثم يأذن للملائكة فى الصلاة على فأول من يدخل على من خلق الله
 ويصلى على جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك اللوت مع جنود كثيرة ثم للملائكة بأجمعها صلى
 الله عليهم أجمعين ثم أتم فادخلوا على أفواجا فصلوا على أفواجا زمرة زمرة وسلموا تسليما ولا تؤذونى
 بزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الامام وأهل بيتي الأذى فالأذى ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان
 قال فمن يدخلك القبر؟ قال زمر من أهل بيتي الأذى فالأذى مع ملائكة كثيرة لا رونهم وهم يرونكم
 قوموا فأدوا عنى إلى من بعدى (٢) » وقال عبد الله بن زمة جاء بلال فى أول شهر ربيع الأول فأذن
 بالصلاة فقال رسول الله ﷺ « مروا أبا بكر يصلى بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر فى
 رجال ليس فيهم أبو بكر فقلت تم يا عمر فصل بالناس فقام عمر فلما كبر وكان رجلا صبيتا سمع
 رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال أين أبو بكر يابني الله ذلك والسلمون قالها ثلاث
 مرات مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالت عائشة رضى الله عنها يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق
 القلب إذا قام فى مقامك غلبه البكاء فقال إنك ن صويحات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يزداد تقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم فذكر الحديث فى خروجه متوكئا
 مصوب الرأس يخط رجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من اللبر فذكر خطبته بطولها هو حديث
 مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجد له أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الأزور تابعى. روى عن
 ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفى أبيه سعيد ليس بالقوى (٢) حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله
 عليه وسلم قال لأبي بكر سل يا أبا بكر فقال يا رسول الله دنا الأجل فقال قد دنا الأجل الحديث فى
 سؤالهم له من يلى غسلك وفيه نفسك وكيفية الصلاة عليه رواه ابن سعد فى الطبقات عن محمد
 ابن عمر وهو الواقدي باسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كاتقدم.

فزع فكل جمع
 بلا تفرقة زندقة
 وكل تفرقة بلا جمع
 تعطيل . وقال الجنيد
 القرب بالوجد جمع
 وغيبته فى البشرية
 تفرقة وقيل جمعهم فى
 للفرقة وفرقتهم فى
 الأحوال والجمع اتصال
 لا يشاهد صاحبه إلا
 الحق ففى شاهد غيره
 لما جمع والتفرقة شهود
 لمن شاء بالمباينة
 وعباراتهم فى ذلك
 كثيرة والمقصود أنهم
 أشاروا بالجمع إلى
 تجريد التوحيد
 وأشاروا بالتفرقة إلى
 الاكتساب فى هذا
 لاجمع إلا بتفرقة
 ويقولون فلان فى عين
 الجمع يظنون استيلاء

قال فضلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك وبحك ماذا صنت لي والله لولا آتى ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك ما فعلت فيقول عبد الله إنى لم أر أحدا أولى بذلك منك قالت عائشة رضى الله عنها وما قلت ذلك ولا صرفته عن أبي بكر إلا رغبة به عن الدنيا ولما في الولاية من المخاطرة والمأساة إلا من سلم الله وخشيت أيضا أن لا يكون الناس يحبون رجلا صلى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حى أبدا إلا أن يشاء الله فيجسدونه ويغفون عليه ويتشاءمون به فأذن الأمر أمر الله والقضاء قضاءه وعصمه الله من كل ما تخوفت عليه من أمر الدنيا والدين (١) وقالت عائشة رضى الله عنها فلما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار ففرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوأجمعهم مستبشرين وأخلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثناء فينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخرجني عن هذا الملك يستأذن على فخرج من في البيت غيرى ورأسه في حجرى » جلس وتحتيت في جانب البيت فاجى الملك طويلا ثم إنه دعانى فأعاد ورأسه في حجرى وقال للنبوة ادخلني قتل ما هذا بحس جبريل عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءني فقال إن الله عز وجل أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك إلا بأذن فان لم تأذن لي أرجع وإن أذنت لي دخلت وأمرني أن لا أقضك حتى تأمرني فماذا أمرك قلت اكفف عنى حتى يأتيني جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل فقالت عائشة رضى الله عنها فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى فوجنا وكأنا ضربنا بصاخة مانعير إليه شيئا وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا قالت وجاء جبريل في ساعته فلم صرفت حبه خرج أهل البيت فدخل فقال إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول كيف تجدك وهو أعلم بالذى تجد منك ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة في أمك قال أجدنى وجا فقال أشرف فان الله تعالى أراد أن يملك ما عدلك فقال يا جبريل إن ملك الموت استأذن على وأخبره الخبر فقال جبريل يا محمد إن ربك إليك مشتاق أم يطك الذى يريدك لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدا إلا أن ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق قال فلا تبرح إذن حتى يمضى وأذن للنساء فقال يا فاطمة ادنى فأكبت عليه فاجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ثم قال أدنى منى رأسك فأكبت عليه فاجاها فرفعت رأسها وهى تضعك وما تطيق الكلام فكان الذى رأينا منها هجبا فسألها بعد ذلك فقالت أخبرني وقال إنى ميت اليوم فبكيت ثم قال إنى دعوت الله أن يلحقك بى في أول أهلى وأن يجعلك منى فضحكت وأدنت ابنيها منه فشمهما قالت وجاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن له فقال الملك سأمرنا يا محمد قال ألحقني بربى الآن فقال بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد ترده عنك

(١) حديث عبد الله بن زمعة جاء بلال في أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مروا أبا بكر فليصل بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر الحديث أبو داود باسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله فقالت عائشة إن أبا بكر رجل رقيق إلى آخره ولم يقل في أول ربيع الأول وقال مروا من يصل بالناس وقال يابى الله ذلك وللؤمنون مرتين وفى رواية له فقال لا لا لا ليصل للناس ابن أبي قحافة يقول ذلك مضيا وأماما في آخره من قول عائشة فى الصحيحين من حديثها فقالت عائشة يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فقال إنك من صواحيب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس .

مراقبة الحق على باطنه
فاذا عاد إلى شيء من
أعماله عاد إلى التفرقة
فضحة الجمع بالتفرقة
وصحة التفرقة بالجمع
فهذا يرجع حاصله
إلى أن الجمع من العلم
بالله والتفرقة من العلم
بأمر الله ولا بد منها
جميعا . قال للزين
الجمع عين القضاء بالله
والتفرقة البسودية
متصل بعضها ببعض
وقد غلط قوم وادعوا
أنهم في عين الجمع
وأهروا إلى صرف
التوحيد وعطلوا
الاكتساب فتردقوا
ولما الجمع حكم الروح
والتفرقة حكم القالب
وما دلم هذا التركيب
باقيا فلا بد من الجمع

ولم ينه عن الدخول على أحد إلا باذن غيرك ولكن ساعتك أمامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما نزل فيه إلى الأرض أبدا طوى الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك ومالي فيها حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفي لا والذي بعث محمد بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يجير إليه في ذلك كلمة ولا يمش إلى أحد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا قالت قممت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين يدي وأمسكت بصدرة وجهه ليعلمني عليه حتى يظلم وجهه ترشح ترشحا مارأيت من إنسان قط جعلت أسلت ذلك الفرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له إذا أفاق بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ماتلقى جبهتك من الرشح فقال يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شقيه كنفس الحمار فصد ذلك ارتبنا وبشنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهد أخى بعثه إلى أبي قحافة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يجيء أحد وإنما صدم الله عنه لأنه ولاء جبريل وميكائيل وجعل إذا أغشى عليه قال بل الرفيق الأعلى كأن الخيرة تعاد عليه فإذا أطاق الكلام قال الصلاة الصلاة إنكم لا تزالون متماكين ما صليتم جميعا الصلاة الصلاة كان يوصي بها حتى مات وهو يقول الصلاة الصلاة (١) قالت عائشة رضي الله عنها مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى واتصاف النهار يوم الاثنين (٢) قالت فاطمة رضي الله عنها ماتت من يوم الاثنين والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة

(١) حديث عائشة لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار تفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوالهم مستبشرين وأخلاء رسول الله ﷺ بالنساء فيينا نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجني عنى هذا الملك يستأذن على الحديث بطوله في عجبى ملك الموت ثم ذهابه ثم عجبى جبريل ثم عجبى ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن اهبط إلى حبيبي وصفي محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وارفق به في قبض روحه وفيه دخول ملك الموت واستئذانه في قبضه فقال يا ملك الموت أين خلفت حبيبي جبريل قال خلفته في صماء الدنيا والملائكة يزورنه فيك لما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعده عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له وفيه أدن يا ملك الموت فأتته إلى ما أمرت به الحديث وفيه فدنا ملك الموت بهالج قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كربه لذلك إلى أن قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث طويل في ورتين كبار وهو منكر وفيه عبد النعم بن إدريس ابن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد كان يكذب على وهب بن منبه وأبوه إدريس أيضا متروك قاله الدار قطنى ورواه الطبراني أيضا من حديث الحسين بن علي أن جبريل جاءه أولا فقال له عن ربه كيف تجددك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولا فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله امض لما أمرت به وهو منكر أيضا وفيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخارى ذاهب الحديث ورواه أيضا من حديث ابن عباس في عجبى ملك الموت أولا واستئذانه قوله إن ربك يقرئك السلام فقال ابن جبريل فقال هو قريب منى الآن يأتي فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل الحديث وفيه المختار بن نافع منكر الحديث (٢) حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى واتصاف النهار يوم الاثنين رواه ابن عبد البر .

والتفارقة . وقال
الواسطى إذا نظرت
إلى نفسك فرقت وإذا
نظرت إلى ربك
جمعت وإذا كنت
قائما بغيرك فأنت فان
بلا جمع ولا تفرقة .
وقيل جمعهم بذاته
وفرقتهم في صفاته وقد
يريدون بالجمع والتفرقة
أنه إذا أثبت لنفسه
حسبا ونظرا إلى
أعماله فهو في التفرقة
وإذا أثبت الأشياء
بالحق فهو في الجمع
ومجموع الاشارات
ينبئ أن الكون يفرق
والمكون يجمع فمن
أفرد المكون جمع
ومن نظر إلى الكون
فرق فالتفرقة عبودية
والجمع توحيد فإذا

وقالت أم كلثوم يوم أصيب على كرم الله وجهه بالكوفة مثلها ما لقيت من يوم الاثنين مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه قتل على وفيه قتل أبي فماليق من يوم الاثنين وقالت عائشة رضي الله عنها «لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد وخلط آخرون فلاتوا الكلام بغير بيان وبقي آخرون معهم عقولهم وأقعد آخرون فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعلى فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يميت ولم يرجمه الله عز وجل وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتعنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت إنما واعد الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيتكم^(١)» وفي رواية أنه قال: يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يميت والله لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسيفي هذا. وأما على فإنه أقعد فلم يبرح في البيت وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدا يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والساداد وإن كان الناس لم يعرفوا إلا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ولقد قال وهو بين أظهركم - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون - وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحرث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه قبله ثم قال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله ليزيقك الموت مرتين فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج إلى الناس فقال أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد رباً محمد فانه حي لا يموت قال الله تعالى - وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم -^(٢) الآية فكان الناس لم يسموا هذه الآية إلا يومئذ وفي رواية: أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهلان وغصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والقول فأكعب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول: بأبي أنت وأمي ونسي وأهل طبت

أثبت طاعته نظرا
الى كسبه فرق واذا
أثبتها بالله جمع واذا
تحقق بالقاء فهو
جمع الجمع ويمكن أن
يقال رؤية الأفعال
تفرقة ورؤية الصفات
جمع ورؤية الذات جمع
الجمع . مثل بعضهم
عن حال موسى عليه
السلام في وقت
الكلام فقال : أفنى
موسى عن موسى فلم
يكن لموسى خبر
من موسى ثم كالم
فكان الكلام والكلم
هو وكيف كان
يطبق موسى حمل
الخطاب ورد الجواب
لولا بياض سمع ومعنى
هذا أن الله تعالى
منحه قسوة تلك

(١) حديث عائشة لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد وخلط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون وكان عمر بن الخطاب ممن كذب بموته وعلى فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يميت الحديث إلى قوله عند ربكم تختصمون لم أجده أصلا وهو منكر (٢) حديث بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحرث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه قبله وبكى ثم قال بأبي أنت وأمي ما كان الله ليزيقك الموت مرتين الحديث إلى آخر قوله وكان الناس لم يسموا هذه الآية إلا يومئذ البخاري ومسلم من حديث عائشة أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنع حتى نزل ودخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمهر رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه قبله وبكى ثم قال بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتين أما الموتة التي كتبت عليك فقد منتهى ولهما من حديث ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس الحديث وفيه والله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر لفظ البخاري فيهما .

حيا وميتا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة فعضمت عن الصفة وجللت عن البكاء وخصمت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لحزنك بالنفوس ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء العيون فأما ما لا نستطيع فيه عنا فكمد وادكار محالفان لا يبرحان اللهم فأبغنا عنا إذ كرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ولنكن من بالك فلولا ما خلفت من السكينة لم يتم أحد لما خلفت من الوحشة اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا (١) . وعن ابن عمر أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عجب أهل البيت عجباً سمع أهل الصلى كلنا ذكر شيئا ازدادوا فما سكن عجبهم إلا نسلم رجل على الباب صبت جلد قال السلام عليكم بأهل البيت - كل نفس ذائقة الموت - الآية إن في الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل عناية فآله فارجوا وبه ثقوا فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطلع أحدهم فلم ير أحدا ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لا يرفون صوته بأهل البيت إذ كروا الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المخالسين إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فآله فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم (٢) واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضي الله عنه فقال قام أبو بكر في الناس خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه

القوة مع ولولا
تلك القوة ما قدر
على السمع ثم أنشد
القائل متمثلا :
وبدا له من بعد
ما اندمل الهوى
برق تألق موهنا
لمانه

يدو ككاشية الرداء
ودونه
سبب الدرى متنع
أركانها
فبدا لينظر كيف لاح
فلم يطق
نظرا إليه ورده
أشجانه
فالنار ما اشتملت عليه
ضلوعه
وللأه ما صحت به
أجانه
ومنها قولهم التحلى
والاستقرار . قال الجنيدي

(١) حديث إن أبابكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصب الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه الحديث إلى قوله واحفظه فينا ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث ابن عمر باسناد ضعيف جاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فكشف الثوب عن وجهه الحديث إلى آخره (٢) حديث ابن عمر في معجم التعزية به صلى الله عليه وسلم إن في الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل عناية فآله فارجوا وبه ثقوا ثم ميموا آخر بعده إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فآله فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع لم أجد فيه ذكر اليسع وأما ذكر الخضر في التعزية فأنكر النووي وجوده في كتب الحديث وقال إنما ذكره الأصحاب قلت بلى قد رواه الحاكم في المستدرک في حديث أنس ولم يصححه ولا يصح ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضا قال لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله ليكون فدخل عليهم رجل طويل شعر للتسكين في إزار ورداء ينخطى أصحاب رسول الله ﷺ حتى أخذ بضادتي باب البيت فسكى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على أصحابه فقال إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فآله تعالى فأنبوا ونظروهم إليكم في البلاء فانظروا فان للصاب من لم يجبره الثواب ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر على الرجل فنظروهم ميمنا وشمالا فلم يروا أحدا فقال أبو بكر لعل هذا الخضر أخو نبينا عليه السلام جاء يزيانا ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا أيضا من حديث على بن أبي طالب لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء آت نسمع حسه ولا نرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن في الله عوضا من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فآله فثقوا وإياه فارجوا فان المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم فقال على تدرود من هذا هو الخضر وفيه محمد بن جعفر الصادق تسكلم فيه وفيه انقطاع بين على بن الحسين وبين جده على والمروفي عن على بن الحسين مرسل من غير ذكر على كما رواه الشافعي في الأم وليس فيه ذكر الخضر .

على كل حال وقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده لله الحمد وحده وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه وأشهد أن الكتاب كأنزل وأن الدين كاشرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قال وأن الله هو الحق المبين اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك اللهم واجعل صلواتك ومما فاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين محمد قائد الحير وإمام الحير ورسول الرحمة اللهم قرب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابشئه مقاما محمودا يعبطه به الأولون والآخرون وانصنا بقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لم يموت وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعا فإن الله عز وجل قد اختار لبيته صلى الله عليه وسلم ماعنده على ماعندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر - يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط - ولا يفتنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتنكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالحير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتكم . وقال ابن عباس لما فرغ أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذي بلغني أنك تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه وسلم أما ترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا وكذا يوم كذا وكذا قبل الآن لما نزل بنا أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حي لا يموت - إنا لله وإنا إليه راجعون - وصلوات الله على رسوله وعند الله نحتب رسوله صلى الله عليه وسلم ثم جلس إلى أبي بكر . وقالت عائشة رضى الله عنها لما اجتمعوا لصلته قالوا : والله ما ندري كيف تفصل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثيابه كما نضع بموتانا أو نفضله في ثيابه قالت فأرسل الله عليهم النوم حتى ما بقي منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره فأعماه قال قائل لا يدري من هو عسوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه فانتبهوا ففعلوا ذلك ففصل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قميصه حتى إذا فرغوا من غسله كفن وقال على كرم الله وجهه أردنا خلع قميصه فنودينا نخلعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثيابه فأقررناه فغسلناه في قميصه كما تفصل موتانا مستلقيا ما نشاء أن يقبل لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه وإن معنا لحيفا في البيت كالريح الرخاء وبصوت بنا ارفقوا رسول الله ﷺ فانكم ستكفون فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك سبدا ولا لبدا إلا دفن معه قال أبو جعفر فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس يقطان على القطيفة والمفرش ثم وضع عليها في أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبه على قصبه (١) ففي وفاته عبرة تامة للمسلمين به أسوة حسنة .

(وفاة أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه)

لما احتضر أبو بكر رضى الله تعالى عنه جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

(١) حديث أبي جعفر فرش لحده بمفرشه وقطيفة وفيه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبه على قصبه أما وضع المفرشة والقطيفة فالذى وضع القطيفة شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه ما بنى في حياته فقد تقدم أيضا .

إنما هو تأديب وتهذيب وتذويب فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام والتهذيب للخواص وهو التجلي والتذويب للأولياء وهو المشاهدة وحاصل الاشارات في الاستتار والتجلى راجع إلى ظهور صفات النفس (ومنها الاستتار) وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب (ومنها التجلى) ثم التجلى قد يكون بطريق الأفعال وقد يكون بطريق الصفات وقد يكون بطريق الذات والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار رحمة منه

لمسرك ما يفي الثراء عن الفقى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر فكشف عن وجهه وقال ليس كذا ولكن قولى - وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد - انظروا ثوبى هذين فاغسلوهما وكفونى فيهما فان الحقى إلى الجديد أحوج من الميت . وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته :

وأبيض يستقى الفمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا عليه فقالوا ألا ندعوك طيبا بنظر إليك؟ قال قد نظر إلى طيبى وقال إني فاضل لما أريد . ودخل عليه سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه بحوده فقال يا أبا بكر أوصنا فقال : إن الله فاع علىكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك و اعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تضرن الله في ذمته فيك في النار طى وجهك، ولما نقل أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخاف فاستخاف عمر رضى الله عنه فقال الناس له استخلفت علينا فظا غليظا لماذا تقول لربك فقال أقول استخافت طى خلقك خير خاتك ثم أرسل إلى عمر رضى الله عنه فجاه فقال إني موصيك بوصية . اعلم أن لله حقا في النهار لا يقبله في الليل وأن لله حقا في الليل لا يقبله في النهار وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة وإنما قلت موازين من قلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وتمله عليهم وحتى لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يشغل وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فيقول القائل أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء فان الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم صالح الذى عملوا فيقول القائل أنا أفضل من هؤلاء وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون للؤمن راغبا راها ولا يلقى يديه إلى التهاك ولا يمتحن على الله غير الحق فان حفظت وصيتى هذه فلا يكون غائب أحب إليك من اللوت ولا بذلك منه وإن ضيقت وصيتى فلا يكون غائب أبغض إليك من اللوت ولا بذلك منه ولست بمعجزه ، وقال سعيد بن السيب لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقالوا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زدنا فانا نراك لما بك . فقال أبو بكر من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الأفق البين قالوا وما الأفق البين؟ قال قاع بين يدي العرش فيه رياض الله وأشجار يشاه كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا المكان : اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم وفريقا للسمير فاجعلنى للنعيم ولا تجعلنى للسمير . اللهم إنك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا فلاتشقى بمعاييك . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا تعيص لها مما علمت فاجعلنى ممن تستعمله بطاعتك . اللهم إن أحدا لا يشاء حتى تشاء فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربنى إليك . اللهم إنك قد قدرت حركات العباد فلا يتحرك شئ إلا بأذنك فاجعل حركاتى فى تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به فاجعلنى من خير التسمين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا فاجعلنى من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيق به صدورهم فاشرح صدرى للإيمان وزينه فى قلبى . اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك فأحبنى بعد اللوت حياة طيبة وقربنى إليك زلفى . اللهم من أصبح وأمسى تمته ورجاؤه غيرك فأنت تقى ورجائى ولا حول ولا قوة إلا بالله قال أبو بكر هذا كله فى كتاب الله عز وجل .

لهم ولنيرهم فأما لهم
فلا أنهم به يرجعون
إلى مصالح النفوس وأما
لنيرهم فلا نلوا مواضع
الاستتار لم ينتفع بهم
لاستخراهم فى جمع
الجمع وبروزهم لله الواحد
القهار . قال بعضهم
علامة تجلنى الحق
للأسرار هو أن لا يشهد
السر ما يتسلط عليه
التصير ويحويه القهم
فمن عبر أوقهم فهو
صاحب استدلال لا ناظر
اجلال . وقال بعضهم
التجلى رضى حجة
البشرية لأن يتلون
ذات الحق عز وجل
والاستتار أن تكون
البشرية حائلة بينك
وبين شهود الغيب .
(ومنها التجريد والتفريد)

(وفاة عمر بن الخطاب رضی الله تعالى عنه)

قال عمرو بن ميمون كنت قائما غداة أصيب عمر مابني وبينه إلا عبد الله بن عباس وكان إذا مر بين الصفيين قام بينهما فإذا رأى خلا قال استوا حتى إذا لم يرفيهم خلا تقدم فكبر قال وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فما هو إلا أن كبر فسمعتة يقول قتلني أو أكلني السكب حين طعنه أبو لؤلؤة وطار الملعج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد بيننا أو شمالا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا فمات منهم تسعة وفي رواية سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن الملعج أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر رضی الله عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر غير أنهم قد صوته عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله صلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا ابن العباس انظر من قتلني قال فجاب ساعة ثم جاء فقال غلام الغيرة بن شعبة فقال عمر رضی الله عنه قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفا ، ثم قال الحمد لله الذي لم يجعل مني يد رجل مسلم قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدية وكان العباس أكرمهم رقيقا فقال ابن عباس إن شئت فقلت : أي إن شئت قتلناهم قال بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلكم وجواحكم فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه قال وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ قال قائل يقول أخاف عليه وقائل يقول لأبأس فأني ببنيذ فشرب منه فخرج من جوفه ثم أتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه فزفروا أنه ميت قال فدخلنا عليه وجاء الناس يشنون عليه وجاء رجل شاب فقال أبتريا أمير المؤمنين يبشرى من الله عز وجل قد كان لك محبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم في الإسلام ما قد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة فقال وددت أن ذلك كان كفافا لا على ولا لى فلما أدير الرجل إذا إزاره يمس الأرض فقال ردوا على الغلام فقال يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أتقى لثوبك وأتقى لربك ثم قال يا عبد الله انظر ما على من الدين لحسبوه فوجدوه ستة وأثمانين ألفا أو نحوه فقال إن وفي به مال آل عمر فأده من أموالهم وإلا نسل في بني عدى بن كعب فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تدهم إلى غيرهم وأد عني هذا المال انطلق إلى أم المؤمنين عائشة قتل عمر يقرأ عليك السلام ولا تنقل أمير المؤمنين فاني لست اليوم للمؤمنين أميرا وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسى ولأوترنه اليوم على نفسى فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال مالك قال الذي تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت قال الحمد لله ما كان شيء أم إلى من ذلك فإذا أنا قبضت فأحلونى ثم سلم وقل يستأذن، عمر فان أذنت لى فأدخلوني وإن ردتنى ردونى إلى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجال فولجت داخلنا فسمعنا بكاءها من داخل فقالوا أوص يا أمير المؤمنين واستخلف فقال ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء نفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء كهيئة التعزية له فإن أصابت الامارة سعدا فذاك وإلا فليستن به أيكم أمر فاني لم أعزله من عجز ولا خيانه وقال أوصى لحليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرماتهم وأوصيه بالأنصار خير الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم وأوصيه بأهل الأمصار خير أقاتهم رده الإسلام

الإشارة منهم في التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله لا يأتي بما يأتي به نظرا إلى الأغراض في الدنيا والآخرة بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وإقناده والتفريد أن لا يرى نفسه فيما يأتي به بل يرى مئة الله عليه فالتجريد بنى الأغيار والتفريد بنى نفسه واستنراقه في رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن حجبها (ومنها الوجد والتواجد والوجود) فالوجد ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أو حزنا ويضيره عن هيبته

وجباة الأموال وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم وأوصيه بالأعراب خيرا فاتهم أصل العرب ومادة الاسلام وأن يأخذ من حوائج أموالهم ويرد على فقرائهم وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بمهدم وأن يقاتل لهم من وراءهم ولا يكلفهم إلا طاقتهم قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب فقالت أدخلوه فأدخلوه في موضع هناك مع صاحبيه الحديث وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال لي جبريل عليه السلام لييك الاسلام على موت عمر (١) » وعن ابن عباس قال « بوضع عمر على سريره فكشفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعنى إلا رجلا قد أخذ بمنكبى فالتفت فإذا هو على بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال ما خلفت أحدا أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك وإيم الله إن كنت لأظن ليجمعنك الله مع صاحبك وذلك أنى كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ذهب أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر (٢) » فاني كنت لأرجو أو لأظن أن يجمعك الله معهما .

(وفاة عثمان رضي الله عنه)

الحديث في قتله مشهور وقد قال عبد الله بن سلام أتيت أخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور قد دخلت عليه فقال مرحبا يا أخى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في هذه الخوخة وهى خوخة في البيت فقال يا عثمان حصروك قلت نعم قال عطشوك قلت نعم فأدلى إلى دلوا فيه ماء فشربت حتى رويت حتى إنى لأجد رده بين يدي وبين كتفى وقال لى إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم رضى الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر : تشحط عثمان في الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط ؟ قالوا معناه يقول : اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا قال والذى نفسى بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة وعن ثمامة بن حزن القشيري قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال اتونى بصاحبكم اللذين أباكم على قال فجاء بهما كأنما هما حملان أو حماران فأشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال أنشدكم بالله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشتري رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالى فأتتم اليوم تمنونى أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أنى جهزت جيش العسرة من مالى ؟ قالوا نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن للسجد كان قد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالى فأتتم اليوم تمنونى أن أصلى فيها ركعتين ؟ قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على نبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارتها بالحضيض قال فركضه برجله وقال اسكن نبير فما عليك إلا نى وصديق وشهيدان ؟ قالوا اللهم نعم قال الله أكبر شهدوا لى ورب الكعبة أتى شهيد (٣) . وروى عن شيخ من ضبة أن عثمان حين

(١) حديث قال لى جبريل عليه السلام لييك الاسلام على موت عمر أبو بكر الأجرى في كتاب الشريعة من حديث أبي بن كعب بسند ضعيف جدا وذكره ابن الجوزى في الموضوعات (٢) حديث ابن عباس قال وضع عمر على سريره فكشفه الناس يدعون ويصلون فذكر قول على بن أبي طالب كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذهب أنا وأبو بكر وعمر الحديث متفق عليه (٣) حديث ثمامة ابن حزن القشيري شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان الحديث الترمذى وقال حسن والنسائى .

وتطلع إلى الله تعالى وهو فرحة يجدها القلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها إلى الله تعالى والتواجد استجلاب الوجد بالله كره والتفكير والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج إلى قضاء الوجدان فلا وجد مع الوجدان ولا خبر مع العيان فالوجد بعرضية الزوال والوجود ثابت ثبوت الجبال وقد قيل : قد كان يطربنى وجدى فأقعدنى عن رؤية الوجد من فى الوجد موجود والوجد بطرب من فى الوجد راحة والوجد عند حضور الحق مفقود

ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين اللهم
إني أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على ما ابتليتني .

(وفاة على كرم الله وجهه)

قال الأصمعي الحنظلي لما كانت الليلة التي أصيب فيها على كرم الله وجهه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر
يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متناقل فعاد الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام على عشي وهو يقول:

اشدد حيازيعك للموت فان الموت لا يقا

ولا تجزع من الموت إذا حملت بواديك

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه فخرجت أم كلثوم ابنة على رضى الله عنه فجعلت تقول
مالي ولصلاة العداة قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة العداة وقتل أبي صلاة العداة وعن شيخ من قريش أن
علياً كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال فزت ورب الكعبة وعن محمد بن علي أنه لما ضرب أوصى بنيه
ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض ولما نقل الحسن بن علي رضى الله عنه ما دخل عليه الحسين رضى الله
عنه فقال يا أخى لأى شئ تجزع تقدم على رسول الله ﷺ وعلى بن أبي طالب وهما أبو الكوكب على خديجة
بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أمك وعلى حمزة وجمعهروهما عمك قال يا أخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله
وعن محمد بن الحسن رضى الله عنهما قال لما نزل القوم بالحسين رضى الله عنه ما يؤمن أنهم قاتلوه قام في أصحابه
خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال قد نزل من الأمر ما ترون وإن الدنيا قد تغيرت وتسكرت وأدبر معروفها
وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصباة الإناء الأحمسي من عيش كالمرعى الويل لأتروا الحق لا يعمل به
والباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى وإني لأرى للموت بالإسعاد والحياء مع الظالمين إلا جرماً .
(الباب الخامس في كلام المعتضدين من الخلفاء والأمراء والصالحين)

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال أتعدون فأتعذون فجعل يسبح الله تعالى ويدكره ثم بكى
وقال تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ألا كان هذا وغضن الشباب نصرريان وبكى حتى
علا بكأوه وقال يارب ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسى اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بحملك
على من لم يرج غيرك ولم يثق بأحد سواك . وروى عن شيخ من قريش أنه دخل مع جماعة عليه
في مرضه فرأوا في جلده غضونا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فهل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا
أما والله لقد استقبلنا زهرتها بمجدتنا وباستلذاذنا بميشنا فما لبثنا الدنيا أن تقضت ذلك منا حالا
بعد حال وعروة بعد عروة فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلفتنا واستلأمت إلينا أف للدنيا من
دار ثم أف لها من دار . ويروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس إن من زرع
قد استحصد وإني قد وليتكم ولن يليكم أحد من بعدى إلا وهو شر منى كما كان من قبلى خيراً منى
ويازيد إذا وفى أجلى فول غملى رجلاً ليبياً فان اللبيب من الله يمكن فلينعم الفسل وليجهر بالتكبير
ثم اعمد إلى مندبل فى الحزاة فيه ثوب من ثياب النبى صلى الله عليه وسلم وقرضه من شعره وأظفاره
فاستودع القراضة أنقى وفى وأذى وعينى واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى ويازيد احفظ
وصية الله فى الوالدين فاذا أدرجتمونى فى جسدى ووضعتونى فى حفرتى غفلوا معاوية وأرحم
الراحمين . وقال محمد بن عقبة لما نزل بمعاوية الموت قال ياليتنى كنت رجلاً من قريش بنى طوى
وإني لم أأل من هذا الأمر شيئاً . ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق
يلوى ثوباً بيده ثم يضرب به للفصلة فقال عبد الملك ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدي يوماً يوم

(الباب الخامس فى كلام جماعة من المعتضدين)

(ومنها الغلبة) الغلبة
وجد متلاحق فالوجد
كالبرق يبدو والغلبة
كتلاحق السبرق
وتواتره يقبب عين
للتخيز فالوجد ينطقه
سريماً والغلبة تسبق
للأسرار حرزاً منيعاً .
(ومنها السامرة) وهى
تفرد الأرواح بعنى
مناجاتها ولطيف
مناجاتها فى سر السر
بلطيف إدراكها
للقلب لتفرد الروح بها
فتلذذ بها دون القلب
(ومنها السكر والصحو)
فالسكر استيلاء
سلطان الحال والصحو
العود إلى ترتيب الأفعال
وتهذيب الأقوال
قال محمد بن خفيف

ولم آل من أمر الدنيا شيئاً فبلغ ذلك أباحازم فقال الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرم الموت يتمنون ما نحن فيه وإذا حضرنا للموت لم تمنع ما هم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال أجدني كما قال الله تعالى - ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم - الآية ، ومات . وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبدالعزيز كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول : اللهم أخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده فجلست في بيت آخر بيني وبينه باب وهو في قبة له فسمعته يقول - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين - ثم هدأ فجلست لأسمع له حركة ولا كلاماً فقلت لوصيف له انظر أنا ثم هو فلما دخل صاح فوثبت فإذا هوميت وقيل له لما حضره الموت اعهد يا أمير المؤمنين قال أحذر كم مثل مصرعي هذا فإنه لا بد لكم منه وروى أنه لما ثقل عمر بن عبدالعزيز دعى له طبيب فلما نظر إليه قال أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال ولأتأمن الموت أيضاً على من لم يسق السم قال الطبيب هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع في بطني قال فعالج يا أمير المؤمنين فإني أخاف أن تذهب نفسك قال رب خير مذهب إليه والله لو علمت أن شفاقي عند شحمة أذني مارفعت يدي إلى أذني فتناوته اللهم خر لعمر في لعانك فلم يلبث إلا أياماً حتى مات وقيل لما حضرته الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين أبشر فقد أحيا الله بك سنناً وأظهر بك عدلاً فبكى ثم قال أليس أوقف فأسئل عن أمر هذا الخلق فوالله لو عدلت فيهم لحفت على نفسي أن لا تقوم بحجبتها بين يدي الله إلا أن يلقنها الله حجتها فكيف بكثير مما ضيعنا وفاضت عيناه فلم يلبث إلا سيرا حتى مات ولما قرب وقت موته قال أجلسوني فأجلسوه فقال : أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فصبت ثلاث مرات ولكن لإله إلا الله ثم رفع رأسه فأحد النظر فقيل له في ذلك فقال إني لأرى خضرة ما هم بأنس ولا جن ثم قبض رحمه الله . وحكى عن هرون الرشيد أنه اتقى أ كفانه يده عند الموت وكان ينظر إليها ويقول ما أغنى عنى ماله هلك عنى سلطانيه وفرش الأمان رمادا واضطجع عليه وكان يقول يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه وكان العتصم يقول عند موته لو علمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت وكان للتصير يضطرب على نفسه عند موته فقيل له لا بأس عليك يا أمير المؤمنين فقال ليس إلا هذا لقد ذهب الدنيا وأقبلت الآخرة . وقال عمرو بن العاص عند الوفاة وقد نظر إلى صناديق لبيته من يأخذها بما فيها ليته كان بعرا . وقال الحجاج عند موته اللهم اغفر لي فان الناس يقولون إنك لا تغفر لي فكان عمر بن عبدالعزيز تبعه هذه الكلمة منه وبغبطه عليها ولما حكى ذلك للحسن قال أقالها ؟ قيل نعم قال عسى .

(بيان أقوال جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم)

(من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين)

لما حضرت معاذاً رضى الله عنه الوفاة قال اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار ولا لفرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر ولما اشتد به التبع وتزعزع لم ينزع أحد كان كلما أفاق من غمرة فتش طرفه ثم قال رب ما أختفى خفتك فوعزت بك إنك تعلم أن قلبي بحبك ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك قال ما أبكى جزعاً على الدنيا ولكن عهد إلينا رسول الله

السكر غليان القلب
عند معارضات ذكر
المحبوب وقال الواسطي
مقامات الوجد أربعة
الذهول ثم الحيرة ثم
السكر ثم الصحو كمن
صبح بالبحر ثم دنامته
ثم دخل فيه ثم أخذته
الأمواج فقلبي هذا من
بقى عليه أثر من
سريان الحال فيه
فعلية أثر من السكر
ومن عاد كل شيء منه
إلى مستقره فهو صاح
فالسكر لأرباب القلوب
والصحو لكاشفين
بحقائق القيوب .
(ومنها الهو والإثبات)
الهو بإزالة أوصاف
النفوس والاثبات بما
أدبر عليهم من آثار
الحب كؤوس أو الهو

وقيل للجديد قل لا إله إلا الله فقال ما نصيته فأذكره وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري خادم الشبلي ما الذي رأيت منه فقال قال عليّ درهم مظلمة وتصدقت عن صاحبه بألوف فما طلى قلبى شغل أعظم منه ثم قال وضئى للصلاة فعملت فنديت تخليل لحية وقد أمسك على لسانه فقبض على يدي وأدخلها في لحية ثم مات فبكى جعفر وقال ماتوا يقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة وقيل لبشر بن الحرث لما احتضر وكان يشق عليه كأنك تحب الحياة فقال القوم على الله شديد وقيل لصالح بن مسهر ألا توصى بابنك وعيالك فقال إني لأستحي من الله أن أوصي بهم إلى غيره ولما احتضر أبو سليمان الداراني أتاه أصحابه فقالوا أبشر فانك تقدم على رب غفور رحيم فقال لهم ألا تقولون احذر فانك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له أوصنا فقال احفظوا أمراد الحق فيكم احتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها ما يبكيك فقالت عايك أبكي فقال إن كنت باكية فابكي على نفسك فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة وقال الجنيد دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت كيف تجدك فأنشأ يقول :

كيف أشكو إلى طبيبي مابي والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت الروح لأروحه فقال كيف يجد ربح الروح من جوفه يحترق ثم أنشأ يقول :

القلب يحترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مفترق

كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الهوى والشوق والقلق

يارب إن يك شيء فيه لى فرج فامنن على به مادام بي رمق

وحكى أن قوما من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له قل لا إله إلا الله فأنشأ يقول :

إن بيتا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج وجهك المأمول حجتنا

يوم يأتي الناس بالحجج لا أتاح الله لى فرجا يوم أددو منك بالفرج

وحكى أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزع فسلم عليه فلم يجبه ثم أجاب بعد ساعة

وقال اعذرني فاني كنت في وردى ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبر ومات وقيل للسكتاني لما حضرته

الوفاة ما كان عمالك فقال لو لم يقرب أجلي ما أخبرتكم به وقتت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مر

فيه غير الله حجته عنه وحكى عن المعتز قال كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق

فقلت اللهم هون عليه سكرات الموت فانه كان وكان فذكرت محاسنه فأفاق فقال من التلكم؟ فقلت أنا

فقال إن ملك الموت عليه السلام يقول لى إني بكل سخى رفيق ثم طوى ولما حضرت يوسف بن أسباط

الوفاة شهده حذيفة فوجده قلعا فقال يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع فقال يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق

ولا أجزع وإني لا أعلم أنى صدقت الله في شيء من عملي فقال حذيفة وأعجباه لهذا الرجل الصالح محلف

عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله في شيء من عمله. وعن المغازلي قال دخلت على شيخ لى من أصحاب هذه الصفة

وهو عليل وهو يقول يمكنك أن تعمل ما تريد فارق بى . ودخل بعض المشايخ على محمد الدينوري

في وقت وفاته فقال له فعل الله تعالى وصنع من باب الدعاء فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض على

الجنة بما فيها لما أعرتها طرفى . وقيل لرويم عند الموت قل لا إله إلا الله فقال لا أحسن غيره ولما حضرت

الثورى الوفاة قيل له قل لا إله إلا الله فقال أليس ثم أمر . ودخل المزني على الشافعي رحمه الله عليه ما

في مرضه الذي توفي فيه فقال له كيف أصبحت يا أبا عبد الله فقال أصبحت من الدينار احلاو للاخوان

مفارقا لسوء عملي ملاقيا ولكأس النية شاربا وعلى الله تعالى واردا ولا أدري أروحي تصير إلى

الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزبها ثم أنشأ يقول :

بورود رائد الوصال

قال فارس : علم اليقين

لا اضطراب فيه

وعين اليقين هو

العلم الذي أودعه

الله الأسرار والعلم

إذا انفرد عن نعت

اليقين كان علما

بشبهة فاذا انضم

إليه اليقين كان علما

بلاشبهة وحق اليقين

هو حقيقة ما أشار

إليه علم اليقين وعين

اليقين . وقال الجنيد

حق اليقين ما يتحقق

العبد بذلك وهو

أن يشاهد القيوب

كما يشاهد المرات

مشاهدة عيان

ويحكم على النيب فيخبر

عنه بالصدق كما أخبر

الصديق حين قال لما

ولما قسا قلبي وضاعت مذاهي جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تصاظمي ذنبي فلما قرئت به بمفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفوك عن الذنب لم تزل تجود وتغفو منة وتكرما
ولولاك لم ينوي إبليس عابدا فكيف وقد أغوى صنك آدما

ولما حضر أحمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسئلة فدمعت عيناه وقال يا بني باب كنت أدقه خمسا وتسعين سنة هوذا يفتح الساعة لي لأدري أيفتح بالمادة أو الشقاوة فأني أوان الجواب فهذه أقاويلهم وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فقلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم.

(الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والقابر وحكم زيارة القبور)

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تبييه وتذكير لأهل الغفلة فانها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة لأنهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرين ولا يتفكرون أن المحولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون فبطل حسابهم وانقرض على القرب زمانهم فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها فانه محمول عليها على القرب وكأن قد ولطه في غد أو بعد غد. وروى عن أبي هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال امضوا فانا على الأثر. وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال اغدوا فانا رائعون موعظة بليغة وغفلة سرية يذهب الأول والآخر لا عقل له. وقال أسيد بن حضير ما شهدت جنازة فحدثني نفسي بشيء سوى ما هو معمول به وما هو صائر إليه ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول والله لا تفر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ولا أعلم مادمت حيا وقال الأعمش كنا نشهد الجنائز فلا ندرى من نعزى لحزن الجميع وقال ثابت البناني كنا نشهد الجنائز فلا ندرى إلا متنعما بما كنا نحسب أن خوفهم من الموت والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون ولا يتسكمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أقرانه وأذنيه إلا في الجيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه ولا يتفكر واحد منهم إلا ما شاء الله في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل عليها ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأحوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنيننا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فان أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكآؤهم على اللبث ولو عقلو البسكواطى أنفسهم لاطى اللبث نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على اللبث فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم فإنه نجا من أهوال ثلاثة : وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق ، وخوف الحاتمة وقد آمن . وقال أبو عمرو بن العلاء : جلست إلى جريح وهو يملى على كاتبه شعرا فأطلعت جنازة فأمسك وقال شيتني والله هذه الجنائز وأنشأ يقول :

تروعا الجنائز مقبسات ونلهو حين تذهب مديرات

صكروعة ثلة لمعار ذئب فلما غاب عادت راتمات

فن آداب حضور الجنائز التفكير والتنبه والاستعداد والتي أمامها على هيئة التواضع كما ذكرنا آدابها وسننه في فن الفقه ومن آدابها حسن الظن بالمت وإن كان فاسقا وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرا الصلاح فان الحاتمة محطرة لا تدرى حقيقتها ، ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات

(الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والقابر)

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماذا أقيمت لعمالك قال الله ورسوله » وقال بعضهم : علم اليقين حال التفرقة وعين اليقين حال الجمع وحق اليقين جمع الجمع بلسان التوحيد وقيل لليقين اسم ورسم وعلم وعين وحق فالاسم والرسم للموأم وعلم اليقين للأولياء وعين اليقين لخواص الأولياء وحق اليقين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحقبة اليقين اختص بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . (ومنها الوقت) والمراد بالوقت ما هو غالب على العبد وأغلب

واحد من جيرانه وكان مسرفاً على نفسه فتجافى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلى عليها فلما دلى في قبره وقف على قبره وقال يرحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود وإن قالوا مذنب وذو أخطايا فمن منا غير مذنب وغير ذى خطايا . ويعجى أن رجلاً من التهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة فلم تجد امرأته من ينيها على حمل جنازته إذ لم يدبرها أحد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت حمالين وحملتها إلى الصلي فاصلى عليه أحد خدمتها إلى الصحراء للدفن فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلى عليها فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال قيل لى في المنام أنزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصلت عليه فانه مغفور له فزاد تعجب الناس فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته قالت كما عرف كان طول نهاره في الماخور مشغولاً بشرب الخمر فقال انظرى هل تعرفين منه شيئاً من أعمال الخير قالت نعم ثلاثة أشياء : كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلى الصبح في جماعة ثم يعود إلى الماخور ويشتمل بالفسق ، والثاني أنه كان أبداً لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده وكان شديد التفقد لهم ، والثالث أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول يارب أى زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الحبيث يبنى نفسه فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره . وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره :

فان تج منها تج من ذى عظيمة وإلا فإنى لإخالك ناجياً

(بيان حال القبر وأقوابلهم عند القبور)

قال الضحاك قال رجل « يارسول الله من أزهدهم الناس قال من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعد غداً من أيامه وعد نفسه من أهل القبور (١) . وقيل لأمى كرم الله وجهه ما شأنك جاورت المقبرة قال لى أجدهم خير جيران لى أجدهم جيران صدق بكفون الألسنة ويذكرون الآخرة وقال رسول الله ﷺ « ما رأيت منظراً إلا والقبر أفضح منه (٢) » وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنيت أدنى القوم منه فسكى وبكى وبكوا فقال ما يبكيكم قلنا بكينا بكائك قال هذا قبر أمى آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لى فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى على فأدركنى ما يدرك الولد من الرقة (٣) »

(١) حديث الضحاك : قال رجل يارسول الله من أزهدهم الناس؟ قال من لم ينس القبور والبلى والحديث تقدم (٢) حديث : ما رأيت منظراً إلا والقبر أفضح منه تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة (٣) حديث عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس على قبر وكنيت أدنى القوم الحديث وفيه هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لى الحديث وتقدم في آداب الصحبة أيضاً ورواه ابن أبى الدنيا في كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب وآخره عند ابن ماجه مختصراً وفيه أيوب بن هانىء ضمه ابن معين وقال أبو حاتم صالح .

ما على العبد وقته
فانه كالسيف يعض
الوقت بحمكه ويقطع
وقد يراد بالوقت
ما بهجم على العبد
لا يكسبه فيتصرف
فيه فيكون بحمكه
يقال فلان يحكمكم
الوقت يعنى مأخوذاً
عما منه بما للحق .
(ومنها الغيبة والشهود)
فالشهود هو الحضور
وقتا بنت المرافقة
ووقتا بوصف
المشاهدة لآدام العبد
موصوفاً بالكشود
والرافية فهو حاضر
فاذا قصد حال
المشاهدة والمرافقة
خروج من دائرة
الحضور فهو نائب
وقد يعنون بالغيبة

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبيل لحيته فسئل عن ذلك وقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتبكي إذا وقفت على قبر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد (١)» وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى القبرة فنزل وصلى ركعتين فقيل له هذا شي لم تكن تصنعه فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أتقرب إلى الله بهما وقال مجاهد أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت العربة وبيت الظلمة هذا ما أعدت لك فما أعدت لى . وقال أبو ذر الأخرم يوم قفرت يوم أوضع في قبري وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فقيل له في ذلك فقال أجلس إلى قوم يذكرونى معادى وإذا قت لم يتأبونى وكان جعفر بن محمد يأتي القبور ليلا ويقول يا أهل القبور مالي إذا دعوتكم لتأجوني ثم يقول حيل والله بينهم وبين جواني وكأني بي أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه يا فلان لقد أرتت الأيلة أنك في القبر وساكنه إنك لورأت لليت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنى منك به ولرأت بيتا تجول فيه الهوام ويجرى فيه الصديد وتخرقه الديدان مع تغير الريح وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح وتقاء الثوب قال ثم شق شهقة خر مغشيا عليه وكان يزيد الرقاشي يقول أيها القبور في حفرته والمتخلى في القبر بوحدته للستأنس في بطن الأرض بأعماله ليت شعرى بأى أعمالك استبشرت وبأى اخوانك اغتبطت ثم يبكى حتى يبيل عمامته ثم يقول استبشر والله بأعماله الصالحة واغبط والله باخوانه للتعاونين على طاعة الله تعالى وكان إذا نظر إلى القبور خار كما يخور الثور وقال حاتم الأصم من مر بالقباب فلم يفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم وكان بكر العابد يقول يأمام ليتك كنت بي عقبا إن لابنك في القبر حبسا طويلا ومن بعد ذلك منه رجلا وقال يحيى بن معاذ يا ابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه إن أجبت من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها وإن أجبت من قبرك منعها وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على القابر يقول ما أحسن ظواهرك إنما الدواهي في بواطنك وكان عطاء السلمي إذا جن عليه الليل خرج إلى القبرة ثم يقول يا أهل القبور متم فواموتاه وعانيتم أعمالكم فواعملاه ثم يقول غدا عطاء في القبور غدا عطاء في القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح وقال سفيان من أكثر من ذكر القبر وجدته روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجدته حفرة من حفر النار وكان الربيع بن خيثم قد حفر في داره قبرا فكان إذا وجد في قلبه مساواة دخل فيه فاضطجع ومكث ماشاء الله ثم يقول - رب ارجعون لى أعمل صالحا فيما تركت - يرددتها ثم يرد على نفسه ياربيع قد رجعتك فاعمل وقال أحمد بن حرب تعجب الأرض من رجل يمهد مضجعه ويسوى فراشه فنوم فتقول يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك وما بيني وبينك شي وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى القبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل على فقال يا ميمون هذه قبور آبائي بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلث واستحك فيهم البلى وأصابت الهوام مقبلا في أبدانهم ثم بكى وقال والله ما أعلم أحدا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله وقال ثابت البناني دخلت القابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول يا ثابت لا يفرنك صموت أهلها فكلم

الغيبه عن الأشياء بالحق فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعا إلى مقام الفناء (ومنها الذوق والشرب والرى) فالذوق بإيمان والشرب علم والرى حال فالذوق الأرباب البوادع والشرب لأرباب الطواع واللى وائح والواضع والرى لأرباب الأحوال وذلك أن الأحوال هى التى تستقر لما لم يستقر فليس بحال وإنما هى لواضع وطواع وقيل الحال لا تستقر لأنها تحمولى فاذا استقرت تكون مقاما (ومنها المحاضرة واللكاشفة والشاهدة) فالمحاضرة لأرباب التساوين والشاهدة

(١) حديث عثمان كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبيل لحيته وفيه إن القبر أول منازل الآخرة الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم فى آداب الصحبة .

من نفس مغمومة فيها ، ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن
نفطت وجهها وقالت :

وكانوا رجاء ثم أموار رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت
المدينة فسمعوا صوتا من جانب البقيع هل وجدوا ما فقدوا فسمعوا من الجانب الآخر بل يشعوا
فاتقبلوا . وقال أبو موسى التيمي : توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة وفيهم
الحسن فقال له الحسن يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم فقال شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة
فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافى أشد من القبر التهابا وأضيقا

إذا جاءني يوم القيامة قائداً عنيف وسواق يسوق الفرزدقا

لقد خاب من أولاد آدم من مشى إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا في أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساكنها من منكم التعمور في ظلماتها

ومن الحكرم منكم في قرعها قد ذاق برد الأمن من روعاتها

أما السكون لدى العيون فواحد لا يستبيز الفضل في درجاتها

لو جاوبوك لأخبروك بألسن نصف الحقائق بعد من حالاتها

أما اللطيف فنازل في روضة يفضى إلى ماشاء من دوحاتها

والمجرم الطاغى بها متقلب في حفرة يأوى إلى حياتها

وعقارب تسمى إليه فروجه في شدة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها إذا كنت في القبر قد ألدوكا

فكيف أذوق لظم الكرى وأنت يمينك قد وسدوكا

ثم قالت يا ابنه بأى خديك بدأ الدود فصعق داود مكانه وخر مغشيا عليه . وقال مالك بن دينار
مررت بالمقبرة فأنشأت أقول :

أثبتت القبور فناديتها فأين للعظم والمختر

وأين المدل بسلطانه وأين الزكي إذا ما افتخر

قال فنوديت من بينها أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فما نجبر وماتوا جميعا ومات الخبر

تروح وتغدو نبات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور

فيا سائلي عن أناس مضوا أما لك فما ترى معتبر

قال فرجعت وأنا باك .

أبيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبا على قبر :

تتاجيك أجدات وهن صموت وسكانها تحت التراب خفوت

أيا جامع الدنيا لغير بلاغه لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

لأرباب التمكن
والكاشفة بينهما إلى
أن تستقر للمشاهدة
والمحاضرة لأهل العلم
والكاشفة لأهل العين
والمشاهدة لأهل الحق
أى حق اليقين (ومنها
الطوارق والبوادي
والباده والواقع
والقادح والطوالع
واللوامع واللوائح)
وهذه كلها ألفاظ
مقاربة المعنى ويمكن
بسبب القول فيها
ويكون حاصل ذلك
راجعا إلى معنى واحد
يكثر بالعبارة فلا فائدة
فيه والمقصود أن هذه
الأسماء كلها مبادئ
الحال ومقدماته وإذا
صح الحال استوعب

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

أيا غاتم أما ذراك فواسع وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفخ القبور عمران قبره إذا كان فيه جسمه بينهم
وقال ابن السكك مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب :

يمر أقاربي جنات قبري كأن أقاربي لم يعرفوني
ذوو الميراث يقتسمون مالي وما يألون أن جعدوا ديوني
وقد أخذوا سهامهم وطاشوا فيأثه أسرع ما نسوني
ووجد على قبر مكتوبا :

إن الحبيب من الأحباب يختلس لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدينا ولذاتها يامن بعد عليه اللفظ والنفس
أصبحت يا غافلا في القص منغما وأنت دهرك في اللذات منغس
لا يرحم الموت ذا جهل لفرته ولا الذي كان منه العلم يقتبس
كم أحرص الموت في قبر وقتت به عن الجواب لسانا مابه حرس
قد كان قصرك معمورا له شرف فقبرك اليوم في الأجدات مندرس
ووجد على قبر آخر مكتوبا :

وقفت على الأحية حين صفت قبورهم كأفراس الرهان
فلا أن بكيت وقاض دمعى رأيت عيناى بينهم مكانى
ووجد على قبر طيب مكتوبا :

قد قلت لما قال لى قائل صار لقمان إلى رسمه
فأين ما بوصف من طبه وحذقه فى الماء مع جسمه
هيات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه
ووجد على قبر آخر مكتوبا :

يا أيها الناس كان لى أمل قصر بى عن بلوغه الأجل
فليتق الله ربه رجل أمكنه لى حياته العمل
ما أنا وحدى قلت حيث ترى كل إلى مثله سينتقل

فمنه آيات كتبت على قبور لتقصير مكانها عن الاعتبار قبل الموت والبصير هو الذى ينظر إلى
قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستمد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يرحون من مكانهم ما لم يلحق
هم وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذى هو مضى له لكان ذلك أحب إليهم من
الدينا بهذا قبرها لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور فأنما حسرتهم على يوم
من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب وليستزيد الموفق به ربه فيتضاعف له
الثواب فانهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه حسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك
الساعة واعلمك تقدر على أمثالهم ثم أنت مضى لها فوطن نفسك على التضرع على تضييعها عند
خروج الأمر من الاختيار إذ لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتداء فقد قال بعض الصالحين
رأيت أخا لى فى الله فيها يرى النائم قلت يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين قال لأن أقدر على أن أقولها
يعنى الحمد لله رب العالمين أحب إلى من الدنيا وما فيها ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنونى فإن فلانا

هذه الأسماء كلها
ومعانيها .

(ومنها التلوين
والتحكين)

فالتلوين لأرباب
القلوب لأنهم تحت

حجب القلوب وللقلوب
تخلص إلى الصفات

وللصفات تمدد تعدد
جهاتها فظهر لأرباب

القلوب بحسب تعدد
الصفات تلوينات ولا

تجاوز للقلوب وأربابها
عن عالم الصفات وأما

أرباب التحكين
تفرجوا عن مشام

الأحوال وخرقوا
حجب القلوب

وباشرت أرواحهم
سسطوع نور الذات

فارتفع التلوين لعدم

قد قام فصلي ركعتين لأن أكون أفدر على أن أوسلبيها أحب إلي من الدنيا وما فيها .

(بيان أقوالهم عند موت الولد)

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله في تقدمه عليه في الموت منزلة مالوكا في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه فإنه لا يمظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب وليس بينهما إلا تقدم وتأخر وهكذا الموت فإن معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق التأخر وإذا اعتقد هذا قل جزعه وجزنه لاسما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأن أقدم سقطا أحب إلي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله» (١) وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب وقال زيد بن أسلم توفي ابن لدواد عليه السلام فحزن عليه حزنا شديدا فبذل ما كان عدله عندك قال ملء الأرض ذهباً قيل له فإن لك من الأجر في الآخرة مثل ذلك وقال رسول الله ﷺ «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جنة من النار فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اثنان قال أو اثنان» (٢) وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرحم دعاء وأقرب به إلى الاجابة . ووقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال اللهم إنى أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحقق رجائي وآمن خوفاً ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال اللهم إنى قد غفرت له ما وجب لي عليه فأغفر له ما وجب لك عليه فانك أجود وأكرم ، ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال اللهم إنى قد وهبت له ما قصر فيه من برى فهب له ما قصر فيه من طاعتك . ولما مات ذر بن عمر بن ذر قال أبوه عمر بن ذر بعد ما وضعه في لحده فقال يا ذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك ثم قال اللهم إن هذا ذر متعتني به مامتتني ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه اللهم وقد كنت أئزمت طاعتك وطاعتك اللهم وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبي فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تمذه بأبكي الناس ثم قال عند انصرافه ما علينا بعدك من خصاصة يا ذر وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة فاقدم مضينا وتركنك ولو ألقنا ما نفعناك . ونظر رجل إلى امرأة بالبرية فقال ما رأيت مثل هذه النظارة وما ذاك إلا من قلة الحزن فقالت يا عبد الله إنى لنى حزن ما يشركنى فيه أحد قال فكيف قالت إن زوجى ذبح شاة في يوم عيد الأضحى وكان لى صبيان مليحان باميان فقال أكبرهما للآخر أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة قال نعم فأخذه وذبحه وما شعرنا به إلا امتسحطاً في دمه فلما ارتفع الصراخ هرب اللام فاجأ إلى جبل فرمقه ذئب فأكله وخرج أبوه يطلبه فمات عطشا من شدة الحر قالت فأرادنى الدهر كما ترى فأمثال هذه المصاب ينبغي أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع فسامن مصيبة إلا ويتصور ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر .

(بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به)

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد (٣) .

(١) حديث لأن أقدم سقطا أحب إلي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله لم أجد فيه ذكر مائة فارس وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة لسقط أقدمه بين يدي أحب إلي من فارس أخلفه خلى (٢) حديث لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم الحديث تقدم في السكاح (٣) حديث نهى عن زيارة القبور ثم أذنه في ذلك مسلم من حديث بريدة وقد تقدم .

التغير في القات إذ جلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات فلما اخلصوا إلى مواطن القرب من أنصبه تجلى الذات ارتفع عنهم التلويح فالتلويح حينئذ يكون في نفوسهم لأنها في محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها والتلويح الواقع في النفوس لا يخرج صاحبها عن حال التمسك لأن جريان التلويح في النفس بقاء رسم الانسانية وثبوت القسدم في التمسك ككشف حق الحقيقة وليس المعنى بالتمسك أن لا يكون للبدن تغير فإنه بشر وإنما المعنى

روى عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا (١) » وزار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم يربا كيا أكثر من يومئذ (٢) وفي هذا اليوم قال أذن لي في الزيارة دون الاستغفار (٣) كما وردنا من قبل وقال ابن أبي مليكة أقبلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها (٤) ولا ينبغي أن يتمسك بهذا يؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر فإن يكنن الهجر على رؤوس المقابر فلا ينبغي خير زيارتهن بشرها ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظام الزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها ، نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة تردأعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصاد على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زر القبور تذكر بها الآخرة واغسل الموتى فإن معالجة جسدخاو موعظة بليغة وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فان الحزين في ظل الله (٥) » وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله ﷺ « زوروا موتاكم وسلموا عليهم فان لكم فيهم عبرة (٦) » وعن نافع أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام فتصلي وتبكي عنده وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برآ (٧) » وعن ابن سيرين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل لموت والدا وهو عاق لهما فیدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين (٨) » وقال النبي صلى الله عليه وسلم

أن ما كوشف له من الحقيقة لا يتوارى عنه أبدا ولا يتناقص بل يزيد وصاحب التلوين قد يتناقص الشيء في حقه عند ظهور صفات نفسه وتقيب عنه الحقيقة في بعض الأحوال ويكون ثبوته على مستقر الإيمان وتلوينه في زوائد الأحوال (ومنها النفس) ويقال النفس المعنوية والوقت للمبتدى والحال للمتوسط فكانت إشارة منهم إلى أن المبتدى يطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه والنهية صاحب نفس

(١) حديث علي كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا رواه أحمد وأبو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظ له ويقل أحمد وأبو يعلى غير أن لا تقولوا هجرا وفيه علي بن زيد بن جدعان عن ربيعة بن النابغة قال البخاري لم يصح وربيعة ذكره ابن حبان في الثقات (٢) حديث زار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم يربا كيا أكثر من يومئذ ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأخرس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكب وفيه أنه لم يأذن له في الاستغفار لها (٣) حديث وقال في هذا اليوم أذن لي في الزيارة دون الاستغفار تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة أنه لم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي (٤) حديث ابن أبي مليكة أقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن قلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد (٥) حديث أبي ذر زر القبور تذكر الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسدخاو موعظة بليغة الحديث ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد (٦) حديث ابن أبي مليكة زوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم الحديث ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسل وإسناده حسن (٧) حديث من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برآ الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان رفته وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء البجلي متروك (٨) حديث ابن سيرين ان الرجل لموت والدا وهو عاق لهما فیدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عقبة بن أبي الميزان عن محمد بن جعدة

« من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من زارني بالمدينة محسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة (٢) » وقال كعب الأحبار: ما من جري بطاع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يخفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه. وللمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلا بوجهه البيت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله فان ذلك من عادة النصارى. قال نافع كان ابن عمر رأته مائة مرة أو أكثر يجمي إلى القبر فيقول السلام على النبي السلام على أبي بكر السلام على أبي وينصرف. وعن أبي أمامة قال رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف. وقالت عائشة رضی الله عنها قال رسول الله ﷺ « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » (٣) وقال سليمان بن سحيم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه سلامهم قال نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة إذا مر الرجل بقبر الرجل يعرفه فلم عليه رد عليه السلام وعرفه وإذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام وقال رجل من آل عاصم الجحدري رأيت عاصميا في منامى بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مات قال بلى فقلت أين أنت فقال أنا واقف في روضة من رياض الجنة أنا و نفر من أمهاني نجتمع كل ليلة جمعة وصيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله المزني فتتلقى أخباركم قلت أجسامكم أم أرواحكم قال هيئات الأجسام وإنما تتلقى الأرواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم قال نعم نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قلت وكيف ذلك دون الأيام كلها قال لفضل يوم الجمعة وعظمه. وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة قبيل له لو أخرت إلى يوم الاثنين قال بلغني أن الموتى يملكون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده وقال الضحاك: من زار قبري قبل طلوع الشمس يوم السبت علم البيت بزيارته قبل وكيف ذلك قال لمكان يوم الجمعة. وقال بشر بن منصور لما كان زمن الطاعون كان رجل يخاف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال أنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل فأسميت ذات ليلة فأنصرفت إلى أهلي ولم آت المقابر فأدعوا كما كنت أدعوا فبينما أنا نائم إذا بخناق كثير قد جاءوني فقلت ما أنتم وما حاجتكم قالوا نحن أهل المقابر قلت ما جاء بكم قالوا إنك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك قلت وما هي قالوا الدعوات التي كنت تدعو لنا بها قلت فاني أعود لذلك لما تركتها بعد ذلك. وقال بشر بن غالب النجرائي رأيت رابعة العدوية العابدة في منامى وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشر بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور محرمة بمناديل الحرير قلت وكيف ذلك قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخمر بمناديل الحرير ثم أتى به البيت فقيل له هذه هدية فلان إليك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الميت في قبره إلا كالغريق الغوث ينتظر دعوة تلحقه من أيه

عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جحادة عن قتادة عن أنس وعبيد بن عتبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف (١) حديث من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي تقدم في أسرار الحج (٢) حديث من زارني بالمدينة محسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة تقدم فيه (٣) حديث عائشة ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم ابن أبي الدنيا في القبور وفيه عبد الله بن مسمان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الأشبيلي.

متمكن من الحال لا يتناوب عليه الحال بالنية والحضور بل تكون للواجب مقرونة بأفاسه مقبلة لا تتناوب عليه وهذه كلها أحوال لأربابها ولهم منها ذوق وشرب والله ينفع بركاتهم آمين

[الباب الثالث والستون في ذكر شيء من البدايات والتهيات وصحتها] حدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردي قال أنا الشريف أبو طالب الحسين بن محمد الزيني قال أخبرتنا كريمة الروزية قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكي

أواخيه أو صديق له فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن هدايا الأحياء للأموال الدعاء والاستغفار (١). وقال بعضهم مات أئح لى فرأيته فى المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت فى قبرك قال أنا فى آت بشهاب من نار فلولا أن داعيا دعالى لرأيت أنه سيضربنى به ومن هذا يستحب تلقين لليت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبدالله الأزدي وشهدت أبأمامة الباهلى وهو فى الترع فقال ياسعيد إذا مت فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليتم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يافلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجب ثم لقل يافلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوى قاعدا ثم لقل يافلان ابن فلانة الثالثة فإنه يقول أرشدنا برحمتك الله ولكن لاتسمون فيقول له اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنتك رضىت بالله ربا وبالإسلام ديننا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالقرآن إماما فان منكرا ونكيرا يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يعقدنا عند هذا وقد لقن حجة ويكون الله عز وجل حبيبه دونهما فقال رجل يا رسول الله فان لم يعرف اسم أمه قال فلينسبه إلى حواء (٢) ولا بأس بقراءة القرآن على القبور روى عن على بن موسى الحداد قال: كنت مع أحمد بن حنبل فى جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا فلما دفن الميت جاء رجل ضري بقرأ عند القبر فقال له أحمد يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد يا أباهد الله ماتقول فى مبشر بن اسمعيل الحلبي قال ثقة قال هل كتبت عنه شيئا قال نعم قال أخبرنى بمبشر بن اسمعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك فقال له أحمد فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ. وقال محمد ابن أحمد الروزى سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فاقراءوا بما تحمى الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل اليهم وقال أبو قلابة أقبلت من الشام إلى البصرة فترت الخندق فظهرت وصليت ركعتين بديل ثم وضعت رأسى على قبر فتمت ثم تنهت فاذا صاحب القبر يشتكى يقول لقد آذيتنى منذ الليلة ثم قال إنكم لاتعلمون ونحن نعلم ولا تقدر على العمل ثم قال للركتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خيرا أقرتهم السلام فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال فالقصود من زيارة القبور للزأر الاعتبار بها وللمزور الانتفاع بدعائه فلا ينبغي أن يغفل الزأر عن الدعاء لنفسه وللأمة ولا عن الاعتبار به وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور فى قلبه الميت كيف تفرقت أجزاءه وكيف يبعث من قبره وأنه على القرب سيلحق به كما روى عن مطرف بن أبى بكر الهذلى قال كانت عجوز فى عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المهراب وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغنى أنها عوتبت فى كثرة آياتها للمقابر

الكشميى قال أنا أبو عبدالله محمد بن يوسف القريرى قال حدثنا أبو عبدالله محمد ابن اسمعيل بن ابراهيم البخارى قال حدثنا الحميدى قال حدثنا سفيان بن عيينة قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصارى قال أخبرنى محمد بن ابراهيم التيمى أنه سمع علقمة بن وقاص قال سمعت عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يقول على النبي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن

(١) حديث ما لليت فى قبره إلا كالفرىق للعوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو صديق له الحديث أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن على بن عبد الواحد قال الذهبى حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل (٢) حديث سعيد بن عبدالله الأزدي قال شهدت أبأمامة الباهلى وهو فى الترع فقال ياسعيد إذا مت فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليتم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يافلان ابن فلانة الحديث فى تلقين الميت فى قبره الطبرانى هكذا باسناد ضعيف .

قالت إن القلب القاسى إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى وإن لآنى القيور فكأنى أنظرو وقد خرجوا من بين أطياقها وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعففة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الأجنان الدصمة فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأفقس وأشد تلفها للأبدان بل ينبى أن يحضر من صورة الليث ما ذكره عمر بن عبد العزيز حيث دخل عليه فقيه فعجب من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة فقال له يافلان لورأيتنى بعد ثلاث وقد أدخلت قبرى وقد خرجت الحدقتان فسالتا طى الحدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان، وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم وتآ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن ويستحب الثناء طى الليث والأليذكر لإلا الجليل قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقفوا فيه»^(١) وقال صلى الله عليه وسلم «لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا»^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم «لا تذكروا موتاكم إلا بخير فانهم إن يكونوا من أهل الجنة تأتموا وإن يكونوا من أهل النار لحسبهم ما هم فيه»^(٣) وقال أنس بن مالك «مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا عليها شرا فقال عليه السلام وجبت ومروا بأخرى فأتوا عليها خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت فسأله عمر عن ذلك فقال إن هذا أتيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا أتيتم عليه شرا فوجبت له النار وأنتم شهداء لله فى الأرض»^(٤) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن البديوت فينبى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى للملائكة أشهدكم أنى قد قبلت شهادة عبيدى على عبيدى وتجاوزت عن علمى فى عبيدى»^(٥)

(الباب السابع فى حقيقة الموت وما يلقاه الليث فى القبر إلى فتحة الصور)

(بيان حقيقة الموت)

اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطأوا فيها فظن بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لا حشر ولا نكير ولا عقابة للخير والشر وأن موت الانسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا رأى للحمدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر وظن قوم أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتمتع بثواب مادام فى القبر إلى أن يعاد فى وقت الحشر وقال آخرون إن الروح باقية لا تنعدم بالموت وإنما الثاب والمعاقب هى الأرواح دون الأجساد وإن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا

(١) حديث إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقفوا فيه أبو داود من حديث عائشة باسناد جيد (٢) حديث لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا البخارى من حديث عائشة أيضا (٣) حديث لا تذكروا موتاكم إلا بخير الحديث ابن أبى الدنيا فى الموت هكذا باسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائى من حديث عائشة جيد مقتصر على ما ذكر منه هنا بلفظ هلسكاكم وذكره بالزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائى والطبرانى (٤) حديث أنس مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا عليها شرا فقال وجبت الحديث متفق عليه (٥) حديث أبى هريرة إن البديوت فينبى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره ذلك الحديث أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عز وجل مامن عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث آيات من جبراته الأدين بخير إلا قال الله عز وجل قد قبلت شهادة عبيدى طى ما علموا وغفرت له ما علم.

(الباب السابع فى حقيقة الموت وما يلقاه الليث فى القبر)

كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» النية أول العمل وبهجتها يكون العمل وأهم ما للمريد فى ابتداء أمره فى طريق القوم أن يدخل طريق الصوفية ويتزنا بزيمهم وبجالس طائفتهم لله تعالى فإن دخوله فى طريقهم هجرة «الهاجر من هجر ما نهاه الله عنه» وقد قال الله تعالى - ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله - فالمريد ينبى أن

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إمامة مذبذبة وإما منعمة ، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها فان الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى انها لتبطنش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب والقلب ههنا عبارة عن الروح والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد بتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء فكل ماهو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وماهولها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهى تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدة تمنع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها فتكون الروح العالمة العاقلة للندرك باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها وللموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات والروح هي المستعملة لها وأعنى بالروح المعنى الذي يدرك من الانسان العلوم والآم العموم ولذات الأفراح ومهما بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ولا بطل منها الأفراح والعموم ولا بطل منها قبولها للآلام والذات والانسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام والذات وذلك لا يموت أى لا ينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له كما أن معنى الزمانه خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة فالموت زمانة مطلقا في الأعضاء كلها وحقيقة الانسان نفسه وروحه وهى باقية . نعم تغير حاله من جهتين : إحداهما أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه وسلب منه خيله ودوابه وغلدهانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الانسان وبين أن يسلب الانسان من هذه الأشياء فان التوالم هو الفراق والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبي الرجل عن الملك والمال والألم واحدا في الحالتين ، وإتمام معنى الموت سلب الانسان عن أمواله بازعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم فان كان له في الدنيا شئ يأنس به ويستريح إليه ويعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه في مفارقتة بل ياتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قيرص كان يلبسه مثلا ويفرح به وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادتة إذ دخل بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله ، فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة ، والثاني أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوقا له في الحياة كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوقا له في النوم والناس ينام فاذا ماتوا انتبهوا وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته وقد كان ذلك مسطورا في كتاب مطوى في سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا فاذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسرا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة وعند ذلك يقال له - كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً - وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن وتشتعل فيه نيران الفراق أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة فان من طلب الزاد للبلغة فاذا بلغ للتصديق فرح

يخرج إلى طريق القوم لله تعالى فإنه إن وصل إلى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل وإن أدركه الموت قبل الوصول إلى نهايات القوم فأجره على الله وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم . أخبرنا أبو زرعة بإجازة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن عن أبي العباس البغدادي عن جعفر الخدي قال سمعت الجيسد يقول أكثر العوائق والحوائل والموانع من فساد الابتداء فالمريد في أول مسلكه هذا الطريق يحتاج

بمفارقة بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لعينه وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعنى عنه ويكون حال التمتع بالدنيا المطمئن إليها كحال من تتمع عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحرمة اعتمادا على أن الملك يتساهل في أمره أو على أن الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبيح أهاله فأخذه الملك بفتة وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجنائياته ذرة ذرة وخطوة خطوة والملك قاهر مبتسط وغيور على حرمة ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه في العصاة عليه فانظر إلى هذا للأخذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والحجلة والحياء والتحسر والندم فهذا حال الميت الفاجر للتعتر بالدنيا المطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به بل عند موته نعوذ بالله منه فإن الحزى والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرها فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهداً أو لوال البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ومعركة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وإدراك ماهية ذاتها « ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها ولا أن يزيد على أن يقول الروح من أمر ربي (١) » فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه وإنما للأذن فيه ذكراً حال الروح بعد الموت ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة : أما الآيات فما ورد في الشهداء إذ قال تعالى - ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين - ولما قتل صناديق قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فليل يارسول الله أتناديهم وهم أموات فقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يفتقدون على الجواب (٢) » فهذا نص في بقاء روح الشق وبقاء إدراكها ومعرفة ما والآية نص في أرواح الشهداء ولا يغفل للميت عن سعادة أو شقاوة وقال صلى الله عليه وسلم « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (٣) » وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتمجّل عند الموت من غير تأخر وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله . وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذ مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية إن كان من أهل الجنة فمن الجنة وإن كان من أهل النار فمن النار ويقال لهذا مقعدك حتى تبتث إليه يوم القيامة وليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في الحال (٥) »

إلى إحكام النية وإحكام النية تنزيهاً من دواعي الهوى وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجل حتى يكون خروجه خالصاً لله تعالى . وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز اعلم يا عمر أن عون الله للعبد بقدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له ومن قصرت عنه نيته قصر عنه عون الله بقدر ذلك . وكتب بعض الصالحين إلى أخيه أخلص النية في أعمالك يكفك قليل من العمل ومن لم يهتد إلى النية بنفسه يصحب من يعلمه حسن النية . قال سهل بن عبد الله التستري أول ما يؤمر به

(١) حديث إنه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم في الروح . متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود له عن الروح ونزول قوله تعالى - ويسألونك عن الروح - وقد تقدم (٢) حديث نداءه من قتل من صناديق قريش يوم بدر يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً الحديث مسلم من حديث عمر بن الخطاب (٣) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة الترمذي من حديث أبي سعيد وتقدم في الرجاء والخوف (٤) حديث أنس الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته ابن أبي الدنيا في الموت باسناد ضعيف وقد تقدم (٥) حديث إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر .

وعن أبي قيس قال كنا مع عاتمة في جنازة فقال أما هذا فقد قامت قيامته . وقال طي كرم الله وجهه حرام طي نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات غريبا مات شهيدا ووقى فنانات القبر وغدى وريح عليه برزقه من الجنة (١) » وقال مسروق ما غبطت أحدا ما غبطت مؤمنا في اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى . وقال يعلى بن الوليد كنت أمشي يوما مع أبي الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب قال الموت قلت فان لم يمت قال يقل ماله وولده وإن أحب الموت لأنه لا يحبه إلا المؤمن والموت إطلاق المؤمن من السجن وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأمن بالدنيا والأمن من لا بد من فراقه غاية الشقاء فكل ماسوى الله وذكره والانس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة ولهذا قال عبد الله بن عمرو : إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفصح في الأرض ويتقلب فيها وهذا الذي ذكره حال من نجح عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوه ومقاساة الشهوات تؤذيه فكان في اللوت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراذه بمحبوبه الذي كان به أنسه من غير عائق ولا دافع وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم والذات وأكل الذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته فان نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعا وبالآخرة والبايع لا يلتفت قلبه إلى البيع وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوق إليها فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وأقل التفاتة إلى ما باعه إذا فارقته وتجرد القلب لحب الله تعالى قد ينشق في بعض الأحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتميز والقتال سبب للموت فكان سببا لإدراك اللوت طي مثل هذه الحالة فلهذا عظم النعيم إذ معنى النعيم أن ينال الانسان ما يريد قال الله تعالى - ولهم ما يشتهون - فكان هذا أجمع عبارة لمعانى لذات الجنة وأعظم العذاب أن يمنع الانسان عن مراده كما قال الله تعالى - وحيل بينهم وبين ما يشتهون - فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم وهذا النعيم يدركه الشهيد كما أنقطع نفسه من غير تأخير وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى فقد روى عن عائشة رضی الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر « ألا أبرك لجابر وكان قد استشهد أبوه يوم أحد فقال بلى ببرك الله بالجبر فقال إن الله عز وجل قد أحيا أباك وأقدمه بين يديه وقال تمن على عبدى ما شئت أعطيكه فقال يارب ما عبدتك حق عبادتك آتني عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له إنه قد سبق مني أنك إليها لترجع (٢) » وقال كعب يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له لم تبكي وأنت في الجنة قال أبكي لأني لم أقتل في الله إلا تلتقه واحدة فكنت أشتى أن أرد فأقتل فيه قتلات . واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سمعة جلال الله ما تكون الدنيا بالاضافة إليه كالسجن والضيق ويكون مثاله كالحبوس في بيت مظلم فتح له باب

الريد البتدى التبرى
من الحركات اللذمومة
ثم النقل إلى الحركات
المحمودة ثم التفرد
لأمر الله تعالى ثم
التوقف في الرشاد ثم
الثبات ثم البيان ثم
القرب ثم المناجاة ثم
الصاداة ثم الموالة
ويكون الرضا والتسليم
مراده والتفويض
والتوكل حاله ثم بمن
الله تعالى بعد هذه
بالمعرفة فيكون مقامه
عند الله مقام التبرين
من الحول والقوة
وهذا مقام حملة العرش
وليس بعده مقام
هذا من كلام سهل
جمع فيه ما في البداية
والنهاية ومتى تمسك
الريد بالصدق

(١) حديث أبي هريرة من مات غريبا مات شهيدا ووقى فنان القبر ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن أبي الدنيا فان (٢) حديث عائشة ألا أبرك لجابر الحديث وفيه إن الله أحيا أباك فأقدمه بين يديه الحديث ابن أبي الدنيا في الموت باسناد فيه ضعف وللمتدنى وحسنه وابن ماجه من حديث جابر ألا أبرك بما لقي الله به أباك قال بلى يا رسول الله الحديث وفيه فقال يا عبدى تمن على أعطك قال يارب تحببني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه إنه سبق مني أنهم لا يرجون .

إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والشمار والطور فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً فقال لرجل مات «أصبح هذا مرتحلاً عن الدنيا وتركها لأهلها فان كان قدرضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه^(١)» فرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كمنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم وقال صلى الله عليه وسلم «إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه^(٢)» وكذلك المؤمن يخرج من اللوت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فلانا قدمنا فقال مستريح أو مستراح منه^(٣)» وأشار بالمستريح إلى المؤمن والمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه وقال أبو عمر صاحب السقيا مرثدا ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فاذا جمجمة بادية فأمر رجلا فواراها ثم قال إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئا وإنما الأرواح التي تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة وعن عمرو بن دينار قال ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وإتهم ليسلونه ويكفونونه وإنه لينظر إليهم وقال مالك بن أنس بلغني أن أرواح المؤمنين مرسله تذهب حيث شاءت وقال النعمان بن بشير «سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل اللذباب يمور في جوفها فإله الله في إخوانكم من أهل القبور فإن أعمالكم تعرض عليهم^(٤)» وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور^(٥)» ولذلك قال أبو الدرداء اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً أخزى به عند عبد الله بن رواحة وكان قد مات وهو خاله وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي؟ قال في حواصل طير يبض في ظل العرش وأرواح الكافرين في الأرض السابعة. وقال أبو سعيد الخدري سمعت رسول الله

(١) حديث قال لرجل مات أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فان كان قدرضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلًا ورجاله ثقات (٢) حديث إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه ابن أبي الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن غانم السلفي عن سليم بن عامر الجنائزي مرسلًا هكذا (٣) حديث قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلانا قدمنا فقال مستريح أو مستراح منه متفق عليه من حديث أبي قتادة باللفظ مرّ عليه بجزالة فقال ذلك وهو عند ابن أبي الدنيا في اللوت باللفظ الذي أورده المصنف (٤) حديث النعمان بن بشير ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل اللذباب يمور في جوفها فإله الله في إخوانكم من أهل القبور فان أعمالكم تعرض عليهم ابن أبي الدنيا أبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدّى عن النعمان من قوله الله الله ورواه بكاه الأزدى في الضمفاء وقال لا يصح إسناده وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكاه في ترجمة أبي اسمعيل السكوني رواية عن مالك بن أدّى ونقل عن أبيه أن كلا منهما مجهول قال الأزدى لا يصح إسناده وذكر ابن حبان في الثقات مالك بن أدّى (٥) حديث أبي هريرة لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور ابن أبي الدنيا والحاملي باسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع إنسانا عن أنس أن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات الحديث.

والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ولا يحق صدقه وإخلاصه شيء مثل متابعة أمر التبرع وقطع النظر عن الخلق فكل الآفات التي دخلت على أهل البدايات لموضع نظرم إلى الخلق وبلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر ثم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر صاغرة» إشارة إلى قطع النظر عن الخلق والخروج منهم وترك التقبيل بعبادتهم. قال أحمد بن خضرويه: من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فيلزم

صلى الله عليه وسلم يقول «إن للبت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره»^(١). وقال صالح المري بلغنى أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم كيف كان مأواك وفي أي الجسدين كنت في طيب أو خبيث . وقال عبيد بن عمير أهل القبور يترقبون الأخبار فإذا أتاهم اللبت قالوا ما فعل فلان ؟ فيقول ألم يأتكم أو ما قدم عليكم فيقولون إن الله وإنا إليه راجعون سلك به غير سبيلنا . وعن جعفر بن سعيد قال إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل العائيب . وقال مجاهد: إن الرجل ليشر بصلاح ولده في قبره وروى أبو أيوب الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا يقولون أنظروا أخاكم حتى يستريح فإنه كان في كرب شديد فيسألونه ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة وهل تزوجت فلانة فإذا سألوهم عن رجل مات قبله وقال مات قبل قالوا إن الله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية»^(٢).

(بيان كلام القبر للبت)

وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال التي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم الأحياء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول القبر للبت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما عركني ألم تعلم أتى بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما عركني إذ كنت تمر بي فذاذا فان كان مصلحا أجاب عنه بحب القبر فيقول أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر إنى إذا تحول عليه خضرا ويعود جسده نورا وتصعد روحه إلى الله تعالى»^(٣) والفذاهو الذي يقدم رجلا ويؤخر أخرى هكذا فسرته الراوى . وقال عبيد بن عمير اللبتي ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها أنا بيت الظلمة والوحدة والافتراء فان كنت في حياتك لله مطيعا كنت عليك اليوم رحمة وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نعمة أنا الذي من دخلني مطيعا خرج مسرورا ومن دخلني عاصيا خرج مشورا . وقال محمد بن صبيح بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فغذب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من اللبتي أيها المتخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك فيما تعتبر أما كان لك في متقدمنا إياك فكرة أمارأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة فلا استدركت مافات إخوانك وتناديه بقاع الأرض أيها المقتر بظاهر الدنيا هلا عتبرت بمن غيب من أهللك في بطن الأرض بمن غرته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولا لها دام أحبته إلى المنزل الذي لا بد له منه . وقال يزيد الرقاشي بلغنى أن اللبت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله؟ فقالت أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا . وقال كعب: إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة قال فتجىء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال بي القيام لله

الصدق فان الله تعالى مع الصادقين وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصدق يهdy إلى البر» ولا بد للمريد من الخروج من المال والجاه والخروج عن الخلق بقطع النظر عنهم إلى أن يحكم أساسه فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس وأنفع شيء للمريد معرفة النفس ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له في الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات أو عليه من الهوى بقية . قال زيد بن أسلم: خصلتان هما كمال أمرك تصبح

(١) حديث أبي سعيد الخدرى إن اللبت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره ورواه أحمد من رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسيه عبد الملك بن حسن (٢) حديث أبي أيوب إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون أنظروا أخاكم حتى يستريح ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في مسند الشاميين بإسناد ضعيف ورواه ابن المبارك في الزهد موقوفا على أبي أيوب بإسناد جيد ورفع ابن صاعد في زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائي وابن حبان نحوه من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٣) حديث يقول القبر للبت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما عركني ألم تعلم أتى بيت الفتنة الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب القبور والطبراني في مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم في الكنى من حديث أبي الحجاج الثمالى بإسناد ضعيف.

عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لاسبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه قال فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه قال فيقال له هنيئا طبت حيا وطبت ميتا قال وتأتيه ملائكة الرحمة ففرض له فراش من الجنة ودثارا من الجنة ويضج له في قبره مد بصره ويؤتى بتعديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير في جنازة بلقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الميت يقعد وهو يسمع خطبوا مشيعيه فلا يكلمه شيء إلا قبره يقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرت ضيق وتنتي وهولي ودودي لماذا أعددت لي (١) » .

(بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير)

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثا ثم قال إن المؤمن إذا كان في قبره من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مد بصره فإذا خرجت روحه صلى الله عليه وسلم عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يجب أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه قيل أي رب عبدك فلان فيقول أرجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة فإني وعدته - منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية وإنه ليسمع خلق نعالمه إذا ولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبى محمد ﷺ قال فيتهراته انتهارا شديدا وهى آخر فتنة تعرض على الميت فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهى معنى قوله تعالى - ثبت الله الذين آمنوا بالتوراة بالثابت - الآية ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول أ بشر برحمة ربك وجنت فيها نعيم مقيم فيقول وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول أنا عمالك الصالح والله ما علمت إن كنت لسريما إلى طاعة الله بطيئا عن معصية الله فجزاك الله خيرا قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى . قال وأما الكافر فإنه إذا كان في قبره من الآخرة وانقطع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسراويل من قطران فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه عنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه نذ وقيل أي رب عبدك فلان لم تقبله سما ولا أرض فيقول الله عز وجل أرجعوه فأروه ما أعددت له من الشر إني وعدته - منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية وإنه ليسمع خلق نعالمه إذا ولوا مدبرين حتى يقال له يا هذا من ربك ومن نبيك وما دينك فيقول لا أدري فيقال لا دريت ثم يأتيه آت يبيح الوجه منتن الريح فيبيح الثياب فيقول أ بشر بسخط من الله وبسذاب أليم مقيم فيقول بشرك الله بشر من أنت فيقول أنا عمالك الحبيث والله إن كنت لسريما في معصية الله بطيئا عن طاعة الله فجزاك الله شرا

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير بلقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الميت يقعد وهو يسمع خطبوا مشيعيه فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم الحديث ابن أبي الدنيا في القبور هكذا مرسلًا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلقي ولم يرضه .

لا تهم لله بمصية وتومئ
ولا تهم لله بمصية فاذا
أحكمت الزهد والتقوى
انكشفت له النفس
وخرجت من حجبها
وعلم طريق حركتها
وخفى شهبواتها
ودسائسها وتلبساتها
ومن تمسك بالصدق
قد تمسك بالبروة
الوثقى . قال ذوالنون
الله تعالى في أرضه
سيف ما وضع على شيء
إلا قطع وهو الصدق
ونقل في معنى الصدق
أن عابدا من بني
إسرائيل راودته
ملكه عن نفسه ،
فقال اجملوا لى ما فى
الخلاء أتتظف به ثم
صعد على موضع فى
القصر فرمى بنفسه

فيقول وأنت جزاك الله شرًا ثم يقبض له أصم أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يملوها لم يستطيعوا لو ضرب بها جبل صار ترابًا فيضربه بها ضربة فيصير ترابًا ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين ليس الثقلين قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له لوحين من نار واقنعوا له بابًا إلى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار (١) وقال محمد بن طي مامن ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال فيشخص إلى حسناته وبطرق عن سيئاته . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن إذا احتضر أته لللائكة بحريرة فيها مسك وضائر الریحان فتسل روحه كاتسل الشعرة من العجين ويقال : أيتها النفس اللطيفة اخرجي راضية ومرضيا عنك إلى روح الله وكرامته فإذا أخرجت روحه وضمت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها إلى عليين وإن الكافر إذا احتضر أته لللائكة بمسح فيه حجرة قترع روحه انزاعا شديدا ويقال : أيتها النفس الحبيثة اخرجي ساخطة ومسغوطة عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا أخرجت روحه وضمت على تلك الحجرة وإن لها نشيئا ويطوى عليها السح ويذهب بها إلى سجين (٢) » وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى - حتى إذا جاء أحدم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فإني تركت - قال أي شيء تريد في أي شيء ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال وتعرض الفراس وتبني البنيان وتشقق الأنهار قال لا لعلى أعمل صالحا فإني تركت قال فيقول الجبار - كلا إنها كلمة هو قائلها - أي ليقولها عند الموت . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم « للؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا ورضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيماذا أنزلت - فان له معيشة ضنكا - قالوا الله ورسوله أعلم قال عذاب الكافر في قبره يسلم عليه تسعة وتسعون تينا هل تدرون ما التين ؟ تسعة وتسعون حبة لكل حبة سبعة رهوس يحدشونه ويلحمونه وينفخون في جسمه إلى يوم يعثون » ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص فان أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق الذمومة من الكبر والرياء والحسد والنيل والحقد وسائر الصفات فان لها أصولا معدودة ثم تنشعب منها فروع معدودة ثم تنقسم فروعها إلى أقسام وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات فالقوى منها يلدغ لدغ التين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤدي إيذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة (٣) فأشكال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم . فان قلت فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيئا من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة ؟ فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأشكال هذا [أحدها] وهو الأظهر والأصح

فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن الزم عبيدي قال فلزمه ووضع على الأرض وضعا رفيقا قبيل إبليس ألا أغويته فقال ليس لي سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى وينبغي للمريد أن تكون له في كل شيء نية لله تعالى حتى في أكله وشربه وملبوسه فلا يلبس إلا لله ولا يأكل إلا لله ولا يشرب إلا لله ولا ينام إلا لله لأن هذه كلها أرفاق أدخلها على النفس إذا كانت لله لاستصحي النفس وتجييب إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص وإذا

(١) حديث البراء خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكمسا رأسه ثم قال اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر الحديث بطوله أبو داود والحاكم بكأله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا (٢) حديث أبي هريرة إن المؤمن إذا حضر أته اللائكة بحريرة فيها مسك وضائر الریحان الحديث ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبراز بافظ المصنف (٣) حديث أبي هريرة المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا الحديث ورواه ابن حبان

والأسلم أن تصدق بأنها موجودة وهي تلدغ الميت ولسكنك لان شاهد ذلك فان هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور للكونية وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت أما ترى الصحابة رضی الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده فان كنت لا تؤمن بهذا فصحيح أصل الايمان بالملائكة والوحي أم عليك وإن كنت آمنت به وجوزت أن يشاهد النبي مالاتشاهده الأمة فكيف لا تجوز هذا في الميت وكما أن الملك لا يشبه الأدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى [للقمام الثاني] أن تذكر أمر النائم وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصبح في نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواله حية والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقه غير مشاهد وإذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تخيل أو تشاهد [للقمام الثالث] أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلفق منها وهو السم ثم السم ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفروا وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يقضى إليه في العادة فإنه لو خلق في الانسان لذة الوقوع مثلا من غير مباشرة صورة الوقوع لم يمكن تعريفها إلا بالاضافة إليه لتكون الاضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لانه هذه الصفات للمهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كالآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت العشوق فانه كان لذيذا فطرات حالة صار اللذيد بنفسه مؤلما حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يتخفى معه أن لم يكن قد تتم بالعشق والوصال بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فانه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله أليس يعظم شقاؤه ويشتد عذابه ويتخفى ويقول ليته لم يكن لي مال قط ولا جاه قط فكنت لا تأذى بفرقه فالموت عبارة عن مفارقة الهجوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة:

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

لما حال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ثم يضاف إلى هذا العذاب تحسره على ما فاتته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فان حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والنعم به فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرتة على ما فاتته من نعيم الآخرة أبدأ الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى وذلك هو العذاب الذي يمدب به إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى - كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم - وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقا إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيم أوقدم على محبوه وانقطعت عنه الموائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبدأ الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه فليستمد لهذه اللذات فان الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه ويأخذ منه جاهه وقبوله بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضائه ويأس من رجوع جميع ذلك إليه فاذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه

دخل في شيء من رفق
النفس لا لله بغير نية
صالحة صار ذلك وبال
عليه وقد ورد في الخبر
« من تطيب لله تعالى
جاء يوم القيامة ويرجعه
أطيب من السك الأذفر
ومن تطيب لغير الله
عز وجل جاء يوم
القيامة ويرجعه أثنى
من الحيفة . وقيل
كان أنس يقول طيبوا
كفى بمسك فان ثابتا
يصالحني ويقبل يدي
وقد كانوا يحسنون
اللباس للصلاة متقربين
بذلك إلى الله بنيتهم
فالمريد ينبغي أن يفقد
جميع أحواله وأعماله
وأمواله ولا يسمع
نفسه أن تتحرك
بحركة أو تكلم
بكلمة إلا لله تعالى

من العقارب والحيات وكما لو أخذ ذلك منه وهو حيّ فيعظم عقابه فكذلك إذا مات لأننا قدينا أن
 للحي الذي هو للدرك للألام واللذات لم يمّت بل عذابه بعد الموت أشد لأنه في الحياة يتسلى بأسباب
 يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود إليه ويتسلى برجاء العوض منه ولاسلوة
 بعد الموت إذ قد انسدّ عليه طرق التسلى وحصل اليأس ، فاذن كل قميص له ومنديل قد أحبه بحيث
 كان يشقّ عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفا عليه ومعذبا به فإن كان عضا في الدنيا سلم وهو للحيّ
 بقولهم نجا الخفون وإن كان مقلّا نظم عذابه وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من
 يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو للحيّ بقوله
 صلى الله عليه وسلم «صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين»^(١) ، وما من شيء من الدنيا
 يتخلف عنك عند اللوت إلا وهو حسرة عليك بعد اللوت فإن شئت فاستكر وإن شئت فاستقل
 فإن استكرت فلت استكر لإيمان الحسرة وإن استقلت فلت تخفف لإعزاز ظهرك وإيمانك
 الحيات والعقارب في قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها
 فهذه مقامات الإيمان في حيات القبر وعقابه وفي سائر أنواع عذابه . رأى أبو سعيد الخدرى
 ابنا له قد مات في المنام فقال له يابن عظمي قال لا تخالف الله تعالى فيما يريد قال يابن زدني قال يا أبت
 لا تطيق قال قل قال لا تجعل بينك وبين الله قيما فإليس قيما ثلاثين سنة . فإن قلت فما الصحيح
 من هذه المقامات الثلاث . فاعلم أن في الناس من لم يثبت إلا الأول وأنكر ما بعده ومنهم من أنكر
 الأول وأثبت الثاني ومنهم من لم يثبت إلا الثالث وإنما الخلق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار
 أن كل ذلك في حيز الامكان وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلة وجهه باتساع قدرته الله
 سبحانه ومحائب تديره فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور بل
 هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه
 الأنواع ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره ، هذا
 هو الحق فصدق به تقليدا فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيا والذي أوصيك به أن
 لا تنكر نظرك في تفصيل ذلك ولا تشتغل بعرفته بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان
 فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك كنت كمن أخذ سلطان وجبهه ليقطع يده
 ويجمع أنه فأخذ طول الليل يشكر في أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموسى وأهمل طريق
 الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل فقد علم على القطع أن الصمد لا يخلو بعد
 للوت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم فينبغي أن يكون الاستعداد له . فاما البحث عن تفصيل
 العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان .

(بيان سؤال منكر ونكير وصورتها وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر)

قال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال
 لأحدهما منكر وللآخر نكير فيقولان له ما كنت تقول في النبي فإن كان مؤمنا قال هو عبد الله
 ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم فسخ له
 في قبره سبعون ذراعا في سبعين ذراعا وينور له في قبره ثم يقال له نم فيقول دعوني أرجع إلى أهلي
 فأخبرهم فيقال له نم فينام كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه
 ذلك وإن كان مناقا قال لأدرى كنت أسمع الناس يقولون شيئا وكنت أقوله فيقولان إن كنا نعلم

(١) حديث . صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين لم أجده أصلا .

وقد رأينا من أصحاب
 شيخنا من كان ينوي
 عند كل لقمة ويقول
 بلسانه أيضا أكل
 هذه اللقمة لله تعالى
 ولا ينفع القول إذا لم
 تكن النية في القلب
 لأن النية عمل القلب
 وإنما اللسان ترجمان
 فما لم تشتمل عليها
 غزيرة القلب لله
 لا تكون نية . ونادى
 رجل امرأته وكان
 يسرح شعره فقال
 هات الدرري أراد
 الليل ليفرق شعره
 فقالت له امرأته أجيء
 بالمسدرى وللرأة
 فسكت ثم قال نعم
 فقال له من سمعه سكنت
 وتوقفت عن للرأة
 ثم قلت نعم فقال إنى

أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التثمي عليه فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذباً حتى ييمته الله من مضجعه ذلك (١) وعن عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه « يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك قفاً سواك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ثم رجعوا إليك ففسلوك وكفنوك وحنطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يهبلوا عليك التراب ويدفنونك فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وبصائرهما كالبرق الحاطف يجران أشعارهما ويحشان القبر بأنباهما فتلاك وترتاك كيف بك عند ذلك يا عمر ؟ فقال عمر ويكون معي مثل عقلى الآن ؟ قال نعم قال إذن أكيفيهما (٢) وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت وإنما يتغير البدن والأعضاء فيكون الميت عاقلاً مذكراً كالأبالي والآلام والذوات كما كان لا يتغير من عقله شيء وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذي لا يتقسم في نفسه هو المدرك للأشياء ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي لا يتجزأ ولا يتقسم لكان الإنسان العاقل بكامله قائماً باقياً وهو كذلك بعد الموت فان ذلك الجزء لا يحل الموت ولا يطرأ عليه العدم . وقال محمد بن النكدر بلغني أن الكافر يسلم عليه في قبره دابة عجماء صاهر في يدها سوط من حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة لاتراه فتتقيه ولا يسمع صوته فتحرقه . وقال أبو هريرة إذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته فان أتاه من قبل رأسه جاء قرأته القرآن وإن أتاه من قبل رجله جاء قيامه وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء لاسبيل لكم عليه وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إني لو رأيت خالاً لكنت أنا صاحبه . قال سفيان تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده ثم يقال له عند ذلك بارك الله لك في مضجعتك فعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أصحابك . وعن حذيفة قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال « بضغطة الموتى في هذا ضغطة ترد منه حمائله (٣) » وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للقبر ضغطة ولو سلم أو نجح منها أحد لنجا سعد بن معاذ (٤) » وعن أنس قال « توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة فبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءنا حاله ، فلما اتينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه فقلنا يا رسول الله رأينا منك شأناً لم ذلك ؟ قال ذكرت ضغطة ابنتي وشدة عذاب القبر ، فأنتيت فأخبرت أن الله

(١) حديث أبي هريرة إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير الحديث الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف (٢) حديث عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك قفاً سواك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ، الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا مرسل ورجاله ثقات قال البيهقي في الاعتقاد رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسل . قلت ووصله ابن بطة في الإبانة من حديث ابن عباس ورواه البيهقي في الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الإسناد خرد به مفضل . ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر فقال عمر أريد البئاع ولنا قال نعم كهيئتكم اليوم فقال عمر بن الخطاب (٣) حديث حذيفة كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ، الحديث رواه أحمد بسند ضعيف (٤) حديث عائشة إن للقبر ضغطة لو سلم أو نجح منها أحد لنجا سعد بن معاذ رواه أحمد بإسناد جيد .

قلت لها هات المدري
بنية فلما قالت والمرأة
لم يكن لي في المرأة نية
فتوقفت حتى هيا الله
تعالى لي نية فقلت
نعم وكل مبتدئ
لا يحكم أساس بدايته
بمهاجرة الألف
والأصدقاء والمعارف
ويتمسك بالوحدة
لا تستقر بدايته ، وقد
قيل من قلة الصدق
كثرة الخطاء وأقع
ماله لزوم الصمت وأن
لا يترك صممه كلام
الناس فإن باطنه يتغير
ويتأثر بالأقوال المختلفة
وكل من لا يسلم كمال
زهده في الدنيا وتمسكه
بمخافتة التقوى
لا يعرفه أبداً فان عدم

قد خفف عنها ولقد ضغطت ضغطة مع صوتها ما بين الحافقين (١) .

(الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام)

اعلم أن أنوار البصائر للاستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن مناهج الاعتبار تعرفنا أحوال الموتى على الجملة واتسامهم إلى سعادته وأشقياءه ولكن خالد زيد وعمرو وبينه فلا ينكشف أصلاً فإنا إن عولنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندري على ماذا مات وكيف ختم له وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى - إنما يتقبل الله من المتقين - فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه وإذامات قد تحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم النيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة وإنما يرى بيمين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل إنسان ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصرها ولا يتصور أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت ما لم تنفتح تلك الغشاوة عن عين قلبه، ولما كانت الغشاوة منقشة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظرنا إلى الملكوت وشاهدنا هجائبه والموتى في عالم الملكوت فشهدوا وأخبروا ، ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته (٢) وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقدمه بين يديه ليس بينهما ستر ، ومثل هذه الشهادة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجاتهم منهم وإنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضئيلة إلا أنها أيضاً مشاهدة نبوية وأعلى بها الشهادة في المنام وهي من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة تجزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (٣) » وهو أيضاً انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن أكثر كذبه لم تصدق رؤيته ومن أكثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهراً (٤) وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضاً فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التمسك والتكلمة لها ومهما صفا الباطن انكشف في حدة القلب ما سيكون في المستقبل كأنه انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم حتى نزل قوله تعالى - لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق - (٥) ولما غلغلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدوها صحيحة والرؤيا وصرفه النيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة آدمي وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت والحق غافلون عنه كفضلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره

(١) حديث أنس توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة الحديث وفيه لقد ضغطت ضغطة مع صوتها ما بين الحافقين ابن أبي الدنيا في الموت من رواة سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه .

(الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة)

(٢) حديث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك حال أبي جابر لما استشهد تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبله (٣) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة تقدم (٤) حديث أمره بالطهارة عند النوم متفق عليه من حديث البراء إذا أتيت مضجك فتوضأ وضوءك للصلاة الحديث (٥) حديث انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ابن أبي حاتم في تفسيره من رواية مجاهد مرسل .

معرفة لا يفتح عليه خيراً وبواطن أهل الابتداء كالشمع تقبل كل نقش وربما استضر المتبدى بمجرد النظر إلى الناس ويستضر بضول النظر أيضاً وضول المشى فيقف من الأشياء كلها على الضرورة فينظر ضرورة حتى لو مشى في بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذي يسلكه لا يلتفت بينه ويساره ثم يتقى موضع نظر الناس إليه وإحساسهم منه بالزعايق والاحتراز فإن علم الناس منه بذلك أضرم عليه من ضله ولا يستحق فضول

علاوة على علم العاملة ولكن القدر الذى يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود وهو أن تعلم أن القلب مثاله مثال امرأة تترامى فيها الصور وحقائق الأمور وأن كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت فى خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوحة وتارة بالكتاب البين وتارة بإمام مبين كما ورد فى القرآن لجميع ماجرى فى العالم وما سيجرى مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين ولا تظن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم وأن الكتاب من كاغذ أو ورق بل ينبغى أن تفهم قطعا أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم بل إن كنت تطلب له مثلا يقر به إلى فهمك فاعلم أن ثبوت القادير فى اللوح بظاهى ثبوت كلمات القرآن وحروفه فى دماغ حافظ القرآن وقلبه فانه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ولو فتشت دماغه جزءا جزءا لم تشاهد من ذلك الخط حرفا وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا النمط ينبغى أن تفهم كون اللوح منقوشا لجميع ما قدره الله تعالى وقضاء اللوح فى المثال كمرآة ظهر فيها الصور فلوضع فى مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تترامى فى هذه إلا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها واشتغال القلب بشهواته وقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذى هو من عالم الملكوت ، فان هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفعته تالوا فى مرآة القلب شئ من عالم الملكوت كالبرق الخاطف وقد ثبت ويدوم وقد لا يدوم وهو الغالب وما دام متيقظا فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة وهو حجاب عن عالم الملكوت ، ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا تورده على القلب فاذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيا فى جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ فوقع فى قلبه شئ مما فى اللوح كما تقع الصورة من مرآة فى مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه كما يقع فى القلب بينتدره الخيال فيحاكيه مثال يقاربه وتكون التخيلات أثبت فى الحفظ من غيرها فيبقى الخيال فى الحفظ فاذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال فيحتاج للبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أى معنى من المعانى فيرجع إلى المعانى بالناسبة التى بين التخيل والمعانى وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر فى علم التعبير وبكيفية مثال واحد وهو أن رجلا قال لابن سيرين رأيت كأن يدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح فى رمضان قال صدقت فانظر أن روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم وإيمانك كشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه وهو كونه مانعا للناس من الأكل والشرب ولكن الخيال ألب المنع عند الختم بالخاتم تمتلئه بالصورة الخيالية التى تتضمن روح المعنى ولا يبقى فى الحفظ إلا الصورة الخيالية ، فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذى لا تحصر مجابهة وكيف لا وهو أخو الموت وإنما الموت هو حجب من العجائب وهذا لأنه يشبهه من وجه ضعيف أثرى فى كشف الغطاء عن عالم الغيب حتى صار النائم يعرف ما سيكون فى المستقبل لماذا ترى فى الموت الذى يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكيفية حتى يرى الانسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنسكال والمجازى والفضائح نموذجاً من ذلك وإما مكتوفا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء - لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد - ويقال - أفسح هذا أم أتم لا تبصرون أصاوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون - وإليهم الإشارة بقوله تعالى - وبدلهم من الله ما لم يكونوا يحسبون -

المشى فان كل شئ من قول وفعل ونظر وسماع خرج عن حد الضرورة بحر إلى الفضول ثم يجر إلى تضييع الأصول. قال سفيان : إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول فكل من لا يتمسك بالضرورة فى القول والفعل لا يقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم ومضى نعدى الضرورة تداعت عزائم قلبه وأعلنت شيئا بعد شئ. قال سهل بن عبد الله من لم يصدقه اختيارا يبد الخلق اضطرابا ويفتح على العبد أبواب الرخص

فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة في خطر تلك الحال أن الحجاب عما ذابرتفع وما الذي ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة لكان ذلك كافيا في استغراق جميع العمر والعجب من غفلتنا وهذه العظام بين أيدينا وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذرياتنا بأعضائنا وسمنا وبصرنا مع أننا لم نعلم مفارقة جميع ذلك يقينا ولكن أين من ينث روح القدس في روعه فيقول ما قال لسيد النبيين «أحب من أحببت فانك مفارقة وعش ماشئت فانك سميت واعمل ماشئت فانك مجزي به (١)» فلا جرم لما كان ذلك مكشوفاً له بين اليقين كان في الدنيا كما برسيل لم يضع لينة على لينة ولا قصة على قصة (٢) ولم يخلف ديناراً ولا درهماً (٣) ولم يتخذ حبيباً ولا خليلاً نعم قال «لو كنت متخذاً نليلاً لا اتخذت أبابكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الرحمن (٤)» فيبين أن خلة الرحمن تخلت باطن قلبه وأن جبهه تمكن من جبهه قلبه فلم يترك فيه مقسماً لخليل ولا حبيب وقد قال لأمته - إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبسكم الله - فأتى أمته من أتبعه وما تبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة فانه مادما إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة بقدر ما عرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة قد سلكت سبيله الذي سلكه وبقدر ما سلكت سبيله قد اتبعته وبقدر ما اتبعته قد صرت من أمته وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابته والتفت بالدين قال الله تعالى فيهم - فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى - فلو خرجت من مكن التورور وأنصفت نفسك يارجل وكلنا ذلك الرجل لعلمت أنك من حين تصبغ إلى حين تسمى لانسى إلا في الحظوظ العاجلة ولا تتحرك ولا تسكن إلا لما جل الدنيا ثم تطمع أن تكون غدا من أمته وأتباعه ما أبدنك وما أبدطعك - أن جعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون - ولترجع إلى ما كنا فيه وبصده قد امتد عنان الكلام إلى غير مقصده ولنذكر الآن من اللامات الكاشفة لأحوال اللوتى ما يعظم الانتفاع به إنذهبت النبوة وبقيت البشرات وليس ذلك إلا للامات.

(بيان منامات تكشف عن أحوال اللوتى والأعمال النافعة في الآخرة)

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام «من رأى في المنام قدراً أتى حقا فان الشيطان لا يمثل بي (٥)» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فرأيت لا ينظر إلى قهات يار رسول الله ماشأني فالتفت إلى وقال ألسنت القبل وأنت صائم قال والذي نفسي بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبدا . وقال العباس رضي الله عنه كنت وداعا لعمر فاشتيت أن أرا منى المنام فما رأيت إلا عند رأس الحول فرأيت يمسح العرق عن جبينه وهو يقول هذا أوان فراغى إن كان عرشى ليهد لولا أنى لقيته رء وفا رحبا . وقال الحسن بن علي قال لي علي رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنع لي الليلة في منامى قتلت يار رسول الله ما قيت من أمتك قال ادع عليهم قتل اللهم أبدلني بهم من هو خير لي منهم وأبدلهم بي من هو شر لهم منى يفرج فصر به ابن ملجم وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل يار رسول الله استغفر لي فأعرض عني قتل يار رسول الله إن

والإسراع ويهلك مع
المالكين ولا ينبغي
لهبتدى أن يعرف
أحدا من أرباب
الدنيا فان معرفته لهم
سم قاتل . وقد ورد
والدنيا مبغوضة الله
فمن تمسك بحبل منها
قاده إلى النار وما
حبل من حبالها إلا
كأبناها والطالين
لها والمحبين فمن
عرفهم انجذب إليها
هاء أو أبى ويحترز
للتيدي عن مجالسة
الغفراء الذين لا يقولون
بقيام الليل وصيام
التهار فانه يدخل عليه
منهم أشر ما يدخل
عليه بمجالسة أبناء
الدنيا وربما يشيرون
إلى أن الأعمال شغل

- (١) حديث إن روح القدس نفث في روعى أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم .
- (٢) حديث لم يضع لينة على لينة ولا قصة على قصة تقدم أيضا (٣) حديث لم يخلف ديناراً ولا درهما تقدم أيضا (٤) حديث لو كنت متخذاً خليلاً لا اتخذت أبابكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن تقدم أيضا (٥) حديث من رأى في المنام قدراً أتى حقا فان الشيطان لا يتخيل بي متفق عليه من حديث أبي هريرة .

سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن النكدر عن جابر بن سبجد الله إنك لم تسأل شيئا قط قلت لا فأقبل طي قال غفر الله لك (١) وروى عن العباس بن عبد المطلب قال كنت مواخيا لأبي لهب مصاحبا له فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزفت عليه وأمهني أمره فسألت الله تعالى حولاً أن يريني إياه في المنام قال فرأيت يلقب ناراً فسألته عن حاله فقال صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروح إلا ليلة الاثنين في كل الأيام والليالي قلت وكيف ذلك قال ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة آمنة إياه ففرحت به وأعتقت وليدة لي فرحاً به فأناخني الله بذلك أن رضع عني العذاب في كل ليلة اثنين . وقال عبد الواحد بن زيد خرجت حاجاً فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبي ﷺ فسألته عن ذلك فقال أخبرك عن ذلك خرجت أول مرة إلى مكة ومعى أبي فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل فبينما أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه قال قممت مذعوراً فكشفت الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه فدخلت من ذلك رعب فبينما أنا في ذلك النعم إذ غلبتني عيني فتمت فاذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم تنحوا فسح وجهه يده ثم أتاني فقال قم فقد يرض الله وجهه أيك قلت له من أنت بآبي أنت وأمي فقال أنا محمد قال قممت فكشفت الثوب عن وجه أبي فإذا هو أبيض لما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن عمر بن عبد العزيز قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان عنده فجلست فبينما أنا جالس إذ أتى بعلبي ومعاوية فأدخلا بيتنا وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر لما كان بأسرع من أن أخرج على رضي الله عنه وهو يقول قضي لي وزب الكعبة وما كان بأسرع من أن أخرج معاوية على أثره وهو يقول غفر لي ورب الكعبة واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال قتل الحسين والله وكان ذلك قبل تله فأنكره أصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال ألا تعلم ما صنعت أمتي بعدى قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرزفنها إلى الله تعالى فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوماً بقتله في اليوم الذي رآه ورؤي الصديق رضي الله عنه فقيل له إنك كنت تقول أبداً في لسانك هذا أوردني الموائد فماذا فعل الله بك قال قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة .

(بيان منامات للشايج رحمة الله عليهم أجمعين)

قال بعض الشايج رأيت منما الدورقي في المنام فقلت يا سيدي ما فعل الله بك فقال ديرني في الجنان فقيل لي يا متعم هل استحسننت فيها شيئا قلت لا يا سيدي فقال لو استحسننت منها شيئاً لو كنتك إليه ولم أوصلك إلى ورؤي يوسف بن الحسين في المنام فقيل له ما فعل الله بك قال غفر لي قيل بماذا قال ما خلطت جداً جهول وعن منصور بن إسماعيل قال رأيت عبد الله البزار في النوم فقلت ما فعل الله بك قال أوقفت بين يديه فغفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنبا واحداً فأتى استحييت أن أقربه فأوقفتني في المرق حتى سقط لحم وجهي فقلت ما كان ذلك الذنب قال نظرت إلى غلام جميل فاستحسننته فاستحييت من الله أن أذكره وقال أبو جعفر الصيدلاني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وحوله جماعة من الفقراء فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما يده طشت ويده الآخر إبريق فوضع الطشت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسل يده ثم أمر حق غسلوا ثم وضع الطشت بين يدي

(١) حديث ابن عيينة عن محمد بن النكدر عن جابر ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا ، رواه مسلم وقد تقدم .

التصديق وأن أرباب
الأحوال ارتضوا عن
ذلك . وينبغي للفقير
أن يتصر على الفرائض
وصوم رمضان حسب
ولا ينبغي أن يدخل
هذا الكلام صممه رأساً
فانا اخترنا ومارسنا
الأموار كلها وجالسنا
الفقراء والصالحين
ورأينا أن الذين يقولون
هذا القول ويرون
الفرائض دون
الزيادات والنوافل
تحت القصور مع كونهم
أصحاب في أحوالهم على
العبد التمسك بكل
فريضة وفضيلة فبذلك
يثبت قدمه في بدايته
ويراعى يوم الجمعة
خاصة ويحمله لله تعالى
خالصاً لا يمزجه بشيء

فقال أحدهما للآخر لا تصب على يده فإنه ليس منهم فقلت يارسول الله أليس قد روى عنك أنك قلت «الراء مع من أحب» قال بلى قلت يارسول الله فاني أحبك وأحب هؤلاء الفقراء فقال صلى الله عليه وسلم صب على يده فإنه منهم وقال الجنيدي رأيت في المنام كأنى أتكم على الناس فوقف على ملك فقال أقرب ما تقرب به للتقربون إلى الله تعالى ماذا فعلت عمل خفي بجزان وفي فو لي للملك وهو يقول كلام موفق والله ورؤى مجمع في النوم قيل له كيف رأيت الأمر فقال رأيت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة . وقال رجل من أهل الشام لعلاء بن زياد رأيتك في النوم كأنك في الجنة فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال لعل الشيطان أراد أمراً فصمت منه فأشخص رجلاً يقتلني . وقال محمد بن واسع الرؤيا تسر المؤمن ولا تقره وقال صالح بن بشير رأيت عطاء السلمي في النوم فقلت له رحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا قال أما والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلاً وفرحاً دائماً فقلت في أي الدرجات أنت - فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين - الآية . وسئل زرار بن أبي أوفى في المنام أي الأعمال أفضل عندكم فقال الرضا وقصر الأمل وقال يزيد بن مذعور رأيت الأوزاعي في المنام فقلت يا أبا عمرو دلني على عمل أقرب به إلى الله تعالى قال ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المهزوبين قال وكان يزيد شيخاً كبيراً فلم يزل يبكي حتى أظلمت عيناه وقال ابن عيينة رأيت أخى في المنام فقلت يا أخى ما فعل الله بك فقال كل ذنب استغفرت منه غفر لي وما لم أستغفر منه لم يغفر لي وقال على الطلمي رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت من أنت فقالت حوراء فقلت زوجيني نفسك قالت اخطنبي إلى سيدي وأمهرني فقلت وما مهرك قالت حبسك عن آفاتنا وقال إبراهيم بن اسمعق الحربي رأيت زبيدة في المنام فقلت ما فعل الله بك قالت غفر لي فقلت لها بما أنفقت في طريق مكة قالت أما النفقات التي أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها وغفر لي بنيتي ولما مات سفيان الثوري رؤى في المنام فقيل له ما فعل الله بك قال وضعت أول قدمي على الصراط والثاني في الجنة وقال أحمد بن أبي الخواريزي رأيت فيما يرى النائم جارية ما رأيت أحسن منها وكان يتلأأ وجهها نوراً فقلت لها بماذا ضوه وجهك قالت تذكر تلك الليلة التي بكيت فيها قلت نعم قالت أخذت صمك فمسحت به وجهي فمن ثم ضوه وجهي كما ترى وقال السكتاني رأيت الجنيدي في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال طاحت تلك الاشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا طير ركتين كنا نصلهما في الليل ورؤيت زبيدة في المنام فقيل لها ما فعل الله بك قالت غفر لي بهذه الكلمات الأربع لا إله إلا الله أفنى بها عمري لا إله إلا الله أدخل بها قبري لا إله إلا الله أدخل بها وحدي لا إله إلا الله أتى بها ربي ورؤى بشر في المنام فقيل له ما فعل الله بك قال رحمني ربي عز وجل وقال يا بشر أما استحييت مني كنت تخافني كل ذلك الخوف ورؤى أبو سليمان في النوم فقيل له ما فعل الله بك قال رحمني وما كان شيء أضر على من إشارات القوم إلى وقال أبو بكر السكتاني رأيت في النوم شاباً بالمرأحس منه فقلت له من أنت قال التقي فقلت فأي ن تسكن قال كل قلب حزين ثم التفت فإذا امرأة سوداء فقلت من أنت قالت أنا السقم فقلت فأي ن تسكنين قالت كل قلب فرح مرح قال فالتفت وتماهدت أن لا أضحك إلا غلبت وقال أبو سعيد الخزاز رأيت في المنام كأن إبليس وثب على فأخذت العصا لأضربه فلم يفرغ منها فهتف بي هاتف إن هذا لا يخاف من هله وإنما يخاف من نور يكون في القلب وقال المسوحي رأيت إبليس في النوم يمشى عريانا فقلت ألا تستحي من الناس فقال بالله هؤلاء ناس لو كانوا من الناس ما كنت ألبس بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالسكره بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية وقال أبو سعيد الخزاز كنت في دمشق فرأيت في المنام كأن النبي

من أحوال نفسه وبآربها ويسكر إلى الجامع قبل طلوع الشمس بعد الغسل للجمعة وإن اغتسل قريبا من وقت الصلاة إذا أمكنه ذلك فحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا أبا هريرة اغتسل للجمعة ولو اشتريت الماء بشتائك وما من نبي إلا وقد أمره الله تعالى أن يتنقل للجمعة فان غسل الجمعة كفارة للذنوب ما بين الجمعتين» ويستنقل بالصلاة والتضرع والدعاء والتلاوة وأنواع الأذكار من غير شور لي أن يبلى الجمعة ويجلس متسكفا في

صلى الله عليه وسلم جاءني متكئا على أبي بكر وعمر رضى الله عنهما فاجاء فوقف على وأنا أقول شيئا من الأصوات وأدق في صدري فقال شر هذا أكثر من خيره. وعن ابن عيينة قال رأيت سفيان الثوري في النوم كأنه في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول لمثل هذا فإعمل العاملون فقلت له أوصى قال أقلل من معرفة الناس وروى أبو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة قال رأيت سفيان الثوري فقلت ما فعل الله بك فقال:

نظرت إلى ربي كفاحا فقال لي هنيئا رضائي عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قوآما إذا أظلم الهدى بصيرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أي قصر أردته وزرني فاني منك غير بعيد

وروى الشبلي بعد موته بثلاثة أيام قليل له ما فعل الله بك قال ناقضني حتى أيت فلما رأيت بأسى تمدني برحمته وروى مجنون بن عامر بعد موته في المنام قليل له ما فعل الله بك قال غفر لي وجعلني حجة على الهبين وروى الثوري في المنام قليل له ما فعل الله بك قال رحماني قليل له ما حال عبد الله بن المبارك فقال هو عن يلمح على ربه في كل يوم مرتين وروى بعضهم فسئل عن حاله فقال: حاسبو نافذ عقوباتهم نوا فأعتقوا وروى مالك بن أنس قليل له ما فعل الله بك قال غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنازة سبحان الحمى الذى لا يموت وذوى فى الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كان أبواب السماء مفتحة وكان ناديا ينادى ألإن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض وروى الجاحظ قليل له ما فعل الله بك فقال :

ولانك كتب محطك غير شئ* يسرك فى القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس فى المنام عريانا فقال ألا تستحي من الناس فقال وهؤلاء ناس الناس أقوام فى مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى وأحرقوا كبدى قال الجنيد فلما انتهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رؤوسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأوني قالوا لا يغرنك حديث الحديث وروى النصراباذى بمكة بعد وفاته فى النوم قليل له ما فعل الله بك قال عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أ بعد الاتصال انفصال فقلت لا يا ذا الجلال لما وضعت فى اللحد حتى لحقت برى ورأى عتبة الغلام حوراء فى المنام على صورة حسنة فقالت يا عتبة أ تلك عاشقة فانظر لا تعمل من الأعمال شيئا فيحال بينى وبينك فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لى عليها حتى ألقاك وقيل رأى أيوب السخيانى جنازة عاص فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها فرأى الميت بعضهم فى المنام قليل له ما فعل الله بك قال غفر لي وقال قل لأيوب - قل لو أنتم تملكون خزائن رحمته ربي إذ الأمسكم خشية الاتفاق - وقال بعضهم رأيت فى الليلة التى مات فيها داود الطائى نور او ملائكة تزولوا وملائكة صعدوا فقلت أى ليلة هذه فقالوا ليلة مات فيها داود الطائى وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه وقال أبو سعيد الشحام رأيت سهلا الصعلوكى فى المنام فقلت أيها الشيخ قال دع الشيخ قلت تلك الأحوال التى شاهدتها فقال لم تمنعنا فقلت ما فعل الله بك قال غفر لي بمسائل كان يسأل عنها الهجر وقال أبو بكر الرشيدى رأيت عمدا الطوسى المعلم فى النوم فقال لى قل لأبى سعيد الصفار المؤدب :

وكنا على أن لا نحول عن الهوى فقد وحيات الحب حلتم وما حلنا

قال فاتقبت فذكرت ذلك له فقال كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة وقال ابن راشد رأيت ابن المبارك فى النوم بعد موته فقلت أليس قد مات قال بلى فأتى فأتى الله بك قال غفر لي مغفرة فأحاطت بكل ذنب قلت سفيان الثوري قال يخرج ذلك - من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين - الآية وقال الربيع بن سليمان رأيت الشافعى رحمة الله عليه بعد وفاته فى المنام فقلت يا أبا عبد الله ما صنع الله بك

الجامع إلى أن يصلى
فرض العصر وبقية
النهار يشغله بالتسبيح
والاستغفار والصلاة
على النبي صلى الله عليه
وسلم فانه يرى بركة
ذلك فى جميع الأسبوع
حتى يرى ثمرة ذلك
يوم الجمعة وقد كان من
الصادقين من يضبط
أحواله وأقواله وأفعاله
جميع الأسبوع لأنه يوم
المزيد لكل صادق
ويكون ما يجده يوم
الجمعة معيارا يعتبر به
سائر الأسبوع الذى
مضى فانه إذا كان
الأسبوع سليما يكون
يوم الجمعة فيه مزيد
الأنوار والبركات وما يجد
فى يوم الجمعة من الظلمة
وسامة النفس وقلة

قال أجلس على كرسى من ذهب وشرطى الأؤلؤ الرطب ورأى رجلا من أصحاب الحسن البصرى ليلتمات الحسن كأن مناديا ينادى - إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين خواصطفى الحسن البصرى على أهل زمانه وقال أبو يعقوب القارى الدقيقى رأيت فى منامى رجلا آدم طوا الأوالناس يتيمونه فقلت من هذا قالوا أوبس القرنى فأثبته فقلت أوصنى رحمك الله فكلم فى وجهى فقلت مسترشدا فأرشدنى أرشدك الله فأقبل على وقال اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر قهقهة عند مصيئته ولا تقطع زجاءك منه فى خلال ذلك ثم ولى وتركنى وقال أبو بكر بن أبى مريم رأيت ورقاء بن بشر الحضرمى فقلت ما فعلت يا ورقاء قال نجوت بعد كل جهد قلت فأى الأعمال وجدتموها أفضل قال البكاء من خشية الله وقال يزيد بن نعمة هلكت جارية فى الطاعون الجارف فرأها أبوها فى المنام فقال لها يا بنية أخبرينى عن الآخرة قالت يا أبت قدما على أمر عظيم نعم ولا نعمل وتعلمون ولا تعلمون والله لتسيحبه أو تسيححن أو ركمة أو ركمتان فى فسحة عمل أحب إلى من الدنيا وما فيها وقال بعض أصحاب عتبة الغلام رأيت عتبة فى المنام فقلت ما صنع الله بك قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة فى بيتك قال فلما أصبحت جئت إلى بيتى فاذا خط عتبة الغلام فى حائط البيت يا هادى المضلين ويا راحم اللذنين ويا مقيل عثرات العائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين وقال موسى بن حماد رأيت سفيان الثورى فى الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت يا أبا عبد الله سمعت هذا فقال بالورع قلت فما قال على بن عاصم قال ذلك لا يكاد يرى إلا كإيرى السكوك ورأى رجلا من التابعين النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال يا رسول الله عظمى قال نعم من لم يتفقد القصاص فهو فى نقصان ومن كان فى نقصان فالموت خير له . وقال الشافعى رحمة الله عليه دهمى فى هذه الأيام أمر مضى وآلمنى ولم يطلع عليه غير الله عز وجل فما كان البارحة أتانى آت فى منامى فقال لى يا محمد بن إدريس قل اللهم إنى لأملك لنفسى نقما ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتنى ولا أتقى إلا ما وقفتى اللهم فوقى لما تحب وترضى من القول والعمل فى عافية فلما أصبحت أعدت ذلك فلما ترحل النهار أعطانى الله عز وجل طلبتى وسهل لى الخلاص مما كنت فيه فعليكم بهذه للدعوات لا تغفلوا عنها فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال اللوتى وعلى الأعمال القريبة إلى الله زلتى ، فلنذكر بعدها ما بين يدي الموتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما فى الجنة أوفى النار والحمد لله حمد الشاكرين .

[الشطر الثانى من كتاب ذكر الموت فى أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار فى الجنة أوفى النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار] أوفى به يان نفخة الصور وصفة أرض المحشر وأهله وصفة عرق أهل المحشر وصفة طول يوم القيامة وصفة يوم القيامة وودواهبها وأسماها وصفة المساءة عن الذنوب وصفة الميزان وصفة الحصاء ورد المظالم وصفة الصراط وصفة الشفاعة وصفة الحوض وصفة جهنم وأهوالها وأنكالتها وحياتها وعقاربها وصفة الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأثمارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وشررهم وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان وصفة النظر إلى وجه الله تعالى وباب فى سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى .

(صفة نفخة الصور)

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت فى سكرات الموت وخطره فى خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر

(الشطر الثانى من وقت نفخة الصور)

الانشراح فلما ضيع فى الأسبوع يعرف ذلك ويعتبره ويتقى جدا أن يلبس لناس اما للترفع من الثياب أو ثياب التشفين ليرى عين الزهد فى لبس للترفع للناس هو فى لبس الحسن رياء فلا يلبس إلا لله . بلغنا أن سفيان لم يلبس القميص مقلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس فهم أن يخلع ويغير ثم أمسك وقال لبسته بنية الله فلا أغیره فألبسه بنية للناس فليعلم العبد ذلك وليعتبره ولا يبدل لبته أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه فيحفظ

وديدانه ثم لشكر ونكير وسؤالهما ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مضوبا عليه وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من نفع الصور والبث يوم النشور والعرض على الجبار والتسؤل عن التليل والكثير ونصب لليزان لمعرفة القادير ثم جواز الصراط مع دفته وحدثه ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالاستعداد وإما بالاشقاء فهذه أحوال وأهوال لا بد لك من معرفتها الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر في ذلك لينبت من قلبك دواعي الاستعداد لها أو أكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سوياها أقتد بهم وبدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهرير هاجع ما تكتفنه من المصاعب والأهوال بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذي أخبره صدقت ثم مديده لتناوله كان مصداقاً لبسائه ومكذبا ببعده وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان وقد قال النبي ﷺ « قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني أما شتمه إياي فيقول إن لي ولدا وأما تكذبه فيقول له لن يبديني كابداني (١) » وإيمان تور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم الأمثال تلك الأمور ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له إن صانعا يصنع من النطفة القنطرة مثل هذا الآدمي الصور العاقل التكلم التصرف لا شدة نور باطنه عن التصديق به ولذلك قال الله تعالى - أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين - وقال تعالى أحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مئى بمعنى ثم كان علقة مخلق فسوى جعل منه الزوجين الذكر والأنثى - ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعجيب تزيد على الأعجيب بعته وإعادته في فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته فإن كان في إيمانك ضعف فقول الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإن الثانية مثلها وأسهل منها وإن كنت قوى الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكير والاعتبار لتسلب عن قلبك الراحة والقرار فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار وتضكر أو لا فيما يقرع صمم سكان القبور من شدة نفع الصور فإنها صيحة واحدة تنفجر بها القبور عن رءوس الموتى فيثورون دفعة واحدة فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرا وجهك مغبرا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتا من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم وقد أزهجهم الفزع والرعب مضافا إلى ما كان عندهم من المغموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال تعالى - ونفخ في الصور فصمق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون - وقال تعالى - فإذا قرع في الناقر فذلك يومئذ يوم عير على الكافرين غير يسير - وقال تعالى - ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا لصيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بشرنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون - فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جذبرا بأن يتقي فاتها نفخة وصيحة يصمق بها من في السموات والأرض يعني يموتون بها إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة

من القرآن من السبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر كيف أمكن ولا يصحى إلى قول من يقول ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن فانه يجد بتلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة جميع ما يمتنى بتوفيق الله تعالى وإنما اختار بعض الشايخ أن يديم الريد ذكر واحد ليجمع المهم فيه ومن لازم التلاوة في الخلوة وتمسك بالوحدة تفيد التلاوة والصلاة أو في ما يفيد الذكر الواحد فإذا سئم في بعض الأحيان يصانع النفس على الذكر تصانعة وينزل من التلاوة

(١) حديث قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني الحديث البخارى من حديث أبي هريرة .

وأصفي بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ (١) « قال مقاتل : الصور هو القرن وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة اليوق ودائرة رأس القرن كمرض السموات والأرض وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى فإذا نفخ صفق من في السموات والأرض أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ثم روح ميكائيل ثم روح إسرافيل ثم يأمر ملك الموت فيموت ثم يابث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة ثم يحيي الله إسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فنلك قوله تعالى - ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون - على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال صلى الله عليه وسلم « حين يبعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة (٢) » فتفكر في الخلائق وذلمهم وانكسارهم واستكاثرتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة وانتظارا لما يقضى عليهم من معادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم بل إن كنت في الدنيا من الترفهين والأغنياء التتممين ثلوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقهم يوطئون بالأقدام مثل الدر وعند ذلك تقبل الوحوش من البراري والجبال منكسة رهوسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنس بها ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى - وإذا الوحوش حشرت - ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمردها وعتوها. وأذعنت خاشعة من هبة العرش على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى - فو ربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا - فتفكر في حالك وحال قايلك هناك .

(صفة أرض المحشر وأهله)

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا إلى أرض المحشر أرض بيضاء قاع مصصف لا ترى فيها عوجا ولا أمنا ولا ترى عليها بؤة يخفى الإنسان ورامها ولا واهدة ينخفض عن العين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمرا فصبهان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة والراجفة هي النفخة الأولى والرادفة هي النفخة الثانية وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة وتلك الأبصار أن تكون خاشعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد (٣) »

(١) حديث كيف أنهم وصاحب الصور قد التقم القرن وحتى الجهة الحديث الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ إن صاحي القرن بأيديهما وفي أيديهما قرآن يلاحظان النظر متى يؤمران وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة مختلف فيه (٢) حديث حين يبعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى الحديث لم أجده هكذا بل قد ورد أن إسرافيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخاري في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاء إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر قال البخاري ولم يصح وفي رواية لأبي الشيخ ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينه كوكبان دريان وإسنادها جيد (٣) حديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد

إلى الله كره فانه أخف على النفس وينبني أن يعلم أن الاعتبار بالقلب فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يعتد به كل الاعتداد فانه عمل ناقص ولا يحقير الوساوس وحديث النفس فانه مضروداه عزال فيطالب نفسه أن تصبر في تلاوته معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه فكما أن التلاوة على اللسان هو مشتمل بها ولا يمزجها بكلام آخر هكذا يكون معنى القرآن في القلب لا يمزجه بحديث النفس وإن كان أعجميا لا يعلم

قال الراوى : والعفرة بياض ليس بالناصع والنقى هو النقى عن القشر والنخالة ومعلم أى لابناء يستر ولا تفتاوت برد البصر ، ولا تظن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لا تساويها إلا في الاسم قال تعالى - يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات - . قال ابن عباس : يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمد مد الأديم العكاظى أرض بياض مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة والسماوات تذهب شمسهما وقرها ونجومها فانظر يامسكين في هول ذلك اليوم وشدته فانه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر وأظلمت الأرض لمخود سراجها فينابم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤسهم وانسقت مع غلظها وشدتها خمائة عام والملائكة قيام على حافاتهما وأرجأنها فياهول صوت انشقاقها في صمك وباهية ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تحالطها صفرة فصارت وردة كالدهان وصارت السماء كالملل وصارت الجبال كالهمن واشتبك الناس كالفراس الميثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بيعت الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان . قالت سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث قلت يارسول الله واسوأناه ينظر بعضنا إلى بعض فقال شغل الناس عن ذلك بهم - لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه - (١) فأعظم يوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والاتفات كيف وبعضهم يشون على بطونهم وجوههم فلاقدرة لهم على الاتفات إلى غيرهم قال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركباناً ومشاة وعلى وجوههم فقال رجل يارسول الله وكيف يشون على وجوههم ؟ قال الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يشيمهم على وجوههم (٢)» في طبع الأدمى إنكار كل مالم يأنس به ولو لم يشاهد الانسان الحية وهى تمشى على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور الشئ على غير رجل والشئ بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا فانك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكاراً لها فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عارياً مكشوفاً ذليلاً مدحوراً متحيراً مبهوتاً منتظراً لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فانها عظيمة .

(صفة العرق)

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف أهل السماوات السبع والأرضين السبع من ملك وجن وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقواب قوسين فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ولم يمكن من الاستظلال به إلا القربون فمن بين مستظل بالعرش وبين مضج حر الشمس قد صهرته بحرها واشتد كربه وغمه من وهجها ثم تدافعت الخلائق ودفع

متفق عليه من حديث سهل بن سعد وفصل البخارى قوله ليس فيها معلم لأحد فجعلها من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه (١) حديث يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان قالت سودة راوية الحديث واسوأناه الحديث الثعلبي والبقوى وهو في الصحيحين من حديث عائشة وهى القائلة واسوأناه ورواه الطبرانى في الأوسط من حديث أم سلمة وهى القائلة واسوأناه (٢) حديث أبى هريرة يحشر الناس يوم القيامة ركباناً ومشاة على وجوههم الحديث رواه الترمذى وحسنه وفي الصحيحين من حديث أنس أن رجلاً قال يابى الله كيف يحشر الكافر على وجهه قال أليس الذى أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يشبهه على وجهه يوم القيامة .

معنى القرآن يكون لمراقبة حلية باطنه فيشغل باطنه بمطالعة نظر الله إليه مكان حديث النفس فان بالدوام على ذلك يصير من أرباب المشاهدة . قال مالك : قلوب الصديقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة فليتمسك المرید بهذه الأصول وليستعن . بدوام الافتقار إلى الله فبذلك ثبات قدمه . قال سهل : على قدر لزوم الالتجاء والافتقار إلى الله تعالى يعرف البلاء وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون افتقاره إلى الله فدوام الافتقار إلى الله أصل كل خير

بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الأقدام وانضاف إليهم شدة الحجلة والحياة من الاتضاح والاختراء عند العرض على جبار السماء فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياة والخوف ففاض العرق من أصل كل شجرة حتى سال على صعيد القيامة ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله فبعضهم بلغ العرق ركبته وبعضهم حقيقه وبعضهم إلى شحمة أذنيه وبعضهم كاد ينسب فيه . قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوم يقوم الناس لرب العالمين - حتى ينسب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه (١) » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعوا ويلجمهم ويبلغ آذانهم (٢) » كذا رواه البخاري وسلم في الصحيح وفي حديث آخر « قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب (٣) » وقال عقبه بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ غنذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه ، وأشار يده فألجها فاه ، ومنهم من يغطيه العرق ، وضرب يده على رأسه هكذا (٤) » فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر وشدة كربهم وفيهم من ينادى فيقول رب أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يأتوا بمد حسابا ولا عقابا فانك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق . واعلم أن كل عرق لم يخرج التبع في سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر معروف ونهى عن منكر فسيخرجه الحياة والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو لم يكن ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار في القيامة فإنه يوم عظيمة شدته طويلة مدته .

(صفة طول يوم القيامة)

يوم تنف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم من فطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم يقفون ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجردون في روح نسيم . قال كعب وقناة - يوم يقوم الناس لرب العالمين - قال يقومون مقدار ثلاثمائة عام بل قال عبدالله بن عمر وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال « كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم (٥) » وقال الحسن ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة

(١) حديث ابن عمر يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى ينسب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه متفق عليه (٢) حديث أبي هريرة يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا الحديث أخرجاه في الصحيحين كما ذكره المصنف (٣) حديث قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب ابن عدى من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى ابن سليمان الجرجاني ضعه ابن معين وقال ابن عدى لا أظن أنه كان يعتمد الكذب لكن له تشبه عليه (٤) حديث عقبه بن عامر تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه الحديث رواه أحمد وفيه ابن لهيعة (٥) حديث ابن عمرو تلا هذه الآية يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم قال كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم قلت إنما هو عبدالله بن عمرو رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راويا غير ابن وهب ولهم عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمي أربعة هذا أحدهم مصري والثلاثة الآخرون شاميون .

ومفتاح كل علم دقيق في طريق التسوم وهذا الافتقار مع كل الأتقاس لا ينشبت بحركة ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها وكل كلمة وحركة خلت عن مراجعة الله والافتقار فيها لاتعقب خيرا قطعا علنا ذلك وتحققناه . وقال سهل من اتقى من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله وأدى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيها لا يعنيه وتركه ما يعنيه . وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم لمن هذه القادير ثم رجع إلى

لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا واحترقت أجوافهم جوعا انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرها واشتد لقمها فلما بلغ المجهود منهم ما لاطاقة لهم به كلم بعضهم بعضا في طلب من يكرم على مولاه ليشفع في حتمهم فلم يتعلقوا بنبي إلا يدفعهم وقال دعوني نفسي نفسي شغلني أمرى عن أمر غيرى واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه - لا يمكن الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا - فتأمل في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصي في عمرك المختصر . واعلم أن من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا» (١) فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فإدام يتي لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد يدبك فاعمل في أيام قصار لأيام طوال تريح ربعا لا تنتهى لسروره واستحقق عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة فانك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان ربحك كثيرا وتعبك يسيرا .

(صفة يوم القيامة ودواهيته وأساميه)

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه المديد زمانه القاهر سلطانه القريب وأوانه ، يوم ترى السماء فيه قد انقطرت ، والكواكب من هولاء قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سحرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قد سمعت ، والجنة قد أزلقت ، والجبال قد نسفت ، والأرض قد مدت ، يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزلهما ، وأخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ، يوم تحمل الأرض الجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة وانثقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، ويحمل عرش بك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة ، يوم ترج الأرض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثا ، يوم يكون الناس كالفراسخ اللبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، يوم تنسف فيه الجبال نسفا فترك قاطا مفضفا لا ترى فيها عوجا ولا أماتا ، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ، يوم يمنع فيه المعاصي من الكلام ولا يسئل فيه عن الإجمام بل يؤخذ بالنواصي والأقدام ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ما قدمت وأخرت يوم تحرس فيه الألسن

(١) حديث سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا بويهى والبيهي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن طيبة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبي يعلى من حديث أبي هريرة بأسناد جيد يهون ذلك على المؤمن كتندي الشمس للغروب إلى أن تحرب ورواه البيهقي في الشعب إلى أن قال أظنه رفعه بافظ إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طول له كوقت صلاة مفروضة .

نفسه وقال فإلى وهذا السؤال وهل هذه إلا كلمة لاتصنفي وهل هذا إلا لاستيلاء نفسي وقلة أدها وآلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة فبالصدق نالوا ما نالوا وبقوة العزائم عزائم الرجال بلغوا ما بلغوا . أخسبرنا أبو زرعة إجازة قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول سمعت أبا عمرو الأعمشى يقول سمعت الجنيد يقول لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاتته من الله أكثر مما نال وهذه

وتتطرق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصديق رضی الله عنه : أراك قد شبت يا رسول الله قال «شيتني هود وأخواتها»^(١) وهي الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت؛ فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءة القرآن وتحررك به اللسان ولو كنت متفكرا فيما تقرأه لكنت جدرا بأن تنشق مرارتك عما شاب منه شعر سيد المرسلين وإذا كنت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن فالقيامة أحد ما ذكر فيه وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميتها لثقل بكثرة أساميتها على كثرة معانيها فليس المقصود بكثرة الأسماء تكرير الأسماء والألقاب بل الغرض تنبيه أولى الألباب فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر وفي كل نعمت من نعمتها معنى فاحرص على معرفة معانيها ونحن الآن نجمع لك أساميتها . وهي : يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم الحاسبة ويوم المسألة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المناقشة ويوم الزلزلة ويوم الهدمة ويوم الساعة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادقة ويوم العاشية ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم المساق ويوم القصاص ويوم التناد ويوم الحساب ويوم المكاب ويوم العذاب ويوم الفرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الحزى ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الرجة ويوم الزجرة ويوم السكرة ويوم القزع ويوم الجزع ويوم المنتهى ويوم التأوى ويوم الليقات ويوم اليعاد ويوم المرصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم الانتقار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم التفاني ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم موعود ويوم مشهود ويوم لا ريب فيه ويوم تبلى السرائر ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ويوم تشخص فيه الأبصار ويوم لا يفي مولى عن مولى شيئا ويوم لا تملك نفس لنفس شيئا ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا ويوم يسحبون في النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم في النار ويوم لا يجزى والد عن ولده ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيمتدرون يوم لا مرد له من الله يوم هم بارزون يوم هم على النار يفتنون يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا تنفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار يوم تردفهم العاذر وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار يوم تخشع فيه الأبصار وتسكن الأصوات ويقل فيه الالتفات وتبرز الحفيات وتظهر الحطيات يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد وبشيب الصغير ويسكر الكبير فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين وبرزت الجحيم وأغلى الجحيم وزفرت النار ويشس الكفار وسمرت النيران وتغيرت الألوان وخرس اللسان ونطقت جوارح الانسان فيا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم حيث أغلقت الأبواب وأرخت السور واستترت عن الخلائق عمارت الفجور فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك كل لويل كل لويل لنا معاشر الغافلين يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ثم يعرفنا غفلتنا ويقول - اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم - ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول اقربت الساعة

الجملة يحتاج للتدبر
أن يحكمها والنتهى
عالم بها عامل بمقائدها
فالمبتدىء صادق
والنتهى صديق قال
أبو سعيد القرشي
الصادق الذي ظاهره
مستقيم وباطنه يميل
أحيانا إلى حظ النفس
وعلامته أن يجد
الحلاوة في بعض
الطاعة ولا يجدها في
بعض وإذا اشتغل
بالذكر نور الروح
وإذا اشتغل بمحظوظ
النفس يهجم عن
الأذكار والصدى
الذى استقام ظاهره
وباطنه يبد الله تعالى
بتسليو الأحوال
لا يجيبه عن الله
وعن الأذكار أكل

(١) حديث شيتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .

وانشق القمر - إنهم يرونه بعيدا ويزاه قريبا - وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا - ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا تتدبر معانيه ولا تنظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأسمايه ولا نستعد للتخلص من دواهيه فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته.

(صفة المسالة)

ثم تفكر يامسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان فتسئل عن القليل والكثير والتغير والقطير فبينما أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عذابها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي الجرمين إلى موقف العرض على الجبار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن قعد عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة مائة عام (١) » لما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء للملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض وتراهم على عظم أشخاص منكرين لشدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لا يبقى نبى ولا صديق ولا صالح إلا يخرون لأذقانهم خوفا من أن يكونوا هم الأخوذون فهذا حال المقرين لما ظنك بالعصاة الجرمين وعند ذلك يدار أقوام من شدة الفرع فيقولون للملائكة أفبكم ربنا وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفرع الملائكة من سؤالهم إجلالا لخالقهم عن أن يكون فيهم فنادوا بأصواتهم منزهين لملكهم عما توهمه أهل الأرض وقالوا سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد وعند ذلك تقوم الملائكة صفا محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الدل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله - فلنساءن الذين أرسل إليهم ولنساءن المرسلين فلتقصدن عليهم بعلوما كنا غائبين - وقوله - فو ربك لنساءتهم أجمعين عما كانوا يعملون - فيبدأ سبحانه بالأنبياء - يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجيتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب - فيأشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتمحى علومهم من شدة الهيبة إذ يقال لهم ماذا أجيتم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا قدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون فيقولون من شدة الهيبة لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب وهم في ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقولهم الله تعالى فيدعى نوح عليه السلام فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته هل بلغكم فيقولون ما أتاانا من نذير ويؤتى يعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله فيبقى متشجطا تحت هيبة هذا السؤال سنين فيالعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل الملائكة فينادون واحدا واحدا يافلان بن فلانة هلم إلى موقف العرض وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على ملائ الخلائق وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش - وأشرفت الأرض بنور ربها - وأيقن قلب كل عبد باقبال الجبار لمسالة العباد وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه وأنه القصود بالأخذ والسؤال دون من عداه فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك يا جبريل اتنى بالنار فيجىء لها جبريل ويقول يا جهنم أجيبي خاتك وملكك فيصادفهما جبريل على غيظها وغضبها فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تفيظها وزفيرها واتهضت خزنتها متوبهة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره فأخطر بيالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فرقا ورعبا فساقتوا حيا على الركب

ولا نوم ولا شرب
ولا طعام والصديق
يريد نفسه لله وأقرب
الأحوال إلى النبوة
الصدقية . وقال
أبو يزيد : آخر
نهايات الصديقين أول
درجة الأنبياء . واعلم
أن أرباب النهايات
استقامت بواطنهم
وظواهرهم فقه
وأرواحهم خلصت
عن ظلمات النفوس
ووطئت بساط القرب
وتفوسهم متفاداة
مطواعة سالحة مع
القلوب محيية إلى كل
ما تجيب إليه القلوب
أرواحهم متلقة
بالمقام الأعلى انطفأت
فيهم نيران الهوى
وتخمر في بواطنهم

(١) حديث إن قعد عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة خمسمائة عام لم أره بهذا اللفظ .

ولوا مدبرين - يوم ترى كل أمة جاثية - وسقط بعضهم على الوجوه منسكين وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور وينادى الصديقون نفسى نفسى فبينما هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون ثم زفرت الثالثة فساقط الحلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفى خاشع وانهمضت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين وذهلت العقول من السمداء والأشقياء أجمعين وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجيتم فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء اشتد الفزع على العصاة ففر الوالد من ولده والآخر من أخيه والزوج من زوجته وبقي كل واحد منتظرا لأمره ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلايته وعن جميع جوارحه وأعضائه قال أبو هريرة « قالوا يا رسول الله هل ترى ربنا يوم القيامة فقال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب قالوا لا قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا قال فوالله نفسى بيده لا تضارون في رؤية ربكم فلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الحيل والابل وأذرك ترأس وتربع فيقول العبد بلى فيقول أظننت أنك ملاقي فيقول لا فيقول فأنا أنساك كما نسيتني (١) فتوهم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بضدك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاها فيقول لك ألم أنعم عليك بالشباب قضا ذأ ألبتة ألم أمهل لك في العمر قضا ذأ أفنيت ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفيما ذأ أفنقته ألم أكرمك بالمعم فماذا عملت فباعلت فكيف ترى حياتك وخجلك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك فان أنكرت شهدت عليك جوارحك . قال أنس رضى الله عنه « كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال أتدرون من أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فأنى لا أجزى على نفسى إلا شاهدا منى فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام السكاكين شهودا قال فيحتم على فيه ويقال لأركانه انطقى قال فتنتطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بمدا لكن وسحقا فضكن كنت أنا ضل (٢) فتعوز بالله من الاتضاح على ملاء الحاق بشهادة الأعضاء إلا أن الله تعالى وعد للؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره . سأل ابن عمر رجل فقال له كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى فقال قال رسول الله ﷺ « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول إنى سترتها عليك في الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم (٣) » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ستر على مؤمن عورته عتر الله عورته يوم القيامة (٤) » فهذا إغمايرجى لعبدمؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة وهب أنه قد ستره عن غيرك أليس قد فرغ سمعك النداء إلى اللعرض فيكفئك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك إذ يؤخذ بناصيتك فتقادو فؤادك مضطرب ولبك طائر وفرأصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والمالم عليك من عدة الهول مظلم تقدر

صريح العلم وانكشفت لهم الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق أبي بكر رضى الله عنه « من أراد أن ينظر إلى ميت يتنى على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر » إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى ما كوشف به من صريح العلم الذى لا يصل إليه عوام المؤمنين إلا بعد الموت حيث يقال - فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد - فأرباب النهايات ماتت أهولتهم وخلصت أرواحهم . قال يحيى بن معاذ وقد سئل عن وصف العارف فقال رجل

(١) حديث أبي هريرة هل ترى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب الحديث متفق عليه دون قوله فيلقى العبد الخ فانفرد بهامس (٢) حديث أنس أتدرون من أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه الحديث رواه مسلم (٣) حديث سأل ابن عمر رجل فقال كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى الحديث رواه مسلم (٤) حديث من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة تقدم .

نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم فتوم نفسك أنك في أيدي اللوكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه يا ابن آدم ادن مني فدوت به قلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فكم من فاحشة نسبتها فقد كرتها وكم من طاعة غفلت عن آفاتنا فكشف لك عن مساوئها فكم لك من خجل وجبن وكم لك من حصر وهجز فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه وبأي لسان تجيب وبأي قلب تعقل ماتقول ثم تفكر في عظم حياثك إذا ذكرك ذنوبك شفاها إذا يقول يا عبدي أما استحييت مني فبارزني بالقبيح واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجليل أ كنت أهون عليك من سائر عبادي استخفت بنظري إليك فلم تكترت واستعظمت نظر غيري ألم أنعم عليك فإذا غرك بي أظننت أني لا أراك وأنتك لا تلتاقان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مانسك من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان»^(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليقفن أحدكم بين يدي الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألم أنعم عليك ألم أوتك مالا فيقول بلى فيقول ألم أرسل إليك رسولا فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار فليقت أحدكم النار ولو بشرق تمره فان لم يجد فكملة طيبة»^(٢) وقال ابن مسعود مانسك من أحد إلا يسخطو الله عز وجل به كما يخلو أحدكم بالتمر ليلة البدر ثم يقول يا ابن آدم ما غرك بي يا ابن آدم ما عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين يا ابن آدم ألم أكن رقيقا على عينك وأنت تنظر بها إلى مالا يحل لك ألم أكن رقيقا على أذنك وهكذا حتى عد سائر أعضائه وقال مجاهد لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال عن عمره فيها أفتاه وعن علمه ما عمل فيه وعن جسده فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفماذا أنفقه فأعظم يأمنكين بحياتك عند ذلك ويخطر بك فانك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فصد ذلك بعظم سرورك وفرحك وبغضك الأولون والآخرون وإيمان أن يقال لله الأنتك خذوا هذا العبد السوء فقلوه ثم الجحيم صلوه وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله وعلى ما بئت آخرتك من دنيا دنيتك فبق معك.

(صفة اليزان)

ثم لا تفضل عن المنكر في اليزان وتطير الكتب إلى الأيمان والتمائل فان الناس بعد السؤال ثلاث فرق فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيقطعهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم في النار فتبتلهم النار وينادي عليهم شقاوة لا سمادة بعدها وقسم آخر لا سيئة لهم فينادى مناد ليتم الحمدون لله على كل حال فيقومون ويسرحون إلى الجنة ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ثم عن لم تشفله نجارة الدنيا ولا يعها عن ذكر الله تعالى وينادي عليهم سعادة لا شقاوة بعدها ويبنى قسم ثالث وهم الأكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسنتهم أو سيئاتهم ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليعين فضلهم عند العفو وعده عند العقاب فتطير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب اليزان وتخص الأبصار إلى الكتب أ تقع في اليمين أو في الشمال ثم إلى لسان اليزان أي ميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات

(١) حديث مانسك من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين الحديث متفق عليه من حديث ابن عدى عن أبي حاتم بلفظ إلا سيكلمه الحديث (٢) حديث ليقفن أحدكم بين يدي الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان الحديث البخاري من حديث عدى بن حاتم .

مهم بأن منهم وقال مرة عبد كان فان فأرباب النهايات هم عند الله بتحقيقهم معوقين توفيت الأجل جعلهم الله تعالى من جنوده في خلقه بهم يهدي وبهم يرشد وبهم يجذب أهل الإرادة كلامهم دواء وانظروا دواء ظاهرهم محفوظ بالحكم وباطنهم معمور بالمسلم قال ذو النون علامة العارف ثلاثة لا يطفى نور معرفته نور ورعه ولا يفتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم ولا يجعله كثرة نعم الله وكرامته على هتك أستاذ محارم الله فأرباب النهايات

وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق . وروى الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه في حجر عائشة رضى الله عنها فنفس فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتبه فقال ما يبكيك يا عائشة ؟ قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة قال والذي نفسى بيده في ثلاثة مواطن فان أحدا لا يذكر إلا نفسه : إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أينخف ميزانه أم يثقل ، وعند الصحف حتى ينظر أيمنه يأخذ كتابه أو شماله ، وعند الصراط (١) » . وعن أنس « يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك فان ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سمع فلان فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقى فلان فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة « إنه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابست النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فلما سمع الصحابة ذلك أبأسوا حتى ما أوضوا ابضا حكة فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند أصحابه قال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إن معكم لحليقتين ما كاتتا مع أحد قط إلا كثرة مع من هلك من بني آدم وبني إبليس قالوا وما هما يا رسول الله ؟ قال يأجوج ومأجوج قال فسرى عن التورم فقال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس يوم القيامة إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقعة في ذراع الدابة (٢) »

(صفة الحصاء ورد الظالم)

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن العين شاخصة إلى لسان الميزان - فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هي نار حامية - واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وإنما حاسبه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ويستدرك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى ويرد الظالم حبة بعد حبة ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وإن مات قبل رد الظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعاق بلبه هذا يقول ظلمتني وهذا يقول شتمتني وهذا يقول استهزأت بي وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوءني وهذا يقول جاورتني فأسأت جوارى وهذا يقول عاملتني ففشتني وهذا يقول آبعتني فعبتني وأخفيت عنى عيب سلعك وهذا يقول كذبت في سعر

(١) حديث الحسن أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت الحديث وفيه فقال ما يبكيك يا عائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة الحديث أبو داود من رواية الحسن أنها ذكرت النار فبكت فقال ما يبكيك دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم في حجرها وأنه نفس وإسناده جيد (٢) حديث يقول الله يا آدم قم فابست النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعون الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم .

كلما ازدادوا نعمة
ازدادوا عبودية وكلما
ازدادوا دنيا ازدادوا
قربا وكلما ازدادوا
جاهها ورفعة ازدادوا
تواضعا وذلة - أدلة على
المؤمنين أعزة على
الكافرين - وكلما تناولوا
شهوة من شهوات
النفوس استخرجت
منهم شكرا صافيا
يتناولون الشهوات تارة
رققا بالنفوس لأنها
معهم كالطفل الذي
يلطف بالكى ويهدى
له شيء لأنه مقهور
تحت السياسة مرحوم
ملطوف به وتارة
ينمون نفوسهم
للمشهوآت تأميا بالأنبياء
واختيارهم التقلل من
المشهوآت الدنيوية قال

متاعك وهذا يقول رأيتني محتاجا وكنت غنيا لما أطمعتني وهذا يقول وجدته مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عن فداهنت الظالم وما راعيتني ، فبينا أنت كذلك وقد أنشبت الحياء فيك محالهم وأحكوا في تلايبك أيديهم وأنت مبهوت متعير من كثرتهم حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلة بغيضة أو خيانة أو نظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخاضك من أيديهم إذ قرع صمك نداء الجبار جل جلاله - اليوم تجزي كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم - ضد ذلك ينخلع قلبك من الهية وتوقن نفسك بالبور وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال - ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخركم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين بمعنى رهوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس الآيات ما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوفت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقا أو تظهر عذرا ضد ذلك تؤخذ حسناتك التي تمعت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضا عن حقوقهم . قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون من المفلس قلنا المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع قال المفلس من أمق من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فئت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحته عليه ثم طرح في النار (١) » ، فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكاييد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طوية ابتدراها خصماؤك وأخذوها ، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلت أنه لا يقضى عنك يوم إلا ويجرى على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك فكيف يبقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات وكيف ترجو الخلاص من الظالم في يوم يقتص فيه للجماة من القرناء ، فقد روى أبو ذر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن الله يدري وسيقضى بينهما يوم القيامة (٢) » . وقال أبو هريرة في قوله عز وجل - وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم - إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطيور وكل شيء فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماة من القرناء ثم يقول كوني ترابا فذلك حين يقول الكافر يا ليتني كنت ترابا فكنت أنت يامسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول أين حسناتي فيقال نقلت إلى صحيفة خصمائك وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبت واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول يارب هذه سيئات ما قارفتها قط فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمهم في المباينة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة .

يحيى بن معاذ الدنيا
عروس تطلبها ماشطتها
والزاهد فيها يسخم
وجهها وينتف شعرها
ويحرق ثوبها والعارف
بالله مشغل بسيدته
ولا يلتفت إليها .
واعلم أن المنتهى مع
كمال حاله لا يستغنى أيضا
عن سياسة النفس
ومنعها الشهوات وأخذ
الحظ من زيادة الصيام
والقيام وأنواع البر
وقد غلط في هذا
خلق وظنوا أن المنتهى
استغنى عن الزيادات
والنوافل ولا على قلبه
من الاسترسال في
تأول اللذات والشهوات
وهذا خطأ لا من حيث
إنه يحجب العارف
عن معرفته ولكن

(١) حديث أبي هريرة : هل تدرون من المفلس ؟ قالوا المفلس يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع الحديث تقدم (٢) حديث : يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن الله يدري وسيقضى بينهما أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبي ذر .

قال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قد يش أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات فاتقوا الظلم ما استطعتم فان العبد ليحىء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهن سينجيه لها يزال عبد يحىء فيقول رب إن فلانا ظلمنى بمظلمة فيقول امح من حسناته لها يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شيء وان مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرق القوم فخطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وضعوا ما أرادوا (١) » وكذلك الذنوب « ولما نزل قوله تعالى - إنك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون - قال الزبير : يا رسول الله أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب قال : نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذى حق حقه (٢) » قال الزبير والله إن الأمر لشديد فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطفة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم قال أنس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله العباد عراة غير ابراهيم قال : قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الدين لا ينبنى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا لأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقصه منه ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولا لأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقصه منه حتى اللطفة قلنا وكيف وإنما نأى الله عز وجل عراة غير ابراهيم قال بالحسنات والسيئات (٣) » فاتقوا الله عباد الله وظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخاق في معاشرتهم فان ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب الظالم فيكثر من حسناته ليوم القصاص وليس ببعض الحسنات بينه وبين الله بكامل الاخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله فمساها بقربه ذلك إلى الله تعالى فيقال به لطفه الذى ادخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم كما روى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأينا ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما يضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى قال رجلان من أمى جثا بين يدي رب العزة فقال أحدهما يارب خذ لى مظلمتى من أخى فقال الله تعالى أعطأحأك مظلمته فقال يارب لم يبق من حسناتى شيء فقال الله تعالى للطالب كيف اصنع ولم يبق من حسناته شيء قال يارب يتحمل عنى من أوزارى قال وفاضت عيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال يارب أرى مدائن من فضة

(١) حديث ابن مسعود إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك المحقرات وهى الموبقات الحديث وفى آخره وان مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة الحديث رواه أحمد والبيهقى فى الشعب مقتصر على آخره إياكم ومحقرات الذنوب فانهم يجتمعن على الرجل حتى يهلكته وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلا الحديث وإسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر إن الشيطان قد أيس أن يعبد الصالون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم (٢) حديث لما نزل قوله تعالى - إنك ميت وانهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير يا رسول الله أكرر علينا ما كان بيننا الحديث أحمد واللفظ له والترمذى من حديث الزبير وقال حسن صحيح (٣) حديث أنس يحشر الله العباد عراة غير ابراهيم قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء الحديث ذات ليس من حديث أنس وإنما هو عبيد الله ابن أنس رواه أحمد بإسناد حسن وقال غرلا مكان غيرا .

يوقف عن مقام الزيد
وقوم لما رأوا أن هذه
الأشياء لا تؤثر فيهم
فسوة ولا نورهم حجة
ركنوا إليها واسترسلوا
فيها وقتعوا بأداء
القراض واتسعوا فى
لأكل والشرب وهذا
الانبساط منهم بقية
من سكر الأحوال
وتفقد بنور الحال
وعدم التخاص
بالكلية إلى نور الحق
ومن تخاص من نور

مرغمة وقصورا من ذهب مكللة بالؤلؤ لؤلؤى نبى هذا؟ ولأى صدق هذا ولأى شهيد هذا؟ قال لمن أعطاني الثمن قال يارب ومن يملك ثمنه قال أنت تملكه قال وما هو قال عفوك عن أخيك قال يارب إنى قد عفوت عنه قال الله تعالى خذ يد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين (١) وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالخلق بأخلاق الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق فتذكر الآن في نفسك إن خلت صهيبتك عن الظلم أو تلتطف لك حتى عفانك وأقمت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك في منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع عليك خلة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعم لا يدور بمحواشيه الفناء وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا وابتسامة وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر فتوهم بتخترك بين الخلائق رافعا رأسك خاليا عن الأوزار ظهرتك ونضرة نسيم الريح وبرد الرضا تلامنا من جبينك وخلق الأولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك وينبطونك في حسنك وجمالك والللائكة يحشون بين يديك ومن خائفك وينادون على رؤوس الأشهاد هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد بسعادة لا يشقى بعدها أبدا أقرى أن هذا للنسب ليس بأعظم من السكينة التي تنالها في قلوب الخلق في الدنيا بريائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لانسبة له إليه فتوصل إلى إدراك هذه الرتبة بالاخلاص الصافي والنية الصادقة في معاملتك مع الله فإن تدرك ذلك إلا به وإن تكن الأخرى والعياذ بالله بأن خرج من صهيبتك جريعة كنت تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة لثقتك لأجلها فقال عليك لعنى يا عبد السوء لا أتقبل منك عبادتك فلا تسمع هذا النداء إلا وبسود وجهك ثم تعضب لللائكة لغضب الله تعالى فيقولون عليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين وعند ذلك تنال إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملا الخلق وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزبك وأنت تنادى بالويل والثبور وهم يقولون لك لا تدع اليوم ثورا واحدا وادع ثورا كثيرا وتنادى لللائكة ويقولون هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه وعجزاته ولعنه قبايح مساويه فشقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عبادته أو طابا للمكانة في قلوبهم أو خوفامن الانتضاح عندهم لما أعظم جهلك إذ تخرز عن الانتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا المنفرضة ثم لا تخشى من الانتضاح العظيم في ذلك الملا العظيم مع المرض لسخط الله وعقابه الأليم والسباق بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط .

(صفة الصراط)

ثم تفكر بعد هذه الأهوال في قول الله تعالى - يوم نحشر النعمين إلى الرحمن وفدا ونسوق الجرمين إلى جهنم وردا - وفي قوله تعالى - فاهدوهم إلى صراط الجحيم - وقوهم إنهم مسئولون - قال ناس بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصراط وهو جسر محدود على متن النار أحد من السيف وأدق من الشعر فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تعثر في أول قدم من الصراط وتردى فتفكر الآن فيما عمل من التفرع بخوادك إذا رأيت الصراط ودقته ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحتها ثم قرع صمك شريق النار وتغيظها

(١) حديث أنس بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأينا ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما أضحكك يا رسول الله أبى وأمى قال رجلان من أمى جثيين بين يدي رب العالمين الحديث بطوله ابن أبى الدنيا في حسن الظن بالله والحاكم في الاستدراك وقد تقدم .

الحال إلى نور الحق
ينهب عنه بقايا
السكر ويوقف نفسه
مقام العبيد كأحد
عوام المؤمنين يتقرب
بالصلاة والصوم وأنواع
البر حتى يأمطة الأذى
عن الطريق ولا
يستكبر ولا يستكف
أن يسود في صور
عوام المؤمنين من
إظهار الإرادة بكل
بر وصلة في تناول
الشهوات وقتا رقنا

يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كقضاء الكواكب ومنهم من يمر كشدة الفرس ومنهم من يمر كشدة الرجل حتى يمر الذي أعطى نوره على إبهام قدمه محبوب على وجهه ويديه ورجليه تجر منه يد وتعلق أخرى وتعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه النار قال فلا يزال كذلك حتى يخلص فاذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطاني الله ما لم يعط أحدا إذ نجاني منها بعد إذ رأيتها فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيقتل (١) « وقال أنس بن مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة وإن الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وإن جبريل عليه السلام يأخذ بحجزتي وإنى لأقول يا رب سلم سلم فاللون والزلات يومئذ كثير (٢) » فهذه أهوال الصراط وعظائمها فطول فيه فكرك فان أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا فان الله لا يجمع بين خوفين على عبد فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة ولست أعنى بالخوف رقة كرقاة النساء تدمع عينك ويرق قلبك حال السباع ثم تنفاه على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك فماذا من الخوف في شيء بل من خاف شيئا هرب منه ومن رجا شيئا طلبه فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى وعينك على طاعته وأبمد من رقة النساء خوف الحق إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم فالشيطان يضحك من استعاذتهم كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه حصن فادارأي أنياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأنى ينفي عنه ذلك من السبع وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره ومن أخذ إلهه هو اه فهو بعيد من الصدق في توحيد وأمره محظر في نفسه فان محجزت عن ذلك كله فمكن بحال رسول لله صلى الله عليه وسلم حريصا على تعظيم سنته ومتشوقا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمتهم ومتركا بأدعيتهم فساك أن تبال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

(صفة الشفاعة)

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فان الله تعالى يفضلهم يقبل فيهم شفاععة الأنبياء والمصدقين بل شفاععة العلماء والصالحين وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فان له شفاععة في أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاععة وذلك بأن لا تعقر آدميا أصلا فان الله تعالى خبا ولايته في عباده فاعل الذي تزد به عينك هو ولي الله ولا تستصغر مصيبة أصلا فان الله تعالى خبا غضبه في معاصيه فلعل مقت الله قيه ولا تستحقر أصلا طاعة فان الله تعالى خبا رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه ولو الكلمة الطيبة أو اللقمة أو النية الحسنة أو ما يجري مجراه وشواهد الشفاععة في القرآن والأخبار كثيرة : قال الله تعالى - ولسوف يعطيك ربك فترضى -

(١) حديث ابن مسعود يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء قال وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين الحديث بطوله رواه ابن عدي والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا (٢) حديث أنس الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة الحديث البيهقي في الشعب وقال هذا إسناد ضعيف قال وروى عن زياد النميري عن أنس مرفوعا الصراط كحد الشعرة أو كحد السيف قال وهي رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة .

سياسة المسلم وهذا باب غامض دخل في النهايات على المنتهى من ذلك ودخل ووقع الركون وانسد به باب المزيد فالمنتهى ملك ناصية الاختيار في الأخذ والترك ولا بد له من أخذ وترك في الأعمال والحظوظ ففي الأعمال لا بد له من أخذ وترك فتارة يأتي بالأعمال كآحاد الصادقين وتارة يترك

روى عمرو بن العاص «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام - رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم - وقول عيسى عليه السلام - إن تعذبهم فإنهم عبادك - ثم رفع يديه وقال أمتي أمتي ثم بكى فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب إلى محمد تسلمه ما ييكفك فأناه جبريل فسأله فأخبره والله أعلم به فقال يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سرضيك ولا نسوءك (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لي القنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض مسجدا وترابها طهورا فأنا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأعطيته الشفاعة وكل نبي بعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير نذر » وقال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا نغر وأنا أول من تنشق الأرض عنه وأنا أول شافع وأول مشفع بيدي لواء الحمد تحت آدم فمن دونه (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة (٤) » وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ « ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويقي منبري لا أجلس عليه قائما بين يدي ربي منتصبا مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدي فأقول يارب أمتي فيقول الله عز وجل يا محمد وما تريد أن أصنع بأمتك فأقول يارب عجل حسابهم فما أزال أشفع حتى أعطى صكاكا رجال قد بعث بهم إلى النار وحتى إن مالكا خازن النار يقول يا محمد ما تركت النار لعضب ربك في أمتك من بقية (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما طي وجه الأرض من حجر ومدر (٦) » وقال أبو هريرة « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تصببه فقبض منها نهمشة ثم قال أنا سيد المرسلين يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعون الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من النعم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس

زيادة الأعمال رقعا بالنفس وتارة يأخذ الحظوظ والشهوات رقعا بالنفس وتارة يتركها اختفادا للنفس بحسن السياسة فيكون في ذلك كله مختارا فمن ساكن ترك الحظوظ بالكيفية فهو زاهد تارك بالكيفية ومن استرسل في أخذها فهو راغب بالكيفية والنهي شمل الطرفين فإنه طي غاية الاعتدال

(١) حديث عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم - رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم - وقول عيسى صلى الله عليه وسلم - إن تعذبهم فإنهم عبادك - ثم رفع يديه . ثم قال أمتي أمتي ثم بكى الحديث وفيه يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سرضيك ولا نسوءك في أمتك قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبد الله من بعض النسخ (٢) حديث أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي الحديث وفيه وأعطيته الشفاعة متفق عليه من حديث جابر إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير نذر الترمذي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذي حسن صحيح (٣) حديث أنا سيد ولد آدم ولا نغر الحديث الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري (٤) حديث لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث ابن عباس ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويقي منبري لا أجلس عليه قائما بين يدي ربي منتصبا الحديث الطبراني في الأوسط وفي إسناده محمد بن ثابت البناني ضعيف (٦) حديث إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما طي وجه الأرض من حجر ومدر أحمد والطبراني من حديث ريذة بسند حسن .

بعضهم لبعض ألا ترون ما قد بانكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول لهم آدم عليه السلام إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهاني عن الشجرة فصعبته نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد صمك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون أنت نبى الله وخليفه من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول لهم إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإني كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك برسائه وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله وإن يغضب بعده مثله وإني قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى عليه السلام فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلت الناس في المهدي اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول عيسى عليه السلام إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيأتون فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فأناطق فأتى تحت العرش فأقع ساجدا لربي ثم يفتح الله لي من عماده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتح على أحد قبلي ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول أمي أمي يا رب يقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال والذي نفسي بيده إن بين المصريين من مصارع الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة وبصرى (١) وفي حديث آخر هذا السياق بعينه مع ذكر خطاب إبراهيم وهو قوله في السكوا كب هذا ربي وقوله لأهلهم بل فضله كبير ثم هذا وقوله إني سقيم فهذه شفاعته رسول الله صلى الله عليه وسلم وآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعته أيضا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة بشفاعته رجل من أمي أكثر من ربيعة ومضر (٢) وقال صلى الله عليه وسلم يقال للرجل قم يا فلان فاشفع في قوم الرجل فيشفع للقبيلة

(١) حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بلحم فرفع إليه الذراع وكان يعجبه فنهش منها شهية ثم قال أنا سيد الناس الحديث بطوله في الشفاعة قال وفي حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطاب إبراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجها مسلم (٢) حديث يدخل الجنة بشفاعته رجل من أمي أكثر من ربيعة ومضر ورويناه في جزء أبي عمر بن الحاك من حديث أبي أمامة إلا أنه قال مثل أحد الحيين ربيعة ومضر وفيه فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان وإسناده حسن وللترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن أبي الجعداء يدخل الجنة بشفاعته الرجل من أمي أكثر من بني تميم قالوا سواك قال سواي قال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا .

واقف على الصراط
بين الافراط والتفريط
فمن ردت إليه
الأقسام في النهاية
فأخذها زاهدا في
الزهد فهو تحت قهر
الحال من ترك الاختيار
وتارك الاختيار الوافق
مع فعل الله تعالى مقيد
بالحال وكان أن الزاهد
مقيد بالترك تارك
الاختيار فكذلك
الزاهد في الزهد الآخذ
من الدنيا ما سبق إليه

ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله (١) « وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 « إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول
 يا فلان هل تعرفني ؟ فيقول لا والله ما أعرفك من أنت ، فيقول أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتني
 شربة ماء فسقيتك قال قد عرفت قال فاشفع لي بها عند ربك فيسأل الله تعالى ذكره ويقول إني
 أشرفت على أهل النار فناداني رجل من أهلها فقال هل تعرفني ؟ فقلت لا من أنت ؟ فقال أنا الذي
 استسقيتني في الدنيا فسقيتك فاشفع لي عند ربك فشعني فيه فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من
 النار (٢) « وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا
 وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا يتسوا لواء الحمد يومئذ يدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي
 ولا نخر (٣) « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني أقوم بين يدي ربي عز وجل فأكسى حلة
 من حلال الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري (٤) «
 وقال ابن عباس رضى الله عنهما « جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه
 يخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا إن الله عز وجل اتخذ من
 خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا ، وقال آخر ماذا بأعجب من كلام موسى كله تكليبا ، وقال آخر فعيسى
 كلمة الله وروحه ، وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال قد سمعت
 كلامكم وتعجبكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نجي الله وهو كذلك وعيسى روح الله
 وكلته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وأنا حبيب الله ولا نخر وأنا حامل لواء الحمد
 يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك حلق
 الجنة فيفتح الله لي فأدخلها ومعنى قفراء للمؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر (٥) «
 (صفة الحوض)

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الأخبار على وصفه
 ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه وفي الآخرة ذوقه فإن من صفاته أن من شرب منه
 لم يظم أبدا . قال أنس « أغنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقال والله
 يا رسول الله لم ضحكك ؟ فقال آية أنزات على آتفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك
 الكوثر - حتى ختمها ثم قال هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال إنه نهر وعديته

(١) حديث يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على
 قدر عمله الترمذي من حديث أبي سعيد إن من أمتي من يشفع للقبائل ومنهم من يشفع للقبيلة
 الحديث وقال حسن وللبرار من حديث أنس إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة (٢) حديث أنس
 إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول
 يا فلان هل تعرفني فيقول لا والله ما أعرفك من أنت فيقول أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتني
 شربة فسقيتك الحديث في شفاعته فيه وإخراجه من النار أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس
 بسند ضعيف (٣) حديث أنس أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا الحديث الترمذي وقال حسن غريب
 (٤) حديث فأكسى حلة من حلال الجنة ثم أقوم عن يمين العرش الحديث الترمذي من حديث
 أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح (٥) حديث ابن عباس جلس ناس من أصحاب رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم
 عجبا إن الله اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا الحديث رواه الترمذي وقال غريب .

لرؤيته فصل الله مقيدا
 بالأخذ وإذا استقرت
 النهاية لا يتقيد بالأخذ
 ولا بالترك بل يترك وقتا
 واختياره من اختيار الله
 ويأخذ وقتا واختياره
 من اختيار الله وهكذا
 صومه النافلة وصلاته
 النافلة يأتي بها وقتا
 ويسمح للنفس وقتا لأنه
 مختار صحيح في الاختيار
 في الحالين وهذا هو
 الصحيح ونهاية النهاية
 وكل حال يستقر

ربى عز وجل في الجنة عليه خير كثير عليه حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آيته عدد نجوم السماء (١) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بيننا أنا أسير في الجنة إذا نهر حافتاه قباب التؤلؤ المجووف قلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فضرب الملك يده فاذا طينه مسك أذفر (٢) وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ما بين لابتي حوضى مثل ما بين المدينة وصنعاء أو مثل ما بين المدينة وعمان (٣) وروى ابن عمر «أنه لما نزل قوله تعالى - إنا أعطيناك الكوثر - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب شرا به أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجرى على جنادل التؤلؤ والرجان (٤) وقال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن حوضى ما بين عدن إلى عمان اللقاء ماؤه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا أوكل الناس ورودا عليه قهراء المهاجرين قال عمر بن الخطاب ومن ثم يارسول الله قال ثم الشعث رهوسا الدنيس ثيابا القين لا ينكحون التنتعات ولا تفتح لهم أبواب السدد (٥) قال عمر بن عبد العزيز والله لقد نكحت التنتعات فاطمة بنت عبد الملك وتحت لى أبواب السدد إلا أن رحمني الله لاجرم لأدهن رأسى حتى يشعث ولا أغسل ثوبى الذى على جسدى حتى يتسخ وعن أبي ذر قال «قلت يارسول الله ما آتية الحوض؟ قال والذى نفس محمد بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء وأكوابها في الليلة المظلمة للضحية من شرب منه لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طول ما بين عمان وأيلة ماؤه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل (٦) وعن حمزة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لكل نبى حوضا وإنهم يتباهون بهم أكثر واردة وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم واردة (٧) فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين وليحذر أن يكون متعنيا ومفترا وهو يظن أنه راج فان الراجى للحصاد من بث البذر وتقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أو ان الحصاد فأما من ترك الحرثة أو الزراعة وتقى الأرض وسقىها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة

(١) حديث أنس أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يارسول الله لم ضحكت فقال آية نزلت على آتفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك الكوثر - رواه مسلم (٢) حديث أنس بينا أنا أسير في الجنة إذا نهر حافتاه قباب التؤلؤ المجووف الحديث الترمذى وقال حسن صحيح ورواه البخارى من قول أنس لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء الحديث وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) حديث أنس ما بين لابتي حوضى مثل ما بين المدينة وصنعاء أو مثل ما بين المدينة وعمان رواه مسلم (٤) حديث ابن عمر لما نزل قوله تعالى - إنا أعطيناك الكوثر - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب حافتاه من ذهب الحديث الترمذى مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمى في مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف (٥) حديث ثوبان إن حوضى ما بين عدن إلى عمان اللقاء الحديث الترمذى وقال غريب وابن ماجه (٦) حديث أبي ذر قلت يارسول الله ما آتية الحوض قال والذى نفسى بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء الحديث رواه مسلم (٧) حديث حمزة إن لكل نبى حوضا وإنهم يتباهون بهم أكثر واردة الحديث الترمذى وقال غريب قال وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ولم يذكر فيه عن حمزة وهو أصح

ويستقيم يشاكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غدير رمضان ويتناول الشبهوات ولما قال الرجل إننى عزمت أن لا أكل اللحم قال فإنى أكل اللحم وأجبه ولو سألت

جملة أحوالهم وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفسر أيضا في أودية جهنم وشبابها فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والنافق حتى يواقع ذلك كله^(١) » وقال طي كرم الله وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن قيل يا رسول الله وما وادي أوجب الحزن قال واد في جهنم تعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله تعالى للقراء الرايين^(٢) » فهذه سعة جهنم وانشعب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها وعدد أبوابها بمدد الأعضاء السبعة التي بها يصعب العبد بعضها فوق بعض الأعلى جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية ، فانظر الآن في عمق الهاوية فإنه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شهوات الدنيا فكما لا ينتهي أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها قال أبو هريرة « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا جبر أرسل في جهنم منذ سبعين عاما الآن انتهى إلى قعرها^(٣) » ثم انظر إلى تفاوت الدرجات فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكبر كالغريق فيها ومن خائف فيها إلى حد محدود فكذلك تناول النار لهم متفاوت فإن الله لا يظلم مثقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه إلا أن أقلمهم عذابا لوعرضت عليه الدنيا بخلافها لا تقدي بها من شدة ما هو فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنطين من نار يغل دماغه من حرارته نعليه^(٤) » فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر به من شدد عليه ومهما تشككت في شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقل ذلك به ثم اعلم أنك أخطأت في القياس فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ولكن لما كان أشد عذابا في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لحاضواها طائمين هرابمما هم فيه وعن هذا عبر في بعض الأخبار حيث قيل « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقتها أهل الدنيا^(٥) » بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال « أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة^(٦) » وقال ﷺ « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها فسبغ في سبعين

(١) حديث إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والنافق حتى يواقع ذلك كله لم أجده هكذا بحملته وسيأتي بعده ما ورد في ذكر الحيات والعقارب (٢) حديث طي تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن الحديث رواه ابن عدى بلفظ وادي الحزن وقال باطل وأبو نعيم والأصبهاني بسند ضعيف ورواه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ جب الحزن وضعفه ابن عدى وتقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث أبي هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة الحديث وفيه هذا حجر أرسل في جهنم الحديث رواه مسلم (٤) حديث إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنطين من نار الحديث متفق عليه من حديث النعمان بن بشير (٥) حديث إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقتها أهل الدنيا ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولو لذلك ما انتفع بها أحد وللبراز من حديث أنس وهو ضعيف وما وصلت إليك حتى أحسبه قال نضعت بالماء فتمنى عليك (٦) حديث أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت الحديث تقدم

قالوه على معنى أنه لا يلزمهم التأسي به جهل محض فان الرخصة الوقوف على حد قوله والعزيمة التأسي بفعله وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأرباب الرخصه وفضله لأرباب العزائم ثم إن المنتهى يحاكي حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه الصلاة والسلام في دعاء الخلق إلى الحق فكل

نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما تجذونه في الصيف من حرها وأشد ما تجذونه في الشتاء من زمهريرها (١) وقال أنس بن مالك يؤتى بأشم الناس في الدنيا من الكفار يقال اغمسوه في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت نعبا قط فيقول لا ويؤتى بأشد الناس حرًا في الدنيا يقال اغمسوه في الجنة غمسة ثم يقال له هل رأيت ضرا قط فيقول لا . وقال أبو هريرة لو كان في للسجد مائة ألف أوزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا وقد قال بعض العلماء في قوله - تلغح وجوههم النار - إنها لغتهم لحة واحدة فما أبت لحا على عظم إلا ألقته عند أعقابهم ثم انظر بعد هذا في نتن الصيد الذي يسيل من أبدانهم حتى يعرفون فيه وهو السناق ، قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله ﷺ «لو أن دلوًا من غساق جهنم ألقى في الدنيا لأنن أهل الأرض (٢) » فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه وبأبيه الموت من كل مكان وما هو بيت وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا . ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى - ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لا تكونون من شجر من زقوم فمالتون منها البطون فشاربون عليه من الخميم فشاربون شرب الخميم - وقال تعالى - إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين فانهم لا تكون منها فمالتون منها البطون ثم إن لهم عليها الشوبان من حميم ثم إن مرجعهم إلى الجحيم - وقال تعالى - تصلى نارًا حامية تستقي من عين آنية - وقال تعالى - إن لدنيا أنكالا وجعيا وطعاما ذا غصا وعذابا أليما - وقال ابن عباس قال رسول الله ﷺ «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحر الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معاشهم فكيف من يكون طعامه ذلك (٣) » وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ارغبوا فيما رغبتكم الله واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به ، من عذابه وعقابه ومن جهنم فانه لو كانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها طيبتها لكم ولو كانت قطرة من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبيتها عليكم (٤) » وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل مام فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كما كانوا يجيزون القصص في الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الخميم بكلايب الحديد فاذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فاذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم قال فيدعون خزنة جهنم أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا موادع الكافرين إلا في ضلال قال فيقولون ادعوا ما لك فيدعون فيقولون يا مالك ليقض علينا ربك قال فيجيبهم إنكم ما تكونون (٥) » قال الأعمش أن

ما كان يعتمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يعتمد فكان قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيامه الزائد لا يغلو إما أنه كان يقتدى به وإما أنه كان لمزيد كان يحده بذلك فان كان يقتدى به فالنتهى أيضا مقتدى به ينبغي أن يأى بعث ذلك والصحيح الحق أن رسول الله صلى الله

(١) حديث اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضى بعضا فأذن لها بنفسين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أبي سعيد الخدرى لو أن دلوًا من غساق ألقى في الدنيا لأنن أهل الأرض الترمذى وقال إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف (٣) حديث ابن عباس لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معاشهم الحديث الترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه (٤) حديث أنس ارغبوا فيما رغبتكم الله واحذروا وخافوا مما خوفكم الله وعقابه من عذاب الله وعقابه من جهنم الحديث لم أجده إلا إسنادا (٥) حديث أبي الدرداء يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل مام فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام الحديث الترمذى من رواية عمرة ابن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال الدارمى والناس لا يعرفون هذا الحديث وإنما روى عن الأعمش عن عمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله .

بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال فيجيبهم اخشوا فيها ولا تسكلمون قال فعند ذلك يشعرون من كل خير وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل قال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه - قال « يقرب إليه فيسكره فإذا أدنى منه شوى وجهه فوقت فروة رأسه فاذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله تعالى - وسقوا ماء حيا فقطع أمعاءهم - وقال تعالى - وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه - فهذا طعامهم وشراهم عند جوعهم وعطشهم ^(١) » فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفضاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغرقت بهم فهي لا تفر عن النেশ واللدغ ساعة واحدة قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزيمه يعني أشداه فيقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله تعالى - ولا يعصين الذين يخولون بما آتاهم الله من فضله الآية - ^(٢) » وقال الرسول صلى الله عليه وسلم « إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسمة فيجد سموتها أربعين خريفا وإن فيها لعقارب كالبعال الموكفة يلسعن اللسمة فيجد سموتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من تسلط عليه في الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن رقى ذلك رقى هذه الحيات فلم تمتل له ^(٣) » ثم تفكر بهذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فان الله تعالى يزيد في أجسامهم طولا وعرضا حتى يترابذ عذابهم بسببه فيحسون بفتح النار وبلغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث ^(٤) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قاصة قد غطت وجهه ^(٥) » وقال عليه السلام « إن الكافر ليجر لسانه في سبعين يوم القيامة يتواطؤه الناس ^(٦) » ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار حرات فتجدد جلودهم ولحومهم قال الحسن في قوله تعالى - كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها - قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا - ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشربهم ودعائهم بالويل والثبور فان ذلك يسلط عليهم في أول إلقامهم في النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بهم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك ^(٧) » وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تنقطع الدموع ثم يكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت ومادام يؤذن لهم في البكاء

- (١) حديث أبي أمامة في قوله تعالى - ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه - قال يقرب إليه الحديث الترمذي وقال غريب (٢) حديث أبي هريرة من حديث أبي هريرة روى من حديث جابر نحوه يوم القيامة شجاعا أقرع الحديث البخاري من حديث أبي هريرة روى من حديث جابر نحوه
- (٣) حديث إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسمة الحديث أحمد من رواية ابن لهيعة عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء (٤) حديث أبي هريرة ضرس الكافر في النار مثل أحد للحديث رواه مسلم (٥) حديث شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قاصة قد غطت وجهه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن صحيح غريب (٦) حديث إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس الترمذي من رواية أبي الخارق عن ابن عمر وقال غريب وأبو الخارق لا يعرف (٧) حديث يؤتى بهم يومئذ لها سبعون ألف زمام الحديث مسلم من حديث عبد الله بن مسعود.

عليه وسلم لم يضل ذلك لجرد الاقتداء بل كان يجد بذلك زيادة وهو ما ذكرناه من تهذيب الحيلة . قال الله تعالى خطابا له - واعبد ربك حتى يأتيك اليقين - لأنه بذلك ازداد استمدادا من الحضرة الإلهية وقرع باب السكر والني عليه الصلاة والسلام مفتقر إلى الزيادة من الله تعالى غير مستغن

والشهيق والزفير والدعوة بالويل والشبور فلهم فيه مستروح ولكنهم ينعون أيضا من ذلك (١) قال محمد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون - ربنا أمتنا اثنتان وأحبيتنا اثنتان فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل - فيقول الله تعالى مجيبا لهم - ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرِك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير - ثم يقولون - ربنا أبصرنا وصحنا فأمرنا بعمل صالحا - فيجيبهم الله تعالى - أولم تكونوا أقمتم من قبل ما لكم من زوال - فيقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل - فيجيبهم الله تعالى - أولم نمركم ما يتذكر فيه من تذكروا وجاءكم النذير فذوقوا لها للظالمين من نصير - ثم يقولون - ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما صالحين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون - فيجيبهم الله تعالى - أخشوا فيها ولا تتكلمون - فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك قاية شدة العذاب . قال مالك بن أنس الله رضى عنه : قال زيد بن أسلم في قوله تعالى - سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص - قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا - سواء علينا أجزعنا أم صبرنا - وقال صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال بأهل الجنة خلود بلا موت وبأهل النار خلود بلاموت (٢) » وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتى كنت ذلك الرجل ورؤى الحسن رضى الله عنه جالسا في زاوية وهو يبكي فقيل له لم تبكي؟ قال أخشى أن يطرحنى في النار ولا يبالي فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل غمومها وأحزانها ومجنها وحسرتها لانهاية له فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بشئ من درهم معدودة إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أيا ما قصيرة وكانت غير صافية بل كانت مكدرة منخضة فيقولون في أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بصيان ربنا وكيف لم نكف أنفسنا الصبرا ياما قلائد ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين متمتعين بالرضا والرضوان في الحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شئ من نعيم الدنيا ولذاتها ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم فقد قال رسول الله ﷺ « يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلمها فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن نرى ما أرى نرى من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا فيقول الله تعالى ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتهم بارزتموني بالعظام وإذا لقيتم الناس لقيتموهم محبتين تراءون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابوني وأجلتكم الناس ولم تجلوني وتركتكم للناس ولم تتركوا إلى اليوم أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثواب القيم (٣) » قال أحمد بن حنبل إن أحدا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار . وقال عيسى عليه السلام كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح . وقال داود إلهي لا صبر لي على حر شمسك - كيف صبرى

عن ذلك ثم في ذلك سر غريب وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلق إلى الحق ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا إليه ولا انضموا به وبين نفسه الطاهرة ونفوس الأتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف ورباطة النفوس

(١) حديث أنس يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تنقطع الدموع الحديث ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس والرقاشي ضعيف (٢) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح البخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٣) حديث يؤم يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها الحديث رويناه في الأربعين لأبي هدية عن أنس وأبو هدية إبراهيم بن هدية هالك .

على حر نارك ولا صبر لي على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك فانظر يا مسكين في هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلا لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى - وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون - ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة بل في أزل الأزول ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء فالمعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في ححك ؟ فان قلت فليت شعري ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجى وما الذى سبق به القضاء في حقى فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك فان كلا ميسر لما خلق له فان كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فانك مبعث عن النار وإن كنت لا تقصد خيرا إلا وتخطبك الموائق فتدفعه ولا تقصد شرا إلا فيتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضى عليك فان دلالة هذا على العاقبة كدلالة الطر على النبات ودلالة الدخان على النار فقد قال الله تعالى - إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم - فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستتر من الفارين والله أعلم .

(القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها)

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همها وغموها تقابلها دار أخرى تأمل نعيمها وسرورها فان من بعد من أحدها استقر لاحماله في الأخرى فاسترأخوف من قلبك بطول الفكر في أهواله الجحيم واسترأجره بطول الفكر في النعيم اللقيم الوعود لأهل الجنان وسقى نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم يسفون من رحيق محتوم جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من البقرى الأخضر متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالجر والعلل محفوفة باللعنان والولدان مزينة بالجور العين من الحفريات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان يعيش في درجات الجنان إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطاها سبعون ألفا من الولدان عليها من طرائف الحرير الأبيض ماتتجر فيه الأبصار مكملات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان شكلات غنجات عطرآت آمنت من الهرم والبؤس مقصورات في الخيام في تصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين ثم يطاف عليهم وعلين بأكواب وأباريق وكأس من معين يضاء لذة للشاربين ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ السكون جزاء بما كانوا يعملون في مقام أمين في جنات وعيون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرفت في وجوههم نضرة النعيم لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربههم يتعاهدون فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها ولا يحزنون وهم من رب اللنون آمنون فهم فيها يتمتعون وبأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا في أنهار أراضها من فضة وحبابها مرجان وطى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران ويمطرون من سحب فيها من ماء النسرين على كسبان الكافور ويؤتون بأكواب وأى أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كواب فيه من الرحيق المحتوم ممزوج به السليل العذب كواب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقة وحرته لم يصنعه آدمى فيصير في نسوية صنعته وتحسين صناعته في كف خادم يحكى ضياء وجهه الشمس في إشراقها ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه

(القول في صفة الجنة)

ألفت آخا كما أن
الأرواح ألفت أولا
ولكل روح مع
نفسه تأليف خاص
والسكون والتأليف
والامتزاج واقع بين
الأرواح والنفوس
وكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يديم
العمل لتصفية نفسه
ونفوس الأتباع لها
احتاج إليه نفسه من
ذلك ناله وما فضل من
ذلك وصل إلى نفوس

وملاحة أحداقه في أعجاب لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا أهل القبائح عن نزل بنائها ولا تنظر الأحداث بين التفسير إلى أهلها كيف يأمن بدار قد أذن الله في خرابها وبينها بهيش دونها والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من اللوث والجوع والبطش وسائر أصناف الحدثنان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتخص من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرور ممتون لهم فيها كل ما يشتهون وهم في كل يوم بثناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم بتردد دون وهم من زوالها آمنون قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينادي مناد بأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تستموا أبدا وإن لكم أن تمحوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تشبوا أبدا وإن لكم أن تصحوا فلا تصحوا أبدا»^(١) وبمهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان وأقرأ من قوله تعالى «ولمن خاف مقام ربه جنتان - إلى آخر سورة الرحمن وأقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فأقبل الآن تفصيلها بعد أن اطلمت على جملتها وتأمل أو لا تعد الجنان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - «ولمن خاف مقام ربه جنتان» قال «جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^(٢) ثم انظر إلى أبواب الجنة فاتها كثيرة بحسب أصول الطاعات كآل أبواب النار بحسب أصول العاصي قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أتق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها وللجنة ثمانية أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد قال أبو بكر رضي الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعى فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال نعم وأرجو أن تكون منهم»^(٣) وعن طاهر بن ضمرة عن علي بن كرم الله وجهه أنه ذكر النار فظلم أمرها ذكر الأخطى ثم قال - وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا - حتى إذا اتقوا إلى باب من أبوابها وجدوا عند مشجرة يخرج من تحتها عيران فحربان فمعدوا إلى إحداها كما أمروا به فحربوا منها فأذبت ماني بطونهم من أذي أو بأس ثم عمدوا إلى الأخرى فقطروا منها فحرت عليهم فضرة النعم فلم تغير أشجارهم بعدها أبدا ولا تشمت رؤسهم كأنما دهنوا بالدهان ثم اتقوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها سلام عليكم طيمم فادخلوها خالد بن ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة يقولون له أجزر أعداء الله لك من الكرامة كذا قال فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول قد جاء فلان بأهله القبي كان يدعى به في الدنيا فتقول أنت رأيت فيقول أنا رأيت وهو بأثرى فيستخفي الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها فإذا اتى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جنبد اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا

الأمة وهكذا انتهى مع الأصحاب والأتباع على هذا المعنى فلا يتخلف عن الزيادة والنوافل ولا يسترسل في الشهوات والذوات إلا بدلالة تخص النفس ولا يعطى الاعتدال حتى من ذلك إلا بتأييد الله تعالى ونور الحكمة وكل من يحتاج إلى صحة الجلوقة للتصير لا بد له من خلوته صحيحة بالحق حتى تكون

(١) حديث أبي هريرة ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تستموا أبدا الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد (٢) حديث جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما الحديث متفق عليه من حديث أبي موسى (٣) حديث أبي هريرة من أتق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة الحديث متفق عليه .

مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدره لألم أن يذهب بصره ثم يطأطأ رأسه فاذا أزواجه وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مشوطة - ثم اتكأ فقال - الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله - ثم ينادى مناد تحيون فلا تموتون أبدا وتحيون فلا تنظنون أبدا وتصحون فلا تمرضون أبدا» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتى يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الحازن من أنت فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك (١)» ثم تأمل الآن فى غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وكما أن بين الناس فى الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتوا ظاهرا فكذلك فيما يحازون به تفاوتوا ظاهرا فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمر الله بالمسابقة والمنافسة فيها قال تعالى - سابقوا إلى مغفرة من ربكم - وقال تعالى - وفى ذلك فليتنافس المتنافسون - والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو غيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء تهل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنص بمبب الحسد عيشك وأحسن أحوالك أن تستقر فى الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بخذا فيها قد قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أهل الجنة ليرتادون أهل الغرف فوقهم كما يرتادون الكوكب الفائر فى الأفق من الشرق إلى الغرب لفاضل ما بينهم قالوا يارسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين (٢)» وقال أيضا «إن أهل الدرجات العلى ليرام من تحتهم كاترون النجم الطالع فى أفق من آفاق السماء وإن أبابكر وعمر منهم وأنما (٣)» وقال جابر قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم «الآن أحدثكم برف الجنة قال قلت بلى يارسول الله صلى الله عليك بأبينا أنت وأمتنا قال إن فى الجنة غرفا من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال قلت يارسول الله لمن هذه الغرف قال لمن أفضى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام قال قلنا يارسول الله ومن يطبق ذلك قال أمقى تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك من لقي أخاه فسلم عليه أو رد عليه فقد أفضى السلام ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الفداة فى جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام (٤)» يعنى اليهود والنصارى والمجوس . «ومثل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله - ومساكن طيبة فى جنات عدن - قال : قصور من لؤلؤ فى كل قصر سبعون دارا من ياقوت أحمر فى كل دار سبعون بيتا من زهره أخضر فى كل بيت سرير طي كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين فى كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون بيتا من الطعام فى كل بيت سبعون وصيفة ويمطى للؤمن فى كل غداة يعنى من القوة ما يأتى على ذلك أجمع (٥)».

(١) حديث أتى يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الحازن من أنت فأقول محمد الحديث مسلم من حديث أنس (٢) حديث أبو سعيد إن أهل الجنة ليرتادون أهل الغرف فوقهم كما يرتادون الكوكب الحديث متفق عليه وقد تقدم (٣) حديث إن أهل الدرجات العلى ليرام من تحتهم كما يرون النجم الطالع رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبو سعيد (٤) حديث جابر الآن أحدثكم برف الجنة قلت يارسول الله بأبينا أنت وأمتنا قال إن فى الجنة غرفا من أصناف الجوهر الحديث أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر (٥) حديث مثل عن قوله تعالى - ومساكن طيبة فى جنات عدن - قال قصور من لؤلؤ الحديث أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة والأجرى فى كتاب النصيحة

جلوته فى حماية خلوته
ومن يترامى له أن
أوقاته كلها خلوة وأنه
لا يحجبه شيء وأن
أوفاته بالله والله ولا يرى
تصاننا لأن الله ما فطنه
لحقيقة المزيد فهو
صحيح فى حاله غير أنه
تحت قصور لأنه ما به
لسياسة الجيلة وما عرف
سر تملك الاختيار
وما وقف من البيان
على البيضاء النقية وقد
نقلت عن الشايع كلمات

(صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها)

تأمل في صورة الجنة وتفكر في غبطة سكانها وفي حسرة من حرمها لقناعتها بالدنيا عوضاً عنها قد قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب تراها زعفران وطينها مسك ^(١) » . « وسئل صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة فقال درمكة يضاء مسك خالص ^(٢) » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سره أن يسقيه الله عز وجل الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا ^(٣) » « أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال للمسك ^(٤) » « ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحلبها الله عز وجل به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها ^(٥) » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها قرءوا وإن شقتم - وظل محدود - ^(٦) » وقال أبو أمامة : « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون إن الله عز وجل ينفضنا بالأعراب ومسايلهم أقبل أعرابي فقال يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أدري أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هي قال السدر فإن لها شوكة فقال قد قال الله تعالى - في سدر غضود - يخضد الله شوكة فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ثم تتفتح الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر ^(٧) » وقال جرير بن عبد الله : نزلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تلبسه فقلت للفلان انطلق بهذا النطح فأظله فانطلق فأظله فما استيقظ فإذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال يا جرير تواضع لله فان من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدري ما الظلمات يوم القيامة قلت لأدري قال ظلم الناس بعضهم بعضاً ثم أخذ عويداً لا أكاد أراه من

فيها موضع اشتباه قد يسمعا الانسان ويبني عليها والأولى أن ينتقل إلى الله تعالى في أي كلمة يسمعا حتى يسمعا الله من ذلك الصواب . نقل عن بعضهم أنه سئل عن كمال المعرفة فقال : إذا اجتمعت التفرقات واستوت الأحوال والأماكن وسقطت رؤية التمييز ومثل هذا القول يوم أن

من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يصح والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة على قول الجمهور (١) حديث أبي هريرة : إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب تراها زعفران وطينها مسك الترمذي بلفظ وبلاطها المسك وقال ليس إسناده بذلك القوى وليس عندي بمتصل ورواه البزار من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفاً عليه بإسناد صحيح (٢) حديث : سئل عن تربة الجنة فقال درمكة يضاء مسك خالص مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن صياد سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فذكره (٣) حديث أبي هريرة : من سره أن يسقيه الله الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير فليتركه في الدنيا الطبراني في الأوسط بإسناد حسن وللنسائي بإسناد صحيح : من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة (٤) حديث : أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال للمسك العقيلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة (٥) حديث : لو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحلبها الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن (٦) حديث : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث أبي أمامة أقبل أعرابي قال يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية قال ما هي قال السدر الحديث ابن المبارك في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسل من غير ذكر لأبي أمامة .

صفه فقال يا جرير لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده قلت يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر قال أصولها التوت والذهب وأعلىها التمر .

(صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم)

قال الله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير - والآيات في ذلك كثيرة وإنما تفصيله في الأخبار فقد روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من يدخل الجنة يتم لا يأس لا تبلى ثيابه ولا يفتى شبابه في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ^(١) » . وقال رجل يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم نسج تنسج فسكت رسول الله ﷺ وضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم م تضحكون من جاهل سألت عالما ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ينشق عنها ثمر الجنة صرتين ^(٢) » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتخطون آنتهم وأشاطهم من الذهب والفضة ورسحهم المسك لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية (وفي رواية) على كل زوجة سبعون حلة ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب - قال « إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين الشرق والغرب ^(٤) » وقال ﷺ « الحيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للؤمن أهل لإبراهيم الآخرون ^(٥) » ورواه البخاري في الصحيح قال ابن عباس الحيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب وقال أبو سعيد الخدري « قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : وفرش مرفوعة قال ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض ^(٦) »

(صفة طعام أهل الجنة)

بيان طعام أهل الجنة المذكور في القرآن من الثواكه والطيور والسمان واللبن والسلاوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى قال الله تعالى - كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأناباه متشابها - ، وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة ،

(١) حديث أبي هريرة : من يدخل الجنة يتم ولا يأس لا تبلى ثيابه الحديث رواه مسلم دون قوله : في الجنة ما لا عين رأت الخ فانفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبي هريرة : قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت الحديث (٢) حديث : قال رجل يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة آخلق تخلق أم تنسج نسج الحديث النسائي من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث أبي هريرة : أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر الحديث متفق عليه (٤) حديث : في قوله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب - قال إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين الشرق والغرب الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لانعرفه إلا من حديث رشد بن سعد (٥) حديث : الحيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا الحديث عزاه المصنف للبخاري وهو متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري (٦) حديث أبي سعيد في قوله تعالى - وفرش مرفوعة - قال ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض الترمذي بلفظ : ارتفاعها لسما بين السماء والأرض خمائة سنة وقال غريب لانعرفه إلا من حديث رشد بن سعد .

لا يبقى تمييز بين الحلوة والجلوة وبين القيام بصور الأعمال وبين تركها ولم يفهم منه أن القائل أراد بذلك معنى خاصا يبنى أن حظ المعرفة لا يتغير بحال من الأحوال وهذا صحيح لأن حظ المعرفة لا يتغير ولا يقتصر إلى التمييز وتستوى الأحوال فيه ولكن حظ المراد يتغير ويحتاج إلى

وقد قال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم «كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه جبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال فمن أول إجازة يعنى على الصراط ؟ قال قراء المهاجرين ، قال اليهودى لما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال زيادة كبد الحوت ، قال لما غداؤم على أثرها ؟ قال ينحرفهم نور الجنة الذى كان يأكل فى أطرافها . قال لما شربهم عليه ؟ قال من عين فيها تسمى سلسيلا . فقال صدقت (١) » وقال زيد بن أرقم «جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا أبا القاسم ألتت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون وقال لأصحابه إن أقر لى بها خصمته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى والذى نفسى بيده إن أحدهم يعطى قوة مائة رجل فى الطعام والشرب والجماع ، فقال اليهودى فان الذى يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتهم عرق فيض من جلودهم مثل السك فاذا البطن قد ضمير (٢) » وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشبهه فيخرب بين يديك مشويا (٣) » وقال حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فى الجنة طيرا أمثال البخانى . قال أبو بكر رضى الله عنه إنها لناعمة يارسول الله . قال أنم منها من يأكلها وأنت بمن يأكلها ياأبا بكر (٤) » وقال عبدالله بن عمر فى قوله تعالى - يطاق عليهم بصحاف - قال يطاق عليهم سبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس فى الأخرى مثله . وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه - ومزاجه من تسنيم - قال يمزج لأصحاب اليمين ويشربه القربون صرفا . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : فى قوله تعالى - ختامه مسك - قال هو شراب أبيض مثل الفضة يخنمون به آخر شراهم لوأن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذوروح إلا وجد ريح طيبها .

(صفة الحور العين والولدان)

قد تكرر فى القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه، روى أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «غدوة فى سبيل الله أروحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحكم أوموضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ولوأن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضأت وملأت ما بينهما رائحة ولصيفها على رأسها خير من الدنيا بما فيها (٥) » يعنى الحمار وقال (١) حديث ثوبان جاء جبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال فمن أول الناس إجازة يعنى على الصراط فقال قراء المهاجرين قال اليهودى لما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال زيادة كبد النون الحديث رواه مسلم بزيادة فى أوله وآخره (٢) حديث زيد بن أرقم جاء رجل من اليهود فقال ياأبا القاسم ألتت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون الحديث وفيه حاجتهم عرق فيض من جلودهم مثل للسك النسائى فى الكبرى باسناد صحيح (٣) حديث ابن مسعود إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشبهه فيخرب بين يديك مشويا البزار باسناد فيه ضعف (٤) حديث حذيفة إن فى الجنة طيرا أمثال البخانى الحديث غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس باسناد صحيح إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى فى شجر الجنة قال أبو بكر يارسول الله إن هذه الطير لناعمة قال أكلتها أنم منها قالها ثلاثا وإنى أرجو أن تكون بمن يأكل منها وهو عند الترمذى من وجه آخر ذكر فيه نهر السكوثر وقال فيه طير أعناقها كأعناق الجزر قال عمر : إن هذه لناعمة الحديث وليس فيه ذكر لأبي بكر وقال حسن (٥) حديث غدوة فى سبيل الله أروحة خير من الدنيا وما فيها الحديث البخارى من حديث أنس .

التمييز وليس فى هذا الكلام وأمثاله ما ينافى ما ذكرناه . قيل لمحمد ابن الفضل حاجة العارفين إلى ماذا قال حاجتهم إلى الحصلة التى كملت بها الحسن كلها الأوهى الاستقامة وكل من كان أنم معرفة كان أم استقامة فاستقامة أرباب النهاية على التمام والعبادى الاستعداد مأخوذ فى الأعمال محبوب بها

أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - كأنهن الياقوت والمرجان - قال ينظر إلى وجهها في خدرها أصنى من الرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها لنضى مابين الشرق والغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك (١) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى اليبسخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر فقلن السلام عليك يا رسول الله فقلت يا جبريل ماهذا النداء قال هؤلاء المقصورات في الخيام استأذنن ربهن في السلام عليك فأذن لهن فطفقن يقانن عن الراضيات فلانسخط أبدا ونحن الخالدات فلانظمن أبدا ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - حور مقصورات في الخيام - (٢) وقال مجاهد في قوله تعالى - وأزواج مطهرة - قال من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمني والولد . وقال الأوزاعي - في شغل ما كرون - قال شغلهم افتضاض الأبكار . وقال رجل يارسل الله «أبياض أهل الجنة؟ قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم» (٣) وقال عبد الله بن عمر إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسمى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهم مقدار عمره في الدنيا» (٤) وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها وإن فيها المجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقانن نحن الخالدات فلانبيدون نحن الناعمت فلانبأس ونحن الراضيات فلانسخط فطوبى لمن كان لنا وكننا له» (٥) وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أبي سعيد الخدرى في قوله تعالى - كأنهن الياقوت والمرجان - قال تنظر إلى وجهها في خدرها أصنى من الرآة الحديث أبو يعلى من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية أبي الهيثم عن النبي ﷺ مرسلًا دون ذكر أبي سعيد وللترمذى من حديث ابن مسعود إن الرآة من نساء أهل الجنة ليرى يباض مخ ساقها من وراء سبعين حلة الحديث ورواه عنه موقوفًا قال وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم (٢) حديث أنس لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر الحديث وفيه أن جبريل قال هؤلاء المقصورات في الخيام وفيه فطفقن يقانن نحن الراضيات فلانسخط لم أجده هكذا بتمامه وللترمذى من حديث على بن إن في الجنة مجتمع للحور العين يرفعن أصواتا لم تسمع الخلائق مثلها يقانن نحن الخالدات فلانبيدون نحن الناعمت فلانبأس ونحن الراضيات فلانسخط فطوبى لمن كان لنا وكننا له وقال غريب ولأبي الشيخ في كتاب العظمة حديث ابن أبي أوفى بسند ضعيف فيجتمعن في كل سبعة أيام فيقانن بأصوات الحديث (٣) حديث قال رجل يارسل الله أبياض أهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم الترمذى وصححه وابن حبان من حديث أنس يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع قليل أو يطيق ذلك قال يعطى قوة مائة (٤) حديث إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحد منهم مقدار عمره في الدنيا أبو الشيخ في طبقات المحدثين وفي كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى إلا أنه قال مائة حوراء ولم يذكر فيه عناقه لهن وإسناده ضعيف وتقدم قبله بحديث (٥) حديث إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء الحديث الترمذى فرقه في موضعين من حديث على وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين .

عن الأحوال وفي التوسط محفوظ بالأحوال فقد يحجب عن الأعمال وفي الإتهام لا تحجبه الأعمال عن الأحوال ولا الأحوال عن الأعمال وذلك هو الفضل العظيم . سئل الجنيد عن النهاية فقال هي الرجوع إلى البداية وقد فسر بعضهم قول الجنيد فقال معناه أنه كان في ابتداء أمره في جهل ثم وصل إلى

« إن الحور في الجنة يتغنين نحن الحور الحسان خبتنا لأزواج كرام (١) » وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى - في روضة يجبرون - قال السماع في الجنة وقال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثقتان من الحور العين بنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتهدية (٢) » .

(بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار)

روى أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « ألا هل مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلأأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وفاكة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة في حبرة ونعمة في مقام أبدا ونضرة في دار طالية بية سليمة قالوا نحن المشمرون لها يا رسول الله قال قولوا إن شاء الله تعالى ثم ذكر الجهاد وحض عليه (٣) » وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال هل في الجنة خيل فأنها تعجبي؟ قال إن أحببت ذلك أتيت فرس من ياقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت له وقال رجل : إن الأبل تعجبي فهل في الجنة من إبل؟ قال يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما شئت تسك ولدت عيناك (٤) » وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي يكون حمله وفضاله وشبابه في ساعة واحدة (٥) » وقال رسول الله ﷺ « إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الاخوان إلى الاخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتهان ويتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا فيقول يا أخى تذكر يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عز وجل فقفرنا (٦) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة جرد مرد يبيض جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين طي خلق آدم طولهم ستون ذراعا في عرض سبعة أذرع (٧) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم

للمرفة ثم زد إلى التحير والجهل وهو كالطفولية يكون جهل ثم علم ثم جهل قال الله تعالى - لكيلا يعلم بعد علم شيئا - وقال بعضهم: أعرف الخلق بالله أشد ثم تحميرا فيه ويجوز أن يكون معنى ذلك ما ذكرناه أنه ينادى الأعمال ثم يرقى إلى الأحوال ثم يجمع له بين الأعمال والأحوال وهذا يكون لمنتهى

(١) حديث أنس إن الحور في الجنة يتغنين فيقلن نحن الحور الحسان خبتنا لأزواج كرام الطبراني في الأوسط وفيه الحسن بن داود للنسكدي قال البخاري يتكلمون فيه وقال ابن عدى أرجو أنه لا بأس به (٢) حديث أبي أمامة مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثقتان من الحور العين بنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتهدية الطبراني باسناد حسن (٣) حديث أسامة بن زيد لأهل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها الحديث ابن ماجه وابن حبان (٤) حديث جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له هل في الجنة خيل فأنها تعجبي الحديث الترمذي من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه السمودي مختلف فيه ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ الصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مر سلا قال الترمذي وهذا أصح وقد ذكر أبو موسى اللديني عبد الرحمن بن سابط في ذيله طي ابن منده في الصحابة ولا يصح له حجة (٥) حديث أبي سعيد إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي ويكون حمله وفضاله ونشأته في ساعة واحدة ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب قال وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم في الجنة جماع ولا يكون ولد انتهى ولأحمد من حديث لأبي رزين يلد ويلم مثل لدا تمك في الدنيا وتلدن بكم غير أن لا تواله (٦) حديث إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الاخوان إلى الاخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن بن أنس وقال لانطه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الاسناد تفرد به أنس انتهى والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مر سلا دون ذكر أنس (٧) حديث أهل الجنة جرد مرد يبيض جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين الحديث الترمذي من حديث معاذ وحسنه دون قوله يبيض جماد ودون قوله طي خلق آدم إلى آخره

وثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كابين الجماية إلى صنعاء وإن عليهم التيجان وإن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين الشرق والغرب (١) وقال صلى الله عليه وسلم «نظرت إلى الجنة فإذا الرمان من رمانها تكلف البعير القتب وإذا طيرها كالبعث وإذا فيها جارية يا جارية لمن أنت؟ قالت لزيد بن حارثة وإذا في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (٢)» وقال كعب: خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده وكتب التوراة بيده وغرس الجنة بيده ثم قال لها تكلمي فقالت - قد أفلح المؤمنون - فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم قلنا تفصيلا، وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملتها فقال: إن رمانها مثل الدلاء وإن أنهارها لمن ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنهار من خمر لينة للشاربين لا تسفه الأحلام ولا تصدع منها الرءوس وإن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثين في سن واحد طولهم ستون ذراعا في السماء كل جرد ممد قد آمنوا العذاب وطأنت بهم الدار وإن أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزبرجد وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ وثمارها لا يعلم علمها إلا الله تعالى وإن ربها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة وإن لهم فيها خيلا وإبلًا هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها وأزواجهم المحور العين كأنهن بيض مكنون وإن للراة تأخذ بين أصبعيها سبعين حبة قلبها فيرى منح ساقها من وراء تلك السبعين حبة قد طهر الله الأخلاق من السوء والأجساد من اللوث لا يمتخطون فيها ولا يبولون ولا يتغوطون وإنما هو جشاء ورشح مسك لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا أما إنه ليس ليل يكر الغدو على الرواح والرواح على الغدو وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمده في بصره وملكه مسيرة مائة عام في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ ويضع له في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه يضيء عليهم بسبعين ألف صحيفة من ذهب وبراغ عليهم بمثابة في كل صحيفة لون ليس في الأخرى مثله ومجد طم آخره كما مجد طم أوله وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب. وقال مجاهد: إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه وأرضهم التي ينظر إلى ربه بالعداة والشئ. وقال سعيد بن المسيب: ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن في الجنة حوراء يقال لها الصياد إذا مشيت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهي تقول أين الأمر بالمعروف والناهون عن المنكر. وقال يحيى بن معاذ: ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد من ترك الدنيا مهران الآخرة، وقال أيضا في طلب الدنيا ذل النفوس وفي طلب الآخرة عز النفوس فيا هجبا لمن يختار الذلة في طلب ما يفنى ويترك العز في طلب ما يبقى.

(صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى)

قال الله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - وهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى وهي اللذة

ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا أهل الجنة جرد مرد كل وقال غريب وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة على صورة أبيهم آدم نعتون ذراعا (١) حديث أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم الحديث الترمذي من حديث أبي سعيد منقطع من أوله إلى قوله وإن عليهم التيجان ومن هنا باسناده أيضا وقال لانرفه إلا من حديث رعد بن سعد (٢) حديث نظرت إلى الجنة فإذا الرمان من رمانها كجد البعير للقتب وإذا طيرها كالبعث وإذا فيها جارية يا جارية لمن أنت؟ قالت لزيد بن حارثة وإذا في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (٣) الحديث عن أبي سعيد وأبو هريرة اسمه عمارة بن حريث ضعيف جدا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يقول الله أعدت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

المراد الأخذ في طريق
المحبوبين تجنب
روحه إلى الحضرة
الالهية وتتبع
القلب والقلب يتبع
النفوس والنفوس تتبع
القلب فيكون بكنيته
قائمًا بالله ساجدا
بين يدي الله تعالى
كما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
«سجد لك سواي
وخيالي» وقال الله تعالى
- وفيه يسجد من في

الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة وقد ذكرنا حقيقتها في كتاب الهبة وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقد أهل البدعة قال جرير بن عبد الله البجلي « كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ - وصبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها - (١) » وهو مخرج في الصحيحين وروى مسلم في الصحيح عن صيب قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه قالوا ما هذا الموعد ؟ ألم يتقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويخبرنا من النار قال فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إليه (٢) » وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة وهذه هي غاية الحسنى ونهاية التعمى وكل ما فضلناه من التعم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى بل لانبية لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء ، وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فضلناه في كتاب الهبة والشوق والرضا فلا ينبغي أن تكون همه البعد من الجنة بشيء سوى لقاء الولي . وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه البهيمة للسرعة في للرعى .

(نغم الكتاب يباب في سنة رحمة الله تعالى على سبيل التفاضل بذلك)

قد « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الغالب (٣) » وليس لنا من الأعمال ما نرجو به للنفرة فنقتدى برسول الله ﷺ في التفاضل ونرجو أن نغم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى فقد قال الله تعالى - إن الله لا يفر أن يشرك به ويفر ما دون ذلك لمن يشاء - وقال تعالى - قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله بغفر الذنوب جيما إنه هو الغفور الرحيم - وقال تعالى - ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما - ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم أو ظنى به القلم في كتابنا هذا وفي ما تركت بنا ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا ونستغفره مما ادعينا وأظهرناه من العلم والبصيرة بدین الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ونستغفره من كل وعد وعدهاه به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته ونستغفره من كل تصريح وتعمير بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ونستغفره من كل خطرة دعنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ، ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمنفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا

(١) حديث جرير : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال إنكم ترون ربكم الحديث هو في الصحيحين كما ذكر المصنف (٢) حديث صيب في قوله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - رواه مسلم كما ذكره المصنف .

(باب في سنة الرحمة)

(٣) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الغالب متفق عليه من حديث أنس في أثناء حديث : وصيبي الغالب الصالح والكلمة الحسنة ولهما من حديث أبي هريرة : وخيرها الغالب قالوا وما الغالب ؟ قال الكلمة الصالحة يسمها أحدكم .

السموات والأرض
طوعا وكرها وظلالهم
بالصدو والآصال -
والظلال القلوب تسجد
بوجود الأرواح وعند
ذلك تسرى روح الهبة
في جميع أجزائهم
وأبصارهم فيتلذذون
ويتعممون بذكر
الله تعالى وتلاوة
كلامه عجة وودا
فيحجم الله تعالى

فان الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلاق فائض ونحن خلق من خالق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه فقد قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطيور والبهائم والحوام فيها تعاطفون وبها يترحمون وأخرتسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (١)» وروى أنه «إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلاً أهل الجنة (٢)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أشيروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا (٣)» وقال النبي ﷺ «يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف (٤)» وقال ﷺ «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم؟ فيقولون رجونا عقوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتي (٥)» وقال رسول الله ﷺ «يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام (٦)» وقال رسول الله ﷺ «إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر بإخراجهم من النار من أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا ثم قرأ رسول الله ﷺ «ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين (٧)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها (٨)» وقال جابر بن عبد الله

(١) حديث إن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان (٢) حديث إذا كان يوم القيامة أخرج الله كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي لفظ البخاري وقال مسلم كتب في كتابه على نفسه إن رحمتي تغلب غضبي (٣) حديث يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أشيروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار ولأبي داود أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة الحديث وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبي موسى أيضا يتجلى الله ربنا لنا ضاحكا يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجدا فيقول ارضعوا رءوسكم فليس هذا يوم عبادة وفيه على بن زيد ابن جلدان (٤) حديث يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف الطبراني من حديث أنس باسناد ضعيف (٥) حديث إن الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم الحديث أحمد والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف (٦) حديث يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام الترمذي من حديث أنس وقال حسن غريب (٧) حديث إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معاصي النار الحديث في إخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله ﷺ - ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين - النسائي في الكبرى من حديث جابر نحوه باسناد صحيح (٨) حديث لله أرحم بعبده للمؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفي أوله قصة المرأة من السبي إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته فألصقته بيطنها فأرضته .

ويعجبهم إلى خلقه
نعمة منه عليهم وفضلا
على ما أخبرنا شيخنا
ضياء الدين أبو النجيب
السهروردي رحمه الله
قال أنا أبو طالب
الزيني قال أخبرتنا
صكرية المدروزية
قالت أنا أبو الهيثم
الكشميهني قال أنا
عبد الله الفريرى قال
أنا أبو عبد الله البخارى

من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام يا موسى استغاث بك فارون فلم تفته وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأعنته وعفوت عنه وقال سعد بن بلال : يؤمى يوم القيامة باخراج رجلين من النار فيقول الله تبارك وتعالى ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ويأمر بردهما إلى النار فيعدو أحدهما في سلسله حتى يقتحمها ويتلكأ الآخر فيؤمر بردهما وبسألهما عن فعلهما فيقول الذي عد إلى النار قد حذرت من وبال العصية فلم أكن لأعرض لسخطك ثانية ويقول الذي تلكأ - من ظني بك كان يشمرني أن لاتردني إليها بعد ما أخرجتني منها فيأمر بهما إلى الجنة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة رحمتي^(١)» ويروى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ - وكنتم على شفاخرة من النار فأخذكم منها - فقال الأعرابي والله ما أتدكم منها وهو يريد أن يوقهكم فيها فقال ابن عباس خذوها من غير قبيه وقال الصنابحي دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكت فقال مهلا لم تبكي؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدثكموه إلا حديثا واحدا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحبط بنفسى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار^(٢)» وقال عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله ﷺ «إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مد البصر ثم يقول أتسکر من هذا شيئا أظلمت كنبتي الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول إنك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال فطاشت السجلات وتقلت البطاقة فلا يشقل مع اسم الله شيء^(٣)» وقال رسول الله ﷺ في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراف إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به فن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحد ممن أمرتنا به فكان أبو سعيد يقول إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما -

(١) حديث ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد غفرت له لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتي رويناه في سباعات أبي الأسعد القشيري من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخي قال الخطيب ليس بثقة (٢) حديث الصنابحي عن عبادة بن الصامت من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرمه الله على النار مسلم من هذا الوجه واتفقا عليه من غير رواية الصنابحي بلفظ آخر (٣) حديث عبد الله بن عمرو إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا فذكر حديث البطاقة ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب .

قال حدثني إسحاق قال حدثنا عبد الصمد قال حدثنا عبد الرحمن ابن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله

قال فيقول الله تعالى شفعت للانسكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقبهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كأنهم الحبة في حميل السيل الأرونها تكون مما يلي الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر وما يكون منها إلى الظل أبيض قالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملهم ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة ثم أرايتم فهل لكم فية ولون ربنا أعطيتنا ما لم نعط أحدا من العالمين فيقول الله تعالى إن لكم عندي ما هو أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدا^(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما وروى البخاري أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال عرضت على الأمم يمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجل والنبي ليس معه أحد والنبي معه الرهط فأريت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمي قليل لي هذا موسى وقومه ثم قيل لي انظر فأريت سوادا كثيرا قد سد الأفق قليل لي انظر هكذا وهكذا فأريت سوادا كثيرا قليل لي هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمننا بالله ورسوله هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هم الذين لا يكتون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله فقال أنت منهم ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم سبقت بها عكاشة^(٢) وعن عمرو بن حزم الأنصاري قال «تقرب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا قلنا يا رسول الله احتسبت عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث قال لم يحدث إلا خير إن ربي عز وجل وعدني أن يدخل من أمي الجنة سبعين ألفا لاحساب عليهم وإني سألت ربي في هذه الثلاثة أيام الزيد فوجدت ربي ماجدا واجدا كريما فأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا قلت يا رب وتبلغ أمي هذا؟ قال أكمل لك العدد من الأعراب^(٣) وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قلت يا جبريل

(١) حديث إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا الحديث في إخراج اللوحدين وقوله تعالى لأهل الجنة: فلا أسخط عليكم بعده أبدا أخرجه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد (٢) حديث ابن عباس عرضت على الأمم يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجل والنبي ليس معه أحد الحديث إلى قوله سبقت بها عكاشة رواه البخاري (٣) حديث عمرو بن حزم الأنصاري تقرب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه إن ربي وعدني أن يدخل من أمي الجنة سبعين ألفا لاحساب عليهم وفيه أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا البيهقي في البعث والنشور والأحمد وأبي يعلى من حديث أبي بكر فزادني مع كل واحد سبعين ألفا وفيه رجل لم يسم ولأحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر فهلا استزدته فقال قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فهلا استزدته قال قد استزدته فأعطاني هكذا وفرج عبد الله بن أبي بكر بين يديه قال عبدالله وبسط باعیه وحش عليه وفيه موسى بن عبيدة الرندي ضعيف .

تعالى إذا أحب عبدا
نادى جبريل إن الله
تعالى قد أحب فلانا
فأحبه فيحبه جبريل
ثم ينادى جبريل
في السماء إن الله قد
أحب فلانا فأحبوه
فيحبه أهل السماء
ويوضع له القبول في

فهرس

- ٢ (ككتاب التوبة)
- ٣ الركن الأول في نفس التوبة الخ
بيان حقيقة التوبة وحدها
- ٤ بيان وجوب التوبة وفضلها
- ٧ بيان أن وجوب التوبة على القور
- ٩ بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال
فلا ينفك عنه أحد البتة
- ١٢ بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة
- ١٥ الركن الثاني فيما عن التوبة وهي القنوب
- ٢٢ بيان أقسام القنوب بالإضافة إلى صفات العبد
- ٢٢ بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على
الحسنات والسيئات في الدنيا
- ٣٢ بيان ما تعظم به الصنائع من القنوب
- ٣٤ الركن الثالث في تمام التوبة الخ
- ٤٣ بيان أقسام الصاد في دوام التوبة
- ٤٦ بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب الخ
- ٤٩ الركن الرابع في دواء التوبة الخ
- ٥٩ (ككتاب الصبر والشكر)
- ٦٠ الشطر الأول في الصبر
- بيان فضيلة الصبر
- ٦١ بيان حقيقة الصبر ومناه
- ٦٥ بيان كون الصبر نصف الإيمان
- بيان الأساس التي تتجدد لقصير الخ
- ٦٦ بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف
- ٦٧ بيان مظان الحاجة إلى الصبر الخ
- ٧٣ بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه
- ٧٨ الشطر الثاني من الكتاب في الشكر
- الركن الأول في نفس الشكر
- بيان فضيلة الشكر
- ٧٩ بيان حد الشكر وحقه
- ٨٣ بيان طريق كشف الظلمة عن الفكر في حق الله تعالى
- ٨٧ بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه
- ٩٦ الركن الثاني من أركان الشكر الخ
- بيان حقيقة النعمة وأقسامها
- ١٠٦ بيان وجه الأعمدج في كثرة نعم الله تعالى وتسللها
وخروجها من الحصر
- ١٠٧ الشطر الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب
الإدراك
- ١٠٨ الشطر الثاني في أصناف النعم في خلق الإيرادات
- ١٠٩ الشطر الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة
وآلاته المحركة
- ١١٣ الشطر الرابع في نعم الله تعالى في الأصول التي
تحصل فيها الأطمعة الخ
- ١١٥ الشطر الخامس في نعم الله تعالى في الأسباب
الموصلة للأطمعة إليك
- ١١٦ الشطر السادس في إصلاح الأطمعة
- الشطر السابع في إصلاح المصلحين
- ١١٧ الشطر الثامن في بيان نصرة الله تعالى في خلق
الملائكة عليهم السلام
- ١٢٠ بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر
- ١٢٤ الركن الثالث من كتاب الصبر
- بيان وجه اجتراح الصبر والشكر على شيء واحد
- ١٣١ بيان فضل النصرة على البلاء
- ١٣٢ بيان الأفضل من الصبر والشكر
- ١٣٨ (ككتاب الخوف والرجاء)
- ويشتمل على شطرين أما الشطر الأول فيشتمل على
- بيان حقيقة الرجاء الخ
- ١٣٩ بيان حقيقة الرجاء
- ١٤١ بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه
- ١٤٢ بيان دواء الرجاء والسبيل القوي يحصل منه حال
الرجاء ويغلب
- ١٥٢ الشطر الثاني من الكتاب في الخوف
- بيان حقيقة الخوف
- ١٥٤ بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف
- ١٥٥ بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه
- ١٥٧ بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه
- ١٦١ بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء
أو اعتدالهما
- ١٦٤ بيان القوي به يستجلب حال الخوف
- ١٧٠ بيان معنى سوء الخاتمة
- ١٧٧ بيان أحوال الأبيياء والملائكة عليهم الصلاة
والسلام في الخوف
- ١٨٠ بيان أحوال الصعابة والتأبين والسلف والمالحين
في شدة الخوف
- ١٨٥ (ككتاب الفقر والزهد)
- الشطر الأول من الكتاب في الفقر
- ١٨٦ بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأقسامه
- ١٨٩ بيان فضيلة الفقر مطلقا
- ١٩٥ بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراسخين والفاقيين
والصادقين
- ١٩٦ بيان فضيلة التقوى على التقى
- ٢٠١ بيان آداب الفقير في فقره
- ٢٠٢ بيان آداب الفقير في قبول العطاء الخ
- ٢٠٥ بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير
الضطر فيه
- ٢٠٩ بيان مقنن التقى المحرم للسؤال

ملح

ملح

- ٢١٠ بيان أحوال السالكين
 ٢١١ الشطر الثاني من الكتاب في الزهد
 بيان حقيقة الزهد
 ٢١٤ بيان فضيلة الزهد
 ٢٢٠ بيان درجات الزهد وأقسامه الخ
 ٢٢٤ بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة
 ٢٢٦ بيان علامات الزهد
 ٢٢٨ (كتاب التوحيد والتوكل)
 بيان فضيلة التوكل
 ٢٤٠ بيان حقيقة التوحيد القوي هو أصل التوكل وهو الشطر الأول من الكتاب
 ٢٥٣ الشطر الثاني من الكتاب في أحوال التوكل وأعماله وفيه بيان حال التوكل الخ
 بيان حال التوكل
 ٢٥٧ بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل
 ٢٥٨ بيان أعمال التوكلين
 ٢٦٥ بيان توكل العليل
 ٢٦٨ بيان أحوال التوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال
 ٢٧٤ بيان آداب التوكلين إذا سرق متاعهم
 ٢٧٩ بيان أن ترك التداوي قد يحمي في بعض الأحوال ويبدل على قوة التوكل الخ
 ٢٨٣ بيان الرد على من قال ترك التداوي أفضل بكل حال
 ٢٨٥ بيان أحوال التوكلين في إظهار المرض وكنائه
 ٢٨٦ (كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا)
 بيان شواهد الشروع في حب المبدقة تعالى
 ٢٨٨ بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة المبدقة تعالى
 ٢٩٣ بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده
 ٢٩٩ بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى الخ
 ٣٠٣ بيان السبب في زيادة النظر لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا
 ٣٠٧ بيان الأسباب القوية لحب الله تعالى
 ٣١١ بيان السبب في تفاوت الناس في الحب
 ٣١٢ بيان السبب في قصور أفهام المخلق عن معرفة الله سبحانه وتعالى
 ٣١٤ بيان معنى الشوق إلى الله تعالى
 ٣١٨ بيان محبة الله تعالى للمبدق ومعناها
 ٣٢٠ القول في علامات محبة المبدقة تعالى
 ٣٢٩ بيان معنى الأنس بالله تعالى
 ٣٣١ بيان معنى الانبساط والإدلال الذي يشهده خلق الأنس
 ٣٣٣ القول في معنى الرضا بقضاء الله الخ
 ٣٣٤ بيان فضيلة الرضا
 ٣٣٧ بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى
 ٣٤١ بيان أن الدعاء غير منافس للرضا

- ٣٤٤ بيان أن الترار من البلاد التي هي مطلق للناس ومنبتها لا يقدح في الرضا
 ٣٤٥ بيان جهة من حكايات المحيين وأقوالهم ومكاشفتهم
 ٣٤٩ خامسة الكتاب بكلمات متفرقة تطلق بالمحنة ينتفع بها
 ٣٥٠ (كتاب الثبة والإخلاص والصدق)
 ٣٥١ الباب الأول في الثبة
 بيان فضيلة الثبة
 ٣٥٣ بيان حقيقة الثبة
 ٣٥٥ بيان سر قول صل الله عليه وسلم : به التؤم خير من عمله
 ٣٥٧ بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالثبة
 ٣٦٢ بيان أن الثبة غير داخلة تحت الاختيار
 ٣٦٤ الباب الثاني في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته
 فضيلة الإخلاص
 ٣٦٧ بيان حقيقة الإخلاص
 ٣٦٩ بيان أول الفيوخ في الإخلاص
 ٣٧٠ بيان درجات الفوائب والآفات الكندرة للإخلاص
 ٣٧٢ بيان حكم العمل للشوب واستحقاق الثواب به
 ٣٧٤ الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته ودرجاته . فضيلة الصدق
 ٣٧٥ بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه
 ٣٨١ (كتاب المراقبة والمحاسبة)
 المقام الأول من المراقبة الشارطة
 ٣٨٤ المراقبة الثانية المراقبة
 ٣٨٥ بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها
 ٣٩١ المراقبة الثالثة محاسبة النفس الخ
 فضيلة المحاسبة
 ٣٩٢ بيان حقيقة المحاسبة بمد العمل
 ٣٩٣ المراقبة الرابعة في مبالغة النفس على تصغيرها
 ٣٩٥ المراقبة الخامسة المجاهدة
 ٤٠٣ المراقبة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها
 ٤٠٩ (كتاب التفكير)
 فضيلة التفكير
 ٤١٢ بيان حقيقة التفكير وثمرته
 ٤١٣ بيان مجازي التفكير
 ٤٢٠ بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى
 ٤٣٣ (كتاب ذكر الموت وما بعده)
 الشطر الأول في مقدّماته وتوابعه الخ
 ٤٣٤ الباب الأول في ذكر الموت الخ
 بيان فضل ذكر الموت كيفما كان
 ٤٣٦ بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب
 ٤٣٧ الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل وسبب طول وكيفية معالجته

صفحة	موضوع
٤٨٦	بيان سؤال منكر ونكير وصورتها ونقطة القبر
	وجبة القول في عذاب القبر
٤٨٨	الباب الثامن في معرفة من أحوال الموتى بالكاشفة والناس
٤٩٠	بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة
٤٩١	بيان منامات الشايخ رحمة الله عليهم أجمعين
٤٩٤	الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستمرار في الجنة أو النار وتفصيل ما بين يديه من الأحوال والأخطار وفيه بيان نفخة الصور الخ . صفة نفخة الصور
٤٩٦	صفة أرض المحض وأهلها
٤٩٧	صفة العرق
٤٩٨	صفة طول يوم القيامة
٤٩٩	صفة يوم القيامة ودوامه وأساخه
٥٠١	صفة المساءة
٥٠٣	صفة الميزان
٥٠٤	صفة الخصاء ورد الظالم
٥٠٧	صفة الصراط
٥٠٩	صفة الشفاعة
٥١٢	صفة الخوض
٥١٤	القول في صفة جهنم وأهلها وأنكلماتها
٥١٩	القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها
٥٢٢	صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها
٥٢٣	صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسرورهم وأرائكهم وخيامهم
	صفة طعام أهل الجنة
٥٣٤	صفة الحور العين والودان
٥٢٦	بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردتها بها الأخبار
٥٢٧	صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى . تختم الكتاب بباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك
٥٢٨	باب في سعة رحمة الله تعالى

صفحة	موضوع
	فضيلة لصر الأمل
٤٤١	بيان السبب في طول الأمل وعلاجه
٤٤٧	بيان مراتب الناس في طول الأمل والصره
٤٤٣	بيان للمبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير
٤٤٥	الباب الثالث في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده
٤٥٠	بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت
٤٥١	بيان المسرة عند لقاء ملك الموت بمكايات يهرب لسان الحال عنها
٤٥٣	الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمخلفاء الراشدين من بعده
	وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٦٠	وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه
٤٦٢	وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
٤٦٣	وفاة عثمان رضي الله تعالى عنه
٤٦٤	وفاة علي كرم الله وجهه
	الباب الخامس في كلام والمحتضرين من المخلفاء والأصحاب والصالحين
٤٦٥	بيان أقوال جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين
٤٦٨	الباب السادس في أقوال المارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور
٤٦٩	بيان حال القبر وأقوالهم عند القبور
٤٧٣	بيان أقوالهم عند موت الولد
	بيان زيارة القبور والدعاء للميت الخ
٤٧٧	الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور
	بيان حقيقة الموت
٤٨٧	بيان كلام القبر للميت وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال
٤٨٣	بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير

فهرس

بقية عوارف المعارف للسهروردي الذي بالهامش

صفحة	صفحة
٢٥٢	٢
الباب السابع والخمسون في معرفة الخواطر وتخصيها وتميزها	الباب التاسع والأربعون في استقبال التهار والأدب فيه والعمل
٢٨١	٣٧
الباب الثامن والخمسون في شرح الحمال والمقام والفرق بينهما	الباب الخمسون في ذكر المصل في جميع التهار وتوزيع الأوقات
٢٩٨	٧٨
الباب التاسع والخمسون في الإشارات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز	الباب الحادي والخمسون في آداب المرید مع الشيخ
٣٣٥	١١٧
الباب الستون في ذكر إشارات المشايخ في المقامات على الترتيب	الباب الثاني والخمسون في آداب الشيخ وما يتبعه مع الأصحاب والتلامذة
٣٨٣	١٣٨
الباب الحادي والستون في ذكر الأحوال وشرحها	الباب الثالث والخمسون في حقيقة الصعبة وما فيها من الخير والشر
٤٤٩	١٦٥
الباب الثاني والستون في شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال في اصطلاح الصوفية	الباب الرابع والخمسون في أداء حقوق الصعبة والأخوة في الله تعالى
٤٧٥	١٨٠
الباب الثالث والستون في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها	الباب الخامس والخمسون في آداب الصعبة والأخوة
	١٩٧
	الباب السادس والخمسون في معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

بمجد الله تعالى تم طبع كتاب [إحياء علوم الدين] لجنة الإسلام الإمام الفزالي ، وصح كتاب [الكافي عن حل الأسفار والأسفار في تخرج ما في الإحياء من الأخبار] لحافظ الإسلام زين الدين العراقي .

وبهاشيه ثلاثة كتب :

الأول : تعريف الأحياء بفضل الإحياء للشيخ عبد القادر الميروس باعلوى .

الثاني : الإملاء عن إشكالات الإحياء تصنيف الإمام الفزالي .

الثالث : عوارف المعارف للإمام السهروردي .